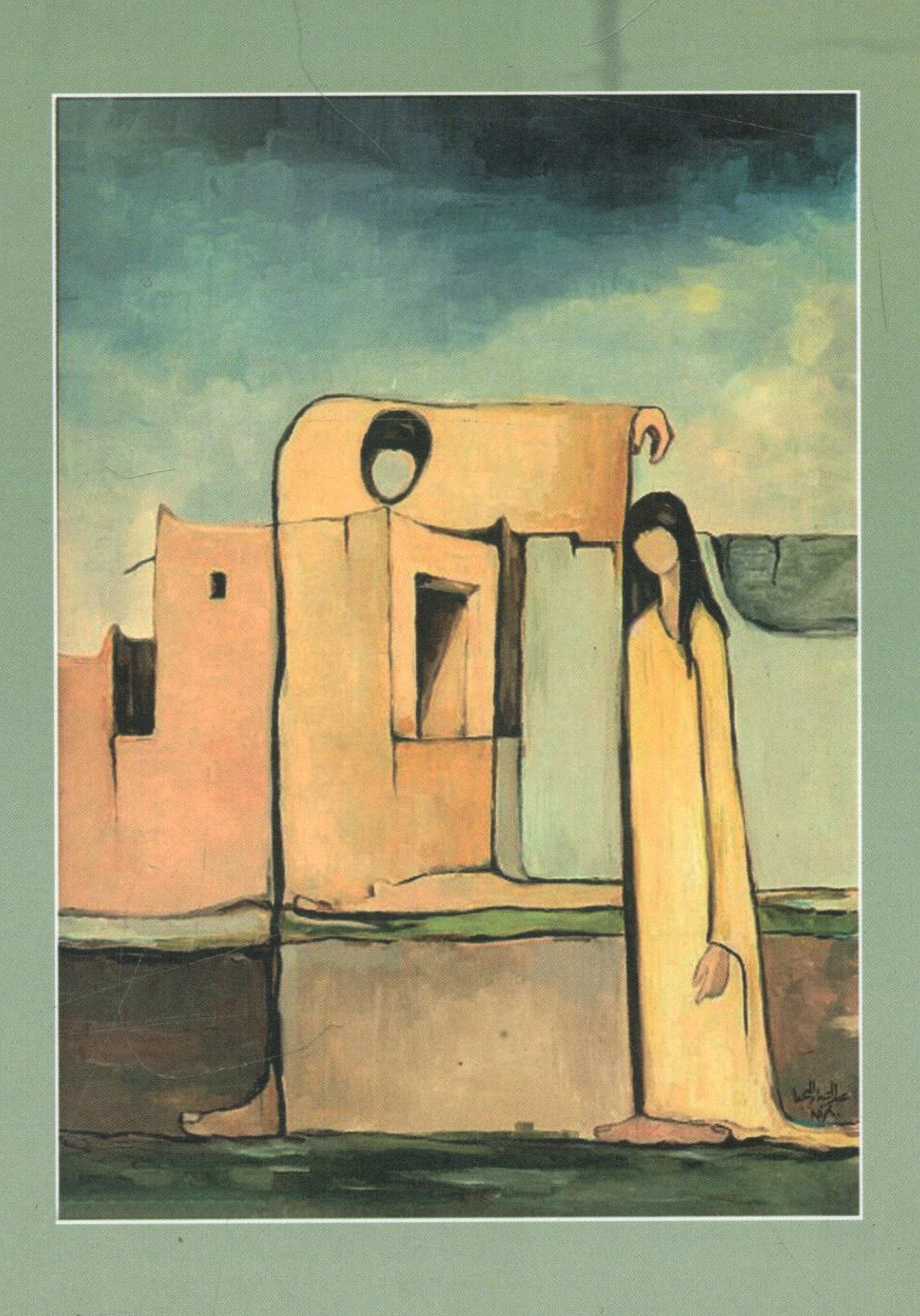
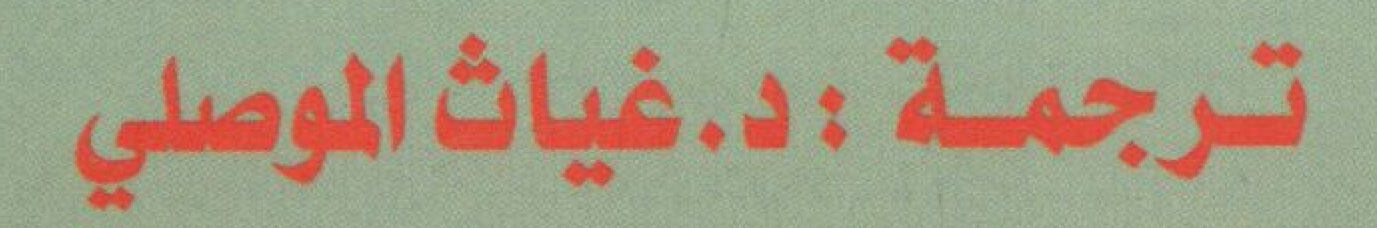
روايات عالمية

بتر كريشتوفك

بيت الأصم





ترجمة: د. غياث الموصلي



بَيتُ الأَصَمْ

الكتاب: بيت الأصم

تأليف: بتر كريشتوفك

ترجمة: د. غياث الموصلي

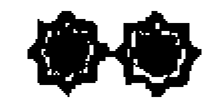
الطبعة الأولى: 11/ 2016

يتضمن هذا الكتاب الترجمة الكاملة للنص السلوفاكي:

dom hluchého

by: Peter Krištúfek

ISBN: 978 – 9933 –477-83-7



تم تنفيذ التنضيد والإخراج الضوئي في القسم الفني بدار الحوار

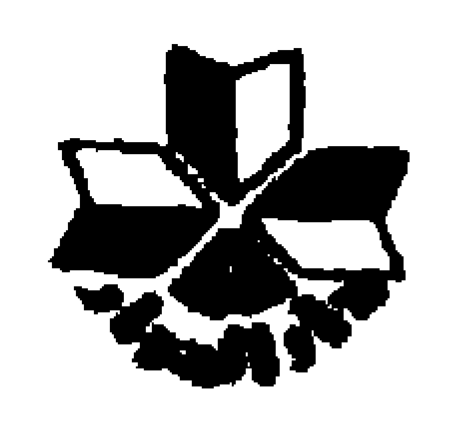
دار الحوار للنشر والتوزيع www.daralhiwar.com

سورية- اللاذقية - ص. ب 1018

هاتف وفاكس: 33 422 41 963+

البريد الإلكتروني daralhiwar@gmail.com

info@daralhiwar.com



تمت طباعة هذا الكتاب بدعم من لجنة سلوليا، مركز معلومات الأدب في براتيسلافا، سلوفاكيا

This Book has received a subsidy from SLOLIA Committee, the Center for Information on Literature in Bratislava, Slovakia

بتر كريشتوفك

بيت الأصمْ

ترجمة: د. غياث الموصلي

دار الحوار

ضحكت حين سمعت كيف تئز الروح المضغوطة
بكبسة المطر حول الضوء المنتشر من البيت دون أن تعرف الباب
الذي دخلتُ منه

(ألويس برتراند: ليلة كاشبار)

بيوت الأرجل المُتعبة فيها أكبر عدد من الدرجات
بيوت الأيادي المشلولة تفتقر إلى الدرابزونات
بيوت الموت تحتلُ طوابقها الأرضية الحانات

(فلاديمير هولان)

الأماكن لا وجود لها
كل حاجة تحملُ مكانها معها

(فرانسوا ليوتار)

الفرق بين الحاضر والماضي يتمثل في أن الإحساس بالحاضر
يحمل في داخله معرفة الماضي إلى تلك الدرجة ، وبتلك الطريقة
التي لا يُمكن للماضي فيها معرفة ذاته.

(توماس ستيارنس إليوت)

تمهيد

هذه الرواية لم تحدث، ولكن بإمكانها أن تحدث.

ومع ذلك هناك حكايتان حقيقيتان في البداية.

تاريخ العائلة شيء مميز ولاسيما حين يتعرف الإنسان إلى الناس الذين عاشوا هنا قبله، ويكتشفُ أشياء تتعلق فيه شخصياً كما يُميز وجوههم من الصور الفوتوغرافية، ويكتشف أيضاً طرق تفكيرهم وتصرفاتهم التي هي في الأصل خصائصه.

مستني إحدى تلك الحكايات شخصياً بطريقة لا تلفتُ النظر في عام 1984. كان والد أمي، جدي "فلاديمير كريشكو" أحد طياري النخبة في الجيش. مطارداً متمكناً (كما الأص في أوراق اللعب)، شارك في العديد من المعارك الجوية في أثناء الحرب العالمية الثانية، كما شارك أيضاً في الانتفاضة، وأصبح آمراً لمطار الثوار المنتفضين "تري دوبي" القريب من "زفولن". استمر في الخدمة بعد انتهاء الحرب حيث عمل في وزارة الدفاع، ولكنهم سرّحوه في عام 1952 بشكل غير متوقع وهو برتبة كولونيل — قيل إن السبب هو جدتي التي أصرّت على تعميد مولودها الجديد — عمي — في الكنيسة. وهذا الشيء كان في تلك الفترة من الأشياء التي لا تُحتمل، ولا يُمكن التغاضي عنها. لذا أمضى جدي ما تبقى من حياته في العمل بوصفه عامل مستودع (بلغة أكثر تهذيباً — مسؤول تموين)، كما شغل بعد ذلك وظيفة محاسب في مصلحة غابات الدولة إلى أن فارق العالم في عام 1988. ردوا له الاعتبار في بداية التسعينات، ورفعوه إلى رتبة عقيد. حادثة كلاسيكية يمكن للإنسان أن يتوقع تفاصيلها من الجهة الأولى أو الثانية دون حاجة للبحث أكثر.

وبما أنه قد مضى على الانتفاضة أربعون سنة حتى عام أربعة وثمانين، فقد طُلبَ منا في المدرسة (وظيفة مسائية) السؤال عن الأقارب الذين شاركوا فيها وكتابة موضوع أدبي. جدتي التي عملت مُدرسة، أمرت جدي في الحال بالذهاب إلى غرفة الجلوس في حين قمت بتحضير القلم والورق لتدوين الملاحظات. جلسنا على الأريكة، وبدأت بهذا السؤال استعداداً:

"ما هو عدد الطائرات التي أسقطتها...؟

ارتبك جدي من السؤال وأبقى على صمته، وكأنه لا يعرف ما عليه قوله. عزوتُ ذلك لتواضعه وعدم رغبته في العودة إلى الماضي وتذكر الأحداث القديمة. الوضع أنقذته جدتي التي سحبت بضع قصص نموذجية منتقاة بعناية من الكتب المعاصرة والأفلام. قمت بنسخها في الحال مما أوصلني إلى علامة واحد (ممتاز) في المدرسة إضافة إلى الثناء الذي تلقيته، ومن ثم حاز عملي على رضا الجميع.

وجدتُ في عام 2008، بعد عشرين عاماً من موت جدي في صندوق البريد، بطاقة بريدية بالألوان، أظهرت روعة "الراين" من على متن قارب فاخر في رحلة سياحية، مرسلة إلى عنوان جدتي التي كانت هي الأخرى في العالم الآخر في ذلك الوقت. كتبتْ في الجهة الثانية من البطاقة بعض الجمل بخط غير مقروء، فُهم منها أن الكاتب المُرسل (سلوفاكي الأصل يعمل مضيفاً على متن ذلك القارب الفاخر المُسمى "ريفر سيمفوني")، يهتم بتاريخ الطيارين الحربيين من حقبة الأربعينات، ولديه الرغبة في حيازة بعض الصُور من تلك الفترة — أو من الفترة التي سبقتها – بشرط أن يكون جدي فيها. لم آخذ البطاقة على محمل الجد، حتى إنني نسيتها بعد فترة من أساسها. لكنها ظهرتْ أمامي بعد ذلك في أثناء عملية ترتيب البيت مما حفزني على كتابة الرد عن طيب خاطر. التقينا بعد شهرين على ما أعتقد (حين انتهى البحار من الرحلة) أمام كنيسة فرانتيشكاني في براتيسلافا — ذهبنا بعد ذلك إلى الحانة

القذرة، والمعتمة التي غطت قطع البورسلين جدرانها، والموجودة في مكان ما تحت الأرض حيث شربنا هناك جعة ساخنة مقرفة، قام بعدها بتعريفي بجدي في حُلته الرائعة وللمرة الأولى في الضوء الواضح.

بداية، سحب نسخة مصورة عن ورقة النعي التي أعطته إياها جدتي على ما يبدو، أو أنه حصل عليها بطريقة أخرى – وأنا تعرفت فيها إلى خطي الطفولي... *حبيبنا، الزوج، والأب، والعم (والد الزوجة)*... شعرت بالطبع بالأسى، ولكنني بعد ذلك، وبسبب الدخان الكثيف وصخب السكارى، لم أعد أسمع بشكل جيد.

أنهى جدي في الثلاثينات دراسته في الأكاديمية العسكرية، كان يطير على المطاردات، ولكن شهرته بلغت أوجها في أثناء تأسيس الدولة السلوفاكية. أمضى في عام 1941، – وحين كان برتبة ملازم – عدة شهور في "كاروب – غروف الدانيماركية في "سلوفاكي ستافل/ يادغروب درونتهايم"، حيث تلقى تدريباً على طائرات مسرشميت الألمانية – وهذا يشرح السبب الذي جعلني دائماً أجدُ نقوداً دانيماركية تعود إلى تلك الحقبة في قبو بيتنا، وبوصفه قائد سرب تم نقله إلى الجبهة الشرقية. بعبارات أخرى، إلى روسيا لأنسلوفاكيا وقفت بحزم في صف الإمبراطورية الألمانية الكبرى، وشاركت أيضاً في القتال من أجل أوروبا جديدة. الحقائق المُرة تقول إنه شارك في 156 طلعة قتالية، وأسقط تسع طائرات روسية، ولهذا تمت مكافأته بلقب مطارد eso (الأص في لعبة الورق)، وكان سلوفاكيان غيره برتبة ملازم طيار قد حصلا على اللقب نفسه. أحصى جدي الطائرات التي أسقطها، وكان بحاجة إلى من يشهد على ذلك. فاعترفوا له حقيقة بشكل رسمي بنصف العدد وكانت تلك الطائرات التسع. بعد إحدى المعارك الجوية – تحديداً في الثالث من شباط 1943– عاد إلى "كراسنادار" على طائرة مُثقبة بالتمام من نوع ميسرشميت ب ف –4، تمكن بمعجزة من إبقائها في الجو. وقد حصل بسبب نجاحاته الباهرة في الهجوم على

الاتحاد السوفيتي على وسام "إيسرن كروز" من الدرجة الأولى والثانية إضافة إلى العديد من الأوسمة الصغيرة، وفي النهاية وسامٌ حتى من دولة رومانيا الفاشية يحمل اسماً يثير البهجة في النفس *"فرتوتيا إوروناوتيكا – لا كروا دو أور. (الصليب الذهبي)*

السؤال الذي يطرح نفسه: هل كان بوسعه في عام 1984 أن يقول لحفيده الذي بالكاد بلغ الحادية عشرة من عمره، وعليه كتابة وظيفة للمدرسة، إن الطائرات التي أسقطها لم تكن ألمانية ولكن سوفيتية؟

قاد جدي بعد عودته إلى الوطن، – وكان برتبة ملازم أول – سرب المطاردات الثالث عشر المنقول إلى مطار "فينوري"، وفي وقت متأخر إلى "بيشتاني" حيث تمثلت مهمته في حماية أجواء غرب سلوفاكيا من قذائف الطائرات الأمريكية. وقد نجا بمعجزة في ذلك اليوم الذي تم فيه تدمير السرب بأكمله مع طياريهجميعاً لأنه كان بصدد إجراء فحوص طبية في براتيسلافا. ولو أنه أقلع معهم لما رأت تلك الرواية النور. بالطبع، تمكنَ من إصابة العديد من الطائرات الأمريكية في أثناء المعارك الجوية. فالأمريكان كانوا يقذفون أنفسهم في الجو، وحين يتم القبض عليهم عند وصولهم إلى الأرض – يوضعون في معسكر خاص بالرهائن في "غرينافا" بالقرب من "بزينك"

قَصْ. يظهر على المسرح الآن الرجل الثاني – جدُ والدي، مواطن "بزينك" المحترم "فرانتيشك توما"، مالك المكسّر، إضافة إلى مؤسسة نقل مع الموقف الرائع للسيارات.

قام الألمان بعد اندلاع الانتفاضة السلوفاكية بتحضير أنفسهم لنقل معسكر اعتقال رهائن الحرب في"غرينافا"، وهذا يعني بالضبط أن الطيارين الأمريكان أصبحوا يشكلون عبئاً ثقيلاً عليهم. بعبارة أخرى – تمنوا لهم *سبيتسيال بهاندلوغ*، وهذا يُفسر التعامل معهم بطريقة خاصة مما يعني بصريح العبارة تصفيتهم. قام جدُ والدي "توما" تحت غطاء الليل بوضع تسعة وعشرين طياراً أمريكياً يرتدون بزات عسكرية

سلوفاكية في سيارة نقل (يمكن تسميتها باصاً صغيراً) — مع أسلحتهم الفردية، وعلى ظهرها رشاش جاهز — ونقلهم إلى الأراضي التي يسيطر عليها الثوار (أستشهد: *كانت ليلة صافية، تحركنا دون أضواء...*) وصلوا إلى مطار "تري دوبي" (توجد صورة فوتوغرافيه جيدة من 7 تشرين أول 1944) حيث ستنقلهم من هناك إحدى طائرات الحلفاء إلى القاعدة الأمريكية الموجودة في "باري" الإيطالية.

وصلتْ والدي في بداية التسعينات رسالة رسمية من السفارة الأمريكية، انتهت بالجملة التالية:

اسمحوا لي بالتعبير عن بالغ احترامي للعمل المشرف الذي قام به جدكم المغفور له. سوف تتذكره على الدوام بكثير من الشكر. مع احترامي.

تيودور إي روسل

سفارة الولايات المتحدة الأمريكية.

كان مطار "تري دوبي" في تلك الأثناء من تشرين الثاني عام أربعة وأربعين تحت أمرة جدي، والد أمي، الكابتن "كريشكو" الذي انضم في تلك الفترة إلى الثوار المنتفضين بوصفه طياراً، وحدث ذلك تحديداً في الثلاثين من آب 1944. اهتم بمراقبة الأجواء، والإغارة على مواقع العدو (هذه المرة الألمان)، كما أدار لفترة بسيطة المطار المؤقت في "دونفالي" الذي انتظرتْ فيه طائرة الاتصال الجاهزة لنقل الجنرال "فيستا" والجنرال "غولينا" إلى موسكو. اللذين، وكما هو معروف، أعطيا الأفضلية للجبال، لذا قاما بإحراق الطائرة مع زملائهم عند الانسحاب.

ولكن عودة إلى الطيارين الأمريكان — يمكن القول إن جدي لأمي أسقط شخصياً على الأغلب بعض طائراتهم، وإذا لم يفعلها هو شخصياً فإن ذلك قد حصل بالتأكيد من قبل طياري الكتيبة الثالثة عشرة التي كان آمرها خلال عام 1944 (...وكما هو معروف، لم تمنع تلك الطائرات السلوفاكية المطاردة قصف مصفاة "أبولو" بسبب (الأوامر السرية) التي قضت بتوفير الطائرات للتحضير للانتفاضة السلوفاكية).

في تلك اللحظة عادة يفقد المستمعون الخيط. سوف تتفكك القصة ظاهرياً مثل شراشيب الكنزة القديمة. السبب واضح – فعلى الرغم من المشكلات المختلفة والانقلابات في تطور الأحداث خلال فترة قصيرة إلا أنها تبقى في النهاية قصة شخصين — جدي من طرف والدتي، ووالد جدي من طرف والدي. ولا شيء أكثر.

أشك فيهما إذا كانا قد التقيا. وإذا كانا قد التقيا، فمن المؤكد أنه لم يخطر ببالهما أن شيئاً ما يربطهما.

أنا

بالطبع لم يخطر ببالهما أنهما سيلتقيان في هذه الرواية أو في أية رواية غيرها، وأن أحدهم قام بدمج حكايتهما بهذا الشكل.

وعلى الرغم من أنهما لم يتوقعا ذلك إلا أن لقاءهما أنجبَ *بيت الأصمّ*.

هذا الكتاب لا يُؤرخ حياة عائلتنا، ولم يكن الهدف منه أن يكون كذلك أيضاً.. ففي نهاية الأمر، كل تجربة لتسجيلها تبقى خيالاً مثلها مثل نشر أية مذكرات خاصة يومية حتى تُسَجّل؛ لأن كل إنسان بحاجة إلى تنظيف سجله والبحث عن الأسباب المُقنعة لتصرفاته.

بيت الأصمْ يروي كيف تدخل القرن العشرون الرائع في حياة الناس في سلوفاكيا..

رائع — في كل معايير تلك الكلمة.

بتر كريشتوفك

براتيسلافا، تشرين الأول 2012

مقدمة الرواية

"عندما يريد الإنسان أن يُشيد مسكناً. تتجلى أمامه صورته، ومعها الرغبة في تنفيذه. ولكن هذا لا يكفي كي يقف البيت على قدميه. فالبناء يحتاج إلى حجارة، وقرميد وعوارض... إلى آخره من الأشياء التي تُشكل عالمه الخارجي، وتخضع في الوقت ذاته لقوانينه التي تختلف عن تخيلات تلك الأشياء."

أطل الربيع من خلف نافذة السيارة، وظهرت الأشجار، وكأنها مقروضة من البرد والفراغ. ذاب الثلج هنا منذ عدة أيام فقط. والطبيعة في حلتها السوداء والبيضاء ملأتها الغربان، وطيور الغداف. أحياناً أجد نفسي وكأني مضطر بالصدفة إلى لتمعن بسيارتي الحمراء كي أتأكد من أن العالم لم يغير لونها بمعجزة. فحين تجد الأمور بهذا الشكل — كل شيء يتجه نحو الشحوب. حتى الملابس تشحبُ وتصبح رمادية بعد تكرار غسلها. الرمادي هو ملك الألوان، والمؤشر في الوقت ذاته على موتها.

أوف! إنها فكرة ممتعة حقاً! بوصفي سبعينياً، يبدو لي العالم وكأنه آيلٌ إلى الانقراض، وهذا من المُسلمات — ألست مُحقاً؟

ولكن هذا كلُه بسبب الأخبار التي أسمعها من الراديو في أثناء قيادتي للسيارة. الموسيقى بدأت تزعجني في الآونة الأخيرة أكثر من ذي قبل. إنها تحمل معها كماً كبيراً من العواطف والأحاسيس التي أحاول يائساً الابتعاد عنها. ربما في هذا اليوم بالذات. لأني أتحرك منذ اليوم الذي فرغ فيه بيتنا بعد وفاة والدي بحذر شديد كما التحرك في مجال معبأ بالمواد السامة. إذ يجتاحني على الدوام شعور بالقلق. انطلقت قبل

نصف ساعة من براتيسلافا إلى "بريجاني" التي تبعد ما يقارب الخمسين كيلومتراً. لم أذهب إلى هناك منذ عدة شهور، ولهذا أشعر برغبة في السؤال عن الطريق إلى محطة المحروقات. بسبب هذا الشعور فحسب، نجحت في الوصول إلى هناك وأنا مغمض العينين — تماماً كما في تلك اللعبة حين تحاولون في أثناء حركتكم تحمل السير وأنتم تغمضون عيونكم. أدفعُ الحساب دون كلمة، وأصعد إلى السيارة. حتى إن الشمس ترسل أشعتها للحظة.

أرمي في الهواء قطعة نقد معدنية، كما أفعل دوماً. إنني إنسان متردد، وهذه الطريقة تساعدني منذ سنوات. الرقم، أو الشعار — الرقم هو الذهاب، والشعار هو العودة.

الشعار.

لم يعجبني ذلك. أرمي مرة أخرى.

من جديد، أفكر. لا.

الرمية الأخيرة كان الرقم.

حسناً إذاً، اقتنعت، تابعتُ الطريق.

أتصرف وكأن عندي خياراً آخر. لديّ حقاً خياراً آخر — وهذا مثير للشفقة — لأني سأذهب إلى بيتنا للمرة الأخيرة في حياتي. ولن أكون هناك في المرة القادمة.

"يمكنني في خيالي البدء في بناء البيت من السقف بشكل جيد. ولكنني أعترف أن المعماري على دراية تامة بقوانين قوى الطبيعية. وهل هذا يكفي لبناء بيت؟ ألا يُمكن لآلاف الصور أن تعبر تفكير المعماري قبل أن يجهز مخططه بشكل نهائي؟ أشكال مختلفة تتداخل، ومن ثم ينتج عنها التصور النهائي. أحدها يحصل فجأة على الرضا ويتم التقيد به. الأعصاب التي تقود عملية السير تتلقى الأمر بالتوجه إلى منزل السيد إكس، كما تتلقى خيوط الأعصاب في عضلات اليد أمام البيت أيضاً الأمر بالتحرك والطرق على الباب. صوت الطرق يُحرض – على شكل اهتزازات

هوائية- جهاز سمع الشخص الموجود خلف الباب ، التحريض يوقظ حركة الفم الذي يُطلق صوتاً: تفضل. الفم المتحرك للشخص القارع يطلق تقريباً تلك الأصوات: السيد إكس، نحتاجُ إلى عمال لبناء البيت. هل عندك بعضهم؟ التصور الأخير سيكون مشحوناً بتلك القوة التي تجعل السيد الآخر إكس يبحث في أرجاء المدينة جميعاً.

بعد ذلك، وفي يوم محدد، تُنضِج صورة البيت عند المعماري قوة جديدة، تُشير إليه بالتحرك نحو المكان المحدد حيث تدفع ردة فعله تلك أناساً آخرين إلى هذا المكان. ثم تأتي حركة الفم التي تُصدر أمراً: احفروا هنا الأساسات، مما سيُحرض نشاط أولئك الناس الذين سيستمرون في عملهم فترة طويلة. يُشيدُ البيت بفرح كبير، ثم يأتي ذلك اليوم الذي يُصبح فيه جاهزاً للسكن. وكل هذا بسبب تخيل شكله..."

أتركُ الطريق الدولي، وأطير بسرعة كبيرة بجانب اللوحة التي تُشير إلى "بريجاني " التي لطخها الطين.

الشيء الأكثر إثارة في الحياة يحدثُ حين ترمون زجاجة تحتوي على رسالة في البحر. تعرفون القسم الأول من القصة، ولكنكم تجهلون النهاية. هذا على الأقل ما قاله والدي.

في اللحظة التي يظهر أمامي في أثناء الرحلة بيتنا القديم، أسمع في رأسي صدى صرخة طفل: تشيك-تشيك، البيت الصغير! كنا نقول ذلك حين نهرع باتجاه المكان الآمن. لقد كانت تعويذة.تعويذة غير فعالة.

قال ابني "بوني" — في بداية رحلتنا البرية وغير المنتظرة إلى إسبانيا مع رماد والدي المخبأ في علبة السجائر:

- تكلم كيفما شئت، مع ذلك فالماضي، لا وجود له. وحتى الآن لا أعرف ما إذا كان قد غيّر رأيه في نهاية الأمر خلال تلك الأيام التي أمضيناها في السيارة. وابنه البالغ ثلاث سنوات، حفيدي "سامكو"، سأل قبل أسبوع:

"متى يكون الأمس؟"

لم أعرف بماذا أجيبه.

الفصل الأول

الأقدار

1

كل ساعة في هذا البيت تشير إلى زمن آخر.

رافقني هذا الشعور – منذ نشأتي هنا، وحتى في وقت لاحق حين اضطررت إلى العودة إليه من جديد لدوافع مختلفة.

الدخول إلى البيت من الشارع المزدحم، يتم عبر بوابة عالية مقنطرة، وقبل عدة سنوات حين يتابع الإنسان سيره ويجتازها مباشرة، كان يجد نفسه داخل حديقة واسعة ملأى بأشجار الفواكه التي يمكنه تجاوزها بسهولة ومن ثم الدخول إلى البيت الذي يتألف من طابق أرضي، وأول. النوافذ العالية القديمة تنفتحُ على غرف واسعة تغمرها أشعة الشمس.

توجد أمام البيت حديقة صغيرة. كما كانت تزحف هنا في السابق وفي أماكن عديدة عريشة شكلت فروعها أنفاقاً وممرات. هنا كان أهلي يتركونني أحياناً بعد الظهيرة لأنام في عربتي.

أتذكر وجه أمي. كانت تحني جذعها فوقي، حينها كنتُ في سنتي الأولى، على الأقل هذا ما أتخيله من تفحصي للصور التي سبق أن رأيتها، ولكنها اختفت الآن. الإنسان عادة لا يمكنه تذكر أشياء كتلك في سن كهذه.

بعد ذلك – حين أصبحت في الرابعة – انتعشتَ فجأة في الهواء الطلق. في الحديقة. وقعتُ في حينها عن الكرسي الذي اعتليتُه كي أتابع ما يجري من حولي بشكل أفضل. اختلّ توازني. إنها أقدم ذكرياتي وأبعدها.

كان يوماً مشمساً من أيام أيار، أحد تلك الأيام التي يمكن اعتبارها مواتية للتسلية ودعوة الأصدقاء والمعارف. كان يوم سبت أو أحد. لعبنا نحن الأطفال خلف البيت لعبة "المستخبي" في حين كان أهلنا يتسلون ويشربون بالقرب من كومة جمر الحطب المشتعل. يضحكون ويشوون اللحم. ملؤوا الحديقة. بأزهارَ البيلسانُ، وهفتْ من بعيد رائحة الزيزفون التي استمرت حتى وقت متأخر من الليل – ما يدعو للدهشة هو أن الذكريات ترتبط أحياناً بالرائحة. قطةٌ، تتسكع هنا وهناك في أرجاء الحديقة.

كان عليّ أن أعُدّ للمائة بأعلى صوتي، سددتُ أذنيّ، وبدأت. اختفى الأطفال خلال ثوان معدودات.

كنت أتجاوز الأرقام في بعض الأحيان دون أن ينتبهوا، ولكني مع ذلك فعلت ما بوسعي. خمسة وأربعون... ستة وأربعون... سبعة وأربعون.. ثمانية وأربعون... تسعة وأربعون... خمسون! كنت أتعرق من شدة الإثارة، والتركيز، وحين صرخت في النهاية – مائة! استدرت بسرعة.

وجدت الحديقة خالية على عروشها. لا شيء هناك سوى الصحون، والكؤوس، والزجاجات، والنار التي أوشكت على الخمود. لا وجود للناس. صمتٌ مطبق. ركضتُ لحظة وجعلتُ أتطلعُ من حولي. بدأت أشعر بتزايد الخوف. بقيتُ وحدي على هذا الكوكب! صعدت على الكرسي من جديد، وصرخت.

أبي، وأمي رفعاني عن الأرض، انكسر أنفي. الآخرون الذين اتفقوا عليّ فيما بينهم اختبؤوا بصمت، وهم يكبتون ضحكاتهم.

اليوم أيضاً – حين أتطلع عبر الشارع إلى الحديقة المهجورة لهذا البيت، لا أجد فيها أحداً من جديد. أقف وحيداً على سطح هذا الكوكب الفارغ تائهاً مثل رجل فضاء بين الأعشاب والنباتات الكثيفة ،

وتحت الأشجار التي لم تجد من يعتني بها منذ سنين، لقد افترشتها الأعشاب في أطرافها كلها. إنها تلك الأعشاب التي بدأت تلتهم البيت ببطء وسكون.

تلك هي الأشياء التي كنت أفكر فيها باختصار، ودون رابط، وأنا أقود سيارتي ذات المحرك البارد التي صدمها تيار الهواء القوي حين تجاوزتها سيارة نقل.

بعد ذلك، أخيراً، أفتح المذياع الذي يحاول هذه المرة شدّ انتباهي إلى خبر الانفجار الذي حصل على ظهر سفينة النقل الفليبينية "سوبر فيري١٤" والذي راح ضحيته قبل أيام 116 مسافراً، وبذلك يكون أكبر هجوم إرهابي مسجل في البحر في الأزمان كلها، اعترفتْ مجموعة "أبو سياف" الإسلامية المتشددة بتنفيذه. التقط أيضاً بداية حوار عن اقتراب انضمام بلادنا إلى حلف "الناتو" والاتحاد الأوروبي، أفتح باب السيارة وأغادرها لأواجه مطراً غزيراً تمكن من تبادل الدور مع أشعة شمس حادة.

أخطط منذ سنوات للصعود إلى قمة برج الكنيسة كي أتمتع برؤية "بريجاني" التي تضخمت، وانتشرت إلى البعيد.

تُخفي الكنيسة الواسعة نسبياً تحتها المدافن التي تكتظ الآن ببقايا *الثياب، والعظام، والحديد القديم*. لقد أصبحت الآن مكاناً لجلب السياح العرَّضيين. لم يعد البرج الآن كما كان في السابق أعلى أبنية المنطقة، كما أصبح من المتعذر منذ زمن طويل إلقاء نظرة من شرفته على نهاية المدينة.

يتمددُ تحت قدميّ الآن بحرٌ من السطوح المهترئة المثقبة في غالبيتها حيث تنهض بين فراغاتها أبنية حديثة زجاجية، وفولاذية، تُذكر بالندبْ. ومع ذلك، تكشفُ الأسيجة الواطئة هنا وهناك عن وجود شيء ناقص — حدود قرميدية غير مكتملة لبيوت غير موجودة، كما تمتد عبر التلة باتجاه الشمال والغرب مجمعاتٌ سكنيةٌ جاهزةٌ مع طرقاتها المحددة التي يمرُ بمحاذاتها نهر "سالافا" في خط مستقيم، وعريض وسخ — النهر الذي لم يسمح في يوم من الأيام بمحو التنظيم ونكرانه، والتعديل

الذي حدث في السبعينات حين كانت الحداثة تعني التخلص من التعرجات الطبيعية، وتقطيع الأشجار، وتغيير مجارى الأنهار.

تتمدد تحتي منذ زمن بعيد ساحة متطاولة انتصب في أحد زواياها إعلان كبير كتب عليه: "تسكو" 1,2كم كما يزحف من هناك باتجاه الجنوب شارع عريض يدعى "شتوروفا".

يشرحُ الكراس الذي يتحدث عن "بريجاني" وتاريخها بالتفصيل من هو "راكوزي، وماتي كورفين، وبيلو شتفرتي، و العجوز بيلا" مع كل ما قدموه للمدينة، أو أخذوه منها — كما يتحدث أيضاً عن المجمعات السكنية الجديدة والتحسينات التي حدثت بعد الثورة المخملية، ويشير بشكل مميز إلى المرحلة التي جعلت من "بريجاني" مدينة كبيرة، والأكبر، وإلى الفترة التي اختفت فيها مُعظم معالمها الأصلية.

الحدائق الآن تبدو فارغة، ولكني أتذكر من طفولتي أن شجرة جَوز كبيرة تنشر ظلها الواسع، وتطرد برائحتها البعوض والحشرات كانت موجودة أمام كل بيت تقريباً. لقد تمت تصفيتها الآن بالكامل، وزرعوا بدلاً منها البيتون، والمروج. لقي هذا الانجاز استحساناً كبيراً عند أهالي "بريجاني" الحاليين، وهذا ما شاهدوه في التلفاز.

حين أبلل إصبعي بلعابي وأدوره في الهواء، وأنعطف باتجاه الريح من شارع "شتوروفا"، ثم أقطعُ بعض الأبنية، أجد نفسي أمام بيتنا. بيتي، وبيتُ أبي، وبيت جدي من قبله.

الرياحُ هنا تهب في غالبيتها من الشرق.

تميَّزَ بيتنا على الدوام بمغناطيسية خاصة، وأنا من جهتي بقيتُ أتجنبه حتى اللحظة التي أصبحت فيها حقاً مجبراً على دخوله، وهذا ما يحدث معي الآن. كنت أجد لنفسي على الدوام ما يكفي من الأعذار لتأجيل الأمر، ولكنه نجح أخيراً في اصطيادي بطريقة شبيهة بعمل شبكة العنكبوت، ومن ثم رفضَ تركي. ساءت الأحوال أكثر مع مرور الزمن.

البقاء الطويل في مكان ما، يُخربُ الروح، هذا ما يقوله شقيق والدي، العم "رودو".

حينها يتوجب على أحدهم أن يأتي دون سابق إنذار ويضع أغراضكم في السيارة، ويُجلسكم في المقعد الأمامي، وينطلق. أي تصرف آخر يمكنه أن يُكلفكم حياتكم. أو ربما شيئاً آخر، من يدري.

جاءت أختي "تينا" مرة بهذا الشكل لإنقاذي، ولولاها لبقيت هنا مسحوراً إلى الأبد مثل "روجينا شيبوفا" المجنونة.

قرر هاتفي النقال الإضراب عن العمل، لذا فإني أتصل بالباشس "بوني" من مركز الهاتف القريب لأخبرهُ بأني أصبحت هنا، وأسألهُ أيضاً إذا ما كان يريد أي شيء من البيت. يقعُ نظري حين أقف في الطابور على وردة عيد الميلاد في إبريق "ماك فلوري".

وصل السيد "ماكدونالد" إذاً إلى هنا. تهانيّ الحارة!

السيدة خلف النافذة تبتسم في وجهي لأسباب لا أعرفها.

كانوا يتعرفون إليّ بسهولة في "بريجاني" من خلال وجهي. وقد تفاجأت حين حدث ذلك للمرة الأولى، ولكنني أدركت بعدها أني أحمل سُحنة والدي، وجدي، ووالد جدي... وجه العائلة الذي يتم توارثه من جيل لآخر. تقاطيع الوجه يمكن أن تتبدل قليلاً، ولكن الأساس يبقى ثابتاً. إنه الوجه الذي يخدم بوصفه بطاقة تعريف.

لم أكن مضطراً لأعرف بنفسي. كان يكفي أن أتمشى في الشارع لأجد اثنين، أو ثلاثة من المارة يلقون عليّ التحية. كانوا ينادونني (تارة متأكدين، وحيناً دون أن يفكروا) بـ" ألفونس"، وأنا كنت أصحح لهم بهدوء وصبر: *آدم، اسمي آدم*. غالبيتهم مع ذلك لم يسمعوني، واستمروا في مناداتي *بـ"ألفونس، أو ألينو، أو ألي" ، أو مباشرة السيد الطبيب*.

كان لأبي ندبة صغيرة على خده الأيمن. ظننت في طفولتي أنها حدثت في أثناء شربه للقهوة ونسيانه إخراج اللعقة الساخنة ذات النهاية

الحادة من الفنجان – فجرحتْ بشرة خده. وقد فشل الجميع في اقتلاع تلك الفكرة من رأسي.

2

اعتقدت حين كنت طفلاً صغيراً أن بإمكاني الوصول إلى البيت المجاور لمنزلنا من خلال الوجه الخلفي لدولاب الملابس الموجود في الطابق العلوي، إلى بيت يُشبه بيتنا بالتمام، ولكنه أكثر منه غموضاً. ربما ستجدون هناك في نهاية الأمر صورته في المرآة. حين تفتحون باب الخزانة، وتُنحون الملابس جانباً تجدون خلفها باباً آخر. لستم بحاجة إلى مفتاح لأن الباب غير موصد. إذ يكفي ضغط قبضة الباب، و... ستجدون أمامكم هناك ثياباً أخرى عليكم إبعادها ومن ثم تصبحون في غرفة مماثلة...

هذا أول ما يخطر ببالي في أثناء دخولي بعد فترة طويلة إلى ذلك البيت الموجود في شارع هادئ من بلدة صغيرة تدعى "بريجاني". لم تكن كبيرة قبل سنوات، ولكنها انتفختْ الآن، وتوسعت، وأصبحت مدينة صغيرة سعيدة حافظت على قذارتها مثل غيرها من المدن الموجودة في محافظتنا.

البيت في الأصل كان ملكاً لجدي وجدتي، ومن بعدهما انتقلت ملكيته لأهلي، وهو الآن فارغ بلا سكان. يشك الإنسان بعد لحظات من دخوله فيما إذا عاش فيه أحد قبل ذلك، ولكن بالطبع عاش، وكل ما يوجد فيه يؤكد ذلك.

المطلوب هو التحرك في العتمة اعتماداً على الذاكرة نحو خزنة القواطع الكهربائية وتوصيل التيار – الذي لا يزال للدهشة موصولاً – والنجاة من شبكات العنكبوت، وبعدها سحب الستائر الخشبية الجافة، وفتح النوافذ وتهوية الغرفة، والسماح للهواء النقي بالدخول.

عندي لإنجاز هذا العمل مساء اليوم والليل واليوم التالي بأكمله. ستحضر بعد غد سيارة النقل لتُحمّل كل ما يستحق الذكر.

كانت رائحة "الفانيلا" عادة تنتشر في أرجاء البيت. ويمكن القول إنني ظننتها "فانيلا" (قطعة واحدة كانت تضعها والدتي في علبة السكر)، ولكن الأمر توضح لي حين اكتشفت في صيدلية البيت زجاجة رائحة، شممتها — أبي كان يستخدمها بعد الحلاقة . إنها تشكل خليطاً خاصاً مع دخان التبغ المنتشر في غرفته. "فانيلا" مزيفة.

اختفت أشياء كثيرة. وبقيت أوراق الجدران المشققة، والعنكبوت، والبقع البيج، والبيضاء، والبرتقالية والخضراء، وجميعها من الأوقات التي كان فيها والدي كسولاً، ووجد صعوبة في سحب الأثاث من مكانه في أثناء طليه للجدران. بقيت عليها الآن خطوط لا معنى لها مثل خطوط تموج طفولتي، والخزانة. الخزانة الموجودة في نهاية الأدراج الملتوية التي توصل إلى السقيفة. تلك إضافة إلى الأبواب الأخرى، وغيرها التي كانت تعكس كالمرآة موجودات البيت المقابل الذي اخترعته أفكار والدي، ووافق عليها أفراد الأسرة جميعهم وهم يضحكون في سرهم.

أجلس على الدرج وأتنشق الهواء المعبأ برائحة طينة الجدران الرطبة، إضافة إلى رائحة الملابس القديمة والهواء الخانق. أغلق عينيَّ برهة لأتمكن من الإحساس بالمكان واستيعاب كل ما هو موجود من حولي. قلبي يرتجف مضطرباً.

لم أجد في نفسي الشجاعة في يوم من الأيام لفتح باب الدولاب. توقعت وجود تلة من الثياب التي تفوح منها رائحة "النفتالين". ولم أرغب في عيش خيبة أمل.

أمضى أبي طيلة حياته يخترع القصص — ولكن بطريقة لطيفة ومهذبة-، ولهذا صَدَّق الجميع كلامه. تحدث عن أشياء ما كانت لتخطر على بال أحد. كان "سوبرمان" عصره، كما وصفه حفيدي "سامكو" بن "بوني". العديد لم يأخذوا مرضه المزمن على محمل الجد، ولا حتى وفاته. الناس يسألون حتى هذا اليوم في الشوارع عن صحته.

كيف هي أحوال السيد الطبيب؟ الأطباء عادة لا يموتون، أليس كذلك؟

صديقي "فويتا"، وهو أعز أصدقائي، يستمتع بالجلوس على تلك الأدراج. كان "أنا" الثاني – وبالعكس أيضاً. كان يأتي إلى هنا حتى إذا لم يكن أحد في البيت. أحبَّ هذا المكان . دخل مرة ، وضبط والدي وهو يُدخن سراً لفافة تبغه بعد طعام الغداء. وهو الذي يمنع مرضاه من التدخين، ويحذرهم من أضراره العديدة.

– تُدخن، أيها السيد الطبيب؟.

استدار والدي الواقف في الزاوية المظلمة باتجاه مصدر الصوت:

– لفافة واحدة لا تضر يا صديقي الصغير. ولكن عليك أن تسحب الدخان بحذر كي لا يدخل إلى رئتيك بكثافة. هكذا، تنفخه من طرف فمك، تَطلع ...!

أنهضُ من مكاني، وأصعدُ بالتزامن مع وقع صرير الأدراج الخشبية إلى الطابق العلوي. يتوقع الناس في سن معين، أن الكلام أحياناً أسهل من الفعل – ولكني حين أُجبر الرُكب القديمة على التعاون، تجدني أتحرك.. ابنة "تينا" المتهورة "جيني" تعرف حكايات طفولتنا الخرافية جميعها، ولهذا حين تعرفتْ في أحد الأيام إلى خزانتنا السرية. فكت جدارها الخلفي ونقلتها إلى أمام باب السقيفة بحيث أصبحنا ندخل إلى السقيفة من خلالها. ها أنذا أفتح باب الخزانة إذاً وأدخل إلى السقيفة.

إذا كان البيت لا يزال يحافظ على بعض الذكريات فهذا يعني بالضرورة أنها (أي السقيفة) إضافة إلى كل شيء زيادة وغير ضرورية، تحتوي على أشياء لم يتجرأ أحد على إتلافها.

تتطاير في الهواء ذرات الغبار التي تبدو ذهبية اللون داخل شعاع الشمس النافذ من التشققات الحاصلة في السقف. إنها تُذكر بشراب ما قبل الحرب "بولس" الهولندي مع راقصة الباليه التي تدور فوق دائرة اللعب. أمي لا زالت تخفي تلك الزجاجة في الخزانة – لقد عَلِقت في السائل الكثيف الذي تبخر معظمه ذرات ذهبية لا بد أنها تجمدت مع مرور الزمن.

كان نَفسي دائما يضيقُ في السقيفة.

ربو القصبات — يقول والدي. غالباً ما يتهيج غشاء قصباتي الهوائية المخاطي من سحابة دخان سجائره التي كان يُشعلها في السر حتى لا ينتبه إليه أحد بما فيهم هو أيضاً، إذا أمكن ذلك. كانت طبيبة أمراض التحسس، تكرر على مسامعي بصبر: كل بيت يحتوي على غبار يختلف في تركيبته عن البيت الآخر، مما يجعل تأمين لقاح فعال يُساعد الجسم في التعود على تلك الخلايا الميكروسكوبية الميتة في الجلد جميعها، أو في وبر الحيوانات، أو في بعض قطع الأشياء التي يمكن أن تكون موجودة في البيوت من أصعب الأمور. كان الغبار الآتي من هناك يحرق عيني، ويخدش حنجرتي. ربما كانت تتطاير هنا بضع ذرات من والدي الذي عاش في هذا البيت فترة أطول منا جميعاً حتى أصبح ساكنه الوحيد في النهاية.

أتعثر بكومات من الأشياء التي يغطيها الغبار. أسحبُ صورة لُصق عليها راس كبير تلمعُ من تحته ورقة نقد قديمة. دفاتر المدارس، كتب مهترئة، والعاب شاحبة مخملية، إضافة إلى أضابير (طبلات) والدي الطبية.

التقويم. توجد على ظهر غلافه الخارجي لُصاقة كتب عليها بخط اليد "الأمراض"، وعلى الصفحة البرتقالية ذاتها من الخلف يوجد ختم *الطبيب "ألفونس ترنوفسكي" مع توقيع والدي الذي تدرب عليه إلى مالا نهاية على ورق النشاف*. هدية كبيرة من معمل أدوية "باير" عام ١٩٣٧. أعرفها لأنني كنت أخربش عليها في طفولتي.

تستريح تحت المُفكرة، حولية عام 1943. وكُتب في قسم الملفات الشخصية لمزاولي مهنة الطب في سلوفاكيا حتى تاريخ 31. أيار 1939 المسجلين في نقابة الأطباء حسب الفقرة 3 من القانون رقم 1939/56. في الصفحة 127: ترنوفسكي ألفونس، روم–كاثوليك، مولود في 30 .7. 1912– تخرج في 1935/6/20 من براتيسلافا — طبيب عام في "بريجاني".

يوجد في علبة الكرتون العائدة لحجارة الشطرنج (الحجارة ضاعت كما يحدث عادة في كل رواية صادقة)، ختم دائري تعلوه مسكة كروية معدنية بنية اللون، نُقش عليه: الطبيب ت.أ، وختم عريض آخر: الطبيب ترنوفسكي ألفونس، بريجاني، وعلى يمينه رقم ١، إضافة إلى بعض صور عيادة والدي القديمة مع أجهزتها المختلفة. أشعة، خزانة طبية، وأشعة جبلية. هذا يؤكد أنه كان هنا، وتلك هي البراهين!

احتفظ الرجل المتجمد "أوتزي" الذي عُثر عليه في جليد جبال الألب في معدته بطعام غير مهضوم، وببعض الفطر في جيبه – واستناداً إلى كل اكتشاف صغير تم تخيل تطور حياة الناس في العصور القديمة.

الخيال أمر رائع . إنه يُمثل وتر "أشيل" العقل البشري.

البراهين على الوجود الأزلي تزداد.

التسمم بعد الحقنة... التسمم بعد الحمل، وبعد الإجهاض، التهاب الرئة، قرحة معدية.... "رميد" براغ . أطلب منكم إرسال العينات...

مجموعة من الصور العائلية في ألبومات. والدي يصفُ كل صورة بدقة – نعم، وهذه ميزةُ عائلتنا –، لا أثق بالذكريات، ولا بذاكرتي تحديداً. وهنا لا أتحدث أبداً عن أن أحدهم عَلق على الصور في وقت لاحق بقلم الرصاص، أو بقلم الحبر بخط يصعب قراءته ، ومن ثم نشأت روايتان عن الماضي . لا أريد الإشارة بإصبعي إلى الجهة، ولكن يمكن أن تكون أمي، ولا سيما حين تعقدت الأمور بينها وبين أبي. إنها مندفعة، حيوية، قلقة، ولكن ليس دائماً بالأسلوب والطريقة الصحيحة.

غداوات الآحاد، الاحتفالات المشتركة، الصور الجماعية لأناس يبتسمون أمام عدسة آلة التصوير. أمي في "الروب" الأبيض، وبخفها، ومن حولها باقات الورد في إستوديو التصوير. أمي تجلس بقبعتها بجانب المذياع – يبدو أنها تستمع إلى لحن شهير معاصر، أرادت أن تعزفه على البيانو. (1951) أمي برفقة والدي في السيارة. الكلب "بولينو" أول من يمد رأسه من النافذة الخلفية... (1940) أمي مع

صديقاتها في المسبح.. (1936) سيارتنا الجديدة، (1940) أنا أضبط المذياع، (1944) صفنا في "بريجاني" – جميع الطلاب يحدقون في عدسة آلة التصوير، السيدة مدرستنا تقف في الصف الخلفي بالقرب من خارطة أوروبا، وبجانبها المدفأة، وبعد ذلك مشاجب المعاطف، الهيكل العظمي لجسم الإنسان على الصورة...

أتعرف إلى صورتي، أقف في الصف الرابع.

توجد في أسفل العلبة القديمة بطاقات نعي عادية ضمن إطارات سوداء:

نعلمكم ببالغ الأسى، أنه اليوم، الموافق *للثاني من أيار 1965، رحل عنا إلى الأبد زوجي العزيز، الأب الحبيب، والأخ، والعم، والخال، الكولونيل احتياط "فويتخ روشكو" . بعد مرض قصير في "بريجاني" حيث تم حرقه وتحويله إلى رماد. الزوجة ناتاليا... الابن فويتخ..*

إنه والد صديقي "فويتا".

من الطرف الثاني لورقة النعي، شيء دَبق – بالتأكيد، بسبب شراب السعلة المحلى الذي كنت أشربه بالسر مع " فويتا" من خزانة الوالد – ، التصقت عليه بطاقة بريدية تُصور تمثال–"لينين" على قاعدة في قصر الكرملين في موسكو. إنه يتطلع إلى البعيد، وكما أنه أدرك فجأة كل شيء. هل فهّموهُ بشكل خاطئ؟ وهل ترجموا كتاباته بشكل سيء؟ سيما أنه دعا لنشر العدالة. والسعادة، والسلم، والحب. تماماً كما أراد الرفيق المسيح!

الطبقة الصناعية الفنية الموجودة على سطح بطاقة البريد العائدة للستينات تجعله يبدو كأنه يطير في الفراغ. الرفيق "لينين" يُحلق داخل ألوان نموذجية اشتهرت بها شركة أفلام ألمانية شرقية "أورفو" حيث البُني يبدو فيها كظل للأزرق. أعرفها جيداً، وبوصفي مُخرجاً، مرت أمامي كيلومترات من أشرطة الأفلام التلفزيونية المقصوصة.

يمكنني الاستمرار إلى مالا نهاية، ولكن النمّل الذي غزا ساقيّ، وضيق النَّفس الذي أصابني منعاني من المتابعة. نهاية الأمر، أدسُ علبة

فارغة لحبوب "لومينال"، نموذج طبي، كغنيمة في جيبي، وأضع تحت إبطي كتاباً مهترئاً يحتوي صوراً ملونة للوحات "غويا".

أهبط السلالم ببطء، وأنا أفكر كيف انزلق أبي قبل سنوات حين رافقنا مع أخي الأكبر "بتر" إلى السباحة في فصل الصيف في "سنتسا" على السلالم التي كساها العشب — فرصة نادرة، حين كنا نترافق نحن الثلاثة إلى مكان ما (أعتقد أن هذا لم يتكرر بعد ذلك على الإطلاق) — حيث اصطدم رأسه بالأرض. وغاب عن الوعي في الحال. مددناه بحذر شديد فوق المرج، وكلانا فعل ما بوسعه لإعادته إلى حالة الوعي. فتح عينيه بعد لحظات ، وجلس ببطء ثم تطلع إلى من حوله، ولمس نتوءاً في رأسه من الضربة وقال: "يا رجل ، عادت إليّ ذاكرتي ا".

3

لا تزال الثلاجة الجديدة الموضبة في غلافها موجودة في المطبخ حتى الآن. إنها رائعة، بيضاء. تبدو كأنها لا تنتمي إلى هذا البيت المنقرض.

"فرّغت السفن الكبيرة هدايا المناطق الإستوائية في المرفأ. وكان بانتظارها عربات قطار خصصت لنقلها إلى تشيكوسلوفاكيا. قمنا بترتيبها حسب النوعية إلى ثلاث مجموعات — الأولى بـ25، والثانية بـ 20، والثالثة بـ 10 كورون...— أقرأ على صفحة إحدى الجرائد القديمة التي غطت الأرض.

أتخيل في الحال أمي واقفة عند الغروب، محنية الظهر في الحديقة وقد توهج وجهها بضوء خافت — جدّة بشعرها الأبيض المهمل الذي كان يتحول بعد صبغه إلى بنفسجي رائع. تُمسكُ بيدها المعوّل. منظر كلاسيكي — مع أنه ليس نموذجياً.

"ميليت" وربما "بنكا"*[1] كانا سيسقطان من هذا المنظر.

"دستويوفسكي"، بدا في حالة جيدة في المجلد الأحمر — الجريمة والعقاب. أحبُ الكتب إلى قلب أبي. الأمر مع "كافكا" أسوأ بقليل —

1ميليت، وبنكا: رسامان عالميان شهيران

خمسة كتب رطبة، ملفوفة بعناية بورق اصفرّ لونه. تناولتْ أمي بيدها رواية "هس"[2] لعبة الكرات الزجاجية، ورواية، فصل في جهنم لـ"ريمباود". قررتْ في الأصل عدم لمسها، لم ترغبْ في أن يكون لها أية علاقة مشتركة بهذه الكتب التي كان والدي يمسك بها كل يوم تقريباً.

توفي قبل أسبوع. أصيب بالتهاب في الرئتين — وهل بوسعه فعل شيء آخر غير الموت بالتهاب الرئتين في سن معين وفي حالة معينة؟ أمضيا سوية نصف قرن. كفى. وأكثر من كفى! تخيلتْ أنها في الوقت الذي سيبقى فيه إلى الأبد معلقاً برقمه، ستكون في السابعة والثمانين، في الثامنة والثمانين، في التاسعة والثمانين، في التسعين... أربعة، خمسة.. فرحت بذلك. أخيراً يمكنها أن تعيش حياتها، سوف تسافر وتطوف في أرجاء المعمورة، كما ستقوم أيضاً بترميم البيت، وتشتري أثاثاً جديداً. وصّتْ مباشرة بعد الانتهاء من مراسم الدفن على غسالة وثلاجة.

أراها أمامي، وكأن شيئاً قد وخزها في أسفل ظهرها وأجبرها على الجلوس والاستلقاء برهة. تخيلتْ بالتأكيد كيف يُنقطُ الكلس من عظامها التي تصلبت وجعلتها عاجزة عن الحركة، وكيف أن الحياة بدأت تغادرها قطعة بعد قطعة. *الرأس — الكتف — الركبة — الباهم*. الأمراض والتي لا نهاية لها التي كانت في الماضي تتحدث عنها بشغف.

إنها تُمسك الآن مؤلفات "تاتسيتوس"*[3] وأصابعها ترتجف من نفاذ صبرها. أجواء تشرين الثاني تهيمن على كل شيء حتى الأصابع تزرقُ من شدة البرد. الهواء يعصفُ بمعطفها. والبخار يخرج من فمها.

"صومعة" والدي، كما أحب تسميتها، تكتظ بالكتب باستثناء مكان صغير للنوم بالكاد يُمكنه الوصول إليه. كان هذا طوال الوقت مثار

---

[2]هس: هرمان هيس ، كاتب ألماني شهير، أهم رواياته الكرات الزجاجية (جائزة نوبل) ، رحلة إلى الشرق ، ذئب البوادي وغيرها.
[3]تاتسيتوس كورنليوس: 55-117 .سيناتور , ومؤرخ الإمبراطورية الرومانية

إزعاج لأمي. توقفا عن تبادل الكلام منذ سنوات، وسكنَ كل منهما في نهاية مختلفة من المدينة مع أنهما لم ينفصلا.

يمتلك الإنسان على الأغلب كمية محددة من الكلمات التي يمكنه التحدث بها مع إنسان آخر، وحين يتصرف بها لا يمكنه فعل شيء آخر. من المفروض أن يتشابه الناس بالتدريج بعد سنوات طويلة من العيش المشترك، إلا أن الأمر مع والديّ كان على العكس من ذلك. تغيرت أشكالهما وتباعدت بشكل كبير. حتى إنهما بعد فترة أصبحا يتبادلان عشر كلمات متشابهة فحسب، وكأن مخزونهما الكلامي قد جفّ، ونضبّ بشكل مفاجئ. وقد لعب بالتأكيد تفاقم مرض والدي دوراً رئيساً في ذلك.

أخيراً، وقبل ثلاثة أيام، نجحت والدتي في تحقيق انتقامها الرائع.

أراها من جديد، وأتخيلها كيف تخطو بثبات، محنية الظهر باتجاه البوابة الكبيرة، مستندة إلى عكازها فوق الطريق المعُبد بالحجارة الصغيرة، وقد اتخذت قرارها. غربان سوداء تقف على قبة الكنيسة النحاسي في حين تهُف رائحة البخور من الداخل.

بالتأكيد، غمر صدرها إحساس بالدفء من ذلك الشعور. شعتْ بهجة. جلستْ بعد ذلك في أحد المقاعد الأمامية بالقرب من الشموع المشتعلة في الوقت الذي انتشرت فيه أنغام آلة الأورغ الرخيمة والحزينة التي تُجبر الإنسان على البكاء في أرجاء الكنيسة. رفعتْ رأسها وجعلت تتطلع إلى الأعلى باتجاه اللوحات الزجاجية الملونة وما خلفها. أحست بوجوده هناك. وجود أبي "ألفونس ترنوفسكي". ابتسمتْ. وبدت كأنها توشك أن ترى وجهه هنا أيضاً بين تلك الجدران الباردة، وجه ذلك الرجل الذي أصبح الآن ملكها مع كل ما ملكه في هذا العالم. وجه من الرماد، والغضب، لم يعد له وجود. من يدري إذا كانت الأرواح لها وجوه، من يدري؟!

لم يؤمن أبي في يوم من الأيام بوجود الرب، وبقي ملحداً طوال حياته عن قناعة. علماً أنهم عمدوه، ومارس طقس التناول أيضاً (فعل

ذلك إرضاء لأهله بالدرجة الأولى – سيما وأن الجد "البرت" ما كان ليرضى بغير ذلك)، ولكن لا شيء أكثر. رفضوا أثناء الحرب تعميد والدتي بسبب رفضه الاعتراف. أحس بأنه أمر سخيف، ولكنهم أقنعوه في النهاية. كانت تلك *مسألة حياة أو موت* – كما تعودنا أن يُكتب عنها في أدب المغامرة الرخيص.

تمت تَطرية خاطر كاهن الكنيسة الدومينيكانية التي تم تجديدها وترميمها قبل مدة (فوجئت والدتي للحظة حين تذكرت أن قدميها لم تتجاوزا باب الكنيسة منذ أكثر من ست عشرة سنة)، تماماً مثل زميله في أثناء الحرب الذي وعدها بقداس مُكلف قليلاً على روحها. قررت أن بإمكانها السماح بذلك. وكان هناك العديد من المهتمين بأناشيد "غرشوين" الكنسية المسجلة على الأسطوانات القديمة التي كان والدي شغوفاً بجمعها. إنها الآن حرة دون ارتباطات! لم تشعر بالحرية في حياتها كما تشعر بها الآن.

صوت الكاهن الدومينيكاني يُدوي بشكل احتفالي:

"كان ألفونس ترنوفسكي إنساناً شجاعاً، ومسيحياً جيداً. جيداً ونزيهاً أيضاً. إنه خسارة كبيرة لنا جميعاً. يقف "ألفونس" الآن وجهاً لوجه أمام العدالة السماوية. أتمنى أن ينعم عليه الرب برحمته. آمين!"

أمي تجلس وحيدة في الكنيسة. لقد تمكنت بنجاح من إخفاء ذلك السيرك عن الآخرين. عرفتُ السبب حين كشف لي الكاهن الدومينيكاني كل شيء. انتهى الأورغ، نهضت ومشتْ بصعوبة باتجاه بوابة الكنيسة.

الحديقة هنا من جديد، يُسمعُ سعالها القوي وسط أمسية من أمسيات أيار الباردة غير المتوقعة.

بقي بعضاً منها. لوركا، ألوسيوس برتراند، فرلاين، وبعض الأوراق، كومة أوراق كتبها الوالد. إنها ترميهم في الجمر وراء غيرهم، يتحولون إلى فحم صغير ورقائق من الرماد. وتيار الهواء القوي يبعثرها حول المكان لتصبح شبيهة بذرات الثلج الأسود. إنها تكسرُ ألواحاً قاسية من الخشب

بالمعول كي تجعلها تحترق بسهولة. النار تنقضّ على الأوراق التي اصفر لونها. حديقة الزيتون تنفتح و تنغلق... أصغ إلى السكون، يا ولدي.

اقطعيني من الظل... قرطبة. البعيدة، الوحيدة. أحرف سوداء داخل الرماد الشاحب. أمي تتنفس الدخان. توقفت أصابعها عن الشعور بالأشكال، لقد فقدت الحس فيها. إنها مُخدرة. النار ترتفع، وتخمدُ بلمح البصر، الخشبُ يَنِسّ. بقيت قطعة صغيرة من مجلد خمري... فيتش دوستيوف...- تبرز الأحرف الذهبية المهترئة. حقاً إنها نوعية فاخرة من المجلدات. الهواء الجليدي يلفحُ طرف معطفها ويرفعه. ويدها المخدرة تضم المعطف إلى جسدها. تُصاب بنوبة سعال. إنها تقف صغيرة بالقرب من دخان المحرقة في حديقة ذلك البيت الكبير.

تستيقظ في الصباح وقد اشتعلت من الحرارة. حين سيحضرون الثلاجة في المساء ستُوقعُ وصل الاستلام وكأنها في حُلم.

الثلاجة البيضاء تلك، تقف الآن دون فائدة في وسط المطبخ. حتى إنها لم تلحق وتنزع عنها غلافها الورقي بالتمام.

تُخبرنا الأمثال السلوفاكية أن الموت يحضر إلى البيوت المُرتبة. لي رأي خاص بالأمثال، ولكن هذا المثل ينطبق تماماً على حالتنا.

4

الأوقات القديمة ستعود من جديد غالباً ما كان عمي "رودو" — شقيق والدي – يقول ساخراً، حين يأتي الكلام على الماضي. فهمت ما يقصده في وقت متأخر.

أرادها في البداية ابني "بوني"، ثم أرادها بعد ذلك بسنوات طويلة، وبعد فترة من الثورة المخملية حفيدي "ماتوش". لقد أجبروهم في المدرسة على رسم شجرة العائلة. بالتفصيل — بالأسماء، نوعية القرابة، والوظيفة، واللقب، تاريخ الولادة، وتاريخ الوفاة.

شعرت في حينها وللمرة الأولى في بداية السبعينات بالخوف. فكرتُ إذا لم يكونوا يبحثون من خلال تلك الوسيلة وعبر الأطفال الصغار عن ارتباطات سرية لها علاقة بالتقييم الطبقي الذي يمكنهم بعد ذلك

استغلاله سلبا او إيجابا. رَسَم "بوني" شجرة متفرعة كبيرة على ورقة رسم مصقولة، وتركني أفكر. اختفى بعد الظهيرة خارج البيت ليتمتع بحرارة ذلك اليوم الجميل المشمس، وتركني أشتغل وحدي على شجرة العائلة طوال يوم الأحد حتى وقت متأخر من المساء.

ارتسمت أمامي في الحال حكايات مختلفة، جرى الحديث عنها في العائلة.

رافق جدي القادم، الجد "ألبرت" والديه مرة إلى فيينا — كانا بحاجة إلى تدبير أمر ما هناك. حين انتهيا من إجراءات التسجيل في الفندق، وصلت كابينة المصعد الكبير إلى الطابق الأرضي وتوقفت بالقرب من مكتب الاستقبال. حين فُتح باب المصعد شوهدت من خلفه حُجرة مضاءة. لم يكن قد وصل هذا الاختراع السحري إلى "بريجاني"، لهذا السبب، اعتقد الجد "ألبرت" أنها ستكون الغرفة التي سيمضون ليلتهم فيها، وقد أرسلوها لهم إلى الطابق الأرضي. وقف هناك وجعل "يحملق". رافقتهم في تلك الرحلة إلى فيينا جارتهم الصبية التي ألبسوها الزي الشعبي السلوفاكي لندرة ثياب الحفلات. وقف الجميع يتأملونها في ساحة "شتيفانسدوم" وكأنها شيء غريب. أصبحت بعد ذلك زوجة المستقبل، الجدة "ماريا"، وهي جدتي.

صُنِّف الجد "ألبرت" في شجرة عائلة "بوني" بوصفه عاملاً، وصُنفت الجدة "ماريا" بوصفها خادمة في حين أصبح جدي لاحقاً في شجرة عائلة حفيدي "ماتوش" مهندساً معمارياً منهكاً صاحب ثروة متواضعة، وهذا الوصف لامس الحقيقة نوعاً ما في حين امتلكت الجدة "ماريا" في الشجرة متجراً صغيراً، إضافة إلى ممارستها أحياناً مهنة "المانيكور" في البيوت.

توفي الجد "ألبرت" وهو في ريعان شبابه إثر حادث أليم في المنجم. تُمسك الجدة "ماريا" في الصورة بالطفل "ألفونس"، أي والدي الجالس على ركبتيها، ومن حولهما يقف الأخوة الأكبر سناً، وبجانبهما العم "كارول". والدهم الآن لم يعد على قيد الحياة. وُلد "ألفونس" بعد ثلاثة شهور من وفاته، ومع ذلك كان معهم في الصورة — لقد قصوا وجه الجد

"ألبرت" من صورة أخرى، وألصقوها مكان وجه العم – أسندوا الرأس الكبير إلى كتفين ضيقين. وبذلك اكتملت العائلة.

لقد أحضرتُ تلك الصورة مع غيرها من الأشياء من السقيفة. كان والدي قبل ذلك يحتفظ بها كذكرى عزيزة على قلبه، يسحبها أحياناً حين يعتقد أن لا أحد يراه. تعوَّد الرجوع إلى والده في الأوقات العصيبة، ومن ثم فتحَ حوار طويل معه.

لا يمكن من الصورة معرفة ما إذا كان الجد "ألبرت" يرد عليه.

الأمر كان أسوأ مع عائلة والدتي – يعتبر والدها في ظروف "بريجاني" من التجار اليهود الأثرياء، اسمه "بيلا بلاو". لا يمكنني تصور ذلك مدوناً في شجرة العائلة لعام 1974. أصبح اسمه بعد ذلك "فويتخ مودروخ" وهذا الاسم جديرٌ بالاحترام كما عمل بعد ذلك موظف بريد في "بريجاني". لقد تخيلت أن هذا العمل لم يشعره بالإهانة، هذا أو ذاك – وهذا أيضاً عمل مع الأوراق. تركتهُ في النهاية بالمقابل كرد جميل يعيش فترة أطول. سكنا في حينها مع العائلة في براتيسلافا التي كانت مجهولة بالنسبة إلينا – في شارع "مالينوفسكي" في عمارة يسكنها أناس جاؤوا من مختلف أرجاء سلوفاكيا، كما سكن هناك زملاء "بوني" في المدرسة وبذلك كانت حرية التصرف مؤمنة. لم يكن هناك خوف من الوشاية.

ستون عاماً بعد وفاته، يعود الجد "بلاو" إلى اسمه ومهنته الأصلية في شجرة عائلة "ماتوش"، وكم أتمنى أن تبقى كذلك. نجح في الموت قبل اندلاع الحرب (هذا حقيقة الآن)، لذا فإنه لم يعاصر *تلك الأشياء* التي كان ستحدث له بالطبع فيما بعد جميعها. الموت في الوقت المناسب يعتبر براعة. هو الذي كان يخاف الموت، ولكنه عوّل عليه بشكل كبير. من يدري ما إذا كان قد نجح في الوصول إلى *بقرة الإنجيل الصغيرة الحمراء الأصيلة غير المدنسة التي لم تطلها العبودية* – لقد اصطحب معه في تلك الأيام الهادئة الرغيدة، جدتي "ساره" – غادرا بسرعة في السيارة من نوع Laurin&Klement 360 ، سنة الصنع 1926 في أجواء

ماطرة، وفي الممر الذي لم يعد موجوداً، وعلى بعد كيلومتر واحد قبل "بريجاني"، اصطدمت السيارة بشجرة. بعضهم يقول: إنها الطريقة المثلى لإنهاء الحياة — إن الزيادة في عدد السيارات تساعدنا على مغادرة هذا العالم بشكل لائق، يمكننا القول، ونحن في أحسن حال.

أما الأم العجوز، فهي جدتي "ساره"، التي لم تكن تعمل. وقد اقتصرت مهمتها على العناية بشؤون المنزل — هذا عند حفيدي "ماتوش". ولكنها سُجلتْ في شجرة عائلة ابني "بوني" تحت اسم "شتيفانيا" التي تعمل في أحد المصانع.

أبي كان يقول أيضاً: *الحنين، هو مجموعة ذكريات لأشياء لم تكن موجودة على الإطلاق*. وتحديداً في وسط أوروبا.

ولكن ماذا عن والدتي... التي بقيت أصولها غير واضحة، كما أنها لم ترغب في التطرق إليها في يوم من الأيام. لقد تبنتها إحدى العائلات اليهودية وهي طفلة صغيرة، وهذا ما عرفته من الرواية الرسمية، وغير ذلك لم أسمع منها أي شيء آخر.

نعم إذاً، إن كان عليّ تصديق الروايات الأدبية الجميلة — حين تمكنت الصبية ذات الأصول العائلية المحترمة من إنجاب طفل، أرسلوها للعيش عند الأقارب، وحسب الإمكانات إلى أبعد منطقة. وحين عادت بعد ذلك ومعها الطفل، قاموا بتربيته بوصفه الشقيق الأصغر. بعض الأشياء يصعب عليّ الوصول إليها — ولكن بوسعي اختلاق غالبيتها.

لقد اعتبروها أيام الدولة السلوفاكية يهودية، ومن ثم، لم يسألها أحد عن أي شيء. لا تكهن، ولا فانتازيا. حقائق فقط.

ابني "بوني" سيكون في النتيجة سلوفاكي *أصيل* لأن أصولاً تشيكية، ومجرية، وألمانية، وبولونية، ويهودية وفي النهاية سلوفاكية تسري في عروقه، وهذا يجعل منه برميل نبيذ وسط أوروبي *"cuvee"*[4]. ورث

[4] Cuvee: بالفرنسية يعني: برميل من أفضل أنواع النبيذ

شيئاً مني، وشيئاً من والدته — من المجنونة المتعصبة الجميلة "سوزانا" التي لم أرها منذ عشر سنوات أو أكثر. أتمنى لها حياة سهلة.

5

أرى أن من واجبي الاعتراف، إذا أردت أن أكون صادقاً، أني أدين في عودتي إلى "بريجاني" لتلك العظام. إنها لا تتركني وشأني على الإطلاق.

لقد كانت نقطة البداية. حين كان والدي في منتصف الثمانينات لا يزال في المشفى، بدأ أحدنا بالتباعد عن الآخر تدريجياً وبشكل منتظم حتى ولو جلس أحدنا بجانب الآخر. فقد اكتشفت بشكل كامل حين كنت بالقرب منه طبيعة المشكلات التي يمكن أن تحدث لو كنا وحيدين. والدي وأنا؟

يبدو كلامي بالتأكيد غريباً بعض الشيء حين تُفكر أن حِمل العناية به وقع على عاتقي وحدي. أختي "تينا" بالكاد يمكنها أن تقف على قدميها في إنكلترا (مما جعلها تجد الأعذار الكافية)، وأخي "بتر" كان خارج البلاد بطريقة مختلفة. الابن البكر، الأمير ولي العهد برأسه المعبأ بالأفكار الكبيرة، صاحب الحق في عيش حياته الخاصة. تألم بما فيه الكفاية، نعم، قالت أمي. يمكنه أن يكون مثالاً لنا، وتضيف دائماً حادثة قديمة من أيام الطفولة — لقد أحضروه من قسم التوليد محمولاً على أيادٍ مرتجفة، وحين كان عليه أن "يطلق ريحاً" بسبب هضم أفضل (بالاعتذار، وبدونه) تحققت عملية صعبة. حقنوا مؤخرتي باختراع جديد كي أسترخي وأستريح هناك، دون كلام. عشقتُ تلك الحادثة! هو — البطل المُشرق، وأنا — خدشة قلم رصاص في مؤخرتي.

يمكن القول في نهاية الأمر، إنني نجحت في كسب العلاقة من جديد مع والدي من خلال العظام — نعم، هذا يحدث، وليس شيئاً غير عادي في حالات مختلفة، كالموت. ولكن هذا لم يكن موتاً، على الأقل لم يكن موت والدي.

قبل ذلك اليوم الخريفي الغريب (سرب من الإوز البري الذي لم يتوقف عن الوقوقة القوية يعبرُ فوق بيتنا. بقرة جارنا التي تحملت

الوقوف أياماً دون أن تتحرك تراقبني من مكانها) كنت أعمى، وأصم، تطلعتُ مباشرة تحت قدميّ فحسب وحاولتُ جاهداً تجنب السقوط أو التعثر. لم أفهم ارتباطات العالم — وربما لا أفهمها الآن أيضاً، ولكن هذا لا يؤثر. تفتحت عيناي بعد ذلك بشكل مفاجئ.

باختصار شديد — ذهبت بعد زيارة والدي لأتفقد البيت الفارغ، وكنت قد هممت بالمغادرة حين تذكرت شيئاً. لقد طمرتُ تحت شجرة (السرو) القديمة الموجودة خلف البيت، حين كنت طفلاً صغيراً، كنز طفولتي داخل تابوت صغير (قرأت في ذلك الوقت قصة جزر الكنز للروائي "ستفنسون" وأحببت أن أُخفي شيئاً أتمكن بعد سنوات طويلة من إخراجه). حتى إني تذكرت بشكل دقيق تلك اللحظة — الجو ماطر قليلاً، والدي يحصد العشب الطويل. جمعتُ حلزونات كبيرة، حملتها ووضعتها تحت شجرة السرو، ربما عددها عشرون، زحفوا بفرح ناشرين مخاطهم. هنا قمت بإخفاء الكنز.

شجرة السرو دائمة الخُضرة، تم قطعها منذ زمن بعيد لأنها غطت مساحة كبيرة وتسببت في إزعاج أمي لحجبها منظر الحديقة من نافذة المطبخ (ولولا ذلك لكانت ستبقى حتى الآن — السرو من الأشجار المُعمرة، وعمرها يمكن أن يتجاوز في الظروف العادية عمر الإنسان بعدة أضعاف). لم يبق منها سوى قلم صغير. تشكلت الحديقة في تلك الأثناء من أشجار مهملة، وسور نصف متهدم لُفّ بأسلاك شائكة مؤقتة يقبع في نهايتها. كان الأشقياء من الجوار يدخلون إلى الحديقة لسرقة الخوخ والمشمش، ويقفزون من فوقه بفرح.

عبور الحديقة الآن يتطلب جهداً كبيراً – روما في المراحل الأخيرة من سقوطها.

أحضرتُ في ذلك اليوم العادي الخريفي المعول الذي لم يلحق أحد سرقته، وذهبت لحفر المكان الذي أخفيت فيه كنزي — إذا لم أقم الآن بهذا العمل فسيصعب عليّ القيام به في وقت لاحق–. لم أعرف من أين

أبداً لأنني لم أتذكر المكان الصحيح. وجدتُها في آخر المطاف. عظاماً وجمجمة أيضاً داخل قبر سطحي تحت طبقة رقيقة من تراب الأرض.

أبي هو الإنسان الوحيد الذي يعرف كل شيء عن الحديقة التي لم يكن أحد غيره يدخل إليها. تمكنت بعد لحظات من الوصول إلى تابوتي الصغير (لم أتعرف إلى الأشياء التي وجدتها في داخله) ولكن اهتمامي انصب أكثر على الشيء الثاني.

اكتشفتُ أبي من خلال كومة العظام، وحتى تلك لم تكن عظامه، وهذا ما تخيلته شيئاً نموذجياً في علاقتنا. كما لو أن السعادة غير المتوقعة في حياتي أصبحت بالصدفة أحد أهم الشخصيات. ازداد اهتمامي بالماضي، وتركز بالدرجة الأولى على الشيء الذي حدث هنا.

6

انتشر الليل خلف النوافذ، صخب خفيف يتسربُ من الشارع البارد حيث توهجت بعض المصابيح الصغيرة. مصباحان يطلقان أزيزاً مريباً. تفقدتُ الغرف، وقررت أي قطعة من الأثاث يجب إنقاذها، لففت بعض الأشياء، وأنا الآن أجلس غارقاً في الزمن على كرسي تغطيه الغبار. الإنسان يشعر دائماً بالحنين إلى طقوس بيته، وأنا الآن أحد قطعه بالتأكيد. حملت معي بعض الكتب، ولكني كنت أغلقها بعد تصفح بعض جملها وأضعها جانباً. كل شيء في هذا البيت يمنعني من التركيز.

أسمعُ طقطقة. كل صوت يصبح أقوى وأشد في ذلك الفراغ كما لو كانت حيوانات غير مرئية تعبر من هنا. الأثاث هو الذي يطقطق لأنه جفّ مع مرور الوقت، لم يمتصّ سنة كاملة نقطة واحدة من سائل التلميع. آتي بعد ذلك بشكل مفاجئ، وأفتح الباب وأحملُ معي تياراً من الهواء إلى هذا الجو المفعم بالسكون حيث أنشر رطوبتي دون رحمة! ينتشر في الغرفة صرير رطب يُعبرُ عن الاحتجاج ضد الإزعاج الظالم.

أتمدد على الديوان وأراقب الظلال المتموجة. يتسلل حزن المساء الذي أحبه ببطء ودون ضجيج. البيوت الواسعة الفارغة تشده إليها مع

المغيب، وإلى حين يهبط الليل، سأتقلب مثل السمكة في الزيت. أعرف ذلك الشعور. حزن قديم جيد!

وكي أطرده من رأسي، أستجمع في ذاكرتي جميع العاملين والمهنيين الذين أنجزوا ذلك المكان وصنعوا منه غرفة. هدموا الجدران، وثبتوا النوافذ والأبواب ثم دهنوا الجدران بالألوان وهووها، قحطوا فسوخها وبقعها الجافة، وعلقوا الستائر (كي لا يعرف أحد ما يجري في الداخل — وهذا ما ندعوه *بالخصوصية* التي تبدأ عادة بالقرب من الستائر، وغالباً ما تنتهي في الأماكن الصغيرة)، أحضر الخبراء الأثاث ووزعوه. من يكونوا؟ الرجال الذين تفوح منهم رائحة الطينة، والكحول، العرق، أصحاب العضلات، والألوان الجافة على أجفانهم، رماد السجائر، والبشرة الدهنية، يعملون تحت إمرة الجد "ألبرت" (ذاك الذي جمع المال من خلال عمله في بناء قناة السويس)، و لم يسمح لأحد بالتدخل في شؤونه الخاصة ، لم يسمح لأحد دون إذنه تحريك قطعة من مكانها. حافظ مع ذلك البيت على رباط ضيق حتى إني تخيلت "ألبرت" سيحسُ من البعيد من خلال الجناح بأكمله إضافة إلى الغرفتين والمطبخ مع غرفة المؤونة، لو أني أمسكت الآن طاولة الطعام، وسحبتها باتجاه النافذة — وهذا في نهاية الأمر ما اقترحته جدتي المرحومة على الدوام ولكنها لم تفعله من باب التقوى والولاء — سوف ينهض بسرعة من سريره، ويكتشف في الحال مثل العنكبوت من خلال الخيوط ما تغير في الغرفة. كان سيخبط الأبواب بالتأكيد ويجبرني على إعادة كل شيء إلى مكانه الأصلي. هذا لو كان هنا بالطبع.

في هذا البيت حيث كل ساعة تشير إلى وقت مختلف أو إلى الوقت بأكمله دفعة واحدة. القلق.

أفتح التقويم السنوي لشركة "باير" الطبية الذي أحضرته معي من السقيفة. سبق أن كتبت فيه مذكراتي في قسم الملاحظات اليومية. خطي السيء ينتشر في مختلف الاتجاهات فوق اللوحة الخضراء المخططة التي

دون عليها: الرقم/ التاريخ/ اسم المريض/ السيرة المرضية/ التشخيص/ العلاج/ النصائح / الأجر/ دفع /ملاحظات.

الاثنين 3/13.

اليوم، حين استيقظت، سمعت حواراً يدور بين أبي وأمي. حين فتحت عيني، سمعته يسألها في تلك اللحظة عن درجة حرارتي التي قاستها مساء البارحة. هتفتُ بقوة: ست وثلاثون. أخبرني والدي بعد ذلك أن بوسعي ارتداء ملابسي والتحرك قليلاً هنا وهناك داخل الغرفة. فرحت كثيراً. تحلقُ الطائرات طيلة اليوم وتقذف نهر "سالفا" المتجمد. لقد تجمد في هذه السنة، كما تساقط الثلج بكثافة على الجليد، الآن حين سيذوب الثلج والجليد ستغرقُ الأراضي بالماء. الناس الذين يسكنون على ضفاف نهر "سالفا" سوف تغرق أقبيتهم.

تحدث والدي في أثناء العشاء عن ناطحات السحاب الموجودة في نيويورك. تمتعتُ كثيراً بالحديث ولاسيما حين أخبرني والدي أن من يسكن في الطابق الخمسين يصل إلى هناك بوساطة المصعد خلال خمس دقائق. يمكن للرجل أن ينام في أثناء ذلك حسب قوله.

كُتب بخط صغير في أسفل الصفحة:

لومينال، منوم، ومضاد للصرع.

سادَ صفنا في ذلك اليوم جو من العتمة والصخب. أرسلت المدرسة، السيدة "هورتسكا" أحدهم لسحب الستائر الثقيلة التي يستعملونها حين تكون الشمس قوية وحارقة. سُمعتْ قهقهة في العتمة، ووشوشة إضافة إلى صوتها الغاضب. كنا نتدافع في مقاعدنا ثم اقتربنا واحداً تلو الآخر من السبورة باتجاه الجهاز الذي ينبعث منه ضوء حليبي خافت مائل إلى الزرقة، رونت —جن، همس أولئك الذين لم يكونوا يعرفون لفظ حرف الراء، وكذلك أولئك الذين لم يسمعوا تلك الكلمة المركبة في حياتهم. انتصب جهاز الأشعة على دواليب. توجب على كل واحد منا الوقوف فوق مساحة دائرية، وإسناد القسم الخلفي من جسمه على لوح واطئ،

منتصب القامة والرأس، ومستندا إلى دعامة، اليدان المرفوعتان تمسكان بقبضتين مثبتتين فوق الرأس . في تلك اللحظة كان بالإمكان البدء.

"التالي" جاء صوت أبي.

جلس أبي في مريوله الأبيض بالقرب من الجهاز مثبتاً على وجهه نظارات واقية خاصة. رأينا خياله فقط، إضافة إلى تقاطيع جسم الصبي.

انطفأ الضوء الضعيف.

"التالي.... !"

ذكرني ذلك المشهد بالعرض المسائي في سينما "بريجاني" حيث شاطرنا الجلوس هناك الأب "سافتسكي"، معاون مدير الثانوية الكاثوليكية ومؤلف كتاب *"التجوال الرومانسي في ربوع بريجاني"* — زينة مكتبات البيوت، وتحديداً بسبب غلافه الأحمر — الذهبي مع صورة الزي التقليدي لـ"بريجاني" (لم يقرأ الكتاب أحد غيره). كان يفعل ما بوسعه لمنع عرض أي مشهد يسيء للأدب والأخلاق. جلس مباشرة بالقرب من الفتحة التي تخرج منها حزمة الصور من كابينة آلة العرض. حين يحس أن أحد مشاهد الفيلم غير لائقة — بدءاً من القبلة وانتهاء بتعرية ساعد الأنثى — يقوم في الحال بتغطية عدسة آلة العرض بقبعته ثم يقول بصوته المرتفع الذي يدعو قليلاً للضحك:

"الصف الأول، والثاني والثالث، خروج!"

جلس هناك أصغر الطلاب الذين توجب عليهم النهوض من أماكنهم بأدب ومغادرة صالة العرض. وبعد خروجهم يمكن متابعة العرض.

"التالي.." قال والدي بصوته الرتيب في العتمة.

كان الدور لصبي نحيل. أمسكه والدي من كتفه، وأوقفه أمام الجهاز.

"إنك "فويتا" على ما أظن..." سأل والدي غير متأكد.

أبي لم ير وجهه، ولكنه يعرفه عن ظهر قلب كما يقال.

"حسناً إنك سليم"

لطمه على كتفه: "إياك أن تتسكع مع "آداش" بعد المدرسة!"

ماذا يمكنني القول عن "فويتا روشكو"؟ كان عندي بمثابة أفضل صديق. أقرب من كل ما عرفتهم. إنه ميتٌ الآن، ولكن هذا فصل آخر من الحكاية.

دوّن في كتب والدته السيدة "ناتاليا روشكوفا" ما يلي:

كل رجل يولد في برج العذراء يكون على الأغلب فضولياً ومتشدقاً، يساهم بنشاط في أعمال الخير، ولكنه لا يتلقى على الدوام ما يكفي من آيات الشكر والامتنان. أرملة ثرية تقع في غرامه، ولكنه يتزوج إنسانة عذراء بارعة، وذكية، ويصبح أباً للعديد من الأولاد.

يمكنني الحديث بإسهاب عن النقطة الأخيرة، وهذا ما سأفعله.

ربما هناك شيء آخر: اكتشف أبي في صورة أشعته أنه مصاب بما يسمى باللاتينية situs viscerum inversus، وهذا يعني أن أجهزته الداخلية موجودة في أماكن معاكسة للوضع الطبيعي — القلب على اليمين، الكبد على اليسار — وكأنه جاء من عالم مواز مرآتي آخر.

حقاً، كان نقيضي في العديد من الأمور. وكل واحد منا كان ينقصه شيء موجود عند الآخر. لقد كمّل أحدنا الآخر.

يمكن القول إن الولادات والوفيات حتى نهاية العشرينات من القرن العشرين كانت تتم في البيت. بدأت الكفة بعد ذلك تميل باتجاه المستشفيات الجميلة والمعقمة... سار كل شيء ببطء شديد — أنا من بين أولئك الذين ولدوا في البيت. "فويتا" كان أول طفل في "بريجاني" يرى النور في مشفى جميل وحديث. لم يكن ذلك يعني شيئاً للآخرين، ولكنه من اللحظة التي تعَلم فيها الكلام، لم يتوقف عن التفاخر بمكان ولادته، وكأنه قد حصل بذلك على امتياز خاص. أكثر الظن، والدته "ناتاليا" هي السبب.

أصبح "فويتا" في زماننا خبيراً كبيراً في التعامل مع الفئران. كان بارعاً في الإمساك بأي واحدة دون تعريضها للأذى. كنا نأخذ بعد ذلك قشة، وندخلها في مؤخرتها، وننفخ فيها حتى يصبح بطنها كالبالون

الصغير مما يمنعها من دخول وكرها. تحاول المسكينة دون فائدة ولكنها تصطدم بقوة في كل محاولة تقوم بها بالثقب. تُطلق فجأة بعدها ريحاً قوية، وتُنفسُ ما بداخلها من الهواء، وتهرب.

والد "فويتا" كان جندياً، وبشكل أدق — قائداً لطائرة حربية. غالباً ما رأيته عندهم في الحديقة ببنطاله "الكاكي" المعلق على شيالين، وبقميصه الأبيض وتسريحته المثالية. كان في أثناء ذلك يُقَطعُ الخشب أو يُقلم الأشجار التي كانت تيجانها تذكرني بشعره، على الأقل هذا ما كنت أظنه.

درب "فويتا" على الرمي من بندقية هوائية، ودربه أيضاً حين كانت السيدة "ناتاليا" تخبز الكعكة. كان "فويتا" يصيب حبات العنب ببراعة.

السبت 7.29.

يجب أن أستيقظ مبكراً في الصباح. سنذهب للاعتراف المُقدس. انتظرنا هناك وقتاً طويلاً لحين قام الأب "سافتسكي" بإرسالنا إلى اليسوعيين. بعد ذلك، وحين خرجت مع "فويتا" إلى الشارع مزقنا الورقة التي كتبتُ عليها خطايانا، ورمينا الصغيرة الأولى في الطريق، والثانية في القناة كي لا يتمكن أحد من لصقها. اشترينا لترين من القُشار، ولعبنا بالكرات البلورية الصغيرة في الحديقة العامة مع الآخرين. أحضرت منها اثنتي عشرة. أصبح عندي منها في البيت ثلاث وستون قطعة. جلست في الثالثة بعد الظهيرة إلى الطاولة، وبدأت بكتابة وظائفي التي أنهيتها في التاسعة مساء. رسمت المخطط، وأنهيت خمس مسائل رياضيات، وكتبت نصاً عن شقيقتي "تينا" وشقيقي "بتر" وحفظت قصيدة عن ظهر قلب. سأذهب إلى الفراش في وقت مبكر لأني أشعر بالنعاس.

شيء واحد لا يزال غامضاً عندي وأفكر فيه على الدوام — السيد المسيح كاثوليكي أم لوثري؟

باكتيفبرين لعلاج الترفع الحروري.

حرص والدي بشكل دائم على تمتين العلاقات العائلية. تزوج من أمي "برتا"، ابنة التاجر اليهودي الثري من أجل المال، وهذه رواية يتداولها الناس. (كانت مقولة *طازجة*، يمكن القول في نهاية الأمر إنها بطريقة ما مجرد ثرثرة. ولكن لا أحد منا في العائلة أزعج نفسه بذلك). رزقا بثلاثة أطفال – بنت وصبيين، أنا أحدهم.

أنا.

يقال إن الناس الذين غالباً ما يستخدمون في بدء حديثهم هذه الكلمة، يفكرون على الدوام بأنفسهم، ولكن هذه هي قصتي، ومن ثم – قصة والدي الذي سكنني، وكذلك حكاية "بوني" الذي سكنته في نهاية الأمر. لقد تداخلنا من بعد: هو، وأنا، وأبي، وتلك هي حقيقة ما حدث بسبب عدم وجود خط رفيع أبيض يصل بين الماضي والمستقبل. كل شيء عبارة عن حلقة . أجل أيها الأحبة، هذا هو الوضع!

حلقة:

لا تزال سنوات ما قبل الحرب عالقة في ذهني تماماً كما المَشاهد من فيلم مُلون، أو مشاهد من صور جُمِّلتْ خلفيتها، إذ يحدق فيها الناس بالعدسة بكل ما أوتوا من قوة، محاولين في الآن نفسه تصنع البساطة. ثمة ضرورة للضوء، الضوء القوي، كي تتمكنوا من رؤية شيء في الصورة، الزوايا المعتمة لا مكان لها هنا، كما لا يمكن التقاطها.

وبذلك تبقى نسخة صغيرة وأنيقة عن الحياة مرفقة بقصيدة صغيرة: *مثل بحر بلا نهاية، بلا نهاية، يا حبيبي؛ سيبقى قلبك الغالي معي إلى الأبد. مثل بحر هائج «مو عشقنا الفتي»؛ مثل طير صغير في عشه، هكذا، أحبك!* بينما البحرفي الديكور يفيض ويملأ المسرح بالفقاعات *الرومانسية*.

أمامي هنا صورة تجمع والدي ووالدتي، ولكني لا أعرف من أي سنة بالتحديد.

كانت والدتي تحتفظ بدفتر كبير متطاول، كُتب عليه بحروف تزيينية – النجوم المحببة Beliebte flmstars كما كانت تُخفي

داخل علبة الشوكولا Lindt und Sprüngli صور الممثلين الأمريكان والألمان — كاري غرانت، شارلي شابلن، وحتى إميل هوربنغر، و مارلين ديتريش، وهي الصور التي من المفترض أن تُلصق في أماكنها المحددة كي يصبح ألبوم أحبتكم من النجوم كاملاً. فعلت أمي ما بوسعها — لقد زاد وزنها في تلك المرحلة مما تسبب في تزايد قلقها.

لم تسمح لنا باللعب وتصفح ذلك الدفتر، كانت تغضب حين تجد أحدنا يمسكه بيده، ولكنها أحياناً، وفي يوم الأحد تحديداً بعد الغداء، وحين تكون في مزاج طيب، وأبي يغفو على الديوان، تُحضره — وتقول بحذر شديد —: *أنا من سيتصفحه يا "أداشكو"*[5] ! وتُرينا صوره.

أبي كان يتصنع النوم بعد الظهيرة حتى ولو كانت آلة الغرامافون تصدح بالموسيقى التي كانت والدتي تحب سماعها أثناء تصفحها ألبومها الغالي. كانت في غالبيتها من أغاني الأفلام، وإذا لم تكن كذلك — كان هناك صوت "فرانتيشك كريشتوف فسلي" الرائع بأغنياته المختارة من أوبرا "تحت علم غريب". كان يسحرني بصوته ولا سيما حين يؤدي بلهجة مجرية ناعمة: *أجمل ركن في الكون الواسع هو وطني ... إنه المكان الوحيد الذي أرى فيه ذلك الجمال...!*

بعد ربط المفتاح تدور أسطوانات "شلاكوف" سريعة العطب التي كتب عليها بحروف كبيرة *إيستا، أولترافون، أو هيس كاسترز فويس (مع رسم للكلب الصغير الذي يسمع صوت سيده الخارج من بوق الغرامافون)*

كانت تنضم إلينا أحياناً "ساره بلاو — جدتي اليهودية التي كانت تغفو بسعادة في الكنبة، ولم تتوقف في جعلنا نظن بأنها تسمعنا. لا أتصورها إلا مقصوصة من الورق لأنها غادرتنا في وقت مبكر. صورة تتحرك بلا حياة. شعر قصير تغطيه "باروكا" وفوقها منديل تزينه لآلئ صغيرة — كما هو معروف عن اليهودية العجوز المتدينة.

---

[5] أداشكو: تصغير اسم آدم

كانت تعشق الـ "ماتسس "*[6]. وكل ما له علاقة به. تضعه في الفنجان عند الفطور، وتسكب عليه القهوة البيضاء. كما كانت تُضيف إلى شوربة الدجاج *"جولدن يويخ"*، عجينة "ماتسس" المطحونة، والبقدونس الأخضر، ودهن البط كي تبقى ناعمة، وخفيفة وطافية على السطح.

على الرغم من أن جدتي وجدي كانا يملكان مجموعتين من الصحون، ويأكلان الطعام اليهودي الحلال "كوشير"[7]، إلا أنهما سمحا لابنتهما بالزواج من "جويا"*[8]. "زيدو بلاو" الذي كان يناقش الرب طويلاً طالما سمح له الوقت بذلك — يذهب في السادسة صباحاً للصلاة في معبد الأشكيناز، ويزور بعد ذلك في الثامنة معبد "السفارديين" كي لا يضيع عنه بالتأكيد أي حدث يجري بين السماء والأرض. كان يرسل الهدايا المالية في الأعياد تماماً كما يفعل أثرياء اليهود للرابين كي يوزعها على الفقراء، وحين يصل متسولو "هاليتش، وموكاتشيفا" يوزع عليهم الفطائر، ويدس في جيوبهم بعض الكورونات.

لم تكن ملامح أمي، ولا حتى ملامح جدي وجدتي أو عمي "أرمين"، أو عمي "أوسكار" يهودية نموذجية كما كتب عنها ووصفت بشكل واسع في الكراس المناهض للسامية *"مرآة اليهود"* من عام 1925 الذي زينته بشكل متقن صور رياضية للفنان التشكيلي التشيكي المُختل عقلياً "كارل ريلنكا". الذي رَسمَ اليهود وهم يذبحون المسيحيين في سواد الليل، ويغتصبون نساءهم، ويبصقون عليهم بطرق مختلفة بعد أن نهبوا بيوتهم وأموالهم. لا وجود لتلك الأنوف المحنية الكبيرة، كما أن منظرهم من الأمام ،حسب ما يقولون، لا يُذكر بالحرف 8، ولا وجود لآذان بارزة كبيرة، ولا حتى لعيون بنية اللون.

كنا نجلس جميعاً حول الطاولة في يوم الأحد لتناول طعام الغداء. كان حلماً نرتدي فيه ثيابنا الملونة.

---

[6] ماتسس: خبز يهودي رقيق بدون خميرة

[7] (حلال) عند اليهود كوشير: طعام

[8] جويا: مصطلح يهودي يُطلق على غير اليهود من أديان مختلفة

السبت 28. حزيران

جرت اليوم فحوص رجال الإطفاء. الناس يصفقون بعد أدائهم الناجح. لم تكن الفحوص عادة تجري هنا، ولكنها هنا اليوم بسبب الحرارة الشديدة. كان العديد يتابعونها. لقد نسيت أكل ما أحضرته معي من شدة انشغالي بالمشهد. لم أتمكن حتى من التنفس عند تناول طعام الغداء من شدة الرطوبة والحرارة. أخذت حماماً بعد ذلك.

تونوفاسفان يؤثر بقوة، مركب فوسفوري غير سام. تأثير مديد، يُحفز و ينشط العضلة القلبية.

"بريجاني" في فصل الصيف، كل شيء حار، يتعطش للماء.

الهواء لا يتحرك. يقولون إن الأجواء ذاتها كانت تُخيم على المنطقة قبل الحرب الكبرى الأولى، إنها تحرض على النوم والكسل. يقولون إن أعضاء مجلس المدينة كانوا يذهبون بعد الدوام دفعة واحدة لتناول الشراب في فندق "زوم جولدن هيرش" الذي زينت بوابته الرئيسة بتمثال غزال ذهبي. خصصوا لهم مكاناً للجلوس بعيداً عن أعين الناس وعن صخب الزوار في مطعم الفندق. جلسوا هناك مساء 28 حزيران من عام 1914، ومساء 28. أوكتوبر من عام 1918 أيضاً.

حين هرع خادم المدينة الذي أصيب بحالة من الهياج وجعل يفتش عن الطريق الذي يوصله إليهم بين الطاولات، لم ينتبه أحد إليه حتى توقف أخيراً وهو يلهث بالقرب من الطاولة:

"لقد أعلنوا الآن عن ولادة جمهورية تشيكوسلوفاكيا!"

نعم، الإمبراطورية النمساوية المجرية، انتهت تلك "الأميبا" الهائلة الممتدة فوق أراضي وسط أوروبا إلى الأبد. لم يتوقع لها إنسان نهاية مختلفة.

التفت العمدة إلى الخادم وقال له بفمه المليء بالنبيذ الأحمر:

"لنترك الأمر إلى الغد!"

كلمة السر تلك كان بوسعها أن تكون بكل بساطة جزءاً لا يتجزأ من شعار مدينة "بريجاني" الذي يحتوي إضافة إلى المعتاد عنقوداً من العنب

إضافة إلى سهم القديس "إيغيديا" والحرف الكبير ب. وربما سيكون من الملائم أن يوضع في أسفله ذلك الشعار، غير الفصيح ولكنه باللغة الدارجة: *لنترك الأمر إلى الغد!*. الذي يُصور المدينة بصدق.

خاصة حين نعرف أن القرن التاسع عشر لا يزال مستمراً عندنا، وأن براعمه قد اخترقت أعماق طفولتي. ومن الصعب إنهاؤه.

تعودنا السير في نزهات الأحد على امتداد الساحة. والدي الشاب النحيل، الوسيم، ببزته المخملية المحببة إليه، أمي في ثيابها الصيفية (بالطبع، قبعة صيفية لأنها في تلك الأثناء كانت بحاجة لوضع شيء على رأسها)، أنا مع أخي نقفز في لباس البحارة. أختي بفستانها الجميل. هذا على الأقل ما التقطته الصورة التي اصفر لونها، وأنا الآن أمسكها بيدي.

من غير المعقول أن نمر من أمام مخزن الحلوى دون أن نتوقف هناك سيما وأن الأطفال شغوفون بتناول المثلجات. كنا في تلك الأثناء نتقاطع في الصورة مع "فويتا" ووالديه — الجميع يتبادلون التحيات. والد "فويتا" يتباهى ببزته العسكرية الرائعة، إنه الآن مرشح ضابط طيار حربي، لا أعرف الرتبة بالضبط.

مخزن الحلويات يملكه "بوشكار". غالباً ما يجلس والدي عنده للعب الورق مع غيره من سكان "بريجاني" حيث يتزود هناك بآخر الأخبار. كان بعض اليهود يجلسون معهم. طبيب الحيوان السيد "شرايبر"، الشخصية المؤثرة، والمحامي السيد "ريس" الذي لم يُوفق كثيراً في عمله لأن الناس عادة يحبون أكثر أولئك الذين لا يحملون السوط على الدوام، ولا يمنعونهم من ارتكاب الحماقات.

كان يشاركهم "أمبي كريس" الذي كان يحب التجول بدون قبعة مع أنه كان يحملها معه معلقة بالسنارة في معطفه. إحدى نزوات "أمبي كريس" كانت إنشاء حديقة نباتات صغيرة في "بريجاني". سخر الكبار منه ولكن الصغار أعجبوا بعمله — تعود مقابل أجر بسيط مرافقتهم في

جولة بين النباتات والأشجار الغريبة إلى أن تمكنت الصَبرة الشديدة في عام 1944 من الإجهاز عليها. كان يقول إن الجلوس في أي مكان ممكن في حالة توفر الأكل والشراب والتبغ بالطبع.

"بوشكار"، كان مغرماً بتكرار قصة والدته التي تحرك عندها الطَلق وهي في طريق عودتها من المقبرة مما جعلها تضعُ عند أناس غرباء خلف أول باب طرقته. وفي هذا المكان بالذات يوجد الآن مخزن بيع الحلويات. لم يُصدق أحد كلامه.

كان يملك قاموساً غريباً. حين "يطلق ريحاً" دون قصد في أثناء الصراع الدائر في لعبة الورق "مارياش"، كان يلطمُ ظهر من يجلس بجانبه بحماس، ويصرخ: *بوينس آيرس، أمريكانو!* ولكنه لم يتجرأ ويتصرف بهذا الشكل مع أبي حتى إنه استمر في مخاطبته على الدوام بصيغة الجمع. وغير ذلك كان يُكرر أشياء غريبة مثل: *لقد أهداني رب الحلويات فطيرة، تماماً كما أهداني رب الأمراض التيفوس.*

مخزن حلويات "بوشكار" لا يزال — على الأقل في الصورة– موجوداً في الساحة.

نتدافع إلى الداخل. أنا، وأخي "بتر" وأختي "تينا" (تينا، تريد منا أن ندعوها "تينا" لأن اسمها الحقيقي هو "مارتا" ولكنها لا تحبه على الإطلاق — لقد ظن الجميع أنها في الحقيقة مارتينا). أهلنا بقوا واقفين في الخارج يتمتعون بأشعة الشمس.

"أريدها بطعم الفريز... ! صرخت.

"بوشكار"، يلقي التحية على والدي عبر الباب:

"نهارك سعيد، السيد الطبيب!"

"تينا" تنحرني وتقول لي:

"يقولون –من فضلك!"

"بطعم الفريزِ، من فضلك!" قلت وأنا أزورها.

"حالاً، حالاً...،" يرد "بوشكار" وهو يقبض على ملعقة البوظة.

"أريدها بطعم الفانيلا" تقول "تينا".
رنون بالنقود. يعطونه إياها، وهذا يشعرني بالخجل.
"يقولون – *من فضلك*" أصرخُ.
أخونا الأكبر "بتر" يبتسم فحسب. من يدري السبب، إنه لم يحب البوظة في حياته.
"أربعة وسبعون كاملة فاصله ثلاثون ستوتين[9]" يبتسم "بوشكار".
"ماذا...؟" تفنجر "تينا" عينيها.
"يقولون– *من فضلك*!" أنحرها متقصّداً إزعاجها.
"أربعة وسبعون فاصلة، ثلاثون ستوتين (بالمئة)!"
تتطلع "تينا" في راحة يدها على قطع النقود، ولا تعرف ماذا تفعل.
"ملاحظة– كورون واحد تشيكوسلوفاكي يعادل رسمياً سبعة وثلاثين فاصلة خمسين ستوتين (بالمئة) من ميلغرام ذهب."
"ها، ها".
"إذاً يمكنك الدفع في الذهب أو في الكورون. الأمر عندي سيان" يضحك "بوشكار" باستمتاع واضح.
تضع "تينا" بارتباك كورونين على طاولة الخدمة، ثم تلعق الآيس كريم الأصفر الذي جعل يسيل على يدها وتهرع باتجاه الباب.
"إلى اللقاء....!" يصرخ خلفها "بوشكار".
نخرج من المخزن. أبي يقف أمام الفترينة. إنه يتبادل الحديث مع السيدة "نبساروفا" (السماوية ـ ملاحظة المترجم). إنها "إنكليزياركا" (مدرسة اللغة الإنكليزية)، تقول والدتي، وأنا لم أفهم طويلاً ما تعنيه بذلك مع أن كنيتها غير العادية يمكن أن ترشدني إلى مهنتها.
نتسابق، وندور محاولين ما بوسعنا تلطيخ ثيابنا بالبوظة التي كانت تذوب بسرعة في أشعة الشمس.

---

[9] الهيلر جزء من الكورون، والستوتين جزء من الهيلر كما نقول الليرة والفرنك والقرش

"تقولين، السائل الأمنوسي كان أصفر اللون؟ يسأل والدي وهو يمسح نهاية أنفه. كنت أظن دائماً أنه لا يستسيغ "نيساروفا"، ولا يثق بها أيضاً، ولهذا كان حذراً في الجواب كي لا تفسر ما يقوله على نحو آخر كما يعرف عنها.

"نبساروفا" تومئ برأسها.

"في أثناء موت الجنين الظاهري تكون بشرته زرقاء على حمراء كما ينتفخ وجهه وجسمه بالكامل؛ الأطراف الأربعة متشنجة قليلاً، والشرج مفتوح، وأصوات القلب متقطعة وضعيفة كما يتوقف النبض في حبل السرة أو يبقى ضعيفاً... إذا ضغط الجنين على إصبعك الصغير حين تضعينه في حلقه، يتوجب عليك في الحال البدء بعملية الإنعاش. تقلبيه على بطنه وتبدئين بمص المفرزات من فمه وحلقه. من الفم والحلق، هل تفهمين؟"

تُغلق "نبساروفا" عينيها مثل قطة كبيرة في محاولة منها لتذكر كل كلمة.

"بعد ذلك، يجب إمساكه من صدره وهزه عدة مرات ثم نرفعه بيد واحدة ونضربه على مقعده ونعود ونمسك به من جديد من صدره ونهزه عدة مرات. إذا لم ينتعش علينا أن نرش الماء البارد على صدره ووجهه. بعد ذلك يعود إليه تنفسه ولونه الوردي. من الضروري أن نتابع إلى أن نسمع صوت بكائه القوي."

"نبساروفا"، تشكر، ثم تقوم بتمرير يدها على رأس أحدنا، وتنكش شعر الآخر، تبتسم، وتغادر. ينضم إلينا الوالد.

نعم، لو أن أحدهم قام الآن وفي تلك اللحظة بالتقاط صورة فإنه سيلتقط صورة العالم الذي يعيش فيه الجميع بسعادة وبمزاج طيب. العالم الذي لم يحدث فيه على الإطلاق أي شيء مثير، ولا يحدث، ولن يحدث في المستقبل، العالم الذي لا يهدده شيء، العالم المثالي، العالم الكامل الشمس في ظهيرة يوم أحد كسول في إحدى مدن سلوفاكيا المسماة "بريجاني"

أحدهم، قام بالتقاط تلك الصورة حقاً، ولوّنها كما وضع عليها ختم "نيجني" وشركاه. حيث يتوقف الوقت الذي لم يكن موجوداً على الإطلاق.

حتى إنه التقط في نهاية الأمر في خلفية الصورة في تلك اللحظة إضافة إلى العديدين، صورة "إتشكو" – البرغي وهو يحني ظهره بحثاً عن أي قطعة خردة صغيرة يمكنه أن يجدها في الشارع – برغي، عزقة، أو قطعة حديد – ليحملها معه بهدوء إلى البيت. تعوّد فك كل قطعة وتركيبها من جديد، وفي كل مرة تزداد عنده القطع. تتجمع عنده في الرواق الخردوات جميعها، بدءاً من هيكل السيارات وانتهاء بقطع مختلفة يصعب على أي إنسان أن يقول فيها شيئاً أو يحرز الفائدة المرجوة منها.

"إتشكو – البرغي" تاجر ذكي. إنه يبيع دائماً الأشياء الخمسة أو الستة نفسها، وبذلك يكون السبّاق في تنفيذ طريقة بيع المتاجر الكبيرة.

"تفضلوا، تفضلوا! مقصات خاصة للأزهار، مقص خاص للسيكار! تفضلوا وشاهدوا!"

"أرني..، أخبرتني قبل أسبوع أنه مقص فرنسي لتصليح الرموش، وسكين لسدات الفلين!"

"نعم، ولكنها كانت أشياء مختلفة. لا يمكنكم تصديقي إذا أخبرتكم أن الزبائن أوشكوا على التصارع فيما بينهم للحصول عليها! عندي الآن أشياء جديدة، نخب أول! أشياء جديدة. لا تسمح لأحد أن يغُشك!"

"لا تقل – أتذكر هذا، تلك اللصاقة!"

"لا أظن، تريدين القول أيتها السيدة أني أكذب. ليس لديك ما يبرر ذلك. نعم، صحيح، يمكنني القول إن ذلك المقص يمكن استخدامه لتصحيح الرموش، ولكن وظيفته الرئيسة هي قطع الأزهار. تماماً كما هو حال تلك السكينة الصغيرة – يمكن استخدامها للسيكار، ولكن إذا أراد سيد البيت شرب النبيذ فإنه لن يجد أفضل منها لنزع الفلينة!"

"عذراً، ولكنك أكدت لي في المرة السابقة أنها شفرة لقطع الجلد القاسي في كعب القدم."

"لا بد أن هناك خطأ. شرفني حضورك، تحياتي!"

في مكان بعيد حيث لا يمكن لأحد غيري تمييزه — يتمشى طبيب أسناننا، الدكتور "غرونسكي" — اليهودي الأرثوذكسي، إنه الآن في نزهة الأحد مع زوجته، المواطن المحترم. من يعرف معنى *الوريد الذهبي* "البواسير" في مصطلح طب الأسنان، والدي كان يُمثل عنده شيئاً كهذا. يحملُ على أنفه نظارة، ويضع على رأسه طاقية تنتمي إلى العالم القديم، وكأنه يريد التذكير على الدوام بوجود أوقات طيبة في السابق بغض النظر عما هي عليه الآن.

7

في أثناء تصفحي، أمدُ يدي وأسحب من جارور الطاولة زجاجة صغيرة تحتوي على "نواكس". أنقط خمس نقاط في الملعقة، وأبلعها. طعم مُر ينتشر على لساني. أفعل هذا مذ أصبتُ بذلك الكسر المُعقد، وغالباً في أوقات المساء. "نواكس"، وصفه لي الطبيب في ذلك الوقت ضد الألم. ولكن ما العمل، إذا كانت الطبيعة البشرية تتوق إلى تحسين المزاج قليلاً. السجائر، الكحول أو حتى "إبالجين" غير المؤذي للسيدات المتقدمات في السن. هكذا فحسب، لتحسين المزاج. سوف يتفتحُ ذهني بعد لحظات، ليس كثيراً، ولكن قليلاً. "بوني" كان سيُسميه *"الرنين"*

إحدى الصور التي أتفحصها بالقرب من المصباح الصغير، تُظهر منزلنا من الأمام حيث عُلقت على الجدار الخارجي لافته من النحاس الخالص: *ألفونس ترنوفسكي، طبيب خاص*. وكانت قد، عُلقت بعد وقت ما في مكان اللوحة الأولى – الرخيصة القديمة المصقولة التي لم تكن موجودة في الصورة. وما لم يظهر في الصورة هو عيادة والدي — عبر البوابة، من خلال الأدراج إلى الأعلى، وبعد ذلك مِتْران إلى اليمين. لقد ساهم في تجهيزها "زيدي بلاو"، ويمكن القول إن ذلك المبلغ كان بمثابة مهر زواج والدتي. الغرفة الأساسية مع المطبخ تم إعادة تأهيلهما ليكونا العيادة وغرفة الانتظار – علماً أن العلامات التي تُشير إلى وضعهما السابق بقيت مرئية إلى حد ما على الأقل في البداية.

درس والدي الطب في جامعة براتيسلافا وكلفه ذلك طبقاً للروايات مبلغاً ليس بالقليل على أمل الوصول في النهاية إلى مهنة مغرية وجميلة.
أحياناً، كان يتذكر تلك المرحلة ويتذكر أيضاً الثمالة الوريدية الذكية حين كان مع زملائه – طلاب الطب يحقنون الكحول النقي حيث تنتشر على وجهه تعابير رومانسية. لقد مر بمراحل تطور تقليدي في زمنه – طالب طب– مقيم خارجي – مدرس عملي – مساعد مدرس – مدرس بلا أجر. وبعد ذلك في النهاية إنشاء عيادة.
قام مباشرة بطبع بطاقات تعريف وزعها في الحال:
دكتور في الطب. ترنوفسكي، مدرس سابق في مستوصف الأمراض العصبية في براتيسلافا، طبيب خارجي لمستوصف الأمراض البولية في نترا، يتشرف بإعلامكم أنه افتتح عيادته في "بريجاني، شارع هوربانوفا 18". أحدث أنواع العلاجات، علاج فيزيائي، علاج بالأشعة تحت البنفسجية، سولوكس، موجات قصار.
عُلق في العيادة دبلوم دكتوراه في العلوم الطبية في مكان يثير الانتباه كي يقوم المرضى بمديحه في أثناء كتابته للوصفة الطبية.
كانت هناك غرفة صغيرة لجهاز الأشعة الذي كان يتفاخر به بشكل خاص، ويريه للزوار جميعاً. من الخارج بالطبع لأنه حساس وليس مُعداً للفرجة. الغرفة المعتمة مع اللوحة التي كُتب عليها بخط ذهبي على خلفية سوداء بقيت فارغة لأن والدي لم يكن لديه المال الكافي. المريض الفضولي لا يمكنه اكتشاف تلك الحقيقة حتى ولو أنه تطلع إلى داخل الغرفة في العتمة . المصباح مُعطل.
وقعت في غرام الصبية الموجودة في الإعلان وكنت لاأزال بين الخامسة والسادسة من عمري إذ نشأت بيننا علاقة حب جارفة ظهرت ملامحها بالعاطفة، والغيرة، والخصام، وانتهاء بالطلاق الذي لا رجعة عنه.
نعم، عاش والدي في البداية فوق مستواه – وهذا ما تؤكده اللوحة النحاسية البراقة، وبطاقات التعريف الفاخرة، وغياب أشعة "رونتجن"،

وكذلك مصباح الأشعة فوق البنفسجية غير الموجود، وحتى أثاث العيادة بحد ذاته الذي كان يلمع بقطع الكروم الجميلة والفولاذ المضاد للصدأ المبهر للعيون. كان يحب التظاهر والقول إن مفكرته ملأى — لقد ضبطتُ والدتي عدة مرات في تلك الأوقات وهو يضع سماعة الهاتف على أذنه (نعم، كان عندنا هاتف أيضاً ورقمه 46–75) ويُقلب الصفحات الفارغة، ويرد بالاعتذار على المحاولات الهادفة لتعيين موعد لعدم وجود وقت إلى أن يُوفق المذكور بعد المحاولة الخامسة أو السادسة في الحصول على موعد. باختصار، كان والدي في البداية يستخدم أسلوب التحايل الذي مكنه في النهاية وبالتدريج من النجاح.

إنها وصفة شائعة ولا تقتصر على مهنة الطب.

كان يذهب في البداية لفحص المرضى سيراً على قدميه أو بوساطة الدراجة الهوائية. ينام في الليل نوماً متقطعاً لأنه ينتظر في كل لحظة قرعاً على النافذة، وخبراً سيئاً سوف يسحبه من السرير وينقله إلى مكان ما في عتمة الليل. اشترى بعد ذلك سيارة "براغا بيكولا" لأن زيارات المرضى في أسرتهم باستخدام السيارة سيكون مردوده أعلى بكثير كما أن الأدوية التي يتم وصفها جميعاً ستكون أكثر فعالية. هذا ما قاله له مندوب إحدى شركات الأدوية الوسيم وهو يبتسم. عرض عليه لفافة تبغ أمريكية، ودعاه لتناول القهوة مع الفطيرة من مخزن "بوشكار" في الساحة. تحدث إلى والدي وشرح له أهمية السيارة التي نقلتهما حول الساحة وبين الطرقات البائسة الموجودة خلف المدينة.

قام والدي بعد ذلك بتجهيز عيادة في "نيفودوفا" على بعد خمسة عشر كيلومتراً، كان يذهب إلى هناك بالسيارة مرتين في الأسبوع. السكان يخافون السيارات ولهذا وضعوا لوحة عند أول منزل كتب عليها "السيارات 6كم في الساعة!" ومن يتجاوزها يتوجب عليه دفع مخالفة.

كانوا يقيسون السرعة أحياناً في الساحة ولكن والدي عادة يتهرب من ذلك بالتوقف في منتصف الطريق. كان عمدة المدينة يراقب السائقين عند المنعطفات إذا كانوا يستخدمون الزمور وفي حال عدم التزامهم فعليهم دفع غرامة.

كل هذا سببه "أمبي كربس" الذي أحضروه إلى العيادة بعد إصابته بكسر في قاعدة الجمجمة حيث كان السائل الدماغي يُنقط براحة من أنفه. اصطدم بعد "نيفودوفا" بالشجرة وأصيب بارتجاج شديد في الدماغ.

الأعمال الإدارية في العيادة كانت من اختصاص والدتي التي تقوم إضافة إلى ذلك بتعقيم الأدوات المستعملة. تزايدت أعداد المرضى مما جعل والدي يتناول طعام الغداء في حوالي السادسة، والعشاء قبل منتصف الليل، يمكن القول إنه لم يكن ينام على الإطلاق. الهاتف في العيادة يرنُّ دون توقف.

كان عند والدي في صندوق نقابة الأطباء مائة ألف كورون، وهذا الرقم مكنّه في نهاية الأمر من شراء جهاز أشعة "رونتجن" نقال ماركة "هليدور —دوبلكس، ووضعه في الغرفة المظلمة.. مع حماية كاملة ضد التوتر العالي، والأشعة الضارة). وحين كان عليه التقيد بالرسميات — جعل يزور كل صباح الحلاق الذي كان يدور من حوله في مريوله الأبيض حاملاً بيده شفرة الحلاقة لأنه كان ممنوعاً من فعل ذلك وحده كي لا يغتابه الناس وتلوكه الألسن. المنافسة على أشدها، و الناس يقفون له بالمرصاد، وللسبب نفسه استخدم سائقاً خاصاً في أثناء زياراته البيتية لمعاينة المرضى المتحدرين من أصول، وعائلات محترمة (وللصدف هو سائق "أمبي" إن كان لديه متسع من الوقت). يقوم في أثناء ذلك بتلميع السطح الخارجي للسيارة، ويبتسم بصبر. الناس يعشقون التظاهر كما في الأفلام، ولا سيما في البلدات الصغيرة المكتظة بالناس الصغار الذين بقوا صغاراً حتى بعد توسع المدينة وانتفاخها وانتشارها وحصولها على لقب "محافظة"، ومع ذلك بقيت إلى الأبد بلدة صغيرة تعتزُّ بصغرها وبعلاقاتها وتقاليدها الصغيرة.

والدي كان على الدوام يعبرُ الساحة بخطى ثابتة قصيرة، ويتبادل أثناء ذلك التحية مع معارفه مستخدماً قبعته. تعوّد قراءة الصحف أثناء الحلاقة والإصغاء لما هو جديد في المدينة.

الحلاق هو شقيق أمي، العم "ارمين"، إنسان حاضر النكتة، لا يتوقف عن الكلام، وبما أن والدي كان يطلب الهدوء، كان يبتسم مُجبراً، ويكتفي أحياناً بترديد "أها ها، أو، في أفضل الحالات ، حقاً؟"

غالباً ما كان "أرمين" يأخذ معه حقيبته الجلدية السوداء الشبيهة بحقيبة والدي الطبية حين تطلبه عائلة "سلبرستين" من أجل حلاقة شعر أفرادها الذين يطلبون تحديداً حلاقاً يهودياً يأتي إلى بيتهم الموجود في الساحة. بالطبع كان يروي لوالدي كيف أن العجوز "سلبرستين"، تاجر الأقمشة الشهير، طلب من ولديه "أرتور، وألبرت"، اللذين يكره أحدهما الآخر إلى حدود الموت، ولا يتحمل أحدهما الآخر في غرفة واحدة وما كانا ليلتقيا في ذلك اليوم لولا تلك المناسبة التي انتظراها بفارغ الصبر، المثول أمامه وهو على فراش الموت. كان "سلبرستين" الأب يتمدد تحت اللحاف الرطب ويمسك بيده قطعة خبز مدهونة بالزبدة وعيناه تشعان ببريق احتفالي. طلب منهما الاقتراب من السرير، وهذا ما فعلاه.

"راقبا باهتمام!" قال لهما.

حين قضم شريحة الخبز، لاحظ ولديه وجود قطع ورقية متطاولة فوق الزبدة. أدهشهم ذلك المشهد حتى إنهما لم يتمكنا من منعه. الوالد ملأ الخبز بطوابعه الثمينة — جميع أنواع الطوابع من فئة الخمسين وغيرها من الطوابع النادرة. يصعب التعبير بشكل آخر لأنه التهمهم بكل بساطة وبسرعة، ولم يمنح ولديه الفرصة الكافية ليسحبا الخبز من يده ومن تحت لسانه، ومن بين أسنانه.

"فعلت ذلك كي لا تتخاصما بسببها في المستقبل. يمكنني أن أموت مطمئناً الآن."

شكلت النساء الموضوع الرئيس في حديث العم "أرمين" بغض النظر عن الشكل أو الحالة قالت والدتي إنه بقي عازباً كي يكون جاهزاً على الدوام.

استخدم والدي في العيادة أسلوب الحديث مع المرضى بصيغة الشخص الثالث. استخدمَ الأدوية بشكل منتظم.

"ما الذي يؤلمه؟"
"هل يسعلْ؟"
يضع بعد ذلك على الصدر العاري نهاية سماعته البرونزيه.
"يتنفسْ، يتنفسْ بعمق! بعمق! يستدرْ! حسناً"
يتنفسْ، يتنفسْ!

يعتبر "موناكو" مخلوقاً استثنائياً. حين كان في الثلاثين، أخبره والدي بعد فحص طبي دقيق أن البقع السوداء الموجودة في صورة الصدر سببها مرض السل، ومن ثم لم يبق له في الحياة سوى سنة واحدة، وحتى لو أنه لا يشعر بشيء إلا أن الدم الذي يتقشعه في أثناء السعال، يدل على اهتراء الرئتين، لهذا يتوجب عليه السفر في الحال إلى "هاغي" *

خرج من عيادة والدي وذهب مباشرة إلى فندق "زلاتي يلن" بعكس ما هو متوقع، حيث طلب زجاجة نبيذ أحمر، وعلبة سجائر. وضعهما مع الكأس بجانب صورة أشعة صدره.

راقب الصورة طوال المساء، وراح يشرب النبيذ ويشعلُ السجائر الواحدة من الأخرى. طلب بعد ذلك زجاجة نبيذ جديدة، وعلبة سجائر جديدة أيضاً... إنه يتطلع ويتطلع إلى صورة أشعة رئتيه الزرقاوين — السوداوين حيثُ دوّن اسمه في أسفلهما. مع حلول الصباح، وعند صياح الديك، وبعد أن شرب أربع زجاجات نبيذ، واستهلك خمسين سيجارة، نهض عن الطاولة، وذهب إلى البيت.

قال لوالدي: لقد تمكنت في تلك الليلة من استرجاع توازني، هنا في رأسي."

عاش بعد ذلك سنوات طويلة. ولكن الدور الذي كان عليه لعبه في حياة والدي كان له تأثير النكتة السيئة.

مرة في المساء حين كان والدي يُجهز نفسه للعشاء المتأخر بعد أن أبلغته المرضة "زدنكا" أن غرفة الانتظار خالية من المرضى، دخلت في تلك اللحظة إلى العيادة صبية متوترة وقعت في غرام رجل ينتعل حذاءً أحمر ببوزٍ رفيع

معدني. هذا هو الشيء الوحيد الذي تمكنت من قوله عن الرجل الغريب المجهول الذي يمكن أن يكون تاجراً مسافراً، ربما وصل من إحدى المدن الكبيرة، يمكنها أن تكون براغ. هربت معه من المدينة، وعاشا في فنادق متعددة، بدا كل شيء رومانسياً ورائعاً إلى أن تركها، وفر هارباً في صبيحة أحد الأيام عند الشروق مع حذائه الغريب الأحمر إلى مكان مجهول. حين نحلل الحادثة نجد أن المذكورة وقعت على الأغلب في غرام الحذاء.

اسمها "كلاوديا"، وشيء آخر. طلبتْ من والدي إجهاضها. كانت "كلاوديا" بحرف "ك[10] كبير"، ويمكن كتابته بطريقة أكبر كما جرت العادة في بداية الاسم. "ك.كلاوديا هورفاتوفا"، والدي يعرف التحدث عنها أكثر.

قام والدي بفحصها بشكل روتيني وأخبرها أنها على الأغلب غير حامل، ولكنها لم تُصدق كلامه. قالت إنها تتفهم سلوكه الأخلاقي بوصفه طبيباً حين لا يجد سبباً مقنعاً يجعلها تتخلص من الطفل، ولهذا يريد ثنيها عن مرادها. أضافت أنها تريده أن يؤكد لها ذلك خوفاً من تأخر الوقت بعد عدة أسابيع ومن ثم لا يمكنها فعل شيء. لذا طلبت من السيد الطبيب أن يساعدها — أن يحاول بحقنة (سمعتْ عن وجود حقنة تساعد في التخلص من الجنين في الأشهر الأولى)، وبعد ذلك لن تكون بحاجة إلى إجراء عملية إجهاض. ستكون ممتنة كثيراً لو ساعدها.

طلب منها والدي أن تخلع ثيابها ثم قام بتجهيز حقنة كبيرة، فرغ محتواها من الماء المُقطر تحت جلدة بشرتها الناعمة.

حين جاءت لزيارته بعد أسبوعين شعّ وجهها فرحاً. شكرته، وأخبرته أن الحقنة ساعدتها، وأن كل شيء الآن على ما يرام.

8

كنتُ معجباً على الدوام بأسلوب والدي في تنظيم حياته. تعوّد مثلاً الاستيقاظ باكراً، والركض في لباس رياضة الغولف مع القميص المزرزر

---

[10] ك: هو الحرف الأول من كلمة كورفا بالسلوفاكية وتعني مومس

حتى الرقبة، وعلى رأسه الطاقية إلى أعلى نقطة في أعلى التلة القريبة ومن ثم تنفيذ تمارين التنفس، والتمارين بشكل عام، وبعدها العودة هرولة إلى البيت. قبل ذلك كان يقف في أعلى التلة ويراقب بزوغ شمس الصباح (كيف كانت تتعلق في السماء)، يتنفس بعمق، ويتغنى بينه وبين نفسه بجمال ذلك اليوم، وروعة الزمن الذي نعيش فيه.

عادة ما يلتقي أثناء نزوله من التلة العميد (الأب) "بترسكي" الذي كان يلقي على والدي التحية باحترام، ويظهر وكأنه – باستثناء شكواه من الروماتيزم وبداية النقرس– يريد سؤاله عن شيء ضروري. ظن والدي أنه يتخيل ذلك، ولكن شيئاً من هذا حصل في الواقع:

"اعذرني.. هل تداومون، أيها السيد الطبيب على زيارة الكنيسة؟"

أومأ والدي برأسه.

"هذا شيء جيد، جيد جداً! اعذرني على سؤالي لأني لم ألمحك في القُداس، وهذا ليس بالشيء الغريب لأن كنيستنا تكون عادة مكتظة، حمداً لله، بالمصلين في يوم الأحد!"

"ولكني لا أشارك في القداس."

تيبس "بترسكي" وقال: "إن المشاركة في الصلاة في اليوم المقدس هو أحد واجباتنا المسيحية، ومع ذلك، شيء جميل أنك تزور الكنيسة أحياناً."

"لا، إنني لا أذهب إلى هناك للصلاة، عليك أن تفهمني"

"لا؟ هنا عليك إذاً أن تشرح لي السبب."

"إنني أزور الكنيسة للكشف على الأموات يا أبانا. وحسب التعليمات، علينا القيام بهذا الفحص في مكان حدوث الوفاة، وهذا يعني أن من واجبي الذهاب حتى إلى "فولوفتس"، وإلى القرى الصغيرة الموجودة في التلال التي لا يمكنني الوصول إليها إلا سيراً على الأقدام. إنني بذلك أهدر وقتاً طويلاً. في الأحوال كلها إنهم ينقلون الموتى قبل الجنازة ليراه القديس "أغيد"."

دور الكاهن "بترسكي" رأسه وتابع طريقه .

كان قسيس الأب "بترسكي" المدعو "يابلونسكي" يرافق والدي أحياناً أثناء زياراته للمرضى في سيارة "براغا" إلى "هرادتسكي" وبعد ذلك إلى "ربريناك" الموجودة في أعلى التلة. والدي يفحص المريض، وبعدها ينفذ القسيس طقوس المسحة الأخيرة، إذا كان — حسب الديالكت البريجاني- المذكور يحضر *نفسه للدفن*. يشربان بعد ذلك ما يجودون به عليهما من "السليفوفتسا" [11] ويعودان أدراجهما إلى البيت بالسيارة.

مرة اعترضهم موكب الشيوعيين. أخذني والدي معه في ذلك اليوم للنزهة. توجب علينا الانتظار في السيارة لحين مرور موكب أول أيار. شارك في الاحتفال طلاب مدرسة الأخشاب الذين أجبرهم مُعلمهم على الاشتراك في المسيرة — فرحوا لأنهم سيتركون مقاعد الدراسة في ذلك اليوم الجميل. الشاركون الرسميون كانوا يمتطون الدراجات الهوائية المُستأجرة المزينة بالأوراق الحمراء. البوّاقون في المقدمة بوشاحاتهم الحمراء. صدحت موسيقى النشيد الأممي لعدم وجود من يتقن الغناء أو العزف بينهم. دعا مسؤول الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي المحلي الجميع بعد انتهاء المسيرة لتناول طعام الغداء في مطعم فندق "الغزال الذهبي" كي يُشعرهم بكرم الشيوعيين وإنسانيتهم.

استدار أبي نحو القسيس "يابلونسكي" بعد انتهاء المسيرة وقال له:

"الرب يراقب كل شيء، وهو يتسلى بنا!"

"ما هذا الذي أسمعه منك أيها السيد الطبيب!"

9

كان لوالدة "فويتا" اسماً جميلاً "ناتاليا". تقول عند كل تعريف بنفسها إن والدتها التي تعشق الروس منحتها ذلك الاسم تيمناً باسم عشيقة "بوشكين" ناتاليا كونتشاروفا التي تُعتبر أجمل امرأة في زمانها. وتُضيف: مات "بوشكين" بسببها أثناء المبارزة. من يدري، ربما أرادت

---

[11] سليفوفتسا" شراب كحولي مقطر مصنوع من الخوخ

الإيحاء لزوجها بأن يُحضِّر لها أيضاً قرباناً بهذا الشكل. إذا كانت تحتاج لكي يُضحي بحياته من أجل جمالها والتخلي أيضاً عن متابعة مؤلفاته لشاعر آخر – بكلمات أخرى، كي يتمكن جمال جسمها من تدمير جمال الروح، وكل ذلك حباً بالتدمير – كان عليها ربما أن تختار "يان سمركا" كزوج لأنها تعشق أشعاره. لسوء الحظ، لم تلتق ذلك الأديب في حياتها.

تتحدر "ناتاليا" من عائلة "بريجناوية" كاثوليكية معروفة حيث لكل شيء مسبباته، وقواعده. كان معروفاً بالضبط من هم على ما يرام ومن هم عكس ذلك – وهذا الشيء انعكس على الخارج بالتباهي الأرستقراطي إضافة إلى الإيمان بأن أفراد تلك العائلة المحترمة يُعبرون عن معايير الفضاء بأكمله. وحسب تصوراتهم، الرب الطيب يُقرر ما هو جيد، وما هو سيء، وليس العكس. حصلتْ "ناتاليا روشكوفا" منه كهدية على الجمال إضافة إلى بروز الوجنتين والوجه الدائري، والعينين الخضراوين الجميلتين، والذقن الجبروتية الصارمة، والقرار السليم، والشعر الأسود الطويل. كانت جميلة حين تغضب، وهذا ما كان يحدث مراراً في الحقيقة.

حين كنا نلعب في غرفة "فويتا" مع جيشه المصنوع من الخشب – أتذكر جيداً أحد تلك الأيام– سمعنا صراخاً متقطعاً آتياً من غرفة الجلوس، اهتزت بعد ذلك الأبواب.

"غبية" جاء صوت والد "فويتا" الذي كان يتمشى في المعبر.

ركضت خلفه، وصرخت:

"وماذا عن ركبتيك الملطختين دائماً من المرج؟! كيف حدث ذلك، أيها العاهر؟"

انتبهتْ بعد ذلك إلى أن باب غرفة "فويتا" مفتوح، لذا تصنعت الابتسامة، وتمايلت برأسها وسألت:

"ما رأيكما بكأس عصير ليمون أيها الأولاد؟"

عادت بعد ردنا الإيجابي إلى المطبخ حيث سُمع صراخها من جديد.

كان معروفاً في "بريجاني" (تهامس الناس على الأقل) أن والد "فويتا" تزوج منها في الأساس لأنه يتحدر من عائلة فقيرة تتألف من عشرة أولاد. ولأنه الأصغر بينهم، لم يبق له مكان في البيت، ومن ثم، كان الحل المنطقي لتلك المعضلة هو انتسابه إلى المدرسة العسكرية. أحبت "ناتاليا" بزة الطيارين في حين أحب والد "فويتا" البيت الذي شغل المخزن الكبير العائد لوالد "ناتاليا" طابقه الأرضي، حيث تكدست هناك أنواع مختلفة من البضائع.

السبب الثاني الذي اضطره للزواج — وهذا ما أخبرني به "فويتا" بعد سنوات أثناء احتسائنا زجاجة "متاكسي" التي كان يحبها — رغبته في الحصول على رتبة في الجيش يمكنها أن تساعده على الارتقاء في المناصب، وبما أنه كان يخرجُ معها، طلب يدها للزواج. وغير ذلك فقد خضعت للإجهاض مرتين بسببه، وهذا الشيء بقي سراً في العائلة. وُلد بعد ذلك "فويتا"، ومن بعده أخوه "تيو". ولكن والد "فويتا" كان مغرماً بصبية غيرها— أقل تعقيداً، وأكثر لطفاً — وهذا ما أكدته ركبتاه الخضراوين. غالباً ما كان يمضي أوقاته في كتيبته، ولكن بعيداً عن البيت.

"ها قد وصل العصير أيها الأولاد! قالت السيدة "ناتاليا"، وهي تضع الصينية مع الكأسين وزجاجة العصير على الطاولة.

توجب عليها تأمين كل شيء وحدها، لأنها طردت الخادمة "إلينكا" قبل يومين، ولم تجد البديل حتى الساعة. اضطرت "إلينكا" لترك العمل لأنها أنشأت علاقة مع الطبيب اليهودي "فريدل" الذي وصل من "نترا" لقضاء العطلة. وعلى الرغم من أنهما شوهدا سوية مرة واحدة على العشاء إلا أن ذلك كان كافياً، ويعني الشيء الكثير، تخاصمنا وتوجب على "إلينكا" أن تُغادر.

كان من المفروض أن يلتمّ شمل الصالون في هذا اليوم، وهذا ما جعل السيدة "ناتاليا" تستعين بعد الظهيرة بعناصر من قصر (الكونت) النبيل. طباخ وخادمتين. تم اللقاء في *غرفتها السلوفاكية* الحبيبة التي لم تغب

عنها العكاكيز التقليدية، والأثاث المحفور حسب القياس، واللوحات، إضافة إلى تمثال الراعي في زيه التقليدي مع كلب الحراسة.

ما يؤكد حدوث مثل تلك الحفلات هو *كتاب الزوار* المغلف بالجلد الذي كانت السيدة "ناتاليا" تحتفظ به. لقد قام الزوار جميعاً بتدوين شيء لطيف أو رسم شيء ما. سُجلت هناك كلمات خطها عمدة المدينة (السابق والحالي)، وكلمات كاتب العدل "ليفندوفسكي"، والعميد القس "بترسكي"، ومغنية الأوبرا الشهيرة "يارميلا كشيروفا"، إضافة إلى كلمات خطها "فرانتيشك كريشتوف فسلي". كانت السيدة "ناتاليا" تتمنى دوماً تحويل بيتها إلى صالون ثقافي كبير لعموم مدينة "بريجاني".

حاولت استدراج واحد – اثنين من الشعراء المقيمين في المدينة إلى صالونها، ولكنهما فضّلا الذهاب إلى براتيسلافا – حيث بانتظارهما هناك دور النشر، والمقاهي الحقيقية. من جملة الفنانين المحليين كان يتردد على صالونها الأب "سافتسكي" الذي كان يكتب – إضافة إلى شغله منصب نائب مدير الثانوية الكاثوليكية – الروايات التاريخية. لقد اشتهر ببلاهته.

وغير ذلك يعتبر الأب "سافنسكي" مريضاً مزمناً عند والدي – كان يشكو من الأمراض الموجودة جميعاً، ويُضيف إليها أمراضاً سيتم اكتشافها في المستقبل. كان مولعاً بالحديث عنها، كما كان يتفاخر بمجموعته الكبيرة من الأدوية. احتفظ بأدوية للأمراض كلها. للألم، وللكريب، وللطفح الجلدي، وللنوم، وللأرق، وللحزن، ولزيادة الفرح، وللوهن، ولتنشيط الذاكرة، وما شابه. كان يبلع الدواء تماماً كما يبلع الحلويات. غالباً ما تراه يَمُص شيئاً في فمه ويعرض منه على الآخرين.

10

انتصب في الساحة الرئيسة – هناك حيث يوجد الآن فراغ بين البيوت التي تنتظر الفرصة، خلف لوحة مجمع "تسكو".[12] – قبل الحرب

---

[12] تسكو" سلسلة سوبرماركت في تشيكوسلوفاكيا

مخزن صغير. علقت فوق مدخله "قارومة" كبيرة، وفرشت ارضيته بالخشب المُشمع حيث يقف السيد "ملانك" في داخله خلف طاولة التخديم بلباسه الأنيق مع مريوله الأبيض الناصع البياض. كانت ابتسامته حاضرة على الدوام بسبب أو بدون سبب لذا فإنها شكلت قِناعةً الذي لم يعرف وضعه جانباً.

مَثّل السيد "ملانك" الشيء الوحيد الذي لم يتغير في "بريجاني" خلال السنوات الماضية. وقف في المكان نفسه، وبملامح الوجه ذاتها — في الصيف، وفي الشتاء، وفي الخريف والربيع، وحتى في الوقت الذي انفجرت بالقرب من مخزنة قذيفة روسية جعل الأطفال يلعبون بها بشغف بالقرب من "سالافا"، وحتى حين اصطدم في الفترينة "أمبي كريس" بسيارته "اوسترودايملر" الجديدة، وحين أمموا مخزنه الصغير، ووقف أيضاً حين ألبسوه معطفاً أبيض أرخص مصنوعاً من الخيوط البلغارية الصناعية، وحين قاموا بتبديل التجهيزات، والقارومة الموجودة فوق المدخل بقارومة أخرى كُتب عليها بأحرف مدببة: *خدمة ذاتية*.

وقف السيد "ملانك" خلف طاولة التخديم حتى حين شَخَّصَ له والدي مرض "باركنسون" بعد إصابته بالانفلونزا الاسبانية — كان يرتجف ووجهه لا يتحرك وكأنه من الشمع، كما يتحدث وكأنه يهتف الشعارات. وقف هناك لأنه بسبب المرض، لم يجد القوة ليتحرك من مكانه، وإذا تحرك فإنه لا يعرف كيف يتوقف. ولهذا لم يبرح مكانه، وفَضّل الوقوف خلف طاولة التخديم على الحركة.

يمكنني القول إذا لم تخنِي الذاكرة إن أكثر الأشياء التي أحبها الأطفال واهتموا بها في تلك "المستعمرة" الصغيرة كانت السكاكر الموزونة في العلب الزجاجية. لدي شعور اليوم، وكأن المخزن لم يكن يحتوي على شيء سواها. لا أتذكر أي شيء آخر. مكان واسع، ونظيف يكتظ بالعلب الزجاجية الملأى بالسكاكر.

لم نكن نشتري من هناك أشياء أخرى لأن والدي كان يتلقى الهدايا على الدوام من المرضى الممتنين . كانوا دائمي التفكير *بطبيبهم* — أثناء ذبحهم الخنزير أو البط، كما يحضرون، الكاري، والدهن، والخضار، والفواكه، والبطاطا، والدجاج، والمقانق، واللحم المُدخن، والنبيذ المصنوع في البيت. بدا الأمر وكأنه قد انسكب علينا الطعام بكثافة من الجهات كلها. يمكن لهذا أن يحدث حين تكون حياتك معلقة بأيدي أحدهم.

سيطر الهدوء على البيت إلى أن وصل المذياع.

لم نسمع في منزلنا باستثناء موسيقى أوركسترا "شلاكوفي" شيئاً آخر سوى غناء الجدة "ماريا": *ليلة هادئة، ليلة مظلمة، ليلة جميلة، قلبي لا يتركني وشأني. القمر لا يرقد للنوم، إنه يسهر طوال الليل لأنه يتقن لغة الحب. الحب يتبدل عند منتصف الليل. العندليب يُغرد.*

ولكن حين ظهرت تلك الآلة، لم تتوقف بعد ذلك عن البث. بداية سمعنا صوت الفنانين على الهواء مباشرة، بعدها قام أحدهم بوضع الأسطوانات الموسيقية. ترافقت المسرحيات الإذاعية بالعديد من الأخطاء، والمفاجآت غير المتوقعة. التلفاز دخل في وقت لاحق إلى البيوت وتحديداً ذلك الجهاز الحبيب الذي يساهم في زيادة توتر الدماغ، وكان على تلك الحالة أن تستمر وقتاً ما.

يُخيم السكون الآن على البيت من جديد. هذا ما عليه أن يكون في الليلة الأخيرة. كل ما كان يقف هنا أصبح خارج المكان منذ زمن طويل.

كانت غرفة الطعام تتصالب عبر الممر مع المطبخ، بكلمة أخرى، الصالون. مع أنه يصعب القول ما إذا كانت هذه التسمية تناسبه. الرياح تعصف الآن من خلف النوافذ. كل شيء يُصفر ويطرق، تماماً كما كان يحدث في السنوات الأخيرة من حياة والدي.

حاول والدي دون كلل أو ملل الحفاظ على طقوس العائلة أو على الأقل ما كان يتصوره تحت هذا البند. نجح في تأمين غداء أحدي في صورته الكلاسيكية، ولاسيما في حوالي عام 1938 حين أصبحت له

طقوسه الخاصة — يطبخ حساء الدجاج الدسم الذي يحتوي إضافة إلى رقاب الدجاج وأجنحتها، ومعادها الخضار المطبوخة في صحن خاص. تألفت الوجبة الرئيسة من لحم الدجاج المقلي مع البطاطا، أو من لحم البط أو من لحم إوزة أحضرها مريض تعبيرا عن شكره؛ مع الملفوف و"الكنذليك".[13] أو مع العجينة المخبوزة. يأتي بعد ذلك دور "كومبوت".[14] الطماطم مع شراب الروم.[15] أو كومبوت التفاح المطبوخ. إضافة إلى "كريم دي مونتي" اللذيذ.

كنا نجلس خلف الطاولة الواسعة التي تصدرها والدي. دأب أخوه العم "رودو" مع العمة "يولكا" والابن "فيليب" ابن عمي على الحضور بانتظام إضافة إلى عائلة والدتي. الخال "أرمين" والخال "أوسكار" والخالة "روزا" مع الأولاد، احتفالات العائلة جميعها، كانت تؤجل عندنا بشكل طبيعي إلى يوم الأحد.

كنت أعاون "تركا" التي تساعدنا في المطبخ في أثناء ترتيب الطاولة.

العم "رودو" يسمعني بانتظام، وأنا أقرأ في كتيب ترتيب الطاولة:

"المبادئ الرئيسة عند ترتيب مائدة الطعام هي ...أولاً: نضع الأكل والشراب على الطاولة دائماً باليد اليمنى ونقف في الجهة اليمنى من الضيف في أثناء ذلك. ثانياً: الجاطات الكبيرة نضعها بيدنا اليسرى من الطرف الأيسر للضيف. ثالثاً: نسكب الشراب دائماً باليد اليمنى من الطرف الأيمن للضيف. رابعاً: الصحون نأخذها من الطرف الأيمن والأيسر للضيف. خامساً: يُحَظر على من يُقدم الطعام تقريب كوع يده من الزبون باستثناء حالة تقديم الحساء في الفنجان. سادساً: الالتزام قدر الامكان بالهدوء والتواضع. تقدم المأكولات جميعها مرتين، وتقدم في المرة الثانية حتى للأشخاص الذين لم يُقدم لهم الطعام في المرة الأولى. يمكن أن نعرض

---

[13] كنذليك: عجينة مسلوقة بالماء تُقطع بعد ذلك إلى شطائر

[14] كومبوت: الفواكه المطبوخة مع السكر

[15] روم: شراب كحولي مقطر مصنوع من الفواكه

الطعام أكثر من مرة، ولكن دون استخدام أسلوب الإجبار لأن ذلك يخرج عن طقوس الأدب الذي من المفروض أن نتخلص منه والذي لا يزال أحد العادات البالية السائدة حتى الساعة في مضافات الأرياف بشكل كبير!"

اشتغل العم "رودو" الذي يكبر والدي بعدة سنين مهندساً، استمتع بإلحاده بشكل جيد. كان يتسلى كثيراً في مجادلة الأب "سافتسكي" حول المسائل الدينية (وأجوبتها)، ولكنهما كانا حذرين حين بدأا مرة الحديث وتمحور حول هذه المسألة فحسب. كلاهما خرج بعد تلك المناقشات أقوى وأكثر صلابة، وسعيداً أيضاً. وفي النهاية، يمدُ أحدهما يده للآخر مثل ملاكمين يسبحان في عرقهما وقد أوسع أحدهما الآخر ضرباً.

كان العم "رودو" يُنهي حديثه بملاحظة لطيفة:

"الصليب هو في الحقيقة رمز للشنق، أليس كذلك يا أبانا؟ إنني أحب الديانة التي تتخذ من المشنقة رمزاً لها — ربما تكفي الأنشوطة كي يكون الأمر مفيداً. والآن عليك أن تتصور الناس وهم يضعونها حول رقابهم! شيء رائع!"

كان العم "رودو" أصلع باستثناء القليل من الشعر الكثيف الشبيه بالإكليل الذي يحيط بأطراف رأسه — مما أعطاه منظر الراهب. يضع على الدوام فوطة تحت رقبته أثناء الحلاقة، وينشر من حوله رائحة الصابون والكولونيا وتحديداً في أيام الآحاد. الناس الذين لا يعرفونه يظنون أنه عقيد متقاعد من أزمان غابرة، حين كانت الخدمة العسكرية تعني شيئاً.

لقد أمضى وقتاً طويلاً في بناء الجسور في أفريقيا (ورث العلاقة مع البناء من الجد ألبرت). غالباً ما كان يتحدث عن الأشياء التي شاهدها هناك:

"يقفون في طوابير طويلة بغية الحصول على الماء الوسخ الذي لا يمكن رؤية قعره. يطلق رائحة كريهة وكأن أحدهم قد تبول هناك، ويقولون لك بعد ذلك إننا خربنا حضارتهم، تُرهات!"

لقد عبر في إحدى الأوقات إيطاليا بأكملها، ولم يكن يعرف سوى جملة واحدة: بريجو، سينيورينا — مزو لترو فينا! لم تكن لديه مشكلة

في قول كل شيء، لم يخجل. يعشق النبيذ الذي كان في وقت من الأوقات حبه الكبير. تماماً كما كانت البلد بحد ذاتها. – يتجادل على الدوام مع والدي حول هذا الموضوع. يعشق العم "رودو" الأكل الإيطالي أكثر من أي شيء، ويلفظ بشغف وببطء كلمة: *بومو دورو* (الندورة)، ويضيفُ شارحاً في العادة: إنها *التفاحة الذهبية*. الجملة الإيطالية الثانية التي تعلمها: *إي ماكيروني سونو بوني، ما ديفيسيلي آ منجياري*. المعكرونه لذيذة ولكن يُصعب أكلها. وفجأة بعد ذلك تمكن من لفظ *شيانتي* حتى يفهموه في *أوستريي*. و الأحمر الداكن *أيضاً نبيولو* من بيمونتو، الأسود تقريباً.

وبما أن الطعام حظي على أولويات اهتماماته، كان شقيق والدتي العم "أوسكار" يناديه بـ فرسير (نهم). وحين يثرثر كثيراً يقول بأنه "يوكل". بهذا الشكل كان مركزه في العائلة. نَهمْ ، وفيلسوف هاوٍ أو — بشكل أدق — مهرج.

زوجة "رودو" العمة يولكا الصامتة في أغلب الأحيان، بدت غير مسلية من النواحي جميعها ولكن هذا الأمر لم يزعجها على الإطلاق.

كنت أرافقهما إلى كرم العنب.

"أفتح الزجاجة حين أعرف مسبقاً أني سأشربها. أعرف ما يعنيه بقاء بعض النبيذ فيها. سيتخرب، والتخلص منه سيكون أمراً مؤسفاً."

تعود أن يتذمر أمامي أحياناً:

"في الوقت الذي يفكر فيه الجميع، أو يذهبون لصيد السمك، أو يتسكمون في أرجاء العالم، أنا أعصر، وأتعثر. وفي الوقت الذي يمارس غيري رياضة التزلج، أنا أسكب النبيذ – محبوساً في القبو الصغير. إنه عندي بمثابة العذاب، صدقني، "أداشكو" لأني أحب العمل في الطبيعة!"

كان يتلذذ بعَضّ العظام التي يرتبها في الصحن بعد أن يصطادها من طنجرة الحساء. يتركها حتى النهاية، ولكنه كان يعشق الحيوانات الحية أيضاً في قوامها الحقيقي.

"الطبيعة شيء ساحرا"

حين يتحدث عنها يتورد وجهه ويشع فرحاً. كان ينده على زوجته بصوت رقيق كي تقترب منه لتراقب البط البري الذي يطير في الخريف فوق البيت. السنونو يُهاجر في تشرين مع أنواع أخرى من الطيور التي لم يكن يعرف أسماءها. إنها تملأ سطح البيت الذي يكتظ بعشرات الرؤوس الصغيرة السوداء. يستريحون هناك ويتدفؤون بأشعة الشمس في منتصف الرحلة إلى الجنوب. يقفُ سعيداً أمام البيت وهو يراقبها. وجدته هناك دون حركة ودون نَفَس.

أسترجعُ الآن ذكرى إحدى جلساتنا على الغداء في يوم الأحد.

جميعنا منسجمون في الصالون. الأطفال (وأنا بينهم) يمرحون، والبالغون يتحدثون بصوت مرتفع نسبياً مع انتشار صلصلة أدوات الأكل. الوالد في أوج سعادته. العم "رودو" يبدأ الكلام بفم مملوء: "تعرف... أقول أحياناً إننا نعيش أوقاتاً جيدة" ينحرهُ العم "أوسكار" وهو يضحك ساخراً. ولكن "رودو" لا يتوقف عن الكلام، ويبدأ بالشرح: "اسمعوا.. إذا أجرينا مقارنة بين وضعنا ووضع الذين عاشوا قبلنا سنكتشف أننا لا نشكو من الجوع ولدينا المكان الذي نأوي إليه — نسكن بشكل لائق..." يرد عليه "أوسكار" بالقول: "..كان من الممكن أن تكون أوضاعنا أفضل." يتابع "رودو": لا توجد حروب. وهناك أمان. لا يوجد بيننا مريض خطير. بلدنا بعيد عن متناول اليد ويقبع في زاوية أوروبا. إننا في الحقيقة أناس سعداء. نعيش أوقاتاً جيدة!". يُكشر والدي ويقول: "أوقات ذهبية.. ها ها؟" ويضيف، وهو جاد في كلامه. "سوف نسكن في هذا البيت جميعاً في يوم من الأيام. كعائلة كبيرة."

تنفتح النافذة في تلك اللحظة بقوة وتحدث ضجيجاً، يدخل على إثر ذلك من الحديقة التي تغمرها الشمس إلى الغرفة طائر. الجميع يصرخون. أنتبهُ بسرعة وأعرف أنه إما زرزور، أو طائر السُّمنة. لا بد أنه ضائع. يرفرف بجناحيه، ويرتطم بالجدران، ويسقط في الأكل. تحاول الأيادي

المدودة الإمساك به. الطير يرتجف. تمكنوا منه -- أحدهم يُمسك به فوق الطاولة، الريش يتطاير، ويسبح في السلطة — يتمكن من الهرب. "افتحوا النافذة! افتحوا النافذة!" تصرخ والدتي. يلاحقونه. يرتطم من جديد بالجدران وبأجزاء النافذة ثم يهرب في النهاية مذعوراً إلى الخارج عبر النافذة. يُخلف الخراب من خلفه — الصحون المُكسرة على الأرض، الزبادي مقلوبة، إحداها طارت وارتطمت بالجدار، اللحم على الأرض، تمكنت القطة في تلك الأثناء من سحب قطعة لحم مُقمع. الجميع يتنهدون براحة وهم يجلسون في أماكنهم. أمي تسأل: ماذا سنفعل الآن...؟"

اليوم المقدس عند عائلتها هو السبت — بدأ ذلك في يوم الجمعة قبل إطلالة أول نجمة.

امتلأت قاعة الصلاة في معبد اليهود الموجود في شارع "لتنا" في المساء قبل السبت بالمصلين. اضطرت أمي التي كانت برفقة جدتي "ساره" البقاء في الوراء خلف الستارة البيضاء — وأنا بوصفي ذكراً مع صغر سني، كان بوسعي الجلوس مع جدي "بلاو" والعم "أوسكار" والعم "أرمين" في المقاعد الأمامية مع القلنسوة الضيقة على الرأس. كانوا يأخذوني معهم أحياناً. العم "أوسكار" على عكس عمي المتحرر "أرمين"، لم يكن لينزع على الإطلاق قبعته أو قلنسوته عن رأسه. كان يجلب معه إلى المعبد وشاحه مع الشناشيل و يُربي سوالف طويلة مفتولة. وقف في نهاية المقعد ال"شاختر" السيد "سترن" وبجانبه السيد "دورسخلانغ" اليهودي الذي كان مسؤولاً عن طقس الوضوء.

الجميع يُصلون بالعبرية، الرابين بلحيته الطويلة في المقدمة، يقرأ من التوراة وظهره إلينا. لم يكن بإمكان أي واحد منا لمس اللفة المقدسة بيده العارية، يوجد لهذا الغرض يد ذكية من الفضة بسبابة ممدودة. أحببتها دوماً — ياد (yad). لم تكن الأجواء هادئة عند القراءة من التوراة كما يحدث عادة في كنيسة القديس "إغيد" حيث كانت تصطحبني جدتي لأبي "ماريا" معها إلى هناك. يقول العم "أرمين": الرابين هو الوحيد الذي عليه

الالتزام بالطقوس — في حين يتبادل الباقون فيما بينهم بعض الكلمات ومن ثم ينضمون إليه ويفترقون عنه بعد ذلك. أحدهم يُطلع الآخر على كمشة من الأحجار الكريمة البراقة، يتهامسان بصوت منخفض، ثم يهز أحدهم رأسه للآخر، ويتابعون الصلاة. ينوسون إلى الأمام وإلى الخلف حسب تبدل الإيقاع في قراءة منتظمة. تُسمع في النهاية: *فيمرو آمين!*- بعد ذلك يبدأ الجميع بالإنشاد. صوت الرابين جميل — لا زلتُ أتذكر إحدى التراتيل وأحتفظ في رأسي بذلك النغم، ربما مرد ذلك إلى سهولة النص ووجود الجوقة: *لكاهاه دودي، لكاهاه دودي لكرات كالاه، بني شابات نكابلاه، بني شابات نكابلاه!* وبعد ذلك مقطع آخر ومن ثم الجوقة: *اقترب يا عزيزي من عروستك، ولنرحب بالسبت!* بهذا الشكل ترجم لي العم "أوسكار" ما سمعته حين رغبت في معرفة ما أغنيه. تتوسع الجوقة ويُسمع اللحن باحتفالية أكبر. نقوم بإنشاده في داخلنا حين نمد أيدينا ونحن نقول: *شابس! (بالعبرية يوم الراحة —السبت)*، ثم ننتقل إلى الغرفة المجاورة لتناول الطعام،كيدوش، حيث تكون بانتظارنا طاولة مفروشة، و"شاميس" مساعد الرابين. لاحظت أن لديه مفتاحاً لكل شيء — يسكب لكل واحد ما يعادل نصف إصبع من النبيذ. ننشد أغنية، الرابين يتصدر الطاولة يردد صلاة قصيرة، ونحن نتبادل الأنخاب. أنا أيضاً يمكنني الشرب ، أتذكر أن النبيذ كان حلو المذاق بشكل لا يمكن وصفه. شرح لي العم "أوسكار" أن الحلاوة المفرطة سببها "خامس"، (طقوس النجاسة) التي يمكن التخلص منها بالنار والصَّبرة، لذا يقومون بقطف العنب مع اقتراب فصل الشتاء. نقوم بعد ذلك بغسل أيدينا — كل يد ثلاث مرات في الماء. يوجد لهذا الغرض كأس معدني بمسكتين كي تبقيا نظيفتين بشكل رمزي. نعود إلى أماكننا ونجلس، يقوم "شاميس" بقطع شريحة من الخبز لكل واحد منا ويغمسها بالملح — وهذا الطقس يرمز إلى وجبة "ماني" التي أرسلها الرب لليهود كل يوم جمعة أثناء عبورهم الصحراء. الجميع يجلسون، ويحصلون على "شولت" — الذي وبسبب حلول المساء، سخَنتهُ

ووضعته في أطباق شابس —غويكا (غير اليهودية) السيدة سلافكوفسكا التي كانت البلدية تدفع لها أجورها — الرابين يروي أحداثاً تنويرية، لم أعد أتذكرها، ولكن الجميع يضحكون منها لأنها تشبه في نصفها النكتة وتنتهي بكلمة: شابس! نودع ونعود أدراجنا إلى البيوت.

أتذكر أني كنت أغني في الطريق *"تعال، يا عزيزي وقف أمام العروس، لنرحب بيوم السبت* — إلى أن نهرتني والدتي وطلبت مني أن أتوقف.

كانت أضواء السبت (شابس) تُنوّر بيت جدي. جدتي تقوم بإشعال شمعتين موجودتين على الطاولة، يشربون النبيذ الذي باركه الرابين وينشدون الأغاني المخصصة ليوم السبت.

بعد ذلك، بعد الحرب، في عام 1946- كان من الصعب جمع عشرة يهود بالغين يرغبون في إقامة الصلاة. لقد تبخروا بكل ما تعنيه هذه الكلمة.

كان على الملحد "ميسلوفتش" الذي كان يتحدث أكثر من المطلوب مساعدتهم، مثلاً:

"الشكل الأساسي للعالم هو المثلث متساوي الأضلاع. القتلة — المثلث الأخضر، اللصوص — المثلث الأسود، الشيوعيون — المثلث الأحمر، الشاذون جنسياً — المثلث الوردي. اليهود — أولئك لديهم مباشرة مثلثان مقلوبان أحدهما عكس الآخر بحيث يشكلان نجمة."

كان يقول ذلك في "أوسفينتشيم "،[16] حيث نجا بأعجوبة من الموت، ولم يعرف كيف حدث ذلك. تعوّدَ العجوز "جرونشبان" أن يسخر منه قائلاً: لقد نجا بفضل ثرثرته مع الحراس. حين فتحوا الغاز كان يمكن سماعه وهو يروي النكات ولهذا سحبوه إلى الخارج كي لا يزعج الآخرين أثناء موتهم الرحيم.

كان "ميسلوفيتش" يتحدث برغبة، وعلى سبيل النكتة عن السيد "كوهن" الذي ربح مبلغاً كبيراً في اليانصيب، وحين سألوه، ماذا سيفعل

[16] أوسفيتين: معسكر اعتقال نازي شهير.

بالمال، اجابهم دون تفكير طويل بانه سوف يشيد لـ-هتلر نصبا تذكاريا من الذهب. وحين سألوه، لماذا وقد هالهم ما سمعوه. قام السيد "كوهن" بتعرية ساعده وقال: "انظروا، لأنه هو من أعطاني هذا الرقم الذي جعلني أربح!"

مات "ميسلوفتش" بعد سبع سنوات من انتهاء الحرب. الموت في الوقت المناسب يعتبر حدثاً فنياً.

تخيلَ الجميع في حينها أنه سيعيش إلى الأبد.

كان بوسعكم حتى ذلك الوقت أن تقرؤوا في *المعجم السلوفاكي* الذي ألفه الأخوة "كالالوفي" عام 1922 هذا الشرح لكلمة *يهودي*: 1.(يهودي صغير، يهودي كبير، اليهودي) 2. محتال ومخادع.3. (وصمة عار 2. وصمة عار (وحتى بعد تبييض صفحته) (قتل اليهودي يعني تشكيل هرم، العمل مع اليهودي يعني الإصابة بالإسهال، امسح مؤخرتك بجلده).

11

في صبيحة أحد الأيام المنعشة من عام 1938، وبعد التمارين التقليدية والجري نزولاً من أعلى التلة، استوقف العميد "بترسكي" والدي الذي كان يرتدي سروالاً قصيراً، وجوارب صوفية طويلة. تبادلا الحديث لحظة عن الخناق الصدري *angina pectoris*، وعن تورم الأطراف السفلية، زوده والدي ببعض النصائح التي كان خادم الرب يعرفها عن ظهر قلب. دخل بعد ذلك مباشرة في الموضوع.

"السيد الطبيب، سيتزامن الغد مع عيد كبير، عيد جسد الرب. سأكون سعيداً لو رأيتك في المسيرة — سيما أن الأوقات تغيرت الآن وسوف تكون لنا جمهوريتنا في أقرب وقت. الدولة الكاثوليكية!". أكد كثيراً على تلك الجملة، وكأنه حضّرها مسبقاً بعناية ثم وَدَع. لم يتمكن والدي من التركيز على المرضى، والاستماع إلى شكاويهم. بقيت تلك الفكرة تنخر رأسه لأني رأيته في المساء يتشاور مع والدتي حولها. رأيت

ظلهما في زجاج باب المطبخ الحليبي — أمي جالسة وأبي يتمشى بعصبية وصوته يعلو وينخفض. وقفت هي أيضاً بعد ذلك، وأومأت برأسها، ثم وضعت غلاية الشاي على النار، وجلست من جديد. وقف والدي لحظة بمحاذاة النافذة. فتح بعد ذلك الباب ويداه في جيبيه ودخل إلى "الانفرادي" الذي لم نطلق عليه كما أتذكر هذا الاسم في حينها.

لَبِسَ في اليوم التالي بدلة غامقة لا يحبها، ثم أيقظني وأيقظ أخي "بتر" من كسلنا الرائع المحبب، وبعد أسفنا أثناء تناول الفطور — لأننا لم نرغب في ذلك حقاً (هنا تماهى الفارق بين الأطفال والكبار)، انطلقنا إلى أول مسيرة في حياتي، وكانت تلك مقدمة لمسيرات أخرى تنتظرني في المستقبل. لقد تمثلتْ اليوم في عصيدة مقرفة ملونة من الموسيقى والغناء الزائف.

قاموا بتزيين الشارع الرئيس بالزهور والأعلام والشرائط الملونة كما وضعوا عند كل ثاني بيت مذبحاً رمزياً مصنوعاً من الأعشاب وأغصان الأشجار، كنتَ تشاهدُ أحياناً صليباً، أو تمثالاً صغيراً. تشكل الموكب حسب القيمة، والمركز الاجتماعي — راعي الكنيسة، قندلفت، القسيس، حاملو الأبواق، كاتب العدل، مأمور البريد، التجار ومن خلفهم الصيدلي، أصحاب الحانات، عمال الغابات، المدرسون، أحد الأطباء والناس العاديين في ذنب الموكب، إنهم أصغر التماثيل في تلك المسرحية الاجتماعية. تحرك الموكب ببطء من مذبح إلى مذبح. أبي، لم ينطق بكلمة، ولكني رأيته كيف كان يتطلع من حوله بتذمر واضح، محاولاً التقاط اللحظة التي عليه فيها الانحناء، واللحظة التي عليه فيها ضرب صدره، ونوعية الصلوات التي عليه تأديتها والكلمات التي عليه تكرارها. نحن الاثنان جعلنا نكرر بأدب من بعده. لقد أخذنا معه لهذا السبب. لعبنا دور الكومبارس.

كانت المظلة (بالداخين) تنوس في مقدمة الموكب ومعها وعلى إيقاعها ينوس المشاركون. الأب "يترسكي" يتمشى بلباس الكهنة محتمياً تحت المظلة من أشعة الشمس. الجميع يتطلعون مسحورين إلى رقبته البدينة وكتفيه العريضين بانتظار أي حركة يقوم بها بيديه الضخمتين.

انتبهت بعد لحظات إلى أن والدي اندمج في تلك الأجواء الاحتفالية. لقد سمح للتيار أن يجرفه لأن خطواته تغيرت، وأصبحت رتيبة، "طرش" الأغنام يرن بأجراسه. انتبه إلى نفسه بعد ذلك، ومسح العرق عن جبينه ثم عاد بعد لحظات ليتجاوب من جديد وبشكل طبيعي مع الإيقاع المشترك. لم ينتبه، وهو في تلك الحالة من التأقلم، إلى أن الأجواء مالت إلى البرودة، وأن السماء تلبدت بالغيوم السوداء مثل الفواكه التي تتعفن بسرعة. عصفت الرياح، ولثانية، طار ثوب راعي الكنيسة في الهواء وعرى ساقيه المليئين بالشعر، أرعدت السماء، تمايلت المظلة من جهة إلى أخرى. هطل مطر غزير جعل الناس يتفرقون في الاتجاهات كلها لحماية أجسادهم. ركض أبي وركضنا معه بسرعة البرق ودخلنا إلى مخزن حلويات "بوشكار" الموجود في الساحة الرئيسة حيث رحب بنا صاحب المخزن بابتسامة عريضة. لقد تفهم الوضع.

"هل سيأخذ السيد الطبيب قدح كونياك؟"

هز أبي رأسه وجلس خلف الطاولة وجعل يَفك ربطة عنقه المبللة.

"يجب عليّ أن أتخيل الأمر على الشكل التالي: سوف يُجلسوني بعد ثمانين سنة من العز في ذلك العالم التعيس على كرسي مريح مع كأس جعة في يدي، وسوف أسمع لمليار سنة الأخبار من المذياع فحسب؟ شيء لا يُصدق!"

"هل سنتناول وجبة اليوم؟"

"وجبة...؟ نعم."

"بوشكار" جعل يرقص كما تعود، وبدأ وهو يبتسم بترديد اللازمة التي اخترعها:

"وجبة. وجبة... وجبة، المدينة، حيوان، فوتس!

ربما كانت المرة الأولى التي أنتبه فيها لتلك الحركة الخفية. وحسب تعابير في الوجه، أعتقد أن "بتر" رآها أيضاً، ولكن ذلك على ما يبدو، لم يُثر دهشته. فك والدي أزرار معطفه ووجه أصابع يده بشكل

خفي نحو الجيب الأيسر لصدريته. وفي اللحظة التي سحب فيها من جيبه كائناً صغيراً ووضعه على لسانه، كان يزيحُ باليد الثانية الكأس إلى طرف الطاولة كي يتيح المجال لوضع كأسين من المثلجات *من وجبة اليوم*.

حين خلع صدريته في البيت، فتشت فيها. لم أجد شيئاً هاماً، انصب اهتمامي على ما يخفيه والدي هناك. وجدت في الجيب السفلي الأيمن عقب سيجارة، من يدري لماذا لم يرمه، وبعد ذلك قطع نقدية وقلم رصاص قصير. اكتشفت في الجيب الأيسر العلوي وجود قطعة "فلاستر"، ربما يكون قد قصها بمقص الأظافر الصغير. غابت كبسولة من إحدى النوافذ الصغيرة للظرف الفضي، وبقيت ثلاث كبسولات خُط عليها بالطول "لومينال 1و0 باير".

أرجعتُ ظرف الدواء إلى مكانه وقد خاب ظني. كنت أنتظر سراً حقيقياً.

هذا يُذكرني بأن بعض النقاط من "ألكسيري"، من مائي الحي، لا يمكنه أن يَضر في الليل مع أنه أحياناً يتسبب في حدوث كوابيس ثقيلة مزعجة. ولكني ما زلت صاحياً. هذا ما أتمناه على الأقل.

12

ظهر الرجل الغامض صاحب الحذاء الأحمر الداكن من جديد في المدينة. الحذاء الذي أحاطته حدوة الحديد من الأمام ووقعت في غرامه "كلاوديا هورفاتوفا" — وإذا أردنا التوضيح أكثر، حملتْ بسببه طفلها المفترض. الطفل الذي *طرده* من جسدها والدي بناء على طلبها الخاص، ومن ثم وصل دون أن يدري للمرة الأولى إلى القسم الحساس من جسمها — الذي بقي على اتصال منتظم وممتع معه حتى وقت متأخر، وضمن ظروف مختلفة قليلاً.

الرجل صاحب الحذاء الأحمر الداكن الذي وصل سراً — هذه المرة بحذاء أسود ولكنه في الشكل يشبه حذاءه السابق. اسمه "ريهور كوهوت". لم يكن تاجراً كما أكدت السيدة "كلاوديا" بل معالجاً.

التقيته عند "فويتا" حين دعته السيدة "ناتاليا" التي تشكو من صداع يصعب معالجته مع أنها استعملت كل شيء — باستثناء زيارة الطبيب الكلاسيكية بالطبع — وحين سمعت أن هذا الرجل الشهير قد وصل إلى "بريجاني" لم تتأخر بدعوته. سمعتُه يشرح لها بصوته العميق والرخيم أثناء جلوسه على المقعد المريح، الطريقة التي يُمكنه فيها تمييز أمراض الإنسان. بداية هناك أمراض تنشأ بسبب الممارسة غير السوية — أونانيا، يعني العادة السرية، وثانياً، الأمراض الحاصلة نتيجة ضعف الحب للأقربين. وثالثاً، الأمراض التي تنشأ من تأثير الكائنات المقبورة — وهنا يدخل مثلاً المصابون بالجنون، وبالصرع، والبكم والصم.

ولتوضيح طريقته في العلاج، ذكر عدداً من مرضاه الذين تعافوا. عالج إضافة إلى ذلك مثلاً طفلة في الثانية من عمرها تمارس الاستمناء "onanie". أحست بضعف شديد *منعها من الوقوف على قدميها*. أسباب العادة السرية كما شرحها السيد "كوهوت" هي أن والدتها التي كانت غير ذلك إنسانة نقية — مارست أثناء الحمل حياة جنسية غير سوية. كان عند الأم حسب قول السيد "كوهوت" — قال بنبرة تشيكية مضحكة، سائل سماوي، وكل من يجلس بجانبها عليه أن يمارس الاستمناء باليد، حتى إن الخادمة فعلت ذلك في نهاية الأمر. الضرورة أجبرت الوالدة على الابتعاد عن الطفلة. بدا العلاج في حالة السيدة "ناتاليا" سهلاً.

انتبهت من وراء الباب، وأنا برفقة "فويتا" الذي كاد يختنق من الضحك أنه تسلمّ قبل كل شيء بعض الأوراق النقدية. اقترب بعد ذلك السيد "كوهوت" بخطوات بطيئة من والدة "فويتا" التي كانت تستلقي على الديوان، ووضع راحة كفه على جبينها. وقف صامتاً للحظة وجعل يركز بعينين مغلقتين.

قال بعد ذلك: انتهى الأمر! عليّ أن أذهب للمساعدة، إنهم يبحثون عني في المشفى. لا حاجة لإخبارك، الأطباء هناك لا يعرفون التصرف في الحالات المستعصية.

وكما وصل، اختفى...

المهندس "فاموشي" — معماري، ومريض والدي من "برجنيان" — بحث عنه في مكان ما من النمسا، يقال إنه أسس هناك مصح. شرح له "رهور كوهوت" أهمية العلاج بطريقة osteopati.[17] التي قام شخصياً بتطويرها. أكد أن جميع تقنيات الجسم البشري يجب تصحيحها باليد لتعود إلى حالتها الطبيعية.

قال والدي إنه ربما استقى هذا الكلام من المقالات الحماسية التي أطلقتها مؤسسة فورد في ديترويت. وصف المهندس "فاموشي" كيف أخذه "كوهوت" إلى مكتبه حيث أمره بخلع ملابسه حتى الخصر، وقام بأصابعه بعد ذلك بجس عموده الفقري، ثم أطلعه بعدها على صورة بألوان مختلفة لجسم الإنسان.

شَرَحَ: "العمود في السيارة يُحرك العربة بأكملها، أليس كذلك؟ إذا ضغطتَ على الكابح، تتوقف العجلات عن الحركة. الأعصاب تعطي قوة الدفع لأعضاء الجسم جميعها. وإذا ضغطت على العصب فإن مصدر الحياة ينقطع عن الجهاز الحركي الذي يتوقف بالتالي عن العمل. وهذا يجب إصلاحه."

توقف لحظة عن الكلام بانتظار تأثير كلماته، وتابع بعد ذلك:

"كل نقطة دم حتى ولو كانت قديمة منذ سنوات، وكل مخطوطة حتى ولو كانت قديمة وتعود لمئات السنين، تتميز باهتزازات إلكترونية تجعلنا نعرف، حسب ترتيبها، القومية والديانة وحتى الأمراض التي أصيب بها المذكور. تلك الاهتزازات الإلكترونية ما هي إلا طاقة من نوع جديد، لا يمكن اكتشافها ولا حتى بأدق الأجهزة الفيزيائية، وهذا الأمر ينطبق على الإنسان فحسب."

وخز بعد ذلك إصبع "فاموشي" وانتظر قليلاً ثم وضع نقطة الدم الجافة في جهاز معقد يسمح بمرور تيار كهربائي. نقلها من هناك بعد

[17] التحريك اليدوي أو التصحيح اليدوي للعظام والمفاصل

ذلك إلى جهاز تقوية، ومنه إلى جهاز ثالث كتب عليه "منظم تيار اهتزازي". الجهاز الأخير كان جهاز قياس شدة التيار. وُصلتْ الشرطان النهائية بصفيحة معدنية ملصقة على جبين المؤشر الفيزيولوجي. وهذا المؤشر، لم يكن أحد غير المسكين عاري البطن المهندس "فاموشي" الذي وقف في غرفة معتمة باتجاه الغرب وبجانبه "رهوركوهوت" الذي للتسلية- الشخصية أو تسلية المريض- ضربه بالمطرقة الطبية على بطنه بعد ذلك وقال أشياء يعرفها عن نفسه.

لم تتحسن مشكلات المهندس "فاموشي" الصحية ولكنه شعر بالسعادة. وماذا يريد الإنسان أكثر من ذلك؟

أبي جُنَّ جُنونه.

شاهد مرة في الصيدلية زجاجة بلورية مجهزة بغطاء معدني وماسورة مطاطية، كُتب على اللصاقة الورقية بحرف كبير ظاهر في بعض الأماكن: *تأثير أي علاج يزداد بشكل ملحوظ*، حين يتزامن كل عمل بأفكار جيدة!

أثناء التنشق يجب على المريض أن يُركز تفكيره، ويُدرك أنه يحصل من خلال تلك "النشقة" *على أفضل غذاء* هوائي ومن ثم الشيء الأفضل والطبيعي — يُقوي الجسد والروح وعلاج يوصل إلى الشفاء.

عند *حبس النَفس* يزداد مفعول ذلك العلاج. عند الزفير، يتخلص الجسم من الأشياء الضارة المسببة للمرض مع غيرها من نفايات الجسم.

المُنتج من مصح *"كوهوت رهور"* الذي يعالج الأمراض جميعها.

حين سأل الصيدلي عن المادة الفعالة الموجودة داخل العقار، ابتسم في وجه والدي وقال: يوجد في داخلها *هواء مُعالج*، ولا شيء أكثر.

اشتراها والدي وكسرها بعد ذلك بطريقة استعراضية أمام الصيدلية.

وقف بالقرب منه شرطي وسأله شرحاً لفعلته. فرد عليه والدي:

"الزجاجة ملكي، وأنا حر، ويحق لي أن أفعل بها ما أشاء."

اعترف له بذلك الحق، ولكنه طلب منه أن يفعل ذلك دون إحداث ضجيج.

إنها احرتي قال والدي وهو يجمع قطع الزجاج التي رماها بعد ذلك في سلة المهملات.

كان يلبس بدلة النزهة المخملية مع القبعة والمعطف وتفوح منه رائحة الكولونيا، وليس الكحول، مما جعل الشرطي يدور رأسه فحسب مستغرباً ما يراه أمامه. انتبة بعد ذلك وعاد إلى صحوته وطلب من والدي *علاجاً للأعصاب*.

13

لم تكن أمي تخرج وحدها من البيت إلا إذا كان هناك سبب اضطراري. كانت تعرف أن المشي في المدينة أو في الشارع المجاور يمكن أن يقوم به أحد غيرها ومن ثم فإن تخطيها لعتَبة البيت لا معنى له. غالباً ما تقع القُرعة عليّ، أو علي حبيبها المدلل "بتر".

مع ذلك فإنها تطلب شرحاً مفصلاً. تنفذ كل قرار طبقاً لما تسمعه. تجمع الحقيقة بأكملها من اثنين أو ثلاثة تفاصيل، كل شيء بدا لها واضحاً في الحال (أو أنها كانت تؤكد ذلك). تصوراتها عن العالم تتميز من ذلك الحقيقي ببعض التفاصيل، ولكنها هامة — مثلما يحدث حين تتطلع في لوحة جدارية حيث ترى خطوطاً معقدة للأشياء بالأحمر والأخضر.

والدي يُكمل لها الموزاييك بعد وصوله إلى البيت إذا كان لديه القدرة على فعل ذلك. يضع حقيبته السوداء الكبيرة في العيادة و يخرج الأشياء التي حصل عليها من المرضى ثم يجلس لحظة على الكرسي. أمي تصبُ له كأس نبيذ، يشرب. يشعر بالدفء من الكحول الذي وصل إلى رأسه ويبدأ.

كنت أسمع حديثه من خلف الباب علماً أنه من المفروض في تلك الأثناء أن أكون قد أرسلت بنجاح إلى السرير، ونائم حسب المعطيات منذ فترة.

كانت جملة أبي المفضلة: قولي ثلاث كلمات من السجل الطبي عن المرض وسأخبرك من يكون ذلك الرجل!

الكحول، والمخاط، والحقنة تعني أن العامل من مصنع "كنوخت ومارينر". عند والدي منهم في الأرشيف عددٌ لا بأس فيه. المصابون بالربو هم

الذين يشربون زيادة عن اللزوم ومن ثم يتقشعون المخاط الممزوج بالدم. والدي يحقنهم بالدواء، ويرسلهم إلى المصح الموجود في "ماتلاري"حيث يمكنه مساعدتهم في القبول، ولكن غالبيتهم كانت ترفض. بعضهم كان يموت.

الاندفاعات الجلدية، ماء البوريك، وبيجاما نظيفة تعني الحصبة — والدي ينصح بالغرغرة، والاكثار من تهوية الغرفة وتبديل لباس النوم، شاي الجير، حساء خفيف، الإكثار من شرب الماء. الاتصال بأهالي الأطفال الذين لم يصابوا بعدُ بالعدوى كي يُصابوا بالحصبة والحصول على المناعة.

بعد ذلك قرحة جلدية، التعرض، وتبديل الأصدقاء، أو إزرقاق، خمول، وعدم انتظام الدورة...

حين كنت صغيراً، ظننت أن والدي اخترع كل شيء. كل شيء اتصلت به، أو أمسكته بيدي — كنت أرى فيه خالقاً للفضاء. اكتشفت في وقت لاحق مثلاً أن أكلة الملفوف مع المرق كما يطبخها (هذا ما كان يقوله) لم تكن وصفة أصلية لأن الساكنين في منطقتنا جميعاً يُحضرونها بالطريقة نفسها.

بدأت باستخدام الروائح لأني كنت على الدوام معجباً برائحة والدي وبالتدريج وبسببه أيضاً بدأت باحتساء النبيذ.

حاول والدي منذ صغري أن يوجهني بهذا الاتجاه، ولكن العمل في الكرم الذي لم أكن أحبه جعل الأمر بلا أمل. كانت لنا طقوس أثناء الاستحمام المشترك. كانت الأشكال والقوارير تسبح في الحوض وكان أبي يغرف الماء بيده ويضعه على لسانه.

"فلانتين" جيدا جَرِّبْ!

أخذت القارورة وشربت منها.

"ممتاز!"

"جَرِّب تلك "فرانكوفكا"[18].

---

[18]"فرانكوفكا": نوع من الكحول

"أها.. ليست "فافرينتس" *[19]؟" سألت وكشرت.
كنت أضحك. "لقد أخطأت"
أبي يغرف من جديد: "ولكن ذلك "إيرشي"! إنه كذلك بالتأكيد!"
انتبهت قبل وقت من بدء فقدانه السمع إلى أنه نادراً ما يسمعني. كان يتظاهر، نعم، ولكنه بعد ذلك لا يتذكر. لقد طوّر مجموعة كاملة من الأصوات التوافقية التي رافقت كلامي ولكن أفكاره كانت تسرح في مكان آخر. انتبه "بتر" لذلك، وحتى "تينا" انتبهت في وقت لاحق – وذكرتْ والدتي ذلك.
"هل اكتشفتَ ذلك الآن؟ والدكَ يعيشُ في عالمه."
ابتسمتْ، ولكن ذلك لم يبدُ لأحد منا سبباً للضحك.
ولا حتى حين وقف فجأة في وسط تذوقه في حوض الحمام، وكأنه انتهى من عمله واتجه نحو انفراديته. وقتي قد انتهى.
كان يظهر من وقت لآخر في الحديقة، ويتظاهر أنه يكد ويعمل بنشاط. لم يرغب في أن يضايقه أحد أثناء عمله. حين ينتبه إلى أن لا أحد يراقبه، يضع مقص الحديقة جانباً ويجلس على كرسي القش. كان يحتاج إلى الوحدة.
لقد خرج من عالمه مكرهاً. مثلما حدث حين سقطت "تينا" أثناء قطاف العنب من مقعد المرجوحة الدائرية. كانت بحاجة إلى من يعالجها. لقد سحجت ركبتها وكوعها، وأصيب رأسها. انزعج والدي، لقد تخرب يومه. بداية جعل يقنعها بأن لا شيء يؤلمها، ولكنه رافقها بعد ذلك إلى العيادة دون رغبة وقام بتعقيم جروحها.
حين يعود والدي متأخراً بعد تدبير حالة إسعافية، أو من عند وَلادَة، كنت أراه واقفاً أثناء ذهابي إلى المرحاض في المطبخ المظلم من خلال ضوء الثلاجة التي تعنُ مثل قطة وهو يحشو فمه بلذة بشطيرة أخرى من السجق

---

[19]فافرينتس : نوع من النبيذ

الذي تسلمه من أحد المرضى مع قطعة أخرى من الجبن إضافة إلى الخبز القديم، وقرن من الفليفلة الناشفة، على الرغم من أنه يؤكد بينه وبين نفسه أنها ستكون اللقمة الأخيرة إلا أنه لم يتمكن من مقاومة شطيرة أخرى.يشرب بعد ذلك الحليب ثم يُتبعه بملعقة كبيرة من المربى. *تحلية وتمليح*، كان يقول: من الواجب الحفاظ على كؤيسات الذوق في حالة من التوازن.

كان يعشق أكل الليل، وتلك العادة السيئة، لم يتمكن من تركها حتى نهاية حياته مع أن تبعات الأحلام السيئة كانت ترافق نومه. كان يفعل ذلك بالسر ويحرص على ألا يُمسك به أحد، وغير ذلك كان يشعر بلذة الطعام والإثارة من فعل أشياء *غير مسموح بها*، وبعد ذلك حين لم يعرف أحد شيئاً، ولم يتوقع أحد لا هو ولا جسمه قبل كل شيء. فهذا يعني أن لا شيء قد حصل.

يخطو بحذر بعد ذلك نحو غرفة النوم، يُبدل ثيابه، ويدس جسمه في السرير بجانب أمي التي تحضنه، تبتسم وتعود لتغرق في النوم.

لقد ورثنا منه جميعاً تلك العادة السيئة.

الأكل في الليل. *الجنس الأبيض* كما كان يقول والدي على سبيل النكتة وكانت والدتي تضربه في بطنه. "تينا" دائماً تُشعل الراديو حين يرسلون "كونسرت" مسائي، أو مقطوعة حالمة. كان صوتٌ غريب نحاسيّ يعلن عن ذلك، يتبعه صمت، وفي النهاية تنطلق الموسيقى..

دائماً حين أسمع "شوبان"، أتذكر مطبخ بيتنا في الليل.

جاء بعد ذلك أحد آخر أعياد الميلاد الطبيعية. إنه يتزامن في العادة مع عيد اسمي الذي أحتفل به في اليوم نفسه، وهذا اعتبره ظلماً — لا سيما حين يتعلق الأمر بحصولي على هدية واحدة لعيدين.

احتفلنا على رصيف الحديقة الذي غطته الثلوج حيث قُدِّم "الشراب الساخن" المسمى "كرامبامبولا" ذو المذاق المقرف باسمه الأول والثاني. شرب منه الجميع وكأنه نوع من العقاب. سمحوا لي بشربه في وقت متأخر بعد عدة سنين!

الأجواء في الأفواه وفي أماكن أخرى حَسَنها "إيركونياك"، شرابنا التقليدي في الأعياد.

جاء بعد ذلك السمك المقلي مع السلطة الروسية، وترافق ذلك مع أضواء الشموع التي اشتعلت من حولنا فوق أغصان شجرة العيد. الهدايا، وتلك الآلة الغريبة التي ترنُّ مع الملائكة المعلقين على السلاسل التي تدفعها إلى الأمام حرارة اللهب. الجميع يجلسون حول الطاولة بما في ذلك بعض أقارب والدتي الذين لا علاقة لهم على الإطلاق بذلك السيرك – باستثناء أن المسيح يهودي في الأصل. يقف "راعي" الحفل في مكان لائق، إنه مذياعنا الجديد – تصدح منه أغنيات الميلاد ، *لقد وُلد سيدنا المسيح، لنفرح! وهيا بنا أيها الأخوة إلى بيت لحم!* يتبادل الجميع الأمنيات بالعيد المبارك ، نفضُ الهدايا .العديد منها وصل قبل وقت بسبب الاحترام الزائد لحضرة السيد الطبيب.

"لقد وُلد السيد المسيح، تغوطوا...!" همهم بصوت منخفض من تحت أنفه شقيق والدتي "أرمين" وهو يضحك.

أسمعه، وأكرر همساً ما سمعته. نشعر وكأننا نتآمر.

14

اندلعت الحرب في "بريجاني" عدة مرات.

يصرخ موزع الصحف الذي امتلأت يداه بالجرائد في الساحة: اندلعتْ الحرب!

حين قام الطليان في عام خمسة وثلاثين باحتلال "الحبشة"، يقال إن كاتب العدل، السيد "لفندوفسكي" ارتعب في مقهى الحلويات عند "بوشكار" وسقطت نظارته عن أنفه في القهوة وتحطمت. حسناً – ربما انزلقت في قطعة كاتو "كريمش" وتلوثت قليلاً من الكريما – ولكن تصوير الحادثة بهذا الشكل يجعلها أكثر درامية. كانت تلك المرة الأولى.

كره والدي الطليان منذ ذلك الوقت – لم يفهم السبب الذي جعلهم يهاجمون بالطائرات والمدافع السكان الهاربين نصف عراة مع رماحهم.

صرخ غاضباً وقال إنهم، المنحطّون الطليان في المراحل الأخيرة من سقوط الحضارة القديمة التي طالما افتخرت بها أوروبا سابقاً، ولم يبق منها الآن سوى الزعران في الطرقات والتصفير على الفتيات. هذا بالتأكيد يتطلب بعض المهارة، ولكن...

لم يُبدل رأيه في الطليان حتى حين ظهرت أفلام *"الرجل القط"*، بالإيطالية لـ"فليني" الذي أحبه الجميع وألّهوه، وأنا كنت أحد أولئك المُصفّرين الزعران.

اندلعت الحرب في المرة الثانية عام 1938.

تحدثت والدتي عن ذلك الصيف بوصفه الأكثر استقراراً وهدوءاً وحرارة في السنوات الأخيرة. أكدت الأجواء أن العالم آمن، وينشر رائحة عطرة. الخوخ، والمشمش الطازج المغليان يلمعان في القبو حين كنا ندخل إلى هناك قبل الموعد حيث نفتح إحدى الأواني الزجاجية التي يُطلق غطاؤها بسبب الضغط صوتاً شبيهاً بصوت الحازوقة. أتذكر أن "فويتا" تسلم من والدي قرصاً بنياً غامق اللون، تسلينا باللعب به أياماً عديدة. كان يطير منا أحياناً ويسقط بين أغصان توت "العُليق" الكثيفة الموجودة في نهاية الحديقة. كان علينا البحث عنه هناك ولكننا تعلمنا في النهاية كيف نرميه ونجعله يعود من جديد إلى أيدينا.

أعلن في تلك الأثناء رجل غريب (يقول والدي إنه رئيس وزراء تشيكوسلوفاكيا "هودجا") في المذياع وحين لم يعلن كانوا يبثون موسيقى حزينة. لم يتمكن والدي من الابتعاد عن تلك الآلة كي لا يضيع عنه أي خبر جديد في تلك الأثناء. بدا غداء الآحاد عندنا شبيهاً بجنازة بلا ميت. تصرف الجميع بجدية مفرطة، وحين شرع العم "أرمين" في إطلاق نكاته (كان يعشق النكات عن الجنازات، وعن الأموات)، جَمّدهُ الجميع بنظراتهم . لقد سيطر خطاب المذياع على أجواء البيت.

بعد ذلك في سبتمبر 1938، حين عرضوا في سينما "سلوفان" في "بريجاني" (قبل فترة قصيرة من تغيير الاسم إلى *سينما "سلوفاك"* بإضافة

"مَدّة"وتغيير الحرف الأخير) الفيلم الأوبرالي "أرض الابتسامات".[20] مع مغني الأوبرا "ريخارد تاوبر" الذي كانت صوره مع نظارته المسنودة على أنفه تزين أوراق اللعب الموجودة داخل علب السجائر التي كان والدي يشتريها. حين خرج والديّ من صالة العرض الموجودة في الساحة الرئيسة وشفاههم تدندن أغنية "Dein ist" mein ganzes Herz "*لك*، هو *كلُّ قلبي*" اكتشفا إعلان النفير العام لأن البلاد مهددة بالحرب مع ألمانيا. تحديداً في الثالث والعشرين من سبتمبر — أتذكر ذلك اليوم جيداً لأني سكبت فيه الشوكولا المغلية أثناء الاحتفال بعيد ميلاد "فويتا". اشترى والدي العدد من بائع الصحف الموجود في زاوية الشارع حيث طبعوا الإعلان بالخط العريض. وقف وقرأ المقال تحت ضوء مصباح الشارع إلى أن نحرته والدتي من خصره رغبة منها في معرفة التفاصيل.

كنت ألعب في تلك الأثناء بالقرص المُرتد مع "فويتا" في الحديقة حين سمعنا كيف قام والد "فويتا" برفع صوت المذياع. توقف لحن "السوينغ" في منتصفه فجأة، سمعنا بعد ذلك صوتاً حماسياً: *انتباه! انتباه!*. كلب "فويتا" اسمه "لتوف"، حصل عليه تيمناً باسم إحدى الطائرات التي كان يقودها نائب الملازم "روشكو" — رفع رأسه وكأنه فهم ما قيل من كلام، اهتز جسده وبدأ يعوي. بحث عن الأمان عند والد "فويتا"، كان يحشر جسمه فيه ولم يرغب في التوقف. دخل بين ساقيه. مسّد والد "فويتا" رأسه حتى رضي قليلاً — ولكن الحل الجذري جاء بعد تسلمه قطعة لحم كبيرة مدخنة. حين أخبرت والدي بتلك الحادثة الغريبة، قال لي إن الكلب أحس بالخطر على الأغلب من نبرة صوت المذيع، أو ربما من تبدل رائحة عرق الآخرين.

وصل التوتر إلى أشده مع مغادرة الشباب الذين أُجبروا على الخدمة العسكرية. أمروا بالتعتيم الذي لم يتوقف المذياع المحلي عن التذكير به.

---

[20] أرض الابتسامات ; اوبرا للفرانس لهار

كنت مع "فويتا" نتطلع إلى السماء طوال الوقت بانتظار أول غارة. لم نعرف كيف نتصورها، ولهذا فإننا ربما اشتهينا رؤيتها.

قال لي "فويتا" إنه حين ذهب للتبول في الليل، كان النور لا يزال مشتعلاً في المطبخ. جلس والده هناك وجعل يُنظف سلاح الخدمة وهو مستغرق بالتفكير. كان يؤدي عمله بكثير من الاتقان في حين كان المذيع في الراديو يتحدث عن إحدى المدن الألمانية الموجودة في مكان ما خلف الجبال والوديان. ميونيخ. لقد ذكرني ذلك بأحد الأديرة — جدران باردة، ورؤوس حليقة، مع المسيح المعذب على الصلبان في كل زاوية.

اعترض أحدهم في اليوم التالي طريق والدي الكلاسيكي في الساحة حين كان متوجهاً إلى صالون حلاقة عمي "أرمين". شرح له بإثارة أننا تخلينا للألمان عن "السوديت". لم أفهم من ذلك أي شيء. ظننت للحظة أنه يتحدث عن مواد بناء، وبعد ذلك من جديد عن حلويات. ولخيبة أملي، لم تحلق أي طائرة — مع أنني حلمت بذلك عدة مرات في الليل.

بعد يومين، في بداية أكتوبر، تم الإعلان عن الحكم الذاتي في سلوفاكيا برئاسة أحد الكهنة الذي تم إعدامه بعد بضع سنين. "جوزيف تيسو". كان بديناً، ويقال إنهم وجدوا صعوبة كبيرة في شنقه. يمكن القول إنهم الآن أعادوا كل شيء إلى وضعيته الطبيعية. فرح الناس لأن سلوفاكيا أصبحت دولة مستقلة. وتحدثوا عن *الضغط الذي لا يُحتمل من جانب التشيك*. اختفت من المكتبات بالتدريج الكتب التي تتحدث عن العيش الرغيد في ظل الدولة التشيكوسلوفاكية جميعها، وكذلك تلك التي تقول إن الاتحاد السوفيتي دولة جيدة يُمكن للجميع أن يتخذوها مثالاً.

بدأت في الظهور أشياء غريبة. مرة، ترافقنا، والدي والدتي، و"بتر"، و"تينا"، وأنا معهم، لتناول طعام الغداء في المطعم التابع لفندق "الغزال الذهبي". وجدنا طاولة فارغة تُطل على شارع "يسني" المشمس.

نهض، أثناء تناولنا المقبلات من أحدى الطاولات المجاورة، رجل أنيق، صغير الحجم، ممتلئ وعلى صدره وسام بصليبين من مكانه. قال

حين مر بالقرب من طاولتنا باتجاه المخرج بصوت، خافت إنه لن يجلس في مطعم واحد مع يهودية. توقف الهواء للحظة عن الحركة وتوقفت معه والدتي عن الأكل. قام النادل بتنظيف طاولة المذكور ونفض عنها فُتات الأكل، سحب الكرسي وتناول بشكل أوتوماتيكي صحناً فارغاً وجعل يتطلع إلى والدتي بطرف عينه بطريقة خفية لا تثير الشبهات. حين التقطت والدتي نظراته، برم رأسه وكأنه يتطلع إلى مكان آخر. أراد والدي قول شيء، ولكنه لم يجد الكلمات المناسبة حتى حين دفعنا الحساب بسرعة وخرجنا.

لم يُعرفنا الرجل القصير بنفسه، ولكن بما أن الطرقات جميعها وكيفما تعرجت توصلُ إلى الطبيب فإنه وصل بعد شهر إلى غرفة الانتظار في عيادة والدي. تم التعرف إليه من الميدالية المعلقة على صدره. كان في حالة يُرثى لها حين دخل إلى العيادة. ما أعرفه هو أن والدي أراد حقنه بالدواء ولكنه اعترض، وجعل يصرخ قائلاً إن عمته ماتت في اليوم التالي لتلقيها الحقنة، ورفض للسبب نفسه التصوير بالأشعة. خرج غاضباً من العيادة. اكتشف والدي أنه يُدعى "غايدوش" وهو أمين عام فرع المنطقة لحزب الشعب.

سمعَ والدي بعد عدة أيام من عمي "أرمين" إشاعة وصلته من خلال عمله في الحلاقة مفادها أن هناك محاولات لطرد والدي من "بريجاني"، وأن لحرس "هلينكا" أصابع في ذلك، كما أن الأصابع الثخينة لزميل والدي الدكتور "دوتسكي" الذي يعمل في عيادة موجودة في الساحة الرئيسة لعبت دوراً في ذلك. كان يشكو من أن والدي يسرق له المرضى، وينزلُ تحت السعر عند محاسبتهم كما يفشل دائماً في تحديد التشخيص الصحيح. والدي يعرف أن مثل تلك الأقاويل المنثورة في الهواء تفعل فعلتها أكثر بكثير مما لو اشتكى عليه في نقابة الأطباء.

كانت بانتظاره بعد ذلك في صندوق البريد عند عودته من زيارة المرضى رسالة دون فيها:

"بما أنه، وحسب ما وصل إلينا من تقارير تشير إلى احتمال أن يكون أصلك غير آري بالتمام فإن كاتب عدل المدينة يدعوك في أقرب وقت ممكن لإبراز بيانات ولادة أجدادك حتى الجيل الخامس"

على الرغم من أن تحقيق ذلك لم يكن بالأمر السهل إلا أن والدي نجح في إثبات العكس. فخيّم السلام من جديد لفترة.

حين وصلته رسالة ثانية بعد أسبوع وفيها استمارة انتساب إلى حرس "هلينكا"، أمضى يومين وهو يُفكر وأجاب بكلمة واحدة، مع ذلك، قام دون التشاور مع أحد بملء الاستمارة وإرسالها. لقد اعترف لي بذلك بعد سنوات طويلة، حين كان الحديث موجهاً إلى إنسان واحد ولكن بحضور اثنين، مؤكداً أنه أراد بذلك حماية والدتي، وربما يكون قد فعل ذلك كي يرتاح منهم.

اشترك في صحيفة *الحراس* "جارديستي" حيث برزت مباشرة في الصفحة الأولى تعليقات القيادات النازية وخُطبهم التي اختلطت مع الجُمل القتالية الغريبة التي تمخضت عنها قريحة العبقري "يان سمركا" حبيب والدة "فويتا"، أو الشاب الطموح "يان كوسترا"، وإحداها بعنوان قبل المعركة"، التي توجب علينا حفظها عن ظهر قلب في المدرسة:

فلتتيبس في حدائقنا/ الصخرة السلوفاكية/ وليتكفن أحدهم/، وليسقط أحدهم على وجهه/ وليلعق أحدهم الجراح/ في أرض سلوفاكيا....!

لقد اختاروا الأديب "ميلو أوربان" ليكون رئيساً للتحرير، وهو من الأوائل الذين فهموا بعد الحرب أن الشعب يؤلّه أكثر من أي شيء المخطئين الذين يعودون إلى صوابهم، وهو أيضاً من كتب تاريخ الدولة السلوفاكية من وجهة نظر شيوعي مخلص. الإنجيل مليء بالحوادث المشابهة عن التقلب الجذري – تلك تعتبر من الصرعات الكبيرة.

وحين لا يتوقع الإنسان أن عيناً تراقبه، أوصَى والدي في بداية السنة على دراسة رائعة عن حراس "هلينكا" مع حديث غامض مثير للشفقة لـ "إيما بوهونا". بقيت الدراسة على حالها ملفوفة بعناية في

مغلف مع بطاقة استلام بريدية مدسوسة في طرفه الخلفي. انتهت الدراسة، كما هي، في نفايات الأوراق.

وبالطريقة نفسها، انتهى المخطوط الذي يتحدث عن حراس مرافقة "هلينكا"، وكان قد وصل إلى أبي مع رسالة كتب فيها: *التحرير ومكتب النشر هـ د ج — يُكلف الأخ إدوارد كايدوش مهمة البيع. تنصح قيادة قطعة هـ د ج في "بريجاني" باقتنائه لما فيه من معلومات قيمة عن تاريخ نشوء هـ د ج في "بريجاني" وعمله.*

ولأن تاريخ تلك الحقبة لم يُعمر طويلاً فإن جميع من أدلوا برأيهم في تلك المخطوطة جعلوا يُقسمون الأيامين أنهم في الخامس من تموز 1938 عند خروج أول مظاهرة كبيرة في براتيسلافا تطالب بالاستقلال حيث تحدثوا بحرارة عن عدم التزام التشيك بمعاهدة "بيتسبورغ"، كانوا هناك وتصرفوا بشجاعة، وإذا لم يساهموا جسدياً فإنهم على الأقل ساهموا روحياً.

لقد فهمت منذ زمن طويل — وليس هكذا في الليل في ذلك البيت الفارغ وغير الموجود، وبعد عدة نقاط من "نواكس" المسكوب في رأسي — أن تاريخ سلوفاكيا يعتمد بشكل أساسي على إثبات وجودك في الوقت المناسب وفي المكان المناسب.

أسألك عن قصد: ماذا فعلت في الرابع عشر من آذار 1939؟ إحدى الإجابتين صحيحة. يمكنك شطب الجواب الخطأ: كنت أهتفُ بملء حنجرتي في ساحة "هلينكا"، وكانت نوافذي مزينة بالأكاليل الورقية الملونة. لم أذهب في ذلك اليوم إلى أي مكان هام — زرعت في حديقتي زهر "الكلاديول".

هل كنت في التاسع والعشرين من آب في "بستريتسي"؟ الجواب: بالطبع حتى إشراقة الصباح!/ أين تقع "بستريتسي"؟

هل صرخت هورا، هورا في الخامس والعشرين من شباط 1948 في مكان مناسب، ولنقل في ساحة ستالين؟ (الجواب الثاني — هل جُننت؟! في موسم الكريب؟!)

أعتقد أنكم وقفتم في الواحد والعشرين من آب 1968 في مواجهة فوهة مدفع الدبابة الذي كان مُصوباً مباشرة نحو صدركم العاري .(أو أنك – على العكس – كنت تحمل باقة من القرنفل الأحمر مرحبا بالجيوش الصديقة، وبدا الأمر من بعيد كأنك تقف أمام فوهة مدفع الدبابة الذي صوب باتجاه صدرك العاري)

هل سمحت لهم في الخامس والعشرين من آذار 1988 وأنت تحمل بيدك شمعة أن يرشوك بالماء البارد؟ أم أنك اتصلت من بيتك في شارع "يسنتسكي" بالشرطة، وأخبرتهم أنك بعد المناوبة الليلية، وأن تلك الأضواء الموجودة في الشارع لا تسمح لك بالنوم؟

وأنهم ضربوك في السابع عشر من نوفمبر 1989 حين كنت تصرخ: في الاتحاد قوة؟ أعتقد بأنك فعلت ذلك بالتأكيد. هنا يوجد جواب واحد، ولكن من يعرف ما سيأتي. لقد فاق عدد الناس في ذلك اليوم استيعاب الساحات – بداية، ساحة "هلينكا"، وبعد ذلك ساحة ستالين، وفي وقت متأخر ساحة الانتفاضة الشعبية السلوفاكية.

لقد أصاب "دالي" عين الحقيقة في ساعاته المرنة، بهذا الشكل يبدو الوقت.

الناس يتبدلون كما يحصل حين يقوم الطفل بلعق "بابا نويل" المصنوع من الشوكولا.

تُذكر مسيرات المشاعل التي كان حراس "هلينكا" يؤدونها عند الغروب بالعصور القديمة إذ كانت تظهر في المسيرات وجوه قديمة – حديثة. يمتطي القائد في المقدمة حصانه الأبيض، ومن ورائه في الصف الأول اثنان من الشيوعيين السابقين اللذين يصرخان وينشدان بأعلى صوتيهما – أحدهما بعد الثامنة والأربعين وصل إلى منصب مدير الأمن في المحافظة. لم يتعب نفسه وكل ما فعله هو أنه حلق "مخطة" الشعر الموجودة تحت أنفه وتوقف عن دهن شعره. بدا كل شيء شبيهاً بمسرحية اجتماعية يرافقها "كورال" قتالي تقشعر له الأبدان.

هبطت درجات الحرارة في أوكتوبر. كان قُرص "فويتا" المرتد لا يزال يخدمنا بشكل جيد. جربنا بوساطته إصابة العصافير الموجودة على أطراف الساحة الرئيسة ولكننا فشلنا في أكثر الحالات. تصّبرت أيادينا أثناء ذلك.

قاموا في "ترنافا" وقبل أعياد الميلاد أثناء القسم الذي يؤديه حراس "هلينكا" بإحراق الكنيسين بشكل مفاجئ. القائد الأعلى لحراس "هلينكا" " سانيو ماخ" يلقي خطبته الغاضبة:

"لهذا السبب أتطرق إلى حادثة "ترنافا" حيث حرقوا البارحة الكنيس وخربوا المخازن اليهودية وبذلك يكونون قد تصرفوا على عكس رغبات الشعب السلوفاكي. تلك المخازن سوف تكون ملككم، أيها السلوفاكيون، والحراس، تلك الأقواس وكل ما قمتم بحرقه أو تدميره كان من الممكن أن ينتقل إلى ملكية الشعب السلوفاكي."

لم أدرك أن ذلك النوع من الحروب قد بدأ في عام 1936 في براتيسلافا حين عرضوا في نهاية أبريل فيلم "جولم[21]" لـ"دوفيفر" الذي أغضب بشعاراته الطلاب أصحاب الميول المسيحية في بيت الطلبة "سفورادا" إلى درجة جعلتهم يهاجمون شارع اليهود، ويُكسرون فترينات فقراء التجار وهم يصرخون: *أولاء العاهرات يستحوذون على جميع أملاك السلوفاك* كما اتهموهم بصلب المسيح أيضاً.

يقال إن العم "رودو" انزعج من تلك المقولة إلى درجة جعلته يتشردق بحبة الكرز. حين أخرجوها منه في نهاية الأمر، وكان أزرق وشبه مختنق، صرخ قائلاً: الجنود الرومان هم من صلب المسيح، وغير ذلك، والمسيح في الأصل يهودي وهذا أمر لا يمكن نكرانه، لهذا فمن الأصح تاريخياً لو أن اليهود هاجموا روما، ودمروا "الكولوسيوم" لأن أولئك الخنازير هم من صلب أحدهم وهو *رجلنا*.

---

[21] جولم : حسب المعتقدات اليهودية هو الرجل المصنوع من الطين

ولكن الجميع طلبوا منه أن يستريح ويهدأ ويستلقي في السرير.

اندلعت الحرب للمرة الثالثة في بداية تشرين الثاني 1938.

جرى تحكيم حول الحدود بين سلوفاكيا والمجر، علماً أن البلدين، لسخرية القدر، لم يكونا في ذلك الاجتماع المصيري. يُذكر الاجتماع بلجنة الأطباء التي عليها أن تُقرر أي ساق يجب بترها وأي ساق يجب تركها. توجب على سلوفاكيا في نهاية الأمر التخلي عن القسم الجنوبي من أراضيها لجارتها المجر. يُقال إن "يواخيم فون ريبنتروب" وزير خارجية ألمانيا، ووزير خارجية إيطاليا. وهو صهر "موسيليني"، الغروف "جيان تسيانو" (من جديد أولئك الرومان المنحطون- قال والدي بغضب)، شخبطا على الخريطة حتى انمحت أقلامهما — ولهذا بدت لهم الحدود في بعض الأماكن أعرض ببعض الكيلومترات. هدأ الألمان من روع السلوفاك وخففوا من غضبهم مثلما يتعاملون مع مريض عجوز — وحسب زعمهم، كان الأمر ربما سيبدو أسوأ، وربما كانوا سيفقدون مدينة "نترا"، والعاصمة "براتيسلافا"، وليس "لفتسي" و"كوشيتسي" فحسب. إضافة إلى ذلك غَنم البولونيون قطعة من الشمال. واحتل الألمان "بترجالكا"، و"روسوفتسي". فخرج كل منهم من العرس بقرص.

على الرغم من استمرار بداية الحرب إلا أن شيئاً لم يحدث في "بريجاني"

باستثناء ما كتبه لوالدي زميله الدكتور "ليفيوس" من "لفتسي" التي احتلتها القوات المجرية في تلك الأثناء. أراد استشارته في شأن طبي تافه. كان غلاف الرسالة يلمع بختم تاريخي دون عليه: عادت إلينا "لفتسي"! تحية من الجنوب. لقد طلبت ذلك المغلف من والدي. فقد كان هناك طابع جميل.

مع الدعاية التي ظهر عليها القمر الأصفر بابتسامته المشعة المستخدم في تنشيف قميص النوم المعلق على الحبل. *أثناء الليل ودون تعب يُذكر تكونين قد انتهيت من نصف العمل، حين تقومين في المساء بنقع*

البياضات في سائل الغسل المزيل من شركة "شميت" فراونلوب الذي يقوم بتفتيت أكبر الأوساخ العالقة وحده بشكل سحري. يكفي غسيلها في الصباح بصابون "لابوت" — إنه أفضل صابون في العالم.

أتذكر ذلك لأن أشعة القمر دخلت بشكل غير متوقع إلى الغرفة. لم يستمر ذلك على الأرض وعلى الجدران لأكثر من دقيقة لأن الغيوم عادت وغطت القمر.

دخل بعد ذلك القسيس (يابلونسكي) الأب الموقر مع انتشار العتمة في مساء اليوم السابق لبدء الانتخابات البرلمانية ، سبعة أيام قبل عيد الميلاد في عام 1938 مسرعاً إلى حانة "الشجرة الخضراء" التي تبدل اسمها بعد ذلك وأصبح "البرج"،— يقال إن رائحته كانت قوية —برفقة مجموعة من الصبية الذين كانوا يصرخون:

"اليهود إلى الخارج!"

تجمد الزبائن، ولزموا الصمت، صاحب الحانة، السيد "برناور"، ورئيس نادي كرة القدم "نوفاتسكي" حاولا تهدئة القسيس وإخراجه من الحانة ولكنه لم يتوقف عن ترديد أقواله.

نهض في النهاية أحد اليهود، الشاب القوي "هوجو يونجرس"، وصفعه بقوة مما جعله يسقط على الأرض.

نهض البقية من أماكنهم، ويمكن القول إنهم حَضّروا أنفسهم للعراك مما جعل القسيس الثمل ينهض عن الأرض ويختفي من الحانة مولياً الأدبار.

امتلأت المدينة في اليوم التالي بالإشاعات.

تدارسوا من بدأ ومن تلقى الصفعات، وأن راعي الكنيسة "بترسكي" طلب القسيس إلى الاعتراف، ويقال إنه وبخه على فعلته — مع أن والدتي قالت إن العكس هو الأصح.

علق عمي "رودو " على الحدث بالقول: "بعض الناس لا يستحقون الحرية."

اندلعت الحرب للمرة الرابعة في شباط السنة التالية.

أعلن رئيس الجمعية السلوفاكية- الألمانية، المدعو "بنا توكا" أمام هتلر بأنه *"يضع مصير شعبه بين أيدي القائد*. علّق أبي بالقول إن بإمكانه قول ذلك ومن ثم وضع مصير الشعب بين أيدي "أمبي كربس".

لم يعجب هذا الكلام حتى رئيس تشيكوسلوفاكيا الجديد "هاخ" الذي بد كأنه قد خرج للتو من قسم التشريح. فأعطى الضوء الأخضر للتشيك كي يحتلوا سلوفاكيا، وسجن بعض السياسيين، وألغى الحكم الذاتي، وأعلن الأحكام العرفية. تصرف الجنود التشيك بحيرة وأدب، ولكنهم لم يشعروا عندنا بالدفء وقتاً طويلاً. فقد كنت أراقبهم مع "فويتا" وهم يتسكعون في شوارع "بريجاني"، كما أن أحدهم أراد إطلاعنا على الطريقة التي يرمي بها قرصنا المرتد. رماه بقوة جعلته يبقى عالقاً على شرطان الهاتف. ولكن الرياح تمكنت بعد ذلك من إسقاطه.

تحدث العم "أوسكار" أثناء غداء يوم الأحد قائلاً إنه راقب مع صديقه من مقهى "برلينكا" في براتيسلافا الألمان المحليين وهم يتجمعون بالقرب من نهر الدانوب ويصرخون باتجاه "بترجلكا"*[22]: *خذنا معك أيها "الفوهرر" لأننا نحن أيضاً جنودك!* يقال إن النازيين الشباب كانوا يوزعون على المارة ملصقات كتب عليها: *برسبورغ*[23] *ستصبح "أنشلوس"* (منضمة)!. انفجرت عبوة ناسفة مؤقتة داخل سيارة صغيرة متوقفة بين دار البلدية القديمة والكنيسة الإنجيلية ذهب ضحيتها أحد بائعي الطريق أثناء مروره بالصدفة من هناك.

صوّت بعد وقت قصير البرلمان السلوفاكي بشكل احتفالي على نشوء الدولة السلوفاكية.

قال العم "أرمين" في الأمسية نفسها: الخبر عير صحيح والهدف منه بيع الصحف بأكبر قدر ممكن — غداً سوف نستيقظ وسنجد أن لا شيء قد حدث.

---

[22] بترجلكا" ضاحية كبيرة في براتيسلافا"

[23] برسبورغ : براتيسلافا بالألمانية

ولكنه حين فتح المذياع بعد ذلك اكتشف أن المجريين احتلوا بشهية "بودكارباتسكي روس"، يقال: سبب ذلك حنينهم الكبير للملكية المجرية القديمة.

استمرت تلك الحرب أربعة أيام إلى حين وقع الطرفان المتقاتلان على الهدنة.

وقد سقط في تلك الحرب ستة وثلاثون جندياً، وأخذوا قسماً من أراضينا.

بقيت "بريجاني" واحة هادئة. باستثناء ما حدث حين دخل إلى الصف مدرس اللغة السلوفاكية السيد "شترمنسكي" وهو يُخفي دموعه بشكل لافت للنظر، حيث طلب منا فتح كتاب القراءة على الصفحة الأولى. كان علينا الإمساك بقوة بالصفحة الأولى والقيام بحركة مشتركة بعد أن أعطانا أمراً مخصصاً لذلك. نزع صورة "مساريك" أمرنا بإحضارها إليه ليجمعها مباشرة أمام السبورة، مباشرة بالقرب من اللوحة الموجودة على شرف "الفوهرر" بمناسبة عيد ميلاده الخمسين.

بدأ الأساتذة التشيك بمغادرة مدرستنا. لقد أرسلوهم إلى بلادهم كما اختفت من مكتبة المدرسة الكتب التشيكية جميعها. فجأة لم يعثر عليها أحد في المكتبة كما أن أمينة المكتبة استغربت الأمر. بقي كتاب *نظرة على مملكة الأحياء* للمؤلف "بوهوميل باوش" عند "بتر" في البيت. وصله إنذار بضرورة إعادته بسرعة إلى المكتبة، وحين أراد استعارته من جديد بعد أسبوع، لم يجده. فقد انشقت الأرض وبلعته.

كما وصلت إلى عيادة والدي نشرة.

السيد المحترم

نرسل إليكم التعليمات الجديدة المتعلقة بطريقة تنفيذ التحية بين المواطنين وأعضاء الحزب وهي مخصصة للعاملين في حقل الخدمات والمقاولة، العاملين في وظائف الدولة ومن في حكمهم جميعاً.

*التحية الأساسية لحراس "هلينكا" — اليقظة *[24]، أصبح عندنا في وقت قصير تحية وطنية، تُعبر عن الشعور والانتماء الوطني للشعب السلوفاكي. ومن المفروض ألا نستخدم هذا السلام في الطرقات فحسب بل*

---

[24] الترجمة إلى العربية للكلمة يمكن أن تكون "في الحراسة" na straz

أثناء دخولنا إلى المكاتب الرسمية والعامة. إنه يستخدم أيضاً بوصفه التحية النهائية عند الانتهاء من الاجتماعات والخطب الرسمية.

تُقسم التحية في الأساس إلى قسمين. القصيرة، والطويلة. اليوم نستخدم الطويلة فحسب التي تحتوي إضافة إلى السلام بصوت مرتفع، رفع اليد اليمنى الممدودة لتصل إلى مستوى العينين.

والرد يكون بتكرار التحية أو باختصارها على شكل "حراسة" ا

الشبيبة في مدارس المحافظات يضيفون إلى تحية الحراس "جارديستي" السلام الكاثوليكي، وهذا أمر يُمكن الموافقة عليه.

نطلب منكم تعميم هذا البلاغ على العاملين تحت أمرتكم كافة، وفي مناطق عملكم مع تعديلاته والتقيد.

وزير داخلية جمهورية سلوفاكيا
الكسندر ماخ، ف.ر.

وإلى أن انتهى والدي من قراءة البلاغ وتقطيب حاجبيه، كان المذياع لا يزال يُرسل موسيقى جميلة.

إنني إنسان متفائل، أعرف بالتأكيد أن السعيد هو ذاك الذي لم يولد. صوت المغني "فرانتيشك كريشتوف فسلي" يتميز بسحره. لقد أثر قبل كل شيء في الوالدة.

"وهل تعرفين يا "برتينكا" أنه يتحدث مع خادمه دائماً بالمجرية؟" علقت الجدة "ساره" الجالسة إلى الطاولة وهي تحيكُ، وقامت بعد ذلك بتأدية لحن يَشدُ السامعين، وكان ذلك قبل وقت قصير من موتها إثر حادثة السيارة مع الجد "زيد بلوم".

حتى إنها لم تعش التعريف الجديد لكلمة "يهودي" التي كانت لاتزال رسميه حتى وقت متأخر والقائلة: *اليهودي هو الشخص المتحدر من أبوين يهوديين ولم يتم تعميده قبل أكتوبر 1918.*

جلس والدي في كرسيه الخاص وجعل يتصفح مجلة *الطبيب السلوفاكي*. كتب الطبيب "خوفانتس" في تقدمة لأحد الكتب التي تتحدث عن أخلاق مهنة الطب:

"بعد الاطلاع على تطور أخلاقيات مهنة الطب في الأزمنة الماضية اعتماداً على "كانت" و"إكهارد" و"ديتريش" نرى ضرورة التفكير في التخلص من سلبية الأزمنة القديمة في مرحلة الفكر العلمي الاشتراكي القومي. وهذا يحتِّمُ على أخلاقيات الطبيب الجديدة أن تكون وسيلة توصله قبل كل شيء إلى فكرة فهم أن التئام كسر عنق الفخذ عند عجوز في الثمانين يعتبر شيئاً هاماً، ولكنه من وجهة النظر القومية ككل، يعتبرُ أمراً قليل الأهمية تماماً مثل فتح الصدر الذي يعتبر حسب "غوربروخ" ضرورياً في حال فشل الطرق الأخرى جميعها، ولكن من الضروري أن يترافق مع إجراء عملية خصي المريض وهذا يصب في مصلحة الصحة العامة للأمة لأن ذلك الإنسان سيكون سبباً في ولادة أفراد أقل أهمية. يمكن القول إن ذلك الإجراء يزيد من عمر الإنسان سنة أو سنتين أو ثلاث سنوات، ولكنه من ناحية أخرى سوف يزيد من هرم المسنين الذين سيكونون عاطلين عن العمل."

استيقظ والدي في الليل على رنين هاتف مستعجل. اتصل الغارديستا "جايدوش". قال إن الطبيب "دوتسكي" أكد له أنه سوف يتورم حتى الصباح، وحتى الساعة لم يحدث له شيء وأنه قلق جداً. وأنه لم يعد يثق بكلامه. وسأل ما إذا كانت الحقنة ستساعده.

"تعال لأراك في الصباح"، قال له والدي وهو يتثاءب.

تمنيت مع "بتر" في ذلك اليوم العادي والممل (الجمعة) الذي جاء في نهاية الصيف حدوث شيء، ولكن الزمن بدا وكأنه توقف.

بدأت تنتشر بعد الظهيرة رائحة الفطيرة. مسحت والدتي الغبار الموجود فوق مجموعتها البورسلانية من راقصات البالية وأغلقت الفترينا. وفتحتْ الراديو الذي كان يرسل في تلك اللحظة كونسرت لـ براهمز

بقياده "الكسندر البرخت". عبرت النافذة نسمة ساخنة معبأة بحرارة الشمس. الهدوء والسكينة يخيمان.

دخولنا إلى الصالون قطع الهدوء – "بتر" كان يصرخ بقوة وهو يلاحقني ممسكاً بالسّفاية. حصرني في الزاوية، وأنا أصرخ فحسب:

"لا يمكنك التغلب عليّ، إني القديس "برافداك"."

هذا العذر كنت أستخدمه على الدوام كحل أخير، ولحسن الحظ كان يُنجيني.

أمي همست: "هس س س سس"

دخل والدي إلى الغرفة وقال: هاجم هتلر بولونيا. أكد ذلك بنشاف وغادر لفحص مريض يشكو من التهاب في مصرانه الأعور.

سمعتُ أمي تثرثر قبل النوم في الحمام.– كانت بالتأكيد تُسَرحُ شعرها – تنهدت وأطلقت همسة:

"بولونيا..."

مثل كلمة أجنبية شبيهة بما تعلمته في دورة اللغة.

انتهى أول يوم من سبتمبر، يوم عيد راعي كنيستنا، القديس "أغيد"، حامي المرضعات، والرعاة، والصيادين والغرقى، والنّبالة، والشحاذين، والمجذومين الذين يقدم لهم المساعدة في الحرائق والجفاف، وأثناء العواصف والمصائب، في زمن البؤس والعزلة، أثناء الاعتراف، وعند الصّرع، والأمراض النفسية و العقم. أشار إلينا الأب "سافيتسكي" أن نسكب هذا الكلام من أكمامنا – لا زلت أحفظ ذلك حتى اليوم. إنه أحد الأدعية المقدسة المساعدة في الأزمات.

بهذا تكون الحرب قد بدأت في "بريجاني" للمرة الخامسة وبشكل قاطع في الأول من سبتمبر 1939. اجتازت في تمام الخامسة صباحاً القوات الألمانية الحدود مع بولونيا.

نشرت مجلة الطبيب السلوفاكي في عددها الصادر 15. أكتوبر 1939 مقالاً جميلاً بعنوان القتال المشرف، تحدثت عنه والدتي مع

والدي أثناء تناول الفطور، ولم يسمحوا لنا بقراءته، وتصرفهم هذا، ولنكن صريحين، زاد من أهمية المقال.

"حصل سوء تفاهم بين الإمبراطورية الألمانية وبولونيا منذ البداية. قد تسببت معاهدة فرساي التي أدمت قلوب الألمان في نشوء ذلك القتال المدمر الذي قاده الأمراء المهيمنون ضد إخوانهم في الدم. شدوا عزائمهم وعرفوا كيف يتحملون وقتاً طويلاً. وبذلك، أظهرت قيادات الأمة البولونية أمام العالم في الأسابيع الأخيرة ما يمكن تسميته كل شيء باستثناء القتال، القتال المُشرف. اعتقد الأنانيون أن الخصم الضعيف هو من دعاهم لحل المشكلات العالقة بالطرق السلمية. ولقد تسبب تعنتهم في حمل قائد الأمة الجرمانية العظيمة على تلبية نداء أبناء جنسه المسحوقين العُزل. فكشف دخول القوات الألمانية إلى المناطق الألمانية والمدن الطرق الهمجية والحيوانية التي كانت مُسلطة على رقاب الجالية الألمانية. ألوف وألوف الألمان — كبار السن، النساء والأطفال — تم ترحيلهم وتعذيبهم وقتلهم. اختفى الرجال دون ترك أثر. الأطراف المبتورة، والعيون المثقوبة، والأنوف المقطوعة، والألسنة المبتورة. جن جنون الجماهير أثناء رؤيتهم النساء المغتصبات. لقد وصلت الفظاعة إلى حدود جعلتهم يفقدون إنسانيتهم. لم يخجلوا من صلب الأطفال، وصب البنزين وحرق الأحياء ودفنهم. كان عليهم طبقاً للقوانين الدولية القديمة أن يتعاملوا مع الأسرى بطريقة إنسانية. احتفلنا مؤخراً بمرور 75 سنة على تأسيس الصليب الأحمر في جنيف. كان ذلك مروعاً حتى لبولونيا!"

نشروا بجانب المقال صورة مؤثرة ولكنها جميلة في موضوعها عن الألمانيات المغتصبات. إحداهن مستلقية بالعرض في مقطع ذهبي.

وبذلك يكون القرن التاسع عشر قد انتهى بشكل كامل في سلوفاكيا مع بعض التمديد — عدة عشرات من السنين.

منذ تلك اللحظة، لم يعد هناك شيء يشبه ما حدث في السابق.

15

لم أعرف من أين أبدأ في عملية كشف لغز العظام.

أحضرت من البيت عدسة والدي المُكبرة، واستخدمتها في التعرف إلى التفاصيل بعناية.

تخيلت وجود ثقب في الجمجمة على مسافة فوق الجبهة — ولكني قلت لنفسي إنه من الأفضل عدم تحريكها. درست الأضلاع المتناثرة — هذا إذا كانت أضلاعاً — وأشياء أخرى من المفروض أن تكون عظام الكتف. لا أعرف الآن إذا كنت في حينها توقعت اكتشاف بطاقة التعريف.. نعم، لقد قام الرحمن بتجهيز أولاده جميع ابطاقة تعريف (درع) صغيرة على كل قطعة!

أكثر الأشياء مأسوية أثناء الحرب كان اختفاء الناس. اعتُبر الأمر — هنا أقل وهناك أكثر— شيئاً طبيعياً. هنا بالتأكيد سيكون المفتاح. قررت كتابة الأسماء وشطبها بعد ذلك بالترتيب.

فتشت في الأرض المجاورة، ولكني لم أكتشف شيئاً غريباً. قمت بعد ذلك بتسوية الأرض وفرشت عليها للمزيد من الحيطة بعض الأغصان والأوراق.

بحثت في أرشيف التلفزيون عن بعض أفلام الجريمة وشاهدت عروضها وحدي، ولكن دون فائدة.

فهمت أني لن أصل إلى شيء محدد بهذه الطريقة، على الرغم من أني لم أرغب في إشراك أحد في بحثي إلا أني اكتشفت ضرورة زيارة "إيغور".

16

سُمع صوتُ إطلاق نار في الكَرم.

الكرم يكفيه زيارة الزرازير التي تشكل فوقة غيمة سوداء. بعد لحظات يمكنك قول (آمين) على الإنتاج بأكمله. كنت أمضي اليوم بأكمله وأنا أتحرك برفقة والدي في الحقل طولاً وعرضاً كي نُحدث ضجيجاً. كنا نقرع أغطية الطناجر، ونصرخ، ونضرب بالعصا على كل

شيء يمكنه أن يصدر صوتاً مرعباً كما كان والدي يطلق أحياناً من مسدسه القديم أعيرة نارية في الهواء. كنت أشعر بالفرح من تصرفاته.

"ربما سنستأجر صياد صقور في العام القادم" قال أبي.

يحومُ فوق الكرم وتحديداً تحت التلة صقر صيّاد، وهذا جعل الزرازير، لاتتجاسر، وتتحاشى الطيران والاقتراب. تعود جارنا في مرحلة ما الإمساك بالغراب وتثبيته من صدره بمسمار على عصا طويلة. كان يصلُبه ورأسه إلى الأسفل. بدا مرعباً، رأيته، ولكن تلك الخدعة لم تثمر طويلاً.

كانت الغزلان من الغابة القريبة تأتي في الليل، وتلتهم نباتات السور. كان هذا مدعاة غضب والدي الذي لم يعد يتحمل:

"هيا بنا إلى الحلاق... !"

لم أكن أرغب في الأوقات العادية زيارة الحلاق. كنت أفهم الذهاب إلى هناك على أنه مضيعة للوقت إذ بوسعي في ذلك الوقت الضائع القيام بأعمال أخرى مفيدة. ولكن الذي يقوم بقص الشعر هو العم "أرمين"، شقيق والدتي وهذا يعني على الدوام تسلية جيدة. جلسنا هناك على المقعد، والدي، تينا، وأنا وصبيان آخران وكل منا يُمسك بطاقة برقم.

العم "أرمين" كان طويلاً قوي البنية، تعود بشكل دوري زيارة السيد "سترن"، القصاب اليهودي الذي كان يذبح الدواجن والماشية على طريقة "كوشر" (حلال). الناس يحضرون له الدجاج، والبط، والإوز حيث يقوم في الخلف بقلع رقابها، فيجرحها بسكين حادة ويتركها ليصفى دمها، وفي النهاية، يُنظف اللحم من الأوعية الدموية جميعها. كان الطريق إليه يمر عبر شارع ضيق "الجلاد" (هذا العنوان أصبح متداولاً مع أن بريجاني لم يكن فيها (سيافاً) واحداً؛ لأنهم يرسلون مجرميهم إلى "نترا" حيث يتم شنقهم هناك). حين كان أطفال اليهود يمرون من هناك مع أباريق الحليب، كان صخبهم يُسمع في الشوارع القريبة كلها. اليهود يحلبون البقرة دون أن يُزيتوا "الحلْمْ" كي لا تصل إلى الحليب أي نقطة لها علاقة بالدهون.

"أرمين" يقص الشعر. ويحلق الذقون. وحين يجرح أحدهم بالشفرة كان يوقف الدم بحجر أبيض يسميه "لابيس" يقوم بوظيفته بشكل رائع. يكفي وضعه على الجرح.

"ذقنك قوية ولكن بشرتك ناعمة" يقول حين يتكرر الأمر مع الزبون. وهذا ما يحصل لوالدي في أغلب الأحيان، وكان السبب أيضاً في كره والدي لـ"أرمين".

كان العم "أرمين" لا يزال يعمل في تصفيف شعر أجعد لسيدة نحيلة الجسم كنت أعرفها بالشكل. لم يتوقف عن الكلام. يبتسم. ويعمل بأصابعه الرقيقة.

"هل تعرفين أني أعمل هنا لأجلك أيتها السيدة "شكريدلوفا"! وإلا لكنت أستريح منذ أمد بعيد في مكان آخر... على الريفيرا!"

ابتسمت السيدة "شكريدلوفا" بجاذبية ورقة. أرجوك "أرمين" لا تُبالغ. ولكن تابع عملك، إن ذلك إطراء كبير!

"يسعدني ذلك، مدام". تابع عمله معها.

"وبالمناسبة.. هل تعرفين تلك النكتة، يا سيدتي؟ يُسافر اثنان في القطار في مقصورة واحدة ويبقيان صامتين. بعد ساعتين، مال أحدهما على الآخر وسأله: *من فضلك، ألست يهودياً؟ الثاني يرفع عينيه عن الجريدة مستغرباً: نعم، ولكن أخبرني، كيف توصلت إلى ذلك؟ يبتسم الأول ويقول: من لهجتك!*

البالغون في صالون الحلاقة جميعهم، ضحكوا.

أنهى العم "أرمين" لمساته الأخيرة مستخدماً المقص، ثم نزع الفوطة عن كتفيها بطريقة مسرحية لا يعرفها إنسان غيره.

انحنى أمامها: "أعرف منذ سنوات بأنك جميلة، ولكن يبدو أن الوقت قد تأخر."

"أرمين، أرمين"! قالت "شكريدلوفا" وهي تتطلع بسعادة إلى صورتها في المرآة.

كنتُ الأول في الدور. قصّ أرمين غُرتي الكثيفة. لم يأخذ منه ذلك وقتاً طويلاً. دخلتْ إلى الصالون سيدة فتية في اللحظة التي كان يُكنس فيها الشعر بالمقشة، ويسكبه في الجيب الورقي الجاهز.

"في الحال" يا سيدتي الحبيبة. أرى أنك قد أمضيت ليلة هنيئة، ونمت جيداً. لم تكوني وحدك، ألست مُحقاً؟ ضَمَّةُ الرجل تفعل المعجزات!"

تورد وجه السيدة، ولكنها لم تشعر بالإساءة. "أرمين" يعرف أن بإمكانه قول ذلك.

"إذا كنت تعرف ذلك فلماذا إذاً لم تتزوج؟"

"تعرفين... كنت أنتظرك. وغير ذلك — لا تنقصني ضمّات الرجال. ماذا تأمرين اليوم؟"

"قَصّة بسيطة وحسب."

"تفضلي واسحبي بطاقة، واستريحي."

تنهد "أرمين" ووضع الفوطة حول عنق شقيقتي "تينا".

"الرجل مثل الشمس، يشع دائماً بالقوة نفسها، شمس دائرية وساخنة، بالطبع إذا لم تغطّها الغيوم، أليس كذلك."

تطلع لحظة إلى رأس أختي، وكأنه يفكر بالجهة التي عليه أن يبدأ فيها عمله.

"المرأة من جهة أخرى تشبه القمر. تتبدل على الدوام —هلال، بدر كامل، ومن جديد هلال — لا يمكن توقع تصرفاتها، تتبدل باستمرار، وليست دائماً هي ذاتها، أليس كذلك يا "ألف؟". وجه كلامه لوالدي، الوحيد بين الحاضرين الذي لم يبتسم، غمزه في المرآة.

"أرسطو كان يقارن الرجل بالنّجار الذي يحفر الطفل من الخشب. والخشب هو المرأة!". ضحكت السيدة الشابة.

تجهم وجه والدي الذي تحسس سترته. سحب لفافة تبغ من جيبها الداخلي ووضعها بين شفتيه، نهض من مكانه وسحب علبة الكبريت

من جيب سرواله، خضّها وهو يتجه نحو الفترينة. هزّ "أرمين" رأسه وغمز بعينه.

"كاشبار... ! (مُهرج)، "كزّ" والدي على أسنانه وخرج إلى الطريق.

كاد أن يصطدم وهو خارج مع "غايدوش". لم ينتبه إليه بسبب قصر قامته. "غايدوش" يعمل في البريد ويُقطب حاجبيه باستمرار. يقال إنه بحاجة إلى خمسة سنتمترات كي يبدو طبيعياً.

الشّعر ينتهي في الكيس الورقي، وكلٌ منا قدّم حصته. تمشينا في الكرم. والدي يتوقف في فترات منتظمة ويعلق الأكياس الورقية على العيدان الخشبية.

رائحة البشر تُهرّب الغزلان، وتحديداً رائحة الذكور. الغزال يحس بالرائحة ولا يقترب. الشّعر يتمتع بتلك السلطة.

تمشيتُ في السنة الماضية في نوفمبر مع "بوني" عبر كرمنا السابق. إنه مُهمل وقد غزتهُ الأعشاب التي كانت تنمو بين أعمدة البيتون، ساقاي كانتا تتعثران كل لحظة بالأسلاك الصدئة. بقي هناك الشعر الشاحب الذي يحرس العنب الذي لا وجود له — لقد سحبت الشمس لون الشعر، واهترأت الأكياس.

سكنت الخفافيش في الأيكة. علّقت رؤوسها إلى الأسفل، وحملت صغارها على صدرها. تُصفرُ، وتختبيء من الضوء. قطع صدئة من "العدة" وبعض الصور التي تلونت بالأصفر — بقايا الحضارة المنقرضة.

والشّعر الذي جمعه والدي مع أنه لم يعد بحاجة إليه.

الوقت المتجمد والمهمل. الذكريات جميعها، والطعام المأكول، والكحول والدواء...

حين أتذكر، أشعر برائحة العنب في فمي.

حين تضعونه في الفم وتضغطون قليلاً تنفسخ قشرة الحبة، وتنزلق تحت اللسان، إنها خفيفة بلا طعم. حين تضغطون أكثر تطقُ الحبة، وتنشر تلك المادة الهلامية الحلوة –الحامضة التي تملأ الفم وتدخل بين

الأسنان، ولكن تكسُّر البذرة تحت الأسنان يمكنه أن يُخَرِبْ تلك المتعة، ولكن هذا ما يجب أن يحدث حتى نشعر بالأشياء الأخرى. مثل خراء العصافير على غطاء الطاولة النظيف. فتات الحبة، ألياف، ونسيج متهتك، سائل حلو — كل ذلك ينتشر على اللسان.

ربما هناك في النهاية الشعور بالدّم. كما حصل حين خرجت — دخل رجل منهك إلى صالون حلاقة "أرمين" وجلس في المقعد، كان يتنفس بصعوبة. شعرت أنه فاقد الإحساس.

"ما هي رغبة السيد المحترم؟

صدمتُ للتو... بالقرب من هذا المكان... رجلاً. ولكن أرجوك أن تقص لي شعري."

هل شعرتُ بالدّم؟ أو خُيل إلي ذلك؟

17

نحن في عمق الليل. الحرارة تشير إلى بضع درجات تحت الصفر، هذا على الأقل ما يُشير إليه ميزان حرارة والدي. ريح قوية باردة. أراقب الأزهار المتجمدة على البلور، عددها ليس كبيراً. إنها تنمو وتتفتح في القسم الأيسر من النافذة.

لم أرها منذ فترة طويلة. لقد أصبحت في تلك الأيام من الأشياء النادرة كما هو حال أشياء أخرى. الزجاج المُفرغ من الهواء في النوافذ البلاستيكية، والإغلاق المُحكم تسبّب في عدم تشكلها. ولا حتى في نوافذي في براتيسلافا.

والد "فويتا" يُربي الحَمام.

رأيته مراراً وهو يراقبهم بشغف ولذة إلى الوقت الذي طردوه فيه من الجيش بشكل نهائي في عام اثنين وخمسين. إنها تَحلقُ في دوائر كبيرة فوق حينا. كان بوسعي التطلع إليها فترة طويلة من حديقتنا. لقد حملها للاشتراك في المسابقات إلى أماكن تبعد مئات الكيلومترات، كانت تعود طيراناً إلى مكانها. مرة، شرح لي "فويتا" أن الطيران إلى مسافات

بعيدة تتخصص به الذكور فحسب. أما الإناث فتبقى سجينة، والذكور تتوق إلى العودة إليها، ولهذا فإنها لا تخطئ طريقها. إنهن أسيرات. والد "فويتا" كان يسمح لهم بدخول الأقفاص تقديراً لجهودهم، ومن ثم يسمح لهم بالبقاء معهن لفترة.

يتصف صوت الملازم "روشكو" بنبرة غريبة - يستخدمها في الحالات الاضطرارية كوسيلة للتواصل. لم يستخدمها كترف لنيل ود النساء — الصوت الجهوري العميق والدقيق مع قليل من الغنج المُعدل. قاموس يحتوي على تعابير لائقة مختارة يمكنها أن توصل إلى الهدف دون مشقة. لم يستخدمه كأداة إقناع للغير لأنه في الأصل لم يكن يملكه لذلك الغرض، غرض لفت الانتباه والإعجاب، أو لكسب شعبية الجمهور وحبه. وطبقاً لهذا كان يصدح. كأنه يجف في حرارة الشمس القوية - كيف يمكن للصوت أن يملك لوناً — رمادياً عن حق. يُمكن القول إن صوته لا يُسمعْ، لأنه لا يُتعب حباله الصوتية التي ربما تكون قد ضمرت بسبب نظام التقنين الذي يتبعه كي يحافظ على مادته واستخدامها في أماكن أكثر أهمية.

بضع كلمات، بضعة أصوات، سُعال، تثاؤب، اختناق...

كان ذلك كافياً. الجميع يقتربون منه، ويميلون برؤوسهم، ويضعون آذانهم في حالة استنفار كي يسمعونه. نهاية الأمر، يكون والد "فويتا" قد حصل على تعاطف، وحب أولئك الذي يستمعون إليه. ومن ثم على صفة الراوي، وربما السبب هو عدم وجود ذلك الإنسان الذي سمعه يتكلم بشكل مترابط.

لقد كان "فويتا" يتأثر بذلك الصوت. استخدمه والده في نبرته العميقة خلال ساعات الصباح حين تكون الحبال الصوتية في حالة ركود — أثناء الحديث مع والدته عند تناول طعام الفطور. في اللحظة التي ينطق فيها، يقوم "فويتا" برفع رأسه ويزيد من انتباهه مع أن الكلمات لم تكن موجهة إليه. سمع تلك الترددات حتى من مسافة بعيدة، وهذا ما انتبهت إليه مراراً.

لا بد أن يكون ذلك الصوت مسموعاً بشكل جيد في جهاز الإرسال حين يتصل الملازم بالقاعدة أثناء ممارسة الطيران الحربي.

كان لي مع "فويتا" أماكن محببة في "بريجاني".

كان هناك في الطرف المعاكس للقرية عند آخر بيوت معمل للقرميد، تجاوره بحيرة تدعى "بهي". مياه راكدة من شط إلى آخر، ضفادع، أسماك متناثرة إضافة إلى السيد "ميسلوفتش" — "شعراني"، لحية طويلة، بطن كبير. غائصٌ في البحيرة صيفاً وشتاء. يعمل بوصفه "وقاداً"، زوجته خياطة في إحدى الورشات. ينقصه الشعر في رأسه (حين يريد الأطفال إزعاجه يسألونه إعارتهم المشط)، بشرته غامقة من الشُحار، والفحم، إضافة إلى الصور والدوائر على اليدين والظهر — شيء غريب، سيما أن "التاتو" الوشم ممنوع عند اليهود حسب قول عمي "أوسكار" باستثناء الرقم على الذراع — كان "ميسلوفيتش" يضحك، وهو يتفحص يده.

لقد دربني مع "فويتا" على صيد العقارب-- رافقنا إلى "سالفا"، وأوصلنا إلى الثقوب الموجودة على الشط: "أدخل إصبعك هناك!"

دسسته بحذر شديد إلى الداخل وفي الحال أمسكتني المخالب. صرخت.

"اسحبه، اسحبه!" أمسكنا اثنين بهذه الطريقة.

اليوم، لم تعد هناك عقارب بالقرب من معمل القرميد. حين تبدّل اسم معمل "كنوخت وماريغر" إلى "سلوفلين" الذي بدأ بإنتاج الدهان والألوان والخيوط الصناعية والبلاستيك — وجعل نفاياته تصب بطريقة لا تثير الانتباه في "سالافا" — غادرت *العقارب* كما قيل بشكل لائق. هذا يعني أنها انتقلت على سيارات نقل صغيرة مخصصة للعقارب مع حقائب صغيرة، على قطارات عقربية — تماماً كما *ينتقل* الناس أحياناً. نعم. تصور جميل لولا وجود تلك المشاهد حيث تترافق أجسامهم مع الأسماك الميتة، البطون البيضاء طافية على السطح، تدور في الجداول ويحملها

التيار بعد ذلك إلى خارج "بريجاني". نعم يمكن القول إنها تتدفأ براحة تحت أشعة الشمس بعيدا عن أعين البشر.

في الحقيقة لا توجد براهين تشير إلى أنها فعلت ذلك بطريقة مختلفة.

جد "ميسلوفيتش" لا يزال يدعى "ميسلوفينز"، والده أصبح "ميسلوفتسس". الاسم المجري في تلك الأثناء يعطي انطباعاً أفضل — كان يعمل في مكان ما في مؤسسة السكك الحديدية. ابنه تحول إلى سلوفاكي، ربما بسبب ضياع سجلات الأحوال الشخصية. على كل حال — كان اسمه "ناندور" وهذا يعادل "فرديناند". لم يؤمن بالخالق، ولم يكن يُصلي، يقول لو أنه التقاه في يوم من الأيام بالصدفة سيتعذر عليه معرفته. كان يهود "بريجاني" يزورونه بعد الحرب — لأنهم يريدون الصلاة في يوم الجمعة في الكنيس الموجود في نهاية شارع "لتنا". من المفروض حضور عشرة أشخاص بالغين كي يقبل "يهوا" الصلاة من أجل إسرائيل.

حين لا يحضرون لسبب ما، يكاد أن ينفجر من الغضب أمام المدخل لشعوره بالندم على ذلك الوقت الضائع، هنا يصرخ "ميسلوفتش" بأعلى صوته:

"ويلكم مني أيها اليهود العاهرون الوسخون، تتركوني أحضر إلى هنا كي أساعدكم في محاورة ربكم، ومع ذلك تتقاعسون في لمِّ أنفسكم والمجيء؟!

انتصب منزل "ميسلوفتش" في مكان منعزل بالقرب من "سالافا". لقد بناه على أنقاض بيت تحمل البقاء في منتصف الأراضي التي غمرتها المياه من جوانبها كلها، ولم تترك سوى تلك الجزيرة الصغيرة التي وقف عليها منزل "ميسلوفتش". حين حصل فيضان المائة عام الذي كان يحدث كما يقال مراراً وتكراراً — لقد عشته ثلاث مرات—، كانوا يصرخون عليه من القوارب بأنهم سوف ينقلونه من البيت كي لا يغرق. كان يرفض ويرسلهم مع صراخهم إلى جهنم — بقي منزله صامداً هناك على جزيرة "ميسلوفتش". هذا المكان لا يزال يدعى "عند ميسلوفتش" مع أن أطراف مدينة "بريجاني" وصلت إليه.

كان "ميسلوفتش" يأتي إلينا بين الحين والآخر بكيس فارغ، ويغادر بكيس ممتلىء. ازدحمت فيه وتقلبت — كان حضوره يتكرر دائماً حين تقذف "إيكابانا" صغارها. والدي كان يعطيه بعض الفكة، يتصافحان، ويذهب كل في طريقه. كان بوسع الجميع تخمين ما يجري، ولكن الحديث عن هذا الأمر في عائلتنا لم يحدث. أكثر من عانى من هذا الشيء كانت "تينا" كما أن الأمر لم يكن سيان عند "بتر"، وببساطة، حين لم يتحدث أحد حول ما جرى ، وتُرك الأمر للتخمين لأن الصغار تبخروا بسرعة أو تحولوا إلى ملائكة من القطط الصغيرة الحمراء التي حملها القط الكبير الحاضر مباشرة إلى السماوات، بدا كل شيء على ما يرام. تعودت "إيكا" في وقت لاحق نقل صغارها بعد الولادة. ولم يكتشف أحد إلى أين.

إضافة إلى بحيرة "بهي" الصغيرة حيث يحظر علينا حسب التعليمات تخطيها، أشادوا مسبحاً صيفياً في العراء بالقرب من نهر "سالافا". كان من المفروض ألا يعرف والدي عن تقدمي في السباحة برفقة كلب "ميسلوفتش" الذي أمرني بمسكه من ذيله، ونجح ذلك، لذا تركته، ليدفع لي أجور المدرب.

تعود تلك الصورة دائماً إلى ذاكرتي: أنا في الماء وحول صدري حزام مثبت بقوة في حين يتحرك المدرب ببطء على طرف المسبح المبلط. إنه يمسكني بالعصا كي لا أختفي صدفة وبشكل مباشر تحت سطح الماء. أبي يقف بالقرب منا ببزته الكريم. المعطف مع الصدرية في "طقة" حر الشمس وعلى رأسه طاقية مُنكسة فوق جبينه.

إنه يراقبني بانتباه وعن كثب، ويخاطبني أحياناً قائلاً: "أداشو"، لماذا لا تمدُ ضرباتك كما يقول لك السيد "كوباسني"؟!

حين بدت الأمور وكأني تعلمت السباحة، جعلنا نزور المسبح برفقة أمي، و "تينا" و"بتر". كانت أمي دائماً تُحضر معها الحليب الذي تمزجه بشراب التوت، وهذا كان طعم سباحتنا. تَعلقُ بذرة التوت الصغيرة أحياناً تحت السن كي تُخرب طعم ذلك الشراب الرائع كما

تعلقُ في أحيان أخرى بالضرس وغالباً في القسم الخلفي من الفم، وترفض الخروج مع استخدام الوسائل المتاحة كلها بما في ذلك الغرغرة بالماء والصيد بالأظافر – وغالباً ما تنتقل البذرة معك إلى البيت، وأخيراً وقبل النوم أثناء تنظيف الأسنان تجدها تتحرر من السن، فارغة وبلا طعم مثل ذكرى شاحبة ليوم صيفي أمضيته بالقرب من الماء.

أهلي كانوا يخلطون دون ضجيج لتراً من الكحول الطبي مع شراب التوت. كانوا يشربون شراب توت مختلف.

غالباً ما كنت أمارس هواية صيد الأسماك مع "فويتا" في "سالافا" – في أحد الفروع الجانبية – نمسكها باليد، ولكننا نفشل في اصطياد كبار ذكورها، يحتاج الإنسان لهذا الغرض عصا صيد. كنا نشويها على النار مباشرة على ضفة النهر.

نستلقي بعد ذلك لنراقب حلول لمساء، وكيف يبرد الهواء ونحن نتبادل الحديث. "فويتا" يحب رواية الحكايات، وأنا أتلذذ بسماعها.

حين قمت بزيارة "بريجاني" للمرة الأخيرة، السنة الماضية في الخريف، ذهبت إلى هناك.

وقفت بمحاذاة النهر وجعلت أراقب عودة المياه بسرعة إلى مجراها الطبيعي. لقد هطل مطر غزير وبشكل غير متوقع في الأسبوع الأخير، وتحديداً في المرتفعات الشمالية مما جعل "سالافا" يعود ليسلك مساره الطبيعي، تعرج من جديد، ولم يعد كما أراده عمال مؤسسة المياه "المُحدثون" مستقيماً ومكباً للنفايات.

طاف من الجهتين وأغرق الحقول المجاورة. الناس من "بريجاني" الذين وجدوا ما يستحق رؤيته، هرعوا لمراقبة ذلك المشهد، ولكنهم لم يتحملوا طويلاً برودة الجو. وقفوا فحسب وراقبوا عودة المياه التي تكفلت بغسل طرفي النهر – استداروا بعد ذلك ونظروا إليّ بتركيز كبير، وفكروا فيمن أكون، ومن أين أتيت. أجنبي بوجه مألوف. غادروا عائدين إلى بيوتهم مع ظهور الشفق واقتراب الغروب الشتوي.

الكلب ينبح على الغراب الجالس على السور، لم يتمكن من الوصول إليه. يعشعش الكثير من الغربان في الأيكة كما وصل العديد منها لتمضية الشتاء من الشمال.

أصبح عندنا أنا و"فويتا " بعد سنوات من الحرب مكاناً نجلس فيه فوق أعلى غصن من شجرة الصفصاف — من الأغصان وألواح الخشب التي نقلناها إلى أعلى الشجرة. من المفروض أن نكون في شهر أيار لأن أسراب الدبابير كانت تملأ الأجواء.

جعلنا نراقب الناس الذين يتسلون بالقرب من ضفتي النهر. الشباب من "بريجاني"، وبينهم "ميسلوفتش" وأصدقاؤه. *أناس عاديون*، هذا على الأقل من منظور والدي، ووالدة "فويتا" – كانوا يشتموننا دائماً لأننا نتحدث معهم. اقترب المساء، وظهر الشفق الأحمر.

حفروا حفرتين عند طرف النهر، وأشعلوا النار في كل منهما ووضعوا فوقهما قطعتي صفيح. للحظات لم يحدث شيء، شربوا، وتبادلوا الحديث، دوّروا فيما بينهم زجاجة سائل رائق شفاف، سُمع صوت ضحكهم.

خرج الصيادون بعد ذلك من الغابة ومعهم الغربان — سمينة، فتية، من تلك التي تقفز فوق الأغصان قبل تحليقها الأول. ذبحوها تحت رقابها وسلخوا جلدها. الأفخاذ، والمعَد، والقلوب تم قطعها، ووضعها فوق سطح الصفيح الساخن. "ميسلوفتش" الذي ظهر بمظهر رئيس الطباخين، أضاف الدهن، والفلفل، والملح، والفليفلة وبدأ بالشواء.

صرخ بأعلى صوته: "العشاء! كوشر! ه" ضحك بعد ذلك وأضاف: "كل شيء يخرج من بين أصابعي هو (كوشر)!"[25]

بدأ برمي قطع اللحم الأولى المشوية في الصحون التي نشرت رائحة رائعة. أكلوا اللحم مع الخبز وفتحوا زجاجات النبيذ.

غابت الشمس. هبت نسمة باردة تحمل معها رائحة الأرض.

---

[25](حلال) كوشر : طعام مُحضر حسب الطريقة اليهودية

حين انتهت الوجبة الأولى، هرع الصيادون باتجاه الغابة، واختفوا بين الأشجار كي يحضروا المزيد من الغربان للوجبة التالية. سمعنا أصواتهم، وأصوات طلقات بنادقهم وضحكاتهم.

خرج في تلك اللحظة من الغابة شكل غريبٌ — شخصية إنسان حقيقي، ولكنها لم تكن خاصة. مر رجل يرتدي بزة مموهة وعلى ظهره كيس قماشي بالقرب من شجرتنا. انتبه "فويتا" إليه وراقبه بحذر شديد. الرجل الذي تحرك تحت أقدامنا كان والده. ألقى التحية بإيماءة من رأسه على الحاضرين، وتابع طريقه، لم يبتسم لأحد.

"هالو، حضرة الجنرال! السيد الجنرال! نده عليه "ميسلوفتش" بصخب.

أومأ والد "فويتا" برأسه، أراد الاعتراض على الرتبة العالية التي خصه بها — ولكن، اتركوا "ميسلوفتش" يقول ما يريد لأن ذلك لن يُغير شيئاً في الموضوع. لقد تسلم والد "فويتا" قبل أسبوع رسالة من الوزير، وهو الآن يهيم على وجهه، ويمكن القول إنه نادراً ما يذهب إلى البيت.

"تفضل، وشاركنا، أيها الجنرال!"

أدار والد "فويتا" رأسه بقرف، وتردد.

"تعال، وشاركنا الأكل!" حثه الباقون أيضاً.

اقترب بخطوات بطيئة من الحفرتين ومن الجمع الذين جلسوا حولهما، ثم جلس على العشب.

"مساء الخير..." قال بصوته الغريب. قدمه "ميسلوفتش" لأصدقائه الذين لا يعرفونه، وخصصه بصحن.

"كوشر، طيور..." ضحك. النكات الناجحة يجب تكرارها.

"أنا "فرديش..." مد له كوعه، لأن يده كانت مغمسة بالدهن، أمسكه والد "فويتا" من ساعده، وهزه.

"فويتخ"، رد وهو يزفر.

"أعرف. أهلاً بك."

ربت "ميسلوفتش " على كتفه وذهب ليتابع عمله مع اللحم.
كنا في تلك الأثناء قد نزلنا عن الشجرة وجعلنا نقترب منهم .
"انظروا – من هنا؟"
"مساء الخير، قلنا بخجل.

تطلع "فويتا" بارتباك في وجه والده. كلاهما هنا دون علم العائلة، كلاهما ضائعان — ولكن الوالد بدأ ينتعش. ضحك من النكات بقدر ما شرب من النبيذ. تحدث قليلاً وكأنه خائف من أن يقوم أحدهم بضربه على رأسه. مال برأسه على "فويتا".

"حذاري أن تتحدث عن لقائنا في البيت! سوف يكون سراً بيننا، "بستْ" حسناً؟

صرخ "موناكو" في زوجته : "أنت "زوزا"! اتركي للآخرين!"

رفضت في البداية أكل لحم الغراب، قرفت منه، صرخت بطريقة هستريائية وقالت إنها لن تضعه في فمها، وليذهب بها "موناكو" إلى الجحيم. ولكنه حين أجبرها وهو يضحك على تذوق قطعة. لم تتمكن منذ تلك اللحظة من التقاط أنفاسها والتوقف عن الأكل مباشرة من فوق صفيح التنك.

"اتركي للآخرين، هل تسمعينني؟"
"كوشر طيور، تفضل!"

استقرت الصحون الورقيه بين أيدينا _ "فويتا" وأنا، وفيها فخذا غراب مع قطعة خبز وفليفلة حادة. أكلنا وتلذذنا.

سمعنا صوت إطلاق نار آت من الغابة. أحدهم يُغني ويعزف على الهارمونيكا. الأصوات الأخرى تشارك في الغناء ولكنها "نشاز".

وصلت العوامة إلى الشط حاملة معها بقية الأصدقاء الذين كانوا يترنحون سكراً.

بقيت العوامة تتنقل في "سالافا" حتى عام 1976 إلى أن فقدت أشجار البلوط الثلاثة العملاقة التي ربطها مُشغلها بالحبال — إحداها انفصلت في الليلة الكريمة، والبقية في اليوم التالي.

راهن ابن "موناكو" في وقت سابق بأنه مستعد لسحبها من الطرف الثاني للنهر مستعيناً بالحبل فحسب. النهر يُشكل الحدود بين منطقتنا ومنطقة "مدوفدسكي". وحين أصيب بتشنج قوي في يديه وكان في وسط النهر، سقط في الماء وغرق.

النهر يمتلك شهية كبيرة.

18

اللقطات التاريخية المعروفة تحب نسج خيوطها في الذاكرة. دائماً الشارع المشمس نفسه. يبلله رذاذ المطر أحياناً، وتغمره الثلوج في أحيان أخرى. لا شيء يحدث. الهدوء يعم الأجواء، "gemulich" كما يقول الألمان.

ملل مهيب.

يمكنها أن تكون في السينما مشاهد لأناس يتحركون بسرعة في ساحة البلدة الصغيرة، صور متسارعة. الكاميرا تصل إلى كل مكان — بينهم، فوقهم، تتسكع دون احترام أو اعتبار للقوانين الفيزيائية، تخترق الزوايا المظلمة. الناس.. مسرعون، يبتسمون، يتبادلون التحيات، إنهم سعداء في دورة حياتهم اليومية.

لقطات مشابهة من الطريق، تتسارع بالإيقاع ذاته: بائع الكستناء، بائع الزجاج، مرور عدة سيارات، عربة تجرها الخيول... سيدة بقبعة على رأسها تتحاور مع زميلة لها على الرصيف... متسول عند ناصية الشارع...

سيدٌ يقف على حافة الرصيف، يعتمر قبعة، يُدخن، يختزل الزمن بقراءة الصحف. الكاميرا تقترب مثل ذبابة مزعجة، وتلتقط المقال.

هذا الرجل هو عمي "أرمين بلاو"، إنه هنا بانتظار موعد.

على الرغم أن بيتنا يقع في شارع جانبي إلا أننا كنا نسمع جيداً ما يجري في المدينة كما لو أننا في شارع عريض - شارع أدولف هتلر (مساريك سابقاً)، حيث لم يعد باستطاعة يهودي أن يسكن فيه، ولو كنت رأيت بعضهم في السابق فإن ذلك أصبح من الماضي، إذ تم نقلهم بسرعة، وحشرهم في بيوت نصف مُهدمة موجودة في طرف البلدة بعد

تبديل أسمائهم – في مكان تتقاطع فيه الدبابات، والسيارات وناقلات تكنولوجيا الحرب ليلاً ونهاراً في "بريجاني". أبي يقول، إنهم يتجهون إلى الاتحاد السوفيتي.

"الاتحاد السوفيتي... همهمت.." همست والدتي حين كانت تُسرح شعرها في الحمام قبل النوم – بدا الأمر وكأنه تدريب لغوي. اختراع لغوي رائع يصعُب على اللسان لفظه ولكن عليك تكراره، فيبدو لك جديداً معنى مبتذلاً. سيتسلى المجتمع جيداً.

تماماً كما في لعبة، *لمن تلك العيون؟ لمن تلك السيقان الصغيرة؟* حين غطت وجهها بورقة، أو ما تبقى من جسدها بالستارة. كان أهلي دائماً يلعبونها حين يمتلئ الصالون بالزوار وتصل البهجة إلى أوجها، يضحكون كثيراً أثناء ذلك. *لمن تلك العيون؟* سأل هتلر. *لمن تلك السيقان الصغيرة؟* تصدى له ستالين.

استخدما العيون والسيقان كما يحلو لهما.

كنا نطالع في المدرسة كتاب قراءة يتحدث عن عظمة الألمان للكاتب "ميخائيل مان"، تعرفنا من خلاله على حقائق عن صداقة الشعب الألماني.

دعتني السيدة المدرسة للوقوف أمام السبورة وقراءة هذا النص أمام طلاب الشعبة جميعهم:

"ماهي ألمانيا العظمى؟ ما هي أوروبا العظمى "إمبراطورية الوسط"؟ إنها أرض الشعراء والمفكرين، أصحاب البزات والخطوات الرائعة القوية، بلادُ القلاع، والقصور، والمدن الكبيرة الساحرة، الأفران العالية، معامل السفن والمختبرات التي يحاول فيها العلماء الحالمون الوصول إلى الفردوس أو إلى جهنم. كيف هي تلك الإمبراطورية التي تجتمع فيها سعفونية العمل والحذر والنضال بقوة؟ حيث أصبح حفيف أشجار الغابات، وسكون الحقول التي شارفت على النضج، لغة الأرض الغنية بتاريخها. كيف هي تلك البلاد التي نجد فيها القوانين الشاملة لحماية الحيوانات وعقوبة الإعدام جنباً إلى جنب؟ ما هي ألمانيا الكبرى؟ ومن هو

صاحب الرؤيا الثاقبة والنشاط "الألماني ميخال" الذي تعلم الآن الطيران بالرغم من بلادته؟ سيأتي الجواب الوافي والشافي في الحال. لقد شكل مجال ألمانيا الكبرى مسرحاً رئيساً لتفاعل تاريخ الغرب، إضافة إلى أنه المكان الذي تشكل فيه تاريخ العالم كما ساهم الألمان خارج حدود أوروبا فيما وراء المحيطات والنتيجة ما نراه في نشوء الولايات المتحدة الأمريكية. لقد حولت معاهدة فرساي ألمانيا إلى دولة خانعة غير قابلة للحياة، ولكن جينات البدء بحياة جديدة بقيت موجودة. إن صراع البقاء الذي قاده الشعب الألماني في الحرب العالمية دون أي اعتبار للانتماء العرقي أو للهوية مستخدماً كل ما لديه من قوة، أيقظ الرغبة في جمع إمبراطورية جميع الألمان وتوحيدها. تلك الرغبة حققها أدولف هتلر. لقد اختارت الحركة الشعبية الاشتراكية التي وصلت إلى السلطة في 30. شباط 1933 أدولف هتلر مستشاراً للإمبراطورية الألمانية الكبرى. لقد سمح تحول النظام الجمهوري البرلماني في دولة شعبية ألمانية مركزية جديدة، خطوة إثر خطوة بنشوء إمبراطورية ألمانيا الكبرى. لقد تم ضم القسم من الأمة الألمانية التي تم إبعادها بموجب معاهدة فرساي عن ألمانيا: السوديت 1038، تشيكيا وموارفيا 1039، الميمل 1939، دانزيك 1039, وأوبن-مالدي 1940؛ كما نُفذت رغبة ألمان النمسا في الانضمام إلى الامبراطورية في ربيع 1938. تشكلت من جديد في ربيع 1939 بعد اجتياح بولونيا إقطاعيات الإمبراطورية "بوسن ، وغرب بروسكا" وتم في الوقت ذاته تشكيل اللواء الشامل. يمكن القول إن ألماني القرن العشرين يجمعُ في ذاته عدداً من الصفات المميزة والإمكانات ما يخوله ليكون النموذج الأكثر كمالاً بين شعوب البشرية وأجناسها."

الخريطة في وسط النص تشير إلى ألمانيا الكبرى بوصفها قلب أوروبا. تلتها صورة بالأبيض والأسود لعامل من مناطق مناجم الفحم الموجودة في منطقة "سليسكا"، صياد من "هلغولاند" وبعد ذلك الطريق الدولي للإمبراطورية بين ميونيخ وسالسبورغ. ثم بيوت العمال الحديثة:

الضوء، والهواء، والشمس، الجنود الألمان يمرون بخطواتهم المنتظمة الرائعة أمام الفوهرر.

دربتنا الآنسة على إنشاد "أو تاننباون"! لأعياد الميلاد.

ابني"بوني" أنشد من جديد في المدرسة أغنية عن شجرة السرو "يولكا".

في البيت كنا دائماً ننشد بالإنكليزية: إنني أحلم بعيد الميلاد الأبيض...

I'm dreaming of a white Christmas, just like :
the ones I used to know,

كان ينتشر من أسطوانة شلاكوف إلى أن كسرها أخي "رودو" بجلوسه عليها.

اكتشفنا بفضل الدعاية الألمانية أن فرنسا وقّعتْ في 22. حزيران 1940 وثيقة استسلام مع ألمانيا — أمر هتلر الذي كان يهتم كثيراً بالمظاهر وإحضار عربة قطار مخصصة للأكل إلى مدينة "شامبان" — وهي النسخة ذاتها الذي تم توقيعها في تلك المدينة عند استسلام ألمانيا عام 1918. أمر بعد ذلك بإرسال الوثيقة إلى برلين وعرضها في المكان الذي أصابته قذائف الطائرات دون رحمة في نهاية الحرب — ولولا ذلك بالطبع لاستمرت اللعبة. ومن يدري ما الذي كان سينتج عن ذلك. العناية الإلهية، كما سماها هتلر، تعمل أحياناً بطريقة صحيحة.

غيرهُ سمّاها الإله. حاضر الأب "سافتسكي" قائلاً باعتزاز: "الرب موجود في كل مكان، إنه الروح الطاهرة، إنه الهواء الذي يحيط بنا، الهواء الذي نتنفسه. إنه موجود في كل مكان."

حينَ تطلعت عبر النافذة إلى الخارج تناهى إلى سمعي صوت يشير إلى انزعاج صاحبه:

"ترنوفسكي! ما هو الرب؟"

"الرب هو..."

حتى إني لم أتمكن من استيعاب ذلك حين رأيته يقف بالقرب مني ويصرخ. مددت يدي وأصابعي وفي الحال انطلقت الصفرة من عصا العقاب.

نادراً ما كنت أزور الكنيسة إلى أن أصبح ذلك إجبارياً. كانت جدتي "ماريا" تأخذني لحضور القداس. كانت تحمل "الحجاب" تحت ثيابها محمولاً على كتفها حيث رسمت صورة أم الرب من جهة، وصورة القديسة "أنستازيا" من الجهة الثانية. أخفتْ في جيبها ميدالية زجاجية لمنمنمات صغيرة تصور الكهنة كانت قد تسلمتها من والدتها.

كنت أتطلع في الكنيسة إلى الأشكال نصف العارية المكورة الخارجة من الجدران وهي تنظر إلى مكان في الأعلى، كما كنت أتنشق رائحة البخور بوصفها شيئاً غريباً ومثيراً. ولكني أرتعب دوماً حين تلمس جبهتي يد الجدة الباردة المغمسة في الماء المقدس.

أتذكر كيف أنبتني وكنت في السادسة من عمري حين وصفت لها أين التقيت العم "أوسكار": هناك خلف البلدة حيث يوجد "إيمري"[26] الذي يدلنا على الاتجاه الصحيح "نعم، تقاطعت هناك الطرقات، إحدى يديه تشير إلى الغرب والأخرى إلى الشرق حتى يعرف الحجاج كيف يصلون إلى "بريجاني". كتب ذلك السيد على رأسه اسمه."إيمري" .INRI

ضحك والدي كثيراً حين سمعني. لذلك استغربت حين أخذني مرة في يوم السبت قبل الظهيرة إلى كنيسة الآلام السبعة الصغيرة الموجودة في الشارع الجانبي. كان يوماً صيفياً حاراً وهذا ما أتذكره جيداً. كنت أسأله وأشده من يده حين كنا نشق طريقنا بين المقاعد للوصول إلى الكاهن بمريوله الأسود فوق جلبابه الأبيض الموجود في الغرفة المقدسة: "هل هو هنا موجود؟"

لم يسمعني في البداية، أو لم يفهم قصدي من السؤال. بدا لي — على كل حال — متوتراً ولم يُجبني.

"هل هو هنا؟!" ولكني لم أهمس هذه المرة بل ربما صرخت.

---

[26] IMRI : كتابة موجودة في أعلى الصليب وقد لفظها بالخطأ

"من...؟"

"الرب، بالطبع!"

مد يده وصفعني على نقرتي حتى طارت قبعتي التي نسيتها على رأسي. أمسك يدي بقوة أكبر.

تولى العناية بالكنيسة الصغيرة لسيدة الآلام السبعة، أربعة *سادة كلاب*، أو "دوميني كانس"، وغير ذلك من الدومينيكان.– وحسب زعمها (أي جدتي) فإن ذلك مجرد ترجمة. حماة الديانة في القرون الوسطى، قالت، أداروا نشاط محاكم التفتيش – ولكني حين تطلعت إليهم لم أقتنع بذلك. لقد رأيتهم مسالمين، وربما خائفين أيضاً.

أكبرهم سناً – برداثه المتعرق – جلس بجانبنا على المقعد.

"ماهي تصوراتكم؟ وكيف سيتم ذلك؟" سأل والدي.

"ليست عرضاً مسرحياً، أيها السيد الطبيب،" تنهد القس الدومينيكاني بأسى.

"أفهم ذلك، ولكن..."

"ستحضران، وتعترفان، وتتناولان، وبعدها سأعقد قرانكما كنسياً ثم أعمدها.. يجب عليّ تبديل التاريخ في صفحة المعمودية، وإلا،... أنت تفهم بالطبع، سيكون الزواج غير شرعي."

"ولكن، ألا يمكننا إجراء ذلك دون الاعتراف؟"

"السيد الطبيب، أنت إنسان سوي، ومواطن صالح، تعيش حياة يحتذى بها، لذا لا أفهم ما تقصده."

"الأمر عندي قضية مبدأ."

"مبدأ...! ضحك الدومينكاني. ثم قال بجدية: "أعتذر، لا يمكنني، دون اعتراف، لا."

رأيت كيف زفر والدي بعصبية.

صوت الأورغ يشعلُ في داخلي أحاسيس جياشة، ينتقل صوته إلى أحشائي بكاملها كما أنه يهز قلبي. جلسنا مع والدي في المقاعد الأمامية.

والدي، "تينا"، "بتر" وأنا إضافة إلى أهلي بالمعمودية؛ "أمبي كربس" مع زوجته. رش الكاهن الدومينكاني والدتي بقطرات من الماء المقدس ثم قال بصوت يدل على الانتصار:

"برتا روزاليا"، أعمدك باسم الآب والابن والروح القدس، آمن!"

الكنيسة شبه خالية من المصلين لأن صدى الأصوات كان يرتد من سطوح الجدران المحيطة. حين تناولت أمي "جسد المسيح" كان "بتر" ينكش أنفه. لم يستغرق ذلك وقتاً طويلاً.

انتظرنا العم "رودو" شقيق والدي فرحاً في الخارج. كان واقفاً على الرصيف الذي سُكب عليه البحص وبيده باقة ورد – جميلاً في بدانته البهية. صرخ حين خرج والدي مع والدتي من الكنيسة:

"لقد انضممتما إذا إلى جامعي العظام؟ تهاني الحارة!"

والدي، تصنعَ الجدية، حاول إسكاته لأنه لا يريد إثارة انتباه أحد دون فائدة. صمت العم "رودو" ولكنه تابع الضحك تحت لحيته التي لم تكن موجودة قبل ذلك اليوم.

استعرض بعد ذلك أثناء تناول طعام الغداء نظريته المحببة:

"شيء جميل، كيف يتعلق الكاثوليك بفُتاتهم المقدسة!" إنه يُشير بالطبع إلى ما تبقى من آثار القديسين – تلك العظيمات الموجودة خلف الأصابع، أو فقرات الرقبة، وقطع المرابيل.

"ويؤكدون أثناء ذلك بصوت واحد أن لا أهمية لما هو موجود على الأرض. المادة لا تعني أي شيء والروح هي كل شيء. يا لها من مفارقة عجيبة. عندي شعور بأن الفلاسفة المسيحيين ينقصهم شيء أساسي."

أمي في حقيقة الأمر كانت محظوظة – ونحن معها أيضاً – لأنها ترث طبقاً للقوانين اليهودية ديانتها من الأم، ولكن الإدارة السلوفاكية الشريفة أخذت بالحسبان ديانة الوالد. ويقولون بعد ذلك إن الحياة ليست لعبة اجتماعية!

شرب والدي القهوة في يوم الأحد التالي مع والدتي على الشرفة. كانا يجلسان أثناء ذلك على الكرسيين المصنوعين من الخيزران الكثيف. كنت ألعب أثناء ذلك في مكان ما. أغلق والدي عينيه من أشعة الشمس وبدأ يغفو قليلاً.. أمي لم تنجح خلال يومين من إخفاء توترها، كانت تريد قول شيء ولكنها لم تجد الشجاعة. غالبية الناس يعتقدون أن الأطفال يعيشون حياتهم الخاصة وأنهم لا ينتبهون إلى شيء، ولكن الأمر ليس على تلك الصورة. إنهم ينتبهون إلى كل شيء ويتذكرون الأشياء جميعها مما يجعل البالغين يندهشون.

كَحَّتْ والدتي، وطردت الذبابة وهي تهمس بينها وبين نفسها:

" من يدري ، ما سيحدث للعم "أرمين"، و... للبقية..."

حافظ والدي على صمته لحظة ثم سحب عن وجهه قبعة القش التي كان يحب وضعها على رأسه أثناء جلوسه في الشرفة حتى في غياب أشعة الشمس.

"ما الذي يمكن أن يحدث؟ لا شيء يهددهم."

"لا شيء يهددهم؟!، قالت أمي، شعرت أنها تغلي.

"كل ما تسمعينه هو مجرد كلام. بسبب هتار."

"لقد أجبروا عائلة "رينفيلد" على الانتقال."

عدل والدي من جلسته، وأضاف بعض القهوة.

"ولكنهم انتقلوا برغبتهم ."

"نعم ...يقال شيءٌ آخر...حتى العجوز "كاتز". غادر، واستلم أحدهم المقهى. استولوا عليها."

فكر والدي، ورفع رمانتي كتفيه: "نعم.. يحدث أحياناً. في هذه الأيام"

"لقد استولوا عليها يا "ألفي"!"

"أ، ها.."

أبي حافظ على هدوئه. جعل يتأرجح في سكون ما بعد ظهيرة الأحد حين سمع غناء العصافير، وراقب إطلالة أشعة الشمس في كرسي

الخيزران وقد غطى وجهه بقبعة القش. فكرَ بقناة السويس، وبالعم "ألبرت" أيضاً.

قالت والدتي: لقد حضروا إلى هنا. "لازار، وصموئيل، وأوسكار، والعمة تيلدا، إدوار.. أرمين.."

عَدل والدي من جلسته بسرعة، احمر لون وجهه.

"لماذا؟"

"لو حدث شيء..."

انزعج في تلك اللحظة من كلامها.

"لن يحدث شيء!"

أخذت والدتي نفساً عميقاً، وزفرته دفعة واحدة.

"يريدونك.. أن تستولي على صالون الحلاقة والمخزن."

"أنا؟!"

"ومن غيرك؟"

صمت والدي وطاف بنظره في الحديقة. لم يخطر بباله شيء كهذا.

أصرت والدتي. نادراً ما سمعتها تتحدث بهذه الطريقة: "وإلا سنفقد كل شيء! سوف تفقد عائلتي أملاكها!"

" ولكني... أنا... لا يمكنني."

أمي، من شدة انزعاجها وتأثرها، طفر الدمع من عينيها.

"العائلة، إذاً لا تعنيك في شيء! حسناً."

انفجرت. بدتْ في غضبها أجمل بكثير من حقيقتها، هذا ما تعود والدي قوله أحياناً. تحركت وهي في أوج غضبها باتجاه باب البيت. سقط من يدها فنجان القهوة الذي لم تُكمل شربه. انسكبت القهوة على الأرض. انتفضتُ من مكاني. أمي تركته في محله.

"انتظري! يجب أن أفكر بالموضوع أكثر، "نده عليها والدي.

تطلع في البقعة السوداء التي جعلت تتمدد على الأرض وتوسعت بالعرض.

"يجب أن أكتشف، ما يمكنني فعله."

ظهرت والدتي من جديد بين درفتي الباب.

"كل إنسان يمرض أحياناً، ويكون بحاجة إلى مساعدتك. العديد منهم يريدون رضاك. عندك معارف، "ألفي"!"

اقتربتْ من والدي وقبلته من وجهه.

"لأجلك، بالطبع، لا شيء يَصعب. الطرقات كلها تؤدي إلى الطبيب، آجلاً أو عاجلاً، هل أستخدم تعابيرك بدقة؟"

"حسناً، فَكرْ بالأمر."

انتهى الصيف ببطء شديد. لم يكن صيفاً بمعنى الكلمة، أزهرَ الأقحوان "الخيزرانتان"، والنجوم، والخريفيات في حديقتنا.

صَادقت الحكومة في أيلول على "كودكس" قانون اليهود كما عرفنا من الإذاعة السلوفاكية التي كانت أحياناً أثناء تقديمها أوبريت *"تحت علم غريب"* تتحدث ببراعة عن السعادة العائلية، وتمرر في الوقت ذاته أخباراً من هذا العيار. لم تفاجئ أحداً. جُمعتْ تلك الأشياء على امتداد السنة الأخيرة. قدموها الآن وسموها بأسمائها. كما قوننوها.

أمي! أنا والعم "أوسكار" الذي عاد للتو من رحلة عمل — كنا نتناول شوربة الدجاج التي هي في الأساس *"جولدن يويخ"* ولكن ينقصها خبز "الماتسس".

الصوت في الراديو، يقرأ برزانة وبطء:

"المادة الثامنة، الفقرة الأولى. يتوجب على اليهود حمل شارة اليهود. التفاصيل عن شكل الشعار وطريقة تعليقه، الاستثناءات العامة بعد الاتفاق مع الوزارة المعنية، سيصدرها وزير الداخلية في الجريدة الرسمية."

"هل تناولينني الملح من فضلك، "برتا"؟"

"تفضل على الرحب والسعة."

"الفقرة العاشرة. المعاشرة الجنسية خارج نطاق الزوجية بين اليهودي واليهودية، وغير اليهودية واليهودي تعاقب بالحبس حتى خمس سنوات."

"أخ... لا تزال قليلة الملوحة. أو، لا أعرف..."

المادة السادسة عشرة، الفقرة الأولى. يُحظر على اليهودي أن يعمل: آ – كاتباً عاماً بالعدل، أو مساعداً لكاتب العدل. ب- محامياً أو مساعد محامٍ. ج- مهندساً مدنياً."

"فلفل؟"

"حسناً، القليل،"

المادة 18، الفقرة الأولى: يُحظر على اليهود العمل في الطب العام (عيادة) أو في طب الحيوان (عيادة)."

" شيءٌ ما في هذه الشوربة، ليست كما ينبغي."

"أتأسف لسماع ذلك، "أوسي"

"المادة 20، الفقرة الأولى: يُحظر على اليهود فتح صيدلية."

"أعتذر، حقاً."

"إنك لست السبب.."

"المادة 28، الفقرة الأولى. يمكن للهيئة الاقتصادية المركزية بالاتفاق مع وزارة الداخلية أن تُجبر اليهود على الانتقال من البلدة أو المدينة على أن تحدد لهم في الوقت ذاته البلدة أو المدينة التي يتوجب عليهم الانتقال إليها. "

"على الأغلب ينقصها الملح..."

المادة 43, الفقرة الثانية. يُحظر على اليهود امتلاك أجهزة التصوير، والمناظير كما يُحظر عليهم بيع أسطوانات الغرامفون التي تحتوي الأغاني والألحان الشعبية."

"نعم، جيد، لقد زادت ملوحتها الآن..!"

المادة 191. الفقرة الأولى. تُصبح الملكية الثابتة لليهود أو للجمعيات اليهودية من التاريخ الذي تحدده الحكومة بمرسوم خاص من أملاك الدولة السلوفاكية التي يُمثلها المكتب الاقتصادي المركزي."

"اعذرني... عفواً، لا يمكنني إنهاء أكلها."

"سوف أرمي هذه الشوربة!"

"اعذريني، "برتا"!"

"لا تهتم، لا تهتم."

"أشعر بثقل في معدتي،"

"وماذا عنك "أداشكو"؟!، كلها في الحال وإلا سأناولك!"

ألقى الرئيس "تيس" في المساء خطاباً في الإذاعة. استمعنا إليه في المطبخ وكنا نجلس حول الطاولة في حين كانت والدتي تنتظر بفارغ الصبر برنامجها المُفضل عن الموسيقى .كانت تُقطب حاجبيها طوال الوقت.

بدا صوت "تيس" وكأنه خارج من أعماق بطن فارغ، تصورت كيف يهتز حنكهُ البدين أثناء ذلك.

في وقت متأخر وبعد سنوات من الحرب، حين انتقلت من هذا البيت كانت تخدمني في بيتي الصغير في براتيسلافا لقاء بضعة كورونات العمة "ستيفي" التي سكنت في البيت المجاور. إنها تتحدث بطريقة مضحكة تخلط فيها الألمانية مع المجرية والسلوفاكية. حين كان الأمر جيداً *(فاين)*، تقول *(فينم)*. بهذا الشكل تذكرتْ أيام الحرب حين كانت تتعيش بالعمل كمومس. الرجال الذين كان بوسعهم مادياً فعل ذلك، أبدوا اهتماماً بها – باليهودية الكحلاء. رأيت بضع صور.

تقاسمت البيت الموجود في شارع "زلنا"، مقابل "بروغي"، مع ثلاث زميلات أخريات، وكان لكل منهن غرفتها الخاصة. غالباً ما كانت تطلب مني نقلها إلى – وهذا بالذات يمكن وصفه ب "فينم"، شاليهات "كوليبا" براتيسلافا حيث يملك "تيسو".[27] القائد والرئيس "شمايخل كابينت" (استراحة مجلس الوزراء) في إحدى الفيلات الدافئة العائدة إلى "نيارتس" التي تم وضع اليد عليها. إنها تُذكر بالقصر الصغير. يدفع بسخاء، ولا يتعب رأسه كما يقال بضرورة الالتزام بالعزوبية (لأنه في

[27] تيسو: كاهن كاثوليكي أصبح رئيساً لجمهورية سلوفاكيا أثناء الحرب بمساندة ألمانيا الهتلرية

الأصل كاهن). يقال إنه يتصرف كعاشق استثنائي، ولكن من يُصدق ما إذا كان بوسعه في ذلك السن إبراز مواهبه. ربما لهذا السبب كانوا يلقبونه في بعض الأحيان بأبي الوطن. ربما يكون ذلك بسبب عدد الأحفاد. حين أعدموه بعد الحرب، بكت "ستيفي". (سمعتُ في مكان ما عن انتصاب قضيب الذين يُنفذ فيهم حكم الإعدام).

الآن، لا تزال القبة المنشاة حول رقبته الثخينة موجودة بدلاً من حبل المشنقة.

تحدث الرئيس "تيسو" قائلاً:

" لقد آن الأوان لطرد اليهود، ووضع اليد على ممتلكاتهم. إننا بذلك ننفذ تعاليم الإنجيل الذي يقول إن الأملاك يجب أن تُبدل مالكها كل خمسين سنة."

كان قُراء النجوم يتجولون في "بريجاني — كانوا ينادونهم بهذا الاسم — شرطة في لباس مدني، يتفقدون التزام اليهود بوضع النجمة. المخالفون، يتم القبض عليهم، أو يدفعون غرامة مالية. غالبيتهم كانوا يغطونها بحقائب اليد. لم يتوقعوا ذلك المصير الذي ينتظرهم من تلك الكواكب الخاصة، لو كان بوسعهم إيقاف الأبراج لعرفوا أشياء لا يمكن تصديقها، وحتى لو كان بوسعهم فلن يُصدقوا.

قال والد "فويتا" الذي كان يتدرب في الدانيمارك على طائرات "مسرشميت": علق الملك من باب التضامن مع اليهود نجمة "داوود" الصفراء، وتسبب في فضيحة.

العم "أرمين" علقها أيضاً، وكذلك العم "أوسكار"، وغيرهما أيضاً فعلوا الشيء ذاته.

استيقظ البيت بأكمله في منتصف ليل آذار على رنين جنوني وطرق عنيف على البوابة. والدي الذي توقع حالة إسعافية، لبس برنس الحمام فوق بيجامته وكان لا يزال نصف نائم، وشعره منكوش، وذهب ليفتح الباب.

"ما الذي حدث؟ ما هذا الذي تفعلونه؟ غمغم وهو يفتح البوابة.

وقف أمامه في تلك الليلة الباردة شرطي، الحارس "غايدوش" برفقة أقارب والدتي، وبينهم العم "أرمين". أمي الخائفة تطلعت من وراء النافذة، وغطت فمها. لم تحاول حتى إرسالنا من جديد إلى السرير.

تطلع والدي باستغراب في تلك المجموعة من الناس.

"ما معنى ذلك؟!"

تحدث "غايدوش" القصير بوضوح مستخدماً صوته شبيه الصافرة:

"مساء الخير. معنا أمر بالترحيل."

بعد وقت قليل، تمشى والدي ببرنسه في الغرفة. كان يسحب بعصبية من لفافة تبغه. الرماد يسقط من حوله. ونظراً لعدم وجود من يُدخن رسمياً في البيت سواه، كنا نفتقد لصحون السجائر. جلست أمي على طرف السرير، تقضم أظافرها، تصنعت عدم رؤيتها لسجائره.

"وعدني "غايدوش" أن يؤجل الترحيل."

"إذا، يريدون نقلهم إلى بولونيا..."

"نعم، يقولون إنهم جهزوا لليهود مدينة بأكملها."

"إذا كان ذلك صحيحاً!"

"هراء!"

"يقولون... يقولون!، دعاية إنكليزية غبية ضد هتلر. أو إنها دعاية "غوبلز" كي لا يُصدق أحد الأخبار الإنكليزية. إنهم يبالغون، وهذا ما يعتقده "أوسكار" أيضاً، وحتى عائلة "سلبرستاين."

توجه والدي نحو دولاب الثياب وجعل يفتش فيه بعصبية.

"أحتاج إلى كي ذلك الطقم الأسود."

"هل عندك اجتماع في الغد؟"

"يجب أن أمر في الغد على بعض الناس. لقد نصحني السيد "شمترلنغ" بذلك. سأزور البنك أيضاً.

"لماذا البنك؟"

ابتسم الوالد: من الأفضل أن ترقدي إلى النوم."

السيد "شمترلنغ" الشريك في معمل الأزرار، بدا واثقاً من نفسه — إذا كان بوسعنا قول ذلك. فعلى الرغم من تحذيرات شريكه الآري "كونتشني" (اقترح عليه مثلاً أن يشتري في الحال طائرة والذهاب إلى فرنسا — وهذا أمر لا يشكل عنده مشكلة)، إلا أنه اختار حياة المغامرة وبقي في البلد. اعتقلوه بعد وقت قصير. عائلته التي كانت تملك معلومات ضبابية عن مكان وجوده، فعلت ما بوسعها كي يُخلا سبيله — نجحت في النهاية، لعب المال في ذلك دوراً كبيراً.

وجد "شمترلنج" إذاً في "كونتشني" معيناً. اتفقا بشكل اختياري على عقد شراكة في ملكية المؤسسات المعنية. باعه بكل بساطة واحد وخمسين بالمائة من المصنع الذي أصبح حكماً بهذه الطريقة غير يهودي. سارت الأمور بشكل جيد لفترة فحسب.

لم يكن وحيداً — مثلاً، اقترح الإقطاعي الكبير "بونتشني" صاحب معمل تصنيع النبيذ "فيندوبونا" في "بريجاني" على نقابة التجارة والصناعة أن تساعده في كسب السيد "كلاين" من مؤسسة "فينوم بونوم" في "نيفودوفا" الذي أراده أن يصبح مديراً. ظنوا في النقابة أن "بونتشني" يريد وضع اليد على معمل النبيذ الموجود في "نيفودوفا" ومن ثم سيقوم السيد "كلين"، مصنع النبيذ الشهير بإدارة المعملين بوصفهما معملاً واحداً.

انطفأت شموسة الدولة بسرعة ، مما جعل السيد "كلاين" يُفضِّل السفر بسرعة إلى الولايات المتحدة. بوصفه البائس والجائع المتحمس الذي نجا بجلده، اعتاد بعد ذلك بسرعة على تناول الطيبات من الطعام في كميات كبيرة مما ساعده على الموت بالسرعة نفسها بسبب التخمة.

سأل عمي "أرمين" متفلسفاً ما إذا كان من الأفضل الموت جوعاً، أو الموت من التخمة. هذا السؤال أدخل المشاركين في غداء الأحد التقليدي في نقاش فلسفي رائع، ومضحك، لم أتفهمه وأدرك مغزاه بعمق في تلك الأثناء.

فهمت باختصار ما قاله العم "أوسكار" فحسب: من الأفضل ألا يموت الإنسان.

حين كان عليهم إعدام مهرج القصر، القزم الأكتع في حضرة جلالة "هنري الثاني" لأنه باع بعض المساحيق الخطرة، سأله الملك أثناء ذلك اختيار الطريقة التي سيتم فيها إعدامه، قال: *أريد أن أموت من شيخوختي.*

19

بدا نسرُ "الحراس" الفضي مع الصّليبين على ياقة بدلة والدي السوداء وكأنه اشتراه معها. جلس على شيء يشبه الغصن كما خطر ببالي للوهلة الأولى، ولكن "بتر" شرح لي بأنها على الأغلب من خيزران "سفاتوبلوك" *[28].

يقال إن الأخ "كروجلياك" رحب بالوالد بحرارة شديدة في مركز قيادة حراس "هلينكا _ نعرف أن الوالد ساعده قبل عام على الشفاء من التهاب معدة معقد. قَدم لوالدي فنجان قهوة حقيقية مع سجائر ألمانية — مع ملاحظة أن الفوهرر قد عَبّر عنها في مجلة "كسوندس ليبن" بالقول: السجائر هي مجرد "ثأر" غبي من الرجل الأحمر (الهنود الحمر) مقابل الماء الناري (الكحول) الذي أحضره له الرجل الأبيض"، وأشعل هو الآخر سيجارة. أجلس والدي في مقعد جلدي مريح ترافق مع ابتسامة بدأت تخبو مع مرور الوقت، وجعل يُصغي إليه. أعربَ عن تفهمه لمشكلات والدي الذي أخبره عن رغبته في حماية ممتلكاته الخاصة التي يمكنها أن تتعرض للأذى بسبب تصرفات الجهات الرسمية.

رد عليه "كروجلياك" وكرر القول: "لن يكون أمراً سهلاً، أيها الأخ "ترنوفسكي"، لن يكون أمراً سهلاً". أملى عليه بضعة أسماء، كما وعد بتدخل أكيد، ثم نصحه بمراجعة الدائرة الاقتصادية المركزية.

سفاتوبلوك" ملك سلوفاكي الأصل رزق بثلاثة أولاد . اعطى قبل ان يموت كل واحد منهم غصن شجرة وطلب منه كسره .نجح الثلاثة ، وحين جمع العيدان الثلاثة وطلب من احدهم كسرها فشل . قال لهم في الوحدة قوة !

يستخدم فرع "بريجاني" التابع للمكتب الاقتصادي المركزي الذي أوكلت إليه مهمة الاستملاك أحد الأبنية الموجودة في جادة أدولف هتلر 69 التي تُذكر بالمؤسسات الكلاسيكية حيث يعمل الموظفون الذين يهتمون بالعديد من الأمور، ويجتهدون في دراسة الملفات، إضافة إلى التزامهم باستراحة طعام الغداء، وأوقات الدوام الرسمي. نقر والدي على الباب رقم 12، وسمع في الحال صوتاً باهتاً يخلو من أي أثر للترحاب، يدعوه للدخول، وكأنه يريد إفهامه بأن دوامه قد انتهى، دخل والدي راسماً الابتسامة على وجهه.

وقف الرجل العابس خلف الطاولة برهة ثم انطلق بعد ذلك بسرعة باتجاه والدي والفرح يشعُ من عينيه. مد له يده وهزها. إنه "يوليوس فاشيتشك" الملقب بين أصدقائه ب- "موناكو". بدأ يسعل من شدة توتره — يمكن القول إن تجويف السل في صدره بدأ يُذكر بوجوده.

أخبر والدي بأنه موظف بسيط، ومجرد حلقة بسيطة في المؤسسة، ولا شأن له في الأساس بما يجري، ولكن باستطاعته إسداء النصيحة — إذا حدث مكروه، يا حضرة الطبيب فإني لم أخبرك بشيء! يجب تأمين استثناء، كما على السيد الطبيب توقيع تعهد يؤكد حاجته لذاك أو ذاك اليهودي في مؤسسته مع شرح الأسباب الموجبة. التفاصيل والأوراق سوف يُحضرها بنفسه، ولكن الأمور الأساسية يجب أن يتابعها السيد الطبيب حصرياً مع *السلطات*.

لم يتوقع والدي أن يكون "موناكو" قد فهم ما تعنيه تلك العبارة، وإذا لم يكن يتصور بالصدفة الرب بذاته أو ما شابه. لقد ذكر أثناء الحديث شيئاً مشابهاً. سيكون من الضروري السفر إلى "نترا".

بدأ أبي في الحال اتصالاته الهاتفية.

بعض معارفه من المرضى في "نترا" ساعدوه على تأمين المقابلات مع السلطات، بعضهم (حروق من الدرجة الثانية، التهاب المصران الأعور، والبواسير)، وغيرهم (التهابات في الصدر) تقديم الموعد، وآخرون

(التعرف بسرعة إلى عقابيل ما بعد الولادة، تسمم الحمل) جعلوا الأمور تتحرك بسرعة.

سافر والدي إلى "نترا" برفقة العم "أرمين" وثلاثة آخرين من أقرباء والدتي.

استغرقت المقابلات وقتاً طويلاً وكانت في غاية الصعوبة. شعر والدي بعد ساعتين بالتعب. خرج إلى الرواق كي يشعل لفافة تبغ. الرابين "ويسمندل" خرج بعده وجعل يراقبه بانزعاج.

"السيد ترنوفسكي"، أي نوع من اليهود أنت؟! إنك تُدخن في "سابش"*(عيد اليهود– يوم السبت)؟!"

ابتسم والدي المتعب وقال:

"لست يهودياً،"

تسمر الرابين في مكانه من شدة استغرابه.

"حقاً...؟ وماذا عن ذلك الأنف؟، ومن أين تعرف "يديش"*[29] (العبرية الأوروبية) بتلك الطلاقة؟"

"من أصدقائي في الطفولة... من البارك." كشر ثم أضاف: "كنت ألعب معهم في أعياد اليهود، وتعودت أن أكسب كل ما يملكونه من مال. كان أهلهم يطردونني من هناك."

دور الرابين رأسه.

"حسناً.. هيا بنا إلى الداخل، أظن أننا سوف نتفق بطريقة ما."

استدار من جديد وقال بالعبرية الأوروبية:

"ولكن الأمر لن يكون مجاناً، ياسيد "ترنوفسكي". إذا لم يكن عند التاجر اليهودي ميزان دقيق، عليه أن يجد الطريقة التي تجعله يُشير بالوزن نفسه لكل زبون. إذا قدمنا هدية فإننا نفعل ذلك ليكون ميزان الموظف أقرب ما يكون إلى الحقيقة. هل فهمت؟"

---

[29] يديش: لغة اليهود في أوروبا وهي خليط من الألمانية والعبرية واللغات السلافية)

"كان عليك أن تستخدم لذلك حقيبة يد من جلد الضبع!" ابتسم "ميسلوفتش" حين أخبره العم "أوسكار" بالحادثة. أضاف: "حين تداعبها تتحول في الحال إلى حقيبة بحار!"

استحق والدي تسميته *باليهودي الأبيض*، وهذا الاسم الرومانسي كانوا يطلقونه على الرجل الذي يساعد اليهود.

حضروا جميعهم في يوم الأحد التالي إلى منزلنا على الغداء. كانوا يُخفون نجمة دافيد من الخجل. العم "أوسكار" كان يُعلق نجمة داوود المصنوعة من "الباكليت" — مما يعني (كما علمني العم "أرمين"): *يهودي نشيط اقتصادياً*. والآخرون تسلموا بطاقات صفراء.

كلاهما مع "أرمين" حلقوا لحاهم بالكامل، وقصوا شعرهم ليصبح قصيراً، لا وجود للخصل الجعداء المتدلية على طرفي الوجه. جلس والدي كما جرت العادة في رأس الطاولة.

سكبنا الشوربة، جزر مسلوق مع قطع من لحم العجل.

قال "أرمين" بصوت منخفض:

"ولكن علينا أخذ الحيطة. يجب أن نتعمد مثل "برتا"."

شرق والدي ملعقة شوربة.

"أصبحت الأمور الآن أكثر صعوبة. لم يعودوا بحاجة إلى كاثوليك." رفع كتفيه، "لقد كلفنا ذلك كثيراً من المال". لكز والدتي: "أليس كذلك. ولكنك تستحقين!".

لكزته والدتي أيضاً. علق عمي "أوسكار" من الطرف الثاني للطاولة قائلاً: "لا أعرف... لنحاول إذاً مع اللوثريين. علماً أنه يحظر عليهم تعميد اليهود، ولكنهم يحبون كما أعرف معاكسة الجميع."

رفع والدي كتفيه.

"إذا كان ذلك سيساعد....؟

سعلتْ والدتي.

"سوف نرى... هناك مواضيع أفضل للحديث، أمام الأطفال."

لم يكن "أرمين" قد خيَط نجمته بل علقها بالدبوس كي يتمكن في أية لحظة من نزعها. السلطات لا تسمح بذلك ولكنه لم يعرهم اهتماماً يُذكر. انضم إلينا حينما كنا نلعب بعد تناولنا طعام الغداء وكان الآخرون يتمتعون بشرب القهوة والكونياك في الصالون.

فك النجمة وعلقها على صدري. بدت رائعة. بلل إصبعه بلعابه ولحس شعري. كنت أكره تلك المزحة، ولكنها لم تزعجني منه.

"أرني! أنيق جداً!"

ضحك "أرمين" طويلاً. لطمني على كتفي. ضحكت معه ثم هرعت إلى غرفة الطعام لأري الآخرين..

"أبي، أبي، أنظر ما عندي! لقد أعطاني إياها "أرمين"! إنها رائعة. هل يمكنني الاحتفاظ بها؟ أرجوك، أرجوك...! سوف أحملها كما يفعل الآخرون!"

لن أنس كيف احمر وجه والدي. خلع النجمة من مكانها ثم خرج بخطوات ثابتة قوية من غرفة الطعام ودخل برفقة "أرمين" إلى المنفردة.

سمعته كيف يصرخ به.

20

في محل حلويات "بوشكار" ، وفي الخلف في مكان معزول كانوا يلعبون الورق، جلس بجانب والدي كاتب العدل "لفندوفسكي" ويهوديان بنجمتين صفراوين. السيد "شرايبر" والسيد "ريس".

والدي لم يواته الحظ. لذا جعلَ يُدخن سيجارة تلو أخرى.

"أيها السيد الطبيب، هل تعرفون تلك النكتة؟ "ضحك" بوشكار. التقى اثنان في الطريق، أحدهما يدخن والثاني يقول له: *هل تعرف أن السجائر تُقصر العمر؟ ، ما هو عُمرك؟ - أربعون. هل رأيت، لو أنك لا تدخن لكان عمرك الآن ستة وأربعين!*"

ضحك الجميع.

"ماذا، لماذا تتطلع إليّ بهذا الشكل، إنني لا أدخن! جعل والدي يحرك الملعقة بانزعاج واضح في قطعة الكاتو ويدفعها فوق الصحن.

"يبدو لي من بعيد أنك تفعل". انفجر "بوشكار" ضاحكاً.

نفخ والدي الدخان وتطلع في وجه "بوشكار".

"ما أحوال ليلي..؟" همهم

تصنع "بوشكار" اللطافة، إذا كان هذا الشيء ممكناً.

"كتبت لي، وصلتني البارحة رسالة".

عاش "بوشكار" وحيداً، وبقي له فوق محل الحلويات منزل كبير وجميل بأثاث أنيق ورثه عن والديه. كان يناهز الأربعين، ولكن، لم يلمحه أحد مع امرأة منذ سنوات طويلة. ربما بطنُه كان السبب، أو لأنه يبدو حين ينفرد في غرفة مع أي سيدة شبيهاً بدب قطبي سحبته جبال الثلوج إلى خط الاستواء.

"التعرف إلى سيدة ظريفة في هذه الأيام، يا سيدي الطبيب يعتبر مشكلة."

"إنني في الحقيقة أستغرب رأيك،" قال له والدي قبل مدة.

"لماذا؟"

"ألم تجربوا الإعلانات على الإطلاق؟"

اعترف "بوشكار" بأنها ليست فكرة سيئة، قام في الحال بنشر إعلان في مجلة *السلوفاكي*. وأبي أملى عليه النص.

"رجل أنيق، ومتمكن ماديا..."

"أنيق؟ ما معنى ذلك؟"

"انظر في المرآة. *ذو مظهر* جيد، ليس كلاماً دقيقاً، وهذا تعترف به. كلمة مُحافظ تبدو وكأنك في الثمانين، "شببلك"، وكأنك في الخمسين".

"حسناً، ولكن لماذا لا نكتب السن مباشرة؟"

"تكتيك، سيد "بوشكار". إذاً.. رجل أنيق، متمكن مادياً، لائق، يريد التعرف إلى امرأة، شابة ومثقفة..."

"*مثقفة...؟*"

"هل تُفضلها غبية؟"

"لا، ولكن... عليها أن تكون...جميلة."

"*شابة ومثقفة*، تعني جميلة، أليس كذلك؟"

"معك حق... ولكن..."

"حسناً... *صبية بمظهر جيد بهدف العيش المشترك*."

"موافق"

"موافق! *الصورة ضرورية*. ملاحظة: *اللقاء الأول* في محل حلوياتي."

"هل سنذكر محل الحلويات؟"

"يجب أن تضع علامة، هيا، أسرع وسلمه للمجلة!"

وصله الجواب الأول بعد أسبوع، وبعده عدد آخر من الرسائل.

زار والديا أستوديو السيد "نيجني" الذي وصف له نقوطاً ضد السعال. ترجاه أن يريه الصور التي لم يحضر أصحابها لأخذها. تجمعت عنده أعداد كبيرة منها خلال تلك السنين. اختار والدي بعضها، ودفع ما يلزم دون أن يشرح الهدف، أو سبب حاجته إليها.

اختار في النهاية امرأة نحيلة جميلة بشعر أسود، جمالٌ سلي — نحيلة بوجه ضعيف، بيضاء البشرة، مظهر حزين — تبدو خنوعة، وربما لم تعد بين الأحياء. وضع الصورة في المُغلف مع الرسالة التي أعربت كاتبتها عن رغبتها في اللقاء. وَقّعَ: ليلى.

أمسك "بوشكار" في يده الآن رسالتها الثانية التي كانت رداً على رسالته:

"*السيد الفاضل، بداية أرى من واجبي الاعتراف بدهشتي من الإطراء الذي عبرت عنه أثناء مدحك لِشّعْري، و... و...*"

تلعثم "بوشكار"، واحمر وجهه.

"حسناً... لا يمكنني قراءة هذا لك، ولكن اسمع: *سأكون سعيدة إذا التقيتك شخصياً*."

تابعه والدي مع بقية الحاضرين باهتمام.

"سأخبركم.. سأخبركم... لقد أهداني إله الحب امرأة! قال "بوشكار" بفرح، وبدأ يرقص في الركن المنعزل من المخزن..

نفذت إلى المخزن بعض الأصوات الآتية من الساحة ووصلت إلى العمق. دخلت بعد ذلك مجموعة من الناس، وبقي الباب مشرعاً للحظة.

الحرس في زيهم الرسمي مع الميكروفون يقرؤون أسماء. تحجّر الجميع في الركن المنعزل. الريح كانت تقطع الصوت بقوة، ولكن رتابته أوصلت أحياناً بعض الأسماء في حين تعذر وصول غيرها. انغلقت في النهاية بوابة المخزن، وبدأ فيلم صامت بالظهور من وراء الفترينا.

مر من هناك رجال ببزاتهم السوداء، عائلات مع حقائبهم وغير ذلك من المتاع، وجوه مضطربة ومشوشة... قصّ اثنان من عناصر الكتائب بالقوة "سالفي" أحد العجزة، وتسلوا بذلك. كان من الصعب تخيل ما يدور في رؤوس الرجال هناك في الخارج — في حين كان الجالسون في مخزن "بوشكار" الدافىء يتلذذون بشرب القهوة مع الكريما ويتناول قطع الحلوى المعبأة بهريس الكستناء.

حين سمعنا آخر الأسماء تجمع في الحال أصحاب النجوم المعلقة على معاطفهم وتحركوا باتجاه محطة القطار. خيّم الصمت، أو أن المجتمعين خففوا من نبرة حديثهم في محاولة منهم تحويل الأنظار باتجاه آخر. تحول مخزن الحلوى في "أكفاريوم" .

سُمع في الأمام بالقرب من الفترينا صراخ: "يجب تخليصهم كل شيء سرقوه منا! سوف يتعلمون على الأقل الشغل هناك في بولونيا! اليهود الأقحاب!"

تنتصب الكنيسة اللوثرية في إحدى الزوايا البعيدة عن ضجيج المدينة وكأنها جُهزت لتكون بعيدة عن أعين الناس سيما وأن أهالي "بريجاني" يعتبرون مدينتهم منذ الأزل كاثوليكية بامتياز.

وقف اثنان بالقرب من المذبح _ حامل الصولجان مع زوجته. العراب، والعرابة.

لوح القس بالقُمقم الذي مكّنه بحركة واحدة من تعميد المائتي شخص من حاملي نجمة داوود الصفراء على صدورهم. أوشك أن يكون منظراً رائعاً.

مال "أرمين" باتجاه العم "أوسكار" وهمس في أذنه:

"يقال إن قرى بأكملها انتقلت أثناء الاحتلال التركي إلى الديانة اليهودية. اعتُبر المسيحيون كفرة عند "سليمان" الذي تصرف مع اليهود بطريقة لائقة محترماً شعائرهم. ربما بهذه الطريقة نشأ يهودياً ما غير أصيل، وكل ذلك لضرورات البقاء... من يدري... أليس أمراً مسلياً؟"

لم يفعل العم "أوسكار" أي شيء باستثناء رفعه لرمانتي كتفيه، وهرش رأسه.

"يمكنك ن تتأكد بهذه الطريقة إذا كنت يهودياً أصيلاً؟

دق "أوسكار" على نجمته الصفراء.

"إنني متأكد حتى الموت، يا أرمين."

خرجوا لتنشق هواء الشفق الأحمر، من المفروض أن يبدأ قداس المساء بعد لحظات. تفرقوا.

تحاور رجلان مسنان في مكان قريب:

"نحن لوثريون منذ القرن العاشر!"

"من القرن العاشر؟! مستحيل"

"بالطبع، ولكنهم في ذلك الزمان كانوا يطلقون علينا اسماً آخر."

ذهبت في يوم الأحد مع جدتي "ماريا"، ومع "بتر" و"تينا" إلى الكنيسة الكاثوليكية بالطبع، إلى كنيسة القديس "أغيد".

الكاهن "بترسكي" يقرأ في تلك الأثناء من الكتاب المقدس:

"دخل القديس "بطرس" برفقة "يوحنا" في الثالثة إلى الكنيسة لحضور قداس بعد الظهيرة. في تلك اللحظة تحديداً كانوا يحملون رجلاً يعاني من المرض منذ طفولته، ويضعونه يومياًعلى بوابة الكنيسة التي تدعى "الجميلة" كي يطلب صدقة من أولئك الداخلين إلى الكنيسة. حين

رأى "بطرس" ومعه "يوحنا" يدخلان إلى الكنيسة، ترجاهم أن يعطوه بعض المال. تطلع إليه "بطرس" وفعل "يوحنا" الشيء ذاته وقالا له: انظر إلينا! تطلع إليهما، وانتظر أن يعطياه ما يريده. ولكن "بطرس" قال له: لا أملك الذهب ولا الفضة، ولكني سأعطيك ما يوجد معي: يوجد في داخلي السيد المسيح الناصري، انهض وامش! أمسكه من يده اليمنى ورفعه. عادت القوة في تلك اللحظة إلى ساقيه، وقدميه، قفز، وقف ومشى. دخل معهما إلى الكنيسة، مشى هناك، وامتدح الرب، وهو يقفز من الفرح. الناس شاهدوه كيف يمشي وهو يشكر الرب، وعرفوا أنه هو الذي كان يجلس عند البوابة الجميلة ويطلب صدقة من الناس. أصيبوا بالدهشة والفرح في آن واحد مما حدث له حين أمسك ب-"بطرس" و ب-"يوحنا"، هرع نحوه المصلون الذين ذهلوا من رؤيته من بين الأعمدة التي تدعى "شالامون"."

جلس المسيحيون على المقاعد إضافة إلى اليهود الذين لحقوا وتعمدوا في الوقت المناسب. البقية ابتعدوا عنهم. أصبح كنيس "بريجاني" منذ عدة شهور من أملاك الدولة، وكان بانتظار إعادة تأهيله.

حين وصل الكاهن "بترسكي" في حديثه إلى درجة الغليان، أحدهم وكان يجلس في المؤخرة – البواب اليهودي، السيد "لازار سترن" – سحب في الممر الصغير بين المقاعد بهدوء زنار صلواته (تفلين)، وضعه على جبهته ويده، وبدأ يُرتلُ بصوت مسموع، وهو واقف صلوات اليهود.

الكاهن "بترسكي" الذي لم يسمح له بمقاطعته، تابع.

"حين شاهد "بطرس" ما يحدث من حوله، خاطب الناس: أيها الرجال، الإسرئيليون، الذين تستغربون تلك المُعجزة، لماذا تتطلعون إلينا وكما لو أننا بسلطتنا الذاتية أو بسلطتنا الدينية جعلناه يمشي؟ إله "ابراهيم"، ربّ إسحق ويعقوب، إله جميع آبائنا، أمر خادمه المسيح الذي كنتم أنتم من أنكره أمام "بلاتوس" إلى أن قرر هو أن عليكم تركه. أنتم من أنكر الروح القدس، العادل، وطلبتم إطلاق سراح المجرم. قتلتم

أصل الحياة، ولكن الله أعاد إليه الحياة من الأموات (قام المسيح)؛ ونحن نشهد على ذلك. وبسبب اسمه وديانته. استعاد ذلك الإنسان قوته، الإنسان الذي تشاهدونه، وتعرفونه، كما أن الديانة التي خرجت منه منحت العافية لذلك الإنسان الذي رأيتموه أمام أعينكم جميعاً."

تصرف الآخرون وكأنهم لا يسمعون شيئاً.

السيد "سترن" لم يعد يهمهم بينه وبين نفسه فحسب بل جعل يتكلم بصوت مرتفع جداً كما أنه صرخ بالعبرية شيئاً ما.

"صمت" بترسكي فجأة، صُعق الآخرون.

"فيمرو أومين" قال السيد "سترن" بصوت مرتفع.

"إنها صلاة الحزن! —كاديش ياتوم—، همست للجدة "ماريا" التي جافاها الكلام.

قرر "بترسكي" التحدي. بدأ ينشد: "إلهي نناديك في السماء في الليل كما في النهار لتكون لنا معيناً..."

بدأت موسيقى الأورغ.

شارك البقية في الإنشاد."... تعال، تعال أيها الشفيع!"

اختلط صوت "سترن" مع أصوات المنشدين المسيحيين — "فيمرو أومين!"، سُمع من جديد في نهاية الآية.

"أرنا الطريق إلى المدينة الأبدية، سيشرفنا ذلك، امنحنا الرحمة، الخلاص؛ تعال، تعال، أيها الشفيع!"

أكثر الذين صمدوا كان عازف الأورغ. اختلطت إيقاعات الأورغ مع الصلوات اليهودية في أرجاء الكنيسة جميعها.

نهض في النهاية ثلاثة شبان أقوياء في بزاتهم. خيّم صمت مفاجىء. أمسكوا السيد "سترن" من تحت إبطيه وحملوه إلى خارج الكنيسة.

لم يقاوم.

لو أن أحدهم صرخ في تلك اللحظة: اليهود إلى الخارج!" فسيكون المسيح المصلوب أول المغادرين (أسمع أصوات انقلاع المسامير، طقطقة

العظام والأوتار...) ومن بعده سيخرج الحواريون. سيخرجون بالترتيب من الباب إلى خارج الكنيسة حيث سيضطرون إلى إغلاق عيونهم غير المعتادة على أشعة الشمس، وسوف يتوزعون بهدوء ودون إحداث ضجيج في شوارع مدينة "بريجاني" الراقية.

حدثني العم "رودو" أن شبيبة هتلر الألمان بجواربهم الطويلة البيضاء المُطرزة، وبسراويلهم الجلدية، كانوا يقرعون الطبول، ويحيون هتلر، ويطلقون الصافرات في شوارع براتيسلافا ويصرخون: يسوع مات يهودياً متسكعاً، و"مريم" مومس! لم يتدخل أحد ويوقفهم عند حدهم. ربما لم يفهم الناس اللغة الألمانية لأن كلمة "مومس" لم تكن موجودة في القاموس، أو أن جائحة الـ "طَرَش" ألمتْ بهم، وهي بحد ذاتها إحدى خصائصنا الوطنية. الصور الجماعية التي تمت "روتشتها" ونشرها في مجلة الطبيب السلوفاكي لمجموعة "الطرشان" تُرينا بدقة صورة "توكا"*[30] الذي يبدو فيها شبيهاً بنبي مسعور، كائناً هجيناً بين "فرانس ليست"**[31] و كلب (كولي)*[32]. "تيد غاشبار" كان هو الآخر يعشق البزات الرسمية تماماً كما أحبها "غورنغ". كلاهما يظهران في الصور وكأنهما ممثلان أنهيا للتو وصلتهما المتعبة في أوبرا، وفي مكان آخر كأنهما زائران منسيان لكرنفال. وفي أحيان عديدة مثل مصروعين في حفلة "ترانسفستي"*[33]. ملامح وجه "ماخ" تشير إلى أنه استخدم "المُسهّل" عوضاً عن نقوط إزالة ألم المعدة. أكثر ما يفضح "تيسو" المحترم هو بطنه إضافة إلى ما يوجد في داخله دون نسيان ذلك "الفصْ" الثخين الموجود خلف رقبته الذي يتسبب في سيلان لعاب المولعين بأكل لحم الخنزير في الذبيحة ،كما يُحفزُ لديهم شعوراً غامضاً يجعلهم يهرعون بسرعة لشراء اللحم.

ومن تلك المجموعة "الصماء" يطلع علينا أحياناً صوت جبان.

---

[30] توكا" أحد وزراء حكومة تيس السلوفاكية إبان الاحتلال النازي

[31] فرانس ليست: موسيقي مجري شهير بشعره المسدول الطويل

[32] كلب كولي : نوع من الكلاب المعروفة بوبرها الطويل

ترانسفستي: الرجال الذين يستخدمون الهرمونات النسائية لإبراز صدورهم كالنساء

قدّم في آذار 1942 الأساقفة الكاثوليك إلى الحكومة السلوفاكية مذكرة تقول إن التعليمات الصادرة بحق اليهود تشكل انتهاكاً لقوانين الرب الطبيعية كما اعترض الإنجيليون على الشيء ذاته بعد شهر من ذلك تقريباً:

"إننا نشهد أحداثاً مؤذيه لا معنى لها، تخالف قوانين البشر الطبيعية، بما في ذلك قوانين الرب وتعليمات السيد المسيح المتعلقة بالحب."

21

وصلت إلى سن يجعلني أُقلد بشغف ما يَفعله والدي.

حين يستغني عن إحدى سماعاته الطبية القديمة التقطها منه وأقوم برفقة "فويتا" في السقيفة بفحص "تانيا" أخت "فويتا" ذات السنوات الخمس. نجحنا تدريجياً بإقناعها بضرورة خلع قميصها وعدم تغطية ما سيطلق عليهما في وقت لاحق ثدييها – كانا حتى تلك الساعة مجرد نقطتين رقيقتين. أحستْ ببرودة السماعة المعدنية، ثم جعلنا بالتناوب مع "فويتا" نستمع إلى ضربات قلبها من الأمام ومن الخلف.

"يتنفس بعمق... بعمق...! الآن يحبس النفس. حسناً... تنفس!"

جاء بعد ذلك دور الخشبة الرقيقة الطويلة (خافضة اللسان) التي تمكنا بوساطتها من رؤية لوزتي "تانيا" والتأكد من حجمهما الطبيعي.

"يفتح فمه. أكثر، أكثر!"

اعترضت "تانيا" قائلة إن ذلك يدفعها للتقيؤ، مما جعلنا نتوقف، ونفضّل إجراء عملية. قمتُ في الوقت الذي كنا نتناقش فيه محاولين تحويل اهتمامها عن تفاصيل العملية بتجربة منعكس الركبة بمطرقة الكاوتشوك التي جلبتها معي من عيادة والدي. انزعجت "تانيا" وجعلت تركض خلفي في السقيفة.

حين نجح "فويتا" في تهدئتها، استلقت بأدب – شبه عارية – على الصوفة القديمة. تناولت سكينة المطبخ وحاولت تعليم شكل الجرح على بطنها، ولكني كبست يدي أكثر من اللازم مما جعلني أتسبب في جرحها حقاً. فخرج الدم.

هرعت مسرعة وهي تبكي باتجاه أهل "فويتا".

كانت تُريني أحياناً حين أصبحت بالغة الندبة التي بقيت ظاهرة فوق سرتها، وكنت بدوري في كل مرة أحاول إقناعها بأني لا أتذكر.

كنت حاضراً حين قام أحدهم بكسر فترينة العم "أرمين" في صالون الحلاقة. سقط الحجر في الداخل، لُفت عليه ورقة، كتب عليها: *اليهودي عدونا!* وجد عمي بعد أسبوع رسالة على حائط بيته كُتب عليها باللون الأسود: *اليهودي القرف تسبب في اندلاع الحرب!* الخط المُجعلك والوجه القبيح لأنف معقوف. لم أفهم كيف يمكن لعمي أن يتسبب باندلاع الحرب. ابتسم "أرمين" ولكنه مع مرور الوقت جعل يبتسم أقل، وفي النهاية أصيبت عينه اليسرى برجفة لا إرادية.

تركه العديد من زبائنه. ربما اعتقدوا أنه هو من تسبب في اندلاع الحرب.

لم أتوصل على الإطلاق إلى السبب الذي جعل والدي ينزعج من عمي "أرمين". ربما تكون أطواره الغريبة، أو ميول النسوة اللاتي يبدين اهتماماً بالكبار ولا يعرن اهتماماً بالشباب. التنافس الذكوري سلاح فتاك، ووالدي من النوع الحسود. أحب النساء تماماً مثل خالي (ابن حماه).

كما طفت أشياء أخرى عديدة بعد ذلك بسنوات على السطح — ولكن "أرمين" كان يتوق إلى استقلالية لا يثقلها الزواج ولا حتى الأفكار التي تتحدث عن الدفء الذي تؤمنه الحياة العائلية.

في أحد الأيام، حين كان في مزاج استثنائي رائع، ودعَ السيدة "شكريدلوفا" التي أنهى لتوه تسريحتها المعقدة..

"شكراً أرمين! إنك في الحقيقة رائع!" قالت "شكريدلوفا".

كنا قد وصلنا إلى صالون الحلاقة. "زورّ" والدي حين التقط آخر كلمات "أرمين" الذي كان يسحب الستارة التي تُغطي الفترينة ويفتح الباب.

"الأمر على الشكل التالي — نحن اليهود أكثر جاذبية من الناس العاديين الذين تلتقين بهم في الشارع. وهذا الشيء ينطبق بالطبع على

الرجال. الرجال فحسب! وغير ذلك فإننا نشبه العدائين على السكة الطويلة، وأنت تعرفين بماذا نصطدم.. كل ذلك بسبب شيء نملكه هنا في الأسفل، فهمت قصدي بلا شك."

غمز "أرمين" بعينه وهو يضحك.

"طابَ يومكِ إذاً، سنلتقي في الأسبوع القادم، تحياتي للسيد الزوج. من هنا، تفضلي."

"إلى اللقاء، سيدي الطبيب."

أومأت "شكريدلوفا" بإصبعيها لوالدي واتجهت نحو الباب الخلفي. رافقها "أرمين" إلى المستودع ومن هناك إلى الشارع الخلفي. بقي صالون الحلاقة فارغاً.

وضع أبي طاقيته جانباً. "أرمين... اسمعني. عليك حقيقة أن تنتبه. إنك تستفز أولئك الناس!"

قَطَبَ "أرمين" حاجبيه.

"كيف؟ أعتقد أني لم أفهمك يا ولدي، وكأني اليوم أسمع بشكل سيء."

أجلس والدي على الكرسي مقابل المرآة وجعل يسنُ الشفرة، ثم قام بعد ذلك بوضع رغوة الصابون بفرشاة الحلاقة على ذقنه.

"الناس يتحدثون عن أشياء عديدة، ولكن ذلك ليس جيداً. لبعض منا ليس جيداً."

سخر "أرمين"، وجعل يبتسم.

"لمَ هو جيد عند البعض وسيئ عند آخرين؟ كل منا يعيش حياته."

"ابتعد على الأقل عن أولئك النسوة!" أشار بيده إلى الباب الخلفي.

"هل تعرف من هو زوجها؟ إنه محاسب حراس "هلينكا" في المحافظة!"

تصنع "أرمين" مظهر المثل.

"أخ! حقاً؟"

"اسمعني...!"

أدرك والدي أنه من الخطأ التدخل في الأمور العاطفية. كان "أرمين" يحلق له بالشفرة ويقوم بحركات دقيقه على رقبته.

"لهذا السبب تأتي إلى هنا بالسر. أنا الوحيد الذي باستطاعته لملمة ذلك العش الذي تحمله فوق رأسها. إنني الأفضل. العاشق السري" كَشَّر.

"لا تُهرج، أرجوك! دعنا نتحدث بجدية!"

تصنع "أرمين" الدهشة.

"إنني في الحقيقة جَديٌ مثل كرسي العدالة. انظر — حتى إنني لم أجرحك بعد!"

احمر وجه والدي الذي انفجر غاضباً.

"تعرف ماذا، أرمين!" صرخ والدي في وجهه. "بداية عليك أن تشكرني!"

غمز "أرمين" بعينيه.

"إني ممتن لك، بالطبع، ممتن كثيراً على كل شيء...! هل بوسعي غسل يدي، يا سيدي؟ شكراً...!"

سحب والدي المنشفة عن صدره بعصبية، ومسح عن وجهه ما تبقى من الرغوة. ثم نهض من مكانه.

"أرمين" يُمسك الشفرة بيده ويرتجف من شدة غضبه:

"لم أنته بعدُ!"

تطلع والدي في وجهه وقد لمعت عيناه.

"وأنا أيضاً لم أنتهِ بعد!"

غادر وخبط الباب. اهتزت الفترينة. بقيت واقفاً دون حراك. "أمسكني "أرمين" من كتفي وأجلسني. يداه ترتجفان. زقزق الباب خلف ظهره.

"أقبل يديك يا سيدتي الحبيبة!"

توهج وجهه بابتسامة عريضة.

لم أتوقع كل ما حدث، ولا بماذا كان والدي يفكر في تلك الأيام.
أرسل والدتي بشكل منتظم إلى السرير مع تلك الكلمات: "اتركيني الآن وحدي!"

كان يتمشى في الصومعة منزعجاً وقلقاً.

حين خرجت في وقت متأخر، ونصف نائم لقضاء حاجة، رأيته كيف يسحب صورة جدي "ألبرت" التي قص منها الرأس ووضعه على جسم إنسان آخر غريب، ثم جعل يتطلع طويلاً في وجه والده . دخن دون توقف على الشرفة. كان دخان السجائر يمر في تيارات منتظمة من خلال النافذة المشرعة إلى غرفتي طوال الليل.

ما سأرويه الآن هو ما سمعته من خلال الأحاديث، ولكن أحدهم جعل يرن بقوة جرس باب منزل عمي "أرمين بلاو" في يوم الاثنين التالي. استخدم بداية الجرس ثم بدأ يطرق الباب بقوة. هرع عمي وهو نصف نائم ببيجامته و"روب ديشامبره"، بعد أن قام على عجل بتسريح شعره، باتجاه الباب.

الصوت يصرخ من خلف الباب: افتح حالاً!

"سأفتح! ما الذي يحدث؟!"

في المعبر، وقف رجل بمعطفه الجلدي برفقة جنديين. اندفعا إلى داخل البيت.

"السيد" غايدوش... أرجوك، ما الذي يحدث؟"

"أرمين بلاو" \ حلاق؟

"ما الداعي لتلك المهزلة، سيد "غايدوش"؟ لقد كنت زبوني."

لم يُظهر تعاطفاً. سلمه ورقة. تناول "أرمين" الورقة وقرأ.

"وقع مدير صالون الحلاقة التابع لكم اعترافاً بأنه استغنى عن خدماتكم. الترحيل سيتم بعد عدة ساعات."

اصفر وجه "أرمين"، وبدا الأمر وكأنه سيسقط على الأرض بين لحظة وأخرى.

سأله الرجل: "هل أنت بخير؟ وهل فهمت كل شيء، يا بلاو؟"
أومأ "أرمين" برأسه وأمسك صدره، لم يتمكن من نطق كلمة واحدة. ترنح وهو يتجه نحو الكنبة ولكنه سقط قبل أن يصل على "الباركيه" ووجهه إلى الأسفل. تمسّك بصينية التفاح الذي جعل يتدحرج في الاتجاهات كلها.

بقي التفاح هناك فترة طويلة. جمعته مع أخي من تحت الدولاب، كان متفسخاً ومتجعداً.

حدث أمر غريب أيضاً — وجدوا في الأسفل عند البوابة، تحت نافذة "أرمين"، كلبه "كشتان" ميتاً.لا بد أنه سقط من علو كبير.

حين دخلت بعد فترة إلى صالون الحلاقة وجدت هناك حلاقاً آخر — شاباً بنظارة. جلست في المقعد أمام المرآة العجوز المتصابية "دوروتوفا" صاحبة الكنية المعروفة المجرية الأصل التي بدلتها في سياق موجة الموضة كما بدلها زوجها أيضاً إلى كنية سلوفاكية نقية، نقية إلى درجة أن لا أحد أراد تصديقها.

وقفتْ حائراً عند باب الصالون.

"كيف تريدين القصّة؟"

التفتت السيدة "دوروتكوفا" باتجاه سيدة أخرى لم أعرفها.

"هذا الشيء لم يكن يسأله "أرمين" على الإطلاق. ليرأف الرب بحاله!

كشّرت السيدة الثانية بسخرية: "عن أي رب تتحدثين؟"

"تعرفين... ربه اليهودي" التفتت بعد ذلك باتجاه الحلاق وقالت: " تقصير الشعر بهذا القدر، وهذا " أرته بالمرآة.

السيدة الثانية مالت عليها بحميمية .

"يقولون، ياجارتي العزيزة، إنهم وجدوا في رئتيه أثناء التشريح كمية كبيرة من الشعر!"

"هراء"، ردت "دوروتكوفا" بقرف.

"هذا ما أخبرني به ابن "كوتسبلكين" – إنه يتدرب الآن في قسم تشريح "ترنافا"."

"وهل هذا ممكن؟!"

"يقولون إن أشياء كتلك يمكن أن تحدث للحلاقين. إنه الشعر الذي يتنشقونه أثناء القص، تعرفين؟ مثلاً، شعري، وشعرك أيضاً!"

"وهل أرمين... في رئتيه؟ لا، لا أصدق!"

قطبت حاجبيها وتطلعت غير واثقة في وجه الحلاق الشاب الذي كان يعمل جاهداً كي يصنع من شعرها شيئاً من لا شيء.

خرجتُ إلى الشارع دون أن أفهم أي شيء. أين العم "أرمين"؟ وماذا عن ذلك الشعر؟ وكيف يمكن لأحدهم معرفة ذلك عن الرئتين...؟

انسكبت الدموع على وجنتي.

وهكذا جعلت أرتعد في الليل حين أتذكر – عمي "أرمين بلاو" يحمل معه قطعة من كل زبون.

وجدتُ في منزل "أرمين" بعد فترة على الأرض إعلاناً دعائياً لطخته جزمات الحراس. رجل يبتسم، ويتطلع مرتدياً سترته الرسمية الخطافية ونظاراته على عينيه، وفي يده قبعة القش من وراء الستارة.

نعرض عليكم ما يمكنه أن يوصل البهجة إلى قلوبكم! لم ينبهكم أحد من قبل بالتأكيد إلى جمعيتنا– "أصدقاء الكتاب الكلاسيكي" التي تجمع الآن في عضويتها 20000 مشترك. من المفروض أن تكون أحد أعضائها منذ أمد بعيد. نرجوكم قراءة النشرة المرفقة (وإذا لم تتمكنوا الآن ففي أقرب فرصة). إنها ستشرح لكم بالتفصيل كيف أننا نُوزع في إخراج رائع أمهات الأدب العالمي، الروايات ملأى بالحياة والأحداث، الكتب التي تُغني، وتُسعد، المؤلفات التي ستضيف الجمال إلى بيوتكم، وكل ذلك بثمن زهيد وبالتقسيط المريح.

نرفق رداً جاهزاً: أرسلوه إلينا موقعاً اليوم!

22

ليلة مغرقة في العمق، عميقة مثل البئر الذي يمكنك أن تسقط فيه إلى ما لا نهاية، وللمسافة التي تريدها. يراودني شعور بأن الوقت قد حان لتحضير "كوكتيل" صغير قبل النوم. بلعة صغيرة. لا أقصد بذلك الكحول. سوف يرافقني صديقي "إن" في تلك الأمسية الطويلة. المسلي في الأمر أنه بدلاً من مساعدتي على النوم مدد فترة تحضيري للنوم.

أو أن السبب يكمن في البيت ذاته. أتمدد على ظهري في السرير وأشعر كيف ينتشر في رأسي.

والدي ينام في الأشهر التالية بشكل سيء. يمكن القول إني لم أره نائماً على الإطلاق. يُدخن كثيراً – يُحاول كما جرت العادة إخفاء ذلك أمام الغير، ولكنه يخفيه بالدرجة الأولى أمام نفسه. حتى إني أمسكت به وكان ثملاً. قبل ذلك لم يفعلها.

كان في الصباح من جديد على ما يرام – هذا إذا لم آخذ بالحسبان وجهه الشاحب والزراق تحت عينيه – انطلق بحيوية وسهولة لزيارة مرضاه برفقة حقيبته السوداء. مرضى الانفلونزا، والمكاسير، والمصابين بالربو. أو الأطفال الذين وصلوا بصعوبة إلى هذا العالم. إما قبل الوقت اللازم، أو في وقت متأخر. عاد مرة متعباً من وَلادة؛ ماتت الأم ونجا الطفل.

"أحدهم يجب أن يموت كي يعيش الآخر. هذه هي الحياة" قال لأمي التي أجهشت باكية.

زاد بكاؤها في تلك الأوقات.

تصنع أبي عدم سماعه شيئاً – صَفّر في الحمام أثناء الحلاقة إحدى الأغاني التي سمعها من الراديو. مرر الشفرة على ذقنه ورمى الرغوة في المغسلة، لم يجرح نفسه ولا مرة.

ذقن قوية وبشرة ناعمة. هذا ما خطر ببالي.

مرة، انتفض في منتصف الليل في السرير. أصغى لحظة وأشعل بعد ذلك النور.

سألته أمي وهي نصف نائمة: يا إلهي ما الذي يحدث. انزعج والدي — ما الذي يفعله جارنا حتى الآن؟ إنه يطرق الجدار بـ "الجاكوش "منذ ساعة، لا بد أنه فقد عقله. سأذهب إلى هناك!.

لم تسمع أمي شيئاً، سكون الليل يخيم على كل شيء، ليلة هادئة.

لم يُصدقها أبي، هدأ بعد لحظات. استمر في لمس أذنيه ثم حشاهما.

حلم في مرات أخرى أن أحدهم يدق على فردة النافذة الخشبية — حالة طارئة، وَلادة، حمل معترض أو شيء مشابه — هرع باتجاه النافذة، الشارع خالٍ على عروشه. لا وجود لأحد.

تكرر الأمر. شعرٌ بالراحة حين تمكن من معرفة السبب. الأمر واضح — إنه يسمع خوارج انقباض قلبه. الشريان الرقبي الأيمن يصطدم بجسم الفقرة مما يتسبب في حدوث ذلك الصوت في الأذن. لست متأكداً — حسب مقولة زميله الطبيب "إيلافسكي"، بهذا الشكل يتجلى عطب حاسة السمع — الشرح أرضى والدي.

أسوأ ما في الأمر كان يحدث في الليل قبل النوم. صوت الطرق المنتظم كاد يوصله إلى الجنون. ساعدته الموسيقى. غالباً ما كنت أرى والدي في منتصف الليل بالقرب من الراديو أوالغرامافون. حاول بمساعدة الموسيقى حجب الصوت المتشكل في أذنه ومن ثم التوقف عن التفكير به.

تسلم "بوشكار" من "ليلي" رسالة جديدة.

ردت فيها على رغبته الشديدة في حدوث اللقاء السريع. وصله بشكل عام حوالي اثني عشر جواباً. لم يول اهتماماً يذكر لرسائل الأخريات لأنها تميزت بالحرص والاحتشام الزائد، الشيء الذي يخالف ذوقه ورؤيته. هذا ما أخبر به والدي.

أرادت "ليلي" معرفة بعض التفاصيل، كما كتبت أثناء ذلك عن نفسها.

استخدم والدي بعض التفاصيل التي جرت مع أحد زملائه في "نترا".

سيدة ما، آرية، تزوجت قبل سنوات من يهودي. عاشت معه حياة زوجية سعيدة ملأى بالحب. تكلل زواجهما بإنجاب صبي. ألَّهتهُ، وفعلت ما بوسعها كي تؤمن له مستقبلاً ناجحاً.

أرادت أن تُثبت الآن أمام القضاء أن زوجها ليس والد الطفل.

الزوج الذي أراد لابنه أفضل شيء، وهذا يعني في تلك الحالة أن يكون آرياً نقياً، أقرّ بأقوال زوجته أمام المحكمة.

اعترفت السيدة "إكس" أمام القضاء أنها لم تكن مخلصة لزوجها في وقت الحادثة، وعاشرت رجالاً آخرين. الكلمة الأخيرة كانت لأحد خبراء علم الوراثة الذي ساعدها والدها في تأمينه. كانا زملاء دراسة في كلية الطب. كتب ذلك الخبير تقريراً يثبت مزاعمها (لم يفعل ذلك لقاء أجر زهيد — ولكن تأمين المبلغ لم يشكل أية صعوبة للعائلة). وصل الأمر في النهاية إلى قص صُور الوالد اليهودي، وصور الابن ووضع إحداها فوق الثانية، كي يُقيموا تقاسيم الوجه — استغرقهم وقتاً طويلا لإثبات إذا كان، أو لم يكن ذلك الطفل ابن ذلك الرجل، وإذا كان ذلك مستحيلاً، أو ممكن قليلاً.

استمرت المحاكمة وقتاً طويلاً عن قصد، وحين اقترب الجيش الأحمر من الحدود في عام 1944، هدأت الأحوال، وضعف الاهتمام بالأمر. لم يمنع أحد — وحتى المحامين، بالطبع، وقبل الجميع — مسألة تأجيل عمر القضية وإطالتها، فقد سقطت في آخر الأمر بالتقادم.

كتبت "ليلي" لـ-"بوشكار" أنها طلقت زوجها في نهاية الأمر وهي حرة في الوقت الحاضر بلا ارتباطات، سألته أيضاً إذا كان لا يزعجه وجود طفل معها. "بوشكار" الذي سحرته صورتها، أجابها إن ذلك لا يزعجه على الإطلاق وأنه متشوق لرؤية "ليو" (وهذا اسم الطفل) ولكنه مع ذلك يُفضل حضورها وحدها إلى الموعد.

للأسف، ألغت "ليلي" اللقاء في رسالتها التالية بسبب مرضها المفاجئ.

لا شيء هاماً – كتبت– ومع ذلك فإنه منعها من السفر إلى "بريجاني"
لقد أهداني إله الحب للأسف خيبة الأمل.

23

وقف الأب "سافتسكي" أمام السبورة في شعبتنا:

"كي نحصل على الشفاعة، علينا أن نؤمن بما هدانا إليه الرب، والتقيد بتعاليمه. كل ما هدانا إليه وفعله لنحصل على الغفران تُعلمنا إياه الكنيسة المقدسة على أساس رؤية الرب."

فتح الإنجيل، وبدأ في القراءة:

"في البداية خلق الرب السماء والأرض. ولكن الأرض كانت فارغة تغطيها المياه وتسكنها العتمة. هنا قال الرب – فلينبعث الضوء – وكان الضوء – وكان اليوم الأول. في اليوم الثاني خلق السموات، وكان الهواء الذي يحيط بالأرض. فصل الماء في اليوم الثالث عن اليابسة، وأمر بولادة النبات وأشجار الفواكه على الأرض. خلق الشمس والقمر والنجوم في السماء في اليوم الرابع. وخلق الأسماك وغيرها من الأحياء في البحر والطيور في السماء في اليوم الخامس. في اليوم السادس خلق العديد من الحيوانات البرية. وفي النهاية خلق الإنسان في شكله. استراح الرب في اليوم السابع وبارك ذلك اليوم. إضافة إلى العالم المرئي خلق الرب عالماً غير مرئي، وهذا يعني الروح السماوية، الملائكة. في البداية كان الملائكة طيبين ومباركين ولكن العديد منهم أذنبوا في وقت لاحق وتصرفوا بطريقة غير لائقة في مواجهة الرب. أولئك عاقبهم الرب بطردهم من بركة السماء ورماهم في الضياع الأبدي. بماذا تتسلون هناك يا "راشكو"؟

مَد الأب إصبعه وأشار باتجاه مقعدنا.

"عفواً... إننا نتحدث عن التطور. الأمر لا يبدو لنا واضحاً مع "ترنوفسكي"."

"التطور هو مجرد ثرثرة، تذكروا ذلك! والآن هدوء! *حين انتهى الرب من خلق العالم وملأ الأرض بالنباتات والحيوانات، كان ينقصه*

الانسان الذي هو سيد كل شيء. هنا قال الرب:- فلنخلقه من صورتنا وعلى شكلنا، ولنجعله سيداً على كامل الأرض.- صنع الرب جسم الانسان من طين الأرض، ونفخ فيه من روحه الأبدية. أعطى أول إنسان اسم آدم، وهذا يعني الرجل من الأرض. وهل لديك اعتراض؟!"

"أرجوك... من الطين؟ أمر غريب.

"إنها كلمات الرب، ولا يوجد فيها ما يدعو للغرابة! كلمة ثانية، وسأطردك مع "ترنوفسكي"..." *سعادة آبائنا في الفردوس لم تدم طويلاً. حسدهم الشيطان على سعادتهم وأغواهم بمعارضة أوامر الرب. قام على شكل ثعبان بمحاورة إيفا — لماذا منعكم الرب من الأكل من أشجار التفاح جميعها؟ — وهي ردت عليه:- نأكل من أشجار التفاح، ولكن الرب منعنا من أكل ثمار الأشجار الموجودة في وسط الجنة ومنعنا حتى من لمسها وربما كي لا نموت.- قال الثعبان للمرأة:- لن تموتا لأن الرب يعرف أنكما ستأكلان منها في يوم من الأيام، ستتفتح عيونكم وستصبحون مثل الآلهة الذين يعرفون الخير والشر.- تطلعت "إيفا" في الشجرة ورأت منظر الثمار الرائع، أخذت واحدة منها، أكلت وأعطت رجلها الذي أكل أيضاً.*

بهذا الفعل الشنيع استغل أجداد أجدادنا حريتهم، ولم يطيعوا أوامر الرب ومن ثم جاءت أول الخطايا. النتائج كانت كارثية.

"مثلاً، أننا وُلدنا."

"لقد سمعتك يا "ترنوفسكي"! ستبقى مع "روشكو" بعد المدرسة. كما أني أرحب بلقاء أهاليكما!"

اقترب مُحذراً.

"إجاصة!" قال بصوت ضعيف.

لاح العقاب في الأجواء.

كان بوسع الأب "سافتسكي" التحدث عن الخطيئة الأولى ومثيلاتها إلى مالا نهاية. ولكن حين رسم "فويتا" في حصة التربية الدينية آدم وإيفا — بإخلاص وواقعية، وحسب الأساطير وهما يركضان عاريين في

الجنة – قام بدعوة والدته السيدة "ناتاليا" إلى المدرسة. استمعتْ إلى كلام الأب "سافتسكي" اللاذع، وإلى كلام غيره من القساوسة من إدارة المدرسة، ولكنهم ترددوا، ولم يسمحوا لها برؤية الرسم مما جعلها تستشيط غضباً أكثر.

لم تعرف على الإطلاق أن ابنها يمكنه رسم جسد المرأة بتلك الروعة وكل ذلك دون أن يراه على حقيقته.

كان وقع تلك الحادثة عليّ أكبر بكثير. قمت في تلك الأمسية بتسليط ضوء البطارية الصغيرة على *الصورة* تحت اللحاف. جلبت من مكتبة والدي الموجودة في الـ"سيلول" كتاباً ما بطريقة لا يمكن أن يعرفها أحد. تلك كانت المرة الأولى التي أرمي فيها كوروناً في الهواء لأعرف إذا كان عليّ فعلها أو لا. سقط الكورون خمس مرات على الإشارة التي تمنع الولوج إلى المُذنب الثالث عشر إلى أن نجحت في المرة السادسة. دخلتُ إذاً.

يحتوي الكتاب على كلمة سحرية *الجنس* بحيث يمكن معرفة الموضوع من العنوان. جعلت أتصفح الصفحات وأنا ألهث. تطلعت بتركيز إلى صورة *مقطع جسم الأنثى* وإلى الشرح المكتوب تحتها: *القسم الخارجي من الجهاز التناسلي للأنثى*. تسللت يدي إلى الأسفل كما جرت العادة. تسارع نفسي، أغمضت عينيّ بشهية، وفجأة أحسست برطوبة في أسفل بطني على الشرشف. نزل رأسي على الكتاب، اشتعلتْ النار الباردة في داخلي.

قرأت بين الصفحات المُجعوكة في عمق الكتاب عنواناً: *"أونانيا"*. قرأت بسرعة:

هناك إضافة إلى الأمراض الجنسية ما يضر بصحة الشباب وربما بنسبة أكبر، ويمكن أن تكون أكثر من أمراض أخرى مع أنه غير معدٍ – إنها العادة السرية.

تابعت القراءة بنهم: *يُشير العهد القديم إلى هذا الإثم وإلى العقاب الذي يستحقه، يقول إن الرب قتل "أونانا"، واليوم أيضاً يمكن القول إن هذا المرض خطير لأنه لا يضر بصحة الجسم فحسب بل يُضعفُ*

بشكل أساسي قوة الحياة. المتفتحون من الشباب يصبحون خلال وقت قصير أناساً مكسورين. التهيج المستمر يحطم أعصابهم ومن ثم يضعف الجسم بفقدانه وخسارته السائل المنوي الذي يخرج من وقت لآخر أثناء النوم من أجسام الشباب الأصحاء وهذا الأمر لا يتسبب في أي ضرر. ولكنهم يتحولون من شباب نشطاء تشع الصحة والقوة من عيونهم إلى شباب ضعفاء وجبناء. ذلك التبدل الحاصل عند الشباب يبدو جلياً وواضحاً ويمكن أن تلاحظه عيون الآباء والأمهات.

برعب، أغلقت الكتاب، ورميته تحت السرير. تطلعت في العتمة وعيناي مفتوحتان على وسعهما. خفت مما يحدث معي. فكرت بالموت البطيء الظالم الذي ينتظرني.

من البداية وحين كنت نظرياً بلا تجارب مشابهة، جعلت أتأمل وأتساءل كيف يعمل كل شيء. كيف يمكن لهذا الشيء، "الواقي" أن يُمسك بال- "فرفورة" ولا ينزلق؟ لا بد أن يتمزق حين لا يكون الإنسان بارعاً. كيف يمكن أن يصيب الرجل الثقب في المرأة، وكيف يمكنه الولوج إلى هناك بشكل عام؟ تفحصت أختي "تينا" مرة بتمعن أثناء نومها ولكني لم أنجح حتى حين بذلت ما بوسعي للتوصل إلى *كيفية الولوج إلى هناك* (أكثر من ذلك، استيقظت أثناء فحصي، ونهرتني). ماذا سيحدث لو أني بالصدفة دخلت إلى المكان الذي تتبول منه؟

لم يساعدني حتى السبر الدقيق حين قمنا في تواليت المدرسة بتبادل المعلومات مع الأقل خجلاً، والأكبر مني بسنتين زميلتي "أبولينا"، بتفحص أعضائنا التناسلية. جلستْ على كرسي التواليت، أبعدتُ فخذيها وقمت بعدها أنا بتفحص ما بينهما حتى الشبع. في المقابل، أنزلت سروالي وتركتها تتحسس ذلك القسم السري والغامض من جسدي. قامت بكل ثقة ودون أي مقاصد جانبية ومن خلال تكنيك نظيف بشد الغطاء الجلدي، على الرغم من أني أحسست بكركجة في أسفل ظهري ودوران قليل في رأسي إلا أنني تحملت الفحص. لبسنا

ثيابنا وخرجنا ونحن نفكر من تواليت المدرسة. اختفينا بين حشد الأطفال الذين كانوا يقفزون ويلعبون أثناء الفرصة الكبيرة. ذهب كل منا إلى طرف الممر التابع له.

أقنعتني السنوات التالية أنه أثناء *تلك الأشياء* التي طبقاً للإنجيل، أول من قام بها وكانت نتائجها مصيرية ومزعجة، آدم وإيفا، يمكن الاعتماد على غريزة تمتدُ لألوف السنين.

24

حين دخلت سلوفاكيا الحرب جنباً إلى جنب مع ألمانيا عام 1941 ضد الاتحاد السوفيتي، تم إرسالي إلى الجبهة الشرقية بوصفي طياراً في السرب 2 المجهز بسطحين " إش -328 الذي لم ينشط كطيران محارب. كنت أقوم أثناء ذلك بمهمة طيار اتصال. عُدتُ إلى سلوفاكيا في العشرين من آب 1941 لالتحق بدورة طيار مقاتل. تم اختياري بعد عدة أشهر من الخدمة بين الطيارين الذين تم إرسالهم في 25 شباط 1942 في دورة تدريبية أعلى على طائرات "ميسرشميت ب ف 109 عند" ستافل 5 / ياغدكروب دورنتيم في مطار "كاروب-غروف" في الدانيمارك. بعد عودتي إلى سلوفاكيا في السادس من تموز 1942 تم فرزي بوصفي نائب قائد سرب الجبهة الأول الذي رافقته إلى الجبهة في الرابع عشر من تشرين أول 1942 في بداية الأحداث. في الثامن والعشرين من تشرين الثاني 1942 أصبحت في القفقاز أول من قام بين السلوفاك بالهجوم على الطائرات السوفيتية أثناء الطيران الحر الذي حدث في أجواء "توباس" وكنت أقود طائرة مقاتلة، أسقطتُ ثلاث طائرات معادية دون أن يلحق أي أذى بطائراتنا. تلك الإصابات لم يُعترف بها رسمياً. نفذتُ خلال عشرين شهراً من القتال في أجواء "كوبان"، والقفقاز، والبحر الأسود 156 طلعة قتالية وأصبت 36 هدفاً مؤكداً مما جعلهم يُكرموني بميداليات متعددة سلوفاكية وألمانية وهنا أريد ذكر بعضها وهي: ميدالية فضية لانتصار الصليب العسكري، صليب الاستحقاق الفضي العسكري، ميدالية ذهبية ،

فضية وبرونزية كوسام للشجاعة، الصليب الألماني الحديدي من الدرجة الأولى والثانية، الصليب الذهبي الألماني، والميدالية الفضية الكرواتية، ميدالية ولي عهد الملك زفزنيمير. وتم ترفيعي في الأول من شباط 1943 إلى رتبة ملازم أول طيار.

الملازم الأول، طيار. فويتخ روشكو

حضر "فويتا" في أحد الأيام إلى منزلنا. أخبرني بقلق واضح شيئاً لم أفهمه في الحال. سحبني إلى دار السينما. حتى إنه اشترى لي البطاقة.

كانوا يعرضون فيلم *من تاترا إلى بحر آزوف* الذي يتحدث عن مشاركة الجنود السلوفاك في الهجوم الروسي. تحدث والد "فويتا" في الفيلم عشر ثوان بأكملها! حضر سكان "بريجاني" جميعاً لمتابعة عرض الفيلم في سينما سلوفاك. خلال تلك الثواني العشرة لم يتنفس أحد. والد "فويتا" في بزته العسكرية وصدرة المكتظ بالميداليات ومن خلفه الطائرة. بعد ذلك تصفيق حاد. رأينا ذلك الفيلم الرائع، البطولي، الوطني ربما عشرين مرة. قيل في وقت لاحق: من المؤسف أنهم لم يلحقوا تصوير الفيلم الوثائقي *من بحر آزوف إلى تاترا*.

أضافوا إلى الفيلم عدة مرات أخبار الأسبوع التي كان فيها قائد سلاح الطيران الألماني في سلوفاكيا الجنرال "كبير" يقلد والد "فويتا" الصليب الذهبي الألماني.

صوت عاطفي كان يشرح: "مجموعة صغيرة من الطيارين الحربيين السلوفاك يقاتلون على الجبهة الشرقية ضد القبائل السوفيتية، جنباً إلى جنب مع طياري "لوفتواف" حيث أثبتوا مهاراتهم و تحديداً في القتال الجاري في "كوباني"."

رئيس جمعية سلوفاكيا الأم "جوزيف تسيكر هرونسكي" ألقى خطبة من شرفة دار البلدية في "مارتين" بمناسبة عيد ميلاد الفوهرر، قال فيها:

"خريطة أوروبا تتغير، حين نضربها نحن السلوفاك بقبضة يدنا!"

تم نشر ذلك الخطاب في الصحف جميعها.

تدفقت مياه "سالافا" الهادئة في تيار خريفي ملأته الأسماك وطغت عليه البرودة الناعمة.

كنت جالساً مع "فويتا" فوق شجرة البلوط التي بدأت تتلون أوراقها، كل منا يجلس على غصنه. راقبنا القمر النهاري بلونه الحليبي المعلق فوق "فولوفتس" ولكننا لم نره لأن أفكارنا الرومانسية كانت تحلق في مكان آخر.

وصف لي "فويتا" وعيناه تقدحان بالفرح حفلات صيد والده الجوية.

"المفروض أن تكون الأسرع في إصابة العدو، وإلا فإنه سيفعل ذلك معك ويقتلك. لا يمكنك أن تشرح لأحد في تلك السرعة الكبيرة ومن ذلك العُلو في الجو بأنك لا تريد مقاتلته."

شارك والده مرة مع طيار آخر من سرب الطيارات المقاتلة 13 في طيران اختبار طائرة " فوكي –وولف 189. كانوا يسمون الروس بالهنود – شاهد ثلاثة منهم على طائرات من طراز "إليوشين 153 في مدى الرؤيا. تعود والدي اختيار طائرة واحدة والتركيز عليها. اختار "إليوشين" التي كانت تبحث عن موضع مناسب لإصابة "فوكي–ولف". أطلق عليه والدي وأصابه في حين ولى الآخرون الأدبار. طاردهم، ولكنه لمح وصول ست طائرات أخرى بالتزامن مع وصول عدة قاذفات. حين رأوه نزلوا بطائراتهم ليكونوا تحت حماية المدافع الروسية المضادة للطيران. أراد مهاجمتهم، ولكنهم حشروه بينهم حتى إنه كان يسمع أصوات محركاتهم. أطلقوا عليه من فوهات رشاشاتهم. فقدً في تلك اللحظة الصعبة زميله في الطائرة الثانية، كما اكتشف في وقت متأخر أنهم أصابوه من الأرض – الروس أو الألمان، لم يكتشف ذلك أبداً. تمكن والد "فويتا" من النجاة بنفسه دون إصابة مع أن طائرته "ميسرشميت" التي كان زملاؤه يطلقون عليها تحبباً "غوستاف" أصيبت بتسعة وخمسين طلقة إضافة إلى قذيفتين. لقد حسب ذلك الرقم بعد أن نجح في الهبوط في القاعدة.

في حادثة أخرى، قام أربعة هنود بملاحقته فوق البحر الأسود. أحدهم بالتأكيد لم يكن يتمتع بخبرة لأنه بدأ يطلق من مسافة بعيدة كما

أطلق أيضاً من مدفعه الرشاش الذي "رَوكب" بشكل مفاجئ وأمضى وقتاً في إعادته للعمل حتى كاد أن يصطدم بروسي آخر. لقد أرعبه ذلك حتى إنه فضل الهرب.

تنهد، ودور رأسه ثم انتبه بأن اثنين من الهنود يلاحقونه. لحسن الحظ لم يكونا في موقع جيد وكان أحدهما يضايق الآخر في إطلاق النار. استدار والدي من جديد وبدأت طائرته "غوستاف" في السقوط والدوران مما أحدث ثلاثة ثقوب كبيرة في جناحها. استعاد السيطرة على الطائرة قبل وصولها إلى الأرض في مكان قريب للقفز. فحلق على مسافة ضئيلة فوق بيوت إحدى القرى الروسية. كان الدخان يتصاعد من المداخن حين هرع السكان إلى المخابئ. كان على يقين من أن الطائرة ستسقط ولدهشته، أوصلته إلى المطار.

لاحق بعد أسبوع هندياً اندفع بطائرته بين الغيوم. لاحظ والد "فويتا" بعد طيران قصير في الغيوم انفجاراً قوياً. سحب بقوة مسكة القيادة مما سمح ل–"غوستاف" باستعادة التوازن على ارتفاع بسيط من الأرض. لم يسمح الوقت للهندي بإعادة التوازن لطائرته التي اصطدمت وهي في أقصى سرعتها بأحد البيوت . حَسَبه بين عِداد الطائرات التي أسقطها.

هبط الغروب في تلك الأثناء على "بريجاني". انطلقنا في طريق ضيق عبر الحقل عائدين إلى بيوتنا محملين بأحلامنا وإثارتنا . لم ينطق أحداً منا كلمة واحدة.

تذكر والد "فويتا" في وقت لاحق بعد الحرب آخر طيران له فوق روسيا. وصل بعد مطاردة ومبارزة صعبة في الجو بطائرته المصابة إلى القاعدة. فقد سيطرته على الطائرة التي تحطمت فوق المهبط.

أحس برائحة "الكيروسين" وفي الحال هبت النيران في الطائرة التي احترقت مثل الورق.

نقلوه في سيارة إسعاف عسكرية أحس في داخلها أن روحه ستغادر رأسه المضمد بالشاش وهي تنتقل فوق طريق متعرج إلى مزرعة متهدمة تم

طلاؤها على عجل وجهزت بطاولة جراحية مع بعض الأجهزة الطبية. حقنوه في فخذه بأمبولة كتب عليها "مورفين هيدروخلوريكوم"، محلول 4٪. أحس بعد أربع دقائق من الحقن أن الألم غادره، وبعد سبع دقائق لم يعد يشعر بشيء. غرق في نوم عميق وحلم بأشياء غريبة.

أجروا له عملية جراحية. فقد كمية كبيرة من الدم مما جعلهم يعوضونه بالسيرومات. تحول جسمه إلى طرد من اللحم المكشوف. حقنوه بالعديد من الأدوية ثم نقلوه بعد ذلك إلى أحد المستشفيات الميدانية الموجودة في قصر قديم يعود لأحد الأمراء. اللوحة كانت تشير إلى أن هذا المكان كان مركزاً للحزب الشيوعي السوفيتي. تولى العناية به هناك مرشحو ضباط إسعاف، وجنود. استغرب عدم وجود النسوة في مناطق الحدود أمر غريب. حين نقلوه بعد ذلك إلى العمق، ظهرت المسعفات.

تسببت أوروبا الشرقية غير المضيافة والفقيرة باتصالات السكك الحديدية في بقائه عدة أسابيع بانتظار قطار الاسعاف. شاهد أول سرير مغطى بشرشف نظيف بعد شهور طويلة في البيت وأوشك على البكاء. ربما حدث ذلك، وهذا ممكن، بسبب أعراض فطامه من مادة المورفين.

قرأ الكثير في تلك الأثناء، حتى إنه حصل في المشفى من إحدى المرضات المهتمات بالمرضى على نسخة من كتاب لم تخل منه مكتبة في منزل محترم، وأصبح اليوم كما يقال أحد أكثر الكتب مبيعاً في الهند، "ماين كامبف" *[34] تلك النسخة الرثة من "هوختزايتساوسغاب" طبعة الزواج المطعمة بشعار بافورسكا الذهبي المنقوش على الغلاف والتي كانت تقدم للزوجين بالمجان كهدية زواج من الدولة. صُنف والد "فويتا"، إذا تعلق الأمر باللغات، بين الفئة الأضعف لذا فإنه يفهم بعض كلمات الجملة ويخمن البقية.

سحره الكتاب من الجملة الأولى: تبين أن قدري السعيد اختار "براوناو أم إين" لتكون مسقط رأسي. عاش مع الفوهرر طفولته وحتى

---

[34] ماين كامبف: نضالي لـ أدولف هتلر

سنوات حياته التعيسة في فيينا. أحياناً كان يذرف الدموع بسبب القدر الظالم الذي عصف بتلك الشخصية الرئيسة – هنا يجب الأخذ بالحسبان تأثير المورفين – ولأنه لم يُكمل قراءة الكتاب (لأن المرضة طلبت استرداده قبل خروجه من المشفى) بقي على قناعة تامة بأنها رواية اجتماعية قوية يمكن مساواتها مع أي كتاب شهير ل- تشالز ديكنز.

غالباً ما كان يبدأ الجملة بعد ذلك باستخدام كلمة: هتلر، ذلك الكاتب...

اختفى والد "فويتا" في منتصف صيف عام 1944.

تم تكليفه بوصفه أحد طياري سرب "لتكا 13" التي عادت بأكملها خلال تلك الفترة من روسيا بحماية "براتيسلافا" من هجمات القاذفات البريطانية والأمريكية. تسلم الطيارون من الجنرال "تشاتلوس" تعليمات سرية – بعدم البدء في الهجوم، وترك الطائرات للحالات الطارئة والأهم.

أخذ والد "فويتا" في السادس والعشرين من حزيران، عشرة أيام بعد قصف "أبولكا" من الطائرات، إجازة كي يتمكن من الاحتفال في "بريجاني" بعيد ميلاد ابنه الثاني "تيو" السابع. وكان قراراً جيداً.

في ذلك اليوم الصحو السديمي حيث الرؤيا ممكنة حتى حلول المساء، هبت عاصفة صيفية قصيرة. في تلك اللحظة كان كل شيء قد انتهى. في التاسعة والنصف (في اللحظة التي كان والد "فويتا" قد انتهى أخيراً من إصلاح حوامة الطائرة على النموذج، وانتشرت من المطبخ رائحة الفريز الطازج) تسلمت المقاتلات السلوفاكية التي كانت في حالة استنفار أمراً بمهاجمة الأمريكان من سلاح الجو الخامس عشر. اتهمهم الألمان سابقاً بالجبن، ومن ثم كان إبراز الشجاعة أمراً في غاية الجدية.

بهذا الفعل اختفى سرب "لتكا 13" من الوجود.

منذ آب، لم يعرف أحد أي شيء عن والد "فويتا". اعتقد "فويتا" أن والدته تعرف ولكنها لم تقل شيئاً. تصرف الجميع وكأن الوالد قد خرج إلى الكشك لشراء السجائر وسوف يعود بعد قليل. حين بدأ "فويتا"

أسئلته، غيرت السيدة "ناتاليا" مجرى الحديث.- كانت في أغلب الأوقات تؤنبه على شيء ولهذا فضل التزام الصمت وعدم تكرار الأسئلة.

تحدثت الصحافة، وأعلن الراديو عن وجود العديد من العصابات، والإرهابيين الذين يسمون أنفسهم الأنصار. امتلأت أسوار البيوت وجدرانها بالعديد من التعليمات، كما أعلن وزير الداخلية حالة الطوارئ في أراضي الانتداب.

بدأنا، من راديو "بتر" الصغير العامل على البطارية الذي تسلمه كهدية من بابا نويل في آخر عيد ميلاد، نسمع أكثر فأكثر "فولا لوندين"* "غفاري موسكفا" *[35] [36]! كنت مع والدي نسمع ونبلع بتوتر الأخبار القائلة إن الأمريكان احتلوا روما، وأن انتفاضة حدثت في فرصوفيا وفي فرنسا وعن تقدم الجيش الأحمر بسرعة من الشرق.

كنت أتخيل أن الجنود الحمر يرتدون بزات حمراء ولهم ذقون حمراء، وبنادقهم الحمراء تطلق رصاصاً أحمر ينشر ناراً سحرية.

25

نعم، صيف عام 1944 كان في بداياته بارداً يدعو للتوتر، ولكنه تحول بعد ذلك إلى حار وسديمي. الخيط الرفيع الأحمر لميزان الحرارة الموجود خلف نافذة غرفة الجلوس كان يقفز مراراً ويصل إلى ثمان وثلاثين درجة مئوية في الظل. كنت أذهب مع "بتر" و"تينا" بانتظامٍ لرؤيته. لم نصدق عيوننا. أمي مع صديقاتها ومساعدتها "تركا" كن يتحدثن أثناء تحضير مربى المشمش عن القتال الجاري على الجبهة الروسية وعن المنتفضين في الجبال.

بدأ بعد ذلك صيف جديد، ملون وطويل. تذوق والدي مع العم "رودو" في القبو نبيذ التفاح الطازج (موشت) وتحدثا عن قصف المدن. أحدهم ذكر لي في وقت لاحق أن أولئك الناجين، وحسب ما يقال عنهم

---

[35] فولا لوندين" تعني هنا إذاعة لندن

[36] غفاري موسكفا : تعني هنا إذاعة موسكو

أصبحوا أكثر هدوءاً بعد الغارات لأن كل شيء أصبح أسهل بكثير. لا وجود للعناوين، ولا للهموم.

تحدثوا أيضاً أن الألمان استخدموا لقمع الانتفاضة عدة فرق، وتلك احتلت سلوفاكيا بالتدريج. شاهدت الألمان عن قرب مرة واحدة.

أتذكر في أحد أيام تشرين الأول في دكان حلويات "بوشكار"، حين أرسلتني والدتي بعد الغداء لشراء فطيرة "دوبوشكا" التي أحبها. كان "بوشكار" منشغلاً في شيء ما في الخلف. انتظرته حتى يلف لي قطعة الحلوى، في تلك اللحظة رنَّ الجرس المُعلق فوق مدخل المحل، ودخل في الحال ثلاثة "فريتسي"،[37] طوال في بزاتهم السوداء. أحدثوا ضجيجاً وصخباً ملأ مخزن السكريات الفارغ وهم يتبادلون الحديث ويضحكون.

هم، وأنا. تعوّق "بوشكار" قليلاً. اقتربوا من طاولة التخديم حيث كنت أنتظر. أحدهم تحدث معي بسلوفاكية مُكسرة:

"صبي جم... يل ... ما...اسمك؟"

لاأحب التحدث مع أناس غرباء، ولكني قررت الرد ولكن بنصف صوت.

" آدم."

"آدم! اسم جميل!" فرك شعري بيده الثقيلة وبخاتمه الذهبي. رفع سبابته: "ألماني...!"

"هل تظن ذلك؟ سلوفاكي! أجبته.

ابتسم الألماني، ربما لم يفهمني جيداً. لو عرف أنه يتحدث مع هجين، زائف، ربما كان سيتصرف على نحو آخر.

"ألسو!... أنا "هورست!"

الثاني كان ينقر بأصابعه على طاولة التخديم. أبدى ملاحظة. ضحكا من جديد. تموجت الستارة خلف طاولة التخديم ولكن "بوشكار" لم يظهر. دخلت لأناديه.

---

[37] فريتس" اسم شائع في المانيا ، بدلاً من القول ثلاثة المان كما يقال ثلاثة محمدين

كدت اصطدم به. كان يتلصلص من خلال الشق الموجود في الستارة على الضيوف. دور رأسه وصالب إصبعه بفمه كي أبقى يا إلهي ساكتاً.

" هالو... ! " صرخ الألماني.

عض "بوشكار" شفته، وجعل يتعرق. مَدّ في تلك الأثناء أحد الألمان يده فوق طاولة التخديم وتناول زجاجة روم. لم يتحمل "بوشكار".

خرج من خلف الستارة، ابتسم ومسح جبينه.

"نهاركم سعيد. بماذا يمكنني أن أخدمكم...؟"

"من فضلك.. لا — هل عندك...؟ استغرب الألماني، ولوح بيده، تابع بالألمانية.

"بوشكار" تابع ابتسامته، كما لو أن فمه مجهز بأسلاك وقطع مطاط صغيرة، وحتى لو أراد فلن يتمكن من فعل شيء آخر.

"لا أفهم."

حاول الألماني من جديد، ولكن "بوشكار" لم يقتدر إلا على الابتسامة.

"لا أفهم!"

وقفت خلفه وانتظرت ما سيحدث.

اختار الألمان في النهاية بمساعدة بعض الكلمات وبعض الإشارات صحناً مليئاً بقطع الحلوى المختلفة المصنوعة من البسكويت والشوكولا إضافة الى فطائر التفاح والقهوة. لم يتجرأ "بوشكار" على إعطائهم بديلاً آخر. لأن ما فعله حتى الآن استنفذ كامل قواه. استغربت، أين أخفى مرحه.

اخترت بحركات بطيئة من الفترينة الزجاجية الحلوى التي طلبتها والدتي وجعلنا سوية نتطلع إلى الألمان وهم يلتهمون محتويات الصحن. كانوا يلبسون بزات سوداء مزينة بكلفة ذهبية إضافة إلى أحرف إس إس التي تُذك بصاعقتين. نزعوا قبعاتهم ووضعوها على الطاولة، كانت تشع فوق كل واحدة جمجمة مع عظمتين متصالبتين. *قراصنة* — فكرت في اللحظة الأولى ورغبت في التطلع عن قرب ولكن يد "بوشكار" منعتني.

كان قميصه قد تبلل من العرق حين همس:

"لم أرغب في خدمتهم، وأنت شاهد على ذلك! ولكني خفت في الحقيقة أن يخربوا المحل! لستُ بطلاً! ابق هنا "أداشكو" لو حدث شيء.سوف أعطيك كل شيء بالمجان. تعرف الألمانية ، أليس كذلك؟"

أومأت برأسي.

أشاد الألمان بالحلوى، وأطلقوا النكات، ثم راقبوا الطريق من خلال الفترينة ، وعلقوا على الفتيات اللاتي مررن بالقرب من المحل. كنت لا أزال أفكر بتلك الكتابات الموجودة على زنانيرهم : *كوت ميت أونس/* (الله معنا) إلى أيهم يشيرون؟ إلى ذاك الذي حمى والدتي؟

طالما كانوا في المحل، لم يدخل أحد بالرغم من انطلاق العشاق والسيدات المسنات في ذلك الوقت إلى المدينة. ضيوف بعد الظهيرة، العائلات مع زعيق أولادهم. الناس أمام المدخل يترددون، ويسرعون الخطى بعد ذلك.

"أتمنى أن ينقلعوا في أقرب وقت!" همس "بوشكار" راجياً ربه . "وإلا سأضطر إلى إغلاق المحل!"

طلبوا بعد ذلك كونياك — كان "بوشكار" يحتفظ به لأصدقائه، ولم يبق منه إلا القليل في قعر الزجاجة. ولكنه أخرجه ويداه ترتجفان وسكب لهم.

„Ich hatt' ei-nen Ka-me-raden, ei-nen bes-sern find'st du nit. DieTrom-mel schlug zum Strei-te, er ging an mei-ner Sei-te in glei-chem Schritt und Tritt, in glei-chem Schritt und Tritt"

"ما هذا الذي يُغنّونه...؟" سأل "بوشكار" وهو يرتجف.

ترجمت له ، الأغاني القتالية تستخدم عادة نصوصاً سهلة. إنها سهلة مثل الموت :

"كان عندي صديق، لا يمكنك أن تجد أفضل منه. دقت طبول الحرب ، انطلقنا جنباً إلى جنب

„Ei-nen Ku-gel kam ge-flo-gen; gilt es mir o-der gilt es dir? Ihn hat es weg-geris-sen; er liegt mir vor den Fü-ssen, als wär's ein Stück von mir, als wär's ein Stück von mir."

مرت قذيفه، هل ستقتلني أم تقتلك؟ حصدته، يتمدد عند قدمي، وكأنه قطعة مني"

„Wil mir die Hand noch rei-chen, er-weil ich e-ben lad': „Kann dir die Hand nicht ge-ben, bleib du im ew'gen Le-ben, mein gutter Kame- rad, mein gutter Ka-me-rad!"

"أراد أن يمد لي يده حين كنت ألقم سلاحي: "لا يمكنني الإمساك بيدك، ابق في الحياة الأبدية أفضل أصدقائي!"

حين أنهوا وصلتهم الأخيرة لمعت عيونهم.

لا أعرف حتى اليوم ما حدث معي، ولكني بدأت وأنا أقف بالقرب من طاولة التخديم بالإنشاد:

„Treu-e ist ein lee-rer Wahn, schon Courts. Mah-ler sagt! Man Ist treu, doch täg-lich ei-ner An-dern. Ei-ne klei-ne Lie-be-lei für das hei-sse Blut, Gott, ich fin-de nichts da-bei, a-ber merk'Dir gut."

انضموا وشاركوني الغناء:

„Küss'nie die Frau – von Dei-nem Freund und Wenn's Dir noch – so süss er-scheint! – Er könn-te Dich beim Kus-se fas-sen – und sie viel – leicht Dir gleich für e-wig ü-ber-lassen!

Küss'nie die Frau – von Dei-nem Freund – und wenn's Dir noch– so süss er-scheint – Schmeckt

auch der Kuss – Dir je-den-falls, doch Du hast sie danne-wig auf dem Hals!"

أمي كانت لديها تلك النوطات، وكنت أعرف المقطع الشعري الأول، واللازمة، وكنا نغنيها بجانب البيانو، أتذكر حتى اليوم:

: Küss nie die Frau von Deinem Freund! (Fox-Trotu.Charleston) Text und Musik von Willy Rosen.

صفق الجنود وضحكوا. أحدهم صار يبكي من شدة تأثره بالأغنية.

شعرت أنه من غير الصواب متابعة الغناء والقول:

„Frau Levy mensendiekt schonmorgens früh, – weil nur die Schlankheit siegt, beugt sie das Knie. – So zwischen 9 und 10 triebt sie'se-nergisch im-mer..."

عن سيدة تدعى "ليفوفا"، ليست بالتأكيد آرية العرق.

ولكنهم بالتأكيد يعرفون الأغنية مثل سابقتها. ويلي روسن، اسمه الحقيقي ويلي يوليوس روسنباوم، اعتُبر في العشرينات أحد أشهر مطربي النوادي الليلية في برلين، وقد كتب العديد من الأغنيات الشهيرة المعروفة في أوروبا بأكملها.

بعد هروبه غير الموفق عبر هولندا إلى أمريكا، سافر لسوء حظه بالقطار في الاتجاه المعاكس – إلى الشرق – إلى بلدة بولونية تميزت بأجوائها الناتئة ولها اسم ألماني "أوسويتز" Auschwitzحيث كان عليه خلال عدة أسابيع أن يتنشق وللمرة الأخيرة في حجرة الغاز المصنعة في شركة "سيمنس" وعبأتها مؤسسة "إي.ج .فاربن" غاز "سيكلون ب". النوعية مضمونة، وكاتالوك الدعاية بالمجان. التقاليد يمكن معرفتها.

26

دارت بين الناس شائعات تقول إن "هيملر" أثناء زيارة براتيسلافا في نهاية أيلول 1944 كاد يفقد صوابه – صرخ، ألمانيا مدمرة، والمواد

الغذائية هناك مقننة وبالبطاقات، والناس هنا يتنزهون في الشوارع وكأن شيئاً لم يكن، ويتبضعون في المخازن بالمال.

تلك البحبوحة لم تدم طويلاً، وبالتدريج أصبحت بعض المواد التموينية بالبطاقات.

تقرر منع إنتاج الكريما مما جعل أمي تبحث عن الحليب بالسر كي تتمكن من تحضير فطيرة "الكرمش" الفرنسي التي يُحبها "بتر" بمناسبة عيد ميلاده. ساعدها في نهاية الأمر "بوشكار" الذي كانت لديه على الدوام مصادره الخاصة.

قُدمتْ أثناء الحفلة أشياء أخرى نادرة — أحد المرضى، أهدى والدي لسان عجل. بقي قاسياً لأن والدتي لم تطبخه طويلاً، ولكن الجميع أخفوا ذلك، وقرروا عدم ترك تلك "الشهوة" على الصحن. حتى إن سن العم "رودو" انكسر بسبب قساوة القطعة. البالغون شربوا بعد الغداء قهوة ما قبل الحرب اللذيذة. "موناكو" دسها في حقيبة والدي. لم تكن نوعيتها بالتأكيد بعيدة عن مستوى قهوة ضباط الجيش الألماني. أكدت والدتي.

شارفت الفترة الذهبية لمخزن حلويات "بوشكار" ببطء على نهايتها. كان يبيع بالسر لعشاق الـ" فترنيكي" والكستناء المهروسة مع الكريما إلى أن وشى به أحدهم. جاء التفتيش ووجد في مستودع "بوشكار" أكياساً من القهوة مع كمية كبيرة من السُكر المخزن والقشطة . فأغلقوا المحل وألغوا الترخيص. وما زاد الطين بله هو تخلي "ليلي" عنه بشكل نهائي.

إله موزعي البريد أوصل لي رسالة.

أراد والدي وإلى الأبد التخلص من هذا الحمل الثقيل، لذا تركها تهاجر في بداية تشرين الأول. لم تكشف إلى أين، ولكنها تحدثت عن أصلها الألماني الذي سيجعل عيشها مستحيلاً في المستقبل في تلك البلاد. جاء ذكر "ريو" أو "باراغواي"، لم أعد أتذكر. على كل حال — أخبرته "ليلي" في رسالتها الأخيرة أنها سوف تتذكره حتى نهاية حياتها، وبأنهما بالتأكيد سيلتقيان في يوم ما، ولكن ذلك سيستغرق سنين.

تلك الرسالة كانت كافيه لتحطيمه نفسياً وجسدياً. اختفى، ولا أحد يعرف أين اختفى. سافر من البلدة.

منذ ذلك الوقت و"بوشكار" ينتظر "ليلي"، ينتظر أكبر حب في حياته.

نعم، الحنين هو مجموعة الذكريات التي لم تكن موجودة في يوم من الأيام.

احتل الألمان سلوفاكيا بالتدريج ومن ثم أصبحت الاستثناءات اليهودية جميعها باطلة. تم التحضير بسرعة لإعادة الترحيل.

وجد طبيب الأسنان "غرونسكي" قبل هروبه إلى سويسرا الوقت اللازم ليُصنِّع تاجاً خاصاً لوالدي مستخدماً البلاتين. وقف بجانبه وهمس في أذنه:

"عملي يُعاقب بالموت!"

رأيت في وجهه خوفاً قاتلاً.

اكتشف في الثلاثينات نظرية الالتهاب الموضعي المخبأ في مكان ما من عمق اللثة بانتظار اللحظة المناسبة لمهاجمة الأسنان. وبفضل تلك المعلومة تخلص العديد من المرضى من آلامهم بسبب ذلك السن. انتهوا حتى الموت على الأقل من آلامهم. تمكن والدي لحسن الحظ من ضبط نفسه أمام إغراء الحلويات.

كان يقول: الأسنان شيء غريب. "أداشو"، هل تُصدق أنها اثنان وثلاثون مفصلاً؟ ومؤلمة بشكل لا يُصدق!"

صديقي "تونكو غرون" الذي يجايلني في العمر يملك أصابع مفرطة في النعومة - باستطاعته ليّ الشريط النحاسي، وتصنيع أنواع من الحيوانات والزهور - وضع في حقيبة الأطفال كماشة كبيرة ألصقت عليها أوراق ملونة، كي يعمل هناك في المكان الذي سينقلونه إليه. لقد رحّلوا حتى "ميسلوفتش" علماً أنه لا يعرف الصلاة بالعبرية. السيدة "كلاوغروفا" وزعت قططها.

حاول عمي "أوسكار" الابتعاد في تلك الأيام عن العين. تجنب أثناء نزهاته الطرق الرئيسة، وابتعد تحديداً عن ناطور المبنى الذي كان سيشي به. أمضى ساعات بأكملها في بيوت الناس، كانوا يرتعبون هم أيضاً ولا

سيما حين يسمعون قرعاً على الباب، أو رنين جرس البيت، أو الهاتف وكأن أحدهم يمكنه الدخول إلى البيت عبر شريط الهاتف أو الكهرباء. كان يتنقل مع العمة "روزكا" بين بيوت معارفهما التي لم يدخلوها من قبل ولا مرة واحدة في حياتهما، وبيوت غرباء بالكاد تحدثا إليهم ولكنهم مهذبون، وكل ذلك خوفاً من البقاء في البيت. ولكن البريد لم يرحم "أوسكار" ولا زوجته ولا حتى أولاده.

جلستُ في بعد ظهيرة يوم الترحيل مع أمي في غرفة جلوسهم حيث تبادلنا معهم الحديث وشربنا من الشاي العشبي. فكر الجميع بما عليهم اصطحابه في سفرتهم. الحديث عن بولونيا كان شائكاً، ولكن القلائل صدقوا ما قيل. جلس "أوسكار" شبه صامت على الصوفا وجعل يتطلع من خلال النافذة إلى الخارج – الآخرون كانت أصواتهم مخنوقة، أو أنهم تحدثوا عن أشياء تافهة يريدون بها التمويه وكأن لا شيء يحدث. تحدثوا عن زراعة الأزهار، وعن الطقس في "كراكوف"، وعن مباريات كرة القدم...

رن جرس البيت. حافظ الجميع على أماكنهم، تطلعت العمة "روزا" في وجه أمي التي أومأت برأسها ثم ذهبت لتفتح الباب. وقف الجيران من البيوت القريبة خلف الباب. دخلوا واحداً تلو الآخر دون أن ينطقوا بكلمة واحدة، جلسوا بالقرب من أمي. حافظوا على صمتهم. ارتبكوا بداية، ولكنهم قاموا بعد ذلك بإنزال اللوحات المعلقة على الجدران. أخذوا المزهريات، وفتحوا خزانة الصمديات، وسحبوا أدوات الطعام الفضية. لم يقولوا شيئاً.

العمة "روزكا" عادت للكلام من جديد. تحدثت عن زرع الأزهار، وعن الطقس في "كراكوف"، وعن مباراة كرة قدم. تطلعتُ في وجهها، وفي عينيها اللتين اغرورقتا بالدموع – ربما كانت ستنفجر لو أنها لم تبك. صوتها بدأ يرتجف، ولكنها تماسكت وتحكمت به وبمفرداتها.

والجيران، أولئك الجيران الذين تناقشوا معها حول وصفة "الكولاج" أو عن مطر الأمس – كانوا أثناء ذلك يأخذون الأواني من

الفترينة، فناجين البورسلان، والتماثيل الصغيرة كما سحبوا الغطاء المُطرز عن الطاولة... بقي العم "أوسكار" والعمة "روزا" جالسين في أماكنهما يحتسيان الشاي. فجأة توضح لهما كل شيء، لا شيء يستحق الاهتمام لأن ملاك الموت "ملاخ ها- موفس" قد أحكم قبضته عليهما. والجيران هم مجرد أدوات مساعدة.

سمعت من الكرامافون القديم، أغنية "أوسكار" المحببة:

العالم لا يحب الدموع، إنه يسخر منك، ولكنه يُحب ذاك الذي يضحك على الدوام، لذا لا تبك أبداً حتى ولو في القلب لوعة...

منذ ذلك الحين، أشعر برغبة في الإقياء حين أسمعها.

سافرت قبل عدة سنوات في قطار الليل من "كراكوف" . وعلى الرغم من الضجيج وعدم الإحساس بالراحة إلا أنني تمكنت أخيراً من النوم. وقعت فريسة حلم لا نهاية له بالأسود والأبيض، من المفروض أنه لم يستمر سوى لحظات، لأن التحويلة والعوارض الخشبية الموجودة تحت سكة القطار، أو توقف العربة المفاجيء تسبب في إيقاظي السريع. فتحت عيني ورأيت في مجال نظري لوحة مضاءة في عز الليل كتب عليها "أوسفيتين". فقفز قلبي من مكانه.

يا لها من دعابة رائعة، حين ندرك أن الكابينة المجاورة يُشغلها أناس يتسلّون بالألمانية، ويفتعلون ضجيجاً قوياً مزعجاً — ولكنهم يصمتون فجأة وكأن الأرض ابتلعتهم، أو أن الزمن توقف. نعم، يبدو الأمر محزناً، وهم أيضاً اعتقدوا ذلك لأنهم تابعوا بعد ذلك حديثهم، ولكني جعلت أُفكر طوال ما تبقى أمامي من زمن الرحلة بالناس الذين لا يزالون يسكنون هناك حتى اليوم. واضح أنهم لم يجدوا الأسباب التي تبرر انتقالهم بعد الحرب، وواضح أيضاً أن كل شيء أصبح خلفهم. ولكن أليس بوسعهم على الأقل تغيير ذلك الاسم المرعب؟. العيش في مدينة بهذا الاسم مع أني في عام 1999، لم أعرف تخيل ما حدث هناك. في أية لحظة أفتح فيها النافذة سأشعر برائحة الأجساد المحترقة.

فاجأني "بوني" حين قال إنه أمضى ليلته هناك خلال سفره في أوروبا قبل عدة سنوات، نامَ عند صديق، خرجا معاً في المساء وتسليا كثيراً. حين ذكر "أوسفتين" لمعت عيناه. ربما تذكر في تلك اللحظة امرأة جذابه التقاها هناك، لم أعد أذكر.

هل بالإمكان التسلية في مدينة بهذا الاسم؟

تم الترحيل أيضاً باتجاه "لوبلين" و"تربلينكي". القطارات الخاصة توقفت، وغيرها انطلق وطار عبر "بريجاني" التي شكلت عقدة وصل في الليل والنهار باتجاه الشمال.

سمعت في كشك بيع السجائر قبل أعياد الميلاد، سيداً، بشعر أبيض، ومعطف وقبعة. كل ميليمتر في جسده يؤكد أنه مواطن صالح ونشيط في المدينة، يقول إنه كان يتقلب في سريره طوال الليل في نومه بسبب ضجيج حركة القطارات التي لم تتوقف.

"هؤلاء اليهود المقرفون حتى في الليل لا يتركوننا ننام!"

حين رجعت إلى البيت ومعي علبة سجائر "بستريتسي" لوالدي (من المفروض أن يصيبني منها بعض الفائدة إذا لم أكشف ذلك لوالدتي) في جيبي، لمحتهم يرمون من النافذة بعض كتب الديانة اليهودية النادرة من البيت الموجود في الساحة، وهو ملك تاجر الأقمشة السيد "سلبرستين" وابنه.

تبللت الأوراق فترة في الحديقة، ولكن بما أن شتاء عام 1944 كان قاسياً فإن سكان "بريجاني" استخدموها للتدفئة، كما وجدتْ من يستخدمها في حال حدوث نقص في ورق التواليت. صفحات رقيقة تعود لمئات السنين، قيَّمها عالياً الغارديستا "غايدوش" الذي كان يعاني من البواسير.

27

في ذلك الوقت من شهر أيار على شط "سالافا"، وأثناء تناول فخذ الغراب الصغير المشوي على صحن ورقي، وانفلات اللسان بعد جرعات مشروب الـ "فرانكوفكا" الذي حضَّره "ميسلوفتش" الذي خفف لفترة آلام

الرأس المبرحة، تحدث السيد الجنرال، والد "فويتا" الذي تم تجريده من رتبه العسكرية جميعها عن "دونوفالي" الغارقة في كآبة مطر الخريف البارد في نهاية الحرب.

امتلأ "شبورت أوتيل" الذي اعتبر في فترات أخرى مملكة هواة التزلج المرحين حتى الانفجار. شنّ الألمان بقيادة إس إس كروبنفوهرر "هوفل" هجوماً ضخماً ضد الانتفاضة. فهرّب والد فويتا مع زملائه من مطار "تري دوبي" الذي اضطر الثوار لإخلائه بسرعة ثلاث طائرات تجسس إلى الجبال، كان عليها أن تخدم كحلقة اتصال مع مجموعات أنصار آخرين، ومع الروس المتقدمين كما استولوا على شاحنة نفط تحتوي على أربعة آلاف لتر بنزين مخصص للطائرات. كانوا قد حددوا مكان المطار الميداني بالقرب من الفندق أثناء إحدى طلعاتهم الاستكشافية، وبعد ذلك، ذهبوا لتفقد المكان المناسب بالسيارة التي حملت أيضاً من فندق "تري دوبي" راكباً آخر هو "رودولف سلانسكي"[38]. كانت له في تلك الأثناء لحية حمراء، وكان قد وصل للتو من موسكو وعليه ملاقاة "غوستاف هوساك"[39] في "دونفالي".

الجالسون حول النار جميعاً أصغوا بانتباه إلى حديث والد "فويتا".

"كلاهما الآن رهن الاعتقال" تلمظ "ميسلوفتش".

لا يمكن لأحد نسيان ليلة 27 تشرين أول. حيث سُمع في الصباح عند السابعة للمرة الأخيرة صوت إذاعة سلوفاكيا الحرة وانعقد في المساء آخر اجتماع لقيادة المنتفضين المشتركة الذين قمنا بإجلائهم.

سكن الكابتن "فريتخ روشكو" مع زملائه في الغرفة المخصصة للعاملين في الفندق —بعضهم افترش الأسرة وبعضهم الآخر الأرض. طوال

---

[38] رودولف سلانسكي : قائد ثوري وأمين عام الحزب الشيوعي في تشيكوسلوفاكيا. تم إعدامه عام 1952 بعد تلفيق تهمة الخيانة العظمى في الفترة الستالينية.

[39] غوستاف هوساك : ثوري سلوفاكي إبان الانتفاضة وبعد ذلك أمين عام الحزب الشيوعي التشيكوسلوفكي بعد دخول جيوش حلف وارسو إلى البلاد في 1968 ثم رئيس الجمهورية حتى الثورة المخملية.

الليل كانوا يسمعون صياحاً وأصواتاً هائجة آتية من المعبر. زاد الصخب. وبدأ الألمان قبل عدة أيام بالإغارة على "دونوفالي" من الطائرات وقصفها بالمدافع. خاف الجميع من وصول كتيبة إس إس، ووقفوا أمام الخرائط. وبما أن الجنرالين "فيست" و"غوليان" كانا يتحركان بين ضيوف الفندق مع قسم من جيش المنتفضين المنتشرين في القرية، اقتنع الجميع بأن الجبهة مقتربة لا محالة وبدلاً من الألمان سيأتي الروس مباشرة.

من أين جاء في تلك اللحظة العصيبة صوت إنشاد أغنية العذراء ماريا بنصها المُعدل:

ليلة هادئة، ليلة معتمة، جميلة هي. الثائر يقاتل في الجبال. القمر يرفض النوم طوال الليل، إنه يحرس مع الثوار. حين يخرج الثائر من الجبال، يتحرق قلبه للقتال. هيا بنا أيها السلوفاك إلى القتال. أمنا سلوفاكيا تنادينا...

التقى والد "فويتا" بالصدفة في بار الفندق مع الجنرال "فيستا". أخبره أن الطائرات جاهزة لنقل هيئة الأركان إلى أراضي الاتحاد السوفيتي. يمكنهم التحرك في أي وقت . أخبره " فيستا" أنه سيأخذ ذلك بعين الاعتبار، ولكنه لم يعطه جواباً واضحاً.

همس قائلاً إنه تلقى قبل لحظات مكالمة هاتفية من قائد جيوش الاحتلال في "زفولن"، الجنرال "هوفل" الذي طلب توقيع اتفاقية سلام. سكب في جوفه كأس كونياك فرنسي، ورغب في قول شيء آخر، ولكنه تشردق، وجعل يسعل.

"هل تحب فرنسا، أيها الكابتن؟"

"نعم"

"أنا، لا أحبها."

ثم غادر.

بعد الليلة الصاخبة وفي حوالي الرابعة صباحاً، انطلق أركان الانتفاضة إلى الجبال. انتشرت أخبار تتحدث عن حل الجيش، ولكن ذلك بقي في مجال التخمينات لأنه لا أحد في الحقيقة يعرف ما حدث.

هبت بعد فجر 28 تشرين أول عاصفة باردة. تساقط المطر مصحوباً بالثلج. كان من المستحيل التفكير بالطيران. تمكن الكابتن "فويتخ روشكو" مع زملائه بأيديهم المتجمدة من حرق طائرتين باستخدام الكيروسين، الطائرة الثالثة رفضت الاشتعال بسبب المطر الشديد مما اضطرهم إلى ثقبها بطلقات من مسدساتهم كي لا تقع في أيدي الألمان الذين يُتوقع انقضاضهم على "دونفالي" في أي لحظة.

سيطر (شبح) يوم القيامة على الأجواء. ارتفعت ألسنة النار من أماكن عديدة بسبب حرق المخطوطات التي ملأ الدخان المنبعث من احتراقها الهواء الرطب الكثيف بدءاً من كراجات الفندق انتهاء بالمقبرة.

سطا مع طيارين على سيارة. تذكر والد "فويتا"، الذي كان الدهن يسيلُ فوق لحيته، بأنها كانت "أوبل كابيتان 1940" رائعة، كان بوسعهم الاختيار. توقفت أمام الفندق عشرات السيارات الجميلة. اتجهنا بها نحو الجبال عن طريق الغابات إلى أن توقفت. حين غرقت العجلات في الطين. أطلقنا النار على المحرك وتابعنا سيرنا دون أن نعرف إلى أين سنصل لأن أحداً منا لم يتمكن من الحصول على خريطة مقبولة.

سكب له "ميسلوفتش" النبيذ. تابع والد "فويتا" سرد ذكرياته وهو يلوك اللحم. كانت هناك أعداد كبيرة من الخيول الهاربة من القرى. أمسكنا بأحدها، ولكنه رفض حمل حاجياتنا، وغير ذلك رفض الانصياع إلى أوامرنا.

"هل تعرفون طعم لحم الحصان؟"

هز الجميع رؤوسهم.

"له طعم... حلو... قليلاً."

"إنه قاس، ويجب طبخه فترة طويلة."

"ولكن، أين؟! هل جربت المهر الصغير.. ذا العامين، أيها الحمار؟"

لوّح والد"فويتا" بيده وتابع.

تسكعنا عدة أسابيع في الغابة. بداية كنا ثلاثة، وبعد ذلك اثنين، لأن أحد الطيارين أصيب بنوبة هستيرية، ربما من التعب أو من البرد،

تركنا وهرب. كنا ننام في الحظائر والسقائف، ونأكل ما يتكرم علينا به الناس، أو ما نسرقه. أخيراً، خارت قوى الكابتن "روشكو"، وهذا ما جعله يعود سراً إلى "بريجاني".

بعد شهرين من انطلاق الانتفاضة، تمت تصفيتها من قبل الألمان.

توضح بعد الحرب أن الكوماندوس الألمان "أينستاز كوماندو 14" اعتقلوا الجنرال "فيستا" والجنرال "غوليان" في الثالث من تشرين الثاني وكانا في ثيابهما المدنية في جبال "بوكوفتس". بعد عدة أيام من السير المضني، عبر "بولانا" و "براشيفا"، الذي كما يقال، لم يتحمله الجنرال المريض "فيستا"، وشى أحدهم بهما. ربما يكونان قد لقيا حتفهما في أحد معسكرات الاعتقال النازية – أو ربما في أماكن مشابهة في الاتحاد السوفيتي حيث تم إرسالهم إلى هناك من قبل ن. ك.ف.د. التاريخ يمكن أن يكتبه كل إنسان. ويصح منه ما تؤمن به فحسب.

"أعتقد أن الجنرال "فيستا" خاف من الطيران..." تفصّح "موناكو".

بعض ال"كوشر" أيتها الحمامة الصغيرة؟ خذ، لقد بقي منه القليل!"

الألمان – ربما تحت تأثير "ميتامفيتامين" الذي يقال إن الجنود، وعناصر كتائب إس.إس استخدموه بكثرة – أرادوه بمثابة العقاب، بعد نجاحهم في إحراق عدد من القرى ومواقع الاستيطان الجبلية وفي خضم نشوتهم، تسوية المناطق المنتفضة مثل "بانسكا بستريتسي" و"زفولن" و "برزنو" مع الأرض.

فكرة رائعة، ولكنهم اكتفوا في النهاية بنهب بعض السيارات، والمواشي، والهواتف، وقطع التلغراف، والآلات الكتابة، ومجموعة من الأشياء التافهة (طوابع، نقود ولوحات) من البيوت الخاصة المتروكة بوصفها غنائم حرب.

علق الرئيس "تيسو" على التصفية الهمجية للانتفاضة في رسالته الموجهة إلى البابا "بيوف الثاني عشر" في كانون الأول من عام 1944 بالقول "*نوع خاص من اهتمامات الراعي* (نعم، حتى الرعاة يقومون

أحياناً بذبح بعض مواشيهم) وأكد قائلاً إنها كانت مجرد انتفاضة مزعجة نظمها التشيك واليهود.

أراني "فويتا" قبل عدة شهور من وفاته، بعض الملاحظات التي دونها والده في مفكرة الجيب عن عام 1945. وجدها حين كان "يبحبش" بعد الثورة المخملية التي ارتقى بسببها وسقط، في بيت أهله من قلة الشغل والنشاط.

22 كانون الثاني، الاثنين – السفر: بريجاني- ليوبولدوف- بريفتزا – شتوبنا- زفولن – الليل- القطار.

23 كانون الثاني، الثلاثاء- السفر: القطار – زفولن-بانسكا بستريتسي. بالسيارة – بانسكا ب.- بريزنو- تيسوفتس. الليل.

24. كانون الثاني، الأربعاء – انتظار، تيسوفتس

25 كانون الثاني، الخميس – انتظار، تيسوفتس.

28 كانون الثاني، الأحد – تيسوفتس: الثامنة والنصف. أحرق الألمان المدينة، التاسعة والنصف، وصول الجنود الروس، ذهبتُ في الثانية عشرة وخمس عشرة دقيقة إلى هراخوفا، الرابعة بعد الظهر، الوصول إلى هراخوفا وزيارة أختي.

8شباط ، الخميس. بوبراد: التسجيل والنقل.

انضم والد "فويتا" إلى الكتيبة التشيكوسلوفاكية الأولى العاملة تحت قيادة الجيش الأحمر، الجيش الذي كان يقاتل ضده بنشاط في "كوباني" قبل عامين.

28

تشكل معسكر الاعتقال "بريجاني- بهي" على عجل من بعض البيوت الخشبية التي تم تسويرها بالأسلاك الشائكة. قيل إن الموجودين هناك يتحدثون الإنكليزية. نشأ المعسكر بسرعة من هنكارات التموين التابعة لإحدى جمعيات تصنيع النبيذ.

العم "رودو" كان يراه من شرفة منزله حين كان يُمتع ناظريه برؤية أسراب الطيور ذات الأذناب الصفراء التي كانت قبل هجرتها إلى الجنوب، ومن يدري السبب، تتجمع فوق سقوف البيوت المصنوعة من

الصفيح حيث تزقزق وتتجادل، عمي "رودكو" يعتقد أنهم يتمونون بآخر ما تبقى من حرارة شمس الخريف الآيلة إلى الانطفاء.

قبل ذلك كان السنونو، وقبل السنونو كانت طيور "المظلة". غالباً ما كان العم يتنزه بالقرب من أسلاك السور وهو في طريقه من الغابة ليراقب الرجال الذين كانوا يتسكعون في أرجاء المعسكر وهم يدخنون، أو يلعبون كرة القدم. عرف من الجيران أنهم طيارون أمريكان أصيبت طائراتهم في الصيف فوق جنوب سلوفاكيا.

بعضهم، كان أحياناً "يتحرش" به من وراء الأسلاك، ويقدم له سيجارة ثم يسأله عن الأخبار الجديدة. العم "رودو" يتحدث الإنكليزية بشكل مقبول من سفرات عمله، ومن إقاماته العديدة في الغربة. رفض السيجارة، وتحدث عن الجبهة الروسية والفرنسية والإيطالية، هم أخبروه في المقابل عن كليفلاند وبوسطن، وحين قال أحدهم إنه يتحدر من فرنسا الكاليفورنية، سأله عمي بلهفة عن الفراشات المتنقلة، والفراشات الملكات اللاتي يهاجرن في مجموعات من كندا عبر الولايات المتحدة في الشتاء إلى المكسيك، قرأ عنها في المجلة التشيكية *"المصدر العالمي للتسلية والعلوم"* التي أرسلها له صديقه من بورتوريكو.

الأمريكان هنا لم يكونوا في وضع سيء – أحياناً، وتحت مراقبة الحراس، كانوا يسبحون في البحيرة القريبة، ومرة، أحدهم رافقهم إلى حانة النبيذ القريبة. يقال إنهم شربوا هناك كثيراً. كانوا ينتظرون بفارغ الصبر انتهاء الحرب ويمضون الوقت كيفما كان.

بعد ذلك، اندلعت الانتفاضة. تمركزت وحدتان من ال إس إس في "بريجاني". سمع أحد الحراس أن الألمان يعتبرون "تربية" الأمريكان نوعاً "البطر" العقيم إضافة إلى أنه مصدر خطر، لهذا السبب خططوا للتخلص منهم بهدوء في أقرب فرصة سانحة.

في الوقت الذي طار فيه أول سرب من الطيور ذات الذيل الأصفر من سقوف البيوت باتجاه الجنوب، صفرّ الكابتن "ولدو" ذاك من

"فرسنا" على العم "رودو" الذي كان في طريق عودته من غداء الأحد في بيتنا — محملاً بأطيب المشاعر بعد تناوله لحم طائر الدراج المشوي مع النبيذ، كان والدي قد دبّره من مكان ما.

كشف "رودو" عن وجهه الرومانسي المغامر – لأنه، حين أحضر الحراس للطيارين الأمريكان في الليل بزات عسكرية سلوفاكية، وفتحوا لهم البوابة الرئيسة، كان بانتظارهم مع سيارة نقل استعارها دون شرح من "أمبي كربس". "أمبي" يستخدمها في نقل الكلس من المكسر، أراد استرجاعها قبل حلول الصباح. دون سؤال.

نبه الكابتن "ولدو" العم "رودو"، كي يحفظ خط الرجعة، لأنه ربما لن يعود، ولن يحصل على شيء لقاء تلك الخدمة — لوّح العم "رودو" بيده، وفتح الباب بعزيمة كي يُجلسه مع رفاق السفر في مقعد مرافق السائق. الآخرون قفزوا إلى الخلف تحت الشادر محملين ببعض المسدسات والساموبالات الرشاشة.

برر العم "رودو" فعلته المتهورة والصادمة في وقت لاحق بالقول إن حياته أصبحت منذ زمن بعيد مملة وهادئة أكثر من اللازم، وكان بحاجة إلى خوض مغامرة والاندفاع وهو مغلق العينين باتجاه المجهول كي يُجرب لذة حياة الصياد المغامر. صوت ضربات القلب في الحلق، رائحة الدم. *مضاجعة حرب دارية* — بهذا الشكل تحديداً وصف ما أراد قوله، وفي الحال تشردق والدي بقطعة عجين مطبوخة "هالوشكا". استمتع العم "رودو" بهذه المغامرة حتى نهاية حياته.

انطلقوا. كانت ليلة مقمرة، تحركوا دون استخدام الأضواء . الطرقات كأنها (مُكنسة).

أمضوا غالبية الوقت على الطرقات الزراعية كي يتجنبوا المدن والقرى التي كانت مشبوكة على خيط ليلي من اللؤلؤ المعتم.

لوحت لهم مجموعة من حراس الجيش مع اثنين من "الغارديستي" عند تقاطع الطريق مع سكة القطار، ولكن "رودو" الذي كان خيط العرقْ

ينسكب على جبينه، زاد من سرعة المركبة ومر بسرعة بالقرب منهم. انتظر إطلاق نار، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث من خلفهم، وحين اقترح الكابتن "ولدو" فتح زجاجة "سليفوفتسي" كان يحتفظ بها في حقيبة الظهر، هز العم "رودو" رأسه بحماس.

توسع "ولدو" في الكلام وتذكر يوم 26 حزيران المشهود، وهو اليوم الذي تسلم "تيو" شقيق "فويتا" من أبيه موديلاً رائعاً من طائرة "ميسرشميت ب ف 110 إي" المجهزة بمجموعة أسلحة من إنتاج "شراغ موسيل "بمناسبة عيد ميلاده *(قرأت السيدة " ناتاليا" في الأبراج أن الشباب المولودين في هذا الشهر يتصفون بالشجاعة ويسيرون في الطريق الصحيح، وعلى الرغم من أنهم يحبون الانتقام من خصومهم إلا أنهم يعودون بسرعة إلى رشدهم. لا يتذوقون السعادة في حياتهم الزوجية، وينغشون بالفتاة التي يختارونها مما يعكر صفو حياتهم كثيراً.)*

الفوج الثالث عشر من مقاتلات والد "فويتا" لم يعد له وجود في ذلك اليوم، ولكن إحدى المقاتلات السلوفاكية أسقطتْ قبل ذلك في يوم حار وصحو فوق براتيسلافا طائرة "ولدو".

القاذفات الأمريكية، رمت خصلة من الأوراق الفضية اللون التي جعلت تلمع في ضوء الشمس، الهدف خداع الطائرات المعادية — ولكن المدفعية المضادة للطائرات مع ذلك بدأت بالعمل، وحين ظهرت طائرة "ولدو" فوق الغابة، أصيبت في عدة أماكن بقذائف من طائرة "مسرشميت". زميل "ولدو" قفز ولكن الرشاش أصابه وهو يهبط بالمظلة. هوت الطائرة وبقي محركاها يعملان والقذائف تنفجر من حولها. تعطل جهاز الإرسال، ولم يبق من المروحتين الموجودتين في الجهة اليمنى سوى بعض الأشلاء، رآهما "ولدو" من خلال ستارة من الدخان والنار. أدرك أن عليه الاختفاء بسرعة. مد يده باتجاه مسكة كابينة القيادة، وحرر جسمه من حزام الأمان، ثم تلمس بعد ذلك طقم المظلة وقفز. حين هوى نزولاً باتجاه الأرض، أحس بشدة قوية معاكسة سببها انفتاح المظلة مما

خفف من سرعته، هبط بعد ذلك ببطء على مسافة ليست بالبعيدة عن الأرض التي سقطت فيها الطائرة التي جعل يراقبها وهي تتفجر.

حين وصل إلى الأرض، وبينما كان يحرر جسمه من المظلة، توقفت بجانبه سيارة عسكرية، قفز منها رجال يرتدون بزات شاحبة. عناصر الغستابو.

لو حدث ذلك بعد خمسين سنة لهبط فوق تقاطع طريقين تم تسميتهما تخليداً لذكرى شيوعيتين شهيرتين "كلارا زتينوفا، ويوجكا يابوركوفا" في حي "بترجلكا". حين تقدم العم "رودو" في السن، غالباً ما كان يتمشى والخريطة في يده هناك في نهاية السبعينات. يتوقف لحظة في الزاوية، يفكر، ثم يخطو ببطء باتجاه مقهى المجمع السكني وهو يراقب بفرح طيور المظلات.

أحس مرة في منتصف الليل بالقرب من "كوزاروفتسي" بالتعب والإرهاق بعد السّفرة الطويلة والبطيئة. اقترح إلى الكابتن "ولدو" التوقف لبرهة، والنوم عدة دقائق مسنداً رأسه على المقود كي يرتاح.

حين أفاق من النوم، وجد نفسه وحيداً في قمرة القيادة. وجد على المقعد علبة سجائر ناشئة عليها صورة الفراشة الملكية. انتظر "رودو" قليلاً ثم عاد أدراجه إلى "بريجاني".

اكتشف في وقت لاحق أن الأمريكان وصلوا بنجاح إلى الأراضي المُنتفضة، إلى مطار "تري دوبي" الذي أداره لفترة قصيرة الطيار المدعو "فويتخ روشكو" حيث انتقلوا جواً في بداية تشرين الأول من هناك إلى القاعدة الأمريكية الموجودة في مدينة "باري" الإيطالية.

29

عرضوا في صالة سينما "سلوفاك" قبل الفيلم الذي يتحدث عن البارون "مونخهاوسن" ما يسمونه بـ"الجورنال" حيث قام فيه هتلر بتقليد الأوسمة لضباط ورماخت (جيش الدفاع في المانيا النازية). لقد قام والدي في الحال بتشخيصه حين وقعت عينه على يده المرتجفة التي كان الفوهرر يُخفيها دون نجاح دائماً خلف ظهره. شخص *تنادر*

"*باركنسون*"- مثل مرض السيد "ملانك" يا "أداشكو" الذي يمكن أن يحدث بعد الادإفراط في تناول "ميتامفيتامين" المسمى "برفيتين" — لقد قرأ عن ذلك دراسة مستفيضة في مجلة *الطبيب السلوفاكي*. يقال إن عناصر إس إس يستخدمونه بكثرة. كانت لديه العديد من الطلبات لوصفه. *يتسبب في إزالة التعب، ويمنع النوم، يُفرمل الوسائل المسببة للنوم، ونتيجة لذلك تزداد الرغبة في الحركة والكلام والعمل.* إنه يوصل في النهاية إلى الخوف من التسمم التدريجي، والقلق والتهيج.

خرجنا بعد انتهاء الفيلم إلى المدينة المظلمة. أُعلنت منذ آب حالة الطوارئ، وبما أن الجبهة تتقدم ببطء، ولكنها تقترب بالتأكيد، أُجبر الناس على تعتيم نوافذ بيوتهم جميعها.

الشوارع شبه خالية من المارة. لا أحد يملك الأسباب التي تجعله يخرج من البيت. تمشينا — أبي وأمي، بتر، تينا، وأنا. سار أبي في المقدمة فوق الثلج المتساقط حديثاً، وجعل يُضوي لنا الطريق بالبطارية التي تعمل بقوة اليد. حين يضغط عليها براحة يده تصدر صوتاً هادراً. هيج بذلك الكلاب الموجودة خلف الأسوار والجدران التي كنا نمر بمحاذاتها جميعها.

مررنا بالقرب من حاجز ألماني — وقف عدد من الجنود على طرفي الشارع. أحسستُ بالخطر. واضح، أن الدماء تجري في عروقهم، والأدمغة موجودة في رؤوسهم، بعضهم كان قبل قليل في المرحاض والآخر يشكو من ألم في معدته — ومع ذلك... أشعروني بالخوف.

انتفضتُ حين سمعت صوت إطلاق نار. رجل يركض في الشارع ومن خلفه عدد من عناصر الحاجز. أحدهم بقي يتلوى على الرصيف وقد لوّن الدم بزته العسكرية فوق بطنه. تطلع أمامه بعينين جاحظتين وجعل يصرخ. فهرع أبي وقرفص بمحاذاته على الثلج.

شدّتنا والدتي، ولكني مع "بتر" سُحرنا بالمشهد. سمعنا صوت إطلاق نار من بعيد.

"يا إلهي، إلى البيت!" صرخ بنا أبي.

توقفت بجانبه سيارة عسكرية ألمانية مرّت بالصدفة من هناك. ترجلّ منها سيد يرتدي بزة رسمية.

مد يده لوالدي وعرفه على نفسه بوصفه الدكتور "يوهانس أطلس" من إس إس — سانيتاس — أبتيلونغ.

كانت أمي في ذلك الوقت قد سحبتنا بخطوات سريعة باتجاه البيت.

قال والدي أثناء طعام الفطور: الجندي من "وافن —إس إس"، أصيب بالتهاب في البطن "البريطوان"، إنه المرض ذاته الذي أودى بحياة "بوشكين" بعد إصابته بطلق ناري في البطن أثناء النزال. ولكنه سوف يتعافى بالتأكيد.

ولولا تلك الحادثة لكنت بقيت بعيداً عن أجواء الحرب، ولا أملك عنها تصوراً نهائياً. فهمت فحسب أن الإنسان يمكن أن يفقد فيها رأسه أو ساقه، أو فهمه في نهاية الأمر.

أحببت كثيراً نزهات ما قبل المساء في يوم الأحد في المدينة التي ترافقت مع الشراء الخيالي من الفترينات. تعود والدي أخذ أمي التي كانت مع مرور الوقت تقع أكثر في براثن الحزن والكسل حتى إنها في بعض الأوقات لم تقو على الحركة من مكانها، أو النهوض من السرير.

كنا نراقب من خلال الزجاج معروضات مخازن الخياطة — الحرير والثياب النسائية المختلفة. النماذج تعرضها نساء وهميات من البلاستيك، رأينا في العتمة ركناً صغيراً لانتظار الرجال مجهزاً بالصحف والمجلات. كان والدي قبل الحرب يجلس هناك وينتظر والدتي حتى تنتهي من تجربة الثياب.

اختار السيد "ملانك" من مخزن المستوردات الموجود في الساحة استراتيجية جذابة. بداية كانت فترينته تكتظ بالثياب مع أنك لن تجد في المخزن أي نوع من تلك المعروضات، لأن البضاعة تختفي بعد ذلك

وبالتدريج من الفترينة التي يقوم في النهاية بطليها باللون الأبيض ويثبت فيها إعلاناً دعائياً يشير إلى ضرورة تقنين الماء، والكهرباء، والفحم، والغاز.

اللحمةُ الراقية (الحلال) العائدة للسيد "سترن"، استولى عليها العجوز "روزغون"، الغارديستا، والجرمانوفيل (ماهو ألماني). وضع في الفترينة على الفور خريطة توضيحية للاتحاد السوفيتي، أبرز فيها بالدبابيس المجهزة بالأعلام مع الصليب المعقوف الأماكن التي تتقدم فيها الكتائب الألمانية في عمق الأراضي الروسية. حين تغيرت الأوضاع على الجبهة الروسية (فسرته المصادر الرسمية على أنه *انسحاب تكتيكي مخطط له يهدف إلى تصغير الجبهة*) لم يعد يهتم بالأمر، وتوقف عن ذلك نهائياً. حين شعر بضرورة وضع الدبابيس مع الأعلام خارج الخريطة — على صورة فتاة بافارية تبتسم وتحمل سلة من اللحم المقدد.

كان الروس قد وصلوا إلى أبواب وارسو.

30

أحدهم في بداية شباط قبل منتصف الليل راح يقرع بوابة بيتنا بقوة.

فهرع أبي إلى الطابق الأرضي وهيأ نفسه للأسوأ. سُمع من الخارج صوت دوران عاصفة الثلج وبما أن الجميع التزموا بالتعتيم الإجباري، فقد سيطر الظلام على أجواء الشارع.

على الرغم من أن الصورة — بالطبع— توضحت إلا انه من الممكن أن يكونوا ملوك الشرق الثلاثة مع هداياهم وطباشيرهم البيضاء وأغانيهم. وللمزيد من الحيطة، علق والدي السماعة حول رقبته كرمز يشير إلى مهنته التي يمكنها أن تغير خطة المهاجم، وفتحَ الباب.

وقف أمام البوابة ضابط ألماني برفقة جنديين، ومدنيين ."غاشبار" يحمل الذهب للمسيح، و"مليخار" البخور، و"بالتازار" صمغ الراتينج. الملائكة يقفزون من حولهم حاملين نجوماً ورقية.

توضحت الأمور وأخذت أبعادها الحقيقية.

ألقى الضابط التحية، واعتذر للإزعاج الذي تسبب في حدوثه في تلك الساعة المبكرة. تعرف إليه والدي في الحال — إنه الدكتور "يوهانس أطلس" من إس إس – سانيتاس– أبتيلونغ الذي كان يُضمد إصابة البطن. جاء ليطلب شيئاً بسيطاً بناء على نصيحة كاتب العدل "لفندوفسكي". لقد نفذت من عنده مادة المورفين، وهو بحاجة إليه بسرعة لإجراء عملية جراحية. رافقه والدي إلى العيادة التي سحب من خزانة أدويتها عدة أمبولات كما عرض عليه حقن زجاجية، ولكن الطبيب الألماني رفضها. اشتكى من أن غرف العمليات في المشفى باردة، وغير مدفأة بشكل كاف ومن أن أصابعه تتجمد أثناء العملية. سأل والدي عند مغادرته إذا كان بوسعه أخذ رأيه في بعض الحالات. والدي لم يسمعه ولهذا كرر السؤال.

"مبادلة بالمثل" أومأ والدي برأسه.

تصادقا بالتدريج، وعلى الرغم من أن تلك الصداقة استمرت شهراً واحداً — وبالتحديد الزمن الذي تبقى للدكتور "أطلس" لنهاية حياته — إلا أنها اتسمت بالمتعة والغرابة. إذ يعتبر الدكتور "أطلس" جراحاً ماهراً اكتسب خبرته من خلال إقامته سنوات عديدة في المشافي الميدانية حيث تطلب العمل هناك السرعة والدقة. وكان يملك عدة هوايات — حَسَب عدد الأطراف والقضبان التي قام ببترها خلال فترة عمله (سجلها بعناية مع التواريخ في دفتر ملاحظاته الصغير الأحمر) كما جمع الصراصير.

ازدادت وتيرة الاشتباكات فوق "بريجاني" وفي محيطها بين المقاتلات الألمانية والروسية وكان ذلك يوقظني من نومي ويجلعني من شدة خوفي أندس في سرير أخي.

أصوات هدير محركات الطائرات كان يترافق مع أصوات إطلاق المدافع الألمانية.

استيقظ أبي بعد إحدى تلك المناوشات ونهض من سريره بسرعة ليقوم بإسعاف إحدى الحالات. استلقى المصاب الغائب عن الوعي،

مكوراً تحت البطانية في سيارة النقل "أوستروأدميرال" العائدة لـ"أمبي كربس" الذي قام بسحبه بسرعة من خلال البوابة إلى الحديقة. الرجل كان يرتدي سترة طيار روسي، وينزف بشدة من رأسه.

وعلى الرغم من أن الدم غطى وجهه إلا أن أبي تعرف إليه.

أخبر والدي في وقت لاحق أنه انتقل في وقت سابق إلى الجبهة الأوكرانية الثانية لينضم إلى طياري الجيش الخامس ليتمكن من القتال والدفاع عن "بريجاني"، وهذا هو الشيء الوحيد الذي يمكنه تقديمه والذي جعله يشعر بالسعادة- بدا الآن وكأنه سوف يموت بعد وقت قصير.

الرجل الطيار كان والد "فويتا" .

أصيبت أثناء الاشتباك في الجو طائرته "لافوتشكين" من قبل مقاتلة ألمانية "مسرشميت ب ف 110 إي"

الرجال الثلاثة الذين أحضروه، وضعوه بحذر على الطاولة في عيادة والدي الذي أكد بعد فحص قصير على وجود كسر في الجمجمة، وضرورة التدخل الجراحي، وتفريغ الدم المتجمع من النزيف.

بعد تفكير قصير، أيقظ أخي "بتر" وأرسله بسرعة لإحضار الدكتور "أطلس".

بحث عنه "بتر" شبه النائم بداية في إس إس — سانيتاس- أبتيلونغ، وبعد ذلك في المستوصف. وجده في النهاية في غرفته في فندق "زلاتي يلن" أثناء تشريحه لأحد النماذج النامية الغريبة من نوع "بلاتيلا جرمانيكا" (بالسلوفاكية صرصور منزلي). قال الدكتور "أطلس" أثناء ارتدائه لثيابه بشكل عرضي إن سلوفاكيا فردوسه في هذا المجال. شرح له "بتر" ضرورة حضوره السريع، وطلب منه بناء على تعليمات والدي إحضار كمية كبيرة من الملاقط الجراحية.

تمكن والدي أثناء ذلك في البيت من إيقاف النزيف الحاد بشكل مؤقت، وقام بمساعدة والدتي بنزع البزة العسكرية عن المصاب وإلباسه ثياباً مدنية مؤقتة.

وصل الدكتور "أطلس" بعد دقائق قليلة من تمديد المصاب من جديد بحذر على طاولة العيادة بطريقة يمكن معها الوصول إليه من الجهات جميعها. صافح أحدهما الآخر وباشرا العمل.

قاما بتخديره باستنشاق "دي إتيل إتير" الذي كان في خزانة والدي كما حقن الدكتور "أطلس" مادة المورفين في وريد المصاب. لم يسأل عن أي شيء مع أنه حسب الوشم الروسي الموجود على كتف المصاب الأيسر، وحقيقة أن ذلك العمل الليلي لا يتم في المشفى، ولكن في العيادة التي تفتقد إلى مستلزمات العمل الضرورية لإنجاح تلك المعجزة، يمكنه أن يخمن ما وراء الأمر. تصرف بحكمة، و بطريقة لائقة.

وهكذا ومثل متنافسين في المصارعة الرومانية- الإغريقية يختلط عرق أحدهما بالآخر ومن ثم يشعران بقوة ارتباطهما، كان حال والدي مع إس إس —هاوبوتسترومفوهرر الدكتور "أطلس" — في اللحظة التي اختلطت فيها أياديهم مع دم والد "فويتا" —عاشا لحظات شبيهة بأخوة الهنود الحمر.

حكما إن العملية نجحت مبدئياً. فقد تركا المريض المُخدر مع رأسه المُضمّد بالشاش فوق طاولة العمليات المؤقتة، وذهبا ليُدخنا على الشرفة وليتبادلا الحديث عن زوجتيهما.

"زوجتك يهودية؟"

"واس؟"

"زوجتك..."

"ما الذي يجعلك تُخمن ذلك؟" سأله والدي الذي تجمد من السؤال لعلمه أنها بوصفها زوجة إنسان غير يهودي ليست مضطرة لحمل النجمة. ونحن الأولاد كذلك.

"رأيت جداول المنفيين الجديدة". أكد الدكتور "أطلس" بنشافة وهو يحك صدره وكتفه.

أبي لم يقوَ على الكلام. ألقى نظرة على صباح "بريجاني" الموحل. حرقت لفافة التبغ أصبعه، رماها بعصبية فوق العشب.

راقبه الدكتور "أطلس" برهة. "لقد قمت بشطبها، وشطبت معها أسماء أولادك الثلاثة أيضاً. وبالمقابل، هل لديك المزيد من المورفين؟ لمرضاي".

وإلى حين أفاق والدي من صدمة الخبر الذي سمعه، تحدث الدكتور "أطلس" بإسهاب عن برلين التي لم يرها منذ أربع سنوات، وطلب من والدي أن يقوم بزيارته في المرة القادمة في بيته الموجود في ساحة "بوتسدام" مع أنه لا يملك فيه مثل تلك العيادة الراقية.

شربا "سنبس" ألماني فاخر. هنا لاحظ والدي تضيق حدقتي "أطلس" اللتين لم تتوسعا حتى في العتمة، ولاحظ أيضاً كمية كبيرة من وخزات الإبر الموجودة على ساعديه التي كان يغطيها بقميصه – حين خلع القسم العلوي من بزته التي خِيط على كُمها الأيمن رمز أس إس مع ثلاث نجوم ذهبية، إضافة إلى شريطين على الكم الأيسر.

محاسب والدي، السيد "كفابكا" الذي نسيه والدي في زحمة العمل، وجد البزة كما هي في الثامنة صباحاً.

استعاد والد "فويتا" في الليلة التالية وعيه، ولكنه كان ضعيفاً جداً، نقلوه في السر إلى السيدة "ناتاليا". شعر بغثيان ورغبة في الإقياء، ولكنه على قيد الحياة وهذا هو المهم في الأمر. داوم والدي على زيارته وتضميد رأسه لفترة أسبوعين، اندمل الجرح بشكل جيد. وبعد تحرير "بريجاني" تركهم ينقلوه إلى المشفى.

الكابتن "روشكو" لم يعد يتذكر شيئاً عن تلك المرحلة التي انمحت لعدة شهور من ذاكرته وعاد ليتذكرها في صيف 1945.

31

قامت الشرطة مع اقتراب الجبهة بتنظيم مداهمات لبعض البيوت التي تم اختيارها بغرض الاستيلاء على أجهزة الراديو. بهذه الطريقة تم الاستيلاء على جهاز راديو العم "رودو" مما أثار غضبه كثيراً. ادعت الحكومة السلوفاكية *ضعف مناعة السكان حيال الأخبار التي تبثها إذاعتا موسكو ولندن.*

أمر الألمان بنقل السكان من أطراف "بريجاني- ساليني" وجهزوا أنفسهم لمقاتلة الروس. استولوا على أدوية والدي إضافة إلى غيرها من المواد الطبية. حضر لهذا الغرض الدكتور "أطلس" الذي اتفق مع والدي على ما سيأخذه، وعلى ما سيكفُ النظر عنه دون قصد. اهتم من جديد بالمورفين. راقبه والدي بانتباه حين قام بأخذ مقتنياته جميعها من تلك المادة ووضعها في الحقيبة.

كنا نسمع في تلك الأثناء أصوات دوي المدافع. الليل كان يتبدل للحظات في النهار. أضاءت مصابيح ستالين البلدة التي كان بوسع الإنسان القراءة على نورها فيما لو ملك أعصاباً قوية. طائرات الاستكشاف ترمي القنابل المضيئة بالمظلات التي كانت تهبط ببطء وتنير من تحتها الأجواء بألوانها الرائعة المغنيزية الخضراء والبيضاء والزرقاء. تشعر فجأة أنك في عالم آخر يكتظ بالألوان. تقوم بعد ذلك طائرات "أليوشن" بالإغارة على الأهداف.

الروس لم يَغيروا بكثرة على "بريجاني" لأن اهتماماتهم انصبت على مستودعات الذخيرة الألمانية وعلى مواقع الجيش الألماني في "فولوفتس".

الناس المختبئون في الملاجئ والأقبية، كانوا يخرجون أحياناً في الليالي الباردة، ويتهامسون فيما بينهم بأن "الروس وصلوا إلى "نيفدوفا"..!". الكهرباء لا تعمل بسبب انقطاع الأسلاك الناقلة، وكذلك الراديو، باستثناء ما كان منها يعمل على البطارية. المعلومات كانت تنتقل بشكل مضلل ومُحرف.

العمدة، والأب "سافنسكي، وكاتب العدل "لفندوفسكي" والجزار "روزغون" (الذي قام بتنظيف الخريطة الموجودة في مخزنه من الأعلام النازية الصغيرة ومن خطوط الجبهة، وزيادة في الحرص قام بطليها باللون الأحمر، ورسم خربشة تشير إلى المنجل والمطرقة)، وآمر فوج الإطفاء — جميعهم في الثياب الرسمية — جهزوا أنفسهم للترحيب بالجيش الأحمر. وقفوا في الساحة الرئيسة وهم يدخنون بعصبية في حين

كانت السيدة "لفندوفسكا" مع ابنتها تحضران لهم القهوة كل ساعة في الترمس إضافة إلى الفطائر.

بدأت مع إطلالة الصباح طلائع الجيش الروسي بالتوافد دون إحداث ضجيج، كانوا متعبين. وصل بعدهم – الجنود، والخيول، والرشاشات والقبعات التي زينتها النجمة الحمراء. شقر، وحتى منغوليون، غروزنيون (جورجيون)، تركمان، وكازخيون. بعضهم رأيته في لباس إس إس. وجدتهم متشابهين مثل كومبارس مأجور.

عند الصباح، طلب أعيان "بريجاني" مقابلة قائد القوات الروسية — أخبروه أن الجنود الألمان قد غادروا وأن السكان لا يبدون مقاومة. أومأ العقيد برأسه وهمس متعباً: إذا سلَّم الجميع أسلحتهم فلن يحدث مكروه لأحد.

تمت في الأيام التالية دعوة الضباط الروس من قبل عائلات "بريجاني" المشهورة لتناول طعام الغداء والعشاء حتى إنهم قاموا أثناء ذلك بإشعال الشموع التي كانوا يحتفظون بها لمناسبات احتفالية مشابهة كي لا يجلسوا في العتمة سيما وأن تدفق التيار الكهربائي لا يزال معطلاً.

تم إرسال الفتيات من مختلف الأنواع لزيارة الأقارب أو تم إلباسهنّ ثياباً وسخة ورثّة وأخفوهنّ عن العيون. الحذر واجب، لأنه وكما قال أحد القادة: *الاغتصاب هو ميدالية المقاتل الجيد!*

صدحت بعد ذلك الأغاني، وخرجت من مكان ما "السليفوفتسا"، واللحم المُقمع، والدجاج المقلي، وكبد الخنزير مع الملفوف الحامض." الفرانكوفكا" البريجانية من عام 1944 التي كان طعمها ينعش الروح. العرق، الجلد والدم.

بالطريقة ذاتها قبل أشهر كرّموا الضابط "وافن- إس إس وعناصر حرس هلينكا" حين عبروا من هنا لاصطياد الثوار – الصورة الصغيرة للفوهرر في الإطار الذهبي انتهت بسرعة وفي اللحظات الأخيرة داخل المدفأة. أوف!

دخل الجنود الروس إلى بيوت "بريجاني" وعبثوا دون خجل في الخزائن والجوارير. لم يتمددوا كثيراً في بيتنا لأنهم عرفوا أن والدي طبيب

.كانوا يراجعونه للنصيحة وللحصول على الأدوية. جهزوا في الحديقة المجاورة مشفى وبالتحديد تحت شجرة التفاح المُزهرة حيث عالج والدي المصابين هناك. كانوا يطلبونه في الغالب لتدبير الإصابات الخطيرة.

أخذوا في إحدى زياراتهم غير المعلنة من طاولة "بتر" الراديو الذي كان وسيلتنا الوحيدة للاتصال مع العالم الخارجي.

انتبه والدي للأمر بعد مغادرتهم. دور رأسه:

"أولئك الناس يرون للمرة الأولى في حياتهم أوروبا المتقدمة. لا بد أنهم مصدومون. علينا أن نتفهمهم."

أطلقوا في الأمسية نفسها النار على الغزال البلوري الذهبي الموجود فوق مدخل فندق الغزال الذهبي. ثم شلحوا بعد ذلك زوار مطعم الفندق العاديين ساعاتهم وعدلوا توقيتها ليتناسب مع توقيت موسكو زائد ساعتين.

عُلقت في كل زاوية تعليمات وإعلانات روسية.

بداية، رفضوا السماح لي ولـ" فويتا" بالخروج من البيت ولكننا تمكنا بعد ذلك من الوصول إلى "سالافا".

لمحنا أثناء اصطياد السمك بين النباتات المائية الطويلة جسماً كبيراً أبيض اللون. اقتربنا بحذر. حين أبعدتُ السيقان جانباً قفز قلبي من مكانه. تمددت هناك امرأة عارية ميته التقطتها الأعشاب القريبة من الشط. موثقة اليدين إلى الخلف، بضع طلقات في صدرها.

أول امرأة عارية أراها في حياتي! حتى "فويتا" لم يشاهد من قبل. تمزق ثديها الأيسر من طلقة ولكن الأيمن بدا جميلاً، ممتلئاً زينته في وسطه حلمة زرقاء. غطى الشعر "إرب" حورية الماء مما جعلني أستغرب لأن "تينا" الصغيرة كان ينقصها ذلك في ذلك المكان."فويتا" لا أخت له، ولهذا فإن ذلك شكل عنده اكتشافاً جديداً.

"ماذا سنفعل بها...؟"

"كيف – ماذا نفعل بها؟! إنها ميتة، لا يمكننا مساعدتها. سوف تكون أحد أسرارنا."

للتأكد، رميت قطعة نقدية (طُرة، ونقش).

الرمز أكد ضرورة السرية.

أمضينا الأسبوع ونحن نزورها. درسنا بدقة شفتيها، بشرة ساقيها وبطنها، ثديين متصلبين – مكورين، مثيرين. نحى "فويتا" في إحدى اللحظات الوبر الموجود بين فخذيها، ودرس بفرح الشق الذي يؤدي إلى عمق جسمها. دس إصبعيه في الثقب. اكتشف لعدة ثوان، شيئاً سرياً وردياً بدا رقيقاً ومستغرباً، ولكنه تركه في الحال وصرخ لأن حشرة سوداء كبيرة خرجت من هناك، ربما اختارت هذا المكان كمخبأ للهجوم. ارتعبنا حتى الموت.

اكتشفنا فجأة أن لحظات استمتاعنا مع المرأة العارية شارفت على نهايتها. الدم الموجود على صدرها بدأ يتحلل كما انتفخ جسمها.

أخبرت والدي عنها.

أردت مع "فويتا" رؤية الطريقة التي سيخرجون بها حبيبتنا من الماء، ولكنهم طردونا في اللحظة التي اقتربنا فيها.

رأيت عن بعد كيف التهمها السمك من ظهرها.

امتدح الصيادون في تلك السنة غزارة السمك. المرعى كان مناسباً لسمك الكراكي والسلور اللذين تغذيا من لحم البشر.

يوجد في الغابة تحت "فولوفتس" مكان اهترأت فيه سيارة ألمانية عسكرية كوبلواجن 82 منذ زمن قريب. الأولاد كانوا يلعبون هناك لعبة الجنود وبعضهم كان يُسطِّر القطع التي كانت تسقط منه بالتدريج بالقرب من الصليب الخشبي الصغير.

لم يبق منها اليوم سوى بعض الصفيح وما تبقى من العجلات المهترئة المرمية في العشب – إضافة إلى اللوحة التي لا يُذكر مظهرها بما حدث هنا، ولا بأية سنة.

الحقيقة تؤكد، وصول طبيب عسكري ألماني بسيارته إلى هذا المكان قبل احتلال "بريجاني" من قبل الروس حيث أقدم هنا على الانتحار. الطبيب هو الدكتور "يوهانس أطلس". أنهى حياته بطلقة.

بالتأكيد، قام بفعلته تلك في مكان رائع تحيط به أشجار البلوط ذات الثلاثمئة عام، وأشجار القيقب القديمة وتنعشه رائحة رطوبة الأرض. الطلقة التي اتجهت من داخل الفم في زاوية حادة إلى الأعلى، سُمع صداها من مسافات بعيدة.

كشف عليه والدي الذي أخبرنا أنه حين طلبَ قلبه على ظهره، سقطت من جيوبه أمبولات المورفين بالعشرات.

اللوحة تؤكد أنه فعل ذلك *عند رؤيته الحالة المزرية التي وصل إليها الجيش الألماني أثناء انسحابه أمام الجيش السوفيتي* إضافة إلى الشعور بالذنب. لا أُصدق وجود شيء يمكن تسميته الموت البطولي المشرف. بالتأكيد لا يوجد. فالرثاء مناسب للأحياء الذين يفتقدون الخيال فحسب.

ما هو المشرف في قطع الدماغ الموجودة على الزجاج الخلفي؟

"آدم...! آدم...!" سمعت صوتاً آتياً من نافذة القبو يناديني متضرعاً في شارع "هتلر"، وفي وقت لاحق شارع "مساريك".

اقتربت من النافذة لأرى أمامي وجهاً مُغطى بالغبار. استغرقني لحظةً لأتعرف إلى عنصر إس إس الطويل الذي شاركته قبل نصف سنة غناء "ويلي روسن" في محل حلويات "بوشكار". أعتقد أن اسمه "هورست".

كان لا يزال يلبس بزته السوداء التي خلع عنها كل ما يشير إلى انتمائه لمجموعة إس إس، ولكن ذلك لم يساعده في شيء. مد يده التي أمسكت بسلسال ذهبي عُلقت في نهايته صورة المسيح، وطلب مني إحضار ثياب والدي مقابل ذلك. كان لطفاً منه أنه تذكر اسمي.

تظاهرت أني لا أسمعه وتابعت طريقي.

"أدم! آدم! صبي طيب...!" اقترب صوته من الصراخ.

"أبر إيخ بين جود" قلت له وأنا أتلفت.

"أدم!"

أسدلتُ بنطالي وأريته مؤخرتي العارية.

أخذوا "بتر" إلى الكروم الموجودة تحت "فولوفتس" ليساعد في البحث عن الأموات.

الروس تم وضعهم في التوابيت ونقلهم بالسيارات. والألمان، توجب دفنهم في مكانهم بعد تجريدهم من الأشياء الثمينة، وتحديد هوياتهم، ووضعهم في الأكياس الورقية المشمعة، والتوقيع مع شاهد ووضع الختم. لم يبق من بعضهم الشيء الكثير، كما قيل، تفحموا مثل "براتورست"[40] نتيجة احتراقهم بكوكتيل مولوتوف.

اختفت من حياتي في تلك الأوقات أوما[41] "ماريا"، والدة أبي، بطريقة لا يمكنني فيها تحديد تاريخ موتها. لقد ضمرت بالتدريج وتبخرت — اختفت بكل بساطة في أحد الأيام. بقيت مثل خيال شفاف بعينين غير مرئيتين. كان بوسعي أن أمد يدي إليها من خلال ذاكرتي لو أردت. بتلك الطريقة تحديداً أتذكر بعض الناس. يختفون بسرعة من الذاكرة.

32

اعترف لي والدي بعد سنوات عديدة من الحرب، أنه غالباً ما كان يُفكر في تلك الأوقات بالجيران أو المعارف، أو بسكان الجوار الذين أرادوا التخلص منه لو تمكنوا.

منْ يُمكنه من هؤلاء الذين عرفهم وبادلهم التحية في الطريق، والتقاهم وهو في طريقه من المخزن أن يهجم عليه في خط مستقيم، والمسدس في يده، ويطلق عليه النار. هكذا فحسب من أجل ذلك الشعور.

جاء أول أيار بعد التحرير. قام الجنود السوفييت بتحضير احتفال رسمي كبير في الساحة بمناسبة عيد العمال — كان هناك بشكل عام ما يمكن الاحتفال به. أقله هو أنك على قيد الحياة.

جلس الضباط الروس في بزاتهم العسكرية ومعهم العمدة الجديد المؤقت جنباً إلى جنب مع رؤساء الدوائر المؤقتين أيضاً فوق منصة

---

[40] براتورست: النقانق

[41] أوما: الجدة

الاحتفال الخشبية. حين أوشكت الفرقة الموسيقية على البدء في عزف الأغنية العسكرية الاحتفالية، لم ينتبه أحد إلى الشخصية الفارهة الطول الموقرة في ثياب الكهنوت التي هرعت وقد وضعت وقارها جانباً من بوابة مدرستنا وهي تؤشر بيديها بطريقة متوحشة.

الذي كان يركض هو أبانا الموقر "سافتسكي"، مؤلف الكتب الرومانسية عن "بريجاني" التي اعتمد فيها على مجموعة الأحداث التاريخية القديمة المفبركة التي يبدو أنه درسها بشكل سطحي، وكان منحازاً إليها كما سنشاهد في سياق الأحداث التالية. ركض باتجاه درجات المنصة. تعربش عليها وتوجه بعد ذلك مباشرة إلى الصفوف الأمامية، دفع عقيدين سوفيتيين، واندس بينهما على المقعد. وجلس في الصف الأول، تماماً كما تعود، حيث مكانه في تلك البلدة. بدأت الفرقة بالعزف.

"أنا سافتسكي...!" مدَّ يده لأحد الجنرالين، "سافتسكي...!" انحنى باتجاه الثاني.

مسكين، لقد منحته البلدة قبل شهر وسام الاستحقاق — ويبدو الآن أنهم نسوا ببساطة دعوته في تلك العُجالة الحاصلة حول *الاستقلال*. لهذا السبب حضر دون دعوة لينقذ شرف القائمين على الاحتفال. وهل يمكن لهذه الحفلة أن تبدأ دون مشاركته!

لم يفهم السبب الذي جعل جنديين يمسكان به بقوة في الحال ويسحبانه من المنصة إلى الأسفل حيث كان عليه في أجواء مشحونة بالغبار أن يتابع العرض العسكري دون أن يفهم شيئاً عن الورود المنثورة والقهقهة الحاصلة.

توقفت دعوته إلى صالون السيدة "ناتاليا" أيضاً. هل فقد ساعي البريد الدعوة أو ماذا؟

عبر الروس "بريجاني" مرة أخرى وهم في طريق عودتهم من برلين المحررة إلى بلادهم.

استغرق عبورهم على الخيول وسيارات النقل برفقة الأغاني والفودكا عدة أيام. أحياناً كانوا ينهبون أحد البيوت أو إحدى الحدائق.

"آخر لمسة أوروبية!" — أكد والدي بجفاء وهو يُضمِّد أحد الجنود المصابين بحرق في الساعد ويغطيه بمرهم "بور–ادرينالين".

33

بقيت أجواء الحرب ملتصقة في الأجواء مثل العلكة الأمريكية.

من خلال ما سمعت، ومن الملاحظات واللقاءات العديدة التي أجريتها، تمكنت من جمع قصة يصعب نسيانها.

شهدت الليلة الأخيرة من أيار في حانة "بريجاني" المسماة "أو زلني ستروم" (عند الشجرة الخضراء) أجواء من السعادة والثمالة لأن الجميع كانوا لا يزالون يشربون نخب النصر. ضارب الطبل المحلي الذي كان الجميع يدعونه لسبب ما بـ"بابير" (ورقة) طلب من الجميع وهو في أوج سكره أن يذهبوا لمشاهدة منظر الألمان في "بهوف". جمعوا هناك غالبية أصحاب كروم "بريجاني" ومن القرى المجاورة حيث تم توقيفهم بشكل مؤقت مع الشرائط البيضاء على أكمامهم في أبنية معسكر الاعتقال الذي كان قبل نصف سنة معسكراً لسكن أمريكان "ولدو". أصدر الرئيس "بنش" مرسوماً قبل وقت، أكد فيه *أن الألمان يعتبرون أشخاصاً غير مرغوب فيهم*. كما تخضع ممتلكاتهم إلى إدارة الدولة.

الزبائن المداومون أشادوا بهذا القرار.

تعود "بابير" العزف مع فرقة "بريجاني" الموسيقية على الطبل، إذ تتم دعوته من قبل الفلاحين برغبة كبيرة إلى الأعراس كي يقوم بتسلية الحاضرين بنكاته وحركاته ولا سيما حين ينخفض مستوى مزاجهم. كان ربعُ دمه ألمانياً ورثه عن جدته. وقد ازداد نشاطه في أسابيع الاحتفالات بعد الحرب. لبس قميص شباب أحمر زينته نجمة خماسية، وقاد كتيبة حراس الثورة في "بريجاني" التي عملت تحت مظلة الإدارة المحلية الشيوعية و "ن ك ف د" وظيفتها اعتقال الألمان المحليين. اعتقلوا بداية بالطبع ملاكي الكروم الكبيرة حيث قاموا بتصنيفهم وتوزيعهم. كما كسروا نوافذ بيوتهم وحملوا معهم ما تيسر لهم.

وصلت المجموعة في مزاج رائع إلى معسكر "بهي" حيث كان الألمان بانتظار ترحيلهم إلى معسكرات الاعتقال. السيدة "كورنيسلوفا" التي أحضرت لزوجها ولولدها قصعة شوربة، أرسلوها في البوابة إلى البيت بحجة أنهم سوف يوصلون الطعام بأنفسهم.

اندفعوا نحو المبنى الذي يسكنه الألمان وعطّلوا عليهم عشاءهم. اقتادوا خمسة منهم وفوهات مسدساتهم مصوبة إلى رؤوسهم إلى الخارج. أمروهم بحمل المعاول، والمجارف ووضعها في مقطورة التراكتور. ثم تم نقلها بعد ذلك إلى أحد المروج القريبة من جدول النهر الموجود على بعد كيلوميتر من "ساليني" كي لا يُسمع صراخهم في "بريجاني". وزعوا أدوات الحفر على الألمان، وكان على كل منهم تجهيز حفرة بعمق متر وطول مترين.

وعما جرى بعد ذلك، أخبرني مباشرة أحد المشاركين. حين وصل إلى حالة من السكر الشديد تدفق منه الكلام مثلما يتدفق الماء بعد فتح الجدول المسدود.

حفر الألمان جورهم. الشباب بقيادة "بابير" حملوا المعاول والمجارف وجعلوا يضربونهم. أحد أصدقائه أصيب بالدهشة، أرادا الهرب، ولكن "بابير" أمرهم بالبقاء ومتابعة ما سيحدث. فارق الألمان بعد ذلك الحياة. المدرس، ومزارعان، وإقطاعيٍ محلي من "نفدوفا". الخامس اسمه "أمبي كربس". الانتقاء كان عشوائياً كما جرت العادة في تلك الأيام. اعتبرتهم منذ ذلك اليوم دوائر الشرطة في عداد المفقودين.

وكما أبلغني "ش" الذي ذهب في اليوم التالي إلى المرج الموجود خلف "بريجاني" المسمى حتى اليوم بـ "أو بابير"، حيث رأى بأم عينه أن الشباب لم يكن لديهم الوقت حتى لطمر الجثث – هنا ظهرت يد، وهناك ركبة. أحدهم تباهى في الحانة قائلاً إنه بضربة واحدة من مجرفته قطع رأس الإقطاعي. لقد تم الاستيلاء على مزرعة ذلك الرجل الموجودة في "نفدوفا" في الخمسينات حين أعلنوه من "الكولاك". والمرسوم التالي لـ بنش المتعلق بالجرائم المرتكبة ضد الألمان جعله يستفيد من العفو.

لم يعد أحد يتذكر أي شيء باستثناء العجوز السكير "بنو"، سائق التركتور من الوحدة الفلاحية في "بريجاني" الذي أكد لي مرة أنه حين قام في بداية السبعينات بفلاحة الأرض في "ساليني"، خرجت العظام من الأرض. يقال إنه منذ ذلك الوقت لم يقم أحد *بزراعة* شيء في المرج المسمى "أو بابير". حصل بعد الحرب شُح في كل شيء.

رأيت مرة في زاوية مقبرة "بريجاني" رجلاً مبتور اليد.

وقف صامتاً.

اليد تستلقي تحت الصليب الذي حُفر عليه اسمه. برزت في الطين الطري عظام يد إنسان بعد أن عرتها الحشرات. الأوتار والعضلات متفسخة.

ربما كان يُفكر أن بوسعه الحصول على عدد من القبور ومع ذلك لن يكون مدفوناً في أحدها – قبر لليد الثانية، وقبر لساقه الأيمن، وآخر لساقه اليسرى، قبر لكل إصبع على حده ... ربما يكون ذلك القبر الذي دفن فيه الرأس أصلياً، من يدري. هل يمكن العيش دون رأس؟ أو دون قلب؟ نعم، على القلب بالتأكيد أن يتمدد في مكان آخر.

صوت ضعيف يهمس في أذني: *الحرب لعبة الصبية الكبار. ولها شكل الطاحون الذي يفرم اللحم.*

ولكني كنت قد غفوت قليلاً، من واجبي أن أعترف.

ربما السبب هو ذلك "الكوكتيل الذي أتناوله قبل النوم. الوجوه والأصابع في أحلام مزعجة مُخدرة، أستيقظ وهذا ما أدركه وأعود من جديد لأغرق في نشوة الحلم.

الفصل الثاني

المُعلم (الفنان)ليونارد

1

من مجموعة دراسات والدي التي وجدتها البارحة بعد سنوات في السقيفة، كنت أحب التطلع دائماً إلى لوحة "غويا" الجدارية من "المجموعة السوداء" التي أطلق عليها مؤرخو الفن اسم "*المايسترو ليونارد*". لأن "غويا" لم يُسمها، ولم يترك أي "مفتاح" يشير إلى فهمها، حتى إنه لم يُوقع اسمه في أسفلها. وإنما تركها على الجدار في غرفته الموجودة قبالة المدخل الرئيس فحسب.

اللوحة تظهر "تَيساً" أسود كبيراً، يُمثل الشيطان، حسب الأعراف، يترأس اجتماعاً لمجموعة نساء يرتدين ثياباً ملونة. تفحّصتُ اللوحة على الطبيعة في متحف "براد" في مدريد أثناء رحلتنا المجنونة مع "بوني" ومعنا رماد والدي في الحقيبة. أتذكر أني انبهرتُ من ضخامة اللوحة — 140x438 سنتمتر التي تم إنقاذها وإحضارها في نهاية القرن التاسع عشر.

حين درست الشخوص الموجودة في اللوحة، تخيلت فجأة أني ميزت في طيات لباس الشيطان في الظل والنور وجهاً غير واضح المعالم لأحدهم. إضافة إلى ذلك — رأيت في الخلفية، في الغرفة التي خُددت نوافذها أحدهم يتلوى من الألم. ولكن تلك الرؤيا اختفت حين تفحصت اللوحة بدقة.

انحنى "كوستود" بتعابيره الصارمة باتجاهي وطلب مني أن أتراجع، كما خشخش لي بأسلوب مسرحي مدرسي قائلاً إن "غويا" رسم تلك اللوحات الأربعة عشرة على الجدار في "كنتا دل سوردو"، وهذا يعني في بيت الأصم القريب من مدريد حين نجا وكان في الثانية والسبعين من عمره من مرضين خطيرين، الفوضى، والعنف الوحشي وحرب نابليون. أحس بالكآبة والقلق. كان يصحو على كوابيس. عاش في بيته مع صبية رائعة الحسن والجمال "ليوكاديا ويس" التي حاول تعليمها الرسم ولكنه فشل في مسعاه.

أفقت من نومي محملاً بتلك الأفكار في صباح خريفي رائع، كنت لا أزال متأثراً بالأدوية ومستلقياً أتمتع بدفء لحاف الريش. حين أرفع رأسي وأتطلع من خلال النافذة، أرى ضوءاً خفيفاً برتقالياً تنشره شمس الخريف. لقد انتهت أصوات المساء، أسمعُ همساً خفيفاً آتياً من الشارع إضافة إلى صوت ساعتي الموجودة على الكومودينة الصغيرة.

كل ساعة في هذا البيت تشير إلى وقت مختلف — تقول أحياناً أمي. حاولتْ إصلاحها وجعلها متوافقة، ولكن حين لم يولها أحد منا عناية تُذكر، بقيت على حالها. في أحيان أخرى، كانت تعمل وحدها دون تفسير، وكأنها تلقت أمراً خفياً. "أظن أن السبب يكمن في ذلك البيت..." — علق والدي. يمكن أن يكون ذلك بسبب الزمن ذاته الذي لم يكن ثابتاً هنا في يوم من الأيام، يقفز كما يريد، تارة إلى الأمام وحيناً إلى الوراء. لدينا ما يكفي من الساعات الكبيرة والصغيرة.

إلى أن جاء ذلك اليوم الذي تقدمت فيه الجبهة. قام الجنود الروس بتفتيش البيوت. بحثوا في الجوارير وبين البياضات عن *الألمان*. اثنان منهم جاءا إلى منزلنا، كنا أثناء ذلك نتناول طعام الغداء. أحدهما بعينين مائلتين والآخر طويل بشعر فاتح ووجه نخره الجدري. يرتديان ثياب جنود خضراء ويعتمران قبعتين تعلوهما نجمتان. النجوم كانت في القرن الثامن عشر موضة — الآن فحسب جاءت موضة النجوم الخماسية.

"هيا ...دافاي تشاسي (هات الساعة)!"

طلبوا الساعات كي يقدموها للمارشال "مالينكوفسكي" بمناسبة عيد ميلاده. ذاك، كان عليه حملها معه في كل مكان. خطر ببالي أن المارشال "مالينوفسكي" يمكن أن يكون أكبر ساعاتي في العالم. والاتحاد السوفيتي هو بلد يوجد فيه من الوقت ما تعجز تلك الساعات جميعها عن قياسه.

بطيب خاطر، سلّمتهما ساعتي التي لا تعمل. تصنع والدي الصرامة، ولكنه لم يتمكن من فعل شيء حين اصطادا من جيبه ساعة الـ"رولكس" المعلقة بسلسال وهما يضحكان. قاما بعد ذلك بإنزال ساعة الحائط واكتفيا. ألقيا التحية وغادرا.

توقف الزمن لحظة في تلك الأثناء في بيتنا، ولكنه انطلق بعد ذلك من جديد.

والآن دعونا جميعاً نتنفس بعمق!

توقف تأثير الجاذبية الأرضية علينا...

الشوارع في "بريجاني" شبه مقفرة، يمكنك أن تسرح وتمرح فيها من طرف لآخر، من مصابيح الشارع بداية وحتى نهايات السطوح. يُسمعُ من مكان ما صوت المذياع – إذاعة براتيسلافا تُطمئن الناس، تتحدث عن الانتصار النهائي الآتي لهتلر، يمكن القول إنه أصبح هنا.

كومة من المطبوعات تحترق في فناء البلدية.

ولكننا نرى كيف يقوم السيد "الغروف" في إحدى غرف القصر بجمع المجوهرات ووضعها في حقيبة صغيرة. يرفع رأسه برهة – إنه يرى دخاناً كثيفاً يتصاعد من النافذة الكبيرة الموجودة خلف بوابة الحديقة. الجبهة تقترب. تتساقط من السقف أثناء الارتجاج قطع من الطينة، بعضها يسقط، ويقلب الكأس. قطعة منها تسقط في كأس النبيذ الذي يشربه بالخطأ من شدة قلقه وعصبيته، فيهتز قرفاً.

من الجهة الثانية، في الجناح المعاكس للقصر، يدخُلُ الناس مباشرة في تلك اللحظة من خلال النافذة، ويهجمون على كل شيء يمكنهم

حمله. يتحول خشب أثاث غرفة الجلوس الأسود "المهاجوني"، والمكتبة إلى رماد داخل أفران السيراميك "مايوليك" الرائعة والمواقد الجدارية الكبيرة - الجنود السوفييت سيبردون. الربيع يدق أبواب "بريجاني" ببطء ومن لديه الوقت الآن لتأمين خشب التدفئة؟

يوجد بالقرب من القصر مطار عسكري صغير يدعى "لهوتا" - تقف على مدرجه طائرة يقودها طيار ألماني. الغروف يصعد، والطائرة تنطلق.

بعد ساعات يُنهب القصر - المرايا، الصندوق، والخزانة المحفورة، كل شيء لم يتمكن "الغروف" من حمله معه يختفي باتجاه البلدة.

بعد ساعات، تقوم الدبابات بحفر الحديقة بحيث لا يبقى من أشجار البلاتان، والبلوط المُعمرة سوى خيالات مشلولة. ويتحول القصر بعد ذلك إلى سكن لهيئة أركان الجيش الأحمر. الصقيع يزحف من وراء الأظافر، والبخار يتصاعد من الأفواه. الفؤوس يجدونها بالقرب من البيوت الزجاجية. إنهم سعداء. الفودكا تُشرب باردة في العادة، ولكن طعمها ألذ في الغرف الدافئة.

جلستُ مع "فويتا" على حائط السور حيث راقبنا كل شيء كما لو كنا في دار للسينما لأنه في تلك الأوقات غير الطبيعية لا شيء يمكنه أن يكون طبيعياً. حتى الحقيقة ذاتها لم تكن حقيقة.

"انظر إلى هناك!" مَدّ "فويتا" يده باتجاه نافذة ملونة مشرعة (أو كما يسمونها نافذة مزخرفة بدون زجاج؟)، تمدد تحتها شيء كبير.

منظار رائع لمراقبة النجوم مثبت على ثلاث قوائم مع مستلزماته جميعها. كان أطول من أي منا. لم يتمكن أحد من حمله. فأخفيناه بين الشجيرات - وحين حل الظلام - نقلناه على العربة الصغيرة ذات العجلتين إلى منزلنا.

نقلنا معنا أيضاً آلة كتابة الكونت رمنغتون- وبعد ذلك قطعتي زجاج "أونكس" تعثر بهما "فويتا" مما تسبب في انزلاقهما تحت الدولاب، لابد أنهما لأقراط الكونتيسة. بحث عنهما قليلاً، ولكنه اصطادهما في النهاية، وحين تطلعنا عليهما، وعلى بريق سطحيهما الأسود الذي ارتسمت عليه

صورة وجهينا، اتفقنا على أن يأخذ كل منا قطعة. وإذا أراد أحدنا ترك الثاني فسوف يدس له قطعته في كفه. دون كلام.

هذا لا يمكن أن يحدث. لقد اتفقنا على صداقة رومانسية أبدية في الحياة والموت.

سافر الكونت كثيراً في حياته، وجلب معه أشياء كثيرة إلى البيت. انتصب في البارك الواسع تمثال بوذا وبجانبه "باغودا"* [42] تايواني أصيل. وهو بالتحديد المكان الذي جلس فيه الرئيس المُشوَّش حين حضر بناء على دعوة من رئيس منظمة الحزب الرفيق "كومينار" أثناء زيارته الرسمية إلى "بريجاني". أحس بالراحة حين اكتشف أنهم لا ينوون حلق رأسه، وإلباسه الساري البرتقالي، بل جهزوا له على العكس من ذلك في الداخل باراً يسيل منه النبيذ.

كان جد الكونت يملكُ كروماً واسعة تحت "فولوفتس" ابتلعتها المجمعات السكنية القذرة التابعة لـ"بريجاني" فيما بعد. كان يُصدر النبيذ الشهير "شاتو دي سالافا" إلى "براتيسلافا"، وفيينا، وبودابست كما شيد مركزاً "شالمونياً"* [43] يصعب معرفة ما بداخله لعمله في أطراف المدينة وبالتحديد على بعد خمسة أمتار خارج نطاق عمل مصلحة الضرائب، كان يدفع الحد الأدنى. بدا الأمر وكأنه أبدي، ولكنه تلقى بعد الحرب ضربات قوية موجعة. أقرض الكونت الناس بشكل عشوائي، ولكنهم لم يعترفوا له بالديون بعد تبديل العملة. كما وجدوا العديد من دفاتر التوفير في القصر وقد دُونت عليها أرقام خيالية تنتهي غالبتها بستة أصفار، وهي الآن مجرد قصاصات ورق ذات قيمة تاريخية فحسب. قام الرئيس والمحرر "ت ج. م"* [44] بنقل حدود مصلحة الضرائب بسبب زيادة عدد سكان "بريجاني" إلى الحقول وإلى أطراف المدينة.

---

[42] باغودا: سقف مائل تايواني من القرميد

[43] شالمونياً، نسبة إلى الملك شالمون اليهودي

[44] ت.ج.م هو الرئيس مساريك

في تلك السنة تحديداً، ركضت ابنة الكونت "أغنس" الجميلة ذات السادسة عشر ربيعاً في يوم خريفي بارد ونزلت على الدرج الدائري الحجري باتجاه البوابة، وكانت قبل قليل قد غسلت شعرها، ولم تجففه بشكل جيد – تعرضت لتيار هواء بارد ومن ثم أصيبت بالإنفلونزا الإسبانية التي أوصلتها إلى الشلل الذي منعها من الحركة، كما فقدت "أغنس" صوتها وإمكان نطق الأحرف والتواصل -- لهذا أمضت ما تبقى من عمرها وهي تصرخ وتتألم. تتألم و تصرخ. فماتت في زمن الحرب العالمية الثانية وكانت في الأربعين.

وكي يتمكن الكونت من إعالة عائلته المؤلفة من تسعة أشخاص، باع بقروش معدودات بعض مقتنيات العائلة – جواهر نادرة، آثار مقدسة، حتى إنه عرض وكان في حالة من اليأس الشديد أثاث عائلة "أرماليس" على المتحف.

غادر بعد ذلك مع طاقم طائرة ألمان من مطار "لهوتا" العسكري واختفى في العالم. وبوصفه مجرياً كانت مُبرراته أكثر.

زجاجة نبيذ "شاتو سالافا" من عام 1918 ومن كروم لم يبق لها أثر، شربها والدي في إحدى المرات عند مريضه المزمن في البيت الذي شُيد في المكان ذاته الذي كان ينمو فيه العنب، وكل ذلك لأنه أنقذه من مرض التيفوئيد.

اليوم ينتصب هناك مركز "فولوفتس" اللوجستي الكبير البارد، الصرح الفضائي بكميوناته الطويلة الملتصقة ببواباته الموجودة على كامل مساحته.

ونحلق من جديد...

يُسخِّن الأطفال على القسم المسطح من لثم الدبابات كونسروة الفاصولياء "أون روا"* [45]. كأنها خلقت حفراً وتنزيلاً لهذا الغرض. ينتشرون للبحث عن الحطب، باستثناء الكسول "البدين" الصغير – الذي يُفضل الجلوس ومراقبة النار كي لا تنطفئ. أذهبُ إلى الدغل، فينفجر اللغم ويمزق له ساقيه.

---

[45] UNRRA: مساعدات من منظمة الأمم المتحدة

شلةٌ من اليهود الذين عادوا بشراطيطهم المهترئة من المعسكرات يتمشون في الشارع. الناس يتجنبون الوجوه النحيلة، ويفضلون السير في الطرف الآخر من الطريق.

الأب "سافتسكي"، يندفع إلى المشفى برفقة بعض الأطفال الذين يحملون باقات الزهور — يبحث بحرارة عن أي بطل مصاب. يُنشد أثناء ذلك أغنيات ثورية جديدة.

صوت مزعج غير مُؤهل ينطلق من مُكبرات الصوت:

"أيها المواطنون.. قرار صادر عن اللجنة الوطنية المحلية و الحرس الوطني: إعادة قطع الأثاث جميعها، وغيرها من الأشياء الثمينة التي اختفت من القصر، ومن الأبنية التابعة له أثناء النهب الحاصل قبل وصول الجيش الأحمر!". المخالفة تُعرض صاحبها لعقوبة الموت.

وكل شيء يعود كما في فيلم يدور إلى الخلف، ويمكن القول حتى في صور "النيجاتيف"، لأنه في الوقت التي حدث فيه النهب في وضح النهار، أعاد الناس المسروقات في الليل. قلائل هم الذين أعادوا ما نهبوه في وضح النهار، وأمام أعين الملأ، وبسبب الخوف من تفتيش المنازل، قام العقلاء من المواطنين برمي الأثاث المسروق من فوق الأسوار. مزهريات الصالونات انتهت في الساقية التي تعبر البارك. احتلتها الأسماك ويرقات الساقية في الحال.

كان من المفروض أن يكون صيفاً في أوجه أو ربيعاً متأخراً، وصلت العنادل وملأ غناؤها الأجواء، على كل حال.

تمشى والدي في البارك ولولا القليل لكان تعثر بثريا كريستالية مهشمة من تلك التي كانت تتدلى في السابق من أحد سقوف القصر المرتفعة الموجودة في مداخل الصالونات، والآن، قام أحدهم بوضعها بين الأزهار المتفتحة. كان يحمل بيده حقيبته السوداء في طريق عودته من زيارة أحد المرضى الذي احتفل مع أصدقائه بالاستقلال. لقد شربوا في تلك المناسبة نبيذاً أبيض خارقاً حصلوا عليه من قبو أحد الضباط الألمان. فجأة، شحب لون وجهه، ثم سعل واختنق، ولم يتمكن من استنشاق الهواء، ولقناعته

بأنه ينازع طلب نقله إلى البيت. اتصلت زوجته هاتفياً في الحال بوالدي من منزل الجيران. وحين وصل كان المريض قد تحسن بأعجوبة.

فحصه والدي، ولكنه لم يصل إلى نتيجة، طلب بعد ذلك كي يتأكد إحضار زجاجة النبيذ التي شربوها. فدسوا في يده زجاجة "توكاي" مجري.

"انتبه ياسيد "دوراتني" — العنب الذي يُصنّع منه النبيذ ربما مصاب بفطر من النوع الراقي، وهذا تسبب في حدوث تحسس شديد. أمر كهذا من المفروض أن تعرفه — إنك من منطقة غنية بالنبيذ! تجنب شرب الـ"شيري" ولا تشرب للسبب نفسه" ساوترنس"فرنسي".

وهكذا تمشى والدي محملاً بثلاث زجاجات نبيذ في حقيبته كبخشيش إضافة إلى أجره في حديقة القصر المدمرة كي يُقصّر طريق عودته إلى البيت. البحيرة ملأى بالسمك المتفسخ المقلوب على بطنه والذي بدأ في نشر رائحة كريهة.

جلس على المقعد الموجود تحت نصب القديس "أغيد" مع الغزال والسهم في صدره رجل رث الثياب. انتبه والدي إلى وجوده في الحال لأنه لم يتعرف إليه. كان يتطلع في الفراغ وكأنه يحلم، وتحت عينه جرح مغطى بالدم المتخثر الأسود. كيس ورقي تحت إبطه من مخزن للحلويات. لم ينتبه إلى شيء من حوله. أزهرت الأشجار المحروقة التي برزت فوق رأسه.

جلس والدي بجانبه ولمس الجرح بنهاية أصابعه. هنا انتبه الرجل الجالس إلى وجوده، أحس بالألم وأبعد رأسه. دور والدي رأسه. وفتح الحقيبة وأخرج منها زجاجة "كربولا" صغيرة وضع منها القليل على قطعة قطن ثم مررها فوق الجرح، وقام أيضاً بتطهير الجلد المهترئ المجاور الذي بدأ يلتهب ويتقيح. وضع على الجرح قطعة ضماد لاصق وجدها مجعوكة في الحقيبة.

"ما هذا الذي تحمله معك؟"

نقر والدي على الكيس الورقي الذي حضنه الرجل بقوة تحت إبطه.

أخرج الرجل بحذر وبحركات بطيئة ألبوماً أزرق مُزقَ غلافه. تطلّب ذلك منه وقتاً طويلاً نسبياً وكأن الوقت لا يعنيه — إلى أن فتح الألبوم وبدأ بتصفحه.

"هذا هو الشيء الوحيد الذي بقي عندي،" قال بصوت يخلو من أي تعبير، و بالكاد سمعه والدي.

قال إنه ألماني وقد دمروا محتويات بيته كلها في أثناء انتقال الجبهة. إنه وحيد. كل ما يملكه هي تلك النقود الورقية القديمة الموجودة في الألبوم. يتسكع في المدينة، ولا يوجد لديه مكان يأوي إليه.

فكر والدي لحظة.

"أبادل بقميصين، وبالنبيذ و قطعة خبز".

تردد الرجل المُسن، حاول أن يساوم، ولكنه وافق في النهاية بسبب جوعه القاتل. قطعة الخبز الواحدة أصبحت ثلاث قطع، وأعطاه إضافة إلى القميصين، بنطالين توقف والدي عن لبسهما لأنه يتحسس منهما، وكنزة صوفية.

حمل والدي هذه الأشياء كلها معه إلى البارك، ووضع في جيبه بعض النقود التي لم يكن لأحد أن يقول شيئاً عن قيمتها في تلك الأوقات، وهذا ما جعلها رومانسية.

وجد في الألبوم الأزرق عملة ورقية خاصة كانت تستخدم في معسكرات الاعتقال الموجودة في ألمانيا والنمسا خلال الحرب الأولى والحرب الثانية أيضاً. دس الرجل في أطراف الصفحات المقصوصة بفظاظة قطع الأوراق النقدية الجميلة الملونة، وغيرها وقام بلصقها بزنار من الأوراق اللاصقة البنية العادية.

كُتب على إحداها بالألمانية: وصل استلام فوق خمسين كوروناً. مدينة ترزين في 1كانون الثاني. يهودي مُسن في مدينة ترزين: يعقوب ألديستاين.

النجمة اليهودية الزرقاء في الوجه الأول وفي الثاني رجل مسن بلحية يحمل أسطوانة مغطاة بأحرف عبرية.

نبّهَ والدي إلى أن العملة الورقية بالتأكيد لها قيمة كبيرة سوف تزداد مع السنين. احتفظ بالألبوم الأزرق "للأوقات الأسوأ" مع أنه لم يكن يعرف ما يمكنه تخيله تحت هذا المسمى.

هذه السنة كانت سنة الأوراق. الكل يبحثُ عن إحداها.

استلم والدي بداية شهادة مؤقته عن الوثوقية السياسية، جاء فيها:

يمنح المجلس الشعبي في "بريجاني"، الطبيب ألفونس ترنوفسكي بناء على تزكية أمبروز كربس و الطبيب لفيس، وبناء على قرار لجنة التحقق التابعة للمجلس الصادر في 12.5.1945، شهادة مؤقتة بالوثوقية (المصداقية) السياسية، صالحة لغاية صدور القرار النهائي من لجنة التحقق المشكلة من قبل المجلس الشعبي لمدينة بريجاني.

رئيس السكرتاريا

د. هالوزتسكي، ف.ر.

قام بعد ذلك بتأمين وثيقة أخرى.

بهذه الوثيقة، يشهد المجلس الشعبي لمنطقة بريجاني أن المدعو الطبيب ترنوفسكي ألفونس، يقيم ويعمل حتى الساعة بوصفه طبيباً عاماً في "بريجاني"، لم تصدر بحقه خلال تلك الفترة أية اتهامات أو تلميحات، أو حقائق تشير إلى أنه مواطن تشيكوسلوفاكي غير موثوق. المدعو... المتزوج من يهودية... معروف بحياده أثناء حكم الدولة السلوفاكية كما اقتصر نشاطه على عمله الطبي.

سكرتير المجلس الشعبي للمنطقة

حصل أيضاً في النهاية في كانون أول 1945 على شهادة نهائية بالوثوقية الوطنية للدولة الشعبية –الديمقراطية، موقعة من السكرتير ومن رئيس المجلس الشعبي.

2

في صباح كنت لا أزال فيه نصف نائم، أهرع مسرعاً إلى المخزن لشراء شيء للفطور.

أطل الربيع وأطلت معه طلائع فقراء المهنيين الذين توافدوا إلى المدينة بسيارات الجيب "هيونداي"، أولئك النّحاسون يملؤون أجواء البلدة بأصوات حفرهم على النحاس، وقرعهم الأواني بمطارقهم دون كلل أو ملل.

يوجد الآن في مكان مخزن منوعات السيد "ملانك" مخزن المواد الغذائية C B A.

سلة شرائي تحتوي كما جرت العادة على شرائح السمك الحامض، والخبز والكولا. أمضيت حياتي وأنا آكل مثل عامل — وحين أفكر أجد نفسي للأسف مثلهم (لا شيء يمكنه تغيير ذلك بما في ذلك حقيقة أنني أوقعُ بكلمة "فنان" على عقد العمل) هذا ما دربتني عليه أمي الثانية ، التلفزيون. يجب أن أنهي عملي في الوقت المحدد، فريق العمل، أو الطقس لا ينتظران. وحين يُقال "غداء" فهو يتألف في الغالب من الجبن المقُمع مع المرقة التتارية التي أتلذذ بطعمها إلى درجة أني أتمنى لو أنهم يحقنونها في جسدي عن طريق الوريد. ولكني في هذه الحالة سوف أخسر تلك الطعمة الرائعة. أتصور أنها إحدى أهم اكتشافات البشر.

المشكلة هي أن السمك الحامض لم يعد له ذلك الطعم القديم — لنقل قبل عشر سنوات أو عشرين سنة.. لاأعرف أين يمكنني العثور على ذلك النوع.

"لقد فقدتَ إلى الأبد خلايا التذوق، هذا كل ما في الأمر!" بهذا الشكل علقٍ " فويتا" على كلامي وهو يضحك.

حسناً. مع الموتى يَصعُبُ النقاش.

ربما يكون السبب هو تعطل تلك الكؤيسات الذوقية.

الشيء المشابه الذي وقع ضحية تشاؤمي كانت الزبدة. أشعر اليوم أنها مفرطة في الحلاوة. الزبدة الحلوة حلاوة حضورنا ما بعد الشيوعي.

في أيام الاشتراكية كان طعمها ميالاً إلى الحموضة لأن الرفاق خجلوا من إضافة تلك الكمية الكبيرة من القشطة الحلوة.

أكثر من ذلك أحببت زبدة "أونرا" — التي استعاضوا عنها بعد الحرب بالمرجرين الأصفر المُقرف الذي اكتشفه الأمريكان بوصفه المنتج

الأخير من العلف المُعالج للديك الرومي أو لحيوانات مقرفة مماثلة. زبدة "أونرا"... كانت حلوة المذاق؟

أتذكر تلك الطرود المصنوعة من الورق المُشمع التي جهزت في الأساس لجنود الجبهة الذين وجدوا فيها الواقي الذكري "كوندوم"، وسيكارتين *"لوكي سترايك"* إضافة إلى البسكويت، وكونسروة سجق فرانكفورت الذي يحبه أخي "بتر"، وشيء يشبه طبخة الكولاج غير الموفقة التي أحبتها (ولا أعرف السبب)، أختي "تينا"، وهريسة التين، والمربى، والزبدة الطيبة، الزبدة المالحة الرائعة.

زبدة ما بعد الحرب المذهلة!

توجب على كل طالب إحضار ملعقة إلى المدرسة، ودائماً في الصباح وقبل بدء الحصة، نتناول ملعقة زيت سمك. كي نصبح أقوياء الجسم – العديد مصابون بفقر الدم. أنا لا. كنت منيعا، ولكني مع ذلك أرغمتُ على شربه.

خلال العطلة الصيفية كنت أتنقل مع والدي بالسيارة لزيارة المرضى.

طلبوه لفحص الجزار "روزغون" الذي تمكن بوصفه بارعاً في السير على الحبل من اجتياز حفر الأشهر الأولى للحرب وخنادقها جميعاً على رؤوس أصابعه. بدأ الثائر "يانكو بلان" بالتردد على محل بيع اللحم الحلال المؤمم "كوشر".. العائد للمرحوم السيد "سترن"، هكذا كصديق فحسب لتناول النبيذ والكونياك، ولكنه وافق في النهاية على دعوة لتناول طعام العشاء، وغادر مُحملاً بحقائب معبأة باللحم. وَقع له أخيراً في نهاية حزيران على وثيقة "الموثوقية". تنفس "روزغون" الصعداء . كان خائفاً لأنهم قاموا في "بريجاني" بعد وصول الجبهة بتعليق رقاب اثنين من أمثاله وكتبوا على صدورهم عبارات لا تبعث السرور في النفس. وللمزيد من الحذر تقدم بطلب انتساب إلى الحزب الشيوعي.

مرض ابنه الآن. فتحت "روزغونوفا" الباب، وسمحت لنا بالدخول. ثم اقتادتنا عبر غرفة الجلوس.

"لا تعيروا انتباهاً لهذا، أيها السيد الطبيب! قالت حين انفتح أمامنا مشهد خيالي. المخزن بقي مغلقاً من واجهته الأمامية لأكثر من

ثلاثة أشهر بذريعة عدم وجود اللحم، والتقيد بنظام البطاقات في حين سارت الأمور في غرفة الجلوس على نحو آخر.

في عتمة "رمبرانت"، لأن الستائر كانت مسدلة حرصاً على السرية، سيد البيت في مريوله المدمى يُقطع البقرة. تبعثرت قطع اللحم في كل مكان. الكلى والكبد على صدر من الفضة تحت النافذة، الفخذ على رف من المرمر بالقرب من المغسلة في الحمام، الفتيلة، والعظام، والكلى... و كومة من الذباب.

خرج سيد البيت من تلك المجزرة. اقترب من والدي والابتسامة تعلو وجهه. رحب به بحرارة، *لم يمد له يده لأنها مغمسة بالدم*، مدَّ كوعه فحسب.

وفي الوقت الذي قام به والدي بفحص الصغير "يوركا" الذي أصيب بالحمى القرمزية، أحضرت لي "روزغونوفا" قطع مربى حامض وفطيرة كانت قد خبزتها للتو. وحين قضمت قطعة لا بأس فيها من الفطيرة وقع نظري في الحال على عيني البقرة اللتين بسبب عدم الاهتمام بهما رُميتا على الطبق الموجود على الكرسي في الزاوية. رفعتهما من أوعيتهما إلى الأعلى وإلى الأسفل. وهنا ظهر والدي "مشمراً" عن ساعديه وجعل يبحث في حقيبته عن السماعة. فضربني على أصابعي، وشتمني.

جاء الأجر على شكل حقيبة معبأة بقطع اللحم التي صُرتْ بطريقة لا تثير الشبهات، وشديدة الشبه بطرد من الكتب.

أقضم من السمونة، وأبحث في الخزانة القديمة.

أفتح جراراً صغيراً، تسقط على الأرض ربطة صغيرة من "لفاندولا" (الخزامى) يابسة. أرفعها وأشتمها. الرائحة كانت شبه معدومة، وما بقي منها أنعش الذكريات فحسب.

الدولاب كان يعني عندي رمزاً للترتيب والسكينة والأمان. أحببت اللعب بالأشياء التي كانت ترتبها فيه والدتي. الجدة "سارة" تخفي هناك قبعاتها، إضافة إلى قماش الباتيستا والموسلين. كان لهم تأثير غامض أكثر بكثير من قطع ثياب والدتي البسيطة.

الخزانة الآن فارغة مثل بطن سمكة مُشرحة. حين أفتحها تعود لترتسم أمامي في الحال الذكريات جميعها بقوة أكثر من الأشياء بحد ذاتها. الأشياء غير المرئية.

أبلع قطعة سمك وأشتم من جديد ربطة الخزامى.

رائحة الخزامى تشكل قسماً هاماً من رائحة بيتنا.

الهاتف، أحد أول الهواتف القليلة في "بريجاني". أنا من رفع السماعة — سمعت فيها طقطقة وأصواتاً غريبة، وكأن أحدهم يتصل من كوة الهاتف الموجودة في الشارع. صراخ الناس بلغة غير معروفة، ضجيج السيارات... حتى ظننت أن حماراً ينهق من بعيد أو كلباً ينبح.

اتصل من جنوب أمريكا الطبيب اليهودي "غرونسكي"، طبيب أسنان والدي الذي نجح في الهروب مع عائلته إلى سويسرا وبعد ذلك إلى جنوب أمريكا، حيث أسس في "بوينس آيرس" عيادة مُربحة. صوته يصلني متأخراً بعض الشيء وهذا ما أدركته في الحال لأن الطبيب "غرونسكي" كان يتجاوب مع أسئلتي بعد استراحة قصيرة.

سأل والدي الذي كان في حينها يقرأ إحدى الصحف في منفردته.

"ماذا تقول يا زميلي، هل أرجع إلى أوروبا؟ كيف تبدو الأحوال عندكم؟"

"طبعاً، نعم، يمكنك العودة أيها السيد الطبيب، *"غرخت"*، الوضع هنا مذهل، *"غرخت"، حقاً على مايرام*، كل شيء يعمل بشكل تام، *وعلى مايرام*؟

إذاً حقاً... مع إشارة استفهام.

استمع الدكتور "غرونسكي" إلى كلام والدي. أرسل له في عام ثمانية وأربعين رسالة. إضافة إلى علبة سكاكر أرجنتينية — قام أحدهم على الحدود بالإجهاز عليها تقريباً، ووضع بدلاً منها سكاكر مغشوشة — لم تُرض أحداً في عائلتنا. كان بوسعه إرسال شيء آخر. ربما يكونون قد استولوا على أشياء أخرى ولكننا لم نستلم في "بريجاني" أي شيء. في تلك الأثناء وبعد حلول النظام الجديد أصبح كل شيء ملكاً للجميع.

أرفق الدكتور "غرونسكي" رسالته بصورة عائلية مأخوذة في منطقة جبلية على خلفية كروم. أول صورة ملونة أراها في حياتي وحتى تلك اللحظة كنت أظن أنه بالإمكان استخدام الأبيض والأسود في التصوير فقط، وفي أفضل الحالات تلوينها..

ساعده الدكتور "وايزمان" في تجهيز عيادة الأرجنتين، وهو طبيب أنف-أذن وحنجرة من "نترا". أنقذه الإعلان في مجلة الطب الذي كما يقال عُلق ضمن إطار في عيادته، وكان على الشكل التالي:

المشاركة في المؤتمر الطبي في تل أبيب!

21 نيسان، السفينة الفاخرة تل أبيب. تخفيض 15٪ على بطاقة العودة لرحلة 10 نيسان.

الاستعلام: شركة فلسطين للملاحة C المحدودة

لم يستخدم بطاقة العودة.

الدكتور "وايسمان" كان يتحلى بموهبة استقراء المستقبل. العديد من زملائه ظهروا بعد ذلك في مجلة *الطبيب السلوفاكي* الشهرية تحت عنوان أخبار نقابة الأطباء في العمود الثالث. *نقص الأطباء: آ) بسبب الانتقال من مركز النقابة* مع ملاحظة *المكان غير معروف.*

علماً أن تعبير *"المكان غير معروف"* عند لفظه بالألمانية سيكون "تري- بلينكا"، "ماي-دا- نك" أو "أوش-ويتز".[46]

يالها من حكاية للأطفال.

3

عُرضت للبيع عيادة الطبيب "دوتسكي" الموجودة في الساحة الرئيسة مباشرة بجانب مكتبة السيد "شتيبكا"، حيث كنت أذهب إلى هناك لصيد الكتب مستعيناً بمصروف جيبي الزهيد، لأنه تسلم عرض عمل في وزارة الصحة ومن ثم انتقل إلى براتيسلافا.

---

[46] معسكرات اعتقال نازية

حين سنحت الفرصة لوالدي لشراء جهاز تخطيط قلب صغير مستعمل لم يتأخر. بعد ذلك جعل يلعب به طوال الأيام، بالطبع مع المرضى أيضاً.

كان يمسح الجلد بسائل فيزيولوجي ويلصق الإلكترودات الماصة ثم يتابع بفرح وسعادة نتيجة التخطيط.

في إحدى تلك اللحظات، ودون توقع، ظهر "بوشكار" في العيادة.

أحضر معه هدية صغيرة من الجبهة. *إله الحرب أتحفني بمفاجأة.* لم أسأل في حياتي بسبب الكتمان الموروث — كما لم يسأل والدي أيضاً بالرغم من الصداقة التي تربطهما — عن الجهة التي وقف معها. الأموات كانوا هنا وهناك، والمرضى والمصابون كذلك. استغرب فقط أن يكون "بوشكار" قد قاتل.

وقف والدي، وأطفأ الجهاز، ونده على السكرتيرة: "زدنكا" كحول!"

أحضرت "زدنكا" بناء على طلبه زجاجة كتب عليها: كحول طبي مركز.spiritus vinici conc . تناول والدي كأس خردل فارغ، وملأه حتى النصف وأضاف إليه الماء. دفعه باتجاه يد "بوشكار " المندهش — كما جهز لنفسه كأساً آخر من تلك الخلطة.

"إذاً... بصحتك! وبعودتك!"

دق كأسه بكأسه وشربه دفعة واحدة إلى أن تورد وجهه وسالت دموعه.

أخبره "بوشكار" أنه اشتكى في المشفى الميداني من قرحة قاسية غير مؤلمة في منطقة حساسة إضافة إلى تضخم في العقد اللمفوية.

طبيب الجبهة (الذي حصل على لقب *دكتور "كوتوتشك"*) هو في الأصل حلاق من "ملاتسكي". وقد تم اختياره بالتأكيد بسبب لبسه المعطف الأبيض، ولندرة العارفين باستخدام العلق. كان "كوتوتشك" يصف الأدوية حسب العلبة التي يفتحها، ويعرف تمييز الخناق، واليرقان فحسب، وتلك كانت تستهويه لأسباب غير معروفة، وبعد ذلك تأتي الإصابات الناتجة عن الطلق الناري. يحتوي المشفى الميداني على

قسم للأمراض السارية حيث يعالجون جنديين، أحدهما متمارض والثاني، ظهر عنده ضرس العقل. وقد وصل "بوشكار" إلى هذا القسم.

كان "كوتوتشك" يوزع من خلال ثقب في الباب كمشة من الكبسولات والأقراص، ويركز على تأمين الدواء وخدمة المصابين بالأمراض المعدية في أسرع وقت إذ عليهم تناول الدواء بأكمله تحت إشرافه في الحال. تأرجح "بوشكار " في اليوم التالي بين الحياة والموت، وجعل يتعرق ويهلوس بطريقة لا تُصدق إضافة إلى صعوبة في التنفس. أنقذه في اللحظات الأخيرة أحد الأطباء من كتيبة مجاورة — روسي أو ألماني كان يعرف تلك الأمراض– هذه المرة طبيب عن حق، اضطر لوضع بعض الجرحى في غرفته. قطع الشك باليقين وأكد أن "بوشكار" مصاب بداء الأفرنجي "سفليس"، كما نصح بفحص دقيق. "كوتوتشك" أخلى سبيله لأنه لم يتوقع ما سيحدث له، إذ تحسّن وضع "بوشكار"، ولم يعد يهتم لا بالقرحة ولا بتضخم العقد التي اختفت على كل حال.

وتبدلت بعدها إلى اندفاعات جلدية، واكتشف "بوشكار" بقعاً نحاسية اللون تحت إبطيه العريضين، انتقلت بالتدريج إلى جبهته كما ظهرت بعد وقت في فمه بعض التقرحات التي ترافقت مع آلام شديدة في الرأس.

"ذلك المرض يرميه أحدنا على الآخر، هل تعرفون ذلك؟ نؤكد أن أعداءنا هم من نقل إلينا العدوى."

"يبدو أننا لم نتفاهم"

"تعرف... الأمر على هذا الشكل... الألمان قبل كل شيء يسمونه المرض الفرنسي، وعندنا يسمونه أحياناً المرض الهنغاري، هل تفهمون؟"

"همممم.."

"عند البولونيين، المرض الروسي، وعند الفرنسيين، الجدري الإسباني. اليابانيون يتحدثون عن الجدري الصيني، والهنود يعرفونه بالمرض البرتغالي، وحين نعرف أن المومس بالروسية تدعى *فنغركا*..."

"السيد الطبيب، هالو!"

"وماذا عن "ليلي"، ألم تعد تنتظرها؟" سأله والدي وهو يسحب الدم من وريده إلى الحقنة الكبيرة.

"طبعاً، أنتظر."

"وماذا بعد ذلك؟"

"تعرف، مررت بأوقات عصيبة وحدثت نفسي – هل تعرف، أني لم أرها في يوم من الأيام."

"ولكنها أرسلت لك صورتها."

"وما فائدة الصورة؟"

"تفضل – وها أنت الآن تعرف إلى أين ستصل الأمور! تلك الشكوك"

"أتمنى ألا تعرف "ليلي" بذلك! لأنها إن عرفت فلن تعود على الإطلاق! هل هناك أمل؟"

"سأرسل العينة إلى دائرة الصحة في براتيسلافا، وسنرى. بعد ذلك نبدأ بالعلاج. حُقن. "أخ، ياي... !"

"هل كان الأمر يستأهل؟" غمزه والدي.

لوح "بوشكار" بيده فحسب.

الرسالة الأخيرة من "ليلي"، وصلته في خريف عام أربعة وأربعين. كان في الحال سيسافر ليتحرى المكان الذي تسكن فيه (الحديث بيننا، نترا – والدي كان يتردد على مستودع الأدوية الرئيس الموجود هناك)، وكل ذلك كي يجدها، ويقنعها بالبقاء، يمكنها تغيير هويتها، واسمها، وإذا كان ضرورياً يمكنها تغيير شكلها، ولكن الوقت كان قد تأخر. الرسالة كانت ممهورة بختم يُشير إلى أنها مرسلة قبل أسبوعين، "ليلي" بالتأكيد سافرت عبر القارة إلى برلين أو ميونيخ لزيارة عمتها الأولى أو الثانية.

كان ينتظر كل يوم رسالة منها، أو على الأقل ملاحظة تُشير إلى مكان وجودها، فتابع العديد من الإشارات ولكنه حافظ على إخلاصه لها.

وصلت نتيجة التحليل من مديرية الصحة. جاء في التقرير أن الدم المرسل خضع إلى فحص حسب طريقة واسرمان، وبعد ذلك حسب ساشس– ويتبسكي وفي الوقت ذاته حسب مينتسكي. الفحص إيجابي.

شخص والدي مرض "بوشكار" على أنه في درجة ثانية لوجود الأعراض التي تشير إلى ذلك، وبدأ في علاجه بالنيوسالفارسان – لقد أخرج بعض مقتنياته من أدوية ما قبل الحرب. كان يخاف من انتهاء الصلاحية ولكن مواد الأرزين تتحمل فترة طويلة. في ظروف أخرى كان بالتأكيد سوف يستخدم العلاج السحري بالمضادات الحيوية التي كُتب عنها الشيء الكثير ولكنه لم يتمكن من الحصول عليها في "بريجاني".

قال لي أبي مرة وهو يضحك: أطباء الحيوان اشتكوا بعد عدة سنوات من انتهاء الحرب من ذاك المدعو "فلمنك" الذي حرمهم من رؤية أروع حالات الشلل المتقدم "تابس دورسالس"* [47].

عاد في تلك الفترة عمي "أوسكار".

بعد ذلك، حين قاموا في خريف 1944 بترحيله مع العمة "روزكا" وابنتها ووليديها في مقطورة الحيوانات المغلقة حيث الرائحة القاتلة لأن كل منهم كان يفعلها تحته. لم يكن لديهم خيار آخر. سطلا ماء لكل ثمانين شخص. ربع المُرحلين ماتوا في الطريق. وحين أنزلوهم من القطار إلى الطقس البارد، توجب عليهم حين صفوهم على الحاجز تمديد جثث موتاهم الذين لم يتحملوا الوقوف، أو الذين ماتوا تحت دهسات أقدامهم. أحس العم بالجوع أكثر من البرد. إذ كانوا يرمون إليهم بعض قشور التفاح أو البطاطا أثناء الرحلة.

ارتفع عن الأرض المتجمدة سرب من الغربان التي حلقت فترة ثم هبطت في الحقول المجاورة. اقترب منه الدكتور "منغل"* [48] بذاته – أكد العم "أوسكار"، مع أن والدي شَكّ في صحة ذلك – أن الأمر واضح

---

[47] تابس دورسالس: مرحلة متقدمة من مضاعفات مرض (الأفرنجي) السفلس العصبية

[48] الدكتور منغل: طبيب ألماني شهير بإجراء التجارب على الأحياء

مثل الشمس، هتلر بالتأكيد لم يحضر بنفسه لقرص "شلويما" على خده. كل طبيب في تلك الأثناء كان اسمه دكتور "منغل"، ولكن "أوسكار" احتج – رآه في وقت لاحق في الصورة، وأكثر من ذلك، لم يترك اسمه سراً عن هؤلاء الناس. تعرفون ، لم يكن لديه سبب لفعل ذلك.

اقترب "منغل" منه إذاً وسأله: *هل هذه ابنتك؟*

ألقى "أوسكار" نظرة استغراب على وجه العمه "روزكا" التي بدت وكأنها أصغر بعشر سنين بالرغم من وساختها وهبوط خديها. كانت تتألق بجمالها البورسلاني الهش. فرد بكثير من الفخر: – *إنها زوجتي.*

أومأ "منغل" برأسه، ثم لمسها بيده، وأشار إلى الصف المجاور الذي وقفت فيه "روزكا" مجبرة بكل أدب. فرك –وهو يبتسم – شعر الطفلين الوسخين الأسود وتابع طريقه.

بدا الأمر وكأنه شيء روتينيّ، ولكن نتائجه توضحت بعد ذلك. الصف الثاني توجه بخط مباشر نحو بوابة المبنى التي كُتب عليها بالخط العريض حمام الغسيل brause bad في حين لم يتدفق فيه أي نوع من الماء.

"كان من المفروض أن أقول إنها ابنتي... !" قال العم "أوسكار" بصوت ضعيف.

نمتْ على كتفيه ذرة صغيرة من الحظ، لأنه وصل إلى معسكر "أوسفينتشيم" القديم. حلقوا شعره، ووشموا ذراعه برقم مستخدمين قلم حبر حديدي.

كان أمام خيارين. الناس الضعفاء جعلوا ينوسون بالتدريج مثل الشمعة، أو أن جوعهم ترافق مع انتفاخهم المؤلم. أما العم "أوسكار" حسب روايته فكان محظوظاً لأنه بقي بالصدفة على قيد الحياة. أُصيب بعد عودته إلى "بريجاني" بحالة من الاكتئاب ترافقت مع نوبات من الغضب الشديد. وحين بدأ بالصراخ في تلك اللحظات، لم يتوقف حتى فقد صوته.

روى لوالدي ذلك كله ، حين كان يجس جسمه ويصغي إلى صدره.

ظهرت عليه علامات الإصابة بالتيفوئيد. سُجلت في "بريجاني" عدة أصابات مما جعل والدي يشعر بالخوف. حاول جاهداً تذكر اسم

رواية "تورغنييف" التي جَرحَ فيها طالب الطب يده بالمشرط أثناء قيامه بتشريح الجثة، ومات بعد ذلك من التيفوئيد.

التيفوئيد تبدل بالتهاب الدماغ. إذ تخيل "أوسكار" أنه يستلقي على السرير بجانب شخص يشبهه "توأم روحه". وحين بدأت حالته بالتحسن، أحس أن الجسدين جعلا يقتربان أحدهما من الآخر حتى إنهما أصبحا في نهاية الأمر جسداً واحداً.

كان أبي يتمتع بحاسة شم ثاقبة حيال الأمراض. شرح لي مرة أن بشرة مريض تيفوئيد البطن وتنفسه تنشران رائحة شبيهة برائحة الخبز الطازج، والجدري يجعل رائحة المريض شبيهة برائحة عرق المواشي. والتهاب الرئتين يترك في الفم رائحة تشبه رائحة العسل. تسليت كثيراً بهذا الوصف.

كل هذا وجدته مسجلاً في دفتر ملاحظاته الذي أقوم الآن بتصفحه وفي يدي زجاجة كوكا كولا شارفت على نهايتها.

4

حين التقيت "فويتا" في المدرسة بعد انتهاء العطلة الصيفية، حدثني بحماس كيف أنه رافق والده إضافة إلى أفراد العائلة الكبيرة جميعهم إلى "بانسكا بستريتسي" حيث شاركوا هناك في احتفالات الذكرى الأولى للانتفاضة الشعبية السلوفاكية. تعافى الكابتن "روشكا" بالتمام بعد معالجته من قبل والدي. ولكن بقيت على رأسه ندبة قبيحة وبعض النقاط الخالية من الشعر التي جعل يُغطيها بقبعته وباستثناء بعض نوبات الألم الشديد والدوخة المفاجئة لم يشعر حتى الساعة بنتائج الإصابة الشديدة.

حضر الاحتفال عدد كبير من الناس الذين لم يحلموا حتى نهاية آب الماضي أنهم سوف يتمكنون من لفظ: *سنلتقي بعد سنة في "بانسكا بستريتسي"!* قلد والد "فويتا" في تلك المناسبة *وسام الانتفاضة الشعبية السلوفاكية* الذي حمله بفخر على الدوام معلقاً على بزة الطيارين.

أرسلت إلينا عائلة "روشكو" في تلك المناسبة بطاقة بريدية ملونة مرفقة بختم: *تحية من احتفالات الانتفاضة الشعبية في "بانسكا بستريتسي" 1944-1945.*

بعد الاحتفال ببدء العام الدراسي، وبعد تلك الكلمات المتعبة والموسيقى جميعها، وبينما كان الجميع يتحدثون عن الاستقلال وعن الحياة السعيدة الجديدة، ذهبت مع "فويتا" لسرقة الإجاص من حديقة الكنيسة التي كان يوليها الأب "بترسكي" عناية كبيرة. — فقد كانت منذ بدء تعرفي إلى الحياة الأفضل والأكثر نضارة-، وبقينا نتسكع بعد ذلك حتى ظهور الشفق في طرقات "بريجاني".

حين اقتربنا من منزل "روشكو" الموجود في شارع القديسين، وجدنا النار تشتعل في الحديقة. عتّمتْ الدنيا. مشينا متخفيين بمحاذاة غرفة لوازم الحديقة، وقرفصنا تحت شجرة البيلسان — ارتعبتْ في الأعلى بين الأوراق طيور السُمنة، وجدتُ على كُمِّ قميصي برازاً أبيض لزجاً. لكنني لم أنطق بكلمة. وقد وقف والد "فويتا" بالقرب من الـ "راموشة" المشتعلة. وكان يسعل بعصبية ويحرك الجمر ثم يتلفت بشكل مفاجىء باتجاه البوابة ليعرف ما إذا كان أحدهم لا يراقبه أو يدخل، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث. كان يُدخن، ويُمسك شيئاً في يده، انتشرت أصوات صرير معدني، وتأججت النار. فقد كان السيد الكابتن يرمي فيها شيئاً ثم يقلبه بالمعول.

راقبنا فترة ما يجري، سألت "فويتا" بعد ذلك وشوشة:

"ما الذي يفعله؟"

"إنه يحرق الأوسمة..."

"الأوسمة؟! لماذا؟"

"هكذا" رد عليّ "فويتا" وتابع مراقبة والده. كان وجهه يشع من ضوء النار. تصرف بجدية.

"ولكن لماذا؟"

"لأنه!"

أمسك والد "فويتا" من جديد شيئاً بيده — فانتعشت النار وبدأت ترتفع، الآن رأيت بوضوح أكثر. مزق القماش، وبعد أن لوى المعدن بالكماشة، قصه إلى قطع صغيرة ورماها جميعها في النار.

فجأة، شعرت بالحزن على تلك الأوسمة، كنت أُحبها كثيراً. كان بإمكانه أن يمنحها لنا – راودتني تلك الفكرة– لم فلم يكن بحاجة إلى فعل ذلك.

فتح "فويتا" مرة، حين لم يكن أحد في بيتهم الخزانة، وسحب من أسفلها علبة تبغ مغلفة بقماش. كان والده يخفيها هناك. وزنتُها في يدي وقرأت ما كتب عليها: *ميدالية في ذكرى الهجوم على الاتحاد السوفيتي من الدرجة الأولى... إيسرنكروز من الدرجة الثانية... أيسرنكروز من الدرجة الأولى... إهرنبوكال.. دويتش كروز إن غولد.. سربرانا كولينا كرون كراليا زفونيميير*... تلك أحببتها كثيراً.

وضع الكابتن "روشكو" المقص والكماشة جانباً، وجلس على العشب الرطب وجعل يتطلع دون حركة إلى النار التي كان يُحركها هنا وهناك بالمعول.

كان الدخان يتصاعد من الجمر، بدا كأنه شيء مليء بالحياة. والد "فويتا" يحاوره بصمت.

سحب بعد ذلك خرطوم الحديقة وفتح الماء فوق الجمر ثم وضع ما تبقى في السطل. رائحة الدخان الرطب لامست الأشجار وشكلت حولها غيمة تشبه الضباب، ظهر القمر الفقير فوق الحديقة. فدرنا حول غرفة لوازم الحديقة الخشبية وكأن شيئاً لم يكن، ووقفنا بالقرب من الأشجار البعيدة. تردد والد "فويتا" قليلاً ولكنه تصرف بشكل عادي.

"أهلاً.." حياه "فويتا" حين مررنا بالقرب منه.

"ماذا تفعل؟"

"لا شيء"

بدا وجه والده مثل قطعة حجر.

"لقد شعرت ماما بالخوف عليك، أين كنت تتسكع...؟!"

وجدنا في الدولاب مع "فويتا" قبل عدة سنوات كتاب مذكرات آخر لوالده – استخدم الآلة الكاتبة في تدوينها ولهذا كان بالإمكان قراءتها بشكل أفضل من سابقتها.

أظن أنهم أرسلوني في الأول من تشرين الثاني 1942 مع السرب بوصفي طياراً إلى الجبهة الشرقية للقتال ضد الاتحاد السوفيتي حيث بقيت هناك حتى بداية آذار 1943، عدت بعد ذلك إلى سلوفاكيا بسبب وفاة والدي. لكنهم أرسلوني في نهاية نيسان من جديد، وعدت بعد ذلك إلى سلوفاكيا في بداية تموز 1943 لأنهم قاموا بتبديلنا. تشكل السرب في القوقاز من طائرات ميكوب، كراسنودار، سلافيانسكويا، كارتش و أنوب. ثم تم فرزي لقيادة المقاتلات الجوية، حيث قمت بطلعات قتالية ومرافقة. فكان إجمالي عدد طلعاتي يقارب 150 طلعة. في الفترة الباردة، وهذا يعني عند رجوعي إلى سلوفاكيا بعد وفاة والدي أن نشاط السرب بأكمله تميز بالضعف ولكنه استعاد قوته أثناء إقامتي في سلوفاكيا. ذهبت في نيسان، قبل إرسالي من جديد إلى الاتحاد السوفيتي لزيارة قائد قوات الطيران العقيد "فلن" الذي قال لي بحضور الكابتن "زابراجني" بألا نُعرض أنفسنا للخطر كثيراً لأن ذلك لن يفيدنا في شيء، المهم، هو أن نعود أحياء و أصحاء إلى الوطن. وعن نشاطي هنا، أشير، كما أوردت في مذكراتي التي كتبتها في ربيع 1945 إلى أني قمت بتنفيذ الطلعات الجوية كي لا أُتهم بالتقاعس والخوف من القتال. لم أبحث في حياتي عن القتال، كما أنني طوال المدة التي قضيتها واجهت الطيارين السوفييت ربما اثنتي عشرة مرة، ونجحت في إصابتهم بشكل مباشر ولكني مع ذلك لم أُسقط طائرة واحدة، وهذا ما فعله بقية الطيارين الذين سجلوا إصابات مباشرة لطائرات العدو أكثر مني، أعود وأكرر كما فعلت في السابق بأني لم أشاهد أحداً من طيارينا أثناء إسقاطه لطائرة معادية بالرغم من اعتقادي أن أحدهم قد فعل. أقدم هنا مثالاً. رافقني أثناء تبديل عناصر طائرات السرب في نهاية تموز 1943 الملازم

الأول "كوتشكار" الذي أفهمته حقيقة نوع نشاطاتنا حين أطلقت في الهواء عدة طلقات دون وجود لأي نوع من الطائرات. أبلغت بعد هبوطي عن إسقاط طائرة، إلا أن المذكور لم يترك الأمر بيني وبينه بل أوصل الخبر بعد مغادرتي إلى قائد السرب الذي كان في ذلك الوقت الكابتن "زابراجني". فأصبحت بعد ذلك ومنذ تشرين الثاني 1943 قائداً للسرب بداية في "فايندري" وبعدها منذ آذار 1944 في "بيشتاني" إلى 28.8 1944 حين التحقت بالانتفاضة الشعبية السلوفاكية. وقد انحصرت مهام هذه الكتيبة في حماية الأراضي ضد هجمات الطائرات الإنكليزية- الأمريكية. تم في أثناء غيابي تنفيذ عدة طلعات في منتصف حزيران 1944 حيث تمكنت الطائرات الإنكليزية والأمريكية من إلحاق الضرر بطائراتنا فوق براتيسلافا. فتم اختياري في آب 1944 في "بيشتاني" لتحضير ساعة البدء بالانتفاضة السلوفاكية. وفي التاسع والعشرين من آب أصبحت قائداً لسرب الطائرات بالاشتراك مع كتيبة "بيشتاني" في مطار "تري دوبي". قمت أثناء الانتفاضة بعشرين طلعة هجومية و قتالية مع القذف والتجسس. ثم انتقلتُ في الأيام الأخيرة من تشرين الأول 1944 وبناء على أوامر قائد سلاح الطيران إلى بلدة "دونوفالي" مع ثلاث طائرات. وأعطيت الأمر قبل وصول العدو إلى المنطقة بإحراق الطائرات وغادرت إلى الجبال بسبب الأحوال الجوية غير المناسبة للطيران باتجاه أراضي الاتحاد السوفيتي.

حين سألني والدي في البيت، أين كنت طوال هذه الفترة، أخبرته كل شيء — شعرت حقيقة بالحزن على تلك الميداليات. هز والدي رأسه وتطلع إلى البعيد دون أن ينطق بكلمة واحدة.

كان في تلك الأثناء يُضمد الجرح المزمن الموجود على ساعد "يان بلان". كان متقيحاً ورطباً وينزف أحياناً دون سبب.

"إنه بسبب العاهرين الكاثوليك...! قال غاضباً، وأنا لم أفهم ماذا يقصد بكلامه وشتيمته. هل يُعقل أنهم أطلقوا عليه النار في الكنيسة؟

شرح لي والدي في وقت لاحق أن عناصر الحرس "الغارديستي" من الكاثوليك، والثوار من الإنجيليين، سُمِح لهم في أثناء الحرب بتصفية حساباتهم براحة.

العم "رودو"، علق قائلاً — أجمل الجرائم ترتكب باسم *الحب*، والناس يفعلون ذلك لأكثر من ألفي عام.

5

تسلم والدي رسالة مكتوبة على الآلة الكاتبة لم يكن يتوقعها.

جمعية الثقافة والعلاقات الاقتصادية مع الاتحاد السوفيتي، مركزها براتيسلافا، شارع الكابتن "نالبكا"، رقم 1/19. هاتف 2598

بهذا الشكل بدت الترويسة التي كُتب تحتها:

في براتيسلافا ، تاريخ 3. نيسان 1947

السيد المحترم!

تتشرف جمعية الثقافة والعلاقات الاقتصادية مع الاتحاد السوفيتي بزيارتكم مصطحبة معها استمارة عضويتها وهي متأكدة من أنكم لن ترفضوها، كما ندعوكم إلى الانضمام بهذه الوسيلة للعمل على ترسيخ تلك التقاليد السلوفاكية التي تعتبر الأقوى، والأكثر فائدة لشعبنا في بناء التقاليد السلوفاكية.

إننا على يقين من أن أعضاء جمعيتنا لن يكونوا من المثقفين الذين يملكون الإمكانات العلمية لمعرفة الاتحاد السوفيتي قبل كل شيء فحسب، ولكن أيضاً سيكونون من العاملين الشرفاء جميعاً ومن أية مهنة.

18نيسان 1947، الساعة الخامسة صباحاً، نُفذ حكم الإعدام بـ "تيسو".

قُرعت الأجراس في عموم سلوفاكيا كما خرج الناس في ذلك اليوم بلباسهم الأسود.

وصل والدي إلى البيت بعد انتهاء زياراته المعتادة للمرضى، وأكد بجفاء: "نقص تروية دماغية مصطنع".

"توكا"* [49]، انتظر قبله المصير ذاته، يقال إنهم نقلوه على الكرسي المتحرك ثم ساعدوه إلى حبل المشنقة.

عدسات عيني أوبرجروبنفوهرر وافن-إس إس "هرمان هوفل" الذي انتصر في العديد من المعارك الدموية في أثناء الانتفاضة، ورافق إضافة إلى ذلك وهو في لباس إس إس في"بانسكابستريتسي" الدكتور "تيسو" أثناء إنشاد (الشكر لله) Te Deum Laudamus، طلبها الدكتور "ديرير" في سياق عملية إعادة استخدام النفايات وتصنيعها لأحد المرضى الشباب المصابين "بالكاتاركت" اسمه "توماش هوفوركا".

هذه الأشياء، وأشياء أخرى عديدة هزت عائلتنا أثناء تناول غداء يوم الأحد.

استعارت أمي من صديقاتها أخبار الأفلام؛ إذ قرأت هناك عن شيء خاص له اسم غريب. قرأت للحاضرين في أثناء تناول الحساء:

تؤرخ بداية ما يسمى "التلفاز"(من الكلمة الإغريقية تل و فيزيو- ومعناها الرؤيا عن بعد) إلى عام 1873 وهذا يعني أنه اكتشاف سبق الراديو والسينما والغرامافون. اكتشف في عام 1873 أحد عمال التلغراف أن جهازه يعمل بشكل مختلف خلال الأيام المشمسة عن عمله في الأيام الغائمة وعند هطول المطر. فأدرك المهندس الكهربائي في حينها أن لعبة الضوء والظل يمكن نقلها -أو إرسالها- بواسطة الموجات الكهرومغناطيسية. وأول تجربة للإرسال التلفزيوني تمت في عام 1912 في لندن باستخدام الكابل. ثم تمّ في عام 1926 استخدام التلفاز في أمريكا بوصفه مقدماً للأوبرا المثيرة. قامت شركة جنرال ألكتريك في عام 1928 بإرسال خطبة تنصيب الرئيس الأمريكي — الملتقطة من جهازين.

الأجهزة الجديدة لها عيوب كثيرة. فالصورة المنقولة، تُذكر بالعاصفة الثلجية. الممثل في أغلب الأحيان يبدو مزدوجاً، ويراه المشاهدون أحياناً

---

[49] توكا فويتخ 1880-1946 سياسي، محام تعاون مع النازية

ثلاثة. وحين ينهض عن المقعد ويقوم ببعض الخطوات على المسرح، يبقى كتفه غالباً في وضعيته الأساسية في حين تنتقل أطرافه إلى الصورة وما تبقى من الجسم يتأرجح في الوسط. المشاهدون الجالسون أمام الشاشة ينزعجون ولا سيما حين يتابعون لعبة الهوكي لأنهم يرون أربعة وعشرين لاعباً بدلاً من اثني عشر لاعباً ولكنهم يقيمون إيجابياً على عكس عرض المباراة في السينما عدم معرفتهم للنتيجة، وأكثر من ذلك يمكنهم التمتع بالمباراة وهم جالسون في بيوتهم كما يتمتع بها الإنسان الجالس مباشرة في الصالة الرياضية.

الممثلون المعتادون على الراديو، يتأقلمون بصعوبة على العمل في التلفاز لأنهم لا يستطيعون قراءة النص الذي عليهم حفظه عن ظهر قلب. كما تسيطر على أجواء الاستوديو حرارة تفوق الوصف بسبب الأضواء القوية التي تحتاج إليها كاميرات التصوير. ففي أحد استديوهات شيكاغو، وأثناء تصوير مشهد لقاء عاشقين، كان من المفروض إشعال الشموع — تلك بدأت بالذوبان تدريجياً والانسياب على غطاء الطاولة. وكان على العاشق أن يعطي تفاحة لعشيقته ولكن التفاحة التصقت بقوة بالشمع. وإلى أن يجد التلفاز طريقه إلى بيوتنا عليه إيجاد الحلول المناسبة للعديد من المشكلات.

ربما حدث ذلك قبل عدة أسابيع من ذلك اليوم المصيري الذي القوا فيه القبض على والدي. حضرت العمة "أنطونيا"، أخت والدي غداء الأحد بشكل استثنائي.

قطبت حاجبيها أثناء تناولها الحساء. شعرها الطويل الجاف قسمَ وجهها الذي كانت تحب تغطيته. الجميع ينادونها "تونيتشكا" [50] وكأنها ستبقى طفلة صغيرة إلى الأبد. كانت تنزعج من ذلك مع أنها لم تكن بعيدة في تفكيرها عن الصبايا المدللات. وكانت زيارتها لنا قليلة لأنها تسكن في زاوية بعيدة من المدينة التي كان من المفروض أن يُطلق عليها اسمها الخاص. نادراً ما كانت تخرج من البيت. لم تكن تهتم بالعالم المحيط بها ولا حتى

---

[50] تونيتشكا : تصغير لاسم أنطوني

بالرجال مما تسبب ولا سيما بعد تخطيها الثلاثين في عنوستها. تتذكرنا عادة عند اقتراب عيد ميلادها لأنها لا تريد تمضية ذلك اليوم وحدها إذ يُحظرُ علينا النطق بذلك، ومع كل هذا كنا نحتفل. وكانت أمي بمساعدة من "تركا" العظيمة تقوم بتحضير "التورتا" وتتظاهر بأنها تحضره بشكل روتيني. والدي يعطي "تونيتشكا" هدية بطريقة لا تثير انتباه أحد لأن العكس يمكن أن يتسبب في حدوث فضيحة. الأشياء التي حصلت عليها في نهاية أيار كانت تَظهرُ عادة تحت، شجرة عيد الميلاد لأن "تونيتشكا" لم تكن تملك الفانتازيا ولا حتى الرغبة في شراء أشياء جديدة أخرى.

لقد حصلتْ الآن على وزن من الزجاج لتثبيت الأوراق يوجد في داخله زهور ملونة رائعة. وقد أسعدني ذلك لأني كنت أتمنى دائماً الحصول على شيء كهذا. غطتها في الحال بحقيبتها.

العمة "تونيتشكا" تخاف من الرجال، ولكنها تتحدث بحرارة عن الرجال الذين يخافونها. ولقد تمكنت في حالة واحدة فقط من تخطي حواجزها.

هذا الرجل كان يتمشى على الدوام مع كلب أسود.

بعد تناول طعام الغداء، والقهوة من بعده جعلوا يلعبون البريدج في غرفة الجلوس على الطاولة التي نظفتها "تركا" من الصحون. أمي وأبي، العم "رودو" و"تونيتشكا".

"هل قال لك بحق إنه بحاجة إلى تلك النقود للدراجة النارية؟

"كونترا!"

"وزع الورق من جديد."

"كان لطيفاً بشكل."

"حسناً، ولكن..."

"وذاك الكلب، كان رائعاً."

"خرت [51] ذهبي؟"

---

[51] خرت: نوع من الكلاب الأليفة

"خرت، أسود!"
"باص!"
"باص!"
"وكم أقرضته"
"كل شيء."
"كونترا!"
"ري!"
"أخبرتني "هلينا" بعد ذلك أنه اقترض منها"
"وطلب يدها أيضاً؟"
"دعنا لا نتحدث عن ذلك باص"
"الحب هو.." قال "رودو" وهو يتلمظ.
"اخرس!"

6

الفصل الأول من قضية والدي حدث أيضاً في عام 1945.

تعتبر عائلة "لفندوفسكي" من العائلات المشهورة في "بريجاني". عمل العجوز "لفندوفسكي" سنوات طويلة بوصفه كاتب عدل. لم يخطر بباله من شدة تأثره، وكان ذلك على أبواب نهاية الحرب وبعد عبور الجبهة وانتقالها شيئاً أفضل من ارتداء أفضل بزة يملكها والسير على قدميه، وعبور المدينة بأكملها، ويده على قلبه بهدف الوصول إلى قصر "الغروف" ومن ثم طلب الإذن بمقابلة قائد القوات الروسية الموجود هناك. لم يرغب في شيء آخر اعترافاً منه بالجميل سوى دعوته مع هيئة الأركان إلى حفل عشاء احتفالي عنده في البيت بعد يومين فحسب. قبل الروس دعوته. فشعَّ وجه "لفندوفسكي" فرحاً وسعادة لأنه من غير المعقول أن يمر الأبطال من "بريجاني" دون زيارة فيلته.

سارت الأمور على أحسن وجه — أكلوا وشربوا ، وأطلقوا النكات، تناوبت الروسية المُكسرة مع السلوفاكية المُكسرة. وحين انقطع التيار

الكهربائي بشكل مفاجئ في منتصف الأمسية، قام الجنود الروس واحداً تلو الآخر باغتصاب الصبية "ماريا لفندوفسكا"، ابنة كاتب العدل. وقيل إنهم احتاروا بعد ولادتها، ولم يعرفوا طويلاً اختيار الاسم المناسب لها — إلى أن حضرت جارتهم للزيارة وقالت لهم: *كيف لا ، وهل نسيتم، وأين اسم العذراء "ماريا"؟* وبذلك اصبحت "ماريا" — ولكن الحمل الجديد بقي سفاحاً، وهذا لا يختلف فيه اثنان. *روح القدس* لا يلبس في العادة بزة عسكرية روسية.

أصيبت العائلة بالصدمة، و الرعب حين اكتشفت "ماريا" بعد فترة من الزمن أن *عادتها الشهرية* قد انقطعت، وأن حياة جديدة تنمو تحت قلبها بالتأكيد. طمأنوها قائلين إن ما يحدث لها سببه الهزة التي عاشتها، وعليها الانتظار قليلاً حتى تنجلي الأمور. "لفندوفسكي" لم يخبرأحداً بما حدث وحافظ على صمته — يجب ألا يتسرب الخبر، وألا يعرف أحد في "بريجاني" أن ابنته فقدت عذريتها، وأكثر من ذلك من قبل *الأبطال*!

توجب عليهم بعد وقت تقبل هذه الحقيقة.

دافعت "ماريا" طويلاً عن نفسها، ولم ترغب في سماع أي شيء عن ذلك الموضوع، ولكن والدها ووالدتها اتخذا قرارهما.

"ماذا سيقول عنا الناس...؟!"

درسوا فترة احتمال تدبير زوج لها كي يبقى كل شيء *a jour* ولكنهما لم يعثرا على إنسان مناسب. الزمن يمر. وافقت "ماريا" التعيسه في النهاية.

يعتبر *إجهاض* الجنين حسب المادة 144 من قانون العقوبات من الممنوعات. والدي كان يقوم بتلك الأعمال في السر، وبسبب اضطراري آخر هو ألا تقوم به "نبساروفا" التي كانت سمعتها في ذلك المجال سيئة للغاية. إذ ماتت ثلاث فتيات في عز شبابهن في "بريجاني" خلال السنوات الأخيرة ولم يكن من الصعب تخمين السبب.

وهذا ما حصل.

حرارة الصيف المرتفعة تمتد حتى منتصف الليل. الفراشات تطير حول المصباح المشتعل الموجود فوق طاولة المطبخ وتصطدم به ثم تسقط على الغطاء محدثة ضجيجاً. الخيالات تتحرك على الجدران...على الأقل هذا ما أتصوره. ربما تكون عاصفة، لا أعرف.

قاموا بتجريب طرق أخرى – بداية بيتويترين وبعد ذلك بيتوغلاندول، كان لدى والدي كمية محدودة وغير كافية. فلم تنجح الطريقة. تابع الجنين نموه، ولم يُحضر نفسه لترك فردوس والدته.

ولم يعرَف أحد سبب ما حدث. لقد أجرى والدي عشرات العمليات المشابهة وكانت لديه خبرة جيدة بما يخفيه جسد المرأة. جدار رحم "ماريا" الذي انتشرت فيه الأوعية الدموية العريضة بقي طرياً مثل الزبدة.

لم تتعرض أدوات الجراحة إلى أي مقاومة ومن ثم ثقب والدي الرحم ووصل إلى جوف البطن، لو أنه انتبه وأوقف العملية في الحال ربما كانت ستنجو دون مضاعفات. ولكن رأسه في ذلك المساء كاد أن ينفجر – لقد جافاه النوم عدة أيام – ولم ينتبه إلى شيء. بدأ يُفَرِّغ بأدواته الطبية – على طاولة مطبخ "لفندوفسكي" – محتويات البطن بدلاً من محتويات الرحم. ثقب البريطوان، والأمعاء وحين بدأ بسحب ما اعتبره جنيناً صلب الرأس لا يريد الخروج قبل الوقت من جنة والدته وجد أمامه الأمعاء الدقيقة. هنا أدرك خطأه.

اتفقوا على إبقاء الأمر سراً، ولكن أحدهم وشى به. الشكوك وقعت على ثلاثة من الذين يعرفون الأمر، الرابع لم يتحمل وفارق الحياة. لم يُعرف إذا كان "لفندفسكي" أم "لفندوفسكا" وإذا كان السبب هو اليأس أو الانتقام علماً أن من يريدون الانتقام منه لم يعد لهم وجود. المسببون عادوا إلى وطنهم الكبير، وهم يتذكرون الآن في طريقهم أجمل لحظات حياتهم. بقي أبي في الواجهة.

الأخبار السيئة تصل عادة بسرعة البرق.

حين فارق جدي "بلاو" وجدتي الحياة ، وحين سافر العم "ألبرت" في العالم، وحين بقي "أرمين" مستلقياً ووجهه على الباركيه الوسخ، وحين

تلقى والدي إستدعاء من المحكمة، وحتى حين أخبروه أنهم بعد أخذهم بعين الاعتبار الظروف المخففة جميعها، سينال عقاباً بالسجن لمدة سنتين.

7

أخبرنا أبي أن ما أنقذه وأبقاه على قيد الحياة في السجن هو التفاح — استغربوا كيفما شئتم–، نعم التفاحة. التفاحة التي كانت تصله مع الفطور.

كم من المرات تطلع إليها وعرف بالضبط وصف تفاصيل كل جزء من سطحها الأحمر، الأصفر، أو الأخضر. كان يُلمعها بشكل جيد ويتطلع إليها. لقد عكست الزنزانة بأكملها. تمكن من تأمين تلفزيون خاص مع جهاز التقاط بسيط ومقبول. استلقى على السرير وكانت التفاحة الشيء الوحيد – باستثناء النافذة المحددة – ينشر الضوء. بدا أنها تجمع في داخلها كل ما يبعث الضوء إلى أن يهبط الليل ويشعلون مصباح السقف المُقرف الذي بقي حتى العاشرة. بعد ذلك يحضر الليل. فيبدو المصباح وكأنه امتص الضوء — فينير فترة طويلة مع أن كل شيء قد انطفأ بشكل نهائي. أكل التفاحة بعد ذلك.

حافظ على عادته مع التفاحة حتى حين تقاسمها بأكملها مع سجينين.

نقلوه إلى سجن "بوري" في بلزن بسيارة "أنتون" خضراء. ظن في وقت لاحق أن السبب هو نقص عدد الأطباء في تلك المرحلة الصعبة. نزل من السيارة في ساحة السجن الواسعة. فقرؤوا اسمه وخصصوه بزنزانة.

تسلمه رئيس الحرس "باركل"، نحيل تأثيرالسجن عليه في الداخل يُشبه تأثير معبد طائفة مجنونة — وجوه بيضاء مريضة بعضها نحيلاً وغيرها منتفخ إضافة إلى خطوات الحراس الذين يتحركون مثل القطط. السجناء الذين التقاهم في المعابر كانوا يقفون أمامهما في حالة استعداد وينزلون قبعاتهم. السكون سيد المكان الذي يشوشه صوت ما آت من البعيد. حبس والدي نَفَسهُ حين دخل إلى الباحة الدائرية للسجن الموجودة في الطابق الأرضي. شيء يُذكر كثيراً يقارب المعبد، ارتفع إلى الأعلى، فانتشرت منه معابر يصل طولها إلى مائة متر، وشكلت نجمة بثمانية رؤوس.

رافق "باركل" والدي إلى القبو حيث توجب عليه خلع ثيابه جميعها. لم يُسمح له بترك ولا حتى منديل الجيب. بعد التفتيش الدقيق الذي تحمّله بصعوبة، لبس ثياب السجن المصنوعة من قماش سميك بني على رمادي إضافة إلى قميص شاحب وغيار داخلي. طاقية، ورباط سميك للساقين، وحذاء عسكري سميك... قادوه بعد ذلك عبر ممرات طويلة وسلالم ضيقة ودهاليز محمية بالشبك، وبين بوابات وجدران مطلية بألوان خضراء وبنية تبعث على الكآبة – إلى زنزانة صغيرة كان الحراس في بزاتهم الزرقاء الغامقة يتناوبون في التطلع إلى داخلها والصراخ حين يشكون في حدوث شيء غير طبيعي. خاف والدي من سجنه مع *الذئاب* – المجرمين الحقيقيين الذين يمكن أن يشكلوا خطراً على حياته، وربما يقتلونه. نقلوه بعد فترة إلى مشفى السجن حيث وجد نفسه بين أقرانه.

تفاجأ في الليلة الأولى حين سمع أصوات طرقات "مورس"– على الجدران، وعلى أنابيب المياه ومشعات التدفئة التي تُعرف بكل شيء ممكن. والدي في البداية لم يعرفها، وبقي في الزنزانة مثل الضرير الأخرس. أصيب بحالة من الكآبة الشديدة، فقد خاف من السجناء الذين التقاهم في المعابر وفي المطعم وأثناء مشاركتهم في صقل اللؤلؤ الصناعي وغيره من الحجارة في القبو. غالبيتهم تباهوا بأفعالهم – سمع مئات المرات في ظروف مختلفة عن حارس الطرائد الذي قام السارقون برميه في كثبان النمل كي يختفي عن الوجود ولا يبق منه أثر، وعن الزوجة التي ضربها زوجها بالمطرقة ولفها بعد ذلك بالسجادة الموجودة على الشرفة التي وقف عليها أولادها حين أرادوا معرفة اللحظة التي سترجع فيها والدتهم من مهمة عمل.

اشترى أولاً بأول السجائر من المال القليل الذي حصل عليه إضافة إلى التفاح الذي شكل الفرحة الثانية.

أجمل اللحظات التي قضاها والدي هناك كانت لحظات التدخين والتطلع إلى التفاحة.

أكثر ما أدهشه مباشرة في أول يوم أحد هو إمكان مشاركته حسب نظام السجن في قداس يوم الأحد في كنيسة السجن الصغيرة. أراد التهرب من ذلك الروتين القاتل. وحين مر بالقرب من الحراس المنتشرين بمحاذاة الجدار استغرب رؤية فوهات البنادق المخبأة وراء المحراب، تماماً مثل استغرابه حديث الأب "زيكان" الذي أطلعه أثناء الاعتراف الذي لم يحصل من الناحية الإجرائية التكنولوجية على آخر التوقعات السياسية التي ستحدث في الخريف القادم.

تحسنت الأوضاع قليلاً حين نقله طبيب السجن الدكتور "تشنكا" إلى مشفى السجن لأنه لم يتحمل ضغط العمل. تسلم والدي في الحال أمر العناية بالسجين الذي جعل يتبول الدم مباشرة بعد انتهاء التحقيق كما أصيب بنوبة صرع شديدة. وحين فحصه اكتشف أنه مصاب بأذية كبيرة في البطن.

عشنا أثناء فترة سجن الوالد حياة مضطربة — حاولت والدتي البحث عن عمل ولهذا السبب ذهبت إلى فندق "الغزال الذهبي" وعرضت عليهم العمل كنادلة. حتى إنها حصلت على كتاب خاص بعمل النادلين ودرست أسماء المأكولات الفرنسية. هذا ما طلبه منها صاحب المطعم السيد "أنغيال".

"*ابريكو*... المشمش، *إضريفين*... سمك القد، *ا لآ*... على طريقة، حسب..."

أحياناً كانت تبيع، ولكن أعمامنا ساعدونا. كان عليها توديع مربية البيت "تركا".

"*كانابي*... خبز مُقمر مدهون بالكافيار أو بباستا اللحم. *كاس كروتي*.. فطور مع النبيذ أو فطور دسم، *شابليس*... نبيذ أبيض بورغوني..."

لم تحصل في النهاية على وظيفة النادلة في الفندق — الأوقات صعبة، قال لها المدير، عندنا كفاية من المستخدمين، أعتذر. بقيت في ذاكرتي العديد من تلك التعابير التي امتحنتُ والدتي بها في أمسياتنا — تماماً كمافعلت هي معي في مادة الجغرافيا وتاريخ مدن سلوفاكيا.

"فورستير أو فور... أكل مطبوخ في الفرن، بطاطا مقلية... قطع لحم مطبوخة في المرق مع البهار، جوراسين... مقبلات مع البصل والفطر والدهن المدخن، بيس دي رزيستانس... الوجبة الرئيسة."

عملت أخيراً في "UNRRA أونرا" وبفضل هذه الوظيفة وجدنا في بيتنا ما يكفي من العلكة.

استعان أبي خلال تلك الفترة بأحد طلاب الطب الجدد كي يُشرف على العيادة. كان غاضباً على الدوام وعلى الرغم من أن اسمه "شكوريتسي" (القرفة) إلا أن رائحته تشبه رائحة التِّيس. والعديد من المرضى تمنوا أن يكون العكس هو الصحيح.

لمحتُ مرة في المساء والدتي وهي تأخذ المفتاح من طاولة انفرادية والدي وتفتح فيه الخزنة الصغيرة الموجودة في الجدار حيث تعود والدي إخفاء الأشياء الثمينة. ثم أخرجت في الضوء الضعيف ألبوم الأوراق النقدية النادرة وجعلت تتصفحه.

حين مررت بعد نصف ساعة بالقرب من الغرفة وجدتها جالسة تتطلع وتفكر في الورق المقوى الأزرق. ولكنها قررت فجأة في إحدى اللحظات بعد ذلك إعادته إلى الخزنة وأرجعت المفتاح إلى مكانه الأصلي. لم تحن اللحظة المناسبة – فكرتْ بالتأكيد كما أحست للحظة وكأنها في تلك الحكاية المؤلمة التي تتحدث عن الخاتم السحري والأمنية الوحيدة التي تؤجل، وتؤجل.... وتؤجل.

ستأتي أوقات أصعب.

المرة الأولى التي ذهبت فيها إلى السينما برفقة "فويتا" كانت لمشاهدة فيلم "قراصنة الكاريبي". كان بالألوان في سينما "سلوفان".

رغبت في الأصل في دعوة "سوزانا كاباتوفا"، الجميلة المجنونة سوزانا. حتى إني اشتريت بطاقتين لعرض السابعة والنصف، ولكن قدمي أصبحتا ثقيلتين وفقدت صوتي في اللحظة التي كان عليّ البدء فيها بالخطوة الحاسمة – حتى إني حاولت فعل العديد منها! في الشارع، وعبر الهاتف، في المدرسة... لكن فشلت في التعبير.

إن دعوة "فويتا" لم تكن مشكلة. أكثر من ذلك كان حظه مثلي مع "يانا بودوبوفا".

من أوقات رؤيتنا للمرأة الميتة التي التقطتها الأعشاب المائية على ضفاف نهر"سالافا" أثناء عبور الجبهة لم يتركنا جسد المرأة ننام. إن الأعضاء التناسلية للكبار من النساء والرجال تشد الصغار بشكل سحري. وإذا كنت في الثالثة عشرة... دخلنا في مناقشات طويلة حول أسئلة يصعب الإجابة عنها.

أتذكر أننا مرة وبسبب رغبتنا في التوضيح تسلقنا سطح منزل "فويتا" بعد ذهاب والديه لمتابعة يوم الطيران، وجعلنا نراقب "ماجدا لفندوفسكا" الأخت الكبرى للمرحومة "ماريا" التي كانت تتشمس عارية على الشرفة الموجودة بين منزلين مرتفعين وكانت متأكدة من أن لا أحد يمكنه رؤيتها.

عشنا لحظات ساحرة وفي الوقت ذاته مقرفة. وكل ذلك بسبب لعنة الشّعر – الذي اعتبرناه شذوذاً عند المرأة في "سالافا" سببه الغرق. تخيلناه شيئاً وسخاً، وكريهاً، وسرياً – ربما مثل عش العنكبوت، وهكذا بالتمام لم نتمكن من إبعاد أعيننا عنه.

راقبنا مرة رجلاً وامرأة في المساء بالقرب من إحدى الفروع الميتة لـ"سالافا" كيف يسبحان عراة بين القصب.

أتذكر الفيلم جيداً لأني كنت أتخيل على الدوام كيف سيكون الوضع لو جلست "سوزانا كاباتوفا" بالقرب مني. أمسكت في النهاية بغية إكمال الصورة يد "فويتا" الذي لحسن الحظ لم ينتبه إلى فعلتي.

كان أبي يتذكر ليلة عيد الميلاد من عام 1947 التي أمضاها في السجن في كل سنة. كان يكرر ذلك لدرجة جعلت "بتر" يتركنا ويغادر الصالون من القرف ويبدأ الصفير في الحمام.

الضجيج كان يتلاشى عادة في حوالي الثالثة، والدي مع زملائه الدكتور "ماير" والدكتور "هايسكي" جعلوا ينصتون من خلال الجدار كيف يغني السجناء الألمان بصوت ضعيف stille Nacht , Hejlige Nacht في حين يُسمع من الجهة الأخرى صوت إنشاد *جاءنا اليوم*

الرائع الذي يجب على كل إنسان أن يشعر فيه بالسعادة، كما انتشرت من مكان ما رائحة القرفة الحمراء التي هربها أحد المجانين سراً إلى هنا وأشعلها. والدي جهز نفسه لفتح طرد عيد الميلاد الذي قدمته له مع أمي، ومع "بتر" و"تينا" أثناء زيارتنا له قبل يوم من العيد، وقبل أن يلحق حل عقدة الخيط، حضر من أجله السجان الذي طلب منه مرافقته إلى المكتب. سلمه طرداً آخر كُتبت عليه أحرف يصعب قراءتها (والدي عرف أنها ألمانية فحسب) مع أربعة أحرف كبيرة : ل ي ل ا . أبلغه السجان أن الطرد أحضرته سيدة رافقها القنصل الفنزولي الذي بسببه يمكنه الآن إمساكه بين يديه. كان الطرد بحجم مذياعنا الـ"تونغسرام". اكتشف والدي مع زملائه في داخله العديد من الطيبات — الجبن، السجق المُدخن، وقطع الحلوى — ستين بيضة ملفوفة بعناية مما أوقعهم في حيرة لأن إرسال هذه الكمية من البيض إلى السجن يعتبر شيئاً غريباً.

الدكتور "هايسكي" أكثر من ذلك، نبه والدي إلى أن بعضها مثقوب، ثم قام في الحال بلحس الصفار الذي كان يُنقط من إحداها. تجمد فجأة، تأتأ، وصرخ قائلاً إنه ليس صفاراً بل كونياك بيض.– لنشرب إذاً!– فرح والدي وجهز الصحون وجعل يكسر واحدة تلو الأخرى. اكتشف وجود ثقب صغير في كل بيضة تم غلقه بالشمع الذي قام أحدهم من خلاله بتفريغ محتويات البيضة مستخدماً رأس إبرة الحقن وتبديله بالمشروب الكحولي.

أبي لم يكتشف أبداً من أرسل له ذلك الطرد.

عن شباط، وعن سقوط الحكومة، وعن الشيوعيين الذين انقضوا عليها أيضاً بفرح، أخبره الأب "زيكان" إضافة إلى زملائه. كان ذلك متوقعاً منذ زمن — القوى السياسية اليمينية جعلت تتصارع فيما بينها. كانت فاسدة إدارياً وذات تطلعات مختلفة في حين كان للشيوعيين هدف واحد – التخلص منهم بشكل نهائي. كان ذلك واضحاً ومعلقاً في الهواء وفي نبرة الكلام، وحتى في الطعام الذي بدأ يتحول نحو الأسوأ. وبدأت طلائع الزبائن الجدد بالوصول إلى "بوري". كانوا يُطلقون عليهم اسم

"كوبتشكاري" (رجال التلال). أرادوا الهروب بهدوء من الجمهورية حيث ستكون بانتظارهم هناك خلف التلال في مكان ما من ألمانيا أو النمسا حياة سعيدة. أحضروهم إلى هنا من الحدود مثل النعاج إلى المسلخ حيث امتلأ مشفى السجن بعد التعامل معهم.

هنا، نده "باركل" على أبي بصوته العذب أو على أحد زملائه:

"دكتوررررر!"

هجموا على الرجل صاحب الشعر الأشقر بقبضات مسدساتهم وأوسعوه ضرباً على وجهه، فسقط على الخزانة الملأى بالوثائق، وضرب رأسه بالباب. هنا آجر به آخرون وضربوه بما كان بين أيديهم إلى أن توقف عن الحركة. فتمدد في بركة من الدم توزعت فيها أسنانه مثل حجارة اللعب القاتلة.

"دكتوررررر!" سُمع صوت عذب في المعبر.

الزنزانة الموجودة تحت الأرض رقم 3 بجدرانها الحليقة ومصباحها الذي يدعو للشفقة وهو يتدلى من السقف داخل شبكة حماية حديدية، عُلقت على جداره المقابل للباب الملطخ ببقع صدئة دائرة حديدية. أمر الحارس ذلك الرجل الطويل ، الخائف والمشبع ضرباً، بالصعود على الكرسي حيث قام بربط يديه المنسدلتين بالدائرة الحديدية. وحين رفس الكرسي بقي السجين معلقاً وهو يصرخ، الأصفاد كانت تضغط وتجرح نهاية ساعديه. بدأ الحارس بضربه على رأسه وبطنه بشهية حتى غاب عن الوعي. أضيفت بقع جديدة إلى البقع الصدئة الموجودة على الجدار.

"دكتوررررر...!" سُمع في الحال صوت فتح الباب الذي ألقي من خلاله بالرجل الغائب عن الوعي في زنزانة مشفى السجن.. عرفه والدي في الحال. حتى الأمس، رجلاً قوياً ملئياًبالحيوية، ولكنه تحول اليوم إلى خرقة. قبل ثلاث سنوات لم يلحق الألمان شنقه في سجن "باكراتس". ربما سيقوم غيرهم بذلك هنا أخيراً.

أخبرنا أبي أنه أُجبر في إحدى المرات على مرافقة الحارس "بركل" لمعالجة أحد المرضى في القسم السادس حيث تمكن هناك من رؤية صورة

باروكية. ورأى في الورشة الكبيرة ما يقارب الخمسين راهباً كاثوليكياً وهم ينظفون الريش. عملوا بصمت وهم يتنفسون الهواء المشبع بالخصل الطائرة التي ملأت كل شيء تماماً كما يفعل الثلج حين ينهمر بشدة.

جاء بعد ذلك خبر استقالة الدكتور "إدوارد بنش" من منصبه في التاسع عشر من حزيران 1948 وانتخاب مجلس النواب لـ" كلمنت غوتوالد" ليحل مكانه في رئاسة الجمهورية. تطلع والدي في اليوم التالي مساء إلى تفاحته للمرة الأخيرة.

تذكر والدي سنوات طويلة بشكل جيد 21. حزيران 1948. كان يوم الاثنين حين طلبوه إلى مكتب السجن حيث كانت بانتظاره هناك سيدة بدينة متقدمة في السن ذات ملامح قاسية، (تذكر أيضاً كيف كانت تتعرق في ذلك اليوم الحار وطبقاً لذلك شخص عندها داء السكري). أخبرته أنهم سيطلقون سراحه في هذا اليوم بناء على عفو صادر بمناسبة تولي "كلمنت غوتوالد" رئاسة الجمهورية. وقع عدداً من الأوراق، وعاد إلى الزنزانة لتوضيب أغراضه وتوديع زميليه اللذين حملاه بعض الرسائل لذويهم. نقلوه بعد ذلك إلى رواق السجن ليلتحق ببقية السجناء المستفيدين من العفو – تزاحموا حول الطاولات التي جلس خلفها عناصر حراسة السجن الذين أنيطت بهم مسألة إنهاء الشكليات. وهنا سمع قهقهة ترافقت مع حوارات حماسية.

حين ظهرت بعد فترة كاميرات التصوير، نده "باركل" على والدي. تنحى به جانباً وسأله ما إذا كان يتحدث الألمانية أو الإنكليزية. أجابه أبي: قليلاً من كل واحدة. فقدم له بعد ذلك رجل قصير القامة في طقمه الأزرق، مراسل ب ب سي الذي سأله أمام الكاميرا عن شعوره بعد العفو. وقف الحارس "باركل" بمحاذاة والدي كما طلب من أحد السجناء ترجمة كل ما يقوله همساً في أذنه، ولهذا فإن والدي أجاب عن السؤال المطروح حول الأوضاع السائدة بعدة كلمات. الطعام جيد، والسجانون يعاملوننا كأصدقاء. أدرك عدم وجود وسيلة أخرى. توقفت الكاميرا، وهز المراسل يد والدي وتمنى له حظاً جيداً – ثم انتقل بعد ذلك مع المصور

وعدد من السجانين إلى سطح السجن حيث قام من هناك بتصوير مشهد رائع للباحة المكتظة بالمساجين.

أعاد "باركل" والدي إلى مكانه في الصف مما أزعج زملاءه الذين أعياهم الصبر، ومع ذلك استغرقت العملية عدة ساعات لأن السجانين لم يجهزوا أنفسهم لمثل تلك الحالات ولم يكونوا بالأصل مهيئين لها، وربما كانت تنقصهم الأهلية الدماغية. تطلع والدي من حوله — تعرف إلى غالبية السجناء من خلال الفحوص الطبية وبعض العمليات — وقف هناك منتهكو النظام، والمهاجرون الفاشلون، والمتعاونون، وبعض اللصوص ومثيري الشغب، سجناء سياسيون ومستغلون، خليط غني في كومة بشرية من الزوايا التي تعرفونها جميعاً.

فُتحت بوابة السجن الأخيرة الموصلة إلى العالم الخارجي في وجه أبي قبل السابعة بقليل حيث التقى بغروب صيفي وجمهور غفير ينتظر السجناء. والدي لم ينتظره أحد لأننا لم نكن نعرف عن إخلاء سبيله، ولكن هذا لم يؤثر في شيء على الإطلاق لأن امرأة سعيدة غير معروفة ارتمت بين ذراعيه وبدأت بتقبيله. عانقته بعد ذلك امرأة أخرى. بعضهن كن يرتدين بزات الصقور ربما على شرف مؤتمر الصقور العام الذي عقد في براغ في تلك الأيام. الناس يبكون ويعانقون آخرين أُطلق سراحهم . تخلص والدي من تلك الزحمة، وحين خطا بضع خطوات، أحس بالدمع ينهمر على وجنتيه. لم يتمكن من إيقافه. فلم يبك منذ سنوات، ولم يكن ذلك من طباعه.

أحدهم نحره من الخلف — زميل السجن الذي حُكم عليه لارتكابه جريمة اغتصاب وكان يقف في الصف الثاني في ساحة السجن.

"السيد الطبيب، السيد الطبيب...! همس في أذنه، حتى إن والدي أحس برائحة فمه البشعة، وكان في تلك الأثناء قد أمسكه من ذراعه. "بسرعة، بسرعة، لا تتطلع حولك!"

مسح أبي دموعه، كان أنفه معبأ بالمخاط، أخرج منديل الجيب.

"هل تسمعني، ياالصليب؟ سرِّع الخطى! كل شيء عبارة عن خدعة!"

تركه الرجل بعد ذلك وهرع مسرعاً باتجاه حديقة "بوري" الكبيرة الموجودة في الطرف الثاني من الطريق.

سَرع والدي خطاه، أراد أن يلتفت لمعرفة ما يهدده، ولكنه صبر وتحمل. فاصطدم أيضاً ببعض الذين حالفهم الحظ. حين مر بين مجموعة من النساء المسنات، انتبه إلى وجود موقف باص في الطرف الثاني من شارع "كلاتوفسكا" حيث يقف الناس.

بدأ يتعرق بسبب التوتر المفاجئ. *لا تتطلع من حولك!* تخيل أنه سمع خطوات تلاحقه، أسرع من جديد. نزل عن الرصيف وعبر الطريق بعد أن تراجع لسيارتين. اقترب الباص الكسول الذي غطاه الغبار من الموقف. وأحس والدي أن العرق ملأ ظهره، وانسكب على جبينه كما ينسكب ماء البحر.

نقز حين هجم رجلان في ثياب مدنية على أحد المساجين من الذين يعرفهم والدي قليلاً من مطعم السجن وألقوا عليه القبض في تلك الزحمة.

توقف الباص المُرقع في الموقف. فُتح الباب، دفع والدي أحد المسنين مع عصاه واندفع باتجاه الدعسة. قال فحسب: *المحطة الأخيرة*.... — لم يخطر بباله شيء آخر. السائق العجوز ذو العينين المائيتين اللتين تذكران بعيني السمكة المتعبة، هز رأسه وسلمه بطاقة السفر التي سحبها من الآلة الحاسبة. همهم العجوز من وراء ظهره شيئاً كما أضاف آخر "ريح من أحدهم" قوية مما جعل القسم الأمامي من الباص يغرق برائحة فظيعة . أحس والدي أن الوقت الذي أمضاه بين دفعه بعض القروش ثمناً للبطاقة وتسلمه لها كان طويلاً إلى ما لانهاية. إذاً إلى المحطة الأخيرة. جلس في نهاية الباص وأغلق الستارة الواقية من الشمس.

تحرك الباص بعد ثوان طويلة من مكانه. أحس والدي بضربات قلبه من شدة توتره، ولم يُقدر ما عليه فعله. المسافرون من حوله لم يعرفوا شيئاً. رموه بنظرات فارغة لعمال في طريق عودتهم إلى منازلهم،

يفكرون في وجبة العشاء. وحين أبعد والدي الستارة وراقب جموع الناس الواقفين أمام بوابة السجن، أزاحه أحدهم فجأة برفق وجلس بجانبه.

عرف الوجه. قام مرة بتضميد جرحه بعد التحقيق. لقد التأم أنفه بعد الكسر بشكل جيد، ولكنه سعل قليلاً إلى جهة اليسار. سأل: ما الذي يحدث هنا بربك. وأضاف، العفو بأكمله عبارة عن خدعة تم فبركتها للصحفيين الأجانب، كي يعرفوا إنسانية الشيوعيين وتسامحهم. عناصر الأمن موجودة حول السجن وتقوم بالقاء القبض على من تم إخلاء سبيلهم من جديد. لم يحسبوا حساب أولئك الذين كانوا أمام بوابة السجن خوفاً من حدوث اضطراب ومشكلات، لهذا تمكن العديد منهم من الهرب. أكثر من يهرب من قبضتهم هم أولئك الذين لا يتوقعون حدوث أي شيء.

عاش والدي حالة من التوتر استمرت عدة أيام إلى أن تمكن من الوصول إلى "بريجاني"- استغربنا جميعاً. تبين بعد ذلك أنه من أولئك الذين أرادوا إطلاق سراحهم.

بعد عودته من السجن خفَّ سمعه. قال إن ذلك بسبب سوء المعاملة. لم يظهر هذا الخلل بشكل واضح. أحياناً كان بحاجة إلى تكرار السؤال أو الجواب. وكان يجد العذر بشكل دائم - ضجيج، خرير، أو أي شيء آخر - ويضحك أثناء ذلك.

الفائدة الوحيدة التي جناها من إقامته في سجن "بوري" كان حفظه نص الأغنية الموسيقية التي تمجد ستالين، وبالرغم من محاولاته جميعها لم يتمكن من التخلص منها حتى نهاية حياته.

من جهة إلى جهة
حيث النسر فوق العلالي يُحلق ويُغني
عن ستالين الحبيب، أغنية رائعة....

لقد كانوا في الأشهر الأخيرة يرسلونها كل يوم من إذاعة السجن.عاد أبي إلى البيت في الوقت المناسب.

8

عودة إلى قطع العظم.

جاري "إيغور" يعمل في مبنى كئيب يحمل اسم "قسم *الطب الشرعي العائد لجامعة كومنسكي* وهو موجود في شارع "ساسيتسكا". سكن مجهولاً دون أن يعرفه أحد في المبنى الذي أقيم فيه نفسه، ولكن في طابق أعلى وكنت قد عرفت زوجته "دوروتا" من مكان ما وبطريقة ما. التقيت "إيغور" لسنوات عديدة، ومر أحدنا مقابل الآخر على الرصيف وفي السوق أثناء التبضع، بعد ذلك تبادلنا الحديث وشربنا عدة زجاجات من النبيذ السيء النوعية. زوجته وأولاده تركوه لقدره ومن ثم فإنه في هذا المجال لم يتحرك مئات السنين من مكانه مثل الصخرة التي تغطيها سجادة العشب الخضراء. انصب اهتمامه على العمل فقط — الباتولوجيا والخبرة في الطب الشرعي.

سجلت اسمي عند البواب و تحركت في متاهات المعابر دون أن أتخلص من فكرة راودتني طوال الوقت وهي أني أتحرك بين الجثث المصفوفة في علب مبردة مثل قطع الكاتو في مخزن بيع الحلويات.

وصف لي الوضع مرة على الشكل التالي — جميع الذين يعملون هنا مصابون بشكل أو بآخر، من الصعب التعود على الأوضاع. آلة تحضير القهوة موجودة مباشرة خلف الباب باتجاه الصناديق، والحمامات مفصولة بجدار رقيق عن أجساد الموتى المتجمدة . استخدم "إيغور" أثناء التشريح عدة طبقات من الثياب، المعطف، القفازات، والرشقات — كي يشعر بالبعد ولو قليلاً عن الحقائق.

كان بانتظاري في *حجرته*. بعد الأعاجيب المختلفة التي لا أريد وصفها هنا، لفتت اهتمامي دراسة كان يُحضرها منذ سنوات تناول فيها تأثير المخدرات على حياتنا.

شرح لي الفرضية الأساسية: الناس يريدون بشكل طبيعي ولو قليلاً تحسين أوضاعهم. وهذا موجود في غريزتهم وطبيعتهم — يحاولون ولو لدقيقة تنحية هموم الحياة جانباً.

"مثلاً، سيدات القرن التاسع عشر وجدن ضالتهن في الإيتير لأن شرب الكحول لا يليق بهن لأن رائحته تفوح من الفم. فاستخدموه على شكل نقاط "هوفمان" التي هي في الأصل لمعالجة السعال.

على الشاطىء الأيمن لـ نيموناس على ضفاف خليج "كورسك" يحب الليتفيون استخدامه حتى اليوم تحت مُسمى "أنوديا". إنه مشهور هناك وهذا ما يُفرح المهربين من "كالينغراد"، يستخدمونه هناك كنقوط على قطعة السكر.

لم يخلُ بيت في القرن التاسع عشر من سائل يدعى لودانوم — استخدمه الفنانون، والناس العاديون بما فيهم الأطفال. لأوجاع الرأس أو ماشابه. فمن الممكن الحصول عليه بدون وصفة طبية. واستخدامه يتسبب في إدمان شديد وهزال في الجسم.

في الثلاثينات، اكتشف الكيميائيون ميتامفيتامين الذي حصل على اسم تجاري "برفتين". استخدمه الجيش الألماني وعناصر إس إس أثناء الحرب العالمية الثانية بكثرة. وهذا يمكنه توضيح أشياء كثيرة. استخدمت النساء في غرب أوروبا الأمفيتامين — كان مناسباً لكيّ الملابس، وغسل الثياب، وشراء حاجيات البيت وطبخ العشاء وبعد ذلك مساعدة الأطفال في كتابة الوظائف. *مساعد الأمهات الصغير* — إنها الكبسولة الصفراء التي تتغنى بها فرقة رولينغ ستون. الأفكار تسبق الكلمات كما يرينا النص المختلط *my generation* لـ the who — . أمفيتامين هو ما نطلق عليه دكسيك، دكسفنمترازين.

لقد انتقلت وظيفته الاجتماعية الآن لحد ما إلى الـ"إيبالجين" وإلى غيره من أدوية القلق أو إلى لا أعرف، مضادات الكآبة."

"وماذا عن اللومينال، مثلاً؟" سألته.

"فنوباربيتال، باربيتورات الذي يستخدم في علاج نوبات الصرع وكحبوب للنوم أو مهدىء ومُسكن "سيداتيفوم" ويمكن استعماله في حالات القلق يتسبب في حدوث إدمان قوي مما جعل الأطباء يصفونه منذ نهاية السبعينات بشكل أقل. ويمكنه أن يتسبب في ظاهرة التعود وأخيراً في فقر الدم، والخمول والكآبة."

"أخبرني الآن عن سبب حضورك؟"

أردته أن يتابع الحديث لأن حديثه شدني كثيراً ولكني عرفت أنني بذلك أبعِّد اللحظة التي سأخبره بها عن اكتشافي المعظام.. أصبت في تلك اللحظة بحالة من الجنون الغريب الذي أفقدني شجاعتي.

بدأ يشرح أهمية معرفة من مات قبل من أثناء حادث السير من المسافرين الذي أودى بحياة ولنقل عائلة بأكملها وكل ذلك لضرورات معاملة الإرث.

غادرت المكتب بعد ساعتين دون أن أُخبر "إيغور" عن سبب حضوري.

درست في البيت قائمة أسمائي. "غايدوش" -- شطب. مات متقاعداً قبل عشرات السنين. "ألبرت أرثور و ساره سلبرشتاين" جميعهم شطب. لم يرجعوا من أوسفينتشين...

9

انتصار شباط عام 1948 كان أحمر اللون. إذاً – اكتسبت بريجاني بسبب الأعلام، واليافطات والمناديل حلة حمراء اللون . فجأة، طفت على السطح أحداث متنوعة.

مثلاً، ابن الشهير ت ج م — يان مساريك -- انتحر بطريقة ذكية حتى أنه وجد الوقت ليغلق نافذة الحمام قبل أن يقفز. ولكن هذه الحادثة جرت بعيداً عن "بريجاني" ولهذا تداولها الناس بوصفها حدوتة. استُبدل حراس "هلينكا" بالميليشيات الوطنية. كل ما في الأمر أنهم تعودوا ارتداء لباس أقل زينة وأكثر حشمة.

العم "رودو" جلس لنا وهو في مزاج رائع على أسطوانة عيد *الميلاد الأبيض* - حين كانت أمي تُرتب الأسطوانات وتمسح عنها الغبار — التي سمعناها للمرة الأخيرة في ذلك اليوم.

صالة فندق الغزال الذهبي (زلاتي يلن)، في السابق نظيفة وهادئة — وكما أنكم تجدون أنفسكم مباشرة بعد ولوجكم في مكان مقدس حيث يُحظر صدور أي صوت باستثناء صرير نعال الأحذية المتميز، والهمس —

انتعشت بشكل مفاجيء بالأحاديث وصخب الضحك. وصلت مجموعة من عمال البناء الثملين في ثياب العمل الرثة الوسخة. تمددوا على المقاعد المغطاة بالمخمل، تجشؤوا، وصرخوا. وأحياناً كانوا يسحبون أدوات الطعام الفضية أو يرمون الصواني البورسلانية على الأرض، ويمسحون أيديهم تحديداً بأغطية الطاولات.

لم ينجحوا في وقت لاحق في تبديل اسم ذلك البناء الموجود في زاوية الساحة ليصبح فندق ستالينغراد. وبقي على حاله مجرد غزال. عُلق فوق مدخله الرأس مع قرونه "الاثني عشر" من البلاستيك، أما البلوري فقد رشه الروس.

اليوم، حين أصبح *ذهبياً* من جديد، أجد من الصعب تصديق أشياء كثيرة وأنا أخطو في صالة الفندق. يسيطر على المكان من جديد هدوء نقي إضافة إلى ترف معتدل، يلائم الجميع، وموسيقى بالكاد مسموعة. بهذا الشكل تعيش الفنادق — تخدمُ الجميع بالطريقة نفسها — حيث تفوح منها لكل إنسان دون تفريق رائحة صابون الفنادق ويجب مغادرتها في الحادية عشرة.

أطلب "كولا" في كافتريا الفندق وأتطلع من حولي. أتوقع أني لن أعود إليه من جديد.

رأيت الـ كوكا كولا إذا كانت ذاكرتي لا تخونني للمرة الأولى في الرسوم الكاريكاتورية لـ بدنار وويسكوبف في صحف ما بعد الحرب. رأسمالي بدين (آري معتدل) يجلس دائماً فوق كومة من النقود، يُدخن سيجاراً ويشربها من زجاجة مجعوكة أو من عبوة تنكية. كنت أحسده كثيراً!

بعد ذلك، بضع سنوات لاحقاً — حين كان على الممثلين المسرحيين أو ممثلي التلفاز شرب ذلك السائل الرأسمالي سراً في إحدى المشاهد — كانوا يتصرفون وكأنهم سكارى لظنهم أنه يحتوي على الكحول.

أحب صوت دغدغة الفقاعات على فتحتي الأنف.

حين عاد والدي من السجن، لم يشعر بالراحة، كنت أراه أحياناً جالساً في البيت على كرسيه يتطلع إلى البعيد ويقضم أظافره في اللاوعي،

ويحرك ساقيه هنا وهناك بعصبية. كنتُ أحياناً أسأله عن السبب. فيقف فجأة ويبتسم ثم يقول بصوت دون اكتراث:

"ماذا؟ إني على ما يرام، ولكن أنت.. شيء ما يشغلك حين تسألني بتلك الطريقة!"

حين يظن أني لا أراه، يمد يده إلى جيب صدريته أو إلى خلف الكتاب أو إلى الدولاب ثم يبلع "لومينال".

لهذا السبب كان يشكو أحياناً من الكتم و قلة الشهية والروجان (الدوخة). لقد حذروا في ورقة الدعاية من زيادة الجرعة التي يمكنها أن تسبب خللاً في التوازن، والتشوش والنوم المفاجئ وحتى في حدوث الكآبة، ولكن والدي لم يهتم بأي شيء من هذا. يُمكن القول إنه متعب، رأيت ذلك في عينيه، كانت جفونه تنغلق ببطء.

بدأ بشرب كمية كبيرة من القهوة والشاي القوي — بتلك الجرعات بدأ يوم ابني "بوني" في إنكلترا وهولندا، أكد لي بأن هذا شيء طبيعي هناك. وأتذكر جيداً فنجان والدي الفارغ الذي امتلأت سطوحه بالكافايين والتايين. ولم يغسله على الإطلاق.

وفي الليل من جديد لم يتمكن من النوم، حلقة أبدية.

قرأ بصعوبة كبيرة على ضوء الثلاجة في الليل الملصق الموجود على زجاجة الجعة. قال له طبيب العيون:

"أعرف، أعرف، عندك نظر جيد ولكنّ اليدين قصيرتان!"

لا أعرف ما أخبروه به عند طبيب الأذن، كما لا يمكنني التخمين.

كان يعرف جيداً إخفاء ظاهرة نقص سمعه.

كنت مع "تينا" و "بتر" نمارس في الليل حياة صاخبة. يقوم كل منا في النهار بتأدية ما عليه من واجبات ولكن في الليل حين يعم البيت الهدوء، وحين يغرق المطبخ في اللون الأصفر مما يجعله مفصولاً عن البيت، وشبيهاً بالمركب الذي يضويه مصباح واحد في نهر مظلم. كأنه عالم خاص لا علاقة له بشيء آخر.

مارسنا طقوس الأكل في الليل حسب النمط الذي استخدمه الوالد. نستلقي بهدوء في أسرتنا وننهض فجأة دون احداث ضجيج ونتمشى باتجاه المطبخ لنأكل أي شيء. يكفي أن يفتح أحدنا الثلاجة ليلحق به الآخرون في الحال.

تعود "بتر" العودة متأخراً في الليل. كنت أعرف من كلامه ومن الطريقة التي يستخدمها تحديد الأشخاص الذين أمضى معهم الأمسية. لقد التصق به من كل واحد أثر. كما بقيت في داخله بصماتهم، وكأن الرب خلقه من معجونة، ولم يترك له شيئاً من ذاته.

وهكذا فإننا مع الجبنة، والسجق، والمقانق التي أحضرها المرضى لوالدي، أكلنا الخبز مع الزبدة وبلّعناهم بالحليب البارد وجعلنا نتحدث والأكل يملأ أفواهنا، وكل منا يقف في زاوية مختلفة من طاولة المطبخ. خارج الزمان تماماً.

أرادت "تينا" أن تكون من جنس مختلف. لقد حسدتنا. كانت تصلي في مرحلة ما وتقول: *لو أنني كنت صبياً!* هرعتْ في الصباح باتجاه المرآة وتطلعت إلى أسفل بطنها. لا شيء. أخذت الأمر وكأنه مخجل وغير عادل.

وأسوأ ما في الأمر — كانوا يصورون لها "بتر" كمثال يحتذى به. لديه آراء صائبة وهوايات جيدة، لا يُضيع الوقت، ولا يركض وراء الفتيات. كبرتْ في البداية كطفلة مهذبة، ثم بدأت في وقت لاحق في التحرر وجعلت تُعذب القطط والكلاب الغريبة. وكانت على الدوام تُحرض كلبنا "بولينا" الذي يعود بعد ذلك إلى البيت متعباً وجريحاً.

أصبحت بعد ذلك ثورية كبيرة. فلم تتحمل أمي تحديداً. وكانت تتوق لمغادرة البيت في أسرع وقت كما أنها حاولت ذلك عدة مرات ولكنها في النهاية تعود. كانت تكره رؤية أمي لأنها دائماً تقارنها بنا كما تكره المدرسة، وكذلك "بتر" — إلى أن توضح لها كل شيء في وقت متأخر، أثناء إحدى حواراتنا الطويلة التي امتدت إلى وقت متأخر من الليل.

ولكن هذا كان عليه أن يأتي. كنا نجلس في المطبخ في وقت سابق، ونمضي وقتنا في أكل الفليفلة والبندورة والجبن.

بقيت "تينا" في ذلك المساء صامته. أبي أقنع محبوبه بإمكان اختراق الجدار إذا ركز بشكل جيد. لقد جربت ذلك طوال اليوم.

نمد يدينا إلى الأمام وعيوننا مغلقة. لاشيء.

"بولي، بولينو!"

كلب جدي العجوز "دونتشو"، مات من الشيخوخة ولهذا أحضرت "تينا" جرواً من عند أحد جيراننا – ولأن ذلك الكلب الأول كان له اسم طبيعي، فقد أطلقت على الجديد اسم "بولي استر" تيمناً بالخيوط البلاستيكية التي بدأت المعامل بإنتاجها وكتب عنها في كل مكان. أعجبها هذا الاسم. وبالتحديد لأنه كلب ذكر.

"بولي، بولينو" ندهت على الكلب. كان يلحقها في كل مكان، وكيفما تحركت.

أصبح مثالاً "عنواناً" لمجموعة كبيرة من البوليسترات التي مرت على منزلنا في "بريجاني"؟

في حين كان لدزينة القطط التي ربتها أمي تحديداً والتي كانت تتمشى على الطاولة أثناء وليمتنا المسائية، اسم نظاميٌ "إكبانا". وهو مأخوذ من اسم الزهور التي كانت تقضمها وتخربها. إذاً إكبانا 1، إكبانا 2 ... الخ باختصار "إكا ".

عاشت أمي مع إكبانا 11 لحين وفاتها.

10

دخل مدرس السلوفاكية الأبدي السيد "شترمنسكي" إلى الصف في أحد أيام شهر آذار، وكان قد بدأ أثناء ذلك بسبب نقص المدرسين بتدريس طلاب الثانوية. أشيبّ، وشاحباً، وكأنه تمدد لسنوات تحت الشمس مغطى بالغبار، مُخفياً دمعته بطريقة غير ناجحة، طلب منا مباشرة تسليمه كتب القراءة جميعها.

أعادها لنا في الحصة الثانية وقد ألصقت جميع صفحاتها التي احتوت على أسماء مؤلفين غير مرغوب بهم وبمختصرات عن نصوصهم.

أرسلت اللجنة الوطنية في "بريجاني" نشرة جديدة. تُلي النص أيضاً في إذاعة المدينة التي وُجهت مكبرات صوتها نحو زوايا المدينة جميعها وكانت تذيع الإشعارات، ولادة، ووفاة، واجتماعات، وعمل طوعي، ونتائج اجتماعات الهيئات العامة، وأسماء المنحرفين بالتزامن مع صوت "ميلاني أولاريوفا" الذي كان يصدح بأغنية *لا أعرف إذا كان حبيبي لا يزال يتذكر؟*

إن شعوب تشيكوسلوفاكيا استناداً إلى مقدمة الدستور مصممة على بناء الدولة الديمقراطية الشعبية التي تنتهج الطريق السلمي في بناء الاشتراكية.

إن تحرير العمل في المجتمع الاشتراكي يحمل معه علاقة جديدة بين العامل والعمل الذي لم يعد بالنسبة إلى الإنسان أمراً مهيناً كما تريده أن يكون أخلاقيات المجتمع الرأسمالي بل عملاً خلاقاً منتجاً للقيم التي يحتاجها الإنسان، القيم الجديدة التي سوف توفر الحياة الرغيدة، والسعادة المنشودة للعاملين جميعاً.

لهذا السبب اتخذنا قراراً ملزماً للجميع باستخدام تحية "تشت براتسي"[52]، وكلمة "رفيق، أو رفيقه" أثناء التخاطب.

نضع أمامكم مهمة تبليغ العاملين في مجال عملكم جميعاً بهذا القرار، كما نطالبكم بالعمل على التقيد بأحكامه.

التوقيع: جوزيف كومينار،

رئيس اللجنة الوطنية للمدينة.

انطلقت في الحال أغنية ستالين المحببة *"سوليكو"*.

"يا موغيلو ميلوي إسكال، نو بيو نايت نيلغكو..." بحثت عن قبر حبيبتي، ولكن العثور عليه صعب.

---

[52] تشست براتسي " العمل يُشرفنا ، تحية الشيوعيين

صدحتْ ألحان فرقة الكورال الغروزينية بقيادة "الكسندروفتسي" في الشوارع.

تسكع تحت أحد مكبرات الصوت الأب "سافتسكي" نائب مدير المدرسة الكاثوليكية السابق. لم تصلة بطاقة الدعوة من جديد، ولكنه لم يعد يغضب. بقي يُرحب على الدوام أثناء الاحتفالات بالضيوف الهامين، ويشكر الخطباء بحرارة باسم المدينة ، ويضغطُ على أياديهم، ويربتُ على أكتافهم وكأن شيئاً لم يتغير.

حمل عام 1949 في ذاته تناسقاً غريباً، بدا مثل خبطة الكف على الطاولة. كنت مولعاً منذ طفولتي بترتيب الأصوات حسب الأرقام والأماكن – مثلاً – حسب الألوان. وأقوم اليوم أيضاً بذلك. برلين زرقاء، باريس خضراء وفيينا برتقالية، بريجاني قريبة من البني.

عام 1949 أثرَ علينا كما السيارة، السيارة الرياضية، "كابريوليت" مستعملة ومنفوضة بشكل جيد. تعبر نسمة باردة بالقرب من أُذنك، وأنت تشعر في الحال بأن كل شيء تمام التمام. في ذلك الرقم (السنة) يغفو أمل ما. نصف القرن أصبح وراءنا والنصف الآخر أمامنا. انتهى القسم السيء بالطبع. حلت الرفاهية. هذا ما يخبرنا به المذياع.

جلس الجميع حول مائدة يوم الأحد. كانوا في مزاج طيب، ليس بسبب الطقس الذي كان في ذلك الربيع رائعاً بشكل استثنائي، سماء خالية حتى من غيمة، غيمة بدون سماء. تحدثوا ونكتوا في حين جلس والدي عابساً. عندما هيأ نفسه لتقطيع البطة، وهي الوظيفة التي كان يختص بها ويعول على نجاحه بها، وكما يقول المثل: تقطيع اللحم مهمة رب العائلة، سحب العم "أوسكار" من يده السكين وزقزق بظرافة.

نجا أربعة من أقرباء أمي بارواحهم في فترة الحرب." أوسكار"، أحد القلائل الذين عادوا من "أوسفينتشين" (نجح في الهروب أثناء القصف على مصنع "فيالكا" آي.جي. فاربن الذي عمل فيه بوصفه سجيناً من قبل الأمريكان) .حاول بسرعة نسيان ذلك النموذج الماكر من

جهنم. لم يتحدث بالتفصيل على الإطلاق إلا أنه أخبرنا مرة أنه اضطر للعمل هناك في مرحلة ما بصفة حارس يهودي، وهذا يعني أنه تطوع للعمل كخائن كي يحافظ على حياته. استخدم الناس استراتيجيات مختلفة — ممرضة شابة اضطرت لحقن مادة الفنيل في قلوب الأطفال تنفيذاً للأوامر، إذا كانت لا تريد الحصول على واحدة منها. العمة "روزا" لم تتحمل العيش من اليوم الأول. الطفلان "ريبكا" و "إزاك" عبرا الحدود المجرية عند "ميلوسلافوفي" وعاشا فترة عند الأقرباء في بودابست، ثم رحلا بعد ذلك إلى "ماوثهاوسن" حيث قضيا بالتيفوئيد. ابن الخال "صموئيل"، أخفاه معارفهم في زريبة الماعز والخنازير، فتجمدت أصابع قدميه في الشتاء ولكن الحياة ممكنة بدونهم.

العم "أوسكار" بدل كنيته إلى "نوفان"[53]. اختارها من سجلات متعددة موجودة عند كاتب العدل. كان عليها أن تذكره ببدء حياة جديدة. شكلوا في وقت ما — طبقاً لاختراع جوزيف الثاني — دليلاً واحداً، والآن يوجد آخر. حتى يسأل الإنسان، ما الفائدة من الاسم، إذا كان بوسعكم اختياره؟

فقد "أوسكار نوفان" بعد لمسة ناعمة من هتلر بوصلة الرب بشكل نهائي، شعر على الدوام بالطبع أنه يهودي ولكن بدون تلك الارتباطات المكبله. لم يعد للرب الحق في إعطائه الأوامر. تزوج للمرة الثانية. واستمر على عادة تعبئة خزانة المطبخ بالخبز مع أن الفرن موجود تحت البيت. للمزيد من الحيطة، كان يقول.

عاد كمؤيد كبير للاتحاد السوفيتي وللشيوعية ولستالين — آمن أنهم الوحيدون الذين سيخلصون العالم. توقف عن زيارة "سيناغوغ " معابد اليهود، وعن تقديس يوم السبت كما سخر من عادات اليهود جميعها ومن الناس الذين يقدسونها — شعر بالإثارة حين وصى للمرة الأولى في مطعم الغزال الذهبي على شريحة لحم خنزير مقمع، وكان هذا مباشرة

---

[53] نوفان تعني الجديد بالعربية

في منتصف يوم السبت، كان يرتجف من الإثارة — حتى إنه ذهب شخصياً إلى المطبخ وطلب من الطباخ أن يسمح له بطرق قطعة اللحم وتغليفها ومن ثم قليها، أو على *الأقل اللعب بالنار*، إشعال الغاز أو ماشابه، تمكن من ذلك، وتورد وجهه من كثرة الشتائم. فعل ذلك مراراً حتى أصبح عنده تقليداً — اللحم المقمع يوم السبت عند الغزال.

وللحقيقة، تأسف كثيراً في وقت لاحق لأنه أخذني معه وتحدث إلي عن ذلك بفرح — لأنني بعد ذلك، بعد سنوات، حين عاد من إسرائيل مثل تفاحة آذار الناشفة، وبحث بإحساس كبير عن "السيناغوغ" الذي طالما أعلن أنه حان الوقت أخيراً لهدمه، لم يترك فرصة واحدة كي أذكره به.

— *هنا كان الحائط، أداشو، أليس كذلك؟* — شدني من كم قميصي. — *وهنا وقف الرابين، أليس كذلك؟ ما رأيك؟* — أحفاده الذين لم يعرفوا السلوفاكية وعلى رؤوسهم طاقية اليهود كانوا يتطلعون في الأرض وهم مقطبو الحواجب في أرض "لا أحد" التي غزتها الأعشاب الضارة، ولا أحد يعرف سبب عدم البناء فيها منذ تلك الأوقات.

— *لا، هنا كانت المنصة التي ألقى منها الرفيق "شيروكي" خطبته حين وصل في الخمسينات إلى بريجاني — رميت ملاحظة*. نعم، *كنت قاسياً قليلاً*. وهل يمكن لأحد في تلك الأوضاع الجميلة أن يقف مكتوف الأيدي.

العجوز، ونصف الضرير العم "أوسكار" جعل يتمشى ببطء في شوارع بريجاني مثل متسكع غير راض عن حياته ولكنه بدا في غاية السعادة حين التقى بالصدفة مع أحد أقرانه — كما يقولون من المرعى نفسه. نادراً ما يحدث ذلك.

ولكن العم "أوسكار" في ذاك الأحد من عام 1949 استمر في قطع اللحم والثرثرة.

اليوم وضع ربطة عنق حمراء تناسب تماماً قميصه الأبيض، وجاكيته الغامق وكذلك دفتر ملاحظاته الصغير الموجود في جيبه. كان

يتلمسه بين الفينة والأخرى بأصابعه. لقد انتسب مع الآخرين إلى الحزب الشيوعي. وبدأ عالم سعيد وجديد حيث سيكون فيه الجميع سواسية. وليس بعد الموت كما يؤكد إله الديانة المسيحية واليهودية، ولكن هنا في هذه الحياة على الأرض.

"أخيراً سوف يتركون اليهود وشأنهم!؟ قال "أوسكار" بفمه المعبأ بقطعة من اللحم التي دسها في غمرة انفعاله وهو يُقطع البطة. *العمة الجديدة "روزكا" تهز رأسها بالموافقة.*

"تعرفون، اللجنة المركزية ملأى بهم! مثلاً الأمين العام "سلانسكي"."

"نعم، نعم – "سلانسكي" من جيلي، اسمه قبل ذلك "سالازام"!"

شارك ابن العم الذي لا أعرف من أي فخذ "تيو" في الحديث: تعرفون، حتى الدكتور "رايس" من وزارة العدل!"

"إنه بالتأكيد!"

"و "لندن" من وزارة الخارجية، و"فيشل" من وزارة المالية... "لوبل" و "مارغوليوس" من التجارة الخارجية"

ربت "أوسكار" على كتف والدي الذي كان يتطلع في صحنه ووضع له فطيرة الملفوف.

"أعرفٍ، فونزي... ولكنك لن تفهم ذلك!"

"عفواً..؟"

"أقول، إنك لا تفهم ما يحدث!"

أمي، أومأت برأسها بالموافقة، وسكبت النبيذ في الكأس.

"من موسم ما قبل الحرب!" مدح "أوسكار" النبيذ الذي سال على لحيته." خذ أنت منه أيضاً، أداشو! "قربت كأسي وتطلعت في وجه والدي. تعرفون بعد وقت سأبلغ الخامسة عشرة. هز والدي رأسه بغموض.

"وماذا عن غوتوالد!"

"أليس يهودياً؟"

"لا أعرف. ربما لا يكون."

"هذا النبيذ من الكرم المغلق تحت "فولوفتس"."
"أظن ذلك."
"ماذا، وكيف؟ الكرم...؟"
"لا، غوتوالد! بالتأكيد يهودي."
"لا أُصدق."
"أسكب من جديد!"
"العالم سوف يتغير، سيصبح شيئاً آخر، "فونزي". أنت لا تؤمن بذلك، ولكن سترى."
"أنا أعتقد أن المهم هو الهدوء، وغير ذلك لا شيء يهمني."
"أو ربما لا يكون؟"
"من؟"
"غوتوالد."
هنا تدخل العم "رودو" الواقف وكان قد أنهى أكل لحم فخذ البطة:
"حين يبدأ أحدهم بالحديث عن المساواة، وعن حب الجماهير — تمتلىء السجون في الحال إضافة إلى أماكن الإعدامات. باسم الحب بالطبع. تعرفون ما حصل لمسيحيي القرون الوسطى، تعرفون الفاشية، والشيوعية الروسية."
"اسكت، أيها *الغبي*!"
تعرض "رودو" قبل شهرين إلى مشكلات بسبب كلامه.
حين تنشّط بعد زجاجتي نبيذ "فافرنتس"، وثرثر خلف الطاولة في مطعم الغزال، بدؤوا يلاحقونه. لفق له جهاز الأمن الحكومي تهمة التخابر، وبأنه جاسوس أمريكي. حتى إنهم في نهاية الأمر جهزوا له اعترافاً مسبقاً، حصل والدي على نسخة منه يصعب قراءتها، أرسلها له سراً أحد مرضاه. كان ذلك عملاً يتسمُ بالخطورة لأن آلات الكتابة مراقبة بدقة جميعها.

زارني في 29 أيلول من عام 1944 عميل CIA الكابتن "جيمس ولدو" كي يتفق معي على التعاون في مرحلة ما بعد الحرب، وكسبي كعميل.

بدأت على أساس هذا الاتفاق من عام 1948 بالعمل على تنظيم نشاط معادٍ للدولة بهدف تحريض انتفاضة تتزامن مع بدء الصراع بين الغرب والشرق ومن ثم إعادة النظام الرأسمالي إلى البلاد.

حتى إنهم اعتقلوه لفترة قصيرة، ولكن العم "أوسكار" أنقذه، وكفله عند وزير العدل الدكتور "شتيفان رايس"، أحد مجايليه الذي تصادق مع غوتوالد.

توجب عليه توقيع استمارة انتساب إلى الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي.

تحدثوا عن ذلك فترة طويلة. أبدى "رودو" ممانعة في البداية ولكنه وقع في النهاية حين تذكر ما أخبره به والدي عن طعام السجناء.

أحضر "صموئيل" بن "أوسكار" ملصقاً إعلانياً وعلقه بفخر على الجدار في غرفته.

وقف في جهة عامل ضعيف أمام المعمل بثيابه الرثة، وجلس رأسمالي فوق المعمل مصالباً ساقيه وفي يده كيس مليء بالنقود وجعل يشير بإصبعه للعامل بالابتعاد.

كتب تحت الصورة بحروف كبيرة: في الماضي...

في الجهة الثانية، جماهير العمال تتجه نحو باب المعمل، أحدهم يرفس ببسطاره الضخم رأسمالياً بديناً مرتعباً على مؤخرته.

.... اليوم.

"ما رأيك، همهم" سألني صموئيل.

"مرسومة بشكل جيد" قلت بتردد.

"هذا فحسب؟"

"نعم، همهم... ولكن "زيدو بلاو" كان... يمكن القول رأسمالي صغير، تعرف؟"

لوح ابن عمي بيده وتأرجح على الكرسي.
"الأفضل أن تعطيني الشريط اللاصق، إنه هنا ممزق."
"لا أريد أن أتسبب في تعكير مزاجك، ولكن الجدة "سارة"..."
"لا، من الأفضل استخدام المسمار. سأرجع في الحال... تكلم بحرية، إني أسمعك."
سُمع صوته بعد ذلك من الطرف الآخر من البيت.
"أداشو، هل تعرف أن الرفيق غوتوالد كان فقيراً أيضاً، وكان يذهب لقراءة الكتب على ضوء مصباح الشارع؟"

11

بدت النسخة المُعدلة الثالثة من سيرة حياة والد "فويتا" على الشكل التالي:
إنني عضو في الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي منذ 22 تموز 1946. انتسبت إلى الحزب في "بريجاني" (المطار الحربي "لهوتا")، وتم قبولي عن طريق مركز الحزب الشيوعي السلوفاكي في براتيسلافا. انخرطت في صفوف الحزب لقناعاتي السياسية. رقم البطاقة- 110350E.
وُلدت بوصفي الولد الثامن في عائلة مؤلفة من عشرة أولاد، تربيت بتواضع شديد عند أهلي. ودرست خمس سنوات في ابتدائية "بريجاني" إضافة إلى ثلاثة صفوف في إعدادية بريجاني أيضاً. رغبت في إكمال الدراسة في المدرسة الصناعية، ولكن ذلك بدا مستحيلاً بسبب عدم توفر المال اللازم. مارست العديد من المهن اليدوية إلى أن قمت طواعية بالانتساب إلى معهد تدريب الطيران في "بروستيوف"، قسم الطيارين.
تم قبولي في 15.11.1933 في أكاديمية الطيران التي تخرجت منها في آب 1936. بعد عدة سنوات من العمل في المطار الحربي في "لهوتا" ثم تم إرسالي في بداية 1940 مع طائرة استطلاع إلى المطار الميداني الموجود في "فرانا ناد تبلا" بدون أي نشاط قتالي.

بعد ذلك تم استدعائي مع مجموعة من 125 طياراً للمشاركة في دورة تدريبية على طائرات ب ف-109. وبعد عودتي إلى كتيبة الطيران 13 في "بيشتاني" ارتكبت بعض المخالفات.

أعرض إحداها:

عوقبت بالاقامة الجبرية من قبل قائد الكتيبة الميجر "سترجنسكي" لأني كنت أتهرب بشكل منهجي من جلسات بعد العشاء في حضور المدربين الألمان. وفي هذا السياق أخبرني الميجر "سترجنسكي": "من الواضح أنك أصبحت من السمادا!" (ربما يقصد دون المرور بالدراسة الثانوية). وكما خبرت بعد عودتي فقد جاء تقييمي بأني لا أنفع في وظيفة قائد سرب. وفي الأول من تشرين الثاني 1942 تم إرسالي مع سرب طائرات بوصفي طياراً إلى الجبهة الشرقية حيث بقيت هناك إلى بداية آذار 1943، عدت بعدها إلى سلوفاكيا بسبب وفاة والدي. نهاية تموز، ثم تم إرسالي من جديد وعدت إلى سلوفاكيا في بداية تموز 1943 حيث بدلونا بعد شكوى سلطة الدفاع الألمانية بسبب أدائنا الضعيف. وأصبحت بعد ذلك من تشرين الثاني 1943 قائداً للسرب الثالث عشر بداية في "فاينوري" وبعد ذلك في "بيشتاني".

كانت مهمة هذاالسرب البقاء في حالة تأهب للدفاع عن البلاد ضد هجمات الطيارين الأنكلو-أمريكيين. وفي أثناء غيابي تم إسقاط طائرات السرب جميعها ربما في منتصف تموز 1944 فوق سماء براتيسلافا.

شاركتُ في آب من عام 1944 في تحضيرات الانتفاضة الوطنية السلوفاكية. ثم تم إرسالي إلى مطار "تري دوبي".

قمت أثناء نشاطي في الانتفاضة بتنفيذ عشرين طلعة قتالية على طائرات ب ف-109 الألمانية مما حيَّر العدو.

كانت تلك في الأساس طلعات قتالية مع قذف للقنابل واستطلاع. وغير ذلك أصبحت قائداً لتكنولوجيا الطيران وللثكنة "هاينيكي".

منذ 18.9. 1944 وحتى الاندحار الجزئي للانتفاضة عملت قائداً للطيران المختلط في "تري دوبي"، وللمطار.

انتقلتُ في الأيام الأخيرة من تشرين أول 1944 بناء على أوامر قائد كتيبة الطيران إلى "دونفالي" مع ثلاث طائرات.

قبل وصول العدو إلى البلدة كان الطيران إلى أراضي الاتحاد السوفيتي شبه مستحيل بسبب العوامل الجوية القاسية لذا قمت بإحراق الطائرات وانتقلت إلى الجبال.

وفي كانون الثاني من عام 1945، انتظرت في "تيسوفتسي" وصول الجبهة، وعبرت المجر حتى وصلت إلى الكتيبة الأولى التشيكية في الاتحاد السوفيتي. في آذار 1945 وبناء على طلبي تم نقلي إلى كتيبة سلاح الطيران الخامسة العاملة في الجبهة الأوكرانية حيث شاركت هناك بطلعات قتالية حتى إصابتي البالغة. تمت بعد الحرب ترقيتي إلى رتبة كابتن أركان حرب في الطيران (1.1.1946) وفي 1.3. 1048 تم ترفيعي لرتبة ميجر. 1948-49 تسلمت مهمة رئيس كتيبة الطيران في المطار الحربي "بريجاني- لهوتا".

الأوسمة: وسام صليب الحرب التشيكوسلوفاكي 1939، وسام الانتفاضة الوطنية السلوفاكية من الدرجة الأولى، ميدالية تشيكوسلوفاكيا من الدرجة الثانية على خدماتي، وميدالية تشيكوسلوفاكيا لاشتراكي في بناء الجيش التشيكوسلوفاكي الجديد.

"ميسلوفتش" المكوي بالشمس والملوث بالشحار، مسح جبينه وقال: "(فرتيغ) انتهينا، "ماريشكا". يمكنك إطفاء النار!" سحب الصفيح عن الحفرة. الغراب الأخير كان مشوياً بشكل جيد.

جلس على العشب بجانب والد "فويتا" وجعل يقضم لحم الفخذ الصغير. وشربٍ من الزجاجة التي أعطاه إياها والدي.

"ماذا إذاً، أيها الجنرال، الأمر يبدو في النهاية وكأنهم لم يتركوك وشأنك، لا الأول ولا الثاني، أليس كذلك؟"

"بلى، أرادا... في أيار من عام 44، أنهيت دورة لغة ألمانية مخصصة لقيادة نوادي الطيران في فيينا. في ربيع عام 1950، دورة مخصصة لقيادة الأقسام العسكرية في مدرسة القيادة في براغ."

"وماذا بعد؟ أين الخطأ؟"

"لا أعرف"

"لا تهتم..!" ضربه "ميسلوفتش" وهو يضحك على ظهره، ولولا القليل لانزلقت من يده زجاجة النبيذ.

"والدك رجل بكل معنى الكلمة، يا "فويتيك"! إنه منا! أيها الفتيان، هيا، لا تزال هنا قطعة لحم حلال!"

قرأت في اليوم الربيعي الأول من عام 1949 "ناتاليا روشكوفا" بعد فترة قصيرة من تناولها طعام الفطور في كتاب تفسير الأحلام: *رؤية الملائكة، والتحدث معها، يعني ارتفاع الشأن.*

أكثر من ذلك، ظهر لها في الورق رقم تسعة أخضر، مما يعني أن الزواج على الطريق، وبعد ذلك رقم ثمانية مشكل من الدوائر، وآس أخضر – الورقتان تنبئان بحياة رغيدة، وثروة.

كل هذا (إضافة إلى أشياء أخرى) كان عليه في أقرب وقت أن يؤثر ويجعلني أفقد "فويتا" لعام كامل. لقد تمت تسمية والده قائداً لوحدات الطيران في مطار براغ "كبلي"، مما اضطر العائلة بأكملها إلى الانتقال للسكن في بيت فخم وكبير في منطقة "ديفتسي".

تبدلٌ طريق الآلام المؤدي إلى الدير الموجود على التلة خلف كنيسة بريجاني. أرادوا في الأساس محوه عن الوجود. ولكن الشيوعيين تعلموا من المسيحيين عدم الاكتفاء بإلغاء المكان كي يختفي عن الوجود، بل اكتشفوا ضرورة تغطيته بشيء آخر.

وضعوا إذاً على التلة نصُباً تذكارية لرفاق مشهورين. توصل الرفيق "كومينار" رئيس اللجنة الوطنية في بريجاني إلى هذه الفكرة الجهنمية وهو الذي كانت زوجته تتحدث عنه بفخر قائلة: "زوجي كان رئيساً على الدوام ومرة واحدة فحسب تسلم منصب نائب الرئيس!"

بعد الحرب، في ذكرى ليلة أيار، وقف على "ساليني" مع الآخرين وبيده المعول، ولكن هذا الأمر لا يصح الحديث عنه.

فكرته الجهنمية تذكر قليلاً بطريق الآلام – ولكن تلك الشخوص لم تكن عيونهم مقلوبة باتجاه السماء كما تعودت عيون تلاميذ المسيح – عيون الرفاق الذين يتمشون في نومهم كانت تتطلع إلى الأمام كما جرت العادة عند الثوريين.

وفي سياق الفكرة العبقرية قام الرفيق "كومينار"، مُصنع التوابيت سابقاً، بتأمين مستلزمات العملية وتحديد تصوراته التي بدت على النحو التالي:

1- المسيح يُحكم عليه بالموت – لينين في المنفى.

2-المسيح يتقبل الصليب – لينين يسافر بالقطار من ألمانيا إلى بتروهراد.

3-المسيح يسقط تحت الصليب للمرة الأولى – لينين في مناقشة حامية مع الرفاق.

4-المسيح يلتقي بأمه – لينين يلتقي أمه العجوز ويؤكد لها بأن الشيوعية ستنتصر.

5-شيمون تسرنيسكي يساعد المسيح في حمل الصليب – لينين يلتقي ستالين.

6-فرونيكا تُسلم الفوطة للمسيح – ناديجدا كروبسكا تمسح العرق عن جبين لينين أثناء كتابته للمخطوط.

7-المسيح يسقط تحت الصليب للمرة الثانية– لينين يقود الهجوم من على ظهر سفينة أورورا.

8-المسيح يؤنب النساء الباكيات – لينين يتحدث إلى جماهير العمال.

9-المسيح يسقط تحت الصليب للمرة الثالثة -- إسركا كابلانوفا تنقذ لينين من محاولة اعتداء.

10-يُنزع الثوب عن المسيح – لينين في ثياب العمل بين عمال المناجم.

11-المسيح موثق على الصليب- لينين يقف أمام نجمة النصر الحمراء ويلوح بساعديه.
12-المسيح يموت على الصليب – لينين يموت ميتة بطولية في الصراع.
13-الجسد يُخلع عن الصليب – لينين مُحنط.
14-جسد المسيح يوضع في القبر – لينين يتمدد في الموسيليوم.

الرفيق "كومينار" يستحق الشعور بالفخر. يبذر ويقترح التمثال الخامس عشر، الأكبر – الذي سيبدأ منه كل شيء: الملوك الثلاثة (ماركس إنجلز، ولينين) برفقة الطلائعية ومن أمامهم النجمة الحمراء يقدمون الهدايا (المنجل والمطرقة والفرجار) للمسيح الصغير ستالين.

لم يعش الاقتراح طويلاً. بداية لم يعد ستالين نافعاً، وظهر غوتوالد على الساحة في تلك الفترة – في وظيفة عامل المناجم الأول، ولكنه اختفى من جديد، وبعد ذلك ظهر نقص في المواد، الكلس الأبيض المنقول من جزيرة "براتش"، لأن يوغوسلافيا الصديقة قررت متابعة الدرب على طريقتها الخاصة، تخاصم *الكلب الدموي* "تيتو" مع الروس.

أخيراً تركوا التل وشأنه. الرهبان من الدير القريب الذين أخذوا على عاتقهم أمر العناية بهذا المكان، تم توزيعهم في أرجاء الجمهورية لتأمين إعادة تربيتهم مما سمح لجميع ما يمكنه الوصول إلى قمة التل بتغطية المكان بغابة يتعذر مراقبتها. جذور الأشجار تحفر أساسات تماثيل الملائكة الباروكيين التي يمكن رؤيتها اليوم في حدائق سكان منطقة الفيلات القريبة بجانب الأقزام الضاحكة ومجسمات ميكي ماوس البلاستيكية.

اكتشف والدي في الأسبوع الأخير من أبريل بعد صعوده وهبوطه التلة وقد غمرته السعادة من استنشاقه رائحة الهواء العليل وبعد تدريبات الصباح، وبعد لفافة تبغ واحدة وحمام، وبعد فتحه باب العيادة، وجود وفد من اللجنة الوطنية بانتظاره. رفيقتان، ورفيق واحد يجلسون بأدب في غرفة الانتظار، بانتظار دورهم، حتى إن الرفيق طلب من والدي أن

يسمع له صدره لأنه يشكو من سماعه ضربات قلبه. أجرى له والدي تخطيط قلب، وطمأنه طالباً منه ألا يولي أمر قلبه اهتماماً يُذكر. إحدى الرفيقتين طلبت منه أن يكتب لها وصفة حبوب ضد الصداع.

فتحوا بعد ذلك الحديث:

"الآن، حين أصبح لدينا جمهورية شعبية ديمقراطية أيها الرفيق الطبيب، نتمنى رؤيتك في مسيرة الأول من أيار. المفروض أن نستعرض قوتنا وننبه إلى أننا نعيش أوقاتاً جديدة!"

أومأ والدي برأسه وكأنه غير موجود ولكنهم أرادوا سماع وعدٍ أكيد بحضوره.

"ما الذي قلتموه؟"

"إن غيابك، أيها الرفيق الدكتور يمكن أن ينعكس سلباً على..... "

" أها..*حسناً*."

حين ودّعوه، طلب من "زدنكا" تسيير أمور الوصفات الطبيه وهرع مسرعاً للقاء والدتي.

ربما يكونان قد تشاحنا، وربما أقنعه العم "أوسكار" ولكننا في نهاية الأمر استيقظنا جميعاً في وقت مبكر وتناولنا الفطور بسرعة في يوم الأحد بدلاً من النوم الطويل وانطلقنا في ثيابنا الزاهية إلى الشارع الذي امتلأ بأصوات مكبرات الصوت التي تنشر ألحان البناء إضافة إلى المارشات العسكرية.

زحفت المسيرة من شارع هتلر سابقاً، وبعدها شارع "مساريك" الذي أصبح شارع ستالين في النهاية باتجاه الساحة التي جُهزت عليها منصة غُطيت بقماش أحمر. وانتشرت على طول الطريق شرائط الزينة والزهور والبالونات الصغيرة وحمائم السلام البيضاء. شعت فوق فندق الغزال يافطات حمراء كتب عليها باللون الأصفر: *الذكرى الرابعة لتحرير تشيكوسلوفاكيا من قبل الجيش السوفيتي، نُحيي النجاحات الجديدة في النضال من أجل البناء الاشتراكي، وإلى الأبد مع الاتحاد السوفيتي!*

القائمون على تحضير الاحتفال حملوا صور ماركس، وإنجلز، ولينين، وستالين وغوتوالد وشيروكي — إضافة إلى بعض الوجوه الغريبة

الشبيهة بخثارة اللبن (*هذا "دلوهي" وذاك بيستروزراكي*- أشارت "تينا" بإصبعها بطريقة مؤذية)، يقولون إنهما من أعضاء المكتب السياسي، قال أحدهم. لم أعرف ماذا أتصور تحت هذا العنوان. كلمة جميلة — *المكتب* — دونت ذلك في يومياتي. أضيفت إلى كلمة "شيفونيير" — هكذا كانت تُسمي الجدة "ماريا" الدولاب — وكلمة كونسيكرات (نوع من الزهور).

وصلت مقدمة المسيرة في تمام التاسعة إلى أمام المنصة الموجودة في الساحة الرئيسة، عُزف النشيد التشيكي وبعد ذلك السلوفاكي. وألقى الرفيق "كومينار" خطبة الاحتفال الرئيسة فوق صورته المعلقة على الواجهة الأمامية للمنصة، والتي تجاوزت حجمه الطبيعي:

قبل أربع سنوات وفي أيام أيار المجيدة، أنهى الجيش السوفيتي الشجاع تحرير تشيكوسلوفاكيا من الفاشيين الألمان المحتلين. وفي التاسع من أيار 1945 سحق الجيش السوفيتي حشود الفاشيين الذين أحاطوا ببراغ، وأنهى بذلك تحرير بلادنا. نحتفل في هذه السنة بشكل تقليدي مع جميع التقدميين في العالم بأكمله بالذكرى التاسعة والخمسين لعيد العمال. احتفالات أيار تعبر عن الرفاهية التي ينعم بها شعبنا وعن القوة الامتناهية التي تبذلها قوى التقدم في بلدنا وفي العالم من أجل إحلال السلم والاشتراكية!

سُمع بعد ذلك النشيد الأممي. لم نعرف مع أمي وأبي ماذا نفعل، لم نكن نعرف النص، ولكن حين نحرني سيدٌ علق على كم قميصه شريطة زرقاء، وبدأ يهتف: "هورا" و "يعيش الأول من أيار" — عيد الطبقة العاملة في العالم! شاركته الهتاف. أبي ردد الهتاف أيضاً وتحرك من مكانه. كان التشوش واضحاً على وجهه لأن ألوف الرؤوس لثعبان الأول من أيار بدأت تتحرك إلى الأمام. الناس يُنشدون ويلوحون بأعلامهم الحمراء. شعرت بقلق شديد لأني أخاف الحشود منذ الأزل. ولكن "بتر" شعر بمتعة حقيقية.

تحركت من خلفنا عربة تُمثل دبابة سوفيتية مع نجمة حمراء، وقف فوقها ممثل من فرقة مسرح "بريجاني" للهواة متخفياً بزي يشبه بزة "جوزيف فيساريونوفتش". جعل يحيي الجماهير بإيماءات رائعة وهو

يبتسم على طول شاربيه. أحدهم من خلفه جعل يرمي من يديه المليئتين في الاتجاهات جميعها مربى الكراميل. الجدات اللاتي هرعن للوقوف أمام بيوتهن لمشاهدة المسيرة صلبن، وركضن بقدر استطاعتهن كي يُقبلن يده.

وصل إلينا العم "أوسكار" مع العمة الجديدة "روزكا" بصعوبة من بين الحشود. كان يطلق أصواتاً تعبرُ عن الفرح، صافح والدي بحرارة وقبل يد أمي. وضعت "تينا" عصا بيرقها الذي طبعت عليه صورة جنرال الجنرالات ستالين في الشق بين ثدييها ومشت طوال الوقت ووجهه باتجاه وجهها. تكرم عليها "أوسكار" بصفعة، وبدّل لها ستالين بشريط زينة، وهددها برفع إصبعه. لذا أخذت مني ماركسي الذي أعجبتني لحيته الكثيفة.

يمكن القول إن والدي شعر بالخجل، أحياناً كان يرد على تحية أحدهم، ويقوم بتنزيل قبعته ويتطلع من حوله والعرق يتصبب من جبينه.

انسل في اللحظة المناسبة من بين الحشد. والدتي اضطرت للبقاء لأن عمي "أوسكار" تأبط ذراعها، ولكن "تينا" مع حمامة بيكاسو المدسوسة في البنطال ومع شرائط الزينة المعلقة على شعرها وأنا أيضاً، ركضنا خلفه إلى شارع "سلافسكي" الضيق وخرجنا برفقته إلى الطرف الثاني من الساحة. مباشرة باتجاه مخزن حلويات "بوشكار".

طلب والدي قدح كونياك غروزني وحصل كل منا على شراب ليمون وفطيرة. مد والدي يده إلى جيب صدريته، وبلع الحبة بسرعة قبل وصول "بوشكار" وبدأ حديثه عن فتاة أحلامه ليلي:

"مازلتُ أنتظر، أيها السيد الطبيب، ما زلت أنتظر. لقد منحني إله الصبر نعمة الانتظار"

وصلت من الساحة أصوات موسيقى تقاطعت أحياناً مع الخطب الرنانة والهتافات مثل: "عاش الأول من أيار — عيد العمال في العالم" كما ارتفع بالون أحمر كبير معبأ بالهليوم باتجاه السماء وحين أفلته أحد الأطفال من يده. هرعت "تينا" إلى خارج المخزن لرؤيته ولكنه اختفى في مكان ما من السماء.

وقع نظرنا في تلك اللحظة بالذات على لوحة كبيرة حملها أربعة عمال، تُصوِّر بالألوان الواضحة ثائراً يقاتل بشجاعة جنباً إلى جنب مع جندي من الجيش الأحمر فوق جبل صخري على خلفية غابة كثيفة.

أخبر "بوشكار" والدي في وقت لاحق أنه حين انتهت المسيرة وخلت الساحة من العربات هرعت النسوة وبأيديهن السكاكين والمقصات باتجاه المنصة التي فرشت أرضيتها بالقماش الأحمر. قصصنه — لخياطة البناطيل القصيرة والسراويل.

12

ابن عمي "صموئيل" مصَّ دمي بلذة لأنه قرر المشاركة في بداية السنة التالية في مشروع بناء سد الشبيبة. سجل اسمه، واسمي أيضاً، لأني سأبلغ سن الرشد في أقرب وقت. عرض عليّ الاستمارة (كان عليه إبقاء الأمر سراً لأنه في السادسة عشرة) التي أرسلها إليه الموظف المسؤول في اللجنة الوطنية. دورت رأسي وأنا أضحك من فعلته ورغبت في رميها دون أن يشعر بذلك.

أخذ والدي مني الطلب.

"انتبه، أداشو، الأوضاع غير مطمئنة. كي لا يشيروا إلينا بأصابعهم، ولا سيما الآن حيث نحن في الواجهة. عليك أن تشارك، لا يمكننا التملص من هذا الشيء. يمكنهم أن يتهمونا بالتخريب.

"لن أذهب بأي حال من الأحوال!"

تجادلنا في الأمر عدة أيام، ولكنه أخبرني في النهاية أنني سأمضي هناك شهراً واحداً فحسب، وربما شهرين على الأكثر وسأكسب بذلك بعض النقاط — من يجهز نفسه للدراسة الجامعية عليه أن يذهب. حتى "بتر" ذهب للعمل الطوعي في خط سكة حديد الشبيبة قبل سنة في الصيف. كززت أسناني. رغبت في القول إني لم أقم بذلك الإجهاض الغبي، ولم يسجنوني أيضاً، ولهذا فإن الأمر لا يخصني. لا يمكن لأحد أن يتهمني بالتخريب. ولكني آثرتُ الصمت.

وهكذا فإني في نهاية شباط أو في بداية آذار، انتظرت القطار مع حقيبتي في محطة "بريجاني". كان البخار يتصاعد من كل مكان — من محركات القطارات، ومن أفواه المسافرين، ومن إحدى سقوف المحطة، اختلطت جميعها وشكلت غيمة سوداء مائلة للون الرصاصي. أهلي رافقوني إلى المحطة. تصورت أن دمعة تدحرجت على خدّ أمي حين قبلتني مودعة.

كان من المفروض أن أغادر القطار في "بوخوف" والسفر بعد ذلك بالحافلة إلى "نوسيتس". ابن عمي "صموئيل" سافر قبلي. وما إن وصل إلى المعسكر حتى بدأ بإزعاج الجميع إلى ما لانهاية بدفتر ملاحظاته الأحمر الصغير مدعياً أنهم لا يتصرفون طبقاً للخطة.

انتبهت إلى وجود "سوزانا كاباتوفا" في المحطة التي غطاها الثلج الجديد. وقفت هناك في معطف الفرو وجعلت تنفخ في راحة يديها. احمر خداها وتنشطا من الصقيع. بحثت عن مكان فارغ مريح ولكني لم أتوفق.

جلستْ في مقصورة فارغة، سألتُ إذا كان هناك مكان فارغ (اعتقدت دائماً أن هذا السؤال مضحك — حين يجلس أحدهم هناك وحده فإنه يُشغل الأماكن جميعها). أومأتْ برأسها فدخلت. جلست مقابلها ولكن في الجهة الثانية.

صمتنا طويلاً. تطلعت في الطبيعة التي كانت تتبدل أمامي بسرعة من خلال نافذة القطار. كان بوسعي مراقبة وجهها بازدراء. ضيق، تغطيه بشعرها الصدئ الذي لم تتوقف عن تنحيته عن عينيها حيث جمعته في الخلف بيكلة بسيطة. أنف صغير ومرفوع قليلاً في نهايته كما نراه عند الإنكليز أو سكان الشمال. فم صغير يتواصل في أسفله مع ذقن بارزة شكلت مع ما يعلوها تجانساً مقبولاً. عينان ناعستان ولكن سعيدتان على ما يبدو.

الفم الصغير تمدد بعد ابتسامة حارة، تطلعتْ في وجهي. شدني صوتها العميق إلى درجة أني لم أنتبه لما قالته. يلازمني طبعٌ قديم — حين أسمع صوتاً ملوناً لا أعرف كيف أشبع منه. ولعي بالأصوات لا نهاية له.

"عفواً...؟ سألتها.

"أقول إن ..." ومن جديد لم أسمع. شعرت بعصبيتها.

"ما رأيك؟ سألتني في النهاية وأنا لم أتمكن مع أني فعلت ما بوسعي من معرفة كيف سأعبر.

" تعرف، لأن.. وأكفاريوم من جديد، تنويم مغناطيسي. صوت بلا كلام. صوت رائع.

"سوزانا" الجميلة المشوقة. راقبتها من جديد حين تمشت على رصيف المحطة، لوحت لي بيدها، واختفت في النهاية بين الناس. تذكرت بضبابية أنها أخبرتني عن سفرها لزيارة جدتها في "نوفي مستو".

"سفرة سعيدة. تبادلنا الحديث بطريقة جميلة."

سلموني ثياب العمل "أوفرول"، معطف وجزمة. أشياء لم أضعها على جسمي من قبل. ظهرت كأبله. برفقة البُلهاء الآخرين الذين عرفوا على عكسي سبب حضورهم، وعبروا عن ذلك بقليل أو بكثير من مظاهر الغبطة، كانت مهمتنا بناء بيوت لمتطوعين آخرين. لا أعرف ما إذا كانوا بسبب مثاليتهم قد شعروا أقل مني بالبرودة، ولكنهم مع ذلك كانوا يرتجفون مثلي. أعترفُ أن مرد ذلك هو فخرهم من عملية *البناء*.

ما فاجأني هو أن المعسكر محروس، إذ لا يُسمح لأحد بالخروج دون إذن مسبق. الخروج دون إذن يعادل الهروب — يعاقب بشدة. الطرد إضافة إلى نقطة سوداء في *سجل الكوادر*. لم أدرك في البداية معنى ذلك التعبير، ولكني فهمت بعد ذلك أنه نوع من ترميز الناس الذي سوف يرافقهم خلال مسيرة حياتهم بأكملها مثل وشم الحبر الموجود على ساعد عمي "أوسكار". الكلمة الساحرة في ذلك التعبير هي "الأصل العمالي"، الكأس المُقدس. تماماً كما هي العضوية في اتحاد الشبيبة الاشتراكية czm أو الحزب الشيوعي KSC. تلك الأحرف الثلاثة تناسب بالتمام الحاجز المُشفر.

أو أنها لا تناسب.

تراأسنا شيوعيان متحمسان شباب، "هردلتشكا" و "لافراتكوفا" اللذان بالكاد أنهيا دراستهما الإعدادية. بعض المسؤولين كانوا أصغر مني سناً. خاف الجميع ، وتحديداً من "صموئيل"، ابن عمي الرائع الذي تخصص في تفريق الجنسين، وهذا يعني العلاقة مع الجنس الآخر، بما في ذلك "الترافق في النزهة" – كان ذلك محظورا بقسوة، وإن صدف وأمسكوا بعضهم في مواقف حميمية فإن الطرد من المعسكر سيكون بانتظارهم إضافة إلى تدوين ذلك في سجلهم. الشيوعية والمسيحية يركزان بشكل مطابق على عملية الجنس.

لهذا السبب أقام الفتيان والفتيات في أبنية متفرقة على ألواح خشبية قاسية تمدد عليها ثلاثون مشاركاً أحدهم بجانب الآخر. كان بوسع الإنسان أن ينام على القش إذا أراد ذلك. لم أكن أرغب في القش لأنني بدأت أسعل بقوة كما سال الدمع من عيني حتى إن زملائي هددوني بوضع الوسادة فوق وجهي إذا لم أتوقف في الحال.

حين سألني العم "رودو" بعد عودتي عن الطعام، تذكرت القريشة والمربى الذي كان قاسياً إلى درجة أننا اضطررنا لتقطيعه بالسكين. كان طعمه يشبه طعم العلكة. ربما قدموا لنا العلوك بالخطأ. الشوربة على الغداء، ودائماً ذاتها، لم يتغير سوى ظلها وكثافتها وربما بعض المواد الملونة في داخلها. ترك رئيس الطباخين أمر التذوق لخيالنا. كل منا يمكنه أن يشعر كما يريد — في روح الشيوعية كما فهمت.

كانت الأيام متشابهة باستثناء يوم الأحد. الاستيقاظ في السابعة، تدريب، فطور، الوقوف في الصف، وتقسيم العمل... اشتغلنا ثماني ساعات في اليوم.

حفرنا الأساسات في الأرض المتجمدة. أحدنا يضرب بالمعول، والثاني يجمع التربة من خلفه. ظهرت الفقاعات بعد وقت قصير في يديّ كما عضلُ جسمي بأكمله، وبما أن الثلج لم يتجمد في تلك الأيام، فقد امتلأت المنطقة بالوحل الطري. الأحذية ملأى بالطين، والوجوه ملطخة. الطين يلتصق بأنحاء الجسم كله.

البرد يعصف في الخارج والمدفأة داخل المبنى الذي سكناه لا تتوقف عن العمل، كما طغت على المشهد مع كل ما فيه رائحة الأجساد المتعرقة.

عُلقت على الجدران يافطات كبيرة.

احموا منتوج البطاطا من الحشرات الأمريكية! في حال وجود ما يشير إلى ظهور الآفة، أعلموا اللجنة الوطنية للمدينة!

الرجال إلى المصانع الحساسة!

أعجبني تصرف العامل الذي يُشغل المدحلة حين ارتفعت أمامه كومة من الزجاجات التي التف حول إحداها ثعبان سام مهدداً بلسانه المزدوج.

الثمالة يجب ألا تُعيق الخطة الخمسية!

حين قاموا بدهن وجهي بالكريم للمرة الأولى أثناء نومي، تأكدت أنهم اعتبروني واحداً منهم. أكثر من تسلى بذلك كان "بالو سوخي" المتحدر من منطقة "توبولتشاني" الذي شاركني نظرتي حول الإقامة الطوعية. رافقني في الأمسية التالية مباشرة إلى بوابة مكان إقامة الفتيات حيث تشاركنا في تعليق واق ذكري معبأ بالحليب. وصل في الصباح "هردليتشكا" غاضباً برفقة ابنِ عمي "صموئيل" للتحقيق ومعرفة المسؤول عن ذلك العمل المشين، ولكنهما لم يكتشفا أي شيء.

تعلمت هنا كيف أخفي أفكاري إضافة إلى عملي حتى إنني في تلك الحالة فتحت نقاشاً مع نفسي. أصبحت مثل ميّتٍ حي لم يتأثر بتلك الأجواء، ولم يفهم لماذا يجب علينا شئنا أم أبينا متابعة البناء، وتجاوز الخطط مهما كانت الظروف، وفي المُحصلة إلحاق الأذى بالطبيعة المحيطة بـ"فاه". أشجار الصفصاف القديمة والمستنقعات وأعشاش الطيور. الجميع متحمسون، أرادوا *إعادة بناء العالم على الأرض*، وجعلوا يثرثرون بعد ذلك في المساء عن أشياء سخيفة تتعلق بالكهرباء *وبناء السدود على منابع المياه والأنهار*. يقال إنهم تمكنوا في الاتحاد السوفيتي من تحويل مجاري الأنهار، ولكنهم بسبب هذا التصرف الغبي جففوا مياه البحيرة الكبيرة.

التسلية الوحيدة عندهم تمثلت بالأمسيات الثقافية.

بداية قيّم "هردلتشكا" مع "لافراتوفا" عملنا – وأعلنا حسب النسبة المئوية من تنفيذ الخطة اسم المجموعة الأفضل ووزعا عليها الأوسمة، كما سلما علم المخيم لأولئك الذين أبلوا بلاء حسناً في حين أجبرونا على التصفيق لهم.

جلسنا في قاعة النادي حيث قام شاب وممثل واعد بصوته العميق (في حينها ربما أنهى المدرسة، اليوم نراه في التلفاز وهو حسب تقديري لا يريد تذكر تلك الأوقات) بقراءة شعر لـ"نزفال"* [54]. قصيدة طازجة عنوانها *ستالين*. كتب تحت العنوان *قصيدة بمناسبة الذكرى السبعين لولادة الجنرال يوزيف فيساريوفتش ستالين.*

في البلاد حيث الفصول الأربعة/ حيث يتساقط الثلج وتتفتحُ الأزهار،/عاش الإنسان في ظروف عمل لا تليق برجل./ حياة كفاف في مينسك، في كييف، في موسكو، وفي غوري،/ حيث القفقاز يشبه المسيح المعلق على الخشب،/ فاتحاً ذراعيه – الجبال،/ فوق كل شيء، فوق العروش،/ متفاخراً مثل أكبر عمامة بين العمامات،/ إله الدولار، والجنيهات والكورونات / بدل الفضاء بعصاه إلى طاولة بيليياردو...

لم أقرأ قصيدة قبل ذلك، ولم أسمع أي منها بصوت مرتفع. أعجبتني إلى درجة – ربما بسبب الإلقاء الذي اهتزت له جدران المبنى – أني حفظت بعض الأبيات عن ظهر قلب.

أخذ نفساً بعد ذلك وقرأ قصيدة أخرى:

*هناك بالقرب من برج "سباسكي"،/ حيث الأورلوي * [55] تقيس الزمن،/ زمن الأحداث الذي كسرت الحواجز،/ هناك في مكان ما بالقرب من برج "سباسكي" / فكرتنا تبحث عنكم/ مستعينة بأصوات "سبيجي" * [56] النظيفة..*

---

[54] نزفال : شاعر تشيكي

[55] أورلوي: ساعة شهيرة في براغ القديمة

[56] سبيجي: صوت رنين جرس الأغنام

حيث قُطِّعت عضلات البشر/ الطبيعة إلى خُصل (غُرر) / حيث وقف أول طلائعي،/ حيث وصلت أمواج البحر الكبير الهادر،/ مثل المنارة المشتعلة/ يقف رمز ثقافة البشرية، ستالين...

انتبهت عند سماعي *أول صوت رنين* إلى صبية بشعر فاحم أسود جالسة في الصف الأول، *المنارة المشتعلة (التي جاء ذكرها)* كشفت لي ثدييها اللذين شبهتهما تحت قميصها بتفاحتين تم قطفهما للتو (رأيتهما حتى اللحظة من الجانب ولكنهما أثرا بي كثيراً) مما جعلني أسمعُ مقطع *شارة الحزب على المعطف* في وقت متأخر قليلاً لأنها ملأت تفكيري وأشعرتني للحظات بأنني وحيد معها في تلك الصالة.

وفي الوقت الذي قيمتْ فيه الشبيبية "هدفيكا لافراتوفا" الإلقاء بالتصفيق الحاد وبدأت بحيوية ثورية في قراءة مقتطفات جديدة من الشعر، حاولت جهدي الاقتراب منها.

"سمحتْ مناسبة الاحتفال بذكرى ولادة يوزيف فيساريوفتش ستالين في خلق قصائد "كوسترا" *عن ستالين*. يبدأ الشاعر قصيدته من الأوقات التي كانت فيها أوروبا غارقة في الحرب ضد ألمانيا الهتلرية وحين يتدخل الجيش السوفيتي للمساعدة، ويقرر للأبد مصير أعلام القراصنة بانتصاره الرائع في ستالينغراد. تمكن جيش ستالين، القائد، والمُنظر في تلك الحقبة التاريخية وفي الوقت ذاته الرجل العملي الوحيد المُسلح بالنظرية الماركسية –اللينينية من الانتصار والتقدم باتجاه الهدف الكبير. إنه في الوقت ذاته قائد المسيرة والضامن لاستقلالنا!"

طلبتُ من "بال سوخي" أن يتبادل معي مكانه، ولهذا جلست خلفها مباشرة وتنشقت بعمق عبير رائحتها الساحر. تمكنت تلك الحالة من إثارتي بشكل لا يصدق – شعرت بانتصاب قوي وعبرت رأسي خيالات متوحشة، اعتمدت في الأساس على *كيف وأين*، وفي أي ظروف مجنونة من تلك التي عرفت كيف أتخيلها بالرغم من نقص خبرتي.

تابعت أثناء ذلك "هدفيكا" محاضرتها بهدف تقوية قناعات الشباب الثورية. دور "بالو" رأسه فحسب لأن ما يجري معي في الأقسام السفلية ليس عادياً، كما كشف لي في وقت لاحق أن مارآه من انتصاب قضيبي سببه خطاب "هدفيكا".

"ارتفع تحت قيادة ستالين مستوى معيشة أوسع الطبقات، وتعمقت رغبة البناء في جميع أنحاء البلاد. هناك حيث كانت في السابق صحراء تبدل الأمر، ونشأت وحدات فلاحية، وكولخوزات كبيرة. الشعب السوفيتي يدين بذلك للجنرال القائد الرفيق ستالين الذي حول البلاد السوفيتية إلى بلاد اشتراكية! النضال جعل من ستالين فولاذياً ولهذا فهو القائد والمُنظم، والمدرس للطبقة العاملة، وهو يقودنا بوصفه قائداً حكيماً وشجاعاً ضد أي عدوان من الأعداء!

يرى الشاعر في النهاية الحبيب ستالين وهو يمر في أجواء الإنتاج التي نعيش فيها والتي لا معنى لها بدون اسمه. قصيدة "كوسترا" ليست تحية فحسب ولكنها تفهم لشخصية ستالين وأعماله، ملأى بالقوة الشعرية والإيمان بالمستقبل!"

حين انتهت "هدفيكا" سُمع تصفيق حاد. نهض الجميع من أماكنهم. تمكنت بصعوبة من الوقوف، احمرار في الوجه ورجفان لا يمكن تصديقه في الساقين. إن إثارتي الثورية أصبحت واضحة مما اضطرني لإخفائها بسيدارتي. أجبرت نفسي على التفكير بشيء آخر. شيء مختلف، مختلف تماماً.

حاولت بقوة استرجاع القصيدة التي اكتشفتها في وقت سابق في مجلة السلوفاكي من عام 1938، والتي كتبها الشخص ذاته ولكنه الآن "يان كوسترا" آخر. القصيدة بعنوان 14 آذار – نشأت في ذلك الوقت دولة سلوفاكيا الفاشية، تقول القصيدة:

يرفرف العلم، وترتفع العيون المصابة بالخزي / أجراس الأبراج تقرع قبضات القلوب/ غير مؤهل لينده عاش، يضيع بين الهتافات /

في الحشد عبر البوابة المُكسرة / تركض أمامنا ظلال أعمدة المشانق/ خلفنا، خلفنا إلى السلاح إلى السلاح...

حدثت نفسي (مع هبوطٍ قضيبي، عاد إلي من جديد مستوى توازني) — ذاك الفتى يعرف إذاً! إنه خبير بالكلمات القوية.

تمت في الدورة مناقشة العديد من المواضيع الراهنة.

أخبرتنا "هدفيكا لافراتكوفا" أنه يتم التحضير لترجمة مؤلفات مكسيم غوركي المهداة إلى فلاديمير إيليتش. المؤلف يبدأ بجملة: *لينين ميت*.

سألتُ في الحال: "هل يُعقل أن يُنشر كتاب بهذا المضمون في تشيكوسلوفاكيا الاشتراكية؟ لينين ميت. أليس كفراً؟! "

كتبنا مع "هردلتشكا" إلى دار نشر الكتب السوفيتية خطاباً مفتوحاً، كان علينا جميعاً توقيعه.

بدأت همتنا في نيسان بالتراجع. السكان من القرى المجاورة لم يعجبهم عملنا ولهذا فعلوا ما بوسعهم لتعطيله. تجمعوا أمام البوابة، وجعلوا يصرخون ويهددون.

"مهما فعلتم لن تتمكنوا من المتابعة!" صرخ أحد المحتجين.

أحدهم كسر أنف "هردليتشكا". كان يحب اللون الأحمر.

قائد المعسكر الأول أعطى أمراً بالتحرك باتجاه "نوسيتس" بأدب مترافق مع الإنشاد كي يخاطبوا الناس ويقنعوهم.

تمكنت بطريقة ما من الاختباء، والبقاء في المعسكر. كنت بحاجة إلى الراحة.غفيتُ للحظات ثم ألقيت نظرة بعد ذلك من النافذة على الطبيعة الشاحبة المقلوبة.انتبهت إلى الضوء المنبعث من المبنى الذي تقيم فيه الفتيات.

وقفتُ وقلبي يخفق بسرعة ثم أخرجت قطعة نقد معدنية من جيبي. السيدة المنحنية فوق كومة سنابل القمح تمسح جبينها وتتطلع إلى البعيد. رميتها في الهواء... فرأيتها من جديد على ظهر كفي.

سأذهب!

نقرت على الباب وسمعت في الحال صوتاً آتياً من الداخل. فتحتُ الباب.

ممشوقة القوام بشعر أسود فاحم، وثديين عارمين كنتُ قد أعجبت بها في أثناء إلقائها قصيدة عن ستالين في الأمسية الثقافية، جلستْ على السرير مسندة ظهرها على الجدار وقد أمسكت كتاباً بين ساقيها المتصالبين.

شعرت أني سوف أسقط في تلك اللحظة.

"ما الذي تقرئينه؟" سألتها بصوت متقطع. بدا الأمر وكأنهم أمسكوا بي في الساحة بلباس أنثوي.

"هولان".[57]

"أها.."

"شعر، قصيدة" أضافت شارحة. رفعت نظرها قليلاً وأعادته من جديد إلى الكتاب.

"أنا أيضاً أعرف واحدة:

بينما الفلاح يثبتُ المحراث

وقاطع الأخشاب يُصففها

ينطلق قسم ستالين

عند ضريح لينين

نُقسمُ لك، يا لينين،

أنت الذي ستحمي روحه إلى الأبد،

بأننا سوف ننفذ، سوف ننفذ

وصاياك

" هذه سخافة!" نهرتني.

"إنها لـ نزفال"

"حماقة!"

لم أنطق بكلمة، أُصبتُ بالخرس، وقفتُ مرتبكاً فحسب.

---

[57] هولان: شاعر تشيكي شهير

"هذا شعر! اقترب إلى هنا...!" ربتت بكفها مشيرة إلى مكان بجانبها. اقتربت منها بحذر وجلست.

"انظر!"

نقرت على وسط الصفحة ومررت إصبعها على الأسطر. تابعت حركتها بأدب.

أشارت إلى قصيدة تتحدث عن المصابيح المقَوسة في مطعم الحديقة وعن كل شيء يحدث تحتها. يمكن القول إني انسجمت مع الإيقاع. *نتأرجح، ونبدو للزهور متنافمين مع...*

وفجأة تبادلنا القبلات. لم أجد الوقت للسؤال عن اسمها — كما لو أن ذلك ضروري في تلك الحالة.

لمستها دون رقة بين فخذيها، رطبة، طرية. كثيفة الشعر! خلعنا ثيابنا بسرعة. ثديان عاريان يتأرجحان مثل ذلك المصباح القوسي، لم أشبع من البحلقة بهما. شعرت بالحيرة لأني لم أعرف ما عليّ فعله. ارتميت بجسمي عليها رغبة مني في الولوج إلى داخلها. دورت رأسها ودفعتني عنها.

بحثتْ لحظة في الدولاب حتى أخرجت الواقي. استلقيت على ظهري نصف عارٍ في السرير وراقبتها. أخرجته، نفخت فيه، أمسكته برقة، ووضعته في المكان المناسب.

"والدي طبيب نسائية، أخصائي في الأمراض الجنسية" قالت لي شارحة.

جف حلقي، أتذكر كيف ارتجفت عيناي وخفق قلبي بسرعة مما جعلني أظن أن ضرباته مسموعة في كل مكان. هدأتني، مررت يدها على وجهي وأغلقت جفوني كما يفعلون مع الميت ثم وضعت رأسي على السرير. فتحت ساقيها وجلست فوقي. بدا لي كل شيء عادياً حتى إني استغربت. شعرت بلذة لا يمكن وصفها.

وبذلك أكون قد عشت كل شيء حلمت به وفكرت به في الليل عند تصفحي كتب والدي الطبية دون توقع على ضوء مصباح كهربائي ناعس جعل يتأرجح بالتلازم مع الإيقاع. وجدنا جسدينا في النور تارة وفي العتمة تارة أخرى. *نتأرجح، ونبدو متناغمين للزهور...*

امتلأت أذناي في النهاية بصوت فرقة إنشاد عميق:

حيث ترن الفؤوس اليوم، ستضج المحركات في الغد...!

غرق جسدي في حالة من اللذة، أدركت بعد ذلك أن تلك الأصوات لم تكن تضج في رأسي بل هي من الخارج. الموظفون عادوا من القرية إلى المعسكر. تعرفت بوضوح إلى صوت "صموئيل" الذي غلب الأصوات جميعها.

"ما اسمك؟"

"آدم"

"تشرفنا، إيفا."

تبادر إلى ذهني فجأة:

على شكل ثعبان بدأت الروح الشريرة حوارها مع إيفا — لماذا منعك الرب من أكل التفاح من أشجار الجنة جميعها؟ — ردت عليه بالقول: نأكل من فواكه أشجار الجنة ولكن الرب منعنا من أكل فواكه الأشجار الموجودة في منتصف الفردوس كما منعنا من لمسها، وربما كي لا نموت.— قال الثعبان للمرأة:— لن تموتا موتاً حقيقياً، لأن الرب يعرف أنكما في يوم من الأيام سوف تأكلان، سوف تتفتح عيونكما وستصبحان مثل الآلهة التي تعرف الشر من الخير.— هنا تطلعت إيفا في الشجرة، ورأت جمال ثمارها، أخذت واحدة، أكلت وأعطت رجلها الذي أكل أيضاً.

وهذا حقيقة ما حدث، بدأت أفهم الجنس كأنه مكسب اشتراكي رائع.

أنا الإنسان الاشتراكي لن أسمح لـ ماتوش (إنجيل متى) 5, 28, التدخل في شؤوني: *إنني، أقول لكم: إن كل من يُلقي نظرة على الأنثى متمنياً مشاركتها السرير فإن قلبه يقع في الإثم.*

لا أشعر بتأنيب ضمير نتيجة وساعة خيالي. الإنسان الاشتراكي يمكنه استخدام جسمه وجسم غيره حين يريد دون أي شعور بالذنب.

حين جاء *يوم النقد والنقد الذاتي*، وكان على الجميع الاعتراف بذنوبهم الكبيرة والصغيرة، تماماً كما يفعلون في السابق أمام الخوري أثناء الاعتراف مع اختلاف وحيد وهو أن النقد يتم في أجواء مفتوحة، كل واحد يقول شيئاً عن نفسه. أنا و إيفا، تطلع أحدنا في وجه الآخر، ابتسمنا، بدا لنا الأمر وكأن الجميع يعرفون، ولكنهم لم يعرفوا – لذا وقفت حين جاء دوري واعترفت بأني ... وبعد ذلك نهضت هي أيضاً واعترفت بصوت يشير إلى التوبة بأنها... ثم صمتنا بعد ذلك من جديد وأنصتنا ولم تتوقف ابتساماتنا، أحياناً كان أحدنا يغمز الآخر. كان يوماً رائعاً، *يوم النقد والنقد الذاتي*. غالباً ما أتذكره – نحن الاثنان في مواجهة العالم. نحن الاثنان والعالم.

حين غادرت في النهاية، هطل مطر غزير بلا نهاية. وقفت حزيناً فوق تلة صغيرة وتطلعت إلى الوحل والطين المتد مثل البحر حتى "فاه". رأيت جدولاً انتصبت على طرفيه أشجار الصفصاف والسرو. شارفت الحفارة الميكانيكية على الاقتراب منها كما سُمعت ضربات الفؤوس مثل أغنية غبية لا يعرفُ ضارب الطبل فيها بالرغم من بذله قصارى جهده التأقلم مع النغم الصحيح. رفرف العلم الأزرق فوق المُعسكر. نهاية الدورة.

– المياه تتدفق – ليعم السلم في العالم – تنهدت "إيفا" على البطانية المبللة بالعرق وغفت في الحال، ثدياها العاريان انسكبا مثل قطعتي حلوى "بودنغ" مضى عليهما وقت طويل فوق الطاولة. تفحصتها طويلاً إلى أن حل الظلام. لبست ثيابي بعد ذلك وخرجت دون ضجيج.

أمسكت في يدي الكتاب الذي أعطاني إياه الرفيق "هردلتشكا" أثناء حفل الوداع (انتبهت في يوم مغادرتي أن شعرات لحيته بدأت بالظهور)، *يوليوس فوتشيك*[58]: *ريبورتاج مكتوب على حبل المشنقة*. ما

[58] يوليوس فوتشيك: صحفي شيوعي تشيكي أعدمه الألمان

كانت العين الخبيرة لتفرقه عن كتاب الصلوات المسيحية المُجلد بالأسود – كما احتوى غلافه الخارجي على رسم بلاستيكي يُصور شيئاً ما، يذكرُ قليلاً من بعيد بلوحة الإنجيل مع الوصايا العشر التي أهداها الرب لحبيبه موسى.

يصعُب تفريقه من الداخل عن الكتاب المُقدس الكاثوليكي — تقسيم الأجزاء، البداية الحمراء للفقرات والعناوين، النص فقط بدا مختلفاً. ولكن من جديد من النظرة الأولى فقط لأن المضمون متطابق . يوليوس فوتشيك كان مقدساً منذ أمد بعيد، وتم إعلانه قديساً شيوعياً — لقد لبى جميع متطلبات هذه التسمية بتحمله شتى أنواع التعذيب دون أن يتراجع عن عقيدته، وهذا ما جعلهم يعذبونه في النهاية حتى الموت. أصبح مؤلفه نصاً مقدساً. الفرضية الأخرى لاحترامه هو مقتله، فكلما زادت السادية كانت الروح أنقى والضحية أكثر إقناعاً. قلائل من القديسين الشيوعيين يمكنهم التباهي — لم يتمنّ أحد منهم بالتأكيد الموت تحت التعذيب.

الناس حيوانات بحاجة إلى اللحم والدم كي يقتنعوا بأي شيء.

فكرت بذلك وأنا في طريق عودتي بالقطار من "بوخوفا" إلى "بريجاني" — السيدة التي جلست مقابلي ابتسمت في وجهي وكأننا صديقان متآمران، وجعلت تُصلي مستخدمة السبحة بصوت منخفض. اعتبرتني *الأخ في الألم* بسبب كتاب فوتشيك كما استغربت شجاعتي في تلك الأوقات العصيبة حين أخفت صليباً صغيراً من الفضة في عمق قبضتها وتركت الكرات الخشبية الصغيرة تتدحرج بين أصابعها.

المسكينة، لم تعرف أبداً كيف أساءت بي الظن.

مرت الغيوم غير مبالية من خلف نافذة القطار، كما انتشرت الشمس فوق الحقول التي لا يهمها من سيأكل الخبز الذي ستنتجه.

13

حين أفكر بالأمور، كان لا يزال بوسع "بلزاك" أن يسمح لنفسه بكتابة:

الأحداث التي أصفها هنا حدثت في باريس عام 18... اتصفت أوقاته ببطء وتيرتها، يوم واحد بالتحديد، شهر أو سنة كانوا يشبهون ما سيأتي، وبقي تحديد التاريخ لرغبة القراء. كانوا يستخدمون أقدامهم أو يركبون الأحصنة. لا وجود لأجهزة الهاتف، أو للاتصالات. حين تكتبون رسالة، تنتظرون الرد أسبوعاً.

الكاتب المعاصر لا يمكنه الكتابة بتلك الطريقة. *الأحداث التي أصفها هنا وقعت في "بريجاني" عام 19...*

متى إذاً، يا للشيطان؟ حدث ذلك في عام 1914؟ أو في 1922؟ هل حدث ذلك في وقت ما من عام 1947 أو 1949؟ 1988؟ هههم...؟

حين كنت غائباً عن المدينة، استولوا على مخزن حلويات "بوشكار". حتى إنه لم يعرف السبب، ولم يخطر بباله أن شيئاً كهذا يمكنه أن يحدث، لقد قام وحده بتجهيزه. لا يمكن القول إن أحداثاً مشابهة لم تحصل في أماكن قريبة عديدة، ولكن مخزن حلوياته ...؟!

رفض "بوشكار" تصديق ما يحدث. كان كل شيء ملكه في أحد الأيام وفي اليوم التالي لا شيء. ورقة صغيرة كانت كافية. لم يعجبه ما حدث. صرخ قائلاً بأعلى صوته : إن من قام بالثورة هم مجموعات من الكسالى الذين لا عمل لهم سوى التسكع في الشوارع ولهذا فإنهم يحسدون الآخرين على كل ما جنوه بعرق جبينهم، وعملهم الشريف، وهاهم يعملون الآن جاهدين كي يسرقوه منهم. وأشياء أخرى. صرخ كثيراً في صحوه وثمالته وبهذا يكون قد فقد دعابته للمرة الثانية.

دافع عن ملكيته، وهاجم المسؤول الذي اخترع تلك الأفعال الغبية. نعم، المسيح طالب أن يكون كل شيء ملكاً للجميع، ولكنه لم يُخلص أحداً ملكيته. هذا ما صرخ به. بحث "بوشكار" عن ذاك المسمى المسيح،

وعن الرب الذي أراد تملك ما يخصه، والنتيجة كانت أنهم سجنوه في النهاية بوصفه سمساراً مغامراً ومستغلاً. اشتغل سنة كاملة من أجل سعادة البشرية في وسط سلوفاكيا. كدح في مكسر للحجارة، ومن يدري ما فعلوه معه هناك – وحين عاد، لم يرغب في التحدث – ولكنه كان يعرج من إحدى ساقيه ويسحبها خلفه.

قال إن ما جعله يتعلق بالحياة هو تفكيره الدائم بـ " ليلي"، تلك المرأة الجميلة النبيلة التي لم يرها في حياته وهي التي *كتبت له في أزمان سابقة رسائل رائعة*، وغادرت بعد الحرب إلى أمريكا الجنوبية، وهو لا يزال ينتظر منها رسالة كل يوم، أو ربما رؤيتها واقفة مباشرة أمام باب بيته مع حقائبها.

أمضى كل وقت راحته وهو يتطلع في صورتها التي جلست فيها غير واضحة في كل جمالها السِّلي. نحيلة، جميلة يصعب الحصول عليها.

ما العمل. *شيرش لا فام.*

حقاً، *شرش لافام*...

تصفحت "ناتاليا روشكوفا" كتاب أحلامها إلى أن عثرت على ما تبحث عنه: *رؤية اليهودي – السعادة.* حلمت على الدوام باليهود علماً أنه لم يبق منهم في "بريجاني" سوى القليل. التقتهم أكثر في براغ.

عمل الميجر "فويتخ روشكو" في وزارة الدفاع حيث تمت ترقيته وحصل على بعض النجوم الحمراء. البيت الواسع في حي "ديفيتسي" استخدمته العائلة بأكملها واستخدمه "فويتا" وأخوه الصغير "تيو" *أيضاً.*

يبدي الميجر، طيار، "فويتخ روشكو" انحيازاً إيجابياً للنظام الديمقراطي الشعبي في بلادنا، كما يُثمن عالياً تقدم الثورة الشعبية ويقف بقوة مع إنجازاتها مثل الإصلاح الزراعي، والتأميم، والدستور الجديد. قائد سرب الطيران الرابع العقيد الطيار "يوليوس ترنكا". بهذا الشكل بدأ تقييمه.

بقيت السيدة "ناتاليا" امرأة في البيت و"ممثلته" كما عبرت بنفسها عن ذلك. أنهت شكلياً دورة تمريض كي تتمكن من الإمساك بشيء حين

توجب على كل إنسان أن يتوظف. لم تكن مضطرة للطبخ لوجود طباخة تقوم عنها بتلك المهمة، استغلتْ كرم المؤسسة العسكرية في تأمين اللحم والحليب بدلاً من الحذر في استخدام بطاقات المعونة - وهو ما شكل قسماً لا بأس به من تسلية الناس العاديين.

ملأت سجل ضيوفها بأسماء مشهورة. أكثر من احترمتهم كان رئيس الوزراء، عامل السكك الحديدية، الرفيق فليام شيروكي الذي على الرغم من أنه سكب أثناء إحدى الأمسيات على نفسه الكونياك الفرنسي إلا أنه كان يُقبل يدها عند كل لقاء مشيراً إلى إمكان حصول لقاء a deux. كان وسيماً بالرغم من عدم معرفته بالفرنسية. يتقن السلوفاكية وبصعوبة التشيكية. بهذا الانطباع خرجت السيدة "ناتاليا".

رتبت بطاقات الدعوة إلى الاستقبالات، وأيام الطيران، وحفلات الرقص بشكل جيد في علبة مخصصة أصلاً للمجوهرات السويسرية النادرة ليندت & شبرونغل.

بعث لي "فويتا" في نيسان أول رسالة من براغ، زينها بخطه العصبي الصغير ولطخها بشراب الكاكاو الجديد المسمى "مالكاو" الذي يعشقه أكثر من أي شيء. كتب خلطة غير متجانسة من الأفكار التي عبرت رأسه في تلك اللحظة:

نحن من حي "ديفتسي"، قريبون من "لتنا" وهو عبارة عن بارك كبير أو بالأحرى حديقة. غالباً ما أذهب إلى هناك لأتمشى وأراقب الناس. انتبهت إلى شيء يثير الاهتمام - الناس يقرؤون أحاسيسهم الخاصة من تصرفات كلابهم دون أن يعرفوا ذلك. الكلب يشعر قبلهم بذلك. فقد اشترت أمي "بودليك"[59] اسمه "ميلا". منذ مدة، لم تعرف ما عليها لبسه لحفلة الأوبرا واستغرقها الأمر ساعتين حتى إننا وصلنا متأخرين. أصيب أبي بحالة من الغضب الشديد في المطبخ، ومن جديد*

---

[59] بودليك : كلب ذكي صغير

أحس بألم في رأسه ولكنها مع ذلك لم تهتم. "ميلا" الوحيد الذي جعل يعوي— لماذا يبدو ذلك الكلب عصبياً؟ ربما عليك أن تخرج معه الآن لقضاء حاجته!

وغير ذلك كنا في المسرح الوطني وشاهدنا "أوجن أونغين"، تشايكوفسكي. مذهل. هل تعرف، في مقابل كرة القدم أو الهوكي، هنا يوجد فرق واضح. حين يخرج الناس من المسرح، يشربون الشامبانيا، ولا توجد لديهم الرغبة في كسر الرؤوس أو فترينات العرض، وزجاجات الجعة في أيديهم.

خلال الاستراحة، التقى والدي بأحد زملائه التشيك الذي أخبره أن السلوفاك شعب بطل حقاً. أبي قال، بالطبع — ولكن لماذا يظن ذلك؟ رد عليه بأنه حَسَبَ عدد المشاركين في الانتفاضة الوطنية السلوفاكية ووجده 26 ألف، ولكنه حسب القرار مائتان وخمس وخمسون (أها، إنك لا تعرف ربما ، ما معنى ذلك — إنها شهادة رسمية تؤكد مشاركتهم في الانتفاضة)، حصل رسمياً على الوثيقة 52 ألف. سخر التشيكي من هذه العملية . أبي لم يعرف بماذا يرد، ولكنه أخبر أمي في وقت لاحق أن الناس كانوا يوقعون فيما بينهم على وثائق تُشير إلى مشاركتهم بالانتفاضة وبأنهم كانوا عناصر من تلك الكتيبة أو تلك. قال لو أنهم قاتلوا حقاً، لكنا قضينا على الألمان بسرعة البرق.

وغير ذلك، المدرسة من جديد، والوظائف. معي في الصف السابع أولاد زملاء والدي، ضباط ودبلوماسيون، أناس هامون. يتصرفون وكأنهم لم يدخلوا في يوم من الأيام إلى المرحاض.

سلامي للأهل، أداشوا

فويتا

تشعر السيدة "ناتاليا روشكوفا" (بالرغم من ضعفها أمام السّحرة) بأنها كاثوليكية قوية. على الأقل في "بريجاني"، مسقط رأسها.

باركت أولادها بوقار (وبعد ذلك أحفادها) على جبهاتهم وكان لها مكانها الخاص في الكنيسة. كانت تحتفظ في غرفة النوم، بجانب السرير بدفة الركوع. كنت أرى في كل مرة أزور فيها "فويتا" السراويل الداخلية ومشدات البطن مرمية عليها .عُلقت على الصليب الكبير – ولا سيما على يدي المسيح التي كانت تخدم تلك المهمة بشكل جيد – حمالات الثدي والسراويل. تدخل السيدة "ناتاليا" بعد ذلك دائماً بعد أن تتبرج في غرفة النوم وتجهز نفسها لغداء يوم الأحد إلى غرفة الطعام بطريقة احتفالية. الجميع يُصلون قبل تناول الطعام ويُصلبون، كانت تراقب ذلك بنفسها وتساعدها في ذلك صورتها الكبيرة المعلقة على الجدار التي قام أحد الرسامين المحليين برسمها. عينان تلاحقانك في كل مكان وفي أي لحظة تتحرك فيها – كانت فخورة جداً بتلك اللوحة ولم تتوقف عن التذكير والإشادة بها في كل مناسبة.

لقد نقلت الآن إيمانها بعقيدتها إلى حياتها الخاصة. إنها تُخفي الصليب حين تحضر الزيارة في الحال تحت الكنزة في الدولاب. أو في مكان ما بين معطف الفرو البرزياني، والفرو المصنوع من جلد الثعلب.

حين توفي عمها قبل الحرب نتيجة احتشاء في عضلة القلب، لم تعرف كيف تتصرف عدة ساعات قبل الجنازة وأيهما تلبس. العم كان ينتظر مستلقياً ببزته الرسمية الأنيقة وقد برز أنفه وبدأ لونه بالتحول إلى البنفسجي في جميع الأمكنة المتبقية في حين كانت لا تزال تبدلُ الفرو في البيت:

"في أيهما أبدو أفضل؟" كانت تصرخ دون توقف من الغرفة.

الكلب "ميلا" لم يتوقف عن النباح بعصبية.

مرحباً "أداشو"

أخبرتني "بلانكا" التي فاتني الحديث عنها في الرسالة السابقة أن صوتي جميل، عميق وجهوري. لو أنها سمعتني حين يتكسر صوتي!.. هل تتذكر ما قاله "مسلوفتش" عن صوت "أمبي كربس"، لديه صوت شبيه بأصوات حركة الأمعاء، سألته أنت: ماذا يعني بذلك. رد عليك "ميسلوفتش"، هذا يعني يا صديقي الصغير أن النسوة يتغوطن حين يسمعنه!

أنا مريض قليلاً، وربما بسبب البرد. زرت الطبيب قبل البارحة. أعطاني بعض الأدوية، ولم يُسجلني. جلست بجانبي في غرفة الانتظار امرأة غريبة. كانت تفوح منها رائحة غريبة، شعرت بشيء يُشبه رائحة القبر، مثل بارفان خاص في الهواء أو لا أعرف. شيء مثل الإقحوان مع الطين الرطب، لا أعرف. سألتني، الدور لمن، ودخلنا في حديث. لقد أعدموا زوجها قبل سنة بسبب الخيانة. كان جندياً، أثناء الحرب في بريطانيا وفي موسكو، جنرالاً. ولكن لا يمكنها الحديث عن ذلك.

بما أنك تجمع تلك الكلمات الغريبة، عندي لك المزيد منها:

ظاهرة "فيدمو". أحضرها زميلي في المدرسة من "ميتا بود دونبير"، وحسب قوله، إنها ظاهرة يمكنك رؤيتها في الجبال فحسب حين تكون الشمس واطئة من خلفك، وأنت ترى خيالك الكبير في الضباب أو في الغيوم.

قرأت أن العلماء حسبوا اليوم على أنه ثلاث وعشرون ساعة وثلاث وتسعون بالمائة من الساعة. هذا يعني أن هناك أربع دقائق معلقة في مكان ما، ولا أحد يعرف أين ضاعت. إنها تنقصني على الدوام.

عندي موعد مع "شاركا"، لا ألحق فعل شيء.. سأذهب لأرى في "لتنا"، إنهم يبنون قاعدة لتمثال ستالين. يقال إن تمثال "مساريك" كان هناك قبل الحرب – ويقال أيضاً إن المهندس نفسه يفعل ذلك الآن. إنه مكان جميل، فوق نهر الفلتافا، وفوق جسر "سفاتوبلوك تشخ"، منظر تري منه براغ بأكملها. المفروض أن يكون تمثال ستالين بارتفاع 22 متراً. كتبوا في الصحف أنه سيكون أكبر تمثال في أوروبا. إلى اللقاء!

فويتا

ألقى في التاسع من أيار، في حفلة الطيارين العسكريين التي أقيمت في قصر "فالدشتاين"، الملازم الأول كلمة الافتتاح:

الضيوف الكرام، الرفيقات والرفاق الأكارم، الحضور الكريم! اسمحوا لي أن أشكر باسم أفراد كتيبة المطاردة السادسة جميعها هيئة عمال مصنع تشي ك.د براغ لموافقتها على تبني هذا الحفل. نعدكم بأن

كتيبتنا سوف تدافع على الدوام عن حقوق العاملين لما فيه مصلحة السلم والأمن، وهذا الوعد له أهمية أكبر لأننا نعلنه الآن باسم الكتيبة، وحين يتلازم مع احتفالاتنا بالذكرى الخامسة لانتصارنا على ألمانيا.

فلتتفتح وتنتعش العلاقات بين الجيش والطبقة العاملة، جنباً إلى جنب مقتدين بمثال الاتحاد السوفيتي حليفنا الكبير وبتعاليم أساتذتنا الكبار ماركس، لينين وستالين!

قامت "ناتاليا روشكوفا" بخياطة روب خصوصي لتلك المناسبة في صالون "كلاسيك اليجنت" واستخدمت مع الفستان الأخضر الرائع الديكولتيه (قصة صدره الواسعة) قفازاتها الطويلة السوداء.

سار كل شيء بيسر إلى أن انتبهت أثناء رقصة الافتتاح لما جعلها تصاب بهزة عصبية شديدة (حسب قولها) أجبرتها على مغادرة الحفلة في الحال. حضرت زوجة رئيس الأركان مرتدية فستانها نفسه! لم تستقبل "ناتاليا روشكوفا" أسبوعاً كاملاً بعد الحادثة أية زيارة — كما كتب لي "فويتا".

سافرت بعد ذلك مباشرة وهي متيبسة لقضاء نقاهتها السنوية في كارلوفي فاري. فأمضت هناك كما جرت العادة عدة أسابيع مع بعض صديقاتها زوجات الضباط. الحقائب وصلت قبلها بالقطار. وعادت قبلها أيضاً وحين وصلت بدت نشيطة محملة بالذكريات الجميلة..

نبهت العروس — زوجة "فويتا" الأولى — أثناء أول لقاء لهما أنهم لن يسمحوا لها بدخول الحمامات المعدنية. بالتأكيد كانت أفضل من يعرف السبب.

انطلق البث المباشر من المذياع مدوياً في أجواء حرارة هواء الصيف حيث بدأت تعشعش دودة الأرض في حي "ديفتسي" وفي "بريجاني" وحيث بدأ الكرز الأسود المكتنز بالنضوج في حديقة نباتات "أمبي كربس" المهملة مع هبوب ريح ساخنة ناعسة.

ألوف الخطب التي كانت ترسل لتلك المحاكم من طبقات الأمة جميعها معبرة عن غضب عمالنا من النشاط المخزي للمتهمين! التهمة

"هوراكوفا" أسست مجموعة عصابات هدفها تحطيم جمهوريتنا في الوقت الذي نجح فيه عمالنا في مصانع فولاذ "يهلافا" في زيادة الإنتاج بمعدل 195 بالمائة.

14

ذكرتني أختي "تينا" منذ مدة بالرائحة التي كانت تنتشر في بيتنا في "بريجاني".

استخدمت أمي مُجعِّد شعر مصنوع من المعدن، كانت تضعه فوق نار الفرن أو على صفيحة ساخنة ثم تستخدمه بعد ذلك في تجعيد شعرها. وكان من الصعب عليها التحكم بالحرارة ولهذا فإن شعرها جعل ينشرُ رائحة نسيس جعلتنا نعرف في الحال أن والدتنا ترتب نفسها في المطبخ.

الآن، نشتم تلك الرائحة المقبولة، أو الكريهة التي تصلنا مع نسمات الهواء من مكان بعيد. لا بد أنهم يحرقون حشائش الربيع. أو أنها من دواليب محترقة؟ خرجتُ لتنشق الهواء في الحديقة المهملة. لا زلت مضطراً للتفكير في تلك العظام المزعجة، وكأن الأمر لا يزال هاماً.

بعد تردد وتأجيل طويلين، أخبرت "إيغور" أخيراً بكل شيء.

قلتُ — العظام قديمة، كل شيء يكتنفه الصمت، الوالد متوفى (علماً أن لا أحد يتهم أبي؟ ولكن من جهة أخرى — من غيره ؟ من الصعب حدوث شيء مشابه في الحديقة دون علمه)، أشرت أيضاً إلى أن هذا الأمر من وجهة نظري له علاقة بالحرب وباقتراب الجبهة، أو بأشياء مشابهة.

حضر"إيغور" برفقة رجاله. ولم يتوقف عن حشو فمه ببسكويت القهوة وغيرها من السكاكر. حين راقبته وهو يفتح قطعة الشوكولا، اقترب مني.

"هل تعرف ما اسم الدماغ عند الهنود؟

"اسم الدماغ؟، لا"

"هو ذاك الذي يلتهم السكر فحسب"

ضحكت.

"حين أعمل يتوجب عليَّ التهام الحلويات. أفكر كثيراً. في حين أن غيري يُدخن."

قام مع زملائه بتصوير كل شيء كما رسم وضعيات الهيكل العظمي، علماً أنني عبثت بها قليلاً — لم يكونوا سعداء من فعلتي. أخرجوا بحذر شديد كل قطعة، ونظفوها مستخدمين فرشاة ناعمة، وتركوها لتنشف. قاموا بعد ذلك بلف كل قطعة على حدة بالورق، ووضعوها بحذر شديد أيضاً في علبة مفروشة. كما وضعوا على بعضها طبقة من البارافين حين بدت لهم رقيقة. اهتموا كثيراً بالجمجمة. فقد برز من الأرض الوجه الذي امتلأ بالتراب كما تكسرت بعض الأقسام في درزاتها. وصلوها بعناية مع غيرها.

قاموا بعد ذلك بحفر القبر ووضعوا التراب الناشف في شبكة — إيغور كان يعلك قطعة جوز الهند، فشرح لي بأنهم بهذه الطريقة سيصلون إلى الفقرات، والسلاميات، وعظام الكف والقدم والأسنان أيضاً.

اكتشفوا بقايا الثياب، وبعض الأزرار. أخذوا بعد ذلك عينات من الأرض — كي يتمكنوا من تحديد زمن الدفن، أكد إيغور. أنه في كل نوع من الأرض يتحلل الجسم ذاته في وقت مختلف.

"ولكني لا أرى شيئاً وردياً له علاقة مع تلك الحرب" قال. "حسب خبرتي لا يبدو قديماً جداً. سنعرف ذلك"

جمعوا كل شيء وغادروا.

يبدو أنني انطلقت مع قائمتي بالاتجاه الخطأ مثل كلب صيد صغير. ربما حدث كل شيء في وقت متأخر، متأخر جداً، حين ظهر "دورانتي " في حياة والدي.

نعم، بحثت عنه: واتجهت حسب الأسماء الموجودة على الأبواب، وحسب دليل الهاتف، وجدت أرملته فحسب. لقد مات. رفضت قول أي شيء آخر. هل يمكن أن يكون هو من يستلقي في ذلك القبر السطحي؟

"دورانتي"...؟ أسماء، أسماء أسماء...

15

غالباً ما كان أبي يتذكر أنه يحلم تكراراً الحُلم ذاته.

تغرق غرفة الأطفال في منزلنا الموجودة في الطابق الأول في العتمة وهو موجود فيها كطفل صغير. يجلس على السرير ويتطلع عبر النافذة إلى الخارج، إلى الطريق. وخلف ظهره تتحرك الخيالات وحين يستدير لا يرى أي شيء.

فجأة يظهر وجه كبير في النافذة — مارد يتطلع إلى الداخل، يُكشر، ساقاه تتدليان إلى الأسفل نحو الحديقة. وأنفه يلتصق بزجاج النافذة، يحاول رؤيته في العتمة. وأبي يريد الاختباء ولكن عينيه تعودان باتجاهه. الوجه البدين المُكشر يملأ النافذة. والدولاب مُتخَم بالأشياء، السرير واطئ — وأبي لا يمكنه الاختباء تحته. أخيراً يصرخ.

يستيقظ دائماً على ضربات قلبه ويصرخ. لا شيء يتحرك خلف النافذة.

إذا كان عليّ أن أسترجع شيئاً من منفردة والدي، فإني أرى أمامي مروحة الطاولة البيضاء المهشمة – لها أربع شفرات تنشر الهواء مثل الماء خلال الأيام الرطبة، كما تشكل تياراً من الهواء يترافق مع هدير قوي أثناء دورانها من جهة إلى أخرى. وجهاز الراديو السلكي، و راديو والدي الشاحب، ببساطة، مكبر صوت واحد بمآخذ متعددة ملأ الغرفة بمختلف الأصوات.

ستيلا، حين تشتعل النجوم فوق الأدرياتيك... مرة واحدة فحسب، شعرت يا ستيلا بحلاوة طعم قبلاتك... بدونك لا يمكنني الشعور بالسعادة...! دوى تانغو حزين من أوركسترا ناعمة.

تمدد أبي بعد الظهيرة على السرير، وغفا. حاول أثناء ذلك عدم النوم. دائماً حين يدخل أحدنا بالصدفة إلى غرفته، يجلس بسرعة ويقول:

"لست نائماً". أو أنه يقول في نومه: "كل شيء عندي تحت السيطرة!"
غالباً ما كنت أدخل إلى المنفردة كي أسمعه. أضحك دائماً.
"كل شيء عندي تحت السيطرة!"

بعد ذلك، فجأة يرن جرس الهاتف الأسود الكبير. أبي عادة يحاول حسب الرنّة تقدير المتحدث من الطرف الآخر، وحقيقة، بدا لي أيضاً أن نوعية الرنين تختلف من واحد لآخر. الرنين القوي المستمر يشير إلى مريض لا يمكنه الانتظار، ولنقل إلى مصاب بالتهاب الأعور، ورنة أطرى قليلاً وأضعف – يمكنها أن تكون من مريضة بعد ستة أسابيع من الولادة (نفسة) تريد التأكد ما إذا كان ارتفاع الحرارة البسيط لا يؤثر، والرنين الأطول والأضعف أكثر والهادئ – العجوز "كربسوفا" التي تريد التشاور مع والدتي حول وصفة كعكة الحلوى.

أبي يخطو نحو الطاولة دون أن يفكر بشخص على التعيين. يرفع السماعة الثقيلة من مكانها.

"الدكتور "ترنوفسكي" على الخط!" يبدأ عادة.

ما حدث بعد رفعه السماعة في ذلك اليوم الربيعي الحار، عرفته بعد سنوات وغالباً من بعض الملفات، ومن غيرها من الوثائق التي أكلتها أشعة الشمس والرطوبة وغطاها الغبار أو من مُضي الزمن. جمعتها قطعاً صغيرة وفهمت بعد ذلك الموزاييك الذي بدأ يتشكل لأن شرح والدي بدا لي أحياناً غريباً، ويفتقد إلى المعنى كما يصعُب توقعه. لقد تغير مزاجه، وشرد ذهنه، أصبح شكوكاً ويصعب توقع ردود أفعاله بالرغم من تناسق عام 1950 وكماله، وفي الأعوام المتناسقة الكاملة الأخرى الآتية.

أخبره الصوت الآتي من الجهة الثانية للخط الذي جاء قاسياً وبسيطاً ببعض الحقائق. لم يبدُ الحديث هاماً في البداية ولكن والدي أدرك بعد نهايته ما يريد ذلك الإنسان قوله.

طلبوه بعد ذلك للحضور بمذكرة رسمية إلى فرع أمن الدولة الموجود في البناء الشاحب الذي لا يثير الاهتمام داخل شارع مغلق في نهايته بالقرب

من إدارة الشرطة. وقد توجب عليه *المثول* بعد خمسة أيام، *والإبلاغ عن سبب غيابه للمراجع العليا، وطَلِبَ إعفاؤه من الوظيفة* في التاريخ المحدد.

وهكذا، وبما أن والدي كان تقريباً سيد نفسه، أخبر المرضة في العيادة بكل بساطة أنه سيأتي في اليوم التالي للعمل بعد الظهيرة. لبسَ في الصباح أفضل طقم تعود لبسه أثناء الجنازات وانطلق باتجاه الهدف دون أن يتوقع ما تخفيه مذكرة الإحضار. تلك الأوراق في العادة لا تتحدث أكثر من اللازم.

بينما كان والدي يتمشى في المعبر بحثاً عن الباب رقم 24 (أتخيله)، كاد أن يصطدم بالقزم "غايدوش". عنصر الحرس السابق الذي ألقى عليه تحية نظامية — يرتدي زي الشرطة ولكن برتبة عادية، والدي لم يُخفِ اندهاشه بالتأكيد . راقبه برهة، وحين توقف عند الباب رقم 24 (بعد باب آخر فقط كانت عيادته المؤقته قبل وقت)، نقره. فسمع صوتاً قاسياً من الداخل: "*ادخل!*" — يجلس خلف الطاولة ضابط أمن الدولة الكابتن "دوراتني" (الذي عرفه والدي بشكل جيد أثناء إصابته بصدمة تحسسية جراء تناوله نبيذ "توكاي" قبل خمس سنوات).

يقف في الغرفة رجل آخر، ظهره باتجاه والدي وكان قد أحضر للتو بعض الأوراق. يكتشف والدي حين استدار لتحيته أنه "بابير". ضارب الطبل من فرقة "بريجاني" لآلات النفخ، والمُسلي الشهير الذي يكره دموية البطولة الألمانية heroische deutsches Blut.

يتميز الكابتن "دورانتي" بعادة غريبة. يسحبُ عند بداية أي لقاء أو تحقيق ورقة نظيفة من الجارور ويضعها أمامه. يبدو كأنه يريد كتابة شيء ما. ولكن لا — ينتف منها قطعاً صغيرة ويضعها في فمه. فتختفي الورقة بأكملها خلال اللقاء — ينتهي في الحقيقة كل شيء حين يضع على لسانه آخر قطعة ويعلكها.

ذكر لي والدي تلك الحادثة بعد سنوات وأضاف: الكابتن "دوراتني" تنفصه بالتأكيد بعض الفيتامينات. سبب غريب.

الكابتن "دوراتني"، يُخرج إذاً من الطاولة قطعة الورق.

"نهارك سعيد، الرفيق الطبيب! تفضل، اقترب واجلس. مجرد روتين."

يُمسك والدي من كتفه بلطف ويُجلسه على الكرسي الموجود أمام طاولته المصنوعة من الخشب الثقيل الغامق. يجلس أبي إذاً على الكرسي ويعود "دورانتي" إلى طاولته الملأى بالملفات والبلاغات.

يسأله أبي: "كيف حال السيدة زوجتك؟"

"شكراً، أفضل. لقد أتعبتها تلك الولادة، ولكنها ستتحسن"

يتفحص الضابط ملف والدي (على الأغلب)، يدق قلم الرصاص بركبته ويهزها — يُمزق قطعة صغيرة من الورق. عنده رجفة في عينه اليسرى — عرفت ذلك من رؤيتي له حين كان يتحاور مع والدي من خلال سياج الحديقة بوصفهما معرفة جيدة.

"قبل الحرب عضو في حزب المزارعين، أثناء الحرب عضو "هـ س ل" لأن ذلك كان نافعاً، أليس كذلك؟ بعد ذلك، انتسبت في شباط إلى الحزب الشيوعي — لم تظهر نشاطاً، كنت عضواً عادياً. تنوع كبير. ما تعليقك، أيها الرفيق الطبيب؟"

يتطلع في وجه والدي.

"كيف، اعذرني؟"

"ما قولك في هذا، الرفيق الطبيب؟" يتكلم "دوراتني" بصوت أعلى.

أبي يرفع رمانتي كتفيه.

"أعرف الآن أين الجهة الصحيحة"

"أها. ولكن هذا ليس كل شيء" يقول "دوراتني" بخبث.

ينتفض أبي بشكل ملحوظ، حتى اللحظة لم يعتبر الأمر تهديداً خطيراً، مجرد نوع من التخويف، مع أنه لم يتوقع السبب.

"كيف...؟" يسأل. تُصفر أذنه اليمنى ولكنه فهم القصد.

يدفع الضابط بورقة أمامه. فيتفحصها أبي ولكن أحرفها بدت له ضبابية. لم يفهم حتى اللحظة. "دوراتني" يسحب الورقة من أمامه.

"يكفي حين سأقرأ لك هذا: أعلن بعد معرفتي للحقائق أني لا أحتاج اليهودي "أرمين بلاو" في صالون حلاقتي الذي اشتريته في بلدة "بريجاني"، شارع "سفاتوبلوك 49. إن القبض على ذلك اليهودي وترحيله لا يؤثر بأي شكل من الأشكال على عمل الصالون من الناحية الاقتصادية كما أنه لا يؤثر على الدولة السلوفاكية. لقد وجدت البديل في إنسان آري... الخ، الخ ... ما رأيك؟

يتطلع أبي إليه مندهشاً. يعرف الورقة، نعم. ولكنه يسمع "دوراتني" وكأنه يتحدث من غرفة مجاورة. لا يعرف ما حدث له. فالجو هنا بدأ يميل إلى السخونة. والصوت حقيقة غير واضح. ماذا يقول؟

"هل تسمعني...؟"

"عفواً؟"

"أسأل إذا كنت تسمعني؟!"

والدي بقي صامتاً.

"دوراتني" يتابع: "لا أظنك تريد أن يعرف أحدهم بالأمر، أليس كذلك، أيها الرفيق الطبيب؟ زوجتك، أولادك، شقيق زوجتك "أوسكار نوفان"..."

غالباً ما رأيت والدي وهو يفتل رأسه، ويغلق عينيه قليلاً، بدا حقيقة كأنه *يرفع أذنيه* بغرض التركيز لعدم فهمه الأمر. تشكل على وجهه خط رفيع. وهذا بالضبط ما أظن أنه حصل معه الآن.

"تريد أن تعرف زوجتك بذلك؟ يمكنني الآن مهاتفتها. أو طلبها للحضور لترى بأم عينيها الورقة عندنا."

يمكنني الجزم أن والدي لم يسمعه، ولكن يمكن القول على كل حال إن الحالة بدأت تعنيه في شيء.

أرى كيف يقوم بحركة سريعة ويأخذ الورقة من الطاولة حتى إنه في نهاية الأمر يدسها في فمه ويبدأ في علكها كمقدمة لبلعها.

لكن "دوراتني" أسرع منه، يركض نحوه ويبدأ في ضربه. يندفع بسرعة إلى الغرفة رجل آخر، بالتأكيد كان ينتظر خلف الباب ويشارك

في الضرب، إنه "غايدوش". ("كل مرحلة بحاجة إلى رجال مخلصين"، قال والدي في وقت لاحق وهو يبتسم) أبي يسقط على الأرض. يفتحون فمه بالقوة ويخرجون كرة الورق (أو ماذا تكون) من بين أسنانه ولسانه. يُمانع، ولكن دون فائدة.

وجه والدي ينزف. سيخبرنا في البيت عن حادثة غبية حصلت له وهو في طريقه من عند أحد المرضى حيث انزلق على الدرج، ولحسن حظنا لن يضيف إلى المشهد قشرة الموز.

رتب "دوراتني" شعره، وحاول تصنع الهدوء. يجلس خلف الطاولة.

"إننا لا نلعب ، أيها الرفيق الطبيب!"

ينهض أبي عن الأرض مسنداً رأسه إلى خزنة البيانات. "غايدوش" يساعده في الوقوف والجلوس من جديد على الكرسي.

يتابع "دوراتني" بنبرة ضعيفة: "أتعبت نفسك دون فائدة، إنها مجرد نسخة، والأصلية معي هنا"

يسحب من الطاولة ورقة أخرى، يلوح بها أمام وجه والدي.

"ماذا سنفعل بها برأيك؟"

والدي لا ينطق، لا يفهم ماذا يمكنهم فعله بها، يعرف أن ما هو على الورق لا يمكن تغييره. ولو أرادوا إطلاع أحدهم عليه، يمكنهم ذلك دون حاجة لسؤاله.

"عندي اقتراح لك"

أتصور كيف يُمسك والدي المسكين في جيبه أمبولة الدواء المضاد للقلق. إنه شاحب مثل الحائط. ويترجى كأس ماء، يعطونه إياه. فيفتح النافذة، ويبلع الحبه مع الماء. كل شيء يحتاج إلى وقت طويل.

هذه المرة يتحدث "غايدوش":

"قمنا اليوم بزيارة عيادتكم، أيها الرفيق الطبيب."

يُكشر بتهكم.

أرى كيف قلب رجال الأمن طاولة والدي مع خزنة الأضابير رأساً على عقب، يفتشون في السجلات الطبية والأرشيف. تقف بجانب الباب الممرضة "زدنكا بافلوفيتشوفا" مرتعبة إذ لا يمكنها فعل شيء، ولا حتى إخبار والدي بما يجري. عليها أن تصمت كما يأمرها أولئك السادة في لباسهم المدني الرمادي.

"انظر، أمر ممتع، يثير الانتباه حقاً! كمية اللومينال المستخدم! ألا تشعر بضرر من تناوله، السيد الطبيب".

والدي يدور رأسه.

"كلٌ يحتاج لشيء يهدئه" يقول "دوراتني"، وهو يدسُ قطعة ورق في فمه. "ينام بعد ذلك أمام المرضى كما أُبلغنا من مصدر موثوق"

حين يعود أبي إلى العيادة في نهاية الأمر يجد بقايا الخراب الذي لم تلحق الممرضة المذعورة من إعادة ترتيبه. فيساعدها لأن غرفة الانتظار تكتظ بالمرضى، بدأ موسم الإنفلونزا.

تلك الورقة وجدتها بين مستندات والدي بعد سنوات عديدة. عاشت العديد من التغيرات بما في ذلك التمزيق.

نجحنا في 15.10. 1950 في تجنيد ك ت س "لومينال" إلى صفوفنا، اسمه الأصلي "ألفونس ترنوفسكي". تم ذلك في مكتب مدير فرع أمن الدولة المحلي. وقد أشرف على الالتزام مدير فرع الأمن اللفتانت كولونيل دكتور القانون "فالنت" والكابتن الدكتور "دوراتني". وتمت العملية طبقاً للخطة المقررة. توضح لنا أثناء استعراض الأوضاع السياسية الداخلية والعالمية أن ت س يملك رؤية سياسية جيدة. وقد طُلب منه أن يُصرح بما إذا كان على استعداد لإيصال المعلومات التي تساعد عمل أمن الدولة، أو ما إذا كان لديه ما يشير إلى عدم رغبته في إنشاء علاقة مع عناصر الأمن. وأوضح أنه يتفهم مهمة عناصر الأمن وأنه على استعداد ضمن الإمكانات المتاحة للتعاون وتنفيذ بعض المهمات المطلوبة.

و لأنه وافق على التعاون، طُلب منه كتابة تصريح يؤكد قوله، فنفذ الطلب. وكتب أنه يوافق بطيب خاطر على التعاون، وبأنه سوف

يكتب التقارير ويوقعها باسم سري، لومينال". طلب منا بعد ذلك الحفاظ على السرية التامة في المراسلات والمقابلات مع عناصر الأمن لأنه سوف يتضرر في حال كشفت هذه العلاقة ومن ثم سيفقد ثقة مرضاه ومعهم سكان "ب" حيث سينتهي كطبيب. وتم التأكيد بأن الحفاظ على سرية المراسلات من طرف عناصر الأمن سيكون مُلزماً، وبأن ت س لومينال سوف يعمل تحت أمرة رئيس مكتب الأمن الكابتن "يان دوراتني"."

كان على والدي في المقدمة كتابة كل ما يعرفه عن الأشخاص الموجودين من حوله في "بريجاني" كي يُثبت لدائرة الأمن إمكاناته، رأيت ذلك التقرير الذي وجدته مجدياً، متزمتاً ومستقيماً.

استخدم في الكتابة "رمنغتون" آلة كتابة الغروف العجوز التي جلبتُها بعد الحرب من القصر. استخدمها والدي حتى آخر يوم من حياته. وقد عرفت ذلك بسبب ميلان حرف — أو- قليلاً إلى اليسار وطريقته النموذجية في الميلان باتجاه جميع الأحرف السابقة مثل الكلب الوفي باستثناء الحالات التي كان فيها وحيداً أو في بداية الجملة.

وفي هذا السياق جاء ذكر اسم والد "فويتا" مراراً ومعه جاء ذكري. نشاطه أثناء الحرب وحصوله على العديد من الأوسمة، وحسب زعمه فقد حصل على تلك المعلومات من ابن المذكور الذي هو صديق ابنه، وبأنه لا يملك معلومات كثيرة عن مرضاه وغير ذلك عليه الحفاظ على سرية المعلومات الطبية كما أنه لا يتدخل ولا يهتم بحياتهم الخاصة، ومن ثم لا يعرف بالضبط كيف سيكون مفيداً للمؤسسة الأمنية، علماً أنه، يساهم حقاً ويفعل ما بوسعه بطريقة أو بأخرى في كشف الأعداء الذين يتربصون بوطننا الاشتراكي، وما شابه.

أضاف الكابتن المتحمس "دوراتني" إلى التقرير بعض ملاحظاته: يتمتع "ألفونس ترنوفسكي" في "بريجاني" بسمعة طيبة، كونه يتحدر من عائلة شهيرة — لذا فإن ثقة الناس الموجودين من حوله مضمونة. كما أن

مهنته بوصفه طبيباً تساعده بشكل كبير في هذا المجال إضافة إلى علاقاته النشيطة مع المرضى مما يؤهلة للنجاح ويساعده في تلك المهمة.

شعر والدي بالطمأنينة قليلاً بعد عودته إلى البيت - على الأقل هذا ما تخيلته — ربما كما يطمئن الرجل الذي يجد منزلاً دافئاً يدخل إليه بعد عدة كيلومترات من الضياع في أجواء صقيعية حيث يقوم بعد ذلك بتسخين يديه فوق الفرن ويلتهم شوربة ساخنة تجعله يشعر بأن البرد لم يكن بتلك القسوة. (نعم، أيادٍ باردة ينساب فيها فجأة الدم الدافئ، تؤلم قليلاً في البداية) ومن ثم سيخرج مطمئناً ويتابع طريقه. يتطلع من خلال النافذة إلى الثلج الجميل الذي يتساقط وكيف يرسم الصقيع أمامه أشكالاً في منتهى الغرابة على زجاج النافذة. لا شيء يحدث. المهم أننا أحياء.

الحياة العادية لا نهاية لها وهي بحد ذاتها نشوة خدّاعة.

16

الأطباء يستخدمون لصقة الـ بلاستر لإصلاح كل شيء تماماً كما يُصلح عازفو الجيتار وتر آلتهم.

حين اشترى أبي سيارته الثانية، ومن ثم ساهم في زيادة حركة السير في شوارع "بريجاني" بنسبة عشرة بالمائة، أصبحت في الحال ملصوقة بالكامل.

جميلة، زرقاء بأربعة أبواب "سدان تاترا 87" شبيهة كل الشبه بحشرة مُجنحة. شعرت بالفرح حين عرفت أن شاعري المحبب "فيتزسلاف نزفال" يقود سيارة مثلها.

أكثر من فرِح بالسيارة أخي "بتر" الذي كان والدي أحياناً يسمح له بقيادتها وبدأ يدعوها "شفروليت". فهي شجاعة، وتندفع بقوة — وحين كان يأخذني أحياناً في رحلة في أرجاء المدينة كان يثبتني أثناء انطلاقها على المقعد مثل كابينة فورمولا ون — ويخفف السرعة قبل أي حاجز (مثلاً قبل الإشارة الضوئية) في اللحظات الأخيرة. فالإنسان عليه أن يُمسك بشيء كي لا يصطدم رأسه بالزجاج لأنهم في تلك الأوقات لم

يُفكروا بحزام الأمان. كان "بتر" يسير بسرعة مائة حتى على الطرقات المتجلدة لذا لم تتجرأ سيارات الأمن على ملاحقته.

أبي كان يسوق بهدوء واتزان أكثر، يمكن القول في النهاية بكثير من الرحمة إذا ما قورن تصرفه الآن بتصرفه أثناء زيارته المرضى بسيارة الشفروليه. السيارة الجديدة تتطلب منه ذلك.

ألغوا عيادته الخاصة ولهذا السبب انتقل إلى العيادات الشاملة حيث عشعش بوصفه طبيب منطقة ممارساً.

اخترعَ خلال سنوات العديد من الطرق الناجعة. مثلاً، حين تأتي العائلة مع طفل مصاب — ويجد أن الخياطة ضرورية؛ جرح بسيط على الجبين، أو الأنف، أو الشفة أو الرأس، لم يجد ضرورة لاستدعاء الجراح — ولضرورة تخويف الأهل كان ينده على أحد أفراد العائلة الموجود في غرفة الانتظار، ويطلب منه المساعدة في مسك الطفل. في المستقبل، على الأقل سوف ينتبهون أكثر لولدهم. كان يراقب تصرفاتهم ويوحي لهم بأنه يعجز عن الإمساك بالطفل، حتى الممرضة "زدنكا" في نهاية الأمر لا يمكنها المساعدة كثيراً.

غالباً ما كان الرفيق "كومينار" رئيس اللجنة الوطنية للمدينة يزور والدي. كان يتمتع بالصيد في أعماق غابات "فولوفتس" وأكثر ما يحب صيد الغزلان. كان الصيد دائماً يثيره بحيث إنه يضطر أحياناً لاستخدام حبوب مهدئة قبل ثلاث ساعات. هستبس، باربيتورات خفيف كان يعطيه أحياناً للأطفال كي يناموا بهدوء. أبي كان يكتبه له بشكل دوري.

أخطأ الرفيق "كومينار" في إحدى المرات وبلع بدلاً من حبة "هستبس" حبة "إيزاتسن"، مُسهل قوي ولهذا لم يتمكن من الجلوس طويلاً بانتظار الطريدة.

أنهيت الثانوية بنجاح، وتمكنت من الحصول في المنطقة على الكتاب الصغير الأزرق (إعفاء من الخدمة) بمساعدة خليط من ارتفاع الضغط الوهمي، وزيادة الديوبتري، وتسطح القدمين، وعلاقات والدي.

ربما لم أكن رجلاً بكل معنى الكلمة من وجهة نظر العديد من سكان "بريجاني" العاديين ومع ذلك كنت سعيداً لأنني لست مضطراً للزحف سنتين فوق الطين إضافة إلى الإرهاق — حتى ولو كان بوسعي في وقت لاحق أن أتذكر في الحلم كيف كان الطين دافئاً، وكيف كان الضباط يتعاملون معنا بلطف ومحبة كما أن المتقدمين ساعدوني كثيراً في تحسين حركتي وهمتي.

لم أكن أعرف مسبقاً ما علي فعله، ولكن "فويتا" كتب لي في أحد رسائله البراغية الأخيرة أنه سوف يتقدم بطلب لدراسة علم النفس في جامعة شارل.

وبعد ذلك حدث ما حدث.

سرحوا والد "فويتا" من الجيش. ولم يعرف أحد السبب. كثيرون قالوا السبب: هو قيامه بتعميد ابنته "إلي" أخت "فويتا" الصغيرة التي بدلاً من جلب السعادة والفرح لوالديها (لم تعد الأصغر الآن) اللذين حتى لم يخططوا لذلك الحدث، (قال "فويتا" إن السبب يكمن ربما في تمزق الواقي الذكري وما ينتج عن ذلك إضافة إلى المزاج الطيب بعد حفلة الضباط الراقصة) فقد تسببت لهما من اللحظات الأولى بزيادة تجاعيد البشرة. تعسرت الولادة مما جعل السيدة "ناتاليا" تتأرجح مع "إلي" بين حدود الحياة والموت، خرجت من جسد والدتها في وضعية غير ملائمة مما اضطرهم في المشفى العسكري المركزي البراغي إلى إجراء عملية قيصرية كي يصطادوها — لهذا أصرت عائلة السيدة "ناتاليا" الكاثوليكية على إجراء التعميد بعد كل ذلك العذاب، وكي يثبتوا هناك *في الأعلى* أيضاً أن الطفلة قد نجت بأعجوبة ربانية.

كان عليهم إبقاء التعميد سراً، ولكن الخبر تسرب بسرعة.

من الخطأ تعميد طفلتك — هذا الأمر لا يمكن لـ" فويتخ روشكو" الضابط في جيش الدولة الشعبية الديمقراطية، والملازم الأول، وموظف وزارة الدفاع في براغ أن يسمح به.

ولكن الفزورة رتبت بشكل مختلف على الأغلب. حلمتُ كثيراً بأوسمته الباطلة وحتى عن تلك التي تسلمها لإصابته الطيارين السوفييت، من يدري ما إذا كانوا قد لحقوا في رمي أنفسهم!

الحرب هي الحرب، وهي عندي واجب مقدس!

Pflicht Krieg ist Krieg und ich habe nur meine getan!

على كل حال — الثمانية الخضراء، وعامل المناجم الأحمرِ على طاولة السيدة "ناتاليا"، بصرا أن شيئاً ما سيحدث. ولن يكون جيداً.

وصلت رسالة بريدية مستعجلة:

وزارة الدفاع الوطني، رقم 035157

مرسوم:

نقرر تسريحكم من تاريخ 30 حزيران 1951 من الخدمة العسكرية الرسمية كما يتوقف من تاريخه راتب الخدمة السابقة. نحيلكم طبقاً للمادة السابعة من القانون رقم 85 /1950 من تاريخ 1.تموز 1951 إلى الخدمة الاحتياطية. لا يحق لكم طبقاً للفقرة 1/13 من القانون نفسه راتب التقاعد. وفيما يتعلق بوضعكم تحت تصرف الوظائف المدنية، يمكنكم الرجوع إلى قيادة الجيش في محافظتكم حسب مكان الإقامة.

براغ، 19.حزيران1951

وزير الدفاع الوطني

جنرال الجيش، القانوني ألكسي تشبتشكا ف.ر.

أعرف من ملفات والدي أنه تجنب عن قصد منذ البداية حضور عدة لقاءات في بيت التآمر الموجود في شارع "كيروف" متذرعاً بنسيانه الموعد، أو التأخر عنه. قصوا بعد ذلك بالتأكيد أجنحته الصغيرة، وشدوا الصنبور أو الحبل، أو ربما من يدري. ظهر بعد ذلك، ولكن..

استأجر المدعو "كيش" المعروف بالسكير في "بريجاني" بيت التآمر. لكنهم لم يختاروا البيت بالصدفة بل لأنه يقع مباشرة فوق حانة

"البرج". نعم، كأنك تريد الذهاب إلى الحانة، وفجأة تقفز، وتنعطف بطريقة لا تثير الشكوك باتجاه الأدراج إلى الأعلى ثم عبر ممر ضيق. يفتحون لك الباب، إنهم بانتظارك. بيت صغير، بضع قطع أثاث، أجواء هادئة تخيم على البيت، مكان رائع لتبادل الأحاديث. عند خروجك من هناك لن ينتبه أحد. تعرف، أنك خارج من الحانة.

"أها..، ابنك حسب أقوالك يترافق مع ابن الملازم الأول "فويتخ روشكو" الذي كان في تلك الأثناء خارج الخدمة أيها الرفيق الطبيب."

"نعم... نعم.."

"إنهما معاً على الدوام، يترافقان إلى السباحة، ويشوون.... هكذا؟"

"بشكل أو بآخر"

"هذا جيد."

"إنهما صديقان، وهذا كل شيء. صبيان مهذبان"

"لا أشك في هذا، أيها الرفيق الطبيب. الملازم الأول "روشكو" عندنا شخصية جذابة"

"لماذا؟ طردوه..."

"سرحوه من الخدمة الرسمية! لم يطردوه، أيها الرفيق الطبيب. هناك فرق"

"إنه يعمل الآن في مؤسسة غابات الدولة في "بريجاني"."

"نعرف ذلك، أيها الرفيق الطبيب"

"بعد ذلك، لا أفهم..."

" من الممكن أن يكون الوضع أسوأ!"

"كيف؟"

"أفكاره غريبة، وهو من وجهة نظر نظامنا الديمقراطي الشعبي، لنقل، ذو ماض مشكوك في أمره. أنت بالذات أكدت ذلك في تقريرك."

"لم أكتبْ شيئاً من هذا!"

"اهدأ ! نحن نعرف ما هو مكتوب هناك."
"ساهم عدة شهور في الانتفاضة."
"انتفاضة، انتفاضة! ، أمثاله كُثر! وأين عملّ قبل ذلك؟"
"لا أفهم."
"تفهم. ألستما صديقين؟"
"نتبادل التحية في الطريق فحسب."
"ألستما صديقين؟.
"هذا لا."
"بطاقته عندك في العيادة؟ هل عالجته؟"
"في السنوات الأخيرة لم أعالجه. كان لديه طبيبه في براغ"
"وقبل ذلك؟"
"قبل ذلك... لا أيضاً"
"هل يوجد بينكما اتصال ضيق."
"اتصال ضيق؟"
"من خلال ابنك. وُلدا صديقين، تفهمونني؟"
"ولكن..."

"نحتاج لمعلومات عن أفكاره، وعن اتصالاته مع عسكريين آخرين انتهوا مثله. وربما فروا إلى الخارج."

"هل جُننتْ؟ وهل تظن أنه سوف يتحدث معي في تلك المواضيع!"

"كفانا أعذاراً أيها الرفيق الطبيب! إننا نُمسك بك من خصيتيك، عليك ألا تنسى ذلك.

17

ترك والدي قبل الحرب لعمي "رودو" حصته من الكروم الموجودة في الطرف الجنوبي من "فولوفتس". لقد استولوا عليها الآن. حاول المروجون إقناعه (حتى عمي "أوسكار" لم يُقص) بالانضمام إلى الجمعية

التعاونية الفلاحية مستخدمين الوسائل كلها بما في ذلك تهديده بالمخالفات، وإجباره على تسليم كمية كبيرة من إنتاجه عن طريق القضاء إلى أن تعب في النهاية ووافق.

ولكنه بقي يشتم قراره. كان محقاً في ذلك لأن الأمر وصل بعد عدة سنوات بعنب "بريجاني" إلى درجة جعلت الناس يقولون وهم يُكشرون – *نبيذ "إرشاي" يُشرب حتى أعياد الميلاد، نبيذ "مولر" حتى عيد الفصح، وبعد ذلك يمكنك سكبه على الأرض.*

الجمعية التعاونية الفلاحية تعمل منذ سنتين في إقطاعية السيد "كاتزا" السابقة الموجودة خلف بحيرة "بهي" وفي كروم السيد "بونتشني" التي بدلوا اسمها لتصبح معامل نبيذ بريجاني الوطنية.

سألت "رودو" أثناء عملية الشواء على المرج المائل خلف المدينة تحت "فولوفتس"، مباشرة خلف سياج كرومه السابقة "دودروفا":

"لماذا انتسبت إذاً إلى الجمعية؟"

تهرب العم "رودو" من الإجابة. "الآن لا يمكنني الحديث، سأخبرك حين سنذهب للتبول".

ترافقنا. هبت نسمة من "فولوفتس".

"تعال إلى هنا."قال لي؟ رودو".

"لماذا إذاً؟ سألته."

"انظر إلى نفسك. هل يمكنك أن تقف في مواجهة الريح؟"

ضحك، تبولت على سروالي.

"لدبري!"

"هل رأيت!"

أحسست برائحة الدخان المنبعث من النار، والدي كان يضحك من شيء.

العم "رودو" يهز رأسه، هبط الغروب الذي لف بظلمته كل شيء.

"هناك، القمر...!"

وقفنا لحظة هناك ورحنا نراقب الكرة البرتقالية التي بدت مثل وجه أصيب بالجدري.

"ولكن ماذا، فليحدث ما يحدث، أنت المنتصر بالرغم من كل شيء. وأنا، ووالدك، ووالدتك. جميعنا، جميعنا، الناس في العالم جميعاً"

"لماذا؟"

"إذا أخذت الأمور بهذا الشكل — لا بد أنك كنت في بداية حياتك مجرد حيوان منوي وحيد سبق غيره من ملايين الحيوانات ولقح البويضة. لا تسأل حتى عن الاحتمالات. ولكن هذا ما حدث مع أنه لا يُصدق. وبعد ذلك... أنت حفيد أولئك الذين نجوا من جائحة الطاعون ومن جميع الحروب التي حدثت وغيرها من المصائب والأحزان جميعاً — و خلفوا الأحفاد. كيف تشعر الآن؟"

"لا أعرف."

"إنك منتصر!"

راقبني العم "رودو" لحظة وقد لمعت عيناه.

أشار بعد ذلك إلى النار التي تضوي في وسط العتمة وجعل يتلمظ بفرح:

"هيا إلى هناك، ستكون بانتظارنا شريحة دهن مشوي (يَقرشْ). أشتمُ رائحتها في الهواء.

شرائح الدهن المشوي الذي ملأت رائحتها أجواء الأمسية تعتبر من الأشياء النادرة — إنها من آخر خنزير من خنازير العم "رودو" المسمى "يولنكا". لقد رباه بالسر جاره "يوجكو تشرني" الذي جمع له من جيرانه ثياباً فضفاضة.

كي لا يفقد الناس كل شيء يملكونه جعلوا يستخدمون من جديد العادات التي اكتسبوها أيام الحرب. حين يريدون ذبح الخنزير، يعلنون أنه مات من المرض. كانوا يخنقونه بالجنزير كي لا يضطروا لإطلاق النار عليه ومن ثم ينفضح الأمر. كانت العملية تحتاج لعدد كبير من الشباب الأقوياء مع ذلك كان الخنزير يتلوى ويصرخ مما يجعل الأمر أكثر

تعقيداً، وحدث أن هرب في العديد من الحالات. انطلق سباق الخنازير الرائع في شوارع "بريجاني".

أسلم "يولنكا" الروح ببساطة، ولكن الصخب الحاصل في سقيفة "يوجكو" وصل إلى جاره "تشافويتس" الذي وشى به في الحال. حين وصل الرفاق من اللجنة الوطنية لتحري الأمر وتسجيل المخالفة، لم يجدوا سوى بعض البراهين غير المباشرة — حامل ثلاثي القوائم، وسكيناً حادة ملطخة قليلاً بالدم. تمكنوا من إخفاء السجقات وتغطيتها، ونقانق الكبد في غرفة المؤونة. غادر الرفاق وتركوا الأمر على حاله، ولكن العم "رودو" انزعج كثيراً. دوّن على ورقة مجعوكة بخط كبير: *التهم يا "تشافويتس" الخراء ولا تخبر أحداً بذلك!* ثم رماها في علبة بريده.

بقي في "بريجاني" وما حولها بطبيعة الحال بعض "الكولاك" متحجري الرؤوس الذين صموا آذانهم عن نداءات الجمعيات التعاونية وسخروا من الملكية الجماعية السعيدة. لم يعن لهم شيئاً الإعلان الذي كتب عليه: *حصدنا في الوقت ودرسنا ثم سلمنا إنتاجنا للدولة* حيث جلس هناك أيضاً عجوز سعيد مع غليونه وقبعته ووجهه المُعبأ بالتجاعيد إضافة إلى شاربيه ومن خلفه رجلان على التراكتور الذي يشد مقطورة ملأى بالعشب. أحدهما يلوح بيده فرحاً من بعيد.

الجميع يعرفون، ولكن لا أحد يتحدث أن الكابتن "دورانتي" استأجر مجموعة من الغجر الذين سكنوا في "ياما" خلف المدينة. أعطاهم سيارات ونقوداً وكحولاً مقابل شيء واحد — أن يقوموا كل مساء بعد حلول الظلام بقرع الباب، وضرب الفلاح الذي يجلس مسترخياً بعد العشاء دون أن يتوقع حدوث أي شيء. هنا يكسرون النافذة، وهناك يسرقون الحظيرة، هنا يُعطلون التراكتور، وهناك يحوّشون البطاطا، هنا يسرقون الدجاج، وهناك يكسرون أطراف الخيل... لغرض عودة الكولاك إلى رشدهم. لقد قرر تحويلهم إلى أناس سعداء حتى ولو تطلب الأمر قتلهم، وهذا ما حدث في حالتين.

نعم لقد درّسنا في الوقت.

أراني العم "رودو" بعد سنوات ما وجده في تركة "يوجكا تشرني" الذي بقي يعمل في الجمعية الفلاحية التعاونية في "بريجاني" بوصفه سائق حصادة.

لم يبق من هويته الحمراء ذات الرمز الأصفر والترويسة: "اتحاد الفلاحين التعاونيين" سوى الغلاف الذي كُتب عليه (*الرفيق المحترم — الرفيقة! الجمعيات التعاونية الفلاحية هي مؤسسات مشتركة إنتاجية — اقتصادية واجتماعية هدفها الرئيس تأمين الغذاء للمواطنين على إيقاع زيادة المهمات الوطنية الاقتصادية وواجبات أعضاء الجمعيات التعاونية الفلاحية. يعتبر أعضاء الجمعية التعاونية بناء على مقررات اجتماع الأعضاء جزءاً هاماً من اتحاد الجمعيات الفلاحية — المؤسسات الاجتماعية بما فيها الجبهة الوطنية. في حال فقدان، تلك الهوية أو تخريبها أو تغيير في معلوماتك الخاصة، عليك إخبار المسؤولين عن الجمعية*)، وفي داخله كراس في الحجم نفسه والمحتوى أيضاً — *الزهور السماوية* التي رتبها ج .ب. كوستسكي، الطبعة 15 مع المُقدمة: *رحمة الرب سوف ترافقك في مشوار حياتك حين ستقوم بواجبات العبادة. فليبق المثل السلوفاكي "من لا يتخلى عن الرب، لا يتخلى عنه الرب" شعارك حتى الموت*. وفيه "الصلوات التي على كل مسيحي — كاثوليكي معرفتها عن ظهر قلب" *ليتمجد اسمك عيسى المسيح. إلى الأبد آمين.*

عادت عائلة "روشكو" إلى "بريجاني" عودة المطرودين من الفردوس. الحياة السابقة أصبحت مجرد حُلم. لم تعد السيدة "ناتاليا" مضطرة لإخفاء صليبها بين معاطف الفرو — وغير ذلك فقد باعتها في أوقات الأزمة. البيت بقي ساكناً، وبدا في بعض الأحيان مهجوراً تسكنه الأشباح. لم يتحدثوا تقريباً مع أحد.

بين الكتب التي أحضروها من براغ كانت هناك قصيدة "على ستالين "للشاعر "كوسترا". لقد تسلمها والد "فويتا" بمناسبة ترفيعه إلى رتبة ملازم أول.

أينما شاركت عضلات البشر/ في تطويع الطبيعة/ أينما وقف أول الطلائعيين؟ أينما تقذف قرون البحر أمواجها/ ثقافات البشر مثل منارة مشتعلة/ يقف ستالين.

قام "فويتا" بنسخ تلك الأبيات على الآلة الكاتبة وأرسلها إلى عناوين الرفاق الهامّين في "بريجاني" — الأمناء العامين، الرؤساء ونوابهم، مدراء الأقسام وغيرهم من مدراء الفروع بالقدر الذي تمكن من تجميعه — مع النص التالي:

احكم بنفسك، أيها الرفيق — أليس من الضروري أن تُنشر هذه القصيدة الرائعة على الصفحات الأولى للجرائد والمجلات الديمقراطية الشعبية جميعها؟ أرسل جوابك على الاستطلاع على العنوان التالي صندوق بريد "بريجاني"، كلمة السر "أكبر رجل على مر الزمان".

امتلأت بعد عدة أسابيع غرفة "فويتا" السابقة بالإجابات التي تسلمها على كلمة السر. زاود المشاركون أحدهم على الآخر بالرد وتعظيم يوسف فيساروفيتش. وامتلأت سطورهم بالشكوك والخوف إذا لم يكن كل شيء بالصدفة هدفه استفزازهم.

قرأت الأجوبة مع "فويتا" بصوت مرتفع وضحكنا إلى أن نهرتنا السيدة "ناتاليا" لأن أفعالنا شوشت صلاتها المسائية. قمنا بتجميعها بعد ذلك ووضعها في الحقيبة التي حملناها إلى الأعلى إلى التلة ومن هناك عبر الجبل إلى البيت "ناد نفدوما" الذي يمكن الوصول إليه عن طريق الغابة الوعر. البيت كان بلا كهرباء، وتمديدات صحية. بقيت في زواياه جوارب "أوريوس"، ومخلفات بعض الساكنين الأصليين، كان يملؤها صاحب البيت بزيت الكاز إذا تيسر له بعضاً منه. وغُطست الجدران بالعفن الذي ملأ الغرف بلون أخضر غريب.

مررنا من حديقة مُهملة لأن الساكن الجديد لم يعرف ماذا يفعل فيها. نبقت هنا من الأرض بضع قطع من الكرنب العملاق كما تفتح البصل بحرية بين الأعشاب اليابسة في أماكن أخرى.

لقد أرسلوه إلى ذلك المكان من براتيسلافا في سياق العملية "ب"حيث بقي من بعده منزلاً كبيراً في شارع "حُماة السلام" الذي أُطلق عليه عن قصد شارع "شتيفانيك". وقد سلموه في الحال لأحدهم من أولئك الذي تمنوه، وكان لديه ما يكفي من الإمكانات.

وُصفَ الشاعر "كلاوديوس كولار" بالعدو الطبقي والترتسكي. وقد عرفَ تصور شيء ما غير واضح تحت هذا الوصف، ولكن ذلك أثار دائماً دهشته. إذ تركته زوجته مع أولاده لأنهم لم يتحملوا العيش هنا ولا حتى أسبوعاً واحداً. بعد يومين من مغادرتهم قام "كلاوديوس" من شدة غضبه بثقب أغطية علب المربى الزجاجية المتروكة في غرفة المؤونة من قبل السكان السابقين كما لو قام أحدهم في ثورة غضبه بقلع الأشجار الموجودة في الحديقة جميعها.

حين عاد إلى صحوته في النهاية – عرف أنه عاد بالتدريج إلى الحياة لأنه تذكرها (علب المربى) – ذهب جائعاً إلى غرفة المؤونة حيث اكتشف هناك أن الكرز المحفوظ، والخوخ والإجاص، والتوت والفريز جميعها تخمرت. فسكبها في إناء واحد وحملها إلى معمل التقطير.

البراندي كان رائعاً. قدّمه للأصدقاء والضيوف جميعهم، وحسب زعمه الطعم رباني، يمثلُ الحياة في أجمل صورها. لقد أدرك السبب الذي جعل الشماليين يطلقون عليه ماء الحياة. " أكفافيت"

لم يكن عند "كلاوديوس كولار" ثلاجة في البيت لذا كان يحفظ اللحم بتمليحه وتبهيره أو بتجميده في الشتاء. تعود تحضير الحساء لأسبوع كامل وتركه ليبرد في البئر الموجود خلف البيت فوق سطح الماء حيث الحرارة مستقرة. تلك الأشياء نصحه بها أحد الشباب الساكنين بالقرب من منفردته في الطرف المعاكس لـ"فولوفتس". لقد خبر منه أيضاً أن وعاء التنك المخصص للقشدة الذي أراد رميه له اسم جميل "مصيدة" مما جعله يحتفظ به.

كان والد "فويتا" يزوره أحياناً أثناء تجواله في الغابة لترقيم الأشجار.

دق "فويتا" على الباب. فجاء الصوت من الداخل:

"من هناك؟"

"هذا أنا، افتح!"

"كيف، أفتح؟"

دخلنا ونحن نضحك. رحب بنا رجل نحيل كث الشعر أشيبهُ في بعض الأماكن بعينيه الزرقاوين. بقي جالساً خلف الطاولة، وتابع تقطيعه للفطر. وضع نظارتيه بعد ذلك كي يرانا بشكل أفضل في ذلك الضوء الأخضر الذي تنشره الجوارب.

"هذا صديقي آدم"

"نهارك سعيد."

"مرحباً.. لست أنا من تنظر إليه الآن. إنني أغشُ بجسدي، أعني — جسدي يَغشُ." لمس رأسه بأصابعه. "إنني هنا، في الداخل!"

لاحظتُ أنه لمس رأسه حتى بعد ذلك دون إرادة منه وكأنه لا يعرف شيئاً عن ضيفه.

"حسناً"

"لا تول انتباهاً لعلبة جسمي. إنها مائلة ومقرفة حتى ولو لم تكن بكاملها. إنها شاحبة وغير ممتعة. النظارات، الشعر الرمادي المدهن، الرماد في الريح، المستوى. ولكني هنا. عندي حياة داخلية عميقة. هنا توجد حيوات أخرى ملونة وغنية. في الداخل"

لمس رأسه من جديد.

"أكفافيت؟" سأل.

أومأت برأسي. خرجت منه رائحة الكحول تماماً كما تخرج من خزانة والدي الطبية.

"حين تشرب، يؤثر ذلك في جسمك بالتساوي. من لا يملكه في رأسه، يجده في ساقيه! إما أن يؤلمك رأسك، أو لا يمكنك السير."

سكب لنا سائلاً نظيفاً من زجاجة خضراء دَبقة.

"هنا في مكان قريب، في ذلك الوادي الذي يمكن رؤيته من هنا، في أحد تلك الأكواخ، أمروا فتاة صغيرة بحراسة الكلب طالما سيكونون في الأعلى. ولكنها لم تحرسه لأنه تخلص من الجنزير وهرب. وجدوه وأعادوه إلى البيت، ولكي تتذكر تلك الحادثة شنقوه أمام عينيها. روى لي تلك الحادثة أحدهم من الذين مروا اليوم حول البيت."

"تفو"

"فولوفتس" محافظة همجية.

"بريجاني" أيضاً. اقرأ."

أخرج "فويتا" من الحقيبة كومة رسائل ثم رماها أمامه على الطاولة. قرأ "كلاوديوس" عدة سطور وانفجر ضاحكاً.

"هل أصابتهم جميعهم قديفة خراء في جباههم حقاً؟"

أحياناً كان يتنزه أيضاً هنا في الغابة الفندقي السيد "أنجيال" صاحب فندق الغزال الذهبي السابق. لقد أخذوا منه الفندق وتركوا له البيت الموجود في آخر طابق فحسب حيث بوسعه من هناك مناقشة الغيوم ومتابعة مسيرات أول أيار لساعات طويلة، هذا إذا تمكن بالطبع من الوصول إلى النافذة. كان عليه نقل الفرش النادر إلى البيت من كامل البناء لأنه لو لم يفعل سيفقده بالتأكيد. بقيت له ممرات ضيقة فحسب بين الطاولات والكومودينات التي امتدت إلى المطبخ والحمام. قرر السيد "أنجيال" العيش بين الدهاليز المتشكلة. وما لم يجد له مكاناً في البيت سطّره في السقيفة بين أعشاش الحمام.

صعوباته مع المكان تم حلُها من قبل الرفاق موظفي دائرة الإطفاء والمراقبة الصحية. إذ قرعوا الباب في صباح أحد الأيام وكانت لديهم أشياء إنجيلية عن الحمام والنار. فأمروه على كل حال دون تباطؤ أو تأجيل بتنظيف السقيفة وتفريغها .

أهدى السيد "أنجيال" بعض المفروشات وحاول بيع بعضها الآخر، كما قام أيضاً بتكسير ما تبقى واستخدمه كوقود من شدة غضبه. متعة

التخريب يمكنها أن تكون أحياناً باهظة الثمن. تذكر "فويتا" أنه لن ينسى أبداً رائحة الخشب الوردي " الماهاغوني" ورائحة خشب الأرز الذي قام صاحب الفندق بمرافقة ابنه "ماريو"، الذي هو صديق "فويتا"، بتقطيعه ونشره في الرواق الخلفي للفندق . لقد كان لديه في تلك الشتوية ما يمكنه أن يتدفأ به حقاً — لقد كانت قاسية. تجمد "سالافا" بالكامل.

طافَ النهر بعد ذلك في الربيع من طرفيه بطريقة لا أحد يعرفها غيره.

كانوا دائماً في مطعم فندق الغزال يتأثرون بسرعة كبيرة بأحداث العالم المحيط بهم. أضيفت مباشرة بعد يوم واحد من طوفان "سالافا" إلى قائمة أكل المطعم شوربة السمك النهري، والسلور، سمك الكراكي، والسمك البني تحت اسم "الطوفان". قدموها للزوار إلى أن تم منعها، وهذا يعني ليوم ونصف اليوم، ولكننا مع أهلي لحقنا تناولها، تماماً كما حصل مع "ستك هيروشيما" — المقلي بشكل جيد مع الفطر الذي قدموه يوماً واحداً فحسب.

بدؤوا في تلك الأثناء باستخدام طريقة "غوسيف" السوفيتية في التخديم. إذ قرأ رئيس الطباخين الجديد السيد "سفنتسكي" مديحاً عنها في *عالم الاشتراكية* — وبأنها حظيت بنجاح كبير ولا سيما في أفضل مطاعم موسكو. فكر قليلاً، ثم لبس ثياباً نظيفة وربط المئزر، وعقد ربطة عنقه البيضاء ووضع على رأسه طاقية المطبخ المُنشاة حديثاً. وشدَّ عزيمته بقدحي كحول مقطر من الإجاص، ودخل إلى المطعم حيث لمح أحد الزبائن الذي دخل للتو. انحنى أمامه باحترام وسأله عن أحواله وعن الشيء الذي يمكنه أن يطبخه له.

"أحضر لي قائمة الأكل مع قدح "بوروفتشكا" واتركني وشأني!"

استدار السيد "سفنتسكي"، ثم كرع في المطبخ قدحين آخرين، ولم يحاول من جديد. لقد التقى لسوء حظه بالسيد "أنجيالا" الذي جاء إلى هنا بعد زمن طويل بسبب الفضول، ووجد الشجاعة ودخل إلى المطعم.

18

مكبرات الصوت الستريو لا يُمكنها أن تؤمن لك الاستمتاع الكامل إلا حين تكون جميع أدوات تشغيله عندك على ما يرام . تلك الفحوص

تساعدك على معرفة ذلك. قبل كل شيء — هل المكبرات موجودة في المكان المناسب وموصولة؟ يجب أن تشكل أماكن توضعها مع مكان استماعك مثلثاً متساوي الأضلاع ويجب أن يكون مكبر الصوت الأيسر موصول مع المخرج الأيسر لقوي الصوت، والأيمن مع الأيمن. في تلك الحالة يخرج الصوت من مكبر الصوت الأيسر وينتقل ببطء إلى الأيمن حيث يُنهي هناك تأثيره المنفرد.

إنني مأخوذ. وجدت في القبو داخل الدولاب القديم جهاز غرامافون- راديو والدي ماركة "تسلا" مع مكبرات الصوت. والأسطوانة الوحيدة مع أغاني "شيلاكوف" التي لم تلحق والدتي بيعها كانت المدخل إلى *الاستماع الستريوفوني*. ربما تاهت في مكان ما ولهذا لم يرغب أحد فيها.

أوصلُ مكبرات الصوت وأحول الكبسة من الراديو إلى الغرامافون. بعد طقطقة لا بد منها ينطلق صوت ساحر رائع.

حين تنتهي الجهة الأولى، يعرض علينا الصوت ما هو موجود في الجهة الثانية من الأسطوانة ثم يصمت. هنا أقلب الأسطوانة، وأستمع إلى شيء أعرفه جيداً، شيء يوخز قلبي ويرسم أمامي صوراً غير متناسقة تبدأ تدريجياً في الاندماج ما بينها. الأغنية لا ذنب لها — ممحية من كثرة الاستخدام وهالكة، *إنها موسيقى "لحن المحاربين حتى الموت"* لمؤلفها صاحب الاسم *المعلّق على الحبل* "يوليوس فوتشيك" نفسه.

انتهى الصيف حسب جميع المقاييس. خدشت مخالب الخريف هواء الصيف الساخن، تساقط البَردُ أحياناً، وعادت السماء من جديد إلى لونها الأزرق الصافي. نضج الإجاص في الحدائق وملأت رائحة الدخان الهواء من حرق الأعشاب، وأوراق الأشجار، والخشب كما هو عادة في تلك الأيام.

بدأت تتسكع في شارع ستالين "البريجاني" (سابقاً شارع هتلر، وقبل ذلك شارع مساريك، ومستقبلاً شتون)...- باختصار كانت فترة وقفت فيها بنات الهوى في الشارع) شخوص غريبة. في البداية وجوه ملونة، أقزام، ومهرجون، وبعد ذلك سيد في قبعته الأسطوانية "سلندر"

يقود فيلاً مجنزراً امتطت ظهره فنانة في ثيابها المزركشة البراقة، ومن خلفها تصدح الموسيقى. الفرقة الموسيقية تعزف *لحن المحاربين العبيد حتى الموت (من أيام الإمبراطورية الرومانية في المسارح وبحضور الإمبراطور الذي يأمر بالعفو أو بقتل المحارب الخاسر)* بطريقة أسرع، أو أبطأ، شيء ما في المعزوفة لم يكن على ما يرام (ربما كانت مناسبة لتصور نهاية أيام الإمبراطورية الرومانية لو أنها كانت موجودة في ذلك الزمن)، ومع ذلك تهافت الأولاد إلى الشارع وراقبوا ما يجري، ثم ركضوا بمحاذاة العربات، والكرافانات التي تجرها الخيول.

انتصب من المساء وحتى الصباح على المرج الموجود خلف البلدة حيث كانت الكروم التي خربتها في عام 1819 آفة الـ" فيلوكسيرا"، سرادق ملون جميل شيدته عضلات عمال السيرك الأقوياء، ومصمميه الذين ثبتوا العوارض الخشبية بمطارقهم القوية. ووقف المدير حاملاً البوق في يده أمام مدخل الخيمة وجعل يصرخ:

"حضرات السيدات والسادة! وصل إليكم أكبر سيرك في أوروبا، أهلاً بكم، تفضلوا وادخلوا! استعراضات جديدة وحيوانات غريبة! فيل بنغو!، كلاب مدربة، وفرس قزم! إضافة إلى كوبرا أفريقية أصيلة، في الحقيقة أمريكية، تفضلوا وادخلوا، أهلاً بكم."

تداخل صراخه مع معزوفات مخصصة لعروض السيرك، تصفير وضحك.

كل هذا اختلط مع أغنية تبعث على الأمل كانت تنتشر من جميع المكبرات:

لنمض معاً أيها الشعب، الشعب المخلص
مع الرئيس غوتوالد
الذي يقودنا دوماً إلى القمم
الحقيقة لم تعد حلماً.
من حارب معه وانتصر
يقف معه جنباً إلى جنب

الأمر لم يتعلق بي، لأن "تينا" أرادت رؤية الفيل (كل مساء كانت تطلب منا أن نقرأ لها قصة إنقاذ الفيل الذي كانت "بريجاني" بأكملها تُقدم له الطعام في فصل الشتاء حين عَلِقَ السيرك الإيطالي إبان الحرب الأولى في بلدتنا). لهذا زرنا في الأمسية التالية سيرك "هارري" في أحد آخر جولاته في الجمهورية. لم ينافسه التلفاز في تلك الأوقات — ولم تكن قد ثبتت هياكل الأسماك المرعبة على السطوح (اللواقط)، إلا إذا استثنينا سينما "موسكو" التي تم بناؤها في الساحة الرئيسة. ولكن الظروف المناخية بدأت تزحف ببطه شديد لتؤسس لشيء شبيه بما حدث عند نهاية الجبال الثلاثة التي انقرضت الديناصورات بسببها. (صورة تعبيرية عن تبدل الأوضاع السياسية).

ارتدينا ثياباً أنيقة. لبس والدي طقمه الأبيض الكلاسيكي الذي يتبقع بسرعة وهذا ما جعله يمتنع عن شرب النبيذ، أو تناول البوظة. أقنعني بدعوة "فويتا" أيضاً إذا لم تكن عائلة "روشكو" قد حضرت العرض. انضم إلينا في النهاية والده وشقيقه، الوالدة بقيت في البيت مع "إلا" الصغيرة. جلسنا مع الجمهور. انتبهت إلى وجود السيد "ميلانك" في الساحة مع زوجته التي أمسكت على ركبتها حفيدتها الصغيرة. إذ فضلت عدم تسليمها له بسبب اهتزاز ركبتيه.

تأخرت بداية العرض، وهذا ما حرّض شعوراً بالغضب عند الجمهور. فخرج المدير بعد خمس عشرة دقيقة في النهاية ببزته البراقة، بدا حزيناً بعض الشيء. أخبرنا أن الفرقة الموسيقية لم تحضر لأسباب يجهلها. ظهر في تلك اللحظة ضارب الطبل الذي جعل يرتب شعره ويعقد ربطة عنقه. فأمسك بالعصا، وبدأ يضرب بها على الطبل. انضم إليه بالتدريج عازفو سكسافون. "تينا" بدأت تُصفق. وصل البقية في الحال مع آلاتهم. عزفَ الجميع اللحن *"على برج بريجاني"*. انطلق تصفيق عارم.

اشتعلت الأنوار من قمة الخيمة حتى المدخل الرئيس وبدأت الفرقة بالعزف في حين بقي مدير السيرك واقفاً في وسط الساحة بلباسه "الفراك" الأسود وقفازاته الكريم، وقبعته الأسطوانية. لوح بعصاه بعد ذلك مرحباً بالحضور.

انحنى المدير وأعلن بدء النمرة الأولى: ...*هاري هوديني، بذاته!*

اندفع عجوز وسيم بمعطفه البالي إلى وسط حلبة السيرك على أنغام الموسيقى وبدأ بعرض حيله مع ورق اللعب. الضوء العاكس يلاحقه أثناء حركاته. والمدير يشرح ألعابه. وحين أخفق في إحدى حيله، وسقطت الأوراق من يده على الأرض بدأ الجمهور بالصفير. جمع الكروت بسرعة، ومسح العرق عن جبينه، وتابع وقد تورد وجهه، ولكن الأمور سارت معه نحو الأسوأ. سُمع صوت أحد الحاضرين: مخادع، اخرج من هنا. ارتفعت صيحات الحاضرين الذين طالبوه بالخروج. كانوا يضربون الأرض بأقدامهم ويصرخون. هرع المدير باتجاهه محاولاً إبعاده، اثنان من المهرجين قفزا من مكان ما وحاولا حماية "هودين"، فبدأ عراك، اختفى على أثره المدير. وحين فرغت الحلبة، سُمع صوته القوي. لاحقه الضوء العاكس ووجده بالقرب من الطاولة مع كروت اللعب.

"انتباه أرجوكم! أنا هاري هوديني الحقيقي!"

تحركت الكروت في الحال بين أصابعه بطريقة ساحرة مما جعل الجمهور يحبس أنفاسه. تصفيق حاد وطويل.

جاءت بعد ذلك النمرة الثانية من البرنامج – استعراض لخيول "ليبتسيان" مع الفارسة الحسناء.

بدأت أتثاءب في أثناء عروض المهرجين. كانت أحذيتهم أكبر بخمس نُمر ووجوههم مدهونة باللون الأبيض وأفواههم مشرعة كما لو أنهم أرادوا التقيؤ، شدوا معهم المشرف الذي كان يبتسم فحسب. أحسستُ حين انتهت عروض كلاب "بودل" بألم في الرقبة من المثلين. أبي بدّل مقعده كي يرى بشكل أفضل، ومن ثم وجدَ نفسه بشكل أو بآخر بجانب والد "فويتا". وأنا اقتربت من "فويتا"، و "تينا" انتقلت إلى الطرف الثاني.

خشخش والدي أثناء فترة الاستراحة بعلبة السجائر. رفع والد "فويتا" كتفيه، وابتسم. ناولانا بعض النقود كي نشتري "غزل البنات" التي كنت أحبها منذ طفولتي، وخرجا للتدخين خلف خيمة السيرك. أصرت "تينا" على الـ كوكا- كولا. التي كانت شيئاً نادراً في تلك الأوقات. ولو أنها موجودة لطلبوا ثمناً غالياً. سمعتْ من خلف الكواليس صوت الفيل مما جعلها تصاب بشيء من التوتر، فرضيت في النهاية بأقراص البطاطا الرطبة وشراب الليمون.

"أنت تُدخن؟" سأله والد "فويتا".

"في المناسبات. إنها ضارة استناداً إلى الدراسات الحديثة لـ ٤٠ بالمائة من المُدخنين." ابتسم. "ماذا عن رأسك؟"

"لقد صوروه بالأشعة عدة مرات في براغ، يقولون إن العظام تنمو بشكل جيد. لا أتذكر شيئاً منذ سقوط الطائرة. حتى الصيف"

"أفهم، عدم وجود مضاعفات خطيرة..."

"نعم.. لا شيء تقريباً. أحياناً أشعر بألم شديد، يبدأ معي بشكل مفاجئ، وينتهي بالطريقة نفسها. أتطلع أحياناً وأفقد الخيط. لم أشعر بذلك من قبل"

"تعال لزيارتي إذا سمح لك الوقت في العيادة لأفحصك.لا تسهر، ولا تفرط في شرب الكحول."

وقفا صامتين فترة، أراد والدي أن يسأل عن شيء، ولكنه لم يفعل.

"سيكون خريفاً جميلاً" قال في النهاية. "لا بد أن يكون منظراً رائعاً من الأعلى... من الطائرة.."

"أصبح من الماضي. لقد تقدمت بطلب للعمل في التدريب في نادي الطيران، ولكنهم سحبوا مني رخصتي. لا رغبة عندي في الحديث عن ذلك."

دهس والد "فويتا" عقب السيجارة بقدمه ونفخ الدخان من طرف فمه." ربما علينا العودة إلى الداخل."

"ماذا...؟"

"أقول علينا الرجوع."

"نعم، معك حق"

لم يتحدثا بعد ذلك في ذلك المساء.

تابعوا العرض... رمي السكاكين. أتذكر فتاة سمراء في ثياب الرقص الزرقاء تقف أمام الجدار. انغرزت السكاكين في تقاطيع خيالها، ربما عشرون رأساً. الممثل يصرخ: ألي!"

ترد عليه: أوب"، وتتنحى بسرعة كي تتمكن السكين من إصابة القلب المرسوم على الجدار بما يتناسب مع ارتفاع قلبها. على الأقل هذا ما شعرت به، وإلى أن تتمكن من إنهاء الحركة، رمي المهرج سكينته التي أصابت حلقها وانغرزت في الجدار. السمراء تصرخ، الدم يسيل على رقبتها وصدرها. الرامي يتجمد في مكانه، يهرع عريف الحفل باتجاهها بسرعة وينزع السكين الثقيل عن الجدار، يحملها بين ذراعيه، ويلوح مسعوراً للفرقة الموسيقية التي تعود لعزف *لحن القاتل*، وينقلها إلى وراء الكواليس.

نهض والدي من مكانه بسرعة وقفز فوق الحاجز الواطىء، تعثر بالمهرج الذي كان يركض على المسرح كي يُحسن من مزاج المتفرجين. لحق الأثر الذي تركه الدم. فعل المهرجون ما بوسعهم، ولكن المتفرجين المذعورين بدؤوا بالخروج بشكل عشوائي من ذلك الهرج.

حين لحقنا بالوالد إلى العيادة المسائية، وجدنا السمراء مستلقية في الضمادات، الجراح يشرح: السكينة لم تُصب الشريان ولا الحلق، ولكنها ستترك ندبة مزعجة. فقدتْ كمية كبيرة من الدم مما اضطرهم لدعمها بالسيروم.

جلست مع "تينا" في غرفة الانتظار بالقرب من المُشرف الذي بقي في لباس السيرك. كانت تعابير وجهه تشير إلى فزعه الشديد، ولهذا لم يتوقف عن الكلام — ربما كي لا يسمع ما يدور في رأسه من أفكار.

أخبرنا في الحال أن إحدى عروض السيرك أثناء الحرب كانت "كلانس نمرو" مع المطرقة والمسامير. الزميل "جيجي" بقي في النهاية

راكعاً مع لسانه المثبت على اللوح الخشبي. لقد اتفقنا في إحدى المرات كي لا يتعذب في تنفيذ ذلك المشهد بدق المسمار ضربة واحدة بدلاً من ضربه بالتدريج. المشرف ضرب المسمار بقوة مما جعله يخترق اللسان مع اللوح الخشبي والطاولة أيضاً، في تلك اللحظة بالذات سمعنا صفارات الإنذار التي نبهتنا إلى اقتراب حدوث غارة أمريكية. المتفرجون هربوا وتوزعوا في جميع الاتجاهات، كانوا يتعثرون ويسقطون. وبقي "جيجي" في وسط ذلك المشهد راكعاً مع لسانه المثبت بالطاولة. حاول جميع أعضاء الفرقة واحداً تلو الآخر قلع المسمار ولكن دون فائدة.

ولأنهم ألقوا قنابلهم فوق الطرف الثاني من المدينة، تمكنا من إنقاذ "جيجي".

"هل يمكنكما تصور ماذا كانوا سيجدون لو أن القنبلة سقطت فوق السيرك؟"

ضحك المشرف بطريقة هستيرية حتى إن عينه اليمنى بدأت ترتجف.

"أداشو، ماذا تفعل هناك؟!" نده والدي من خلال المعبر.

كان مزاجه معكراً.

ظهر القمركبيراً، أحمر كاملاً في الحدائق. انتشر الزوار الباقون تحت خيمة السيرك. انطفأت أضواء السيرك. سُمعت أصوات قرقعة أدوات الطعام في عربات السكن، مُدربة الخيول الحسناء تُدخن لفافة تبغها وهي جالسة على درجة عربة السيرك غارقة في تفكيرها. المهرجون يصعب التعرف إليهم بدون الـ "ميك أب" الذي يخفي من تحته تقاطيع وجوههم المتعبة القاسية. كانوا يشبهون الثمار المجففة التي تم ترتيبها وتحليتها.

أعلن السيرك في اليوم التالي إفلاسه. ويقال إنهم حاولوا بيع الحيوانات ولكنهم في النهاية فقدوا العديد منها — بينهم فيلان وزرافة.

"هل تذوقتم شريحة لحم الزرافة المقلي؟" سأل اللحام "روزغون" أحدهم.

19

لمعت فوق البيت نجوم كانون الأول الصافية مثل قطع الألماس المصقولة. بقيت "تينا" في البيت وحدها في تلك الليلة. ذهبت مع "بتر" والأهل لزيارة أحد البيوت التي تبعد عن منزلنا بمقدار عدة منازل، كانت تشكو من السعال إذا لم تخنني ذاكرتي. أكد أبي ضرورة ترك مفتاح البوابة في القفل وأشار عليها ألا تفتح الباب لأحد تحت أي ظرف. جلست إذاً على السرير ولوحت بساقيها وهي تصغي إلى الراديو الذي أكد حسب تقطيش الصوت وخلخلته أنهم يرسلونه من أسطوانة قديمة.

أحدهم رن جرس البوابة. قررت "تينا" عدم الاكتراث بالأمر. تكرر رنين الجرس عدة مرات. الجرس جديد، لذا فإن رنينه القوي انتشر بقوة في أرجاء البيت.

هرعت "تينا" حافية القدمين إلى المعبر، وتطلعت من خلال الثقب الذي يرمون منه الأوراق. فأحست بالبرد، أحدهم خلف البوابة بدأ يسعل ويبربر كلاماً يصعب فهمه. حين تنحى قليلاً من مكانه، لمحت "تينا" رجلاً في معطف الجلدي. لم تتعرف إليه.

"من هناك ؟"

"هل الوالد في البيت؟، لقد أحضرت له شيئاً" رد عليها الرجل.

"انتظر، سأفتح لك!"

تلمست "تينا" المفتاح في القفل. لا شيء.

بحثت عنه على الأرض.

"ماذا حصل؟ افتحي!"

هبت نسمة باردة صقيعية من الحديقة. "بعبع" الغربان جعل يقرقع في الهواء كما لو أن الهياكل العظمية ترقص حول البيت. رائحة الفحم المحترق تحرق الأنف. كلبٌ يعوي في مكان بعيد وبعيد جداً.

"افتحي!"

"لا أعرف أين المفتاح!"

"ماذا تقولين؟!"

"إنه ليس هناك" قالت "تينا" وهي تركع على الأربعة، مدت يدها في تلك اللحظة إلى شيء رطب مخاطي الملمس، لم تعرف ماهيته.

"يا للشيطان..!" ضرب الرجل ذو المعطف الجلدي بقبضته البوابة. سمعت "تينا" كيف كانت خطواته تضرب الثلج بقوة. غمغم بعصبية أشياء غير مفهومة، وابتعد مع صوته.

عادت إلى غرفتها الدافئة وإلى الراديو كما اصطكت أسنانها على السرير لفترة من شعورها بالبرد. كانت قد بدأت موسيقى مختلفة مما جعلها تُقطب حاجبيها، لم تستوعب ما حدث. يجب أن يكون هناك!

هرعت خارجة إلى الصالة، فتحت باب المعبر، وجعلت تضرب قدميها الحافيين على الأرض الخشبية حتى إنها لم تلبس الحذاء. اتجهت نحو البوابة. وجدت المفاتيح مُعلقة على القفل.

ارتجفت من الخوف. عادت مسرعة إلى داخل البيت وأقفلت جميع الأبواب التي مرت منها واختبأت بعد ذلك في غرفتها تحت السرير.

في هذا الوضع وجدها الوالد نائمة بعد بحث طويل.

غالباً ما كنت أراه في تلك الفترة جالساً في مفردته خلف الطاولة يتطلع إلى صورة قديمة لُصق عليها رأس والده. حين يمر أحدهم من حوله، يُغلق الباب في الحال. هذا ما كان يحدث في ساعات المساء الطويلة حين يجافيه النوم.

أمامنا كان يبتسم ويطلق النكات فحسب.

حين يضمر أحدهم الأذى للغير في العصور الوسطى، يعاقب بأكل الأوساخ الموجودة في زوايا الغرفة الأربعة. هذا ما خطر ببالي بعد وقت قصير من انتهاء القرن العشرين طوال الطريق من بيتي حين لم أخبر أحداً إلى أين سأذهب، من يدري لماذا، ربما شعرت بالخجل من الإفصاح عن شكوكي، وخفت إيذاء الغير ولكنني خفت قبل كل شيء من أن يتأكد الأمر. كنت جاهزاً للركوع وأكل أي نوع من الأوساخ التي تصادفني.

وفيما يتعلق بفعلتي لا أعرف في أكثر الأحيان قول شيء محدد. نعم، وجدت بعض السجلات ولكنها ليست رسمية، تفحصتها — وحتى في هذا كانت عندي أسبابي غير المعلنة. رغبت في تصوير وثيقتي الكبيرة. opus magnum. نهاية التسعينات في زمن كشف الأوراق الكبيرة.

ولهذا فإني قلت كما تعودت: "ارمِ قطعة العُملة لأنها ستساعدك في اكتشاف ما تريده حقاً. الرقم أو النقش؟"

رميت القطعة عالياً في الهواء، سقطت على الأرض ولكني لم أجدها. تعكر مزاجي كثيراً.

قرأت بعد ذلك في مكتبة ذاكرة الأمة بلاغ والدي:

أقر بأني زرت المذكور بغرض تجهيز حفل مشترك بمناسبة ولادة أولادنا في حديقتنا. فتحت معه حديثاً يتعلق بالرفيق "تشبتشكا" ولكنه لم يتجاوب معي بأي شكل. لقد سبق وتحدثت عن رأيه بالرفيق الرئيس في تقريري السابق. اتجه الحوار بداية نحو أشياء غير هامة إلى أن نبهني "فويتخ" إلى عدة كتب كان قد جلبها له أخوه من بلد أجنبي، وهي — حسب زعمه— محظورة في تشيكوسلوفاكيا ولهذا السبب أخفاها تحت سطح القرميد. فهمت أخيراً أني حظيت على ثقته التامة. تقيدت بعد ذلك بتعليمات الجهات العليا ولكني لم أكتشف أشياء أخرى. لومينال.

لم أعرف كيف أبتعد عن الملفات. فتحت النافذة وتطلعت في الهواء البارد إلى الطريق الذي امتلأ بأشياء لا تبعث على البهجة.

تغيرت حياتي منذ تلك اللحظة.

حين طلب الأستاذ من "لف نيكولايوفتش تولستوي" التوقف عن التفكير في الدب الأبيض وإلا سيُعاقبه بالركوع في الزاوية، بقي الصبي هناك طوال اليوم. لقد وقع في المصيدة. لا يمكنك نسيان الدب الأبيض حين تتعذب من أجله.

تحرك والدي في تلك الفترة كما يقولون *خارج نطاق هذا العالم*. كما يحدث حين تطفيء النور عند مغادرتك البيت. تطلعت في وجهه العجوز

أثناء تقليم أظافر قدميه — ذلك الامتياز تركته تحديداً لنفسي، ربما رغبة مني في لمسه، لا أعرف — وفكرت كيف سيكون شعوره.

"ألا ترغب في كأس ماء؟

"ماذا...؟

"حسناً، سأحضره لك"

رغبت في إخباره بأني أعرف كل شيء، وسؤاله عن كمية الأشياء ولكني أدركت بأني لن أتمكن.

"ألا ترغب في كأس ماء؟

"ماذا..." ماذا تقول؟ أداشكو؟"

جلس أمامي دون سلاح. سافرت لرؤيته من براتيسلافا لأجل ذلك.

سمحت لـ "ليوكاديا" بالذهاب إلى بيتها قبل انتهاء فترة عملها. فقد كنت بحاجة للبقاء وحدي معه.

"ألا ترغب في كأس ماء؟"

ترددت وأنا أجلس بجانبه على الأريكة. سمعت كيف كانت النسمة تدخل عبر النافذة بقوة وتطلق نحيباً داخل هواء مضغوط. انطلقت صفارة قطار عابر في المساء صوّت فيه نافذة واحدة.

كان عليّ رمي قطعة النقد من جديد في الهواء. الرقم أو الرمز؟ الرمز أو الرقم؟ الرمز يعني الكلام، والرقم يعني الصمت.

رقم، رقم. الرقم

"ألا تريد كوب ماء؟

"وغير ذلك — ما الجديد في براتيسلافا؟

"ربما قطعة خبز..؟

"عليك أن تتكلم بصوت أعلى، أداشو"

20

جاءت نهاية عام 1952 حاملة معها مجموعة من مناسبات أعياد الميلاد، وأعياد الاسم في عائلتنا، ولهذا كنا نجتمع كثيراً.

رغب الجميع أثناء إحدى الزيارات في سماع الراديو مهما كلف الأمر بدلاً من الكلام عن العائلة ومعرفة أحوالها.

العم "أوسكار"، عادة هادىء ومرح، وقف الآن متوتراً بجانب الذياع. استمع بلهفة إلى نقل مباشر من إحدى المحاكم حيث أعطى المدعي العام الكلمة لرئيس المحكمة كما فهمت.

سعل رئيس المحكمة وقال:

"المتهم "رودولف سلانسكي"، اقترب! هل فهمت التهمة؟" رد "سلانسكي": "نعم". سأل الرئيس: "هل تشعر أنك مذنب، وأنك اقترفت جرماً يستحق العقاب حسب ما جاء في لائحة الاتهام؟ رد "سلانسكي": "نعم". سأله الرئيس: "التهمة الأولى هي التجسس، أليس كذلك؟"، "نعم" رد "سلانسكي"، الرئيس "الخيانة؟"، "نعم". الرئيس: "خيانة عسكرية؟"، "نعم" رد "سلانسكي".

بدا الأمر وكأنه سوف يسأله إلى مالا نهاية وسيسمع الجواب نفسه.

سُمعت بعد ذلك أصوات أخرى مما جعل رئيس المحكمة يكرر من جديد:

"الحكم باسم الجمهورية!

قررت المحكمة بعد التداول وبناء على نتائج المحاكمات الرئيسة ما يلي:

"رودولف سلانسكي" المولود 31.7.1901، السكرتير العام السابق ك س تشي، يهودي الأصل، من عائلة تاجر..- "بدرجيخ رتسين" المولود 1911 29.9، نائب وزير الدفاع السابق، يهودي الأصل، من عائلة برجوازية..."أرتور لوندون" المولود 1.2.1915 نائب وزير الخارجية السابق، يهودي الأصل، ابن تاجر... "فافرو هيدا"، المولود في 8.8.1913 نائب وزير الخارجية السابق، يهودي الأصل، ابن مالك منتجع "سمرداكي"...

... متهمون لأنهم قبل فترة طويلة من تاريخ اعتقالهم في براغ وفي مدن أخرى، حاولوا مجتمعين أو كلاً منهم على انفراد المساس باستقلال

الجمهورية ونظامها الشعبي الديمقراطي الذي يحميه الدستور. وقد قاموا لهذا الهدف بإجراء لقاءات مع دول أجنبية، وقيادات أجنبية مما هدد الدولة بشكل مباشر. "سلانسكي، ريسين، و شلنغ، استغلوا السلطة...

... نحكم عليهم بالإعدام..."

العم "أوسكار" نسي أن يأخذ نَفَساً، وحين تذكر احتاج لهواء الغرفة بأكملها.

"سأفتح النافذة..." قطعت أمي الصمت.

"نعم، افتحي." قال والدي، تناول السكين بيده كي يقطع الكعكة لأن لا أحد من الحاضرين لديه الرغبة في فعل ذلك.

"نعم... نعم.. إنه حلٌ حكيم،" قال "أوسكار" شارداً.

كتب والدي في المساء على الآلة الكاتبة تقاريره الطبية وهو يُصفر بهدوء. سُمع من مكان ما في عمق البيت صوت المذياع. نشر صوتاً كما لو أنه مجبر على اختراق الشارع الذي يعج بالغبار والجدران في ذلك الجو التشريني الغائم.

بفضل حذر قائد شعب تشيكوسلوفاكيا، الرفيق كلمنت غوتوالد وبعد نظره، وقراره، وبفضل تلاحم اللجنة المركزية ك س تشي ووحدتها حول الرفيق كلمنت غوتوالد، وبفضل إخلاص شعب تشيكوسلوفاكيا للحزب وللحكومة وللرفيق كلمنت غوتوالد ووفائه لهما، وبفضل ولاء شعوبنا للاتحاد السوفيتي وإخلاصها له تم إجهاض المؤامرة والقبض على مرتكبيها.

توقف والدي عن الصفير وأغلق الباب على نفسه في منفردته.

العم "رودو" الذي تمتع بالأكل فترة طويلة وضع هيكل السمكة الناشف جانباً وقال:

"احتدام صراع المفترسين على قطعة لحم مُرتبة. إننا مجرد حيوانات تعلموا الوقوف على قائمتين بالصدفة، وأكثر من ذلك يمكننا الكلام. وغير ذلك لا فرق بيننا وبين قطيع من الذئاب"

تلمظ بسعادة.

سمعه "بولي استر" رقم 2 لأنه تمنى أن يحظى بشيء من الطاولة مع "إيكيبانا" 3. لهذا فإن العم "رودو" وجه حديثه إليهما:

جرى التحقيق على هذا الشكل:- أيها المتهم، هل تعرف نص أغنية، *المطر يهطل، المطر يهطل؟ المطر يهطل، يهطل المطر، لا تتوقف أيها المطر، لا تغلقي الباب يا حبيبتي...*- تابع! - ... *الباب يا حبيبتي...*-

تابع! - اللعنة، كنت أعرفها جيداً! حبيبتي، روحي...- تابع! إنها على رأس لساني...- تابع !- لا أعرف أيها الرفاق.- ما هي الكلمات؟!- حقيقة لا أعرف، يؤسفني ذلك! - لطمة على أنفه.- ماذا تقول الأغنية؟! غنِّ، أيها الأبله! - لا أعرف.- غنِّ!!! ضربة من إحدى الجهات، وضربة أخرى من جهة ثانية. إذاً، إنك ترفض الغناء؟ سأخرجها منك! هيا، مرة أخرى ومن البداية!.

المطر يهطل، المطر يهطل؟ المطر يهطل، يهطل المطر، لا تتوقف أيها المطر، لا تغلقي الباب يا حبيبتي...- لطمة! حسناً، "إيكا"، خذ هذه العظمة. بقي لك يا "بولينو" الورقة فحسب. تصبحون على خير، سأذهب لوحدي!"

قرأت منذ زمن أن الاعدام كان يتم في تلك الأوقات بالطريقة التالية:

يقرأ ممثل المحكمة في فناء السجن الحكم وبعد ذلك باختصار قرار الرئيس رفض طلب العفو.

يُسلم المحكوم لوكيل نيابة المحافظة.

يقوم الجلاد بلباسه و بقفازاته الجلدية البيضاء بربط يدي المحكوم بالحبل - يمسكه من تحت إبطه ويصعد معه السلالم ثم.....

في النهاية يتوقف الجسد فاقد الحس عن الحركة. بعد لحظات يطلب المدعي العام من الطبيب أن يصعد ويفحص بالسماعة قلب المحكوم. يكرر الفحص عدة مرات إلى أن يؤكد في النهاية حدوث الموت.

قصّرنا طريقنا إلى المطار بالشفروليه؛ إذ قمنا برفقة الوالدة بنقل العم "أوسكار" في أجواء باردة جداً وتبادلنا الحديث. الأسلاك الكهربائية الموجودة حول الطريق كانت تتدلى وتشكل أقواساً متناغمة بين الأعمدة، ترتفع وتنخفض، شهيق وزفير. كانت تسترعي بمنظرها الرائع فوق المساحات البيضاء مع مشهد الأشجار المحنية الحليقة النائمة انتباه جميع المسافرين. إلى الأعلى والأسفل. إيقاع تنفس الطريق.

"تعرف، آدم، نحن اليهود لا نتوقف عن الهروب،" قال العم "أوسكار".

أمي الجالسة في المقعد الخلفي تتطلع غارقة في تفكيرها من النافذة، دورت رأسها بقرف والتقطت منظر "أوسكار" من خلال المرآة العاكسة. لوح لها "أوسكار" بيده فحسب.

"المصائب هي التي جعلتنا نستمر في الحياة، ربما لهذا السبب نحب المزاح الأسود. بدأ كل شيء في مصر، مع العبودية. جاء سفر الخروج... لموسى كي يختارنا كشعب الله المختار. سارت الأمور بعد ذلك ببطء إلى أن جاءت عبودية ثانية — السبي البابلي في القرن السادس قبل الميلاد، حينها ظهرت الأساطير عن تاريخنا وعن الإله الواحد وعن السبت والـ"كوشر" أكل الحلال، باختصار القواعد جميعها. وبعد ذلك انهيار كامل! الرومان هدموا في السبعين معبد أورشليم، تفرقنا ثم شكلنا مجموعات في أرجاء العالم "دياسبورا". لاحقتنا المصائب عدة قرون بما في ذلك الهولوكوست. كل هذا جمعنا. إنها الحكايات المحببة إلينا. كما أن هناك ذكرى أورشليم القديمة. لهذا السبب أريد العودة إلى أرض الميعاد."

بقيت صامتاً، لم أسأل عن شيء وكل ما في الأمر أني قُدت سيارة أبي بهدوء في ذلك الطريق المتجمد. مع ذلك رد عليّ "أوسكار".

"دياسبورا" هي في الحقيقة كلمة يونانية — تعني التفرق أو النفي. حدث ذلك بعد هدم المعبد في أورشليم في عام سبعين. بعد ستين سنة تقريباً تمكنا من الوقوف على أرجلنا وانتفضنا على الرومان ولكن النتيجة

كانت أنهم ضربونا على أصابعنا بشكل نهائي. منعونا من دخول أراضي المعبد وأحياء أورشليم. نفونا وأرسلونا إلى العبودية ولهذا توزعنا في أرجاء العالم. بقي منا في الوطن عدة آلاف، وغادره مليون ونصف. الهروب الكبير، هذا هو قدرنا. بلاد ما بين النهرين، شمال أفريقيا، إيطاليا، اليونان... بعضهم اجتاز الألب وصولاً إلى الشمال. نقفة! مثل البلياردو في مرحلة التوتر."

مررنا من الجهة اليمنى ببعض البيوت، اضطررت إلى تجاوز عربة يجرها حصان انعطفت باتجاهها. جلس سائقها في معطفه الجلدي وقبعته، رفع يده وحيانا. تعتبر رؤية السيارة عنده شيئاً نادراً، تماماً كما هو الطريق إلى براتيسلافا.

"اشتغلنا مئات السنين في العديد من الوظائف ولكن أكثر ما كان يشدنا هو المال والتجارة. المسيحيون لم يكن باستطاعتهم الاستدانة بالفوائد ، ونحن أيضاً كان ممنوعاً علينا — ولكن فيما بيننا. كان بوسعنا إقراضهم ونجحنا في ذلك. إنها مخاطرة ولكنها في المقابل تدر ربحاً جيداً. بعض المخازن أغلقت أبوابها في وجوهنا، الملوك أرادوا أن نُصلح لهم خزائنهم، غيرهم طردونا إلى خارج بوابات المدينة، في تلك الأوقات بدأت أحياء الأقليات بالتشكل (الغيتو).

"شغل التدفئة يا "أداشو"، طلبت الوالدة الجالسة في المقعد الخلفي.

"حسناً يا أمي."

"بعضهم وصل إلى إسبانيا مع العرب، أطلقوا عليهم اسم "السفاردين"، اشتغلوا عند الخلفاء كمساعدين، وأطباء ومدرسين، مترجمين، منظمي مكتبات، مدرسي رياضيات، وعلم الفلك. تم طردهم بعد استرداد المسيحية للسلطة في نهاية القرن الخامس عشر من إسبانيا. لهذا السبب انهار اقتصادهم مثل انهيار كثبان الرمل. الهروب من جديد... أفريقيا، فرنسا، شمال ألمانيا. سفارديو أمستردام كانوا من أوائل الوافدين إلى أمريكا. الآخرون – الأشكناز– عبروا ألمانيا إلى بولونيا

وأوكرانيا وروسيا. طردونا من هناك أثناء جائحة الطاعون، وحسب زعمهم، نحن من سمم الآبار. اتهمونا باستخدام دم العذارى في تحضير خبز "ماتسس". تصور ممتع!"

شعرت في فمي بطعم الدم. لقدعضضت لساني حتماً. توجب عليّ شرب الشاي من الترمس.

"حين اعتنق القيصر "كونستانتين" المسيحية في القرن الرابع، زعمت الكنيسة أن رحمة الرب قد انتقلت إلى المسيحيين وأن اليهود لم يعودوا شعب الله المختار. قتلوا المسيح، كرههم رب السماوات الأكبر وبدؤوا بنشر الأذى. بدأت بالظهور القوانين التي تحد من حركتنا وتوجب علينا دفع ضريبة كبيرة بعد اجتماع "لوتران" في القرن الثالث عشر وارتداء لباس مميز. بدأ التحامل علينا بالظهور إضافة إلى الأخطاء كما أن الناس العاديين آمنوا بما قيل لهم في الكنيسة. وهذا ما جعلنا نتجمع في عائلاتنا، وقرانا، ونتحد فيما بيننا... تعرف ما هو الممتع يا "أداشو"؟. التجار اليهود كان بوسعهم الاعتماد دائماً على شركائهم من التجار اليهود دون أن يعرفوهم على الإطلاق. كنا دائماً نحلم بأورشليم، بالمدينة المقدسة، والمعابد المهدمة... من يدري ما إذا كان اليهود سيبقون لو أنها لم تتهدم. تفرقنا في أوروبا، وذبنا مثل السُكر في الشاي يا عزيزي "أداشو"."

شرب العم أوسكار هو الآخر من الترمس وصمت فترة. الرحلة كانت ملأى بالحفر لهذا توجب عليّ قيادة السيارة بحذر. أمي غفتْ قليلاً ولكن اهتزاز السيارة أيقظها.

"وهكذا حصل "حاييم وايزمان" قبل نهاية الحرب العالمية الأولى من وزير الخارجية البريطانية اللورد "بلفور" على وعد بدعم نشوء دولة يهودية في فلسطين. هذا ما كان يُفكر به "تيودور هرزل" قبل ذلك. نشأت الكيبوتزات، وصل الناس من أوروبا بأكملها، من ألمانيا وروسيا. أولئك الأكثر حظاً الذين لم يلحقوا الهجرة إلى أمريكا. حينها حضّروا في ألمانيا "أندلسونغ" (القرار النهائي). قُتل بعدها ستة ملايين"

ضواحي براتيسلافا المُسننة كانت لا تزال في نومها الشتوي. الدخان يخرج على شكل دوائر رقيقة من مداخن البيوت.

"انتهى الانتداب البريطاني لفلسطين قبل خمس سنوات، وفي الحال بدأت المناوشات بيننا وبين العرب وبالرغم من مئات القتلى إلا أن "دافيد بن غوريون" أعلن في 14 أيار نشوء دولة اسرائيل في تل أبيب. هاجمتها في الليلة ذاتها الدول المجاورة. ربحنا الحرب بعد سنة ولكن المشكلات لا تزال مستمرة حتى الساعة. سنرى".

توقفت الشيفروليه أمام صالة السفر في مطار براتيسلافا بعد إجراء مناورة دائرية. ساعدت العم "أوسكار" في تنزيل الحقيبة من صندوق السيارة. انتهى كانون الثاني. الأجواء متجمدة، وقد احمرت أنوف ثلاثتنا في الحال.

تقدم "أوسكار" مع العمة الجديدة "روزكا" وصموئيل بطلب هجرة رسمي في الخريف إلى إسرائيل. من براتيسلافا بالطائرة إلى براغ وبعد ذلك عبر برلين إلى تل أبيب. بعد 5714 سنة من نشوء العالم.

سافرت العمة الجديدة "روزكا" مع "صموئيل" قبل ذلك، توجب على العم "أوسكار" إنهاء بعض التفاصيل، وقد انتهى منها الآن وها هو يغادر. بكت أمي، وتفتْ في منديلها. أي وداع كان يؤلمها في العادة ولكن هذا يختلف، سيكون لفترة طويلة. وأكثر من ذلك، أخيراً وبعد فترة طويلة، خرجت من البيت، كانت تفضل أن يخبروها بما يحدث، تطلعت من النافذة وأصغت.

تمكن العم من اقتناء كتاب يتحدث عن محاكمة "سلانسكي" الذي قامت وزارة العدل أخيراً بنشره. لوح به أمام أنفي، وأحياناً كان يقرأ فيه شيئاً، مشوشاً، حزيناً ولكنه ابتسم في الحال.

"سآخذه معي. إذا رغبت بالصدفة في العودة. انظر — أهم ما في الأمر هي التصحيحات، في النهاية، ها ها!

لم أرغب في مسكه بيدي، ولكني في النهاية أومأت برأسي وقرأت.

في السطر الرابع من الصفحة 138 من الأعلى بين الكلمات "ينافقون"، يجب إضافة كلمة "مازالوا"... في الصفحة 219، السطر الخامس من الأسفل بين الكلمات "السيطرة على المنظمات" يجب إضافة كلمة "المصانع"...

لم أفهم.

ابتسم العم "أوسكار":

"لقد دربوك بشكل خاطىء على الإجابة."

بسرعة، طبع قبلة على وجه والدتي، لوح بيده واختفى.

راقبناه وهو يخطو أثناء هبوب العاصفة الثلجية باتجاه طائرة الخطوط الجوية التشيكوسلوفاكية.

أتذكر أني نبهت العم "أوسكار" في النهاية إلى ما سبق وأخبرني به – حسب ماركس، يتحتم على الطبقة المسيطرة أن تُجبر المجتمع بأكمله على اعتناق أيديولوجيتها كي تُقنع المُستغلين بضرورة الاستغلال الذي يتعرضون له وبعدالته. تصرف وكأنه لا يسمعني. ربما أكون قد فهمت كل شيء على نحو خاطىء، أو أنه فهم كل شيء على نحو خاطئ؟ وحسب قناعتي فإن ماركس بذاته كان أبله، وهذا ما أقنعني به العم "أوسكار".

حين كنا لا نزال في صالة المطار، ذهبت أمي للبحث عن المراحيض المخبأة بشكل جيد في حين قمت بالتحدث بيني وبين نفسي عن كل شيء خطر ببالي كي أضيع الوقت الذي تبقى لحين انطلاق الطائرة.

العم "أوسكار" لم يعد يسمعني، حين تطلع في وجهي وجدته شارد الذهن، وكأنه يريد إخباري بشيء في غاية الأهمية. انحنى باتجاهي.

"أحياناً عليك القيام بأشياء مميزة كي تحافظ على حياتك يا "أداشو"."

تجمدت في مكاني لأنه تحدث بطريقة مفرطة في الجدية.

"حين كنت في السجن تطلع في وجهي أحد الأطباء، إس إس أونترستورم فوهرر "كروتز". ضمني في البداية إلى السجناء الذين كانوا يرتبون أمتعة الواصلين من الترحيل. كان بالإمكان على الدوام العثور على

بعض الطعام. الأشياء وجدت طريقها الى المستودع الذي أُطلق عليه "كندا". أخذتني بعد ذلك إلى غرفة الفحص الطبي. كنت في الحقيقة خادمه."

تطلع العم "أوسكار" في وجوه الناس الذين كانوا يمرون من حولنا.

"عبّر لي عن حبه على الدوام بحضوره في المساء، وفعل ذلك بفمه. لم يطلب أي شيء آخر. كان أمراً مقرفاً ورقيقاً، هل تفهم؟ وبفضل ذلك ولأني تركته يفعل، بقيت على قيد الحياة."

دقق في وجهي.

"لا تُخبر أحداً بذلك. سوانا، لا أحد يعرف ذلك."

في تلك الأثناء، عادت أمي، ارتمت في أحضانه وبدأت بالبكاء.

21

تلك العظام لم تتركني وشأني.

حاولت معرفة ما حدث مع الملازم "دوراتني" وإذا لم يكن بالصدفة هو من عَلِقَ إلى الأبد في حديقتنا تحت شجرة السرو.

عمل قبل الحرب، طبقاً للمعطيات جميعها لصالح المخابرات التشيكوسلوفاكية، وكان عند نشوء الدولة السلوفاكية عضواً في الحزب الشيوعي السري، شكَّ بعضهم في اتصالاته مع الشرطة السرية. قاتل في الانتفاضة بوصفه من المشاة العاديين، وتم نقله بعد الحرب إلى الدائرة الخاصة بالمخابرات في وزارة الداخلية. حقق مع الفاشيين، ومع كوادر الحزب الديمقراطي في "بريجاني" الذي ربح الانتخابات في سلوفاكيا. ظهر عام 1949 في قسم أمن الدولة في "بريجاني" وترفع من رتبة كابتن إلى رتبة كولونيل.

قامت في عام 1968 محاكم إعادة الاعتبار بدراسة قضايا متعددة من الخمسينات. خرج فجأة في حينها الدكتور "يان دوراتني" من اللعبة.

شنق نفسه في الغابة الموجودة على سفوح "فولوفتس" في العشرين من نيسان 1968، قبل يومين من مثوله للتحقيق أمام النائب العام. قبره الموجود في مقبرة "بريجاني" السفلية حيث تنمو فوقه الأزهار، لم يؤكد حسب قناعة والدي حدوث قطع عرضاني في النخاع الشوكي — توصلت

إلى هذه المعلومة من جارته السابقة التي قدمتها لي بوصفها ثرثرة مَنسية مع الشاي وكعكة البيت التي كان من الصعب قضمها.

22

انتقل مع مرور الوقت العديد من الناس إلى بريجاني من الضواحي وحتى من القرى البعيدة. عملوا في مصنع "سلولينا" التي كان اسمه قبل ذلك "كنوخت & ماريىنر". يمكن القول إنه تم خلال أيام إنشاء معامل "كارل ليبنكخت" للأخشاب والورق التي كانت تملأ الهواء في الليل برائحة حلوة. حولوا كنيس "بريجاني" الذي تم نهبه أثناء الحرب وأصبح فارغاً إلى مستودع.

ولكي يؤمنوا لهؤلاء الناس مكاناً للسكن، نشأت بسرعة بالقرب من "بهي" بيوت سكن جماعي. شعر العم "رودو" بالحزن لأن الغابة القريبة التي كان يتمشى فيها كل يوم سقطت ضحية هذا المشروع. كان "يفكر في حياته" هناك كما أحب التعبير عن ذلك.

اجتمعت عائلة "روشكو" بأكملها بمناسبة مرور خمسين عاماً على ولادة عم "فويتا".

تحدث أحد الحاضرين عن البلاد الأجنبية، وتذكر أيضاً الدولة الجديدة إسرائيل، قال إنها تقع في شمال أفريقيا.

"لا، لا. إنها آسيا، شرح "فويتا".

نهض والده الثمل وأمسك بطرف الكرسي. علتْ وجهه ابتسامة قبيحة مدعومة بألم في رأسه، وهذا ما يعرفه "فويتا" حين يضع يديه على صدغيه.

"إنه عالمُنا...! واسع الاطلاع!" صرخ.

اقترب من "فويتا" وهو يترنح وساقاه بالكاد تحملانه. صمت الجميع.

"أخبرني، ما فائدة حصولك على الثانوية؟ لم يحصل عندنا أحد عليها. هل تريد التباهي أو ماذا؟ وأكثر من ذلك، انظروا، يريد التسجيل في الجامعة..!"

وصل إليه وأمسكه من قبته.

"لقد كنت دائماً مختلفاً! حتى إنك نادراً ما تُبادلنا الحديث! دائماً تقرأ شيئاً ما، تُضيّع الوقت. إنك لا تنتمي إلينا! لا تنتمي إلى عائلتنا! ألست يهودياً؟"

رفع قدح "السليفوفتسي" إلى الأعلى.

"فويتنكو" يهودي! اسمعوا، إنه يهودي عائلتنا!"

"كفى" أمسكت به السيدة "ناتاليا" من يده. "هذا يكفي!"

نهض "فويتا" من مكانه وغادر منزعجاً.

دفع الوالد باب غرفته في الليل، ومرر يده على الجدار بحثاً عن مفتاح المصباح، تعثر لحظة في العتمة بالقرب من سريره.

"فويتا" لم ينم.

"اعذرني، لم أكن أريد... لم أكن أقصد.."

"م هـ م.."

وضع يده الثقيلة على جبينه.

"أوقات سيئة، سيئة جداً، ربما سنضطر لترك بيتنا في نهاية الأمر".

سرحت دمعه على خده، مسحها. كي لا يرها "فويتا"، ولكنه انتبه. أراد مسك يد والده أو على الأقل تمرير يده على وجهه، ولكنه لم يجد القوة. لم يقتروا بلطافتهم في العائلة، ولا حتى في مثل تلك الأوقات.

"أعرف يا أبي" قال له "فويتا" في العتمة.

حين تذكر ما حدث بعد سنوات، قال إنه أدرك في ذلك الوقت أنه يهودي العائلة حقاً. أمضى حياته بأكملها بهذا الشكل. هروب دائم، هجرة دائمة، ودائماً في الجهة المعاكسة.

لقد أعجبتُ بشجاعته.

التحقت في الصباح التالي والدة "فويتا" "ناتاليا روشكوفا" بالعمل للمرة الأولى بعد دورة التمريض التي نجحت بها في سن الخمسين في براغ. بدأت عملها وهي تكز أسنانها في عيادة الدكتور "ألفونس

ترنوفسكي"، والدي، لأن المعرضة العجوز المخلصة السيدة "زدنكا" أحيلت إلى التقاعد.

بدا الأمر للوهلة الأولى وكأنها تقرف من المرضى، وللوهلة الثانية أيضاً. أكثر ما كانت تفعله هو شرب القهوة والتأمل، وفتح الورق أحياناً.

وهكذا وهي في أفضل حال، أزعجتها إحدى الأمهات التي أحضرت طفلتها ذات السنوات الثلاث مع حرارتها المرتفعة. وصفت لها نوبات سعالها التشنجي في الليل الذي جعلها تزرق من التعب حين حاولت أخذ نفس. وذكرت لها أصوات نهيقها أثناء الشهيق ما يمكنه أن يشير إلى إصابتها بسعال الحمير.

رفعت السيدة "ناتاليا" رأسها وقالت إنه لا يمكنها إزعاج الطبيب لأنه مشغول الآن بحالات أكثر سعالاً "حمارياً" وما تشكو منه ابنتها هو مجرد نزلة برد. شاي الزيزفون، كمادات والبقاء في البيت.

كل شيء كان سيمر بيسر لو أن الطفلة لم تلق حتفها خلال أسبوع.

أظهر آذار 1953 أنه فترة رائجة للموت الذي تمكن من حصد العديد.

قضى نحبه بداية بسبب النزيف الدماغي جنرال الجنرالات ستالين.

كان بوسعه العيش فترة أطول لو أن الأطباء لم ينتظروا طويلاً (بناء على تعليمات رئيس المخابرات السرية) خلف الأبواب الموصدة، ولكن هذا الأمر لم يكن معروفاً في حينها. راديو فيينا أعلن النبأ في الساعة السابعة صباحاً، وأعلنه لاحقاً الصوت التراجيدي الباكي لمذياعنا . فاكتظت الشوارع بالبشر. وظنوا أن نهاية العالم بالتأكيد آتية لا محالة.

تكشفت للجميع تدريجياً نوعية ذلك الطائر. حتى يُقال إن الشاعر "كوسترا" بعد المؤتمر العشرين حين انفضح كل شيء غيّر عنوان قصيدته الشهيرة في *مدح ستالين* بـ *"جَعَلوني أتغوط"* .

غادرنا بعد تسعة أيام من موت ستالين إلى الأبدية المحبوب الرفيق "كليمنت غوتوالد" الذي أرهق السفليس شرايينه التي قطعت الطريق بالطائرة لحضور جنازة جنرال الجنرالات. مات " كليمنت" بعد انفجار

أبهر القلب، وهذا لم يكن معروفاً في حينها أيضاً، ربما — يعرفون ولكنهم لم يتحدثوا عن ذلك بشكل علني. رفض الخبراء السوفييت تسليم دماغ الرئيس وسلموا القلب فقط. ربما أرادوا من خلال ذلك التأكيد أن العواطف هي الأهم في تلك الحالة وليس التفكير المنطقي البارد. هذا قبل كل شيء بعد الموت.

كانوا في مصر القديمة يزينون قلب الميت، ومن وزنه يقررون نوع حياته في القبر. من يدري عدد غرامات وزن قلب "غوتوالد" حين نعرف أن الطبيب الذي كان عليه إصدار وثيقة الوفاة استغرب قائلاً: *ما هذه الأحشاء التي أحضرتموها!*

والد "تينا" منعها من دعوة الصديقات إلى حفل عيد ميلادها لأنهم أعلنوا الحداد في الدولة. فغضبت كثيراً.

23

لم تهبط وظيفة والد "فويتا" في مؤسسة غابات "بريجاني" من السماء. دبرها له بعد ترجيات كبيرة رئيس اللجنة الوطنية الرفيق "كومينار" إثر تدخله عند وزير الغابات، والبساتين والمستنقعات، و..... (لا أعرف ماذا أيضاً).

ولكن الرفيق "كومينار" في العادة لم يحمل معه السعادة، ربما تكونون قد أمسكتم بالزر ودورتموه ولكن دون فائدة. كان يقف بقوة خلف معتقداته، ومن الصعب التأثيرفيه.

لأحبائي القراء الذين ولدت عندهم تلك الشخصية أحاسيس متناقضة، وإلى الذين يحبون القفلة الواضحة المُعبرة في أسلوب الصراع بين الجيد، والسيء يؤسفني إخباركم أن الرفيق "كومينار" سكر في النهاية حتى الموت، كما أعتذرُ لأني مضطر لإخباركم أن عائلته تخلت عنه — زوجته مع ابنته طردتاه من البيت.

من الصعب رفض المشروب حين لا يتوقف أحدهم عن طلب شيء، يحضرون زجاجة، يدعونك لتناول كأس — الكحول مُزيتٌ اجتماعي،

والتقنيات تحتاج إلى تشحيم. يعود في العادة إلى البيت في وقت متأخر من المساء، وعادة في حالة يصعُب وصفها..

إنه الآن يتمتع بصحة جيدة، ولولا أنه أخطأ وتناول حبوب الإسهال بدلاً من أدوية مضادة للأرق لظنَّ ربما أنه عصي على الموت.

اضطر والد "فويتا" للعمل في بيته الريفي في "فولوفتس" كرد للجميل. إذ شُيدَ بيتٌ ريفي فخم في عمق الغابة. مواد البناء تم نقلها إلى المكان المحدد على الأكتاف في طريق ضيق مخصص للبيت. مجموعة والد "فويتا" إضافة إلى الرفاق المتنين كانوا يُمضون هناك عطل نهاية الأسبوع.

تمكن بفضل العمل الطوعي في النهاية من الوصول إلى وظيفة رئيس المستودع حيث التقى هناك بالكاهن الذي تم إطلاق سراحه، الأب "تششنيك"، وفي وقت لاحق بالشيوعي القديم الذي أطلق سراحه حديثاً، الرفيق "نمت". هؤلاء الثلاثة أصبحوا أفضل أصدقاء.

تناقشوا بشكل رائع حول ماركس، والرب أثناء شربهم النبيذ، اتفقوا مرة وهم سكارى على أن - ماركس والرب يهوديان — على الأقل حسب ما جاء في الإنجيل.

هذا الأمر وحَدَهم بالطبع لأنهم بعد ذلك جعلوا يشتُمون اليهود بشكل جماعي.

لم يعد بإمكان والد "فويتا" لمس الطائرات، وكل ما يمكنه فعله هو مراقبتها في السماء وهي ترسم خلفها خطاً أبيض قبل أن تختفي بين الغيوم، أو رؤية وميض مصابيحها الحمراء في الليل أثناء تدخينه سيجارته الأخيرة وهي تتداخل ببطء مع النجوم.

وما يثبت أنه انتهى من تلك القضية إلى الأبد هو توقفه عن تربية الطيور التي تخلص منها بشكل نهائي. لقد بدأت أجسامهم الصغيرة المنتوفة بالظهور في صحن أكل "فويتا" الذي كان يأكلها دون رغبة وبصعوبة كبيرة. يأكل قطعة البطاطا المسلوقة ويرمي قطعة اللحم للكلب، يشرب قليلاً ويعود من جديد ليرمي فخذ الطير تحت الطاولة. قفص

الطيور الخشبي أصبح فارغاً وعشعشت فيه الفئران. وبقي لفترة طويلة في مكانه في منتصف حديقة "روشكو".

كنت أرافق "فويتا" في زياراته لوالده في الغابة – صعوداً، عبر قمة "فولوفتس" وبعد ذلك إلى الوادي.

"كلاوديوس كولار" الذي كنا عادة نتوقف عنده أثناء رحلتنا تابع حياته وحيداً ومغمساً في الكحول مثل السحلية. يمكن القول باختصار إن منزله المضوى بجراب دائم يُذكر قليلاً بشراب النعناع المُسكر. وحتى برائحته. لقد كتب في ذلك الضوء الشفاف أشعاراً رائعة. وكان أحياناً يقرأ لنا بعضاً منها حين يكون في مزاج طيب. أحدها بعنوان *المدخنة*.

الحياة مدخنة وأنا منظف الداخن – تعرف.
مهبل عميق أو شرج؟ وقبل أن تسأل من أين أعرف
– لا تزعجني،
اذهب!
لا أعرف، كيف ستأتي. البارحة أو اليوم.
سأذهب إلى القمر مثل كلب شارد.

"جيدا جيد حقاً، تنهد "فويتا"، حتى إنه نسخ القصيدة في دفتر مذكراته.

أخبرني أن شاعرنا تأثر كثيراً حين أحضر له جاره من انفراديته المجاورة جريدة احتوت على خبر مقتضب:

أنا، إيفان كولار، أصرح بكامل أهليتي أن والدي كلاوديوس كولار عدو طبقي، ومخرب وعدو للشعب لذا أتبرأ منه وأتخلى عنه، و لا أتصل به منذ سنوات.

تسلّينا بعد ذلك في الإمساك واللعب بقطع الحديد الصغيرة المنتشرة فوق العشب الأخضر الرطب التي ملأت رائحتها المكان. تمددنا على ظهرينا وجعلنا نتطلع في تيجان الزان والدردار العالية.

كلب "فويتا" كان يقفز ويركض فرحاً، ولم يتوقف عن اللهاث عند أذني والعواء بعد ذلك في أماكن بعيدة. لقد عاش ببهجة كبيرة من

الروائح، كل شيء كان عنده ذا معنى وهدف. الشمس، القش، السماد في الهواء. الهواء بعد هطول المطر، كلاب أخرى وحيوانات بعيدة، النجوم، الليل، الأرض الدافئة، الغابة الرطبة... فرح حقيقي. تنهدت بسعادة، وقلت بيني وبين نفسي ياله من شعور رائع بالحرية.

"فويتا" انقلب على بطنه :

"الحرية موجودة في رأس الإنسان. نادراً ما تكون مرتبطة بالأوضاع الخارجية."

"كيف ذلك؟"

"وماذا عن صفاتك، وعن مكان ولادتك، همهم؟ وأيضاً — مزاجك، وكم من المرات يتغير، وكيف يتفاعل مع الأشياء؟ إنه قفص. الإنسان لا يمكنه أن يكون حراً على الإطلاق"

ضوّت الشمس وجهي بلطف في تلك اللحظة، لذا فإني لم أعارض.

"ومع ذلك أصعب شيء هو أن تبقى وحيداً"

زحفت علقة على ساعدي، لم أنتبه إليها. أبعدها "فويتا " بحركة سريعة. فنهضت من مكاني ونفضت ثيابي.

"عليك أن تفتش عنها، ربما لا يزال عندك منها. إنها تعلق في العشب وفي السياج العشبي"

تابعنا سيرنا. فكرت، من يمكنه أن يتفحصني. اضطررت من شدة اضطرابي لرمي قطعة نقد في الهواء حين خطر ببالي. الرقم نعم والرمز لا. الرمز. كررت الرمي — الرمز من جديد. رفعت كتفي. لقد تقرر الأمر. ولكني لم أستسلم. فرميت النقد من جديد إلى الأعلى وجعلته يسقط على ظهر كفي. الرقم!

"ما أروع الدخان المتصاعد من الجبال! سيهطل المطر بالتأكيد."

تسكن "سوزانا كاباتوفا" في القسم الجنوبي من نصف البلدة الثاني، في منزل جديد شيدته عائلتها بعد الحرب مباشرة. شعرت بالسعادة لأنها هي من فتح لي الباب علماً أن مخططاتي لم تذهب لأبعد من ذلك.

ترافقنا عدة مرات إلى السينما (لا يمكن القول إني حصدت شيئاً من تلك الأفلام لأني كنت أتطلع سراً طوال الوقت في وجهها وأفكر كيف يمكنني أن ألمس يدها المفرطة في البياض)، ولكني كنتُ في هذا المجال أشعر دائماً بالخجل. لم أثق إلى هذا الحد بمظهري، ولا حتى ببلاغة حديثي، ولا حاجة لذكر توتري.

جلسنا في المطبخ حيث قدمت لي شراب الليمون. بقينا صامتين. كانت وحيدة في البيت. راقبنا العصافير من خلال النافذة وهي تقفز على حبال الغسيل وكيف تتساقط مخلفاتهم على الرصيف البيتوني بالقرب من الزجاجات الملونة.

بدأت الحديث، بسرعة ودون طول تفكير حتى إنني تفاجأت.

"هل يمكنك أن تفتشي ما إذا كانت العَلَقة في جسمي؟"

ابتسمت "سوزانا" وتوردت وجنتاها قليلاً.

"حسناً... اخلع ثيابك."

خلعت ثيابي بسرعة ورميتها جانباً. ضحكت "سوزانا" وغطت ضحكتها براحة يدها، ولكنها عادت بسرعة إلى جديتها وتصرفت كمحترفة.

وقفت عارياً في وسط المطبخ. ركعت بالقرب مني.

"اليدان إلى الأعلى!"

تطلعت بتركيز تحت إبطي وفوق صدري ورقبتي، لمستني بنعومة برؤوس أصابعها ربما لتتأكد ما إذا لم تكن "علامة الأمومة" قرصة علقة. فشعرت كأنني عند طبيب.

حين وصلت إلى المكان الموجود بين فخذي، أحسست كيف تسبب ذلك في إثارتي. حاولت تغطية مكان حدوث الانتصاب البطيء.

"اليدان إلى الأعلى!" قالت مهددة. "إنك تحدث ظلاً ولاأرى شيئاً."

بلعت ريقي، شعرت بدغدغة لطيفة في رأسي.

انتقلتْ بعد ذلك إلى ظهري وساقي. ومؤخرتي. تسببت في إرباكي لأنها في نهاية الأمر فتحت الفلقتين وتفحصتني وهي تخنق ضحكتها.

"هنا لا شيء أيضاً"

حين أنزلت يدي، أدركت أني طوال الوقت كنت أحبس نفسي. مددت يدي وتناولت سروالي بسرعة.

تطلعت إليّ من الأسفل. عينان خضراوان رائعتان. سألتني بصوتها العميق:

"ألا تريد فحصي أنت أيضاً؟ ربما عندي علقة!"

نامت بعد ذلك على السرير في غرفتها. حين تمددت بالقرب منها أحسست بجسدها، امتلأ الهواء برائحة "سوزانا" مما جعلني أشعر بالهدوء وكأن نسمة باردة تمر في أوردتي. تمددنا عاريين. ثدياها يستلقيان بمرونة على صدرها، بشرة بيضاء صافية مرشوشة بنمش صغير جداً يضوي في العتمة، رقيقة وناعمة.

مددت يدي وتناولت الواقي ووضعته في المكان المناسب. انقلبت "سوزانا" على جنبها، عيناها مغلقتان، تتنفس بهدوء. غطيتها بحذر بالبطانية، بربرت شيئاً عير مفهوم في نومها والتصقت بجسمي.

أمسكت ذلك الشيء الناعم والمرن في يدي، ونظرت في الواقي من خلال شعاع الضوء الواصل من النافذة. رأيت قطعاً صغيرة بيضاء، شبيهة بأوردة صغيرة تنتشر باتجاهات مختلفة، ومطاطاً مجعوكاً. في النهاية قبعة صغيرة، وثدياً صغيراً معبأ بالحليب.

فكرت بيني وبين نفسي: أنا في الداخل وهي في الخارج. شعرت بسحر العملية.

راقبت "سوزانا" النائمة. الشمس في الخارج تُشرف على المغيب خلف "فولوفتس" وتنشر ظلها الطويل فوق كل شيء وأنا أجد نفسي فجأة في حضرة ذلك الجمال الرائع، الوجه الضيق بجفونه المغلقة، ووجنتيه وتجاعيده الخفيفة المنتشرة حول عينين ذائبتين ناعستين، وفم صغير. في حضرة جسد طري تحوّل بتأثيرالجاذبية إلى هُلام جعل ينتقل إلى الأسفل باتجاه الأرض، سيسقط، لقد ارتخى، ولكني طردتُ تلك

الصور وأسندت رأسي عليها. إنها تنشر رائحة رائعة. الحاضر هو الموجود فحسب.

أفاقت "سوزانا" وتمططت. اكتشفت فجأة أنها ليست تلك الجميلة. بدت لي في نهاية الأمر عادية، وقبيحة أيضاً، ولكن حين سقط عليها الضوء بطريقة ما أو أني تطلعت عليها من الجهة الصحيحة، ابتسمت ووقفت معجبة بتقاطيع جسدها — رأيت أمامي من جديد جمالاً غير حقيقي.

مارسنا مرة ثانية. شعرت في لحظة النشوة بحلول المساء.

حين لمستُ بيدي وجه "سوزانا" في النهاية، أحسست بانسياب قطرات الدمع على وجنتيها. كان ذلك يحدث حين لا تستسلم للنوم، تبكي في كل مرة. لم أسألها عن ذلك على الإطلاق لمعرفتي بأنها لن تعرف الإجابة.

"سوزانا"، الساحرة الحساسة، "سوزانا".

حين عاد والداها (تحدثا عن زيارة)، انتظرنا ارتداءهما ثيابهما. "سوزانا" تُحضر الطعام في المطبخ وأنا معها لتسليتها.

كنت أعرفهما بالشكل فحسب. مدّ لي السيد "كابات" يده وتفحصني لحظة. كان رجلاً صارماً قليل الكلام، مَلكَ مخزناً بعد الحرب في بلدتنا، ويقال إنه لا يزال يتاجر الآن بأشياء مختلفة.

السيدة "كاباتوفا" — امرأة ضخمة بشعر صدئ — مدت يدها إلى دولاب المطبخ وتناولت الصحن.

"ستبقى على العشاء، أليس كذلك؟"

"سيبقى" قالت "سوزانا"، وركلتني بلطف على ساقي.

حافظ الوالد على صمته في حين أخذت الوالدة على عاتقها مهمة الكلام.

تحدثت بإسهاب عن صهرها الذي فقد بصره إثر حادث سيارة قبل نصف سنة. اصطدمت به سيارة، السائق لم يمنحه الأفضلية، وحين لم تكن الأضرار كبيرة، اتفقا على عدم إبلاغ الشرطة، المسبب أعطاه

بعض الكورونات لإصلاح السيارة، وذهب كل منهما بهدوء في حال سبيله. لم يشعر صهري بأي ألم بعد أن ارتطم رأسه بطرف عمود السيارة الجانبي، ولكنه اكتشف بعد أن استيقظ في صباح اليوم التالي أنه لا يرى شيئاً، لا شيء على الإطلاق. أخبروه في المشفى أنه أصيب بنزف في الدماغ مما تسبب في تسرب الدم إلى العين وتخريب الشبكية.

اعتذرت والدة "سوزانا" على ذكرها تلك المصيبة غير اللائقة أثناء الطعام ولكن شيئاً ما استمر يشدها للحديث في هذا الموضوع وجعلها تضيف تفصيلاً بعد تفصيل.

وقع نظري أثناء تناول الطعام – على سطح صحن الشوربة الذي عادة لا أوليه أهمية تُذكر، الجزر، دهن وأشياء مشابهة. سبحت من هناك دودة طحين. كبيرة وبدينة، لم تتحرك بالطبع، ولكني شعرت بالقرف. أحسست في الحال بطعم مقزز في فمي.

تطلعت من حولي. الوالد يملأ الملعقة، و "سوزانا" تتابع بانتباه حديث والدتها عن عماية صهرها.

"عصب العين..." قالت وأشارت بإصبعها باتجاهي. كلتاهما ركّزتا نظراتهما على وجهي. أومأت برأسي.

"أليست باردة؟"

"لا.. لا.. إنها رائعة" ابتسمت.

تابعتُ الحديث.

تنهدتُ. لم أرغب في إحداث إزعاج سيما وأننا تعارفنا للتو بشكل رسمي، اليوم هو أول يوم أنام فيه مع ابنتهما الغالية، والآن هذا! لم يكن بوسعي التسبب في إحراجهم، أو وضع نفسي في موقف محرج. لو أني رميت الدودة تحت الطاولة لكانوا لاحظوا ذلك. انتشر على جبيني عرق بارد.

"سأفتح النافذة قليلاً" قالت "سوزانا".

أخذت نفساً عميقاً. كززت أسناني. من يدري لماذا، لم يخطر ببالي شيئاً أفضل من تقطيع الدودة في الشوربة. فعلت ذلك بسهولة. مددت

ملعقتي إلى الحساء واصطدت قطعة. أغلقت عينيّ ودسست الملعقة في فمي. شعرت أنها اصطدمت بلساني، ولكني ربما أخطأت. أحسست بدوار في رأسي.

"هل أسكب لك المزيد؟" همست السيدة "كاباتوفا".

دورت رأسي، وبلعت بسرعة.

أحسست بلمسة من تحت الطاولة. يد "سوزانا" امتدت إلى ركبتي ومسدتها بلطف. تعاملتُ بسرعة مع النصف الثاني من الدودة. وإلى أن انتهيت، بلل العرق البارد قميصي.

شعرت أن الوقت قد تأخر. هيأت نفسي للمغادرة. قبلتني "سوزانا" بالسر بحيث لم يرها أحد.

"انتظر"، أوقفني والدها عند الباب. هبت نسمة باردة من الخارج. أيار بارد – في الحظيرة النعيم[60]، توقعتُ أنه سيلزمني بشيء يتعلق بي وبابنته، وعن أشياء يمكنها، أو لا يمكنها أن تحدث، — باختصار مزيج من الابتسامات ورفع الإصبع كما يمكن أن يحدث عادة في مثل تلك المناسبات.

ولكنه لم يفعل شيئاً من هذا أو ذاك، وبدلاً عن ذلك أشار قائلاً بشكل عرضي:

"سيقومون بتبديل العُملة، هل سمعت عن ذلك؟"

دورت رأسي. ولكني سمعت.

"هذا سيحدث"

راقبني فترة.

"عندي خبر من مصادر موثوقة."

رفعت رمانتي كتفي. أخفض صوته المنخفض حتى في الحالات العادية.

"لو احتاج السيد الطبيب تبديل الكورونات بالدولار أو بالفورينت بسعر جيد، يمكن...."

---

[60] الجملة تعني أن الخير على الطريق في أيار البارد . مثل شعبي

قام بحركة إيمائية دورانية بيده.
أومأت برأسي.
استمر في مراقبتي. ارتخت ربطة عنقه."
"إلى اللقاء."
"دعه يتصل بي"

24

أكثر أنواع الانتقام مكراً هو ذاك الذي لا يُخطط له. وأجمله حين لا يتوقعه حتى من سينفذه. هذا ماحدث لـ "إيتشكو شروفيك"، لأنه مات في الوقت المناسب. وجدوه بعد يومين. حادث وعائي دماغي، بداية حسب تقدير والدي وبعدها استناداً إلى نتيجة التشريح.

الأقرباء تنفسوا الصعداء، ومثلهم الخردة من البيت والرواق —تلك الآلات المعطلة كلها، والكراكيب غير النافعة، والمسامير، والبراغي، والأسلاك النحاسية والأغطية، قواعد السيارات وهياكلها، قاموا بترتيبها، ونقلوها إلى مراكز تجميع الخردة. استغرقهم الأمر ثلاثة أشهر بكاملها وكسبوا مائة وخمسين ألف كورون.

نعم، أقنعته السنون بضرورة التوقف عن جمع تلك الأشياء، ولكنه لم يتوقف؛ حتى إنهم في نهاية الأمر أرادوا سجنه في مشفى المجانين، على الأقل لفترة وجيزة كي يتمكنوا من ترتيب البيت. تجادلوا معه حول الأمر وفي النهاية توقفوا عن ملاقاته أو الاتصال به. فكروا بالطريقة التي يمكنهم فيها التخلص من ذلك العبء العائلي فقط.

أنهوا العمل في يوم السبت 29.أيار ووزعوا المال فيما بينهم بالعدل.

نعم، أعظم الانتقام مكراً هو ذاك الذي لا يخطط له. "إيتشكو شروفيك" لم يخطط له، ولكنه مات في الوقت الصحيح.

دأبت الرؤوس الكبيرة الحمراء منذ عدة أيام عبر الراديو والصحافة على طمأنة الناس بأن لا شيء يتم التحضير له.– وأن تبديل العملة هو مجرد كذبة ودعاية إمبريالية من الغرب. أولئك "العاهرون" الذين باعوا

أنفسهم، يريدون تخريب اقتصادنا الاشتراكي المزدهر. الرفيق "كومينار" تحدث عن ذلك بحرارة في الإذاعة المحلية.

تسربت أخبار متضاربة لأكثر من أسبوع، ولكن أهالي "بريجاني" لم يترددوا. هجموا على الشراء، الثياب، الأغذية والمواد الكيميائية، اشتروا كل شيء. فرغتْ المخازن بالتدريج ودون ضجيج من كل شيء ثمين، وفي النهاية، منعوا بيع المعلبات واللحم المقدد. أعادوا جميع المواد الغذائية إلى المستودعات. وانتهى البيع الحر لفترة مما جعل أصحاب البطاقات التموينية يتضورون جوعاً. رُفعَ في النهاية سعر البنزين الذي أصبح حكراً على المؤسسات الحكومية وسيارات الدولة. وامتلأت الشوارع بدوريات الأمن.

ألقى "أنتونين زابوتتسكي" الملقب بصاحب "أذني التوربيد" في يوم السبت خطاباً عبر الإذاعة التشيكوسلوفاكية تحدث فيه عن انتشار إشاعات مغرضة بين الناس تشير إلى الانهيار المالي وإلى هبوط قيمة العملة ثم أقسم على مسؤوليته:

"لا، إن عملتنا قوية أكثر من أي وقت مضى! وإذا كان أحدهم يقول العكس فهذا كذب!"

سربت الإذاعة بعد ذلك من خلال النشرة الإخبارية المسائية معلومات وجدها المواطنون في اليوم التالي الأحد في صحيفتي البرافدا ورودي برافو: من الاثنين الأول من حزيران ولغاية الخميس الرابع من حزيران سيتم إصلاح النقد (تبديل العملة).

يكفي الحضور بشجاعة إلى مركز تبديل النقد في البنك الحكومي التشيكوسلوفاكي وتبديل 300 كورونا قديم ب 60 كوروناً جديداً بنسبة 1:50

ذابت المدخرات مثل ذوبان قطعة الجليد في الشمس. وضع والدي مائتي ألف في بنك الاستثمار وخسرها دون تعويض. لأنه يوظف ممرضة، أصبح مستغلا وله الحق في التبديل بنسبة 1:50. حتى اليوم أرى صورة وجهه أمامي حين ألقي نظرة على تقرير البنك. تقلصت مدخراتنا من النقد إلى 420 كوروناً.

حاول الناس ما بوسعهم صرف أكثر ما يمكن في يوم الأحد وكأنهم وجدوا بذلك الحل المناسب. الأشياء اللازمة لم يتمكنوا من شرائها. استمرت دور السينما، والمطاعم والمقاهي والحانات بالعمل. احتل أهالي بريجاني تلك الأماكن، النادلون تلقوا الصفعات.

حضرت مع سوزانا ثلاثة عروض سينما متتالية لفيلم واحد. فأصبحت منذ ذلك الوقت أعرف فيلم المخرج بيلكو "أوكار الثعالب" عن ظهر قلب. إذا لم تعيشوا الانتفاضة على حقيقتها، وبدت لكم قصيرة بوسعكم انتهاز تلك الفرصة الحقيقية. قمنا بعد ذلك لاستكمال الأمر بالشرب حتى الثمالة في فندق الغزال، ولم نكن الوحيدين هناك بسبب حضور أحد الشباب في بدلته الأنيقة وسؤاله: "ما هو الشراب الأغلى سعراً؟"

وجدناه أثناء مغادرتنا الفندق مستلقياً تحت الطاولة، وشراب الكونياك الفرنسي "خمس نجوم" يسيل من طرف فمه.

باع الفندق للعاملين فيه مخزونه من المواد الغذائية كله. وتمكن رئيس الطباخين "سفنتسكي" من أخذ كرتونة سردين برتغالي فحسب.. فحلم بعد ذلك أنه غرق في عمق البحر وأن الأسماك الصغيرة بدأت تخرج من فتحات بطنه على شكل حشود.

لم يخطر ببال "بوشكار" شيء أفضل من تمضية الوقت في أحد البيوت ذات السُمعة الجيدة المعروفة - الموجودة خلف تحصينات بريجاني. بالطبع لم تكن هناك أي تحصينات منذ أمد بعيد، فالعلاقات الجسدية كانت تتم بسرية في حانة موجودة خلف المدينة حيث تجتمع هناك جميع الخيوط، وكان النشاط ضعيفاً بعد إلغاء الدعارة. رسمياً كانت هنا السيدة "شكانيتسلوفا" مع بناتها.

جَرَّب "بوشكار" كل شيء حقاً.

أُصيب مباشرة، وبعد استخدامه جسده بشكل كامل، وتخطيه بوابة ذلك البيت بحالة من تأنيب الضمير بسبب "ليلي" مما جعله يغلق على نفسه الباب، ويمتنع عن الخروج لعدة أيام.

الناس في تلك الأثناء كانوا يرمون مئات الأوراق النقدية غير النافعة في "سالافا"، حرقوا جميع أولئك "الشتيفانيين، والكولاريين، وملوك هافلتشك بروفسكي" كما لصقوها في الليل على جدران ثلاثة مراكز رسمية في بريجاني.

والدي جلسا في يوم الثلاثاء مساء في المطبخ، وراحا يتبادلان النصائح بعصبية. عرفت في وقت متأخر أن والدي كان يفكر بالأوراق المالية الألمانية التي أمضت أيامها في الألبوم الأزرق.

"ولكن من يمكنه الآن طلبها؟

الخاتم الذهبي كان لا يزال يرتاح مع السنسال بين تكويرتي صدر أمي. تفحص أبي، ولمس في الليل تلك الأوراق النقدية القديمة القوية.

السيد "كابات" والد "سوزانا"، لم تكن لديه تلك الاهتمامات لأنهم جاؤوا مباشرة في صباح يوم الاثنين عند الفجر لاعتقاله. رنوا الجرس بداية ثم جعلوا يضربون الباب بأقدامهم. وصفت لي "سوزانا" المشهد، وكيف نقلوه، ولم يخبروا أحداً إلى أين. بعد مرور شهر أخبروا العائلة أنه متهم بالاستغلال، ومحاولة الاحتيال على أموال الدولة.

جاء "فويتا" بعد أسبوع أو أسبوعين لزيارتنا دون إعلان مسبق. فأخبرنا قبل أن يلحق خلعَ معطفه أنهم طردوه بسبب والده من السنة الأولى في فرع علم النفس، ولكنهم لحسن الحظ تركوا لهم البيت.

جلسنا في المطبخ وبقينا صامتين فترة طويلة. قال إنه جاء لتوديعنا. أخذنا زجاجة نبيذ واتجهنا إلى حديقة القصر.

أثناء مرور والدي من حولنا ونحن نتهيأ لانتعال أحذيتنا، كان يحمل بيده حقيبته الطبية، بدا لي عصبياً وشارد الذهن. أوقع زجاجة ملأى بشراب التوت الكثيف — جعل يسرح على أرض المطبخ ويغطي النمل الذي بدأ يبلعط بأطرافه وهو يغرق في السائل الذي يتمناه إلى أن اختفت رؤوسه تحت سطح الفردوس اللاصق.

أبي بدأ يشتم. مسح الشراب بالخرقة، ولم يتطلع إلينا.

"سوف أغادر في الغد إلى "بود برزوفا" حيث سألتحق هناك بمعمل صقل التنك. الانضمام إلى الطبقة العاملة في مواقع الإنتاج.

ابتسم بحزن وشرب من النبيذ."إنه جيد! هل هو من عندنا؟"

أومأت برأسي.

أثناء اجتماع اتحاد الشبيبة في المدرسة غالبيتهم صوتوا ضدي. لا يمكن لابن فاشستي البقاء بيننا. كثيرون اعتذروا ولم يحضروا الاجتماع.

شربنا النبيذ. لم يخطر ببالي شيء يمكنني قوله. يجدر بي مواساته، ولكني لم أعرف كيف. هبط الليل في البارك.

"هل لا زال لديك الحجر الذي وجدناه في القصر؟"

أومأت برأسي، وسحبت من جيبي "أونيكس" الأسود.

وضع "فويتا" حَجَره على كفه.

"وذلك المنظار... سنراقب النجوم في وقت ما."

تطلعت إلى الأعلى. سبح كوكب الزهرة فوق رأسينا.

"ذاك يمكننا رؤيته بدونه"

فرزوا "فويتا" في الحال للعمل عند الضاغط الخطر الذي يتوقف فجأة رافضاً متابعة العمل. لن يستفيدوا حتى لو تقيدوا بتعليمات التشغيل، وكي يتابعوا العمل جعلوا يدسون أيديهم في الآلة بغية تشغيلها.

بفضل ذلك احتفظ رئيس وردية "فويتا" بأصابع مغمسة بالفورمالين داخل حوجلة – كان يُريها للمستجدين بغية إخافتهم. ولا يزال الوسخ عالقاً خلف الظفر في أحدها حيث تدلى الوريد، إضافة إلى قطعة جلد ممزقة.

حين هز "فويتا" الحوجلة، ظهر أمامه الإصبع الذي ناداه بشكل مباشر أو أنه حذره. قبضة الطبقة العاملة التي كانوا يتحدثون عنها كثيراً في ذلك الوقت، لم تكن قبضة رئيس وردية "فويتا" موجودة هناك حتى اللحظة، ربما يكفيه حادث صغير.

25

سافر والد والدي — الجد ألبرت — في أحد الأيام إلى بلد أجنبي لأجل العمل وكسب المال، عمل في قناة السويس بوصفه خبيراً في الكهرباء وبمراقبة المضخات. لقي العديد هناك حتفهم لأن العمل كان شديد الخطورة. استطاع الجد ألبرت خلال سنة واحدة كسب ما يكفيه من المال لتعمير البيت. هذا البيت. توجد من هناك صورة واحدة — الجد يقف متفاخراً في ضوء الشمس ومن خلفه تتموج مياه القناة ومن تحته حائط السد.

شيدوا البيت من المال الذي جلبه من مصر. غالباً ما كنت أشاهد والدي يتمشى ويَشتَمُ بالقرب من الجدار. ربما تخيلت ذلك، ولكني أنا أيضاً كنت أشتمّ من الجدران والتصوينة قليلاً من رائحة البلاد الجنوبية.

لو كان الهروب ممكناً، أو السفر، الرحيل — والدي بالتأكيد يفكر في ذلك.

متعباً أستلقي على السرير وعيناي مغلقتان (تحكّني، وأنا أسعل، الحساسية تهاجمني، ولكنها لم تتمكن من طردي، أنفي يسيل)، أتخيل رائحة غريبة عنا. أخرج للمرة المائة صورة كلاسيكية لصق عليها رأس جدي فوق جسم شقيق جدي، عمي "كارول" نعم العائلة من جديد مجتمعة.

المهم ألا يودعُ أحدنا الآخر، قال والدي عند هذا المنظر (كان هو أيضاً مستلق على السرير كما أفعل أنا الآن في منفردته) كل شيء يمكن تحمله، المهم هو السلام والهدوء، تعرفون لا شيء يحدث. لا شيء يحدث! كلما قلت ذلك بصوت أعلى كان ذلك حقيقة أكثر. أو العكس؟

أكثر الأماكن هدوءاً منذ الأزل في "بريجاني" هي الليمونة العالية.

للمرة الألف أفرح من رؤية نصب شهداء الحرب الكونية الأولى والثانية. تتكرر أسماء البريجانيين — لفندوفسكي، بوشكار، كربس... يخطرُ ببالي من جديد أني لا أعرف بشكل مؤكد، وأسأل عن السبب الذي نقاتل من أجله؟ أليس من الأفضل تمضية العمر كما هو؟ وما معنى فقدان الحياة في القتال؟

المقبرة تعيش حياتها الخاصة. القطة السوداء التي تحاول تدفئة جسدها في شمس الخريف الباردة بين شواهد القبور تتطلع في وجهي وكأني دخيل. إنها مملكتها المقدسة، وهي على استعداد للدفاع عنها. لا تزال حتى الآن تراقبني بكراهية من فوق الملاك الحجري الباكي.

أتابعُ طريق النمل الدولي الطويل في الاتجاهين حتى السياج حيث اكتشفت عناصر المراقبة الأمامية ضفدعاً ميتاً. الحشود تتدفق منها وإليها. يُفككونها إلى قطع صغيرة. ربما سيقومون بترتيبها في الوكر مثل لعبة تجميع المكعبات puzzle.

أتذكر جيداً دفء ما قبل حلول الليل مع الهواء الثقيل الذي يُنذر بحدوث العاصفة حيث يتكاثر النمل. الزوجان يحلقان في الهواء ببطء، إنهما متوتران، يُنهيان مهمتهما الوحيدة في هذا العالم بعد التلقيح: التكاثر.

عصافير الشتاء لا تجد صعوبة في اصطيادها – يبلعونها أثناء طيرانهم. نزلوا عمودياً من السماء.

غريزة التردد تطلب الكلام من جديد. أسحب قطعة العملة وأرغب في رميها في الهواء. كنت على استعداد لرميها حتى أشعر بالراحة. ولكني أعود بعد ذلك لأدسها في جيبي من جديد ومن ثم أتابع طريقي في النهاية وأخطو باتجاه قبر والدي. إنه فارغ، قلائل هم الذين يتوقعون ذلك.

قال لي "فويتا" أثناء إحدى عوداته النادرة إن السيدة "ناتاليا" سمعت من خلال باب العيادة قسماً من حوار ما. دخل في لحظتها أحد المرضى الذي اشتكى من صعوبات في النوم أو شيء آخر. "يورانتي"؟ أو "دوريتسا" لم تتذكر بالضبط.

"تتهرب مني، وهذا لا يعجبني، لا تنسوا اتفاقنا، وارتباطك!"

"حقاً، من الصعب تدبير الأمر! لماذا لا تُصدقني؟!"

"لقد سرقت جميع مقتنيات السيد "سيلبرستاين" أيضاً، وربما لك أصابع في ذلك، أيها الرفيق الطبيب. يقال إنكم حين ذهبتم لمعاينة ساقه المكسور.."

"هذا بالتأكيد غير صحيح!"

"ولكن أيها الرفيق "ترنوفسكي"! لا وجود للحقيقة في بعض الحالات. الحقيقة تكون فيما يعتقده الإنسان فحسب. هكذا هي الأمور منذ آلاف السنين، ومذ أصبح العالم عالماً. لا تنسَ ذلك!"

فُتح الباب، ابتسم السيد "دوروفسكي" أو "دورينا" ممتناً.

"شكراً، أيها الرفيق الطبيب، أتمنى أخيراً أن يؤثر فيك كلامي.

قام والدي حسب قول "فويتا" بمرافقته إلى البوابة.

حين عاد والدي إلى العيادة أخبرته السيدة "ناتاليا" أن الإشكال المتعلق ببيتهم لا يزال غير مؤكد. رد والدي دون اهتمام يُذكر بالقول: وما دخلي بهذا. وحين أخبرته أنها سمعت ما دار بينهما من حديث في الداخل — شحب وجه والدي. قالت إن الله بالتأكيد يرى في ذلك حكمة لمساعدة المقربين أثناء المحن لأنه شخص هام يمكنه التوسط ل–"راشكا". سألها عما سمعته بالتحديد ، وهي سألته ما، إذا كان يمكنها الاعتماد عليه، ومنعهم من نقله. أومأ برأسه، حسب قولها، وغادر.

"غريب، أليس كذلك؟"

"غريب."

أحياناً، حين كنت أتمشى في الساحة أثناء تجهيزي بعض الأشياء، أرى والدي يتطلع وهو جالس على الكرسي في صالة فندق الغزال إلى الزجاج الملون الموجود في السقف. قال لي مرة إنه يحب هذا المنظر الذي يُذكره بذلك الشيء المليء بالزجاج الملون والمرايا التي تتجمع حين تنظر إليها، وتتحرك في صورة مضيئة تذكره بالكاليدوسكوب (قرأت مرة أنه يسمى بالسلوفاكية "كراسوهلاد" (الجوع إلى الجمال)، ولكن ذلك يبدو لي غريباً — علماً أن كلمة كاليدوسكوب لا يمكنها التعبير عن ذلك الشعور القوي حين يتطلع الإنسان من الشق إلى الداخل) قال والدي إنه يشعر بالسكينة حين يجلس بهذا الشكل ويراقب الناس وهم يمرون من حوله.

تيبس وجهه حين اعتقد أن لا أحد يراه بشكل غريب كما فقد لونه. فكر وكانت ساقه اليسرى تتحرك فوق اليمنى في وقع سريع.

نقرت على الزجاج من الخارج، انتفض. ركب في الحال ابتسامة، وتمدد بارتياح كبير في الكرسي الوثير كما لو أن شيئاً لم يحدث. قلت له شيئاً، ولكنه أشار إلى أذنه ليفهمني بأنه لا يسمع.

أتخيل أنه يمُدُ يده على الدوام حين يريد الهروب من التوتر إلى "اللومينال" وهذا يذكره خلال نظرة واحدة في الحال بالشيء الذي يوتره في الحقيقة.

بدا الأمر مع "كلاوديس كولار" وكأنه سيموت. طلبت من والدي بسرعة أن يصعد لرؤيته في التلة لأن "كولار" يرفض في الأساس الذهاب لرؤية الطبيب. لا أعرف ما إذا كان قد وجد الأمر رومانسياً، ولكنه أراد الاستسلام *لأيادي القدر، وهذا سيكون الأفضل*، حسب قوله. تمكن "فويتا" في البداية من جعله يشك بفكرته، وماذا لوكان قدرك *أن يقوم "آدم" باستدعاء والده الطبيب كي يفحصك*، وإلى أن لحق وفهم قصده كنت قد أحضرت والدي.

انغلاق أمعاء، قال والدي بعد فحص قصير، أو بالعامية — مزرير. أي انسداد المصران، وأضاف: إن ذلك يمكن أن يحدث بعد هزة عصبية، أو إجهاد فيزيائي. "كلاوديوس" لم يتذكر شيئاً كهذا، ولكن الوضع الآن لا يحتاج لشرح الأسباب. عليه بالتأكيد أن يخضع لعمل جراحي كي يتم التخلص من انسداد الأمعاء — قال الوالد. نزل إذاً "كولار" في النهاية إلى الأسفل من شجرته. (بدّل رأيه، وتوقف عن الاعتراض— ملاحظة المترجم).

وصف له والدي الـ "كلورامفينيكول" وقائياً للتخلص من الحرارة العالية. أصيب في الليل بحالة من الهذيان الذي تمثل في رؤيته لحرق الثياب التي اسودت أطرافها بحيث أنه لم يتمكن على الإطلاق من التخلص من تلك الخيالات. وصلَ مع حلول الصباح إلى حالة من اليأس حتى إنه فكر بالانتحار. وهذا لم يمنعه في وقت لاحق من وصف تلك الحالة على أنها أقوى صراع روحي عرفه في حياته.

ساعده والدي في البلدية كي يتركوه في الأسفل في "بريجاني" حيث حصل على بيت صغير، رطب، ومعتم في القبو. جعل يتسلى من هناك بمراقبة سيقان المارة في الشارع الذين لم يعرفوا ماذا يجري هناك من خلف ظهرهم.

الرفيق "كومينار" الذي سمح بالانتقال، غضب قليلاً في البداية لأن قصيدة "المدخنة" وصلت إلى يده: *الحياة مدخنة، وأنا منظف الداخن — أنت تعرف؟ مهبل عميق أو شرج؟ وقبل / أن تسأل، من أين أعرف ذلك — لا تُزعج، هش!/ لا أعرف. متى سيأتي. البارحة، أو اليوم./ سوف أعَوي على القمر مثل كلب شارد.*

استدعاه كي يشرح له.

"هذا ما تصفه بالفن الاشتراكي؟ هذا؟"

دور "كلاوديوس" رأسه.

"وما تلك الشتيمة على شخصي، أخبرني؟! هل أنا ذلك الكلب؟ أنا؟!"

الرفيق "كومينار" يحب تكرار الكلمات.

لوح "كولار" بيده: "إنها مجرد استعارات."

سمع الرفيق "كومينار" تلك الكلمة بالتأكيد للمرة الأولى مما جعله يُفكر ما إذا كان قد تلقى إهانة أو لا.

"أها، أها، هذا كلام آخر! هذا كلام آخر."

ربت على كتف الشاعر، وتركه لحال سبيله. ولكنه جرده من القصيدة للتأكد.

"كلاوديوس" كان مستعجلاً كما في كل يوم سبت.

شهدت "بريجاني" في تلك الأوقات العديد من الأعراس والجنائز. انتظر السُكارى المحليون وجهزوا أنفسهم وصافحوا الأيادي جميعها، هنؤوا، وركزوا بالتحديد على أولئك الذين يحملون بأيديهم الأقداح وأعطوهم ليشربوا. فيكتفون عادة بعد انتهاء الحفل. صالة الأفراح، وصالة الحزن، موجودتان إحداهما أمام الثانية ولا يفصلهما سوى الشارع.

لا يمكن لـ"كلاوديوس" أن يغيب. غالباً ما كان يدعو جميع الأصدقاء إلى بيته في القبو.

"لنهنئ العريس، والعروس الصبية... بصحة يومكما السعيد!"

"اسمحوا لي أن أقدم لكم تعازيّ الصادقة. كان إنساناً رائعاً. إنه خسارة كبيرة!"

"لنشرب كأس العروس الجميلة! عرس رائع! كأس يومكما الكبير!"

كان يُشارك في أعياد الفصح بضرب الفتيات بعصا الخيزران على مؤخراتهن وهو يحمل دمجانته الكبيرة.

حين يضيّفونه الكحول، يقول: *لا، الآن لن أشرب، اسكبوا لي هنا!* ويشير إلى الدمجونة. يخلط كل شيء – نبيذ، فودكا، كونياك، سليفغتسي، بوروفتشكا، ثم يقدم ذلك الخليط الرائع لضيوفه.

ارتفعت أعداد أصدقائه من الشوارع وانخفضت أحياناً. أتذكر أحدهم وكان له رأس كبير. يقال إنه بيعَ لأهداف علمية خمس أو ست مرات. الباتولوجيون (أطباء التشريح المرضي) تقاتلوا عليه بعد ذلك.

26

كان لدى "فويتا" ما يكفيه من الوقت للتفكير أثناء عمله. نفذ الخطة بمثالية، لذا تركوه مغطساً برائحة المعدن، والزيت وأفكاره الخاصة. عمل بنشاط في يوم السبت *"من أجل كوريا"* دون أن يعرف ما يعني ذلك.

حين انتظرنا الحافلة عند مركز تسوق "بريجاني" الجديد، سألته كيف يتحمل كل شيء.؟

"كل شيء نسبي... انظر، لا توجد لديك فرصة في الحقيقة لمعرفة وقت وصول الحافلة. هناك العديد من الاحتمالات، لأن الوقت الذي معك على ساعتك ليس بالضرورة الوقت ذاته الذي يوجد في ساعة سائق الحافلة، يمكن أن يكون في نهاية الأمر أكثر أو أقل، ويمكن أن يحدث أي شيء في الطريق، وهذا يعني أن الوقت المدون في لوحة أوقات الوصول

والمغادرة يمكنه أن يختلف مع ساعتك وساعته... باختصار ليس لديك أي ضمان. عليه الآن أن يظهر في ذلك المنعطف — خمسة عشر، أربعة عشر، ثلاثة عشر، اثنا عشر، وهلم جرا.. ستة، خمسة، ثلاثة، اثنان، واحد. هل تراه؟ لا. وأنا أيضاً لا أراه. كل شيء نسبي بشكل لا يُصدق."

"أها... ،" قلت "سنذهب إذا؟"

توقف الباص، وانتظرنا كي نصعد.

حسناً، الأمر نسبي.

احتفلنا بعد عدة سنوات، ومثلما يحدث في احتفالات العائلة بعيد ميلاد والدي. ربما كان ذلك في عام 1967، حينها كنت أسكن في براتيسلافا. احتفلنا في الصالون، أحدهم عزف كما أذكر على البيانو — يحتاج كما في جميع الأوقات إلى دوزنة، لذا غابت الأصالة عن العزف، ولكن الجميع تحملوا بأدب و مدحوا العمل الموسيقي الرائع.

كان "بوني" البالغ ستة أعوام يلعب في ذلك الوقت ويركض خلف ابنة أحد معارفنا — "مونيكا". عبرا الصالون، وغرفة الجلوس وحتى غرفة نومنا. عبرا جميع الأبواب المفتوحة والمغلقة. لكن البيانو أزعجني، لذا تصنعت اللعب معهما وجعلت أتفحص وأنا جالس في الكرسي أحد الكتب.

"مونيكا" الصغيرة دفعتني وقالت:

"احسب للمائة وابحث عنا!"

"نعم، سوف نختبئ. أغلق عينيك، واحسب!"

ذكرني ذلك بلعبة "المستخبي" القديمة في حديقة ذلك البيت.

منذ ذلك الحين وأنا أخاف حين أغمض عيني وأبدأ في عَدِّ الأرقام، سيحدث حتماً شيء ما. سينكشف سر ما، وكأن الأمر يتعلق بطقوس سحرية غامضة، تعويذة غريبة منسية. العَدُّ حتى المائة — وكل شيء سيختلف.

ومع ذلك، أغلقت عيني بأدب وبدأت بالعَدِّ ببطء. تركتُ ما لم يناسبني من الأرقام. سمعتُ حفيفاً في الغرفة، إضافة إلى صوت تحريك الأثاث من مكانه، وقهقهة...."تسعة وتسعون... مائة! سأذهب!"

نهضت عن الكرسي وبدأت البحث.

الستارة تتموج في تيار الهواء. نحيتها بسرعة – فكرت بأني سوف أفاجئ "مونيكا". "بوني" عادة كان يختبئ تحت الأثاث، لا يمكن أن يكون هناك، ولكن "مونيكا" أظهرت أنها أكثر مكراً. سقطت أثناء تحريك الستارة بسرعة لوحة عن الجدار. لم أرها في بيتنا من قبل، وهذا الشيء بدا لي غريباً. مشهد من أحد المرابع الليلية، رُسم بألوان بنية، صفراء، وزرقاء تتناغم فيما بينها وبشكل خاص لوجوه نساء متعبات.

لحسن الحظ لم يحدث للإطار أي شيء. حين أردت تعليقه من جديد، لمحت من الخلف ختم رئاسة أركان الجيش الألماني في "بريجاني" مع ملاحظة كتبت بخط اليد تتعلق بالحجز اليهودي. عبرت جسمي قشعريرة.

"مونيكا" الأقل صبراً من "بوني" الذي لم يتلفظ بكلمة في مخبئه، خرجت من الدولاب. خطت باتجاهي ببطء دون إحداث ضجيج. وحين وجدتني لا أعيرها اهتماماً يُذكر، شدتني من يدي.

"ماذا؟، ما الذي يحدث، أداشو؟"

سُمعتْ من الغرفة المجاورة أصوات المحتفلين الضيوف، وكان قد أنهى عازف البيانو قطعته الموسيقية المتعثرة.

"لا شيء، لا شيء."

تفحصت الختم، وكأنه غير حقيقي. ظلامٌ مفاجئ سيطر على نظري.

"ماذا؟!"

"لم أنتهِ من العَد... هيا اذهبي، واختبئي!"

تركتني "مونيكا" وقد خاب أملها.

بعد لحظات ظهر رأس "بوني" من تحت السرير الذي هرع باتجاهها ليلعب معها. تطلعت في جميع أرجاء الغرفة واكتشفت أشياء أخرى لم تكن موجودة من قبل – سُكرية من الفضة، حامل شمع مع قاعدته.

كلها مختومة ومرقمة. والدي يضحك في الغرفة المجاورة، يكاد يختنق. إنه يحتفل. قمت بالتدريج بتخيل كل شيء بوضوح في بيت "أرمين" حيث غالباً ما كنت أذهب إلى هناك.

شعرت بحركة خلف ظهري. استدرت بسرعة. وقف أبي بين درفتي الباب وجعل يتفحصني. كان ذاهباً ربما إلى المرحاض، وانتبه في طريقه لوجودي. من يدري كم أمضى من الوقت واقفاً بهذا الشكل. لم أسمعه — هذا البيت يتسبب على الأغلب في فقدان السمع عند الجميع. ثبت نظره على وجهي.

تصنعت الحيادية، حتى إنني ابتسمت بجبن، ولكن ابتسامتي لم تكن مقنعة.

استدار دون أن ينطق بكلمة ومضى. سمعت وقع خطواته في المعبر. اختاروا في الصالون أغنية أخرى.

نعم، كل شيء نسبي كثيراً.

كان عليّ أن أسمح لنفسي بالقول دون رغبة مني أني لا أعرف أبي على الإطلاق، ولا سيما حين وصلت تلك الرسالة المسجلة *إلى صاحب العلاقة باليد*، ارتجفت أصابعي وأنا أوقع وصل الاستلام لموزعة البريد. مزقت المغلف وقرأت:

الموضوع: طلب السماح بالدخول إلى الملفات حسب مرسوم ذاكرة الشعب — قرار.

تصفحت الملفات في المكتبة. لم أشك ولو للحظة أن كل ما قرأته هو مجرد خطأ مزعج. تماماً مثل ذلك الإقرار المكتوب بخط اليد:

أقر على مسؤوليتي الخاصة بأني سوف أتكتم بشكل كامل عن الأشياء التي تحدثت عنها مع موظف الأمن. لن أتحدث عنها أمام أحد، ولا حتى أمام الزملاء والمعارف وأفراد عائلتي. إنني على استعداد كامل للمساعدة في كشف الجرائم التي يعاقب عليها القانون حين أعرف عنها. كذلك، لا يوجد عندي ما يمنع اللقاء مع عناصر الأمن. في حال عدم التقيد بالإقرار أكون قد ارتكتبت مخالفة.

ألفونس ترنوفسكي

ضحكت. أعرف أنه غير خط والدي! والإمضاء يختلف أيضاً. إضافة إلى ذلك، الأمن يعني الشرطة، أليس كذلك؟ أبي إذاً يساعد الشرطة في كشف الجرائم.

تابعتُ القراءة، تعرفت بالطبع إلى خط والدي، وتوقيعه أيضاً. وكذلك أن عليه التزام الصمت، وهذا بدا لي مسيئاً لسمعته.

بقيتْ في الأرشيف تقارير متواضعة وغير محددة مع تقييمها من قبل مسؤولي الأمن. نصاً رمادياً عن الحياة.

يتمتع العميل السري ألفونس ترنوفسكي في "بريجاني" حيث يعيش بسمعة طيبة كما أنه يحظى بثقة مرضاه. يملك المؤهلات التي تسمح له بأن يكون عميلاً سريا مقبولاً إذا حظي بالتأهيل الصحيح والمراقبة الجيدة. لقد تقدم حتى الساعة بمعلومات ذات طابع إعلامي، حصلنا عليها من مصادر أخرى. لم نعرف أنه كشف عن علاقته مع عناصر أمن الدولة كما أنه يُعول على استخدام المراسلات في اتصالاته معنا.

يمكننا القول إن العميل السري ذو علاقة إيجابية مع نظامنا الديمقراطي الشعبي. نتوقع استخدامه في حقول واسعة. لقد تم التأكد من مصداقية العميل السري عن طريق الزملاء السربيين: دوشو، زاهرادنيك، نمتس، والموثوق إزاك. العميل السري سوف يتلقى التعليمات والمهمات من المذكورة أسماؤهم، ومن عناصر يتعامل معهم، وهم موضع ثقة أمن الدولة. سيتم التصرف بمسؤولية كبيرة عند إدارة عمل المتعامل السري. المهمات التي سوف يضطلع بها ستُدرس معه وسوف نؤمن له تفسيرات ملائمة تجعله يلتزم بشكل دقيق بمستلزمات التخابر. سوف نعقد اجتماعاتنا مع المتعاون السري بعد كسبه للعمل في مواعيد محددة كل أسبوعين مع تحديد دقيق لوقت الاجتماع.

البديل سوف يتم بعد أسبوع من الموعد الذي حدد سابقاً، ولم يتحقق. في حال إنهاء العلاقة مع العميل السري سوف يتم الاتفاق على إجراء الاتصالات عن طريق الهاتف.

تمت طباعة هذا التقرير في خمس نسخ.

آمر العمليات

الكابتن ر.س. د.دورانتي

الوثائق الموجودة في ذلك الأرشيف تشبه جدار بيت عتيق مهمل تركه أصحابه، وبقي خالياً دون أثاث.

قمت بنسخ التقارير والإخبارات. تمشيت في المعبر وأنا أفكر بزيارة "دوراتني". تذكرت أن إنساناً بهذا الاسم عاش في "بريجاني". رغبت في التحدث إليه كما أردتُ معرفة حقيقة ما حدث. لم أشعر تجاهه بالكراهية، وكل ما في الأمر أني رغبت في زيادة المعرفة، وأنا، في نهاية الأمر، مستعد للدفع إذا طلب مني ذلك.

كبست زر الجرس عدة مرات على الباب في شارع "هفيزديسلاف". لم يفتح أحد، وفي اللحظة التي هممت فيها بالمغادرة، فتحت الباب امرأة عجوز، أخبرتني أن زوجها قد مات في ظروف لا تريد التحدث عنها.

انتظرت أن تسألني إذا كان عليها أن تخبره بشيء.

الفصل الثالث

الخوف من الطيران

1.

أتطلع في دراسة والدي عن لوحة *الخوف من التحليق* من مجموعة رسومات "غويا" عن بيت الأصَمْ. شخصان يشيران وهما يحلقان في الهواء إلى قمة مرتفعة في البعيد مع قصر يحجبه الضباب.

أجلس في سرير والدي ، حيث تظهر الطبيعة من خلف النافذة. الضباب يحجب "فولوفتس". طائرة شراعية تُحلق في السماء وتُغير مسارها برشاقة مع تيارات الهواء.

أشرقت في الصباح شمس الربيع بلونها البرتقالي الخفيف ثم اختفت بعد فترة قصيرة، مطرٌ خفيفٌ في المقبرة جعلني أهرب بسرعة. خصلات ثلج تتساقط بكثافة للحظات، وتذوب بسرعة فوق الأرصفة وفي الحدائق.

قررت القيام بذاك الشيء الذي أحببته وأنا طفل صغير. ركبتاي لم تعودا مرنتين كما في السابق، إنهما تطقطقان في المفصلين، ومع ذلك أتمدد ببطء على الأرض. الجسم القديم يتيبس بغلاظة بعد سنوات. حين يتطلع الإنسان إلى الوراء ويتذكر ما عاشه وما توقف عنه يتحجر من الدهشة — لهذا هي كذلك. أشعر بالذل لأن عليّ بداية الركوع، وبعد ذلك يمكنني أن أتمدد.

ولكن من أجل الوصول إلى ذلك الشعور فإن الأمر يستحق مني هذا الجهد. أتمدد فوق سجادة رطبة أكلها العفن في منتصف غرفة الجلوس وأتطلع باتجاه السقف إلى ذلك العدد الكبير من البقع الرطبة والفسوخ. لقد سقطت هنا الطينة، وتعرّت الطبقات السفلية في أماكن عديدة. أسطوانة صفراء خضراء، ظل شاحب بنفسجي، بقايا أوراق جدران منزوعة...

خريطة واسعة لمنظومة النجوم والقارات الخفية.

"كل ساعة في هذا البيت تشير إلى وقت مختلف...!" هَدَرَ والدي بقرف ورمى على نفسه بسرعة في مدخل البيت اللفحة، والمعطف والقبعة.. الطقس لم يكن بارداً في الخارج ولكنه تعود الخروج بتلك الطريقة التي وجدها نوعاً من الوقار الذي يتناسب مع مهنته. أسرع الخطى باتجاه المستوصف.

كان يؤمن في حينها أني سوف أدرس الطب، وبأني سوف أقرر ذلك بمحض اختياري. وأنا مثله أيضاً كنت مضطراً للإيمان بذلك شئت أم أبيت. لهذا الهدف كان يصطحبني معه بين الفينة والأخرى إلى عيادته كي أراقبه أثناء العمل.

العيادة مفروشة ببساطة — عُلقتْ على الجدران بعض الصور التي قُصت من *المجلات الطبية القديمة*، لوحة لـ كاتياس والتر محفورة على الخشب — مع ملاحظة *حفر باليد*— تُمثل طبيب أطفال يفحص بالسماعة طفلاً منكوش الشعر جالساً على السرير، أو يتحدث، ويبتسم لطفل رضيع تحمله أمه، ويُخفي في الوقت ذاته خلف ظهره المطرقة التي سيستخدمها بالتأكيد في غفلة من الطفل لفحص منعكس الركبة.

يوجد على الطاولة تقرير دون عليه اسم المريض، إضافة إلى بعض المعلومات، وصل للتو من المخبر. *عدد الكريات الحمر: 3.340.000، الكريات البيض: 12.200، الهيموغلوبين: 61٪،.... قسم الميكروبيولوجيا في المركز الصحي الحكومي...، رقم الفحص الطبي... اسم المريض... المادة.... النتيجة...*

لقد تأثرت حقيقة بصور الأشعة التي أحضرتها الممرضة "ناتاليا روشكوفا"، درسها والدي من خلال ضوء النافذة، أو أنه علقها على مساحة زجاجية بيضاء مضاءة من الأسفل.

بدت لي رائعة بشكل يصعب وصفه – ظهرت العظام والأنسجة الطرية، وكأنها قد قُسمتْ بأنامل فنان رسمها بعناية ودقة. لو أني أكسب عيشي من الرسم لكنت رسمت صور الأشعة.

شدني أبي إلى واحدة تُظهر أصابع يد مفتوحة. حملتها وتطلعت إليها من خلال الضوء. وقف خلف ظهري، كان يشرب طحل قهوة حارة جداً من فنجان قديم. قال لي: "الأصابع هي قسم من امتداد الروح. إنها معجزة. إنها أول ما ننتبه له عند المرأة.

وضع الفنجان على الطاولة وأخذ الصورة الشعاعية من يدي.

"وأنا أيضاً أتطلع فيها دائماً، معجزة، كيف تعمل! النظر في اليدين يعني أنك على اتصال مباشر مع نفسك. حين أشعر بالتوتر أو أشكُ في شيء، أتطلع في يدي."

تطلعنا بصمت إلى مكان اتصال العظام الطويلة والصغيرة الموجودة في راحة اليد. بدت سلاميات الأصابع الأربعة زائحة قليلاً مقارنة مع أقسامها العليا، شكلت المساحات الصغيرة حولها مجموعة كواكب غير متناسقة. بهرني ذلك المنظر.

"ما هذا؟"

"ماذا يمكنها أن تكون... أصابع مكسورة، أداشكو."

عرفت أنه يريد إشعال لفافة تبغ. لم يُدخن أمامي على الإطلاق. حركاته العصبية، وتلمس جيوبه غير الإرادي بحثاً عن علبة كبريت يشير إلى رغبته، وهذا ما أعرفه جيداً.

"ما الذي حدث له؟" سألته.

لمحت اسم *"بوشكار"* في زاوية الصورة. لم يكن مقروءاً بشكل جيد. كنت أتصور على الدوام أنهم في الطب يهتمون في قسم كبير من دراستهم

بتشويه خطهم إلى حدود الشخبطة — وبعد ذلك يتعلم الطلاب فك تلك الرموز. عليهم أن يُعلموا دارسي الصيدلة كيفية فهم الوصفة. إنهم يعتبرون الأبجدية السرية ضرورية كي لا يفهمها المريض ومن ثم لا تتسبب في إزعاجه — الأشياء الضرورية في التقرير الطبي تُكتب على الآلة الكاتبة. وعلى الرغم من أن الناس لا يفهمون لغة الطب إلا أني كنت أعرف فك كتابة والدي بشكل جيد.

"عن ماذا سألت؟"

"سألت، كيف حدث له ذلك؟"

"قال... هناك أثناء التحقيق فعلوا ذلك. حين أراد تناول شيء من الجرار. هذا يحدث. أظن أنه رفض الكلام أو من يدري..."

ارتبك أبي، وبدأ بالبحث عن صورة شعاعية أخرى. أخذها وعلقها على الحبل الذي كان موجوداً فوق طاولة المكتب، بدا شارد الذهن. لا أعرف السبب، ربما أعجبته. جلست وجعلت أراقبه.

في مقابل الضوء وعلى خلفية زرقاء شاحبة وحتى سوداء لظلال النافذة المضاءة — بين تلك الأضلاع، والجماجم والأكتاف والأحواض والعواميد الفقرية جميعها — بدا والدي شبيهاً بالرب في أرشيفه الممتلىء بأشكال البشر.

"النور هنا ضعيف. أشعل المصباح من فضلك!

نعم، لقد ذكرني بالرب. كأنه يقرأ أفكاري، استدار، رأيت من خلفه جميع تلك الصور الميتة:

"قال لي أحدهم مرة: الرب يرى كل شيء ولا توجد لديه خيارات أخرى، لا يمكنه أن يتطلع إلى مكان آخر، أو يدير ظهره للبشر — إنه الرب الذي يرى كل شيء! قلت له: إنه أمر في غاية الصعوبة، ولا بد أنه سيصاب بألم في عينيه!"

كشر.

"ماذا تحضر لنا الماما على الغداء.

كما سبق وذكرت، الناس يخلطون بيني وبين والدي، وبالتحديد حين أصبحت أكبر سناً. لم يكن الأمر بسبب الشبه في الشكل (مع أن الشبه كبير بيننا) ولكن أيضاً لأنهم يعرفون بأني *لست السيد الطبيب ترنوفسكي*، ولكن كما لو أن مهنته انتقلت بطريقة ما إليّ. شيء من رائحة اليود وبريق السماعة التصق بي بقوة.

وهذا الأمر جعل سكان "بريجاني" يستشيروني في أمورهم الصحية. بداية أخذت الموضوع على أنه مجرد صدفة، أو مجرد محادثة، أو عُرف يأتي مباشرة بعد الحديث عن الطقس، ولكني تأكدت بعد مرور الوقت أنهم حقيقة ينتظرون نصيحتي. بالطبع، لم أسمح بذلك، ولأني لست خبيراً، ووالدي يعرف عن الموضوع أكثر مني بالتأكيد، وما شابه – لكنهم لم ينصتوا إلى كلامي، وقالوا ما عندهم. فتوجب عليّ في نهاية الأمر أن أنصحهم، وأصف لهم الأدوية (لأني كما يقولون تعلمت الكثير بالقرب منه) وأحدد التشخيص التقريبي، أو أرسلهم لإجراء فحص طبي دقيق.

مددتُ يدي مرة برغبة كبيرة إلى حقيبة السيد "ملانك" حيث توجد بعض الأدوية التي قمت بالتعليق عليها – تمكنت في إحدى الحالات من نصحه بدواء مختلف.

هزت المعسكر الاشتراكي في عام 1956 (الذي كنت أتخيله على الدوام كمجموعة من البدو السعداء في عباءاتهم على طريق صحراوي) عاصفة رملية قوية. تلقينا عن كل شيء حفنة قليلة من المعلومات، مجرد إخبارات بما معناه. أنه بداية تفجرت في بولونيا *الاحتجاجات والإضرابات بتأثير الدعاية الكاذبة الغربية*، وجاءت بعد ذلك *الثورة المضادة في المجر، ومن ثم هجوم القوى المعادية على الدولة الديمقراطية الشعبية الفتية حيث قاموا بإعدام الشيوعيين المخلصين على عواميد إنارة الشوارع*. وما شابه.

عرفنا في وقت لاحق أن الدبابات السوفيتية دمرت أحياء بكاملها في بودابست مما تسبب في موت أكثر من ستة آلاف إنسان. شعور غريب

– قبل أحد عشر عاماً، جنود هذا الجيش أنفسهم تم الترحيب بهم بوصفهم محررين، الآن بوصفهم محتلين. مأثرة تاريخية.

صدر بعد مدة قصيرة كتاب *لعبة الموت*. أحضره أخي "بتر" وكان غاضباً في إحدى زياراته النادرة ونسيه عندنا. قرأت منه مع "تينا" على ضوء ثلاجة والدتي الجديدة أثناء وليمتنا المسائية.

2

أبي كان سيفرح لو أني بدأت دراسة الطب. ولكن *القدر المخبأ خلف ستارة الحقيقة* (كما عبر عنه الكبير كلاوديوس كولار في إحدى قصائده)، كان يُجهز لي طريقاً آخر. كل شيء بدأ ببراءة.

سافرت إلى براتيسلافا كي أتسلم دفتر الخدمة الإجبارية الذي جهزوه لي أخيراً في قيادة الجيش. ترجاني والد "فويتا" كي آخذ معي كدسة صور مختلفة من أيام الانتفاضة. أخرجتها في القطار من المغلف غير المغلق – الرجال في "أوفراول" الطيران أثناء تحطم "غوستاك"، مجموعة مع سلاحهم في حديث ودي مع رئيس الكهنة، والد "فويتا" يلعب بفرح مع كلبه، ثنائي غير واضح المعالم أمام فندق الرياضة في "دونفالي"، مدرج المطار مع بضع طائرات. كان عليّ الذهاب في تلك الرحلة إلى مبنى الإذاعة الموجود في شارع "زوخ"، والبحث عن زميل له في الحرب، الملازم الطيار المتقاعد "يولكو مازانتس" وتسليمه المُغلف.

كنت أرى على الدوام في براتيسلافا مدينة هائلة ومعقدة، مدينة كبيرة بامتياز مع كل ما فيها من مغريات، وأفخاخ. شعرت بالإثارة من الأولى والثانية أثناء ضياعي في شارع اليهود، وبعد ذلك بالقرب من النفق الكهربائي تحت "زامتسكا". بدأ تشرين الثاني. علقت على مبنى الإذاعة الكلاسيكي الجديد يافطة كبيرة تشير إلى الصداقة الدائمة مع الاتحاد السوفيتي. انتظرني "مازانتس" عند البواب، وأشعرني أنه متوتر. دس المغلف بسرعة في جيبه دون أن يتطلع إلى الصور ثم أمسكني من كتفي.

"هل تعرف قيادة السيارة، أيها الشاب؟

أومأت برأسي.

"تعال معي!"

رافقني إلى أحد الطوابق العلوية حيث عرّفني هناك على مساعد الإنتاج "لودوف" صاحب الوجه الأحمر، الذي كان يبلع في تلك اللحظة حبوباً مهدئة مثل "اللنتلكا".[61]

أمضيت ليلتي في إحدى بيوت الإيواء في مكان ما من حي "كارلوفي فسي" حيث تعرفت لأول مرة في حياتي على صرصور حي — الصراصير الميتة والمُشرحة بعناية كنت قد أُعجبتُ بها في مجموعة الدكتور أطلس، من يدري أين هي الآن — قرأت في الصباح مقالة حماسية:

هذا المساء سيكون رائعاً بالنسبة إلى مواطني سلوفاكيا. ستتمكن طبقتنا العاملة من اليوم متابعة البرامج الثقافية والرياضية على شاشات التلفاز من بلادنا ومن جميع أرجاء العالم. إننا نجهز أنفسنا لتلك اللحظات منذ أمد بعيد. سيتم تركيب لواقط الإشارة التلفزيونية الموجودة على سطوح البيوت ومراقبتها من جديد. لقد انتشرت تلك اللواقط في براتيسلافا مثل الفطر بعد هطول المطر. وإذا لم يتم تركيبها فإن الهواة يُصنّعون لواقط إشارة مؤقتة وكل ذلك كي لا تفوتهم فرصة مشاهدة أول برنامج. يُمكن رؤية شعار التلفزيون التشيكوسلوفاكي منذ عدة أيام على شاشات التلفاز.

منحني مركز البريد براتيسلافا 3 *في النهاية موافقة على تركيب محطات التلفاز واستخدامها*. دونوا في الموافقة: *يُسمح لـ آدم ترنوفسكي تركيب محطة التلفاز واستخدامها حسب التعليمات المُطبقة على رسم استخدام الراديو وحسب التعليمات الواردة في الاستخدام.*

كنت أتابعُ كل يوم بعد العمل في المقهى الصغير الموجود في شارع "رادلنغ" حركة المارة في الخارج. شوارع من هذا النوع ، لم تكن موجودة

---

[61] لنتلكا: نوع من السكاكر الصغيرة المحشوة بالشوكولا

في بريجاني. بخطوات بطيئة وصلت الحافلة الكهربائية التي لم يلحق بها السيد صاحب القبعة. زمّرت له السيارة كما ارتعب الكلب الذي كان يتبول في الزاوية وولى هارباً. وبالكاد تجنب السيارة التالية والباص المبروم الذي جعل يهدر على الموقف. زادت أعداد السيارات.

حين أوقفت سيارتي الجديدة "سبارتاك" الزرقاء بالقرب من سياج البيت في "بريجاني" للمرة الأولى، هرعت العائلة بأكملها لتتفرج عليها. أبي جعل ينقر كخبير على الهيكل، انتظرت سحبه للسماعة والإصغاء إلى صوت المحرك، ولكنه لم يفعل.

انتبهتُ حين دخلت إلى البيت أن السكون الذي كان يُخيم في البداية، وفي وقت لاحق صوت الراديو المُهذب، تبدل في صورة التلفاز الذي تمكن من السيطرة على أجواء البيت بشكل حاسم.

اقتنى والدي بكل فخر ثانيٍ تلفاز في "بريجاني" مما ترتب عليه أن أكثر من واحد وعشرين شخصاً تابعوا النقل الحي للبرنامج الرياضي في صالون منزلنا المعبأ بدخان السجائر. وثلاثة أطفال ينامون على الصوفا في غرفتي، دون حساب عدد الذين ناموا في سريري السابق.

شعر والدي بالتأكيد بالسعادة لأن هذا الشيء حقق حلمه، على الأقل بشكل جزئي، في بيت كريم حيث نعيش جميعاً كعائلة واحدة. فكان يدور حولهم بوقار وهو يبتسم.

المُعلق الرياضي "كارل ميكيسكا" يُعلقُ بحماس كبير على أحد مشاهد الرقص على الجليد: "هي في الأزرق الخوخي، وهو في الأخضر الآسي..."الشاشة البيضاء- السوداء تشع بالفرح، وهذا يجعلكم بحاجة إلى وجبة من الخيال الواسع. "ميكيسكا" سَهَلَ عليكم الأمر بشكل جيد. وإلى أن تتمكنوا من البحث في المعجم اللغوي عن معنى كلمة "الآسي - برتشال بالسلوفاكية"، وأي نوع من الألوان، للشيطان، يكون، ستضيعون على أنفسكم رؤية بداية البرنامج.

بقي بيننا وبين أعياد الميلاد فترة قصيرة (إنها تترافق مع عيد اسمي الذي لم ينتبه إليه أحد)، رائحة الفطائر تنتشر في كل مكان. بالإضافة إلى أبي، وأمي، تينا، وبتر وأنا، تسكعت بيننا العمة "تونيتشكا" المنهكة قليلاً اجتماعياً من تصنيع مربى الكرز، والعم "رودو "مع زوجته — العمة "يولكا" التي نادراً ما كنا نراها وكأنه يُخفيها في اللحظات الأخرى داخل الدولاب كما هو حال معاطف الفرو مع النفتالين. بهذا الشكل كان منظرها. أيضاً ابن عمي "فيليب".

كنت أعرف منذ الصباح ما سيحدث كل دقيقة . لقد تكرر الحديث عن ذلك طوال السنة. بداية تسقط الشجرة، لأن القاعدة غير ثابته، وسيروي "بتر" النكتة ذاتها التي لن أقوم بتكرارها لأنها غبية جداً. أمي تقول يا ربي! — أبي يقول:- حمداً للرب! — أو العكس أحياناً:- علينا في المرة القادمة شراء شجرة جديدة! — يبدأ شجار في الحال بسبب كرات عيد الميلاد — حبيبات الثلج "كونترا" مقابل الأسماك البراقة. ينتهي الأمر بالتعادل. يجلبُ أبي المجموعة الثالثة من الزينة من القبو. تلتهم "إيكيبانا" رقم أربعة ورق السكاكر الذهبي، ثم تتقيؤه في المطبخ. "بتر" يقتل بعد تردد طويل سمكة الشبوط ويقول إن لا أحد يمكنه في السنة التالية إجباره على فعل ذلك - كان رقيق القلب، وبوصفه كبيرنا كانوا يولونه على الدوام أسوأ كومة من المهمات: سلطة البطاطا ستكون أفضل هذه السنة من السنة الماضية، تؤكد "تينا" التي قامت بتحضيرها.

أمي ترفض قلي السمكة، ولكننا ندفعها إلى ذلك، تتذرع بألم في الرأس، والمفاصل إلى أن تنطلق في النهاية. الجميع يشعرون بالتوتر لأننا نشاهد جيراننا، من خلال النافذة، وجميع من حولنا قد باشروا في تناول طعام العشاء. العمة "تونيتشكا" يُغمى عليها. والدي يعزو ذلك إلى الجوع، ولهذا ينقلها لتستلقي على الأريكة في منفردته حيث يمكنها هناك استحضار الخنزير الذهبي براحة.

بعد ساعة ينتهي إعداد الطعام. والدي يحاول جاهداً تذكر الدعاء الذي يُقال حين يرمون الجوزات الأربعة في الزوايا، لكنه يتعثر في النهاية. وهذا يجلب السعادة للعم "رودو". أما العمة "يولكا" فتبكي في الحال، وهو ما يُفسره أبي على أنه نوع من فرط العاطفة.

تحصل بعد العسل والبسكويت حالة يصعبُ إيجاد حل لها لأن نصف الحضور يريدون فتح الهدايا قبل العشاء والنصف الآخر بعده. ينتصر الاحتمال الأخير. "تينا" تبكي، ووالدي يقول من خيبتها. البسكويت المغطى بالعسل يأتي كوجبة ثالثة.

نتحرك باتجاه الطاولة التي يرتاح عليها غطاء "الدامسكو" الأبيض. كل منا له بالقرب من صحنه قدح "سليفوفتسا أو تشرشنوفتسا".[62] صغير. نتبادل الأنخاب أثناء تناول الحساء ونشرب. كأس النبيذ مملوءاً حتى منتصفه. نتجادل أثناء تناول "كابوسنتسا".[63] إذا كانت جيدة، أو لم تكن جيدة مثل العام السابق. يسبح إلينا بعد ذلك سمك الشبوط مع سلطة البطاطا. أحدنا "يُحسك" وهذا الشيء يُصيب الجميع بالتناوب. أما الفطائر المغمسة بالعسل فتأتي كتحلية في النهاية.

يُسمع بعد ذلك حفيف ورق الهدايا. تُسلمنا العمة "تونيتشكا" الهدايا القديمة التي كنا قد أهديناها لها بمناسبة عيد ميلادها. العم "رودو" يقول إنها دورة عادية للهدايا في الطبيعة.

نشربُ بعد ذلك النبيذ الساخن المسمى "كرامبامبولا" في الفناء المُغطى بالثلج حيث نراقب النجوم ونتمنى أشياء متعددة. أبي يشكو من زيادة الطنين. يسمعُ صفيراً في أذنيه وبعدها يتوقف عن سماع أي شيء. يفتح فمه مثل السمكة، ويهوي رأسه في محاولة منه للتخلص من الطنين ونحن في طريقنا إلى داخل البيت. يظنُّ أكثر من ذلك أن أحدهم يرن جرس الباب.

---

[62] سليفوفتسا: شراب مقطر من الخوخ، تشرشنوفتسي : من الكرز

[63] كابوسنتسا: طعام تقليدي في أمسية عيد الميلاد من الملفوف المطبوخ مع اللحم والمرق

يحضر "بوشكار" لتهنئتنا بالعيد. و"بتر" يذهب ليفتح الباب ثم يدعوه إلى الداخل.

لقد تعب من طول انتظاره "ليلي" ويمكن القول إنه فقد الأمل. فقرر أخيراً محاولة نسيانها. الأمر ليس بتلك السهولة.

وهكذا فإنه يحاول جاهداً في كلماته، وباللاوعي حذف أول حرف من اسمها ل. فيبدو الأمر وكأنه مصاب بعسر في النطق — البديل عادة هو حرف "أو"

"أتمنى لكم عيداً سعيداً...! يصرخ وهو يدخل إلى الصالون. حين تسأله والدتي عما حدث له، يقول دون طول تفكير إنه عض لسانه.

يحاول نسيان "ليلي" ولكنه في نسيانه لها يتذكرها طوال الوقت. وهذا ليس بالأمر الغريب — إنها علاقته الوحيدة والطويلة المفعمة بالعواطف مع امرأة في حياته.

"بعض الناس لا يعرفون ماذا يريدون — وبعد ذلك يريدون معرفة ما لا يعرفونه"، يُعلق العم "رودو".

3

أتذكر بعض الأشياء من سنواتي الأولى في براتيسلافا.

أتذكر أول اجتماع عمل شاركت فيه في التلفاز، طرح أحد المشاركين أثناء النقاش سؤالاً مستعجلاً:

"هل يُمكن للحيوانات في أفلام الحكايات التلفزيونية المتحركة (الكرتون) أن تبتسم إذا لم يكن ذلك يتناسب مع المعارف العلمية؟"

انقسم المشاركون بعد النقاش الحامي الذي جاء بعد طرح السؤال إلى معسكرين، جاء وقت الاستراحة التي اختفيت أثنائها دون إحداث ضجيج. كانوا يعرضون ويتابعون في صالة العرض المجاورة بعد عدة أبواب فيلماً وثائقياً عن الهندسة المعمارية السوفيتية الجديدة.

عرضوا أحد البيوت مع جدرانه المتحركة. إنه مناسب، والسكان الجدد يُمكنهم إنشاء غرف في المساحة التي يريدونها، أو تبديل مساحات

الغرف بما يتناسب مع رغبتهم. لا يوجد مطبخ بل هناك مكان يتسع لـ "ساموفار" (سماور) صغير. الرفاق العصريون يتناولون الطعام في القسم الأرضي من البناء داخل مطبخ مشترك. والمرأة الاشتراكية الجديدة سوف تتخلص من مشقة الطبخ.

"إنني أشعر بالفضول" علقت سوزانا على ذلك حين تهاتفنا.

حين أتطلع إلى الوراء، أرى مجموعة من المخططات والأحلام، ولكني أنتهي على الدوام عند الشيء ذاته. لقد اعتبروني في نهاية الأمر قديساً خبيراً. فقد صوّرتُ أفلاماً تلفزيونية عن الزيارات الحكومية والحزبية لدول المعسكر الاشتراكي الشقيقة . إنها تعرض أمام عيني.

رئيس الوزراء الأثيوبي الشيوعي العقيد منغستو هالي مريم يخرج من الطائرة البيضاء الجميلة مع مرافقيه حيث تنتظره وترحب به على السجادة الحمراء ثلة من ممثلي الحزب والدولة، وهاهم، وكأنهم تحت الطلب، فتيات الطلائع في لباسهم الموحد يقدمون له باقة من القرنفل الأحمر.

الرئيس أنطونين نوفوتني يتفقد باهتمام صادق معمل كابلات "كابلو" براتيسلافا، الرفيقات يتناقشن في أحد الأنشطة مع عمال تم انتقاؤهم بشكل دقيق وهن يشاركن في اجتماع اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السلوفاكي.

أول رائدة فضاء سوفيتية فالنتينا تيرشكوفا تخطب من شرفة المسرح السلوفاكي الوطني، ومن تحتها تغص الساحة بالناس، "رأس على رأس"[64]، الناس يلوحون بالأعلام الحمراء الصغيرة والورود. عُلق من خلفها، علمان على الشرفة — علمنا والعلم السوفيتي. تنتهي خطب مسؤولي الدولة، فيغادرون بعد الانتهاء في سيارات الليموزين الحكومية اللميعة: تاترا 603" و بسيارة "تشايكا" العملاقة باتجاه معامل م د ج حيث تتناقش الرفيقة تيرشكوفا بحيوية مع العاملات اللواتي يقدمن لها باقة من زهور "الجربر".

---

[64] راس على راس : تعبير عن الازدحام الهائل

احتلت هيئة تحرير البرامج التلفزيونية المبنى السابق لبنك تاترا في ساحة الانتفاضة السلوفاكية "إس إن ب" في حين كان قسم قص أشرطة التصوير في البناء السابق المتهالك لسوق المدينة على بعد بناء واحد من الهيئة. غالباً ما كنت أقص الأشرطة في الليل، بعد ها نجمع أنفسنا مع منفذ القص في إحدى اللحظات ونذهب لنشرب شيئاً في "كريستا بار" أو في حانة "مالي فرانتيشكاني" حيث نبقى هناك حتى مطلع الفجر.

تعرفت على "الماسكير" خبير التنكر "أرنوشت" من استديوهات براندوف في براغ منذ بداية عملي – ترجاني "لودوف" أن أطلعه على استوديوهاتنا ولهذا فإني رافقته طوال اليوم في براتيسلافا وأصبحنا أصدقاء.

كنت دائماً أتوقف عنده أثناء سفرات عملي إلى براغ. أتذكر قبل كل شيء عام 1969 الشهير وسنوات أخرى شهيرة. حين قمت بزيارته أول مرة كان يعمل على شيء. هذا الشيء كان شبيهاً بأنبوب من الطين ينتهي بأصابع.

"أنت – ماذا تقول في هذا؟"

"غولم[65]؟ قلت.

"لم تحزر. إنها يد "غوتوالد"[66]، يا صديقي!"

"لأي فيلم تجهزه؟"

"لا، حقيقية."

شرح لي أرنوشت أنهم قاموا في عام ثلاثة وخمسين بتحنيط غوتوالد كما فعلوا مع لينين وستالين، وعرضوه في مركز الذاكرة الوطنية الموجود في "فيتكوف". فاكتشفوا بعد مدة أنهم لم ينجحوا في التحنيط . الساقان واليدان والجسد بدؤوا بالتفسخ، ولهذا كان على خبراء استديوهات الأفلام في براندوف تأمين البديل.

"آدام... إنه أمر في منتهى السرية، لا تخبر أحداً به. أرجوك!"

---

[65] غولم : حسب الروايات اليهودية السحرية هو الإنسان المخلوق من الطين

[66] كلمنت غوتوالد : أول رئيس جمهورية شيوعي تشيكي

عرضوا جثة غوتوالد لغاية عام 1962، ضعف بعد ذلك اهتمامهم بها لذا أوقفوا تلك المسرحية، وقاموا بحرق الجثة.

4

قبل وقت قصير من موت أبي، بضعة أشهر قبل حادثة الحديقة حين وقعت جميع كتبه ضحية للنار، لحظات قبل الفصل الأخير المترافق مع التهاب الرئة ونهاية رقص جراثيم "الستربتوكوك"، أصبحت أمي عجوزاً، محنية الظهر وذابلة.

ولكني أتذكر أحد الأيام، وفي أحسن الأحوال يومين حين كانت صبية، وجميلة. أتذكر ذلك، إضافة إلى مشاهد، تمكنت بالصدفة من تصويرها قبل وضعها الفوطة على رأسها أو حين غطته بالستارة كي لا تُظهر جمالها البالغ.

في إحداها، ترفع رأسها لتعرض وجهها للشمس. لعب الهواء بشعرها وأسدله على عينيها. ظهر النمش في تلك الأثناء على وجه أمي. وبقي معها حتى وفاتها، ولكن عليكم أن تبحثوا عنه.

غالباً ما قال أبي إن لها أصابع خضراء. ما تُمسكه بيدها يزهر.

أتذكر زهرة "الكوتسنكرات" على النوافذ، كانت تفوح برائحة طيبة، ولكن توجب عليها أخذ الحذر حين تضعها للحظة في الحديقة. "إيكيبينا" (القطة) أو زميلاتها يقطعنها أو يلتهمنها. أمي كانت تُحضر الشاي من جذورها لتهدئة الأعصاب.

تعوّدتْ دائماً القيام بشيء غير متوقع، أبي كان يُعلق قائلاً إن في داخلها شخصين، أو ثلاثة أشخاص دون أن يعرف أحدهم بوجود الآخر. بدا لي كلامه دقيقاً جداً، وحقيقة أن ذلك غير مذكور في تلك الملاحظات فهذا يعود إلى ظهورها مثل ملاك، لا أقول، طيباً أو سيئاً. ولكن كائناً ما يوجد في خلفيتها، ولكن ليس واضحاً أين. أظن هذا.

هذا الشيء ينطبق على وجبات الغداء في الآحاد التي جمعت عائلتنا مع بعضها مثلما يحدث في شبكة احتفالات الأسماء وأعياد ميلاد

أحدهم، والأعياد الصغيرة خلال العام . طقس اجتماعي ترأسه الوالد وجمعنا كل أسبوع. الدوران المتكرر والمنتظم ضمن دائرة يعتبر عند سكان المناطق المعتدلة حركة سير طبيعية. سكنت أكثر من سنة في براتيسلافا ولكن هذا البيت ارتبط معي بحبل سرة، وعاء دموي ضروري حافظ على سير وظائف جسدي.

انظروا، أمي تبتسم بصمت حين تعبر الصالون وتجلس دون أن تنبس بكلمة! جميعنا موجودون، ووالدي في تلك الأثناء يخبرنا عن حادثة، وهو يتناول قطعة الحلوى، ويتسلى بها وحده.

"أرمين" عنده ذلك الكلب الفظ، "كشتان". حين جئت إليه، فتح لي الباب وكانت الصبية "سارا سلبرستاين" موجودة في غرفة الجلوس. فجلست بالقرب منها على الكنبة. كانت ترمي الكرة لـ كشتان. أتذكر تلك الحرارة الشديدة، النافذة تركوها مشرعة. حين رمت الكرة، أحضرها الكلب لها وجلس منتظراً بين ساقيها. رمتها من جديد. ارتدت الكرة عن الحائط — وسقطت في الخارج. فقفز كشتان وراءها. سكن أرمين في الطابق الثالث. وبسرعة أغلقت النافذة وسلمت "أرمين ذلك الشيء الذي أحضرته له ، ولم أعد أعرف ماذا كان، وخرجت مسرعاً.

أعرف أنهما كانا مسرعين، ويقال إن "أرمين" سأل وهما على الدرج.— *ألم تري كاشتان؟ – لا أعرف*. ردت عليه سارا."

"أظن أن الأمر لم يكن على هذا الشكل، ولكن حسناً" قال العم "رودو" بفمه الممتلئ بالطعام.

"يضطر الإنسان أحياناً أن يختلق الأشياء كي تبدو له حياته مسلية، أليس كذلك؟"

رن جرس الهاتف. تحرك والدي باتجاهه ورفع السماعة.

"لك تحية من صديقك "يانو"، إنه يطلب منك أن تكتب له وصفة "لومينال". لا يمكنه المجيء لأنه مضطر للسفر."

"شكراً على التحية، يمكنني أن أكون هناك خلال عشرين دقيقة."

أغلق السماعة.

"حادث طارئ،" قال واتجه نحو المنفردة لأخذ الحقيبة الطبية التي وضع فيها على عجل السماعة، والحقنة الشرجية. لبس معطفه، وتطلع إلى الصالون.

"تسلوا كما يحلو لكم بهدوء، سأعود بعد ساعة."

لم أعد أفكر في الأمر، ولكني أعرف اليوم أنه انتقل بالشفروليه إلى خارج البلدة ثم انعطف باتجاه طريق زراعي موحل أوصله إلى معمل الخفان الفارغ الذي احتلته الأعشاب ثم قاد السيارة بعد ذلك باتجاه البحيرة الضحلة، إلى المكان الذي تعلمت فيه السباحة فيما مضى.

هناك كانوا بانتظاره في سيارة "فولها" التابعة للوظيفة.

5

فحص "إيغور" العظام لمدة أسبوع– أسبوعين في مكان ما من مخبره، بدا فرحاً من هذا العمل. جاءني بعد ذلك في أحد الأيام وقال لي ما اكتشفه.

شربنا النبيذ في بيتي، وهو تحدث. قائلاً، إن الأقسام الطرية من الجسم في القبور العادية تختفي عادة خلال عشر سنوات. التربة الموجودة حول البيت في بريجاني خليط من "الهوموس"[67] و الرمل الناعم، ومن ثم لا تبقى الأنسجة الطرية لفترة طويلة، ولكن ليس لفترة قليلة أيضاً.

التغيرات التي تطرأ على العظام سببها ضياع المياه، والدهون والمواد العضوية — العظام تُصبح أخف وزناً وتكسب لوناً زعفرانياً غامقاً — ويمكن أن يكون ملقحاً بحمض الحديد أو الكبريت. تحلل العظام يحدث بعد عشرات السنين، وهذا الهيكل العظمي بالتأكيد أقدم. بحسب درجة التجفاف ، والكمية القليلة من الدهون وغياب أي غضروف. يمكنني القول إنه موجود في الأرض من خمس وعشرين وحتى خمسين سنة، وليس أكثر.

---

[67] هوموس: تربة مصنوعة من فضلات الطعام ومن النفايات البيولوجية داخل حفرة. يستخدم كسماد للأرض

ولا يعرفْ في هذا المجال أكثر من ذلك. أراني صورة الجمجمة، وأشار بحماس إلى أثر جذور النباتات التي نمت على سطحها.

من بقية الثياب لا يمكننا معرفة الكثير لأنه لم يبق منها شي يُذكر — القطن و الكتان يتحللان بعد خمس سنوات، والصوف بعد عشر، الحرير بعد عشرين، ولكن الأزرار يمكنها أن تحدد التاريخ بشكل أفضل. كان سيساعدنا وجود خاتم أو أي أداة تعريف بالاسم.

"في جميع الأحوال إنها امرأة،" قال باهتمام، وهذا جعلني أستغرب لأني لم أفكر في ذلك. لم يخطر ببالي على الإطلاق أن أسأل عن جنس ذلك الهيكل العظمي لأني توقعت بشكل أوتوماتيكي أنه ذكري. "إيغور" أوقفَ نَفَسي.

مع أن — حين أفكر في الأمر- كلمة هيكل عظمي هي مؤنث (بالسلوفاكية)

بينما كنت أحلل الأشياء في رأسي — وأخلطها تحت تأثير النبيذ الذي سكبت منه أكثر من العادة، مما ساهم بشكل جيد في تعطيل مسيرة التفكير — شرح لي "إيغور" أن الجنس يمكن تحديده عن طريق بعض العلامات الموجودة على الجمجمة، مثل الشكل القوسي للجبهة، مكان ارتكاز العضلات، نتوء القحف ومقاسه العام. بعد ذلك بمساعدة عظام الفخذ التي تكون عادة أرفع، وأقصر عند النساء، ولكن قبل شيء حسب المظهر الجانبي لمدخل الحوض الذي يكون عادة عند الرجال على شكل القلب في حين أنه عند النساء يكون على شكل القطع الناقص.

أما فيما يتعلق بالعمر — أكثر العلامات يمكن رؤيتها من جديد على الجمجمة — فالتبدلات حتى سن الثلاثين لا تكون صريحة. تتغير في الشيخوخة مكونات العظم، ويتغير أيضاً مكان الفك السفلي، بعد الخمسين تلتصق بعض درزات الجمجمة، ولكن لا يمكن الاعتماد على تلك العلامة. إذاً يمكن القول إن تلك المرأة قد تجاوزت الثلاثين ويمكن الجزم بأنها تحت الستين. غير ذلك لا نعرف.

ما نعرفه، وهو واضح — توجد على الجمجمة آثار ضربة بآلة غير حادة، وربما يكون ذلك سبب الوفاة. أطلعني على صورة توضيحية — شرح بأن العظام المصابة في لحظة الموت تكون نهاياتها حادة، وحواف الكسر لها لون بقية أقسام العظم نفسه.

"جريمة؟" سألته.

"في الحروب كل شيء جريمة،" أجابني "إيغور" بابتسامة مختصرة وهو يأخذ رشفة نبيذ. ولكنه أضاف: إنها ليست قديمة.

ودعني وقال إن العظام يتم الاحتفاظ بها في قسم الجرائم على كل حال. أعتقد أنه من الصعب معرفة الجاني، ولكن من يدري. تماماً كما هوحال هوية صاحبة الهيكل العظمي. قال بصوت منخفض، بأنه سوف يدرس بيانات أسماء المفقودين القدامى حين سيجد الوقت الكافي لأنه مشغول جداً في هذه الأيام. وغادر.

لغز.

وعلى الرغم من أن الإحصائيات المحببة تشير إلى أننا نقتل المُقربين إلينا في أغلب الأحيان، وبالدرجة الأولى الأقرباء، إلا أني نفيت تلك النظرية الأولى. إذا — تبقى أمامي نساء العالم بأكمله. رائع!

6

يُمكن من ألبوم صورنا ملاحظة تقدم سن الجميع بالتدريج. وهذا أمر واضح في كل مجموعة صور عائلية إذا قام الشخص بقراءة صحيحة للتواريخ. والدي كان يتمتع بجمع صور الماضي كثيراً.

تَم في إحدى الصور قص رأس عمي "كارول"، ولُصق في مكانه وجه مستعار لجدي "ألبرت" الذي يشع ضوءاً مباشرة في الأعلى. مجعوكة، وجافة كما يحدث عادة في شيء يستعمل بكثرة.

حين أتطلع بعناية إلى غيرها — الإنسان يبحث عادة عن وجوه معارفه بين مئات الصور، ولكنه يرى في النهاية الصورة المُخزّنة في ذاكرته — أتفاجأ بشيء، ولكنني أعتبر ذلك محض صدفة. تلك المرأة

التي تقف في الصورة المشتركة أمام محل "بوشكار" للحلويات من نهاية الثلاثينات مع والدي في بزته البيضاء ومعي في ثياب البحارة، رأيتها منذ البداية، ولم أولِها على الأغلب ما تستحقه من اهتمام. تماماً كما حدث مع الصورة التي يقف فيها والدي أمام عيادته حيث ينتعش الطريق الصاخب من خلفه، كما أنها تظهر أيضاً على الصور الثلاثة التالية بشكل لا يلفت النظر. استخدمُ المُكبر لأراها.

أتعرفُ إليها بالرغم من كبر سنها وعلى وجهها الذي يحمل آثار الزمن.

"كلاوديا هورفاتوفا"، سكنت في بريجاني، ولا يوجد في ذلك ما يبعث على الاستغراب. ولكن مع ذلك... إنها موجودة على عشرات الصور في ألبومنا العائلي، وبالصدفة خلف ظهر أبي. تبدو في إحدى الصور كأنها تنمو من رأسه مباشرة!

كلاوديا. اسمها يُذكر بالغيمة بالإنكليزية. دائماً يُذكرني بها.

عرفتها بشكل أفضل من تقرير متابعة العميل "لومينال" الموجود عندي بين ملفات والدي. التقيا في سنوات 1954 ولغاية 1964 مرتين في الأسبوع تقريباً، وغالباً في بيتها الموجود في شارع "فوروشيلوفوفا 25" حسب تأكيد ت س "ساماريتان"، الذي يسكن في الشقة المقابلة، الأمر يتلخص بـ"علاقة جنسية". خَفّتْ اللقاءات في وقت لاحق، ولكنها لم تنقطع بشكل كامل.

رغبتُ في معرفة ما حل بها. كان عليّ العثور على "ساماراتيان".

7

يصعب تصديق امتلاكنا لحديقة خضار خلف البيت في المكان الذي كانت فيه شبه غابة وعرة. ولكن الصور الموجودة هنا تؤكد ذلك من جديد. نشاهد في بعضها أرضاً مفلوحة، فارغة ونائمة، وفي صور أخرى كل شيء يُزهر، بيتٌ زجاجي ينتصب بالقرب من الأزهار. اثنان "إكباني" يتسكعان بالقرب من الرصيف، على الأرجح رقم أربعة وخمسة برفقة "بولينو"، لاأدري أي رقم. تقرصُ أنفي رائحة الشمرة، والمايورانكا، وزهرة الزيزفزن في الحال.

كنا حين يزهر الكرز، والتفاح والخوخ نقف في الليل في الحديقة لنراقب العناقيد المسكونة بالأزهار، ونتنشق تلك الرائحة القوية. لحظات ساحرة.

تعود والدي في الربيع حرق العشب بالقرب من السور. غالباً ما كنت أعاونه، وكأني الابن الوحيد لأن "بتر" في العادة لم يكن حاضراً، و"تينا" تتحجج بانشغالها مستخدمة العديد من الأعذار. كنا نجد الفرصة لتبادل الحديث في دخان العشب المحترق. كلانا تحاشى التطرق إلى مسألة حساسيتي وتمخيطي الدائم وسيلان عيني.

"ما الجديد في براتيسلافا؟" يسأل والدي رغبة منه في إزعاجي لأنه يعرف مقدار كرهي لهذا السؤال. كيف لي أن أجاوب على هذا السؤال؟

ولكني حاولت الإجابة. انتهيتُ للتو من تصوير مقاطع لمجلة السينما من المعرض الكبير *للمركبة الفضائية السوفيتية، و لبناء الطاقة المائية في الاتحاد السوفيتي*. لقد نجح الاتحاد السوفيتي بإطلاق ثلاث مركبات فضائية إضافة إلى أول مركبة صناعية للدوران حول الشمس — كل هذا حدث خلال عام واحد. إنهم يسبقون الأمريكان دائماً، في الحالة الأولى أكثر من شهرين. هذا ما أخبرنا عنه المعلق.

"يالها من مفخرة، أليس كذلك؟ استخدمت تعبيراً من النوع الذي لا يحبه أبي. إذ لا يمكن قول شيء آخر عادي عنه. أومأ أبي برأسه وفرّق كومة من الجمر.

أخبرته أني استغربتُ كثيراً حين أخذني المنتج إلى مستودع التلفزيون الموجود في كنيس ساحة "ريبنا" حيث توجد الأضواء وأدوات التمثيل والكواليس لأن كل ماهو موجود فيه ذكرني بكنيس بريجاني الذي قاموا بهدمه.

أبي لم يسمعني لأن مزاجه تعكر في الحال وبدأ يفكر في أشياء أخرى. كرر فحسب: "أها، أها"

دائماً كان يَحلم بحديقة كبيرة في مكان بعيد عن الضجيج. تمنى أن يزرع فيها أشجاراً ضخمة يمكنها أن تأخذ حيزاً كبيراً. الشجرة اليتيمة

في الطبيعة تبدو بشكل آخر. ليست مضطرة للتزاحم مع غيرها من الأشجار الموجودة داخل السور. حين تنمو بالقرب من البيت وترتفع عالياً يقطعونها في العادة لأن جذرها القوي يمكن أن يهدد ما حوله. تكفي عاصفة واحدة، أو رعد، وبرق، وفسخ صغير ليسلطوا عليها منشارهم الحديدي.

الحديقة ساحة حرب دامية! يلوح العم "رودو" بيديه بحماس. إن أهملناها فإن النباتات تبدأ في صراع دام فيما بينها على الماء والضوء. بالطريقة نفسها تتصارع تلك الزهور الناعمة ذات الرائحة الطيبة في المرج. الشرارة الصغيرة، الجرس الصغير، الهندبة البرية.

"نهارك سعيد، أيها الرفيق الطبيب! كيف الحال؟"

استند الميجر "دوراتني" إلى السور وهو يبتسم.

والدي ذهب للقائه، ومد له يده الوسخة.

"هل تحسن ذلك السعال؟"

"قليلاً. سوف نحتاج إلى بعض الأدوية. سأتوقف عندكم في العيادات.

والدي لوح بيده. تحرك "دوراتني" في حال سبيله. بدأت أسعل من كثافة الدخان بسبب انتعاش الحريق في بعض الأغصان تحت الشجرة. لم أتمكن من التنفس.

"اترك الأمور كما هي عليه "أداشو"، واسترح قليلاً."

أسندت ظهري إلى شجرة المشمش القديمة، ربما تكون الأخيرة في الشمال لأن الحدود العليا لتكاثرها وتوضعها يمر عبر "بريجاني". إنها لا تتحمل البرد.

أطفأ أبي آخر قطعة خشب، وجلس بجانبي على الأرض الباردة.

الدخان ينتشر في الهواء، عمود رفيع كان لا يزال يرتفع إلى الأعلى، يدفعه الهواء عبر جدار البارك المرتفع الذي يُسيج عزبة بريجاني المهجورة. حين تحدث في العائلة أية مشكلات كنا نجتمع هناك. على الطرق الضيقة التي لا نهاية لها والمرصوفة بالقرميد المغطى

بالحصا الأبيض حيث اختلط كل شيء. يتم البحث عن الوسيلة للخروج من الورطة.

ذلك الزمان يقترب من جديد ببطء وبالتأكيد.

طافَ في ذلك المساء "سالفا" من طرفيه. كان ذلك متوقعاً منذ عدة أيام لأن الثلوج بدأت في الذوبان السريع على المرتفعات.

حين تراجعت المياه باتجاه النهر، قام "البريجانيون" بإعادة الأسماك العالقة بين النباتات، وفي الحفر إلى النهر. تحركَ فلاحو "نفدوفا، ولهوتا" باتجاه النهر على عرباتهم – لالتقاط الأسماك البيضاء الصغيرة، وسمك الروش للبط.

"موناكو" الذي تمكن من الحصول على وظيفة عضو صغير في لجنة المدينة (رفع كتفيه وقال وهو يبتسم– كنت دائماً بيروقراطياً!) تمكن في تلك اللحظة من اكتشاف سمكة كبيرة – مترين بعشرين – عاصية في الطين. فحين تراجعت المياه، لم تعرف كيف تنجو بروحها.

والد "فويتا" كان يترافق معه للصيد في "سالفا" بشكل غير قانوني – مع بعض الشباب من مؤسسة الأخشاب، مع "نمت" و "تشرشنيك" اللذين كانا يزعجان الجميع بحديثهما الذي لا نهاية له عن الرب واليهود. كان "فويتخ روشكو" أثناء ذلك يرمي أصابع الديناميت من المركب – دائماً من عشرة إلى خمسة عشر غراماً – يقول "فويتا" – ولكنه ينجح في المرة التاسعة أو العاشرة. تمكن الانفجار من قتل الأسماك وجعلها تطفو وبطونها إلى الأعلى ومن ثم تبييض سطح الماء. وقف الرجال في مكان أوطى، ربما على بعد خمسة عشر متراً مع شبكتهم التي سحبوها بعكس التيار بانتظار أن يوصلها "سالافا" إليهم مباشرة. لقد أكد لي "فويتا" أن الأسماك تنتعش عادة من جديد ولكني لم أصدق كلامه كثيراً.

توجب أكلها طازجة، وهذا ما تعرفونه من لحمها القاسي، وصفاء بريق عينيها، ومن رائحة السمك الطيبة. حصل السيد الطبيب بالطبع على بعض منها كما هو حال كل شيء يطير أو يتحرك أو ينمو في "بريجاني".

8

أحتاج بعد فترة طويلة من التنظيفات، والتحرك من مكان إلى آخر في ذلك البيت المتهدم لأخذ بعض الراحة. أخلع حذائي وحين لا أرغب في شدّ جواربي فإني أتخلص منها بحكها بطرف السرير. إنها إحدى عاداتي السيئة.

يذكرني ذلك بوالدي. كان يفعل الشيء ذاته قبل النوم حين يشعر بالتعب، ويغفو بعد ذلك بسرعة. غالباً ما كنت أشعر بالقرف وأنا أراقبه. حسب تصوراتي، إن ذلك يُعبر بشكل دقيق عن فرط إهمال الرجال.

ولكن — وكما يحدث- اكتشفت في وقت لاحق أني أفعل الشيء ذاته. أبي كان ينفذ ذلك بصعوبة أكبر لأنها مثبتة بقوة بكبسات تصل إلى منتصف ساقيه.

لم أستخدم ربط الجُمل كثيراً في حياتي، ولكني حقيقة في تلك الفترة من بداية الستينات، عشت *أوقاتا جيدة*. تعرفون ذلك من هالة النور التي تحيط عادة بالأشخاص والأشياء حين تفكرون فيها، تطفو فجأة على السطح. لا يمكن فعل شيء، الأوقات الذهبية تخصُ الماضي، وليست موجودة في الحاضر على الإطلاق.

تزوجتُ في عام واحد وستين من "سوزانا كاباتوفا". وبعد خمسة شهور ولد "بوني"، ولدنا الوحيد. حلمتْ "سوزانا" قبل ذلك بأيام أن فمها معبأ بالشظايا الصغيرة. لم يكن حلماً سيئاً حين نعرف أن الشظايا في الحلُم تحمل السعادة. خافت قليلاً. توجب عليها إمساكها بحذر بين أسنانها ولسانها كي لا تسقط، أو كي لا تُمزقها، وتنجرح بأطرافها الحادة. باختصار كي لا تجرح السعادة التي هي في الواقع شيء هش.

حصلنا في براتيسلافا على مسكن من غرفة واحدة في ملحق موجود في شارع مالينوفسكي رقم 43. اسم مالينوفسكي عندي يعني سماع دقات الساعة. أتذكر — لا بد أنه كان يحملها معه على الدوام.

لم يكن بوسعنا في بعض الأيام الذهاب إلى أي مكان — لهذا شعرنا بالسعادة.

ولكننا حين عزمنا على الخروج من البيت في آخر الأمر، سلكنا طريق التلة التي بدأت ترتفع مباشرة ببطء خلف مقبرة "بلومنتال" والسكة باتجاه الغابات الموجودة تحت قمة "كامزيك" التي انتشرت الكروم من إحدى جهاتها حيث يوجد هناك منذ زمن طويل عند موقف الحافلة مطعم سياحي يدعى "سلامنا بودا"، سابقاً كان مكان راحة الرعيان وقد سميت المنطقة باسمه. كانت مجموعة "شتور" [68] تسهر وتحتسي الشراب هناك، كما جرت في مكان قريب من هنا معركة الحسم في الحرب البروسية — النمساوية. احتلها الفيلق التشيكوسلوفاكي في أعياد رأس السنة من العشرينات كنقطة انطلاق أولى في "بوجومي"[69]، ومن هنا أيضاً مرّ جنود الجيش الأحمر في ليالي نيسان من عام 1945.

تمشيت مع "سوزانا" التي تحمل طفلنا في أجهزتها الساخنة المخملية، الفردوسية عبر "حرش" من أشجار البلوط التي أحسسنا أنها أكثر طراوة ورقة من حرش "بريجاني" الموجود في "فولوفتس". ذكرَتنا بسرية، وغرابة غابات الأزمان الماضية. بدت –الحشرات الكبيرة — شبيهة بسيارات الليموزين البراقة القديمة كما أن أجنحتها بدت لنا شبيهة بهياكل سيارات العالم الآخر، والزمن الآخر، والفضاء الآخر البعيد، المُشع بالضوء. أشعة الشمس تضوي أوراق الأشجار الخضراء القاتمة التي توقع الإنسان بسهولة في براثن أحلامه. تختفي في كل مكان حكايات غير كاملة. ساكنة، ميتة، ومنسية.

أخبرتها عن رأي والدي في الأشجار.

أضافت لما قلته بأن خشب الزان حسب رأيها "كالفيني" — يلتزم بنظام مضبوط، وجذوره حذرة – كذلك هي الحيوانات التي تعيش على ثمارها بما في ذلك الحشرات. أشجار البلوط في المقابل كاثوليكية — باروكية، عريضة تزينها قشرة متعرجة. تنشر رائحة طيبة وأصواتاً جميلة.

---

[68] لودوفيت شتور: كاتب وعلم من أعلام الفكر القومي، ومؤسس اللغة السلوفاكية

[69] بوجومي: براتيسلافا بالمجرية

مرضَ والدي. المقولة القديمة والمحببة تؤكد أن كل حادثة في عائلة الطبيب لها خصوصيتها، إنها غير عادية وشاذة — وأن الطبيعة تريد الانتقام من أولئك الذين يقفون في وجهها.

حين وافق في النهاية على أن يقوم أحد زملائه بفحصه — كانت ردة فعله حذرة وشبيهة بالرقص الغريب. أراد الدكتور "ليفيوس" أن يجهز له أفضل تشخيص، وألا يتسبب في إيلامه وإضاعة وقته أيضاً. والدي في المقابل، وبسبب تعاليه، لم يعترف بأن الأمر معه يزداد سوءاً، ومن ثم لا فائدة من العلاج، بل على العكس جعل يتظاهر، ويزعم التحسن والتقدم... حتى حين لم يكن ذلك حقيقة.

حين توضح كل شيء، اضطروا لإجراء عملية. كان يشكو من الألم والنزف، حدث اشتباه بالسرطان وخوف من فقر الدم وضياع كمية كبيرة منه، — *السبب هي تلك الأسماك، بالتأكيد سيكون ذلك من السمك!* — قال والدي بصوت ضعيف كما لو أنه عامل أُمي لا يعرف أي شيء عن أجهزته الداخلية، وكان ذلك تبريراً جيداً. خافَ كثيراً من العملية الجراحية.

لقد تعرض للمرة الأولى في حياته للتخدير حيث تشارك الإتير مع الغاز مما أثار حماسته كثيراً. حين جئنا لزيارته في عيادات "بريجاني" الشاملة، شرح لنا بفرح كيف أنه بداية فقد حاسة البصر، وبعد ذلك، لم يعد يشعر بالألم. قال زميله حسب زعمه، وقد سمع ذلك بوضوح:— *يمكنك البدء، إنه لم يعد يشعر بشيء.* شعر بضغط المشرط فوق جدار البطن وفقد بعدها حاسة اللمس أيضاً. شرح برغبة كبيرة أنه حين يتأذى السمع فإن الإنسان يسمع ضربات قوية متناسقة على قضيب معدني.

اكتشف في وقت لاحق أثناء زيارة أهل "فويتا" بالطريقة نفسها تسرب الغاز من المدفأة، مما أنقذ حياة الحاضرين. كانوا يشربون الشاي، ويتحدثون. احمر بعد ساعة وجه السيدة "ناتاليا"، وحسب ما يُعرف عنها، بقيت صامتة، ولكنها لم تشكُ من شيء. شعر الجميع وكأنهم مُخدرون، بعد ذلك بدأت تتقيأ. سمع والدي في تلك اللحظة صوتاً

نموذجياً — ضربات على القضيب، قال ذلك ولكن لا أحد غيره سمع صوت الطرق — تذكر في تلك اللحظة وصرخ:

- "الغاز يتسرب!"

شرح والد "فويتا" في وقت لاحق أن القرميد سقط في المدخنة وتسبب في سدِّها. ففتحوا النوافذ بسرعة وعاد كل شيء إلى وضعه الأصلي.

10

لقد تغلب في جيناتنا شيء يمكنه أن يتسبب في مفاجآت غريبة. اكتشفت ذلك أثناء زياراتي وبحثي في تاريخ العائلة. كان هناك في كل جيل من حادَ قليلاً عن الطريق.

تفضلوا، هنا ستتعرفون إلى مجانين العائلة.

العمة "تونيتشكا" لم تكن من محبي زيارة الطبيعة. تمكن عمي "رودو" مرة في الصيف من اقناعها كي تخرج معه في رحلة إلى غابة "فولوفتس" التي هي مكانه المُفضل. جهزت نفسها فترة طويلة ولا سيما نفسياً، واشترت جميع لوازم تلك الرحلة السياحية مما أثار استغراب العم "رودو".

انطلقا في فترة الظهيرة، ودخلا في الحال بعد "بريجاني" إلى أيكة تحيط بها النباتات الواطئة، وحيث حلقت هناك العديد من الحشرات الغريبة التي دخلت إحداها بعد عدة دقائق في أذنها. هدأ "رودو" من روعها، مع محاولة الذبابة الخروج — دون نجاح — اضطرا للعودة من جديد إلى البيت. بقيت الذبابة يومين وليلتين تطن في أذن العمة "تونيتشكا" كالمجنونة بينما كانت العمة تفكر في خروج آمن من هذا العالم. أخيراً وفي اليوم الثالث توقف الطنين.

أخرج أبي الذبابة بحذر مستخدماً الملقط، وأكد في الوقت ذاته أن الذبابة تسببت وهي في حالة هياجها في إلحاق الضرر بجدار الأذن الداخلية.

أقحم الخوري الذي اعترفت له العمة "تونيتشكا"، و شرحت له مصيبتها في رأسها فكرة أن ذلك الشيء نوع من العقاب الرباني عن

الأفعال المشينة، كما أخبرها أن القديس "برنارد" حسب زعمه، قال أثناء تقديس الكنيسة في "فويجني" -excommunico eas! - سأطردكم شر طردة!— طرد سرب الذباب المتطفل بأكمله.

عاش "يعقوب" شقيق الجد " ألبرت" في طفولته من جديد فترة فرح لاكتشافه وجود ثقوب في جسده مما جعله يدحش في سياق اللعب حبة فاصولياء في أنفه. تمكن من إدخالها بسهولة، ولكنها رفضت الخروج. لم يخبر أحداً بذلك لشعوره بالخجل. ولأن أبويه الصارمين سوف يلومانه على فعلته ويصرخان في وجهه، وبعدها سوف يتلقى صفعة، ومن يدري ما سينتظره بعد ذلك. لذا فإنه دفع حبة الفاصولياء أكثر باتجاه جذر الأنف كي لا تعيقه أثناء التنفس.

بدأ بعد فترة، وحين كبرَ قليلاً، يتحدث عن أشياء لا معنى لها، كما تأخر عن أقرانه في المدرسة، باختصار، تصرف كالمجنون. حين بدأت حالته بالتدهور مع مرور الوقت. راجعوا الأطباء الذين أمضوا وقتاً طويلاً دون أن يكتشفوا سبب مرضه إلى أن خطر ببال أحدهم في نهاية الأمر إجراء صورة شعاعية للرأس. فوجدوا حبة الفاصولياء عند جذر الأنف، واكتشفوا أيضاً أنها انتعشت في أجواء الرطوبة والدفء وأطلقت جذورها التي امتدت إلى الجيوب القريبة، ومن ثم وصلت إلى الدماغ الذي أصيب بتخرب من جراء ذلك.

خضع "كوبا" لعملية جراحية، أخرجوا خلالها حبة الفاصولياء، ووضعوها في الكحول وعرضوها كحالة نادرة في متحف العجائب. وإذا ما درسنا الأمر من هذه الزاوية، فسنجد أمامنا في الحقيقة شيئاً شبيهاً بما يحدث في حكايات الأطفال، كون الحبة قد نمتْ باتجاه السماء ونقلت "كوبا" بذلك إلى بلاد العجائب. أمضى بقية حياته متأخراً، ولكنه سعيد حسب ما جاء في رواية المؤرخين.

أخي "بتر" كان صاحب شخصيات وأشكال متعددة ولكنها شكلت جميعها في النهاية صورة واحدة.

كان يحضر إلى "بريجاني" في العادة دون أن يتوقعه أحد أو يدعوه أحد. يظهر عند البوابة بشكل مفاجئ ويصرخ — *هل يوجد أحد في البيت؟* عاش متنقلاً بين براتيسلافا وبراغ، لم أعرف ماذا كان يعمل بالضبط لأنه لم يتحدث عن ذلك على الإطلاق ، وأنا من ناحيتي لم أسأله أيضاً، ومع ذلك كنا نلتقي أحياناً بالصدفة في أثناء عملي. ربما أكون حقيقة، لم أوله الأهمية المطلوبة بوصفي شقيقه، ولكنه تسبب بالرغم من ذلك في العديد من أفراحي وأتراحي، ومن ثم لم يبق عندي الوقت لمسائل أخرى.

حين تداهمه النوبة، تذكرت "تينا" الحادثة القديمة، وكيف وجدته جالساً بعد وليمة المساء في المطبخ وعيناه مبهورتان وسط عشرات الشموع المشتعلة، مستغرقاً في سماع إحدى مقطوعات "شوبان" الموسيقية التي بثها المذياع. استدار نحوها ببطء وأخبرها أنه يعرف ما يخفيه المستقبل ويعرف عن كل شيء لم يحدث بعد.

وأنا أيضاً تذكرت شيئاً بهذا المعنى حين استيقظ مرة عند طلوع الفجر، وأكد لي أنه ذاهب إلى خط الإستواء. سألني، إذا كنت أرغب في مرافقته. رجع بعد ساعة بسبب هطول مطر كثيف.

ولكن هذه الأشياء لا يمكنها أن تكون براهين قاطعة سيما أننا نستذكر حوادث قديمة كما أن العقل البشري مهيأ لذلك.

لعبوا عندنا في ذلك المساء "كاناستا"[70] حتى وقت متأخر من الليل — هو، وماما، "تينا" و "أدا". توقدت وجنتا "بتر"، ولم يرفع عينيه عنها.

أعطوا "أدا" غرفة الضيوف الموجودة في الطابق. حين استلقت لتنام، سمعت، كيف فُتح الباب بهدوء وزمط أحدهم إلى الغرفة. جلس بجانبها على السرير وبقي صامتاً. خاطبته واكتشفت أنه "بتر".

أمسكها من يدها وهمس: إني أملك قلباً وسخاً! إنني إنسانٌ سيء! ولكن أتظاهر بالطيبة!

---

[70] كاناستا : لعبة ورق

حين أشعلت النور، جعل يُحدثها عن كلبه الذي أطلق عليه اسم "يوشا". ظن لفترة طويلة أنه سيكون في وضع جيد لأن "يوشا" سوف يتألم بدلاً منه بسبب ذنوبه.

اكتشف بعد ذلك أن موت الكلب سوف يجعله نقياً بلا ذنوب. لذا قتله — كي لا يستمر في المعاناة بسببه.

تصفحت تقارير "بتر" الطبية دون لفت نظر أحد:

دخل السيد ب.ت. 28 سنة المشفى في حالة من الهياج النفسي والتشوش. أحس بعد 15 من أيلول بالقلق والضايقة وهذا جعله يشعر وكأنه موجود في الكلوروفورم، خاف من تناول الطعام ظناً منه بأنه مسموم وأن روحه قد هربت من جسده. اشتكى من أن الوقت طويل بشكل غير طبيعي. وأصيب في حضور الطبيب بحالة من الهيجان الذي جعله يَعَضُ من حوله. كان عليهم إيثاقه أثناء نقله إلى المصح في 17 أيلول لأنه جعل يعضُ مرافقه بأسنانه.

رفض في المصح وحسب ما جاء في سيرته المرضية، الأكل لزعمه أنه مسموم. أكد أنه أُصيب تحت تأثير التنويم المغناطيسي، والإيحاء في 20 و21 أيلول بانهيار كامل بالرغم من تلقيه حقن "الكفين" والكافور. ولقد أكد أن والدته توفيت، وقال أثناء زيارتها له بأنها ليست هي.

طغت عليه منذ بداية تشرين أول حالة من الارتباك النفسي، قال إن كل مايحدث بسببه، وبأنه يلعب معه المسرح. المرض قد أُرسل إليه.

حالة المريض في 25 تشرين أول 1961 الساعة 12 ظهراً.

حضر المدعو للمعاينة وكان هادئاً. ألقى عليّ التحية وكأني أحد معارفه. يبتسم لأن الأطباء يعرفون أين يكون، ويضيف في الحال أنه يشكُ في زميل أصغر منه سناً يترافق مع أخته (؟) "أدا". يرد بهدوء وبراعة. السيرة العائلية صحيحة. يعرف الوقت بشكل عام، نحن في منتصف شهر تشرين أول. يعرف أنه في المصح. ولا يعرف حسب زعمه كيف وصل إلى هنا، سمع أن الأطباء نقلوه. يتذكر تلك الأشياء بشكل

ضبابي. — "لماذا أحضروك إلى هنا؟"، "هذا بالضبط ما أحبُ معرفته." — "هل كنت مريضاً؟ " — "نعم، بشكل رهيب، كانت مشاعر رهيبة!" — "هل أنت الآن مريض أو معافى؟"— أعتقد أني لست طبيعياً... لا أرى بوضوح ما يحدث لي، لا أعرف، إذا كان حلماً أو حقيقة، لا أعرف نفسي. ربما أكون تحت تأثير المهدئات. حين أتطلع في المرآة، لا أعرف نفسي. هناك تبدلات... الشعر والشنبان، والشكل، كما لو أنني أتطلع إلى صورة غير موفقة." —"ما هي التغيرات التي طرأت على نفسيتك؟" — "لا أعرف، أنا لست أنا، أفعل ما يريده غيري. أتصرف حسب الأوامر." — "كيف يمكنني تصنيف أفعالك؟" — "لا يمكنني أن أفهم، أنا بحاجة إلى دراسة، ربما كتاب، إنه إيحاء. أنا على قناعة بأن حديقة الصح غير موجودة. لا يوجد عندي دليل على ذلك. هنا، يُدهشني في المكتب من جديد اختلاف نوعية تلك الزجاجات الصغيرة. ربما أراها فحسب. أستغرب كيف يمكنني تخمين جميع تلك الأشياء الصغيرة . إنني مُلخبط (مضطرب) الذهن، أظن أحياناً أنني في عالم آخر وأن الحياة على الأرض تتكرر."—"من أين جاء مرضُك؟" —"لا أعرف. لقد أوحوا لي بأشياء غريبة — بأني سيء، سيء جداً. هذا ما أخبروني به!" —"هل سمعتهم؟"— "نعم، ولقد أجبتهم. كانت أصواتاً ذكورية." — "كيف يتكلمون؟" — إنهم بلا صوت، الأمر واضح، ولكن الأذن لا تسمعه، ولكنه في الرأس. الأذن لا تشعر به. إنه صوت داخلي من البعيد، لا أتطلع إليه. أعرف من خلال ذلك الصوت الداخلي إنه اتصال مع كائنات بعيدة. ما يقولونه لي، غريب عني، وليس مني."

في الزيارة يوم 12 كانون أول 1961: يقر أنه يؤمن للمرة الأولى بأني أنا.

انتهى تقرير طبيب الأمراض النفسية بالتأكيد: *الحجر بسبب التشوش النفسي ممكن، وسوف يتم في القسم المُغلق لفترة ستة أشهر، بعدها يمكن إعادة النظر وتقييم الحالة. هذا القرار لن يُرسل إلى المريض لأنه سيضر بحالته الصحية.*

أصبح والدي المسؤول القانوني عن "بتر"

حين توقفت في منزل "بتر" المستأجر في براتيسلافا لبعض الأشياء، وجدت إضافة إلى "الكركبة" الغريبة دفتر مذكراته . اندهشت – "بتر" كان شيوعياً متحمساً عن قناعة. رأيته في إحدى ريبورتاجاتي يشارك في حفلات الحزب ونشاطاته، ولكني اعتبرت وجوده هناك صدفة أو للمساعدة. يومياته أكدت لي عكس ذلك. قرأت حتى الصباح وإلى أن بدأ الضوء بالظهور خلف النافذة ولحين انتهت العصافير من زقزقتها.

11.1.1959

أحاول كتابة مذكرة اليوم بسبب الرقم والتاريخ المتعين. أحب ذلك. الأرقام تعني الكثير، إنها قوية وصلبة. مثل تلك الوحدات؟ بدأت تضيق قبل سنوات بشكل لافت للنظر دائرة الكوادر المخلصة من الرفاق في القيادة، أولئك الذين استمروا منذ العشرينات. فقد بدأ بالظهور رفاق شباب لم يمروا في غالبيتهم عبر نيران الصراع الطبقي. إنهم لا يتذكرون أن وجود أحدهم في أي مركزحزبي في السابق، يعني خطورة الوصول إلى السجن، والطرد من العمل، ورفض التوظيف، ومن ثم البقاء رهن المساعدات الاجتماعية الهزيلة. بعد انتصار شباط في عام ثمانية وأربعين، انتهى الخطر إلى غير رجعة، المراكز أصبحت مأجورة مادياً بشكل جيد، وأصبحت تعني العديد من المكاسب الاجتماعية. وهكذا حدثت أمور لم يحسب أحد حسابها مما أدهش الرفاق القدماء – الرفاق الشباب، بدؤوا يتسابقون على المراكز الحساسة في الدولة، ولم يخدموا مناصبهم بعمل شريف ولكن من خلال المؤامرات التي نقلوها معهم بعد ذلك إلى المناصب الرفيعة في الحزب. الأمر على هذا الشكل. تعرفون، تتمثل جميع المهن في قيادة الحزب، الرفيق غوتوالد نجار متعلم، الرفيق زابوتتسكي حجّار متعلم، الرفيق نوفوتني خراط معادن متعلم. وإلى أن وصلوا إلى الأعلى، عملوا في المصانع، أو كانوا عاطلين، لاحقتهم الشرطة. اضطروا للبحث عن وسيلة للعمل، مما جعلهم على اتصال أكبر مع الناس. إنهم يموتون الآن. والثلج يهطل في الخارج.

9.9.1959

(البارحة مع "هونزا". ملاحظة مدونة على المنديل ومنقولة إلى في دفتر اليوميات.) نحتاج إلى رمز شيوعي مقنع، وهكذا وجدنا "يوليوس فوتشيك". كل ما قام به ذلك المسكين هو مجرد أسطورة مختلقة، وحتى رسمه لا يشبه "فوتشيك" في الحقيقة. ذهب الوزير "فاتسلاف كوبتسكي" بعد شباط لزيارة "ماكس شفابنسكي"، وطلب منه أن يرسم وجه "فوتشيك". قال له "شفابنسكي":

– ابعثوا لي ذلك الصبي فحسب... — رد عليه "كوبتسكي" في الحال — هذا غير ممكن أيها المعلم، إنه ميت... -- يا إلهي، إنه ميت! يا لها من خسارة — وما الذي حدث له، أيها السيد الوزير، هل صدمته سيارة؟ - لا، لقد أعدمه النازيون.- مسكين... ابعثوا لي على الأقل صورته الشخصية. (ومع أن لا أحد يعرف صورة "فوتشيك"، تَسَلَّم "شفابنسكي" عليها في الخمسينات جائزة السلام. لا أحد يبدو كما هو في الحقيقة. كل شيء هو توأم شخصيتنا).

11.11.1959

اليوم من جديد تلك المُغلفات! هذه هي مشكلة المغلفات، نعم. لقد أعطوها في عام 1918. أعطاها "مساريك" وحتى "بنش"، والرفيق "غوتوالد"، والرفيق "زابوتتسكي"، ويعطيها الرفيق "نوفوتني". تسلمها دائماً أولئك الناس الذين بشكل أو بآخر خدموا البلاد. وقد أضفنا إلى هذا الشيء شرطاً وهو أن يقوم المذكور بخدمة الحزب. لا يوجد في هذا الشرط ما يسيء. أخبرني الرفيق "نوفوتني" أن الرقم لم يتجاوز العشرة آلاف على الإطلاق، وهو من مخصصات الرئيس، ولكن الرفاق لم يعجبهم المبلغ وحسب زعمهم يعتبر قليلاً جداً — مثلاً النائبة في مجلس الشعب الرفيقة "ماخاتشوفا" كانت تزين إصبعها بخاتم ألماس كبير من تبرعات التحديث الوطني إلى أن منعها الرفيق "غوتوالد" من وضعه. لم أشاهد في حياتي ألماساً حقيقياً.

.10.10.1960

حين خرّجوه من المصح، بدا الأمر وكأن مرضه قد تراجع قليلاً. قسم من "بتر" بدا فرحاً، لأنه في نهاية الأمر، وفي بعض اللحظات جعل يُدردش ويبتسم، ويمزح دون ضوابط، وغمّسَ القسم الثاني في القلق والإحباط. ومع زيادة النكات يتردى مستواه، ومع زيادة الضحك يزداد الحزن.

انتقل "بتر" من جميع العناوين التي بقي فيها حتى الساعة. تمنى أبي قليلاً عودته إلى منزلنا في "بريجاني"، ولكنه انتقل بدلاً من ذلك للسكن مع صديقه في "نترا"، وقطع علاقاته مع والديه كلها، وهذا الأمر تحملته والدتي بصعوبة كبيرة. وحين نجحت في معرفة مكانه، وجدته يتسكع في المدينة، يشرب ويشحذ السجائر من الناس. وحين يوشكون على سجنه بتهمة التسكع، كان (لعدة أيام فحسب) يجد مكاناً للعمل.

حلت أوقات النوم الشتوي، كما تحدث عنها في وقت متأخر.

11

تقلبت "سوزانا" في الليل قبل ولادة "بوني" في السرير. استدارت على الجنب الآخر ولمست بإصبعها جبيني، في تلك اللحظة حلمت بها.

"سوزانا" أفضل من فهمني من بين النساء جميعهن. حين قلت مرة إني أرغب كثيراً في خلع ملابسي عن جسمي والركض في الليل، قالت لي: *افعل ذلك!*

وُلد "بوني" ضعيفاً، وأمضى الأيام الأولى معلقاً على خيط بين الحياة والموت وكان على "سوزانا" البقاء معه في المشفى. وبفضل والدي الذي فرح كثيراً بولادة حفيدة الأول، وبفضل اتصالاته مع قسم الولادة الموجود في "زاخوفا" (الذي يبعد خطوات معدودة عن مكان عملي)، تعاملوا واهتموا بها بشكل جيد.

كلانا تعودنا في تلك الفترات أن نحلم أحلاماً غريبة. في إحداها، وقفتْ "سوزانا" في حوض سباحة معبأ بالماء، ممسكة "بوني" بين ذراعيها — كان بأكمله من الخبز المغلف بقشرة صلبة. بدأ في الماء بالتدريج بامتصاص الرطوبة والتفكك. فاستيقظت وصرخت.

في حلم آخر، خدعتُ "سوزانا". إذ كانت لا تزال عذراء.

حين خرّجوهما من المشفى في نهاية الأمر، وحين هبط الليل و"بوني" يبكي دون توقف، لاحظت أحياناً نظرات "سوزانا" البائسة. كان ظله يمر لثانية فحسب، أو لبضع أجزاء من الثانية على جبينها الجميل العالي. شككت في أنها ربما تفكر في اللحظة التي ساهمنا فيها بتشكيل ذلك الكائن الصغير المكسور، وما إذا كانت تستحق ذلك حقاً. ولكنها تعود إلى وعيها بعد ذلك، وتقوم بصبر بفعل ما هو ضروري.

لا يمكنني القول إنها لم تعش بطريقة ما وظيفتها كأم، فعلت ما عليها فعله كما تعودت، المجنونة الحالمة "سوزانا". قالت إنها في اليوم نفسه الذي ولد فيه "بوني" ونامت، انتهت بعد ذلك حالة الإثارة بأكملها.– حضنته بين ذراعيها، ومن ثم تعودت على ذلك الشعور. راقبته كيف كان بعينيه المغلقتين اللتين لم تتعودا على ضوء النهار، يُدور رأسه من جهة إلى أخرى وهو يُنوي، ويُشنج أنفه الصغير حتى يتحسس الحلْمة ويبدأ بالمص. لقد نادته في البداية "يجكو" [71]، وأحياناً "كرتكو" [72] وأرتني ما يفعله بأنفه.

حين بلغ نصف سنة من عمره، رائحته بدأت تشبه رائحة الدُراق – عشقتُ تلك الأوقات، وجعلت أقترب منه بسبب أو بدون سبب كي أشتمه – أطلقت عليه "سوزانا" اسم *الطفل الدُراقي*، وبعد فترة استخدمنا اختصار *"الدُراقة"*. نسينا بعد ذلك تلك الأسماء، وجاءت تسميات أخرى، رافقه منها حتى شبابه اسم "كابيكو" فحسب – اثنان فحسب من أعز أصدقائه كانا يناديانه بهذا الاسم دون أن يعرفا من أين جاءت هذه التسمية.

كانت الكلمة الأولى التي نطقها.

البيت المؤلف من غرفة واحدة تطل على الرواق بشارع مالينوفسكي 43، انكمش بعد ولادة "بوني" مثل ما يحدث مع قطعة قماش مغسولة حديثاً، ولكننا تعودنا.

---

[71] يجكو: يجك تعني القنفذ بالسلوفاكية

[72] كرتكو: الخلد بالسلوفاكية

شكلَ قسماً من سبعة أبنية تدعى "أونيتاس" لها من العمر ما يعادل عمري. نفذ مخططاتها المعماري فريدريك وينورم حين بدأت أزمة السكن في الثلاثينات، وبحثوا عما يسمى *"بيوت لتأمين الحد الأدنى من الحياة"*. بيوت مشمسة لأنهم بنوها باتجاه شرق-غرب، شمس الصباح تدخل البيوت من جهة وبعد الظهيرة من الجهة الثانية.

حين رأيت قبل مدة في إحدى المجلات صورة فريدريك وينورم، توقف نفسي. ابتسم في وجهي من تحت لحيته في الصورة الأبيض والأسود – بأنفه البارز و حاجبيه الكثيفين، وبدلته البيضاء وربطة عنقه المُخططة – عمي "أرمين". وينورم كان يهودياً أيضاً. وبالرغم من نجاحاته، وسمعته، كان عليهم في عام 1939 بسبب القوانين الموجهة ضد اليهود، إغلاق مرسم وينورم –فيتسيي، عام 1941، ألقوا عليه القبض وسجنوه في "إيلافا" توفي بعد سنة في ظروف غامضة، وعلى الأغلب أثناء محاولته اجتياز الحدود المجرية في الأرض المحايدة.

أتصور أحياناً أن الذي أطلق عليه النار – غارديستا، جندي أو حرس حدود – هو أحد الذين سكنوا في البيت الذي قام "وينورم" برسم مخططاته. ربما أحد الموجودين هنا، في يونيتاس. جاء إلى البيت، وقبّل زوجته التي سألته، *كيف كان اليوم*. رد عليها، *لاشيء يستحق الذكر، يوم عادي*، ثم جلس بالقرب منها على الصوفا وشرب الجعة ، تحدثا عن الأولاد، وربما بالصدفة في هذا المكان، حيث وقف "فريدريك وينورم"، حيث أقف أنا، جاء قبل عشر سنوات إلى التفتيش ورأى بناءه الجميل. لس الحيطان، وهز رأسه برضى. وربما شرب الجعة ووقف، وربما تطلع في قميصه الداخلي من النافذة إلى الخارج، إلى الرصيف الليلي، وإلى الأشجار الصغيرة الموجودة بين الأبنية، ثم استند إلى لوح النافذة الذي اقترحه ورسم بخط واضح فريدريك وينورم، في الوقت الراهن دون حياة.

غالباً ما كنت أفكر فيه وفي العم "أرمين" حين أكون وحيداً في البيت.

أكثر من ذلك، وجدت هنا خلف البيت محطة "فلياكا"، وهي نادراً ما تُستعمل اليوم في جر عربات القطار التي تنقل لوازم المصانع – من هنا، قاموا أثناء الحرب بنقل يهود براتيسلافا وترحيلهم.

اعتُبر شارع "مالينوفسكي" مكاناً مثالياً لدراسة تأثير "دوبلر Doppler"– بوصفه الشريان الرئيس لطواف سيارات الإسعاف، وسيارات الشرطة والإطفاء. فحين تقترب يُسمع صخب صفاراتها المُعير على أعلى نغمة، وحين تبتعد عنا يختفي الصوت في البعيد بعد أن ينخفض بسبب تطاول موجة الصوت.

امتلأ المُجمع "أونيتاس" بأكمله بالناس الذين انتقلوا إلى براتيسلافا منذ فترة قصيرة. لقد ابتعدوا عن جيل النمل غير المثقف الموجود في القرى حيث النساء والرجال يتزوجون تحديداً *بين أهلهم* ويكنون الكثير من الكره للناس من مناطق أخرى حيث يمضغون التراب والحشيش، وأحياناً قطعة من اللحم. وحيث أحدهم يراقب الآخر، ويحدد مسار حياته، ويحسد أحدهم الآخر بهدوء، ويشربون في النهاية معاً ودون ضجيج. يشربون ويشربون للمرة الثانية. وكل ما يُميزهم بشكل أو بآخر يدعسونه بأقدامهم. لم يروا أبعد من أنوفهم، أو أنهم لم يرغبوا في ذلك. أكثر ما كانوا يخافونه هم الغرباء. لا يُحبون التغيير، أو التجديد، وكل ما له علاقة بالتحديث الآتي أحياناً من المدينة... ثم يعودون ليشربوا من جديد.

كنت دائماً أهتم بهؤلاء الناس .

جاري "إيغور"، فاجأني مرة (أثناء الشرب) بنظريته. أكد أنه دائماً هناك شخص من الذين يجمعون في داخلهم التناقضات، والانحرافات، تناقضات الأجيال السابقة التي تطفو أحياناً على السطح. تيار قاتم. حتى في الإنجيل، يقوم اليهود مرة في السنة بطقس طرد "التيس" إلى الصحراء. لقد مثل عندهم المعاصي التي يريدون التخلص منها.

رجل كهذا، يكتشف في أحد الأيام أنه إنسان آخر. ينتقل إلى مدينة كبيرة، يُنهي دراسته، يُصبح مهندساً، فناناً، عالم نفس – يتخلص من

رباط العائلة، من سلسلة الناس الذين يركعون على الأرض. إنه بشير وصول *مُخلص* العائلة، *غنمة العائلة* السوداء. تيس العائلة الذي يتألف في العادة من بضعة منتحرين أو كحوليين مدمنين في الأجيال السابقة – إنها نماذج غير مكتملة وغير منتهية، لم تطلها العادات السيئة. وحتى عم "إيغور" شنق نفسه في الأربعين من عمره على باب المطبخ الذي حاول مرة إحراقه. إن تطهير العائلات من التخلف ينقل العالم إلى الأمام. الخلاص بالشذوذ الجنسي (اللواطي)، الرسامون الوجوديون الذين لم يعرف أجدادهم الكتابة. إنهم العبيد المعتوقون الذين قفزوا مباشرة من القرون الغابرة إلى القرن العشرين الموسوم بالوحشية، والرائحة الوسخة.

هذه هي المدينة الكبرى، تفضلوا. تلك هي *الفخاخ* وهذا هو *التدمير*. الشكر لله!

12

أكدتُ بحسرة مع "فويتا" مراراً في تلك السنوات: البهجة وعفوية الشباب اختفتا ببطء وهدوء، ونحن الآن نعطي الأولوية للسعادة الأعمق والأمنيات.

النبيذ، الجعة، والتلفاز. والنساء...

غالباً ما كان "فويتا" يتذكر كلام العم "رودو": "حين تريد تهدئة نفسك، تذكر الأكل. إنه موضوع جميل و حيادي."

من "بودبرزوفا"، من العمل القسري، كما كان يتحدث عنه، تمكن "فويتا" أخيراً من العودة إلى بلده، إلى "بريجاني". لحسن الحظ، لم يضطر للتضحية بأحد أصابعه قرباناً لآلهة الشيوعية الثلاثة ماركس، إنجلز و لينين مما جعله سعيداً. عاد بشكل نهائي في الليلة الكبيرة.

أمضت والدته السيدة "ناتاليا" ليلة عشاء المسيح الأخيرة بشكل مأساوي لأنها تذوقت كميات كبيرة من كونياك البيض دون أن تتمكن من معرفة الطعم الحقيقي إلى أن لمعت عيناها.

لحسن الحظ، كان ضاربو العصي في غالبيتهم من الأطفال الذين وصلوا إلى تلك السيدة المتدينة البريجناوية حين كانت تثرثر وتضحك،

لذا كان الضرب من نصيب، شقيق "فويتا" الصغير "تيو" كالعادة. وقد أخبرت والدته الجميع بأن غباءه جاء من إصابته في طفولته بالتهاب في السحايا، ولهذا فإنه دخل مدرسة الحدائق — بالرغم من إمكان قبوله في الحقوق أو ربما في الطب نهاية الأمر. لقد تغير الزمن. وبالطبع كانت ستؤمن له الواسطة لأنه بدونها لا يُقبل.

وعلى الرغم من تعود "تيو" على هذا النوع من الكلام إلا أنه راح يشرب الكحول منذ الصباح. والعجوز "روشكو" —فضّل التبخر، وتمضية اليوم في مكان ما.

"وأنت، متى ستنتسب إلى الحزب؟! صرخت بـ"فويتا" وأضافت: هل تريد تمضية حياتك على هذا الشكل؟"

"فويتا" لم يفعل شيئاً سوى سكب الكحول والضحك، وهذا ما توصل إليه حسب خطته لأنها غفت مباشرة بعد الظهيرة في الكنبة.

"إلا" الصغيرة كانت الوحيدة التي تمكنت بنجاح من اختلاق حجة التدريب في غرفتها على إنشاد " *أغنية عن فاه*" لـ "ماريا رازوسوفا-مارتاكوفا" والتي حصدت بسببها النجاحات في اللقاءات والاجتماعات — مثل شرارة صغيرة بعينين زرقاوين كبيرتين يصعبُ تصديق وجودهما. وبدلاً من ذلك جعلت تتسلى برمي البندورة التي كان طيار النخبة السابق "روشكو" يقوم بزراعتها كي يزيد من دخله، من الشرفة باتجاه نوافذ الباصات المارة المسماة "أوهوركا" وسقوفها. أمضت بذلك عدة ساعات من السعادة.

اضطر العم "رودو" الالتزام بحمية قاسية لأنهم قصوا له أثناء العملية الجراحية ثلث المعدة. أمره الطبيب بأكل كميات قليلة على فترات متقاربة، ولكن "رودو" حسب العادة جعل يأكل في فترات متقاربة كميات كبيرة.

توفرت له العديد من الفرص أثناء غداء الأحد. اللحم، الدجاج (الفخذ، قطعة أو قطعتان)، لحم العجل، شطائر لحم الفخذ، الحساء... تذوق كل شيء. إلا أنه يتوقف عادة عند فطائر الحلوى، يفكر قليلاً، ثم

يسحب موسى من جيبه ويقطع نصف قطعة. يأكل قسماً ويترك القطعة الثانية في الصحن. وبعد لحظات، دون أن يلفت انتباه أحد - يقطع نصف النصف ويضعه في فمه. ويكرر بعد ذلك الشيء نفسه مع نصف النصف... حتى تختفي فطيرة الحلوى بأكملها.

تنهد في حينها وقال: - *الحلويات تضر صحتي.*

كان مُحقاً في الأساس حين توفي بعد ذلك بسبب داء السُكري.

كان يُكرر القول ودون توقف: إننا ننتحر بوساطة طقوس الأكل.. وليس هو فحسب بل الجميع، لهذا فإن الأمر سيان. يتذكر أحياناً بفرح كيف أطلق عليه العم "أوسكار" لقب *الشّره.*

كان يقول لي: يوجد في العالم نوعان من البشر يا "أداشكو"؛ سعداء، وفقراء.

أتذكر، أنه شرب الشمبانيا في عيد رأس السنة الأخير الذي أمضاه على ذلك الكوكب الغريب عبر الحقنة الشرجية لأنه شكا دون توقف من أن معدته لا تستجيب. خسر، بالطبع، طعم الشمبانيا ولكنه وصف النتائج بالرائعة. ربما دغدغته تلك الفقاعات قليلاً في المكان اللازم.

أحدهم حَسَبَ أننا نقضي أربع إلى خمس سنوات في الأكل، وهذا الأحدهم، هو العم "رودو" الذي مات إذاً حسب نظريته، بعد طرح سنوات الأكل في عام 1980.

وإلى أن وصل العم "رودو" بسعادة إلى الموت، هبط في "بريجاني" من السماء دون توقع الملاك الحارس الذي حمل اسم مواطن عادي "غوستاف فالاخ" دون أن يعرف، أو يتوقع هدف مهمته. في مكان ما خلف "نفيدوفا"، في إحدى القرى الصغيرة الموجودة على سفح" فولوفتي" حيث كانوا يُصورون فيلماً تاريخياً عن قُطاع الطرق السلوفاك، لعب فيه أحد الأدوار الرئيسة.

أسكنوه في فندق "الغزال" حيث جعل يتسكع خلال أيام الراحة في شوارع "بريجاني" إلى أن وصل في أحد الأيام إلى حانة "البرج". أحاط به في

الحال الزبائن المداومون الذين لم يتمكنوا من تصديق عيونهم. يعرفون ذلك الوجه من برامج التلفاز كما كانوا يسمعون صوته العميق من خلال المذياع حين يقرأ الحكايات ويقدم التمثيليات الإذاعية. وهو الآن يجلس أمامهم مباشرة وكأن شيئاً لم يكن! أمر لا يُصدق! احمرت وجوههم و تلعثموا.

جلس في وسطهم مثل المسيح وجعل يُوزع نصائحه وخبرته بفرح على المستمعين من جميع الجهات – بلكنة رقيقة وسط سلوفاكية، وبتأتأة بطيئة محترمة.

"إنك لا تقوم بعملك بشكل جيد،" قال لُمصنع النبيذ "فنسل". عليك قطف الـ"إرشاي" *[73] في أيلول، وإلا فإنه سيسقط."

أومأ "فنسل" برأسه، ولم يجد الجرأة لقول كلمة واحدة.

"وأنت، لماذا تئن؟، وهل هذا بسبب الحبيبة، اتركها، ستأتي الثانية!.

تحدث إلى الثاني الذي نزلت دمعته من شدة تأثره.

أصبحتُ بعد عدة أيام شاهداً على شفاء سحري بأسلوب: *انهض وتمشى!* جميعهم لوحوا بأيديهم وفقدوا الأمل في شفاء "كلاوديوس كولار" لأنهم توقعوا أنه سوف يسكر حتى الموت. لمحوهُ فجأة جالساً في "البرج" وأمامه كأس "صودا" مما جعلهم يصفون حالته بسخرية القدر.

"نعم لا يصحُ أن أشرب!" قال بصوت جليل.

"ولماذا بشكل مفاجئ؟"

"لأنه قال لي ذلك. الكحول هو سُمْ! إنه مُحق في كلامه ويقول حقيقة مقدسة!"

أدركت في حينها أن التلفاز رحمة. لأنه ينقذ حياة البشر.

13

"أفعل بيك– بيك، حين أكون طائراً"

"ومتى تكون طائراً؟"

---

[73] إرشاي : نوع من العنب

"طائراً أكون... حين أفعل بيك- بيك!"

بهذا الشكل كنت أتكلم مع "بوني" الذي بدأ يكبر أمام عيني.

اعتبر وضعه لسانه بين القطب السالب والموجب للبطارية المسطحة أكبر تسلية. كان يشعر بالمتعة حين يمر التيار الضعيف فوق لسانة ناشراً طعماً خاصاً.

"تلك اللصاقة التي كُتب عليها *بطارية مالحة* هي إشارة لذلك؟" سأل بعد عدة سنين، حين تمكن من القراءة.

شعر بملوحة الطعم، وربما ببعض الحموضة. لا — ملوحة.

حين تعلم الركض قليلاً، بدأ يُحب الرحلات.

في حينها، ذهبنا نحن الثلاثة إلى "ديفين" — سوزانا، بوني، وأنا، كما أرسلت معنا ابنة عم سوزانا طفلتها "مارينكا" البالغة سبع سنوات التي لم تجد مكاناً تتركها فيه لأنها مضطرة للبقاء في العمل حتى في يوم عطلة السبت.

أطلت شمس أيار الدافئة، وأزهرت أشجار الكستناء البري. ظهر تحت أطلال القرن الثامن عشر خط الحدود مع أسلاكه الشائكة، حيث تتمدد النمسا وراء نهر "مورافيا" — كان بوسعكم رؤية ذلك المشهد من تلة القلعة. سألتْ "مارينكا" إذا كانوا هم خلف الأسلاك أو نحن. لم أعرف بماذا أجيبها. رفعت كتفيها وقالت، لا بد أنهم خبؤوا كنزاً نادراً هناك خلف النهر بسبب تلك الحماية الدقيقة، وأيضاً لم أجد ما أقوله.

أشرفت الشمس على المغيب حين وصلنا إلى البارك الموجود تحت القلعة. فتحت السيارة واكتشفت أن الباب الأمامي من جهة "سوزانا" معطل، حاولت إصلاحه حين كان الأولاد يمرحون. الهدوء يعم المكان ما عدا بعض المتسكعين، وزقزقة عصافير المساء وأصحاب الأذناب الصفراء.

ركض "بوني" واجتاز الشريط الواطىء الممتد على أطرف موقف السيارات. سُمع من الأعلى فوق فرس "ديفين" صوت طقطقة وانفجار. أطلقوا قذيفة تحذير. امتلأ سطح "مورافا" خلال دقائق بالقوارب وبأناس يحملون بنادقهم الرشاشة، جعلوا يُمشطون أطراف النهر. فحدث نشاط وصياح.

ارتعبت، وتمكنت في الحال من فتح الباب "المُروكب". صرخت "سوزانا" لأنها انتبهت لما فعله "بوني"، فقفزت باتجاهه، وأمسكت به ثم دفعته إلى داخل السيارة، ولكن مجموعة من الرجال المُسلحين بلباسهم الرسمي كانوا قد اقتربوا منا بخطوات سريعة.

أحدهم أشار باتجاه "بوني": ذاك في الكنزة الخضراء!"

كان "بوني" يرتدي كنزة زرقاء ولكن الأمر بالتأكيد كان يتعلق به. أحاط بنا حرس الحدود برؤوسهم المرفوعة.

"ماذا يعني ذلك التصرف؟!" صرخوا في وجهي.

"لا شيء."

"ماذا تفعلون هنا؟"

"رحلة"

"أوراقكم الثبوتية!"

سلمتهم دفتر تعريف المواطنة. حارس الحدود الذي أشار إلى "بوني"، رفع من وتيرة صوته.

"هل عندكم أقرباء في بلد أجنبي؟!"

أدرت رأسي. ظلوا واقفين لحظة دون أن يتخذوا أي قرار. لم يخطر ببالهم على الأغلب أي سؤال. رموا دفاتر تعريف المواطنة فوق ظهر السيارة، استداروا وغادروا.

"انتبهوا إلى الصغير! إنكم هنا في الحزام الحدودي!"

عبرت الطريق الواصل إلى "ديفين" من براتيسلافا سيارات ملأى بالجنود بسرعة كبيرة.

ابتسمت، وقلت: "إنهم بالتأكيد مسرعون إلى هناك بسببنا!

"آدم، توقف، بسرعة" صرخت "سوزانا".

شحب وجه "مارينكا" بشكل لا يمكن تصديقه، وفي اللحظة التي توقفت السيارة على طرف الطريق، نزلتْ بسرعة، وتقيأتْ في طرف أحد فروع "الدانوب" الضحلة.

قالت "سوزانا"، إن ما جرى لها سببه الضغط النفسي. ترجلتْ من السيارة وحاولتْ تهدئتها.

بهذا الشكل انتهت رحلة السبت الجميلة.

تمشيت هبوطاً من مبنى التلفاز باتجاه ساحة الانتفاضة السلوفاكية التي توقفوا عن إطلاق اسم ستالين عليها منذ فترة وجيزة. كانت تلوحُ في الأجواء إشارات ما قبل العاصفة بالتأكيد، لأني أتذكر كيف توقف الهواء بين البيوت والتصقت ثيابي الداخلية على جلدي. أبطأت خطواتي في الزاوية بالقرب من "بولونيا الجديدة" لأني لمحت امرأة على طرف الرصيف. لم أتعرف إليها في البداية، ولكني أتذكر كيف أحسست بخشخشة في صدري، وبعد عدة نبضات، قفز صدري، أدركت في الحال أنها "أدا".

لم أرغب في الاقتراب أكثر. بقيت على بعد عشرة أمتار منها وجعلت أتنفس دخان السيجارة الخارج من فمها. فكرت أن ذلك الدخان عبَرَ قبل ثوان مكاناً ما من وسطها. شعرت ببرودة لذيذة تسري في عروقي، أحسست بوجود شيء ما في منتهى الحميمية يوصل أحدنا بالآخر في تلك اللحظة، ولكني مع ذلك لم أتجرأ على لفظ اسمها. الدخان جعل يقرصني في أنفي. بدأت أسعل، حولت رأسي كي لا تعرفني.

وجدتها في غاية الروعة، وقدرتُ المضايقات التي عليها تحملها بسبب جمالها. الشكل الخارجي هو قسم من القدر (إضافة إلى أنه قسم من شخصيتنا، ولكن القلائل يدركون ذلك).

وهكذا فإني وقفت هناك فقط. كلام غير مناسب في لحظات غير مناسبة- نمصُ قطعة حجر في فمنا في لحظات القرار إلى أن توقفت سيارة تاكسي، صعدت واختفت.

قريبة، ولكنها بعيدة جداً.

الفصل الرابع

الكلب يسبح عكس التيار

1

تلك الصورة من مجموعة رسومات "غويا" من البيت الأصم تحمل اسم *الكلب يسبح عكس التيار*، تُمثل كلباً يمُدُّ رأسه خارج نهر مُظلم. الكلب يسبح على خلفية لون شاحب مائل للأصفر (لون الصورة القديمة)، وليس واضحاً على الإطلاق ما إذا كان كلباً حقيقاً، ما إذا كان الذي يسبح فيه نهراً حقيقياً. ربما يُصور بقعة على الحائط. "غويا" لم يترك أي مفتاح.

الصورة تتداخل في خيالي مع لقطة أخرى — الصورة سيئة لأنها لا تُظهر بشكل جيد الكلب الأسود الذي يُصارع تيار النهر على خلفية سمكة الحيار الهلامية حيث تتطاير ذرات الماء من حوله. الكاميرا تتحرك، أنتبهُ في الحال إلى وجود الصبي "ألفونس ترنوفسكي"، والدي، يقف على طرف النهر ويبتسم. إنه يعتزُ بأداء الكلب. اسم الكلب "بولي استر"، ربما يكون أول كلب نقتنيه.

أرى من جديد المسبح الصيفي المكشوف الموجود على ضفة "سالافا".

والدي يتطلع إلى الجهة الثانية حيث كنت أسبح وقد ثُبتَ الحزام حول صدري. المدرب يمشي ببطء فوق الأرض المصفوفة بالقرميد على

طرف المسبح، وهو يمسكني بقضيب. أبي يرتدي بزة بلون الكريم مع الصدرية والسترة إضافة إلى طاقيته المائلة على جبينه خوفاً من أشعة الشمس، أسمعه أحياناً يقول:

"أداشو" لماذا لا تُسّرع حركتك أكثر كما يقول لك السيد "كوباسني"؟!

ولكن الماء، وكأنه يزيد من مقاومته.

الصورة تُغطيها صورة أخرى موجودة على الصفحة التالية من الألبوم.

كل ساعة في هذا البيت تشيرُ إلى وقت آخر. ودائماً إلى الوقت الخطأ الذي يسيل دائماً على جميع الجهات مثل كمشة كرات صغيرة.

حين وصلت البارحة، قمتُ بربط ساعة الجدار الكبيرة المُعلقة في الصالون، وأخرى في المطبخ، تماماً كما المنبه في انفرادية والدي. بعد أقل من يوم سلك الوقت في كل واحدة طريقه الخاص.

بعد وقت قصير ستتوقف جميعها، ولكنها، وبقدر ما لديها من قوة سوف تدفع بالزمن باتجاه المستقبل الذي لا مفر منه. كل واحدة ستتوقف عن الحركة في وقت مختلف. الحادية عشرة والنصف، الثالثة، السادسة والربع... بدأت أشعر وكأني غريق في قاع بحر عميق. غريق وميت.

أجمع عدداً من تلك الأشياء التي تستأهل أخذها من هنا. أغادر المكان، وأودّعه بطريقتي الخاصة. قمنا في منزل "فويتا" القديم الموجود في شارع "سزابوفا" أثناء الوداع بالرسم على جميع الحيطان. أخفى "بوشكار" قبل تسليمه مخزن الحلويات الحشرات في الفطائر. أنا أمرر يدي على الجدران، وأتابع خط الألوان فوف الأثاث المنقول، وأحاول في الوقت ذاته اكتشاف السبب الذي جعل هذا البيت يشدني. لا يمكن أن يكون شيئاً آخر سوى اللعنة.

الزوايا تعتبر شيئاً فريداً — تعيش حياتها الغامضة الخاصة. وباستثناء جوز عيد الميلاد المرمي في الزوايا فإن الإنسان لا يجد فيها شيئاً. ولكنه يُخطئ.

وماذا عن جورب والدي الضائع الذي استولى عليه بولين رقم 5 أو 6؟ وماذا عن حَجَر "بتر" القديم (الأمونيت) الذي أحضره من مكان غير معروف ونسيه في الحال... السيارة الصغيرة الرمادية المُهشمة التي كنت ألعب بها.... والغبار، وكمشة الوبر والشعر، الحشرة الميتة والعنكبوت.

حين أراني "بتر" وجهه في "بريجاني" بعد سنة من سُبات الشتاء مثل الدب، قرفص، وكَوَّر جسمه في زاوية غرفة والدتي حيث شعر هناك بالأمان حسب قوله.

قال أحدهم: لم يترتب العالم حسب الأسماء الأساسية بل حسب الأسماء المضافة. تلك الأسماء التي تلاحقني الآن باستمرار ودون توقف.

المحطات، تلك محطات القطارات! نفس اللوحة في كل مكان، والكتابة نفسها: *قُتلتم كي نحيا*. *1945-1939*. نفس البازلت الأسود، والمرمر الرمادي نفسه، نفس الغصن الحزين، أسماء مختلفة... صنّعوهم على الأغلب في معمل واحد، ونصبوهم بشكل احتفالي في ذكرى إس إن ب*[74] — مع الموسيقا والزهور. نفس القرنفل الأحمر. من يدري لماذا عند محطات القطارات بالذات؟

عبارة إهداء ذهبية تلمع في صيغة الجمع — ولكننا وضعنا اسماً واحداً. اجتهدوا في البحث عنه في "بريجاني". الأموات مادة نادرة، الأموات المناسبون، أفضلهمْ الذين سقطوا في شتاء 1944. أخيراً وجدوا أحدهم، وبدلوا كنيته. ربما كان عندهم الأمر سيان. فلم يهتم أحد به. وعزفوا لحن *مسير الشهداء الثوار*، ألقى رئيس اللجنة الوطنية خطبة، اثنان من المحاربين القدماء وقفا هناك، وصدراهما مليئان بالنياشين إضافة إلى وفد من براتيسلافا، وصل على متن "شست ست ترويكا"[75]، سحبوا الطلائع، الذين فرحوا لأنهم خرجوا قبل انتهاء الدوام، بسرعة من مقاعد الدراسة. ولكنهم وجدوا صعوبة في تصنع الفرح من الاحتفال. فاختفوا بعد ذلك في أماكن مختلفة.

---

[74] إس إن ب : الانتفاضة الوطنية السلوفاكية

[75] شستست ترويكا : السيارة الرسمية التي يستخدمها مسؤولو الدولة

اتصلوا بوالدي في حينها. سكة الحديد، السيارة المحطمة، والد "فويتا"... وجد كل شيء. حين وصل طبيب الشرطة في النهاية، استدار والدي وغادر دون أن ينبس بكلمة واحدة. صرخوا عليه، ولكنه لم يسمع شيئاً. باستثناء الصفير الذي لا يُحتمل في أذنيه.

بعد ذلك جعل يغفو كثيراً بشكل مباشر في العيادة (أعرف اليوم بالتأكيد أن لصديقه "لومينال" أصابع في ذلك) بالرغم من وقوف المرضى أمامه عراة حتى الخصر.

يصحو بعد لحظات، ويقول بحسرة وازدراء:

"اقترب، وأخبرني مباشرة في أذني! ما الذي يبربره من تحت أنفه! ، ما الذي يزعجه؟ ولكن بشكل جيد وبصوت مرتفع!"

احتفالات العائلة، وغداوات يوم الأحد، لم تَعُدْ مركز اهتمام أحد. بقيت المشاهد المسرحية التي دُربوا عليها بشكل سيء ذاتها، ومن ثم تساقط الممثلون واحداً تلو الآخر من أدوارهم. في اللحظات حين يتوهُ ويذهب كل شخص في تفكيره إلى مكان آخر، وحين يحاول الجميع الانتهاء من الطعام بسرعة وشرب القهوة وتناول الحلوى، كي يتمكنوا بأسرع وقت من المغادرة. لقد قاموا بواجباتهم، أليس كذلك؟ يتظاهر أبي في تلك اللحظات بأنه طبيعي وبسيط، وعفوي. يُزقزق، يمزح، يؤنب، وينصح. لقد أحب وظيفة رب العائلة.

وحين كنت أنجح في التملص للحظة من المحادثة بشكل عام، وأمسك في الزاوية من شدة حنقي بإحدى المجلات، وأبدأ بحل الكلمات المتقاطعة، يقتربُ أبي مني ويتطلع من وراء ظهري.

"عندك إشارة؟ سنرى ماذا دسست هناك... الغليان على طريقة الشعر، لا يوجد حتى مساعدة، يهمهم... إنك جيد... هذا سيء، عليك أن تضع هناك... لننظر... اسم أنثى... لو أنك تطلعت في الروزنامه، لاكتشفت أن 25 أيلول هو يوم عيد اسم "يولانا". لقد كشفتك — حرف "الإن" تكتبه مثل دبليو، عليك أن تمده أكثر... يُحرك "الشواية" في الفرن.

عندك أشياء سهلة! أرأيت، تكتسب في الحال شكلاً مختلفاً. هل توقف القلم عن الكتابة؟ هل هو مغمس في الدهن أو في شيء آخر...؟ هل اخترعت كلمة جديدة... مذيع أسكيزا. أسكيتا... صح. انتظر... انتظر...!"

أوصلني إلى حدود الغضب.

كأنه أحس، فجأة توقف عن ذلك، مر وهو يبتسم حول "سوزانا" التي كانت تتحدث مع "تينا"، خرّبَ شعر الصغير "بوني" ثم تحدث مع العم "رودو" عن إحدى الإشاعات. يُقال إن خروشتشوف تسلّم أثناء زيارته الرسمية إلى ألمانيا الاتحادية من رئيس الوزراء أحدث موديل مرسيدس كهدية. وجلس في الحال خلف المقود كي يختبرها — ولكنه اصطدم بأقرب شجرة. فأصبحت تلك الحادثة أفضل إلهام لرسامي الكاريكاتير في مجلة "شبيغل".

أمي حملت الفناجين الفارغة وتطلعت إليه بقرف. همست في أذني قائلة: حين لا نكون حاضرين، يُمضي وقته محبوساً في منفردته بهدوء أو يتسكع في مكان ما. لا يقول لها في بعض الأيام ولا حتى كلمة واحدة.

وصلتْ قبل عدة أيام من سفرتنا الأخيرة بالقطار للملازم الأول "روشكو" دعوة مكتوبة على الآلة الكاتبة:

الرفيق المحترم!

الآن كما في العام المنصرم في الذكرى العشرين لتحرير تشيكوسلوفاكيا، سيشارك المقاتلون ضد الفاشية في مسيرة الأول من أيار في الصفوف الأمامية. لذا نطلب منك أن تشارك بفخر في تلك المسيرة بوصفك أحد المقاتلين. ولكي نُظهر للرأي العام انتماءنا المشترك، وأننا نحتفل بالاشتراك مع الطبقة العاملة في الذكرى العشرين لاستقلالنا. شاركنا في مسيرة الأول من أيار! من الضروري وضع جميع الأوسمة على الصدر. سيقوم منظمو الاحتفال بوضعكم في الصف المناسب.

إننا على قناعة راسخة بأنك لن ترفض إلقاء خطبة في المسيرة المشتركة مع الطبقة العاملة التي تنتمي إليها. شاركنا، رفاق الدرب بانتظارك!

إقرار. الاسم.. العنوان.... أبلغكم بأني سوف أشارك في مسيرة الأول من أيار وعندي تلك الأوسمة.... سأحضر في بزة الاحتفال الرسمي، نعم، لا. / شطب غير الملائم /.

التوقيع.

لم تصله قبل ذلك مثل تلك الدعوات. وبسبب طباعه الحادة — وصف لي "فويتا" كيف رمى والده وهو في حالة من الغضب الشديد جهاز الهاتف الجديد من خلال النافذة المغلقة لأنه لم يعرف كيف يتصل بأحدهم — أعاد الإقرار إلى مرسليه.

احتفالات "بريجاني" في الأول من أيار عام 1965 كانت رائعة بامتياز. وافق أصغر ثائر سلوفاكي "يانكو غيرتلي شوكوفتس" من "تشرني بالوغ" حامل وسام الشجاعة على حضور الدعوة. في عام أربعة وأربعين، وكان في التاسعة من عمره، هرع في الشتاء أثناء العاصفة إلى القرية المجاورة لطلب العون من الثوار ضد الجنود الألمان. إنه الآن في الثلاثين، ويبدو كأنه في الخمسين. ألقى من على المنصة خطبة في الرفاق.

رأيته في وقت لاحق، المسكين، جلس وهو في حالة شديدة من السكر وراح يضرب بيده على الطاولة في "البرج" وقد علق على صدره بفخر جميع الأوسمة. قال إنه أنقذ حياة عشرين ثائراً سوفيتياً. نهض بعد ذلك وأنهى كأسه لأن سيارة "شست ست ترويكا" جاءت لأجله.

بعد عدة دقائق وقف شاب آخر، محملاً بالأوسمة وجعل يصرخ: أنا "يانكو غرتلي" الحقيقي..."

ضرب صدره وهو يبكي لأن أحدهم يريد سرقة منجزاته.

قام الملازم الأول المتقاعد "فويتخ روشكو" في اليوم التالي بعد طلوع الشمس بركوب سيارته التي أوقفها على سكة الحديد عند نقطة التقاطع مع الطريق الرئيس بانتظار القطار السريع من براتيسلافا.

تأخر القطار سبع دقائق.

2

حين أرتني "تينا" ذلك الشيء، لم أتوقع ماهيته، يا إلهي، هل يمكن. شيء دائري لينٌ بلون رمادي-أزرق. تفحصه أبي من خلال الضوء، ثم أكد وجود جوف صغير في الفص الأيسر. ذلك الشي كان بالإمكان وضعه على "غرامافون" والدي الجديد الذي انتشرت منه موسيقى إيقاعية آسرة من النوع الذي لم أسمعه في حياتي من قبل. قالت لي "تينا" إنه "جيلهاوس روك" إلفيس، ومع ذلك لم أفهم شيئاً.

تنهدت "تينا" بقرف، وشرحت أن صديقتها بالمراسلة "سفتلانا" من موسكو، أرسلت لها "أسطوانة على الأضلاع"، وأخبرتها في الرسالة المرفقة أنها تقص الصورة الشعاعية — لأنها أفضل ما يخدم لهذا الشيء لأنها مصنوعة من مادة بلاستيكية سميكة — وتفتح ثقباً في وسطها، وتسجل عليها من أجهزة التسجيل. تلك الصورة الشعاعية سرقتها "سفتلانا" من *جدتها* . في تلك اللحظة جاء صوت والدي من الغرفة المجاورة — فلتسألها "تينا" في ردها عن صحة جدتها، وعمّا إذا كانت تعرف أنها مصابة بالسل الرئوي.

الموسيقى المسجلة جعلت تحف، وكأن "ألفيس" يُغني في أمواج البحر.

سجلتها لها "سفتلانا" أمام مركز التجارة "غوم" الشهير في موسكو عند رجل مجهول ببضعة روبلات، كان ينده على الشباب المارين من حوله، ويحمل أسطوانات لفها في كم سترته. وكانت مرنة جداً، أسمتها "سفتلانا" بلاستنكي. وحسب زعمها، هذا هو اسمها في الاتحاد السوفيتي.

حين انتهى "ألفيس"، كررنا الأسطوانة من جديد، ومن جديد. كان أول تسجيل "لروك أندرول" أسمعه في حياتي، فلم أُصدق تلك الروعة.

تذكرت "تينا" أثناء ذلك، أنها التقت قبل شهر في ملعب التزلج على الجليد في "بريجاني" أحد أصحاب الشعر الطويل الذي أهداها صورة نادرة بالأبيض والأسود. رقص فيها المذكور "الفيس"، ولكن " تينا" في حينها ارتابت من الأمر.

همهمتْ دون رغبة: "أها... حسناً... شكراً" ودستها في جيبها. المُعجب وقف مذهولاً للحظة. استدار بعد ذلك وتابع تزلجه حتى النهاية.

ظهر "ألفيس" ولكن بعد فترة ضمن إطار ذهبي على طاولتها.

بدأت هذه الموسيقا بعد فترة وجيزة بالوصول ولكن بقوة إلى الشطر المعاكس من أوروبا. لكن المذياع لم يُرسل موسيقى الروك، كما أعرض التلفاز عن تقديمها. فالاشتراكية لم تتصادق معها. والبث كان يأتي من راديو لوكسمبورغ. "ألفيس، بيتل، كنكس، ليتل ريخارد، شوبي شيكر... "تينا" وصديقاتها لم يتوقفن عن ترديد الاسم من أنفهم: Here is radio Luxembourg! The station of the Stars!

كانت طوال الأيام وحتى وقت متأخر من الليل تسمع "لاكسيك"[76].

نضجت أختي "تينا" وأصبحت أنثى جميلة جداً، ومثقفة يمكنكم رؤيتها والأهم من ذلك سماعها عن بعد. أزعجها كثيراً أنها "لا تسمع" وهي تمشي. ولهذا كانت تحمل معها في جيوبها، وتُعلق على ثيابها العديد من الأدوات التي تحدث رنيناً، "كي لا تضيع في زحام المدينة"

كان عليها في لباسها أن تلتزم بأساليب الدهاء إذا لم ترغب في استخدام العروض المغرية لموضة الاشتراكية المحافظة الشاحبة التي اجتهد مصمموها وفعلوا ما بوسعهم للتضييق على إغراءات الرأسمالية. التزمت مثل صديقاتها جميعهن بتسريحة "دردول" الكبيرة أسوة بـ"باردوتكا" [77] مع الكعكة المُدورة (غالباً ما كانت تسقط حين تفرد شعرها، وأحياناً حين لا تفرده) التي بفضلها تظهر التسريحة أكبر ومنفوخة أكثر. وكانت ترسم خطوطاً سميكة حول عينيها، وتُطول رموشها بالوسائط الحلزونية المتاحة المصنوعة من فرشاة الأسنان. لم يكن باستطاعتها الحصول على معدات "ديور" للتجميل في بلادنا، ولكن المجلات مع موديلاتها كانت تخدمها بشكل جيد، وتوحي لها

---

[76] لاكسيك: اختصار لراديو لوكسمبورغ

[77] "باردوتكا": الممثلة الفرنسية: بريجيت باردو

بالكثير. غنمت "تينا" شبكة من الوالد، كان يضعها على النافذة ضد الذباب والبعوض – شدّتها حول خصرها بالمطاط، وخيطتها من الأسفل ثم ارتدت عليها ثيابها التي بقيت في الأعلى ملتصقة بجسمها في حين بقيت في الأسفل منتفخة إضافة إلى الكعب العالي، وجوارب النيلون النادرة كثيراً والملأى بالثقوب. "تينا" الحيوية، ربما كانت تحملها كل يوم للرتي عند السيدة "ملانكوفا". والدفع حسب عدد الثقوب.

أعلن المدرسون حرباً صليبية ضد تلك الصرعات الجديدة، وهذا ما اشتكت منه حتى "إلا" أخت "فويتا". إذ ركزوا على الشكل الخارجي، واللباس، فلنسمّه أي شيء، إلا أنهم عند كل دخول إلى المدرسة جعلوا يقيسون بالمسطرة إذا لم يكن البنطال في أسفله عريضاً أكثر من اللازم، أو على العكس أضيق كثيراً من اللازم. تعاملوا مع الشَعْر بالطريقة ذاتها – دون إفراط في الطول، ولا حتى المرج الكندي الذي حمله قبل فترة على رأسه لاعب الهوكي "دوسبورغ".

قامت "تينا" بسرعة بتجهيز شهادة سواقة مما أوصل شارعنا بأكمله إلى حالة من الذهول لأن النساء نادراً ما يجلسن خلف المقود. وتأكدت من ذلك حين قام والدي بعد "شرية" موفقة لسيارة شكودا كوبي 1202، بإهدائها سيارة الشفروليه القديمة. فأخذتني في إحدى بدايات سواقتها معها بوصفي مُدرباً. لم تتوقف عند تقاطع "فورشيلوفا"، بل تابعت السواقة، ومن ثم لم تمنح الأفضلية لسائق سيارة النقل المُسرع الذي لولا القليل لاصطدم بنا. وتمكن في اللحظات الأخيرة من فرملة السيارة. – مال برأسه من النافذة وصرخ:

"لا تعرف القيادة أيها العاهر!

ردت عليه "تينا" بسرعة بديهة، وبصوت رقيق بعد أن مدت رأسها من نافذتها بسرعة:

"عفواً – عاهرة!

كانت حساسة فيما يتعلق بالجنس.

تعطشت للسفر. إذ بدأت تشيكوسلوفاكيا بالذوبان ببطء مثل رجل الثلج، وصلتها في منتصف صيف عام ستة وستين دعوة من صديقتها "بولينكا" التي غادرت "بريجاني" بعد حادثة موجعة مع الجنود الروس في المرحلة الأخيرة من الحرب أفقدتها عذريتها، غادرت "بريجاني" مع عائلتها إلى إنكلترا في خريف 1945، حيث سكنت في لندن في حي باركينغ. اقترحت على "تينا" رحلة مشتركة في الطبيعة وصولاًإلى سكوتلاندا، والجزر الشمالية. "أوركنيا أو شتلاند، لا أذكر.

مع الصدأ الذي أصاب الستار الحديدي في تلك السنوات السعيدة، استغرقها تأمين جميع الأوراق اللازمة وقتاً طويلاً حتى بدا الأمر وكأنهم لا يريدون ترك أختي تسافر خارج الحدود. لهذا السبب تدخل والدي..

كان له رأيه الخاص بإنكلترا، ولكنه ضعفَ أمام ابنته الوحيدة. فتوجب عليها أن تصارع رغبته في امتلاكها إلى أكبر وقت ممكن مع إمكان تنفيذ جميع رغباتها التي ولدت في رأسها الجميل.

تسكعت "تينا" في عام 1967 في إنكلترا مع "بولينكا" وعدد من الصديقات، وأرسلت بطاقات بريدية إلى الوطن. بدلت العديد من أماكن العمل، وسافرت. وكتبت قصيدة جميلة عن شوارع لندن، ربما يمكنني العثور عليها في مكان ما. كما كتبت قصيدة أخرى تصف فيها شوارع أدنبرة، وأخرى عن شوارع كيركوال – الموجودة في جزر "أوركني". تمتعت بإحساس جيد وبالحرية.

كتبت في إحدى البطاقات أنها ربما ستبقى هناك مما أحدث عاصفة في منزلنا في "بريجاني".

نكرتْ في البطاقة التالية كل شيء، وكتبت أنها تعرفت إلى شاب وسيم، اسمه "ترفور توبكينز"، أنهى دراسته منذ فترة وجيزة، ويعزف في نوادي الجازعلى البيانو. تعرف أحدهما إلى الآخر في المخيم.

ووصلت بعدها بطاقة، كتبت فيها بأنها ستعيش مع "ترفور" في بيته الصغير في لندن –إيست إند. وربما ستختاره زوجاً.

أصيب والدي في ذلك المساء، وبعد قراءته البطاقة بانهيار عصبي.

يتحركُ الوقت أحياناً مثل البُزيق، ولكنه ينطلق بعدها بشكل أسرع من حصان السبق في لحظة غير متوقعة.

3

"موناكو"، كان مدخناً شرهاً. ظهرت تلك الحقيقة أثناء مكوثه في المشفى. إذ نقلوه إلى العيادات الشاملة في "بريجاني" لإصابته بكسر مُعقد في الساق. وحين وصل أبي لزيارة معرفته القديمة وجد أمامه قطعة مرتجفة من العضلات القوية. جلس على طرف السرير، وجعل يراقب تشنج أطراف "موناكو" الموثقة، تارة يصرخ وحيناً يهمس أشياء غير مفهومة.

بدا كل شيء في البداية على ما يرام، فقد تمت العملية بنجاح، ردوا الكسر بشكل جيد ثم ثبتوا الساق بالجبس. أحس "موناكو" فجأة أن السقف وقع عليه في اليوم الرابع حين توقفوا عن تقديم الأدوية المضادة للألم.

"هذيان" قال رئيس القسم لزوجته. "سنوات طويلة من الشرب اليومي، وتلك هي النتائج! أتمنى ألا تترك أي أثر."

أبي تابع بصمت كيف كان "موناكو" يضع يده على فمه، ويسحب من السيجارة التي يتخيلها هناك، وينفث الدخان غير الموجود أصلاً. قال لوالدي بصوت مرتجف وخائف، إن جيشاً من الحشرات يزحف فوق غطاء السرير وأنه حاول قتلها ولكنه لم يعد يقوى على فعل ذلك. تَرجّى أبي أن يقوم بقتلها بدلاً منه. وحَذّر من أنه شاهدها كيف تقتل في الغرفة المجاورة أحد كبار السن. لقد جروه مُدمى إلى العالم السفلي — ولا تزال بقع الدم موجودة، انظر، انظر، انظرا

لم يتذكر"موناكو" في وقت لاحق أي شيء. أحس بوهن شديد لا يُصدق فحسب. فوصف له أبي بعض الأدوية المهدئة.

"لومينال" كان النجمة الثابتة التي أعرفها جيداً من الكرتونة ومن البقايا في سلة مهملاته .حين اكتشفتُ حبوب "دكس فنمترازين"[78]،

[78]دكس فنمترازين: حبوب منشطة

اختار هو المُسكن السويسري "تاتستين". الذي كان زميله يرسله إليه من الغرب. أخبرني مرة أنه يشعر بعد تناوله براحة عميقة وسكينة. سكينة. هذا ما بحث عنه بالضبط.

العائلة بأكملها كان لديها الرغبة في تحسين نفسيتها بالأدوية. لقد وجد كل فرد فيها ضالته على طريقته الخاصة، ولكن كيف الوصول إليها، وأين يُخفيها. لو أن أحدهم أشعل فوقنا المصباح في لحظة صفاء، فسوف يُمسكنا وأيدينا خلف الكتب في المكتبة، في المزهريات، أو مباشرة في خزانة والدي الطبية حيث توجد عُلب الأدوية الفارغة، وظروف أدوية النوم الفضية، وحبوب ضد الألم، وغيرها للتنشيط، أو للتثبيط أو لعلاج التوتر. لم يظهر أي شيء للعلن، كنا نشكُ أحياناً فحسب. "بتر، تينا والدي، وأنا".

حتى والدتنا عاشت مع علبة من أربعمائة غرام "إيبالجين" في يد، وفصيلة "الديازيبام" في اليد الثانية.

أفكر أحياناً أنها ربما طريقة حديثة لعلاج الأعراض المعروفة بعد تناول السلوفاك لكميات من الكحول بغية تحسين مزاجهم.

التسجيلات من مرحلة "دوراتني" الأخيرة غير موجودة في ملفات والدي. بعضها تم إتلافه وبعضها ضاع —وهذا ماتؤكده الملاحظات المكتوبة يدوياً. لقد تسببت له "تينا" ببعض المشكلات ولكن في المقابل — ضعُفت في تلك الفترة سلطة مؤسسة الساحر الأسود[79]. أكثر من ذلك، لن نعرف على الإطلاق.

في أبريل السنوات الثمانية[80]، حين كانت الأمور تغلي وتفور جميع أرجاء البلاد، نزلتُ من الطائرة في مطار هيثرو في لندن حيث كانت بانتظاري "تينا" مع "ترفور". ولدهشتي الكبيرة، تمكنت بسهولة من الحصول على إذن بالسفر مع تأمين جميع المستندات اللازمة.

---

[79] الساحر الأسود هو تعبير عن سلطة مؤسسة الأمن ، استعارة لفظية من إحدى حكايات الأطفال

[80] الثمانية : تعبير يشير إلى الأحداث التي جرت في العام الثامن من الأربعينات ، الخمسينات ..
48أو،58أو،68، الخ

كان الجو ماطراً. وقد أحضرتُ معي الكاميرا. "ترفور" الطويل، أزرق العينين، النحيل ذو الشعر الصدئ والوجه المليء بالنمش. بدا سعيداً في الصور المأخوذه له مع "تينا". لقد تزوجا قبل عدة أسابيع مما جعل إقامتها في إنكلترا نظامية. بيتهما موجود في الإيست إند من حي "وايت شابل" في مبني من القرميد في شارع "برادي" القريب من مقبرة اليهود، صغير، أنيق، ودافئ.

توظفت "تينا" في معمل خياطة صغير، وأحرزت تقدماً في عملها. (ستفتتح بعد خمس سنوات صالون موضة خاصاً وسوف تُطلق عليه "دوبل ت" — اختصاراً لاسمها- تينا تومبكينز. إنها تتوق لذلك، ولكنها لا تعرف ما سيحدث. إنه تصور جميل للمستقبل. وللكتابة عنه.)

لا ضرورة للتذكير أني لم أكن أفهم كلمة إنكليزية واحدة — ساعدني وصل بعض كلمات الأغاني التي التقطتها من راديو لوكسمبورغ. كنت أعرف ترديدها تقريباً عن ظهرقلب . بالطبع لم تكفِ معرفة *all you need is love* حتى ولو كانت مثالية لذلك الوقت. وأيضاً *would ,t it be nice* أو its gonna work out fine تكون مناسبة. في النهاية كلهم فهموني.

توقفنا في أحد المتاجر المخصصه لبيع الآثار القديمة القريب من شارع برادي. الرفوف كانت قريبة من بعضها وغير مُرتبة. أحسست بحرقة في عيني من الغبار. وقد منعني جهلي بالإنكليزية من الشعور بالمتعة التي أشعر بها في أماكن مشابهة عندنا. ولكني مع ذلك وبعد استخدامي حاسة اللمس، وتقليب العديد من المغلفات (مما أزعج كثيراً صاحب المخزن، النحيل الناشف وجعله يبدو عصبي المزاج، وأكثر من ذلك جعل يتفحصني ويراقبني ويتطلع في الضماد الموجود على جبيني). اخترت في النهاية كتاباً ذا غلاف أخضر مهترئ كتب عليه بخط أبيض، *جورج أورويل، ناينتين إيتي –فور، رواية*. كنت قد سمعت عنها. وحين دفعت ثمنها، شعرت بالنمل يسري فوق ظهري لأن كتب هذا الروائي ممنوعة في بلادنا. اهتممت كثيراً بما يحتويه ذلك الكتاب من غموض وخطورة، لذا قررت أن أعرف ذلك مهما كلفني الأمر.

وجدت مباشرة ما يلي في الصفحة الأولى من الرواية: الأخ الكبير يراقبك big brother is watching you، العنوان يقول (بالإنكليزية) بينما تتطلع العيون الغامقة بعمق في مملكة وينستون.

في الصفحة التالية بالتتابع: الحرب هي السلام، الحرية هي العبودية. الجهل هو القوة.

أردت رؤية "أبي روت" مع الغرفة حيث تعودت فرقة "بيتلس" العزف فيها. ولكن خاب ظني قليلاً لأنه بدا لي مثل أي طريق عادي في لندن. لا أعرف ماذا كنت أنتظر.

مررنا في طريق العودة مع "تينا" و "ترفو" من "هايد بارك" الضخم الذي قسمته بحيرة ضيقة طويلة. التقينا في الطريق العديد من أصحاب الشعر الطويل في ثيابهم مختلفة الألوان مع الحلي المزخرفة، وهنا وهناك سيجارة – إنه عُشُهم بالتأكيد.

ظننت أنه افتراء، ولكن في الحقيقة، انتشرت في زاوية شكسبير بالقرب من "ماربل أرك" مجموعات مختلفة حيث يقوم الخطباء بإلقاء كلماتهم. بعضهم يقف على قواعد مرتفعة. باستثناء العائلة المالكة وقلب الحكومة، يُمكنهم التحدث عن أي شيء – أثرت استغراب "ترفور" حين بدأت أضحك بشكل هستريائي حين قال إن بين المتحدثين هنا كان ماركس ولينين. تسكع هناك أحد الفقراء وهو يحمل يافطة كُتب عليها: *لا تُصدقوا أحداً بما فيهم حضرتي!* كما ترجمت لي "تينا".

تحدث مباشرة في الزاوية رجل، ظهر الصلع على رأسه عن فيتنام. وقف أمامه عدد قليل من المتفرجين الذين وافقوه الرأي وصفقوا له مما جعله يتحمس كثيراً، احمرتْ أذناه. فتطلعت إليه مسحوراً.

على بعد خطوات، وقف عجوز بثياب رثة وبيده حقيبة كتب عليها "تسكو"[81]. أصغى لحظة وهرش خلف أذنه، وبعد عدة جُمل، أجاب

[81] تسكو: مولات معروفة في أوروبا وفي تشيكوسلوفاكيا خصوصاً

عن بعض أسئلة الخطيب الذي تابع بحرارة. صرخ العجوز من جديد شيئاً. فتردد الخطيب، ثم انتفض، وجه له بعض العبارات، ولكن العجوز قطع له عن قصد سلسلة أفكاره مما جعله يتلمس الكلام بصعوبة. انتظر العجوز لحظات، وقاطعه من جديد. وقد تلذذ بذلك.

تزايد عدد المستمعين. وتحولت الكلمة بأكملها إلى إجابات عن أسئلة العجوز التحريضية. ضحك "ترفور"، وجعلت "تينا" تُدور رأسها. العجوز حسب ما فهمت، لم يكن لديه رأي مخالف، ولكنه تلذذ بالمماحكة. فالمتفرجون يتسلون.

جَمَع الأصلع بعد ملاحظات العجوز الأخيرة حاجياته، ونزل عن المنصة وغادر وهو يتأفف، ويلوح بيديه ذات اليمين وذات الشمال.

اشتم الناس رائحة التسلية، لذا انتقلوا برفقة العجوز لسماع خطيب آخر. اختار العجوز رجلاً نحيلاً كان يتحدث عن النباتيين. حتى إنه أخرج في نهاية الأمر مخططاً بيانياً وجعل يشير إلى وسطه بقلم الرصاص إلى أن اعترضه صوت ذكوري خشن جعل يسخر من بياناته. الرجل غمز بعينه، وشرح شيئاً بصوت مُهذب. ثم عاد إلى البيانات.

انتهى الأمر بالطريقة نفسها كما حدث مع الخطيب السابق. ثم انتقل العجوز وهو يضحك إلى متحدث جديد. لحق به الجمهور الفرح بأكمله بما فيهم نحن الثلاثة.

تحدثَ الرجل الثالث عن أمريكا، وعن الفساد المستشري فيها. تكرَّم عليه العجوز مباشرة منذ البداية بملاحظات قارصة، ولكن الخطيب تصنع عدم سماعه. وحين صرخ العجوز، رفع الخطيب من وتيرة صوته، وتابع ما يريد قوله. اتجه العجوز نحوه مخترقاً الصفوف، وحاوره بشكل مباشر وجهاً لوجه — سمعت اسم *مارتين لوثر كنغ، و روبرت كندي* فقط. حاول مقاطعته، ولكن الرجل انتقل عدة خطوات من مكانه وتابع بعزم.

العجوز بقي في مكانه مرتبكاً. أنهى الخطيب كلمته، وصفق له الحضور بحرارة. فانحنى أمامهم وتابع طريقه. وتفرق المتفرجون.

العجوز يصرخ غاضباً: „What, the hell, you watching؟!"

حمل النادل الأسود الفاتورة لزبون أنيق على مسافة قصيرة في مطعم الحديقة. فصرخ العجوز بهذا الاتجاه. سحَباني كي لا أسمع، ولكنني رغبت في معرفة ما يقوله العجوز من "تينا".

ترجمت لي: *لا تدفع له، لا تعطه أي شيء! إنني أعيش هنا خمسين سنة وانظروا كيف انتهيت! وكل ذلك بفضل أولئك، أمثاله!*

لوّح بحقيبته "تسكو" وهمهم، وهو يبتعد. استدار من جديد وصرخ شيئاً. ترجمت "تينا": *السود نتنون!*

بقيت في أنفي رائحة العجوز فترة طويلة. الكحول، العرق – وربما قطرة بول فوق ذلك. باقة إنسانية رائعة.

أصبحت "تينا" مواطنة بريطانية بشكل رسمي. ولكن توقها وحنينها إلى الوطن ظل يلاحقها بشكل مستمر. لم أندهش حين عرفت أن سلوفاكيا لا تعني لها مجرد "بريندزوفي هالوشكي "العجينة مع القريشة "[82] (التي يمكن القول إنها ليست مولعة بأكلها)، ولا "كابوستنيتسا" [83] (التي كانت تتهرب منها). لقد أمضت تلك السنين بأكملها وهي تطلب إرسال "كافنكي"[84] بالبريد. تقول إنها تتذوق فيها طعم الوطن الحقيقي. حين تقضم منها تنسكب الدموع من عينيها، هذا على الأقل ما أخبرتني به. لقد ورثت فنون المسرح من والدتنا. لم يفهم "ترفور" أبداً أي شيء، ولم يتمكن من ذلك أيضاً. كان يشعر أن البسكويت الرقيق الإنكليزي "كيت كات" أفضل بمئات المرات. وكانت لديه أسبابه.

بعد عودتي من إنكلترا، شرب "بوني" سفن أب، للمرة الأولى في حياته. أحضرت معي كأساً سحرياً مصنوعاً من البولي أيستلين من

---

[82] بريندزوفي هالوشكي: أكلة شعبية سلوفاكية تتألف من قطع العجينة المطبوخة وفوقها نوع من الجبن الشبيه بالقريشة

[83] كابوستنيتسا: ملفوف حامض، مطبوخ مع اللحم والمرق والفطر والفليفلة الحمراء

[84] كافنكي: بسكويت رقيق مع كريم القهوة

الطائرة. لم يتركهما على الإطلاق . لقد فتنته عملية فتح علبة الصفيح.
وتقنيات سرية مثل قلبها وانتظار الجلجلة، والهسهسة، اللون الأخضر، الكتابة، الرائحة... عشق الشراب، طعم الليمون غير المعتاد، بدا له مثالياً. شربه قطرة، قطرة خلال الأسبوع — واحتفظ لسنوات طويلة بعلبة التنك بوصفها أثراً مُقدساً. "سفن أب" كان له مذاق بلاد الحرية البعيدة الممنوعة، والعجيبة.

حاول أصدقاؤه سرقة ذلك الشيء النادر عدة مرات. وقد حظي باحترام كبير عند أقرانه بسببه. حين تقومون مثلاً بقطع القسم العلوي من العلبة، تحصلون على كأس فاخر لأقلام الرصاص وأقلام الحبر. حصلت علبة الكوكا-كولا على التعويذة نفسها - بعض السيدات في السبعينات كن يحملنها في حقائبهن كحُلي.

"بوني" يلاحق السارقين، ويستعيد العلبة من جديد — علماً أن أحدهم أخذها مرة من بيتنا وخبأها في بطانة المعطف.

وفيما يتعلق برواية "أورويل"، أخفيتها أمام تفتيش الجمارك تحت قميصي. بقيت لبعض الوقت في الدولاب في بيتنا. أعطيتها بعد ذلك لـ- "فويتا" كي يجد إنساناً ملائماً يقوم بترجمتها.

5

مباشرة وبعد تعلمه الكلام، أصبح "بوني" وقحاً.

"بوني، هل تريد كسب عشرة كرونات؟" صرخت به من المطبخ حين كنت أريد منه أن يفعل شيئا.

"لا، أكثر!" جاء رده.

كنت آخذه معي مرة في الأسبوع للنزهة في المدينة، أو لزيارة مبنى التلفزيون، أو لتناول "كرمش" *[85] في مخزن حلويات الأطفال الموجود في ساحة "هفيزدوسلاف".

---

[85] كرمش: نوع من الكاتو الرقيق مع الكريم.

عادت لي الذكريات من "بريجاني" كما في فيلم معكوس إلى الوراء – من خلال تلك الروائح حين انتظرته في ردهة مدرسة الأطفال. كاكاو، كوكتيل حليب، أوزون محروق. الأطفال يتسلمون نظارات سوداء، عليهم أن ينزعوا ثيابهم والبقاء في السروال الداخلي. ينادونهم في مجموعات. الناظرة تعطي الأمر – استدر! وخروج.– رائحة الأوزون المحروق تبقى في الأنف. الضوء البنفسجي الذي يحظر النظر إليه يشدُ البشر. إنها شمس الجبل. (الأشعة فوق البنفسجية). آلة كبيرة تُصدر أزيزاً تشبه تماماً تلك التي كانت في عيادة والدي مباشرة بعد الحرب.

يُحب "بوني" تخيل العنكبوت الأسود الكبير الذي يقترب منه حين ينام الأطفال بشكل إلزامي بعدالظهيرة، وهي العادة التي ترسخت في مدارس الأطفال وأصبحت إحدى صرعات الموضة. ولكنه لم ينم على الإطلاق. حافظ على عينيه مغلقتين بقوة وجعل يُصغي كيف ينزل العنكبوت على الخيط من السقف، وحين يتحرك قليلاً، يهاجمه العنكبوت، و...

"يستيقظ بعد ذلك ويده في "نونية" مبولة الأطفال...! بهذا الشكل يُنهي في أكثر الأحيان حكايته.

كانت أيادينا جميعاً بشكل أو بآخر في تلك الفترة موجودة قليلاً في "النونية".

توقف (البسطار) الكبير فجأة عن الضغط. "دوبتشك"[86] يبحث بهذيان عن *الاشتراكية ذات الوجه الإنساني*. "فويتا" يشك قليلاً في حقيقة وجود وجه إنساني في الاشتراكية، ذكره ذلك بمؤخرة كبيرة – ولكنه سرعان ما انضم إلى تلك المسيرة. نجح في النهاية بإعادة الاعتبار لوالده، ومن ثم تمكينه من الحصول على مرتبة كولونيل بعد وفاته. سألته لماذ لم يطلب مباشرة رتبة جنرال سيما وأنها تُعطي انطباعاً أفضل – ولكنه لم يجد في هذا السؤال ما يشير إلى النكتة.

---

[86] قمت بترجمة سيرة حياة ألكسندر دوبتشك في عام 1993 (الأمل لا يموت) ملاحظة المترجم ألكسندر دوبتشك : صاحب ربيع براغ 68

أصيب من شعوره بالعظمة بشيء يشبه الصدمة، حتى إنه لم يُصدق. ولولا القليل لكان سيختنق. تمكن بعد ركض من هنا إلى هناك في النهاية من الحصول على وظيفة *عادية* في إحدى مجلات براتيسلافا. فكتب بحماس كبير مقالات عن المحاكمات الفظيعة التي جرت في الخمسينات. وتمتع بذلك.

باندهاش كبير بدأ باكتشاف الكتب التي كانت حتى الساعة محظورة. *الدكتور جيفاغو*، نُشر قبل سنة – يقال إن مترجمي الكتاب وجدوه في إحدى مخازن بيع الكتب القديمة بالإنكليزية، والأصل نشرته وزارة الزراعة الروسية، أكد "فويتا، أنهم كتبوا ذلك كي يمنحوا الشرعية لمترجمين آخرين. انتشر الكتاب بسرعة ولكن "فويتا" دسه في مكان ما لغرض الحذر. قرأ بسرعة عجيبة *" يوم واحد من حياة إيفان دنيسوفتشا "* عن الكولاك الروس كما أثاره "هنري ميللر، وبوريس"

شربنا بشكل رمزي في مبني التلفزيون الموجود في الساحة "ميسليفتشكا" [87] "ذات الوجه الإنساني". كانوا في تلك الأثناء يصورون كثيراً في الطرقات، الناس يتحدثون بإثارة كبيرة وشجاعة أمام الكاميرا عن كل شيء يزعجهم. للحظات، بدا أن كل شيء سوف يتغير.

تبادل "دوبتشك" قبلات حارة مع "بريجنيف". بدأت أسطورة عشق صيفي 1968. تبين بوضوح في وقت لاحق أنها في الحقيقة قبلات الموت الدسمة التي تمنحها أنثى حشرة "موديلفكا" [88] الخضراء للذكر قبل موته.

أغلق عيني.. الاثنان في الصورة بالكاد يتحركان. إنهما يذوبان في الرقص الذي يتحول إلى تانغو سريع.

قبل أن تذهب، تمنى أن يكون الله معي.
قبل أن تذهب، امنحني قبلة على الأقل.
أعطني يدك الصغيرة، وامسح جسمي بالإجاصة....

---

[87] ميسليفتسكا: مشروب كحولي خفيف من الأعشاب

[88] موديلفكا الخضراء : حشرة شبيهة بالجراد تأكل الحشرات montodea

التانغو يتسارع، إنه أكثر انزلاقاً وأسوأ أخلاقاً. يُذكر في تلك السرعة الجنونية برقصة – كالينكا.

الواحد والعشرون من آب 1968[89]، أمضيته عند أهلي في "بريجاني".

في منتصف الليل ذهبت وأنا نصف نائم لشرب الماء في المطبخ. بدا الأمر وكأنه استمرار للحلم – كل شيء جعل يهتز، حتى كأس الماء الذي وضعته على طرف دولاب المطبخ. جعل يقفز في النهاية حتى وصل إلى طرف الطاولة ثم سقط على الأرض. زلزال – خطر ببالي.

وقف الجنود الروس أمام مدخل التلفزيون. أحدهم مسلحٌ بالساموبال، اعترض طريقي، ونصحني بالعودة إلى البيت. تمشيت في طريق عودتي بالقرب من مبنى كلية الميكانيك. وقد امتلأت المنطقة بالدبابات. بدا الأمر وكأن الجنود لا يعرفون أين يكونون. حتى إن واحداً منهم، ولا أعرف السبب الذي جعلني أقترب منه وأفتح معه الحديث، أكد صحة فكرتي. جائعون، وسخون، لم يغتسلوا منذ فترة، منهكون. جاءتهم الأوامر، ولهذا انطلقوا. لا بد أنني فقدت بفضل الدفتر الأزرق[90] المنطق العسكري. يكفي هذا المسكين مثلاً أن يقوم مع زملائه بحراسة ذلك المبنى الاستراتيجي واحتلاله. دون شرح للأسباب.

أكثر السعداء كان "بوني" الذي كان قد شاهد الدبابات السوفيتية في الأفلام فقط. شدّني في الحال إلى الخارج كي نذهب ونراها على حقيقتها. فتحسس بعيون تشع بالفرح برج الدبابة الفولاذي، وسمح له أحد الجنود سمح له بلمس بندقيته "الساموبال".

أُشعِلتْ آلاف الشموع الحزينة في المساء في نوافذ المدينة المظلمة.

تمركزت الدبابات في كل مكان حتى أمام المسرح الوطني السلوفاكي. وفُتح بار "تسركل" في فندق كارلتون بعد عدة أيام – الحركة هناك في

---

[89] ليلة دخول جيوش حلف وارسو إلى تشيكوسلوفاكيا

[90] الدفتر الأزرق : دفتر الخدمة الإلزامية في تشيكوسلوفاكيا

المساء صعبة للغاية من شدة الازدحام، عشرون غانية كن هناك بانتظار فرصهن. قيل إن قيادة أركان الروس موجودة في إحدى غرف الفندق.

قرر الضباط الروس النزول إلى هناك. الجميع سكتوا حين مروا من حولهم، والضيوف، تصنعوا عدم رؤيتهم كما حاولوا الانتقال بسرعة إلى مكان آخر. تسلمت فرقة العزف الغجرية أمراً بعزف الألحان والأغنيات الروسية، وجميع الذين جلسوا بالقرب من طاولة الموسيقى خلف ظهري عاشوا حالة من الجلطة القلبية — *سوف يفسرون الأمر على أنه تعاون! وبعد ذلك ستكون نهايتنا!* — نَحَبَ قائد الفرقة.

عازف الكمان المتعرق، وجد الحل المناسب — سأعزف. ولكن ليس الأغنيات المعروفة. تلك التي تبدو مثل الروسية فقط. بدأ في الحال بعزف *الكابتن، الكابتن، ما أسعده...!* من فيلم *"أولاد القبطان غرانت"*، وأنا وجدت صعوبة كبيرة في كبت ضحكي. وبالتحديد حين عزفوا بعد ذلك أغنية "أزنافور" البوهيمية la Bohema .

"لودفو" الذي أراد استعارة الكاميرا مني — ولهذا السبب التقينا هنا — همس في أذني قائلاً إن موظفي استوديو الأفلام في "غوتوالدوف"، قاموا بتبديل لوحات المرور ونقلها من مكانها إلى أماكن أخرى، ومن ثم فإن الجنود الروس لم يتمكنوا من العثور على المدن. الدبابات تدور وتدور ولا شيء.

أنهيت شرب قدح الكونياك وسددت الحساب. غادرت على أنغام أغنيات الثوار. تذكرت من جديد الأغنية المُحببة لجدتي "ماريا"، ولكن بنص مختلف قليلاً — كما فهمت من الأصوات الثملة الموجودة خلف العمود:

ليلة هادئة، ليلة سوداء، جميلة. "شالجوفيتش" مع "بيلاك"[91] *يخونان الوطن. حين سيذهب الليل، ويأتي النهار. سوف تبكي البلاد بأكملها.*

وقف "فويتا" الحزين كحرس شرف عند أدراج الجامعة. عندما أطلق المحتلون دون سبب النار على فتاة في الخامسة عشرة من عمرها وأردوها

[91] شالجوفتش وبيلاك سياسيان شيوعيان قياديان تعاونا مع الروس أثناء غزو تشيكوسلوفاكيا من قبل جيوش حلف وارسو

قتيلة "دانكا كوشانوفا". الأرض غطتها الزهور والصلبان وكومات الشموع. و"فويتا" بقي وحيداً، في حين ذهب الآخرون إلى بيوتهم، أحدهم سوف يحل مكانه بعد بضع ساعات.

جاءه شرطي وقال له: "أيها المواطن، أخل المكان!"

وقف "فويتا" مثل صخرة. وغير ذلك، لم يكن واضحاً له كيف عليه أن يتصرف. اليد اليمنى عليها الانعطاف باتجاه شارع "شتوروفا"، والساق اليسرى باتجاه خط دوستيوفسكي؟ والرأس يمكنه إذاً الانطلاق باتجاه ساحة "شفاريك".

"هيا، أخلوا المكان!"

"فويتا" لم يتحرك، لذا قام الشرطي بتحريكه. انتهى "فويتا" في السجن لعدة أيام على ذمة التحقيق.

كنا نتناول طعام العشاء مع "سوزكا" في المطبخ حين وصل إلينا مستخدماً طريقاً ملتوياً من قصر العدل الذي كان على بعد عدة شوارع من بيتنا. كان واضحاً أنه شرب بعض الشيء، ونحن أيضاً وجدنا الرغبة في تناول النبيذ، لهذا فتحنا زجاجة، وبعد ذلك زجاجة ثانية. النبيذ كان رائعاً، إنه من "بريجاني"، من والدي، من المرضى.

بدأ "فويتا" يتفلسف:

"بداية علينا أن نتوحد في المقاومة، ونحن عازمون — ولكن التوحد يذوب ببطء مثل الزبدة التي بقيت فترة طويلة على الطاولة. تصفرُ بداية، ثم تصبح قديمة، تفقد شكلها، إنها لزجة وتبدأ بنشر رائحة كريهة. أو مثل قطعة متجمدة. يبقى من الكريستال الصلب الماء الذي ينساب تحت الخزانة."

انتفضت وقلت: استعارة أخرى وسأرفسك على مؤخرتك!"

ولكنه كان مُحقاً.

بما أننا أمة من الطيور — مع ريشها ومناقيرها الرفيعة، و أظافرها الصغيرة، وأصواتها الشبيهة بأصوات طيور اليمامة — أخذنا وجهتنا في النضال بطريقتنا الخاصة. لم يكن قتالاً حقيقياً، ولكنه قتال على طريقة عراك

الطيور من خلال الرموز. احتوى فصل المقاومة كل شيء، بما في ذلك ذهابك في الصباح إلى المرحاض، إذا لم يرك أحد. تطلق بعد ذلك لحيتك كرمز للاحتجاج، ومن ثم توفر المال ولا تشتري شفرات الحلاقة على الأقل. الرمزية العميقة تمثلت في باليه *"روميو وجولييت"* الذي قدمه المسرح الوطني السلوفاكي. أدخل العراف شكسبير في النص لعنة غرام تشيكوسلوفاكيا (جولييت) مع الحلم الغربي (روميو) الذي رفضته عائلات المحور الاشتراكي.

الاحتجاجات كانت رمزية في كل مكان. احتججتم وأنتم تُفرشون أسنانكم، وأنتم تنتعلون أحذيتكم، أثناء التدخين، أو أنكم توقفتم عن قصد، احتججتم جنسياً (ولاسيما في الوضعيات الصعبة) وأثناء تحضير عصيدة البازلياء.

أسوأ ما في الأمر أني أنا أيضاً احتججتُ بهذا الأسلوب.

وصلتني في تلك الأوقات الغريبة رسالة من "أرون غرونسكي"، ابن طبيب الأسنان الذي نجح والدي في إقناع والده بعد الحرب بعدم الرجوع من أمريكا الجنوبية. قبل سنوات أنشأت معه صداقة رومانسية عن طريق الرسائل.

مونتيفيديو 69/2/26

العزيز آدام

أكتب إليك بسرعة بعد رسالتك كي يعود الجواب بالطائرة نفسها التي وصلت فيها رسالتك.

تؤسفنا كثيراً تلك التعقيدات المتعلقة بالرحلة — إذ كنا ننتظر على الدوام اتصالك؛ لتبلغنا عن تاريخ مجيئك . تعقدت الأوضاع قليلاً عندي الآن. وحصلت في تلك الفترة على تأشيرة دخول إلى فنزويلا، وكنت بسببك قد أجلت السفر. على كل حال إنني مضطر إلى السفر في نهاية آذار على أبعد تقدير، وهذا يعني أنني سأمضي شهر نيسان بأكمله في الخارج. أريد زيارة جزر تاباغو إضافة إلى فنزويلا، و ترينيداد في غويانا المجاورة كي أتسلى. ستكون تلك رحلتي الأخيرة في تلك القارة لأن مغادرتنا النهائية في السفينة ستكون في الثالث من آب، ولهذا فإني في حوالي الأول من أيلول سأكون في البيت في برشلونة.

أفضل وقت لحضورك سيكون في شهر أيار حين سأكون بالتأكيد في مونتيفيديو، أو في حزيران. في تموز لا، لأني سأكون مشغولاً في التحضير للسفر – ترتيب حوائجي.. الخ. وفيما يتعلق بالتصوير فإن شهر أيار وحزيران لن يكونا مثاليين بالتأكيد لأن الشمس لن تكون كما هي الآن، ولكني أعتقد أن الأمر لن يصل إلى حدود المأساة لأن التصوير ممكن حتى في غياب الشمس التي تظهر أحياناً في تلك الأشهر. فكر إذاً بالأمر، أدامكو، سيكون أمراً مؤسفاً لأنها ستكون الفرصة الأخيرة.

هذا كل شيء وغير ذلك لايوجد عندي شيء مُعين وجديد. أنتظر إذاً خبراً منك. اكتب أيضاً بالتفصيل عن الأوضاع الراهنة عندكم في التلفزيون بعد الفيدرالية وتحت رئاسة الدكتور هوساك. عندي فضول لمعرفة كيف سيكون مؤتمر الشيوعيين. اكتب لي بالتفصيل عن كل شيء.

قبلاتي، آرون

6

سافرت في عطلة نهاية الأسبوع الأخير من شهر آذار لزيارة "أرنوشت" إلى براغ، أخذت معي "فويتا". كنا لا نزال نتسكع قبل غياب الشمس في مساء يوم الجمعة في "براندوف"، ولكننا تابعنا بعد ذلك في بيت "أرنوشت" في التلفاز بطولة الهوكي الجارية في السويد. كنا نلعب مع الروس – الذين تغلبنا عليهم قبل أسبوع 2:0، وهذه الحقيقة جعلتنا نتابع المباراة بشغف كبير.

الجميع إذاً انتظروا نهاية المباراة. كان بوسعنا حساب عدد الأهداف من الصراخ الذي سمعناه من البيوت المجاورة – في النهاية أربعة أهداف مقابل ثلاثة للروس تعني نتيجة رائعة. هنا قام "أرنوشت" وسحب من حقيبة "الماكياج" زجاجة "بخروفكا"[92] وسكب لنا في أقداح مواد التجميل. أثر في المشروب بسرعة كبيرة وقبل أن يقوم "غولونكا"[93] بتقبيل الثلج

---

[92]بخروفكا: كحول مُحضر من الأعشاب يُصنع في مدينة كارلوفي فاري السياحية

[93]غولونكا : لاعب هوكي شهير في تشيكوسلوفاكيا

(نعم — كما أقول _ تلك الستينات ملأى بالحب!)، وأثناء عزف النشيد الوطني، سالت دموعي. لم أذرف دمعة واحدة منذ عشر سنوات.

"هيا بنا... !" قال "أرنوشت".

ترجلنا من سيارة التاكسي في شارع "فوديتشكوفا". وتابعنا طريقنا بعد ذلك سيراً. دخلنا بين جموع البشر — وحسب الأخبار نكون قد انضممنا إلى ما يقارب نصف مليون محتفل في الجمهورية. شربنا "البخروفكا" مباشرة من الزجاجة، وجعلنا نصرخ من الفرح.

الناس يزمرون في السيارات، ويلوحون ويمدون أياديهم وأصابعهم الأربعة المشدودة. انتبهنا إلى وجود عدة لافتات ملصقة على الحافلات الكهربائية كتبت على عجل "نحن — المحتلون 3:14!. الناس يحملون اليافتات والأعلام. الأبواق تُزمر، الموسيقى تصدح من الجهات كلها وتختلط بهرمونية لا يمكن تصديقها مع الأناشيد. حين سرنا باتجاه "الفاتسلافاك" [94]، كان الزحام أكبر حتى إني ومن شدة إحساسي بالنشاط نسيت قلقي وخوفي من الحشود. ولم يعد بالإمكان التراجع. استمر التيار بالتدفق باتجاه نصب القديس فاتسلاف. والليلة العاصفة حملت الجميع. "يان بخر" [95] تكرَّم عليّ من جديد بقبلة تماماً كما فعل مع رفيقي اللذين ضاعا عني ولكني وجدتهما على بعد عدة خطوات أمامي. المتحمسون ملؤوا جميع الشوارع الفرعية المؤدية إلى الفاتسلافاك. وتشكل الجمهور من أناس حضروا بعفوية.

كان الوقت يقارب الحادية عشرة مساء حين وجدنا أنفسنا دون تخطيط مسبق أمام الفترينة المضاءة لشركة الطيران الروسية "أيروفلوت". الأبواق، وأهازيج الفرح جعلتني أصمّ بالتمام، ولكني مع ذلك سمعت صوت تكسير الزجاج. تعثرت بقطع من البلاط الموجودة على الأرض على طرف الرصيف علماً أنني لم ألمح المثلث المضيء الذي يُصور العامل

---

[94] فاتسلافاك : ساحة القديس فاتسلاف : أشهر ساحة في وسط براغ

[95] يان بخر: صاحب معمل بخروفكا"

محني الظهر في إشارة إلى أنهم يقومون بإصلاح شيء ما. لم أشاهد شيئاً من هذا على الإطلاق.

"شاباي، شاباي، واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة... هدف!" جعلوا يصرخون بملء حناجرهم. أحدهم انحنى على الأرض.

رمى قطعة حجر على الفترينة، سمعت صوت تكسير الزجاج من جديد، مرت بعدها قطعة زجاج بالقرب من وجهي.

للحظة، وجدت نفسي وسط سراب، تخيلت أني أعرف ذلك الرجل. بالطبع، بدا الآن أكبر سناً وقد غزا الشيب شعره، ولكن عينيه الزرقاوين الكبيرتين بقيتا على حالهما – أوساتشف! صديق الغستابوفي"بريجاني". تعاون مع الجميع، وتحدث مع كل واحد منهم، أراد معرفة كل شيء — بفضل وسامته اختفى الناس من بلدتنا. هرب بعد تقدم الجبهة، فظن أهالي "بريجاني" أنهم أعدموه في مكان ما. الآن، يبرز فجأة على السطح في براغ! أقنعت نفسي في الحال أن ذلك غباء بالتمام، وأن ذلك الرجل يشبهه بشكل لا يُصدق فحسب. أما الرجل فجعل يصرخ ويرمي الحجارة.

شيء مشابه حدث في براتيسلافا في ساحة س ن ب كما عرفنا في وقت لاحق. إذ اشتبكت الجماهير الغاضبة أمام القيادة العسكرية السوفيتية في شارع "ميلي توتشوفا" مع عناصر الشرطة. أراني "لودوف" بعد مدة بعض المشاهد التي صورها بآلة تصويري. وقام بتحميضها سراً في أحد مخابر التلفزيون. وفي وقت لاحق وأثناء عملية التحقق من الولاء، وشى به المُرقم الذي يقوم بتصحيح الألوان مما نتج عنه طرد "لودوف" من التلفزيون.

شكل الروس في النهاية المكتب السياسي من رجالهم برئاسة "غوستاف هوساك"، الرجل الثعبان الملتوي الذي تحرك ببراعة في المستنقعات ولم يقع أثناء ذلك في المصيدة. على عكس "دوبتشك". بدؤوا بترديد مقولة "التطبيع"

سوّت البلدوزورات أثناء ذلك المركز التاريخي لبراتيسلافا مع الأرض بما في ذلك معبد اليهود الموجود في ساحة "ريبنا" حيث يوجد مستودع

التلفزيون والاستوديو. كل ذلك من أجل بناء الجسر فوق نهر الدانوب. وحين تأملت مع "فويتا" ذلك الخراب، شعر كلانا أنه في مكان آخر، في مدينة افتراضية.

"التزامن" هذا ما أكدته باختصار مجنونتي "سوزانا" المنقوعة دائماً بالتدين، والاعتقاد بوجود قوى خفية غيبية.

شيد الرفاق بعد قيامهم بهدم المعبد عدداً من الفيلات.

إنه "التزامن" أكدت "سوزانا" باختصار.

حين قاموا بتدمير الغابة تحت "فولوفتس" انتعشت النباتات الضارة في الحال.

جميعنا مجبرون على المشاركة في احتفال الأول من أيار.

حين لا يُفكر الإنسان بجميع تلك الأعلام واليافطات، والرايات، وأهازيج الفرح، وتحرك الجماهير المحتشدة أمام المنصة، والاستيقاظ في الصباح، والموسيقى التي تُذكر بالحرب البروسية النمساوية، يبقى الأمر مجرد نزهة مع الأصدقاء وتناول الشطائر وشرب الجعة بنصف السعر الرسمي.

تَعلّم "بوني" وهو في الرابعة ممارسة نوعين من الحياة. إذ أصبح يعرف القراءة ، ولكننا نبهناه في البيت ألا يتباهى بذلك. فأشعرهم في الصف الأول أنه لا يتقن الأحرف. وبشجاعة فائقة تعمّدَ تهجئة جملة *ماما بدلاً من إيما، إيما بدلاً من ماما*... الخ من جمل كتاب القراءة وبصعوبة لا تُصدق.

كنا جميعاً نفعل ذلك.

تلقى وظيفة منزلية. وهي القراءة مع والديه مقالة *الاتحاد السوفيتي بعيون الأطفال* من مجلة "أوهنيك".

يوجد على كوكبنا العديد من البلدان. بعضها دافئ في الشتاء لا يتساقط فيها الثلج على الإطلاق، وفي غيرها الشتاء طويل وبارد جداً والشمس فيها تُدفيء لفترات قصيرة. بعض البلدان فيها صحراء رملية وفي غيرها يتحرك القمح كالموج في الحقول الواسعة. في البلاد الشمالية يُزهر

الكتان، وفي الجنوب ينضج البرتقال. نعرف بلاداً تعيشُ فيها النمور والجّمال، ولكن في بلاد أخرى تعيشُ، وتتسكع الدببة البيضاء على قطع الجليد. ماهو موجود في بلد، لا وجود له في بلد آخر.

ومع ذلك تجاورنا بلاد تحتوي على كل شيء : ربيع دائم، وشتاء دائم، البرتقال والجليد الدائم، الدببة الجليدية والنمور.

تلك البلاد المدهشة هي اتحاد الجمهوريات السوفيتية. إنها أكبر بثلاث مرات تقريباً من الولايات المتحدة الأمريكية، وأكبر بتسعين مرة من بريطانيا العظمى، وأكبر بمائة وخمس وسبعين مرة أكبر من تشيكوسلوفاكيا. الاتحاد السوفيتي أكبر دولة في العالم، ويمتد على مساحة نصف أوروبا، وقسم كبير من آسيا. إنه سدس مساحة العالم حيث تستريحُ في باطن أراضيه لعدة قرون ثروات روسيا المعدنية. إلى أن جاءت الثورة وتمكن المواطنون الجدد بنجاح من كشف مكنونات الأرض. فأحست الأرض أنها سلمتْ ثرواتها إلى أيادٍ أمينة.

اندفعتْ فوق السطح الشاحب لخليج بتروهراد موجة خلف موجة. في مكان غير بعيد عن الشاطئ في ظل طوف ثلجي كثيف، جلس رجلٌ متوسط القامة بلحية وجعل يكتب شيئاً على قطعة خشب. أحاط بعد خمس سنوات بذاك الرجل ذي العينين اللامعتين حشد من العمال المُسلحين في قصر "سمولني" وسط بتروهراد المضطربة. فقاد ثورة الشعب الروسي المنتصر. هذا الرجل هو فلاديمير إيليتش لينين، القائد الفذ للعمال، مؤسس حزب البلشفيك الذي حرر قوميات روسيا، وأنشأ أول دولة للعمال في العالم.

حياته مثال للتواضع، والعمل الجاد، والشجاعة. ستبقى تعاليمه النبع الذي لا ينضب لتقدم البشرية.

توجد في أسفل النص صور بالأبيض والأسود: بطل العمل من الدومباس، محطة توليد الكهرباء، بيوت العمال في المُجمعات الجديدة. الجنود يمرون من أمام المنصة في يوم الجيش الأحمر. الرفيق ليونيد بريجنيف في عناق وقُبل ساخنة مع الرفيق اريخ هونيكر.

وجهه بدا متورداً تماماً كما رأيته أثناء تقبيل دوبتشك. وحين تصورت تلك الأفواه والرائحة النتنة التي تنشرها، أحسست برغبة في الإقياء حقاً.

7

نادراً ما كان العم "رودو" يُسافر إلى براتيسلافا. لهذا، استغربت حين سمعتُ صوته يلعلع بعد ظهيرة سبت صيفي تحت بيتنا الموجود في الرواق. بعد لحظات رن علينا من الأسفل – العمة "يولكا"، بقيت جالسة في السيارة مع شقيقتها "مارينكا" وزوجها الذي يتحدر من مكان بالقرب من "كيسوتسا". تهامسوا فرحين. تبين لاحقاً أنهم توصلوا إلى تلك الفكرة الذكية وهي مداهمتنا دون إخبارنا، وسحبنا للمشاركة في عيد ميلاد "فيليب" الذي يجب أن يتم قبل أن يُسافر مع عائلته إلى البحر. أخبروه بذلك قبل يوم من حضورهم. ولم يذكروا بالضبط متى سيصلون، لذا.. هس!

أجّلتُ ثورة غضبي إلى وقت لاحق. وتناولت بسرعة أحد الكتب من الرف كي لا أذهب فارغ اليدين – وزجاجة نبيذ من غرفة المؤونة. ألبستْ "سوزانا" طفلنا "بوني" على عجل وانضممنا إليهم. ترددت قليلاً، وسألت نفسي ما إذا لم يكن من الصواب تنبيه "فيليب" مسبقاً، ولكني تركت الفكرة جانباً بسبب العجلة.

ابن عمي "فيليب" وزوجته "فيرونيكا" أصغر مني بخمس سنوات. سكنا مع طفلين صغيرين، "يوركو" في الثامنة، و "إيفان" في العاشرة في بيت كبير نسبياً في شارع "فوتشيك". ومع أننا نسكن في المدينة نفسها إلا أننا، لم نلتق إلا بالصدفة أحياناً في الشارع. الناس يضيعون ويتلاقون. وإذا لم نتقرب من أحدهم بالطريقة الكلاسيكية الإنسانية فإن قرابة الدم لا تهمني. ولا حتى الكنية المشتركة. ولكني أحببت العم "رودو" دائماً. لهذا السبب وافقت على الذهاب.

لقد تم في واقع الأمر تجهيز احتفال عائلي ممل آخر – من أجلنا، نحن الذين اقتربنا من بيت "فيليب" دون رحمة. عاش "فيليب" ذلك الاحتفال بطريقة أخرى. التفاصيل عرفتها في وقت متأخر كثيراً.

"فيليب و فيرونيكا"، قررا الهجرة منذ أمد بعيد، ومن ثم انتظرا الفرصة الملائمة. وجاءت الفرصة حين نجحا أخيراً في تأمين قضاء العطلة في يوغوسلافيا. في نهاية الأمر، تمكنا دون صعوبة تُذكر من عبور جميع حقول الألغام من أجل الحصول على مجموعة الأوراق كي يسمحوا لهم بالسفر إلى هناك. وكانا قد تقدما للحيطة بطلب للحصول على القطع النادر من الدينارات اليوغسلافية ضمن الحدود المسوح بها بطريقة رسمية قبل سنة. وحصلوا على الفيزا، وكان بوسعهم في نهاية الأمر البدء في إجراءات الحصول على وثائق المغادرة. سأل"بوني" أثناء رحلتنا الصيفية الإسبانية مع "الرماد"، ماهذا، بالله عليكم، وكان ذلك.

وبالرغم من أني لم أشاهد وثيقة المغادرة من أيام رحلتي إلى إنكلترا، إلا أنني تذكرتُ كم كانت نفيسة وهامة لأنها تشير إلى أي دولة، ولماذا، وطول مدة الزيارة، إضافة إلى معلومات مُشفرة عن المسافر المتوقع، بما في ذلك ملاحظات تتعلق بنوع التفتيش الذي سيتم عند الحدود. لم يحصل الإنسان عليها في الحال. بل كان عليه بداية أن يُؤمن موافقة العديد من المؤسسات — لجنة الحزب الشيوعي في مكان العمل، لجنة الحزب الشيوعي في الحي، اتحاد نقابات العمال، ختم مدير المدرسة في حال وجود أطفال مرافقين، ويتم بعد ذلك تقييم هذه المعلومات في لجنة متابعة الأمور الخاصة التي كنت أعرف أعضاءها من التلفزيون بوصفهم أجنة أمن الدولة الذين تعودوا قبل يوم من المغادرة السعيدة البحث عشوائياً في طاولة المكتب. والجرارات الفارغة. فالترتيب المُفرط يمكنه أن يتسبب في الغاء الرحلة قبل اجتياز الحدود.

فكر "فيليب" في كل شيء — أخبرني قبل عدة سنوات أنه ترك في العيادة جميع أضابير المرضى مبعثرة على الطاولة، ونبَّه على الممرضة تركها على حالها وعدم لمسها تحت أيّ ظرف حتى إنه ترك بالقرب من إطار صورة "فيرونيكا" الذهبي مع الأولاد، ساعة يده النادرة التي أهداها له والده بالمعمودية.

انطلقت التحضيرات.

حافظا بعناية على سرية وحقيقة نواياهم أمام معارفهم، وأمام العائلة – والدة "فيرونيكا" فقط كانت تعرف القليل. قررا إخفاء سرهم عن الجميع. ولأن أملاك المهاجر تصبح عادة ملكاً للدولة ، تخلصوا منها بالتدريج.

افتقد البناء في "فوتشيكوفا" إلى المصعد، كما امتلأ بيت "فيليب" في الطابق الثالث بقطع الأثاث الكبيرة. قررت "فيرونيكا" في وقت ما بشكل مفاجئ التعلم على البيانو، ولهذا، أهدتها والدتها بيانوهاً صغيراً "أوجست فورستر" ورثته عن أهلها. وتوجبَ عليهم الآن نقل جميع هذه الأشياء وتنزيلها من خلال الدرج العريض دون لفت انتباه أحد. لم يكن ذلك بالأمر السهل. فالأرمل، السيد "مارتينك" يَمُدُّ رأسه في كل مرة يجرون فيها قطعة أثاث على أرض المعبر من الباب، و يسأل باهتمام عن الموضوع. البناء بأكمله يعرف أنه رجل أمن.

حين قام عمال النقل بترحيل بيانو "فورستر" الثقيل والخشن، ذهبت "فيرونيكا" في زيارة مع زجاجة "ليكور"، تاركة وراءها صوت "كارل غوت" الذي جعل يصدح بقوة من أسطوانة كانت قد أهدتها إلى "مارتين"، وطلب "فيليب" السيد "مارتيك" لإجراء فحص روتيني وقائي. تم في تلك الأثناء نقل الخزائن، طاولة الطعام، وسرير الزوجية. وأكدوا للجيران أنهم بصدد ترميم البيت.

كان من الضروري اختراع أسطورة مناسبة للأولاد، وشرح السبب الذي يمنع حضور الأصدقاء الساكنين في الأعلى من الزيارة، وسبب اختفاء بعض الأشياء من البيت بالتدريج – مثل سكة الحديد المحببة مع العربات الصغيرة التي تعذبوا في بنائها سنوات طويلة – ومحاولة إقناعهم بعدم كشف أي شيء في المدرسة.

تعودت "فيرونيكا" تحضير لقاءات أنثوية. الآن تتذرع بالأمراض المُعدية الطويلة بأسلوب مقنع، جعل صديقاتها يتصلن بها كل دقيقة للاطمئنان على حالتها الصحية.

إضافة إلى هذا وذلك بدأ "فيليب" يشكك في الأمر. فتحدث طويلاً عن غرامه اللامحدود بسلوفاكيا، كما ابتكر عادة العودة وهو في حالة من الثمالة في وقت متأخر إلى البيت وقد نسيّ اسمه" - كما علقت "فيرونيكا" بالقول.

ومع جميع تلك المحن، بدا كل شيء وكأنه في الطريق الصحيح. دخلنا عليهم في تلك الأجواء العصيبة قبل عدة أيام من موعد مغادرتهم.

"إننا نطلي البيت" صرخ "فيليب" حين فتح لنا الباب.

في منتصف الليل رنت الشرطة جرس باب البيت. أحدهم في البناء اشتكى من الصخب الزائد. وقف السيد "مارتينك" "خلف ظهر أحد عناصر الشرطة، ومد رقبته محاولاً الوصول بها إلى داخل البيت، ولكن "فيليب" أغلق باب المعبر بسرعة. شرح للشرطة أننا نحتفل، وأنه يأسف، وسوف نلتزم الهدوء. لذا أنهوا كلامهم وغادروا.

هذا ما استغليته كي نسرع في المغادرة أيضاً. نام "بوني" في المطبخ على سرير رحلات. أيقظته مع "سوزانا"، وودعتهم.

البقية، ذهبوا للنوم في الفندق حين أخبرهم " فيليب" بعدم وجود أسرة كافية.

وصف لي "فيليب" كيف سقط عنهم الهم.

تمكنت "فيرونيكا" بوساطة أحد معارفها من تهريب المال إلى *الخارج*، ولهذا بقي لهم الحد الأدنى مما يحتاجونه للسفر. بعد يومين، ودعوا البيت دون أسف، وانطلقوا في السيارة.

وبعد ساعتين عادوا من جديد.

خرّب العم "شتيفان" كل شيء دون قصد بسبب ثمالته. الملاحظتان اللتان أوصلهما وهو في حالة من السكر الشديد عن طلي جدران البيت إضافة إلى البيت الخالي من الأثاث كانتا كافيتين للسيد "مارتينك" الذي قام في الليل بتنزيه الكلب، كما خفف عن نفسه بحماسة بجانب السياج القريب (اعتبر تلبية حاجات الجسم في الطبيعة من الأشياء اللذيذة). فلم يسمحوا لهم بعبور الحدود.

لم يبق في البيت شيء سوى لبة واحدة، وخلاطة الطبخ الخشبية. وبالطبع زجاجات النبيذ الفارغة التي شربوها بمناسبة حفلة عيد ميلاد "فيليب".

اقترحت "فيرونيكا" طبخ بودرة الشوربة المعلبة. وافق "فيليب". فسكب عليها الماء الذي سخنه بالحلزون الكهربائي. أخرجا اللحم المطبوخ الذي حضراه للرحلة . وتناولوا العشاء بصمت في البيت الفارغ، شربا النبيذ مباشرة من الزجاجة في حين كان "يورو" مع "إيفان" يسرحان ويمرحان في الغرف الفارغة وعلى وجهيهما قناعا الشيطان ورجل الماء اللذان بقيا لهما من حفلة كرنفال نهاية السنة الدراسية.

8

طبقاً لما ورد في دليل المهمات والإخبارات الذي أُتلف قسماً منه، كانت إحدى واجبات العميل السري "لومينال" تقصي مزاج الشارع ومعرفة الأفكار التي يتداولها الناس، ومن ثم إعطاء معلومات عن توزيع "الأدبيات السيئة". حسب الملاحظات المدونة يدوياً من قبل الضابط، قام "ت س" بكتابة عدة إخبارات، ولكنه تذرع مع مرور الوقت أكثر فأكثر بتعطل سمعه الذي كان سبباً كبيراً في ابتعاده عن الناس.

فهموا الأمر على أنه تهرب، وكأن "ت س" قد فقد سمعه بسببهم.

انطلقت في "تشي أس ت"[96] أسوة بأماكن أخرى اختبارات الولاء السياسي. فقاموا بداية باختبار أعضاء الحزب الشيوعي، وانتقلوا بعد ذلك إلى غير الحزبيين. كانت اللجنة تتألف من اثني عشر عضواً — غالبيتهم من الرفاق الدسمين، وجوه سائلة كما هو عادي عند الطاعنين في السن ولكن في الشعوب السلوفانية فحسب (رأيتهم في بولونيا، وفي روسيا، كذلك في يوغسلافيا) إضافة إلى ذلك بزاتهم الشاحبة. كأنه مشهد من فيلم.

السفاح الكبير يطرح الأسئلة المفصلية:

---

[96] تشي إس ت: التلفاز الحكومي

"كيف تُقيّمون دخول جيوش حلف وارسو إلى أراضي تشيكوسلوفاكيا؟"
يُدرك "لودوف" الجالس أمامه أن الإجابة السلبية تعني توديع الوظيفة.

"أراه كما رأيته قبل ذلك" يقول، ويلتفت إلى أحد أعضاء اللجنة، الأخ السعيد "ليبنا" ثم يُضيف: "كيف كان الأمر "بالكو" مع الماء، حين قلت إن علينا عدم إعطاء الروس ماء الشرب؟"

جاء رد "ليبنا" على الشكل التالي:

" أخطأنا في حينها."

يحاول "لودوف" من جديد سحب يده من الحفرة بالرغم من اعتراض "روينا" و"بريزنا" وهمهمتهما:

"واضح، شيء جيد، جاؤوا لإنقاذ الموقف — ولكن، لماذا، من فضلكم، على الدبابات؟! لقد خربوا طرقاتنا! وكرر ذلك: "خربوا طرقاتنا!"

"لودوف" يجب أن يغادر، ولكن الأخ "ليبن" يبقى. إنه يُدير ميليشيا المؤسسة منذ عام 1990.

أكثر من أدانه بقسوة كان الرفيق "بتر ترنوقسكي"، أخي، الذي أرسله فرع حزب المدينة لحضور اجتماعات اللجنة. تكرار العلاج في أثناء إقامته الطويلة في مصح الأمراض النفسية، أسفر عن نتائج واضحة— الخوف من الموت تبدل إلى الخوف من الحياة، ومن ثم وضعه في عالم النظريات التي وقفت مثل جدران البيت الأربعة القوية — وماذا سيحدث لو أنها لم تلمس الأرض؟ يمكن الاستناد إليها بشكل رائع.

سمعته يخطب في إحدى نشاطات التلفاز.

يُمكن القول إن تحويل مسرحية "غولدوني" الهزلية بحساسية بالغة إلى فيلم تلفزيوني مع غيرها من البرامج التلفزيونية المسائية، يساعد بفضل الحزام التلفزيوني على زيادة التفاؤل بالحياة، وهذا يُعتبر قسماً هاماً من أساليب الاشتراكية المعاصرة وأهدافها. وفي المقابل، إن عدم الإحساس بأهمية اختيار البرامج المسائية يُمكن أن يجعل من تلك المسرحية الهزلية

الخالية من أية قيم أيديولوجية تساعد على بلورة المعرفة الاشتراكية، سبباً في تمجيد أفكار المجتمع القديم، وأكثر من ذلك صرف انتباه المشاهد عن بقية البرامج المسائية. وفي حين يمكننا التحدث في الحالة الأولى عن قيم الدعاية الإيجابية للبرنامج المسائي بما في ذلك مسرحية "كولدوني" الهزلية، نجد في الحالة الثانية غياب القيم الدعائية للبرنامج المسائي، أو في قسم منه. إن اكتشاف القيم الدعائية الايجابية في الخطاب الفني هو نتاج عمل دؤوب يرتكز على أسس أيديولوجية، وتحضير كبير للعمل في مجموعة الإدارة."

شعرت بالملل أثناء ذلك، ولكني لم أتمكن من المغادرة. كنت أكرر مع "كايا": *لست حارساً لأخي!*

اعترض عضو رئاسة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي "فاسيل بيلاك" على غلاف المجلات التي تحتوي صور نجوم الموسيقى والأفلام.

"إنه تأثير رأسمالي مزيف في شبابنا البريء حامل العقيدة الاشتراكية!"

صدرت في عام 1972 تعليمات تؤكد على وضع صور العمال والشخصيات التي تُشكل القدوة عند الشباب في الصفحات الرئيسة.

أحسست أن خيال أخي "بتر" يتحرك خلف تلك التعليمات. كما يتحرك الفأر بالقرب من الحائط وأنت تلاحظه بطرف عينك.

سمعت ذلك النوع من الخطب مرات عديدة. وقمتُ تنفيذاً لتعليمات رئيس التحرير الجديد، الرفيق "تشسناك" بتقديم طلب للقبول في كلية "في أو إم إل"[97]. الجامعة المسائية للماركسية-اللينينية. لحسن الحظ كانت قريبة في زاوية الشارع بمحاذاة مصنع الجعة الموجود في "شتاينركا".

تعرفتُ أثناء تكريس وقتي لدراسة الاقتصاد السياسي إلى أشياء عديدة تتعلق بالاجتماعات السياسية للرفاق القدامى، والمراسلات أيام الجمهورية الأولى – المُحاضر، سُحِر بالتفاصيل، على سبيل المثال، معرفة ما إذا كان اللقاء قد حصل تحديداً قبل الظهيرة أو بعد الظهيرة.

---

[97] في أو إم إل : المدرسة المسائية لتعلم الماركسية اللينينة

لم يتذكر ما إذا كانوا قد سكروا في المساء قبل ذلك، ولم يتذكر كمية الخمور التي شربوها مباشرة في المكان، ولا عدد المرات التي كرروا فيها كلمة "خراء" وأشياء مماثلة، ولا عن أنهم يجتمعون قبل كل شيء كي لا يضطروا للعمل، وكي يقوم أحدهم أخيراً بالعمل من أجلهم. بالطبع لم نسمع كلمة من هذا.

سلمني الرفيق "تشسناك" عملاً ممتعاً. أحياناً كان الرفاق من الأعلى يتصلون بي — عمل خاص، ومع الكاميرا فقط كي أُسجل لقاء هاماً. الفيلم كنت أسلمه قبل التحميض إلى أحد العاملين في السكرتاريا. وكانوا يدفعون بسخاء، كما يُحظر عليّ إخبار أحد بذلك.

اللقاء كان في أكثر الأحيان يتم في فيلا الحزب الشيوعي السلوفاكي في "بيلا سكالا". الرفاق كانوا في حالة من البهجة والأنس والثمالة. وقد قام المنتعش "يانوش كادار"*[98] الذي كان هناك في أحد الأيام بتوزيع زجاجات نبيذ "توكاي" المجري على نادلي فندق كارلتون البراتيسلافي الذين شكلوا الخدم في الحفل.

وبما أن الفودكا ترفع الضغط، حشا الرفاق بطونهم بالثوم حتى مطلع الفجر — وحسب زعمهم، إنها وصفة طبية. شممت تلك الرائحة التي كانت تنتشر حولهم مثل السائل في اللحظة التي عبرت فيها باب الغرفة. الكحول، والثوم.

كان محظوراً عليّ تصويرهم أثناء الأكل، وأثناء قضائهم حاجات أجسامهم العادية. السعال، العطس، الإقياء إضافة إلى مغبة التصوير أثناء المضغ. ولا يُسمح بأي حال من الأحوال التصوير من الأعلى (الصلع، والشعر الخفيف...) ولا حتى من الأسفل (الذقن الثانية، والثالثة، والرابعة، ثقوب الأنف الكبيرة...)، وفي بعض الأحيان، ولا حتى من الطرف (أنف ضخم أو أنف ذو شكل غريب، ندبة...) ولا في حالة واحدة من الأمام (عين زجاجية تعطي ظلاً يختلف عن الحقيقية).

---

[98] يانوش كادار : الأمين العام للحزب الشيوعي المجري

الرفيقة "بولاكوفا" لأسباب خاصة، لم تشرحها على الإطلاق، لم ترغب في أن التقط لها صوراً من الخلف. لم يكن السبب وساعة مؤخرتها، فقد كانت جيدة من الخلف، ولا حتى بسبب الجنف، أو نوعية الشعر السيئة. أرادت بالتأكيد أن تبدو كاملة، ولغزاً يصعبُ الإمساك به. ربما حيويتها ومعدتها تؤهلانها للعيش في أي نظام، يمكنني أن أتصورها بجانب "هتلر"، ستالين، أو متشار[99] أو مدافعة عنيدة عن حقوق الإنسان في البيت الأبيض. وُلدت كطائر جارح — قاتلت بشرف من أجل الوصول إلى مركزها. الوساطات لم تؤخذ بعين الاعتبار.

حين جهزت نفسي للخروج بعد إحدى الأمسيات الحزبية، فككت العدسات، وضببت الحامل ثم وضعت الكاميرا في محفظتها، وضعتْ يدها على كتفي.

"الرفيق ترنوفسكي، انتظر، أرغب في التعرف إليك عن قرب! اجلس للحظة، لست مضطراً للعمل طوال الوقت.

أمسكتني من كم قميصي، وسحبتني باتجاه كنبات الجلد الموجودة بالقرب من النافذة. أشعلت لفافة تبغها في مشرب طويل أبيض أنيق، ونفثت الدخان.

"أخبرني إذاً الآن شيئاً عن مشاريعك، وعن أحلامك للمستقبل. لا بد أنك ترغب في تصوير فيلم ما — ألست محقة؟"

"معك حق، بالطبع، إنه حلمي الكبير! أشعر دائماً بأني صانع أفلام و.."

"تماماً مثل ابني! إنه يشعر بذلك منذ الصغر. أقول له، عليك أن تنهي الثانوية، وبعد ذلك يمكننا فعل شيء. أؤمن بالنظرية القائلة - كل شيء ممكن. حين اشتغلتُ بوصفي ملحقاً ثقافياً في باريس، حصلت على وسام الدولة للدعاية لأدبنا في الخارج. لم يكن أمراً سهلاً، أقول لك. أمضيت وقتي من مكان إلى مكان كي أقنع. الثقافة هي كنز الأمة يا سيد ترنوفسكي، وهذا ما علينا أن نتذكره دائماً! لا أعرف رأيك في هذا الأمر...؟"

[99] فلاديمير متشار: أول رئيس حكومة بعد انفصال تشيكيا عن سلوفاكيا في عام 1993 وهو احد اهم مهندسي ذلك الانفصال

"نعم،... بالتأكيد، تعرفين بالطبع..."

"بالتأكيد، الأشياء لا تحدث مباشرة، وإن كان هناك نشاط ثقافي فإنه بفضل جهودي. عرض أفلامنا الاشتراكية في الخارج، معارض لأفضل فنانينا، القراءة... تعرفون، تعودتُ على لعب دور الإنسان الواقف خلف الكواليس. إنني إنسانة متواضعة. أفضل أن أقف بصمت في الخلف، وأتابع بفرح نتائج عملي. الأوسمة وعبارات المديح لا تهمني، يُمكنك أن تسأل الجميع، سيؤكدون ذلك، ولكن تلك الأشياء لا يمكن إنكارها، ما رأيك في هذا...؟

بالتأكيد، تعرفين..."

"أو تلك المجموعة من الحفلات الموسيقية في تورين! لقد جهزتُ كل شيء بنفسي. شهرة رمادية، شهرة رمادية، قالت أمي، وهي تبتسم — إنه قَدَرك، يا "فيروشكا". إنك تُعبِّدين الطريق لغد أكثر بهجة!. كفى، لا بد أني أخَّرتُك. لا تفهم ذلك من فضلك على أنه انتقاد لشخصك!

أمسكتْ بي من يدي كصديق، وهي تبتسم:

"إنك لطيف جداً و موهوب، أيها الرفيق ترنوفسكي! سأجد طريقة لمساعدتك!"

نهضتْ وغادرتْ. لم أرها بعد ذلك على الإطلاق – إذا لم آخذ بعين الاعتبار إطلالتها من خلال شاشة التلفاز. نحاها بعد سنتين مفترسٌ شيوعي عن كُرسيِّها. هذه أمور عادية تحدث في كل مكان. الحياة مجرد لعبة. وأكثر من ذلك لعبة بشرية. الملائكة مكانهم في السماء فقط. إننا مجرد حيوانات. حيوانات متطورة قليلاً. نعرف ربما أثناء ذلك تصنع الجدية والأهمية. وغير ذلك إنها الطبيعة.

لم أستغرب وجود نماذج مشابهة للرقيقة "بولاكوفا" في "بيلا سكالا". كان هناك الكثير من أمثالها، ولكن سيداً كبيراً في السن بشعر أشيب، وشنبين مُرتبين، جلس في كرسي وثير وقد حجبه الدخان الكثيف الخارج من غليونه، فاجأني، مما جعلني أسعلُ بقوة ولولا القليل لنفر

من أنفي البرتغالي الأزرق*[100]. "رهوركوهوت" بذاته، والجاهز لتحقيق المعجزات حتى في النظام الاشتراكي.

يقبع مركز قص أشرطة أفلام التلفاز في السوق القديم في ساحة إس إن ب — في الطابق العلوي من صالة المعرض. المكان يتسعُ، إضافة لشخصي أحد عاملي القص، وفي حالتي هو "جوني" الذي أحببته لذاكرته النيرة ونظارتيه السميكتين اللتين تلمعان بشكل لا يُصدق. والباقون، إذا حضروا، توجبَ عليهم الجلوس على الأرض أو حتى في المعبر. "جوني" يجلس على العرش خلف طاولة القص الكبيرة وقد تدلت من فوقه قطع الفيلم المقصوص مثل البياضات على حبل الغسيل. أدهشتني خبرته اللامحدودة في العمل. كنا نلصق منها فيلماً وثائقياً أو ريبورتاجاً.

غالباً ما كنا نقضي الليل بأكمله في غرفة القص. وأحياناً كنت أذهب بسرعة إلى "تمبو" الموجود في زاوية ساحة إس إن ب وساحة "كامني" حيث توجد العديد من البوفيات السريعة، فالناس يأكلون ويشربون وهم واقفون، وقد تجمعت بالقرب منهم مخلفات البشر الذين استغلوا أوقات البيع الممتدة حتى منتصف الليل. اشتريت بعض قطع السمون مع السلطة البراغية، أو — إذا كنا قد أنهينا القص بالصدفة، زجاجة شمبانيا.

توجبَ عليَّ في طريقي إلى الخارج المرور من حول الأستوديو الذي استحوذ الطابق الأرضي للمبنى، المكان يعج بالكواليس والأضواء التي يقف خلفها عادة الممثلون المتعبون والمدخنون في أوضاع مختلفة وهم في لباسهم التاريخي الذي استخدموه في إحدى التمثيليات المسرحية.

خطر ببالي بشكل عادي شيء مثل: *ارفعوا أيديكم عن فيتنام!* حين كانوا في غرفة القص المجاورة يجهزون ريبورتاجاً يعبر عن مطالب المواطنين الذين وزعوا بطاقات تصور امرأة آسيوية تركض وهي تحمل طفلاً جائعاً بين

---

[100] البرتغالي الأزرق : نوع من الشراب

ذراعيها. البطاقة كانت تحمل عنواناً موجهاً إلى السفارة الأمريكية في براتيسلافا مع نص بالسلوفاكية والإنكليزية مع فراغ لتوقيع المُرسل.

وفي مناسبات أخرى عن إسرائيل السيئة ولبنان الطيب، أو إيران السيئة والعراق الطيب.

9

وظفوا "فويتا" ليقوم بتشغيل آلة العرض في إحدى صالات السينما الموجودة في ضواحي براتيسلافا تحت اسم *بودوتسنوست*[101]. أخذ الأمر بمثابة تسلية: "أنا الذي لا مستقبل له؟!"

ذهبت لزيارته برفقة "ماريو أنغيال"، ابن مالك فندق بريجاني السابق "يلن" الذي انتقل هو الآخر إلى براتيسلافا وعَمِل كمشغل لآلة التصوير أثناء المحاضرات في إحدى كليات العلوم.

"سأريكم بعض اللقطات من الشتاء الماضي" قال "فويتا". وضع الشريط في آلة العرض القديمة الموجهة نحو الشاشة الكبيرة.

قال، إنه أدرك في تلك اللحظة فقط كيف تغيرت لغة الفيلم – قبل سنوات كل شيء كان يُصور بالأبيض والأسود، وحين يريدون عرض ذكريات من الماضي يصورونها بالألوان. الأفلام اليوم بالألوان والذكريات أصبحت بالأبيض والأسود. كما لو أنها حقيقة كذلك.

أطفأ الأنوار، بدأت آلة العرض بالدوران.

لم نر شيئاً في البداية، مساحة بيضاء فقط.

"الثلج يتساقط، الشتاء الماضي حين كان الطقس سيئاً."

لم نشاهد شيئاً آخر لخمس دقائق.

"الثلج يتساقط، هل ترون؟ يتساقط الثلج طوال الوقت"

"وهل هذا كل شيء؟ سأل "ماريو" بعد أن فقد صبره.

"انتبهوا الآن، ستأتي جرافة الثلج!"

---

[101] بودوتسنوست : بالسلوفاكية تعني المستقبل

تابعنا الشاشة البيضاء المُضاءة بتوتر.
"أو أنه في شريط آخر؟ لا أظن، الآن! هل رأيتما؟
"لا، أجاب "ماريو".
"سأعرضه مرة أخرى!"
"بودلير" الذي قرأت له في الماضي العديد من المؤلفات المترجمة في الستينات، أطلق عليها اسم "إنويس" — لا يوجد لدينا في السلوفاكية كلمة واحدة، ولكنه يعني بذلك الملل القاتل الذي يمكن التخلص منه في أغلب الأحيان بمعاقرة الكحول وغيره من المواد الاصطناعية.
العديد فهموا الأمر على أنه لا يوجد في الأجواء الصاحية سوى الشراب، وملاحقة النساء، تنظيف الكوخ خلال عطلة نهاية الأسبوع. والعودة إلى الشراب من جديد.
انتقل "فويتا" مثل البزيق إلى بيت الحلزون. وعندما يصل إلى البيت بعد العمل – حيث يقترف هناك حتى وقت متأخر من الليل على آلة الكتابة جريمة يُعاقب عليها القانون – يحاول دائماً الانتهاء من كتابة عدة صفحات مستخدماً ورق الكربون. كتب على الورقة الأولى *جورج أورويل 1984* هذا الكتاب لم يعد مغلفاً باللون الأخضر، ولم يعد أيضاً حتى بالإنكليزية، أحدهم قام بترجمته.
نسخ "فويتا" كتاباً محظوراً.
تعوّد في يوم الجمعة صباحاً زيارة مخزن بيع الكتب القديمة حيث يُفتش هناك لعدة ساعات بين الكتب. اشترى كتباً تكفيه لعطلة نهاية الأسبوع — خمسة أو ستة مؤلفات. ولم يكن يقوم بزيارات لأنه انتبه إلى أنهم أحيانا يلاحقونه، ولم يكن في التلفاز ما يمكنه رؤيته. لقد هاجر "فويتا" إلى داخله، إلى رأسه، إلى أربعة جدران في بيته. ولكن ليس إلى هناك فقط.
حظي على الدوام بنجاح كبير عند النساء (علماً أنهن يُصرحن بأنه قد أوقع بهن، وكما لو أن أجسادهن ورؤوسهن لم يكن لها أصابع في ذلك – *فتقول كل منهن: ولهذا ضعفتُ وانهزمت!* – ولكن، وكما نعرف لهذه

الأشياء من المفروض وجود اثنين)، كان يملك شيئاً شبيهاً *بالأشعة*، وغير ذلك لا يمكن شرحه. وحسب شكله لا يمكن لأحد أن يحزر أنه كذلك.

أصبح إنساناً هاوياً للجمع، هذا ما نقوله بلغة مهذبة. ولكننا تعودنا وصف أمثاله بـ الزاني (عند ميللر)، تنُّورجي (عند يسنسكي)، المُغازل (عند دوبشنسكي) أو المُغرم (عند موباسانت). اكتشفت من الأبحاث التالية أن هذه الصفات تنتقل بالوراثة. فالجميع يعرفون ذلك عن أبيه – ولكن جربوا، أنتم للحظة أن تكونوا جندياً باللباس الأنيق، وأكثر من ذلك طياراً مقاتلاً! كنت أحب رؤية "فويتا" حين يكون برفقة أية امرأة، حتى ولو كانت لا تستحق الذكر، إذ تتوهج عيناه – بمجرد أن تمر من حوله أو تدخل إلى الغرفة.

تصبح الجاذبية أحياناً من القوة بحيث إنها لا تبقى عند حدود الاتصال الجسدي. بل تحسب حتى نهاية الحياة – بالإجمال، كان لصديقي "فويتا" أربع زوجات، وله من كل واحدة طفل.

طريقة عمله تبدو في غاية السهولة – يوقعُ عادة بإحدى النساء أو أنه يُغريها بشيء. وحين يشعر بالندم على فعلته، تستقبله من جديد وترثي أيضاً لحاله. الآثمون الراغبون في التوبة يكونون عادة مثيرين جنسياً – يكفي تصفح الإنجيل باتجاه القديس "بافل"، أو باتجاه القديس "ماتوش". بهذا الشكل يسير العالم. ما أدهشني أكثر من كل شيء هو أن النساء جميعهن يردن "فويتا"، وحسب كلامهن "إنقاذه" – *إنه متألم، ولهذا يشرب هذه الكمية. مسكين!*

يقوم قديس العائلة عادة بعد الحملة بزيارتنا في بيتنا الموجود في شارع "مالينوفسكي" دون إبلاغنا مسبقاً. فيبدو مثل القط لأنه يكبس الجرس الموجود عند الباب في وقت غداء الأحد تحديداً.

ذهبت لأفتح له الباب. كانت رائحة الكحول تعبق منه.

"ماذا تطبخون؟"

"سكدنسكي* كولاج".

"أحب كولاج سِكدين"

"ادخل إذاً"

خرّبَ شعر "بوني"، وقَبلَ "سوزانا" ثم جلس خلف الطاولة. والتهم في الحال كل شيء رآه في الصحن.

أحضرت "سوزانا" نبيذاً من الذي يجلبه المرضى لوالدي، فتحتْ الزجاجة، وسكبت له ولنا. "فويتا" شرب الكأس دفعة واحدة.

"ممتاز" قيّمه.

مد يده وسكب الكولاج من جديد.

"اللحم يبدو قليلاً في الطبخة!"

"سوزانا" اشتعلت غضباً: "كيف؟ لقد طبختة وفقاً لكتاب الطبخ، سأحضره في الحال." هرعت إلى المطبخ. "انظر، يوجد هناك بالتمام ما يجب أن يكون! نصف كيلو لحم خنزير!"

ابتسم "بوني" من وراء الملعقة لأننا لم نهتم بأكله الصحن الذي يعبث به — ولأننا لا نجبره على الأكل. كان يعشق زيارات "فويتا" غير المتوقعة.

"حسناً، حسناً "سوزتشكا"، عندك المزيد من النبيذ؟"

"سأحضره"

شرب "فويتا" بالتتابع ثلاثة كؤوس أخرى، ونهض عن الطاولة. كرّمني بقبلة قوية على جبيني المتعرق في حين قرص "سوزانا" من خدها، وشد "بوني" من أذنه، وغادر.

توقف عندنا "بتر" بعد الظهيرة للحظات. أراد إرسال بعض المستندات التي وعد والدي بتأمينها. فتح له "بوني" الباب.

حين ذهبت لملاقاة "بتر" في مدخل البيت، انتبهت إلى أنه مدَّ أثناء خلعه الحذاء يده إلى وراء خزانة الأحذية، ورفع مغلفاً أصفر مليئاً بأوراق من النايلون الشفاف، تطلع إليه باهتمام شديد.

"ما هذا...؟" سألته.

أراني إياه دون أن يتفوه بكلمة.

"هل هو لك؟" سألني.

دورت رأسي.

رأيت في أعلى المغلف من خلال ورقة النسخ: جورج أوريل و 1984. مخطوط يدوي. لا بد أنه سقط من جيب " فويتا" أثناء انحنائه لالتقاط ملعقة لبس الحذاء. تجمدتُ في مكاني.

"أها" قلت، ثم مددت يدي لأتناول المغلف الأصفر.

انتبه "بتر" لشيء آخر. يوجد في النص *عبارة تشير إلى حظر نسخ الكتاب*، الأحرف الأولى لكلمات الجملة شكلت اختصار (ف زد أو إن). الشيفرة السرية للمؤلف المحظور، وبالطبع لم تعد سرية إلى هذه الدرجة كي لا يعرفها "بتر". دس المخطوط في جيبه دون كلام.

"لا بأس، لن أخبر أحداً، ولكني سأخلصك منه."

سُمع صوت "سوزانا" من المطبخ: "هل أُجهز لك القهوة؟"

"نعم "سوزكا"، من فضلك. هل عندكم روم[102]؟"

كما فهمت من مذكرات "بتر" التي قرأتها أثناء مغامرته الثانية في مصح الأمراض النفسية، فإن رواية جورج أوريل شدّته وأذهلته. أمر في غاية التهذيب من رجل، توفي قبل أكثر من عشرين عاماً.

مرة، إذاً، سوف تنتصر الشيوعية في العالم — حين سيفهم الناس كل شيء. علينا معرفة قراءة هذا الكتاب، إنه ثمين بشكل لا يوصف لكل واحد منا. كان "أورويل" عبقريا، وصاحب رؤية!

اقترحت بداية على "ف ب" (الأمن العام) ألا نعاقب معارضينا، أو نرسالهم إلى خلف الحدود — يمكن باستخدام سيكولوجيا التغيير، وربما استخدام وسائل الإكراه، تحويلهم إلى شيوعيين مخلصين حقيقيين ملتزمين بالحزب. بالطبع، لا نريد أن يكون إخلاصهم زائفاً! لقد أحب تلك الفكرة، وبدت له جيدة، ولكنه نبه إلى أنها ستكون مُعقدة قليلاً عند

---

[102]روم :شراب كحولي

استخدامها عملياً — وتحديداً من الناحية التقنية. ولكنه سوف يتدارس الأمر مع "إي ب". لقد أخفيت بشكل عام أنها من بنات أفكاري.

كتب بحرارة طوال الليل:

على الرغم من أن الموضوع الذي يطرحه الكتاب لا يمكن الاعتماد عليه بالكامل إلا أنه يبقى مُلهماً مع الاعتراف بضرره الكبير.

قبل كل شيء، يركز الكتاب في البداية على الدعاية التي يقوم بها الحزب الحاكم لنشر أفكاره ومن ثم تقوية مركزه. وفي كل دور من أبنية السكن (كما في كل شارع) يتطلع من إحدى الملصقات "وجه هائل، أحد تلك الوجوه التي تم رسمها بطريقة ذكية، تلاحقه عيناك أينما تحركت". عبارة "الأخ الكبير يلاحقك" ربما يكون مبالغاً فيها، وتثير الشفقة دون فائدة، ولكن الفكرة مقبولة. (من المفروض ألا نركز على شخص واحد، وإلا سيبدو ذلك نوعاً من عبادة الشخصية.)

الشيء الآخر هو ذلك الاكتشاف في الغرفة. بداية يُخبرنا دون توقف عن النتائج الاقتصادية والنجاحات — وهذه كما نعرف غير كافية، وأكثر من ذلك لا يمكن إغلاقه، وإنما تخفيفه فقط. هذا الأمر يستهلك مقادير كبيرة من الطاقة الكهربائية، ولكن من الضروري أخذ ذلك بعين الاعتبار والتفكير فيه ولا سيما لأجل المكاسب الهامة التالية التي يمكنها أن تُعوض جميع ما نخسره: ذلك النوع الجديد من التلفاز يمكنه التقاط كل صوت أعلى من مجرد الهمس! "وما هو أكثر — الشاشة بالإضافة إلى وظيفتها يمكنها أن تكون كاميرا أو آلة تسجيل تساعد جهاز الأمن السري الذي يمكنه التقاط حركة الإنسان ومراقبتها داخل مدى النظر في كل وقت دون أن يعرف ذلك الرجل متى يتطلع إليه عنصر الأمن. وأكثر من ذلك إنه موضوع بطريقة يمكن فيها مراقبة البيت بأكمله. الرفيق "ف ب" سوف يُعجب بذلك — أشك في أنه قرأ كتاب أورويل — يمكن لهذا الشيء التخفيف من الجرائم، و التقليل من الخسائر الاقتصادية، وتحسين نوعية الحياة! سيكون مذهولاً، إنني متأكد من هذا.. إنه يكتب في هذا الكتاب مايلي بالحرف الواحد: الإنسان

مضطر للعيش – وعاش، من العادة التي أصبحت غريزة – على اعتبار أن كل صوت يُطلقه يُمكن أن يُسمع، كل حركة إذا لم تكن في العتمة يمكن تسجيلها." ومن الممكن، بالطبع إدارة الظهر للشاشة، كما يفعل غالباً البطل الرئيس، ومع ذلك سيكون حلاً ذكياً. الأمر يستحق الدراسة حتى ولو اضطررنا لتجهيز أربع وزارات – يمكنها أن تكفي لإدارة البلاد – "وزارة الحقيقة" التي تهتم بمحاربة الإمبريالية والشخصيات العادية. "وزارة الحب" للحقوق والتنظيم. و "وزارة الترف" لتحسين الاقتصاد. تلك العناوين هامة لأنها تعبر عن أصل الأشياء.

الكحول "جين النصر" أو "سجائر النصر" – إنها تُفهم كسخرية من منتوجاتنا، ولكن من الضروري بالتأكيد توحيد الأسماء في رسالة دقيقة واضحة. أثناء تصفحي المعجم، وقع نظري على اسم "سبارتا". الإنسان البسيط الذي لم ينغمس في الملذات اللاأخلاقية، سيثير عنده ذلك الاسم البسيط ربما نوعاً من الشجاعة الإسبارطية إضافة إلى التقيد بالنظام والتواضع. تماماً مثل تسمية "الروم المحلي" الذي يُمكنه التعبير عن أن الفردوس الكاريبي هو في سلوفاكيا الاشتراكية. بالتأكيد، هذان الاسمان يمكنهما أن يكونا محوراً للنقاش.

يعتمد الحزب الحاكم الموصوف في الكتاب موقفاً صارماً حيال الجنس – ويمكن القول إنه صحيح جداً. العملية الجنسية تُحول الإنسان عن هدف وجوده ووظيفته في بناء الاشتراكية – باتجاه هدف آخر، مثل التلقيح الذي عليه ألا يكون الهدف. سنحتاجُ في نظامنا السياسي الذي لا يزال فتياً جداً إلى وقت أطول كي تستقر الأحوال وتصبح العلاقة بين الرجل والمرأة باردة وحذرة، وخالية من الشغف والحب. إنني أؤمن بأن هذا الوقت آت لا محالة. لدينا ما يكفي من الوقت حتى عام 1984. لذا علينا أن نعمل قدر المستطاع في هذا الاتجاه. "جامعة الشباب ضد الجنس" – لن يكون عنواناً سيئاً.

إنه كتاب النبوة، الذي يتنبأ بالمستقبل!

10

كنت أعشق دائماً المنظر من نافذة القطار.

تظهر في الطريق من براتيسلافا إلى "بريجاني" البيوت الريفية الصغيرة حول المحطة الرئيسة، ومن خلفها شارع "مالينوفسكي العريض، يأتي بعد ذلك الصف الطويل من الأبنية ذات الطوابق الثلاثة من الخمسينات ومن ورائه مُجمع أبيض لأمن الدولة بنوافذة المُحددة في الرواق الداخلي، و"فيغارو". ترتسم بعد ذلك مجمعات المصانع الكيميائية "يوري ديمتروف"، ناطحات السحاب الجديدة الممتدة طولاً، الترام الكهربائي، الكروم، وفي النهاية تلال الكربات الصغيرة.

"بوني" نائم، "سوزانا" تتطلع إلى الجهة المعاكسة، وتفكر في شيء ما، سعيدة من السفر.– ملايين، ملايين، ملايين من صفوف الزهور – صدح صوت "ألا بوجاتشوفا" الرائع. إن عادة أخذ راديو الترانزيستور الصغير، وسماع الخشخشة غير المحتملة المترافقة مع الموسيقى والكلمات العامية لا بد أنه يؤذي حاسة السمع – فكرت وأنا أهجع للنوم.

كنت أملك حساً خاصاً بزمن تلك الرحلة – صحوتُ حين دخلنا "بريجاني". كنا قد عدّينا المجمع السكني الجديد لمعامل "ليبكنخت"، حتى "سلوفلينا" تحتاج إلى بيوت لإسكان موظفيها. كبار السن جلسوا على المقاعد أمام البيوت مسبقة الصنع كما كانوا يفعلون في السابق أمام البيوت الصغيرة في قراهم الى أن التهمتها "بريجاني" – يظهر بينهم أحياناً من يرتدي زي "كلارينسكي"، أو "نقدوف" التقليدي. وتنتصب خلف البيوت بعض خلايا النحل المتنقلة، والعربات المقطورة مع الكرافانات، الزرقاء، الصفراء والحمراء التي وضعوها خلف الأشجار المُزهرة، وخلف أشجار الخرنوب، والزيزفون.

خطط أبي أثناء غداء الأحد للاحتفال ببلوغه الستين. وجدته في منفردته التي كان من المستحيل تهويتها لأن ستائر الدخان بقيت على الدوام عالقة في أجوائها، ومن ثم منعت الشمس من الولوج إليها عبر نوافذها. كان يقرأ في ذلك الوقت إضبارة إحدى المريضات من "بريجاني".

"ثلاث كلمات تُلخص التشخيص: سيلان، فطور، كآبة. الحياة هنا موجودة بأكملها يا أداشو"

بقيت وحيدة مع الأولاد، وزوجها دائماً خارج البيت. تجدُ أحياناً من بؤسها أحدهم من الذين يتقربون إليها بسرعة. الاسم والشكل لا يهمان، بهذه الطريقة تهرب من بؤسها ووحدتها . إنها تحمل معها في حقيبتها صليباً كبيراً، تقبل فيه وجه المسيح على الدوام، إنها بائسة. إنه التناقض الأزلي بين الجسد والروح الذي لم يجد الناس له حلاً منذ ألوف السنين.

"لماذا تريني ذلك. هل أعرفها؟

دور والدي رأسه: "هل تعرفها عن قرب؟"

"تعال" قال وكأنه لم يسمع شيئاً. وربما لم يسمع حقاً – لقد التُقطتْ كلماتي على قضبان شبكة الهواء الكثيفة ولم تصل إليه. لقد امتصتها ذرات الهواء.

"لنذهب ونحتفل!"

ألقيت نظرة على التقرير الطبي الذي تركه والدي مرمياً على السرير. اسم "كلاوديا هورفاتوفا" في تلك الأثناء لم يكن يعني لي شيئاً.

بعد لحظات كان والدي ينفخ قالب الكعكة الذي زُين بعناية واشتعلت عليه ستون شمعة. بدأت العمة "تونيتشكا" بالغناء الممدود ورافقتها "سوزانا"، وبعد ذلك العمة "يولكا" والعم "رودو" – وفي النهاية بمشاركة طقطقة الأسنان، أنا مع "بوني"، *منوجا ليتا*[103]، *منوجاليتا*، *منوجاليتا*، *ليحيا*...! كنا لا نحب هذه الأغنية، لهذا كنا نغني بطريقة مزيفة وأحدنا يغمز الآخر. تلك الفرحة، قطعها رنين جرس الباب الخارجي.

ذهبت لأفتح. وقفت هناك السيدة "فاشيتشكوفا". كانت تلهث وقد اصطبغ وجهها ببقع حمراء بصقت خلفها وقالت: "أخبر السيد الطبيب أن زوجي في حالة سيئة!"

---

[103] منوجاليتا: سنين طويلة بالروسية

يوليوس فاشيتشكا، المعروف في "بريجاني" باسم "موناكو"، أصبح قبل مدة ليست بالبعيدة شخصاً هاماً. تمت تسميته بعد التطهيرات وامتحانات الولاء بشكل غير متوقع رئيساً للمجلس الوطني في "بريجاني". كانوا يُصنفونه على الدوام بين البارعين. إذ لم يسأل في حياته عن أشياء لا فائدة منها، كما تابع مشوار حياته كموظف محترم. كان يحب القول وهو سعيد: - *إنني مجرد موظف عادي مثل غيري، حلقة صغيرة في النظام، ولا علاقة لي في الأساس بتلك الحالة، ولكن يمكنني أن أقدم النصيحة.* تماماً كما كان يقول في الحرب أثناء إنقاذ أقرباء والدته اليهود.

قال لزوجته بعد غداء دسم في يوم الأحد، وبعد السيجارة أيضاً، و هو في مزاج طيب، ربما يمكننا... ربما.. للحظة... لفترة وجيزة... نسج في أذنها، مثل قط هرم. فتركته ينزع عنها ثيابها مع أنها حذرته — أنها في الستين، وهو يكبرها بخمس سنوات، أظن أن ذلك غير لائق... القيام بهذا الشيء، وبعد ذلك الشيء الآخر...— ولكنه لم يستمع إليها.

جلست فوقه، وحين ازرقت شفتاه — اعتبرت ذلك مكافأة منه على تصرفها. فابتسمت، وتابعت ليحصلا على المتعة المتبادلة، كما ظنت. ارتمت على السرير وحين عبرت جسدها رعشة رائعة جددت سعادتها. وفجأة، سمعت شخيره، ورأته يُمسك صدره.

نهضت بسرعة وجعلت تفكر على عجل بما عليها فعله. الدكتور بالتأكيد لا يمكنه الحضور ورؤية رئيس مجلس المدينة عارياً في السرير، "في حالة يقولون عنها جماع اللذة in flagrante delicto" إضافة إلى قضيب في حالة انتصاب. ألبسته بسرعة القميص والسروال بالرغم من اعتراضه بصوت ضعيف، حتى إنها لم تنس ربطة العنق، وتسريح شعره. رتبت ملاحف الريش المبعثرة المبللة بالعرق، وفتحت النافذة لتهوية الغرفة. ولبست أفضل ما عندها، ووضعت قلادة حول عنقها، وزينت أصابعها بالخواتم. — وحين فكرت بما حدث، زوجة رئيس

مجلس المدينة الوطني لا يمكنها أن تتنزه في المدينة دون مكياج — وماذا سيقول الناس عني، يا إلهي؟! قامت من جديد بتحديث أحمر الشفاه الذي انمحى أثناء تبادل القبل، ومررت الفرشاة الحلزونية على رموشها، وأضافت ظل العيون، وربطت شعرها إلى الخلف وهرعت بعد كل هذه التحضيرات خارجة من البيت باتجاه شارع "سلونتشنا".

لم يكن مشوارها بعيداً إلى منزلنا لأنها عادت مع والدي خلال خمس دقائق. أكد والدي حدوث *جلطة قلبية* ثم أضاف كلمة *وفاة*.

كل ما حدث قالته أرملة رئيس مجلس المدينة لوالدي بالتقسيط، قسماً بعد آخر، وجهاً لوجه وبحذر شديد.

"بالرغم من تعزيتي، يمكنني التهنئة فقط. موت رائع" قال، وأنزل السماعة عن أذنيه.

أبدى في البيت ملاحظة بما معناه أن "موناكو" ربما كان سيعيش فترة أطول.

11

لم يعرف السيد "نافراتيل" أني أبحث في الحقيقة عن شيء مثل العظام.

السيد "نافراتيل" يبتسم على الدوام، وقد ابتسم حين فتح لي الباب، وابتسم حين قدمتُ له نفسي بوصفي أحد أقارب "كلاوديا هورفاتوفا" الذي يحاول العثور عليها منذ فترة طويلة، ابتسم حين أحضر لي قهوة رخيصة وقال إنه يعيش في البيت حياة أرمل منذ خمسة عشر عاماً لأن زوجته توفيت بسبب سرطان في البانكرياس، والأولاد يعيشون في براتيسلافا.

"منذ متى تسكنون هنا؟"

"منذ ... انتظروا، انتظروا...أربعين عاماً."

اسمه السري في دليل إش ت. ب *[104] هو ت س سامراتيان — وجدته حقيقة في البناء الموجود في شارع "فورشيلوف" الذي استرجع

[104]إش ت ب: أمن الدولة

بعد عام تسعة وثمانين اسمه الأنثوي "شارع نيترا". سكن دائماً في الطابق الثالث مثل النخلة القديمة التي تركت جذوراً عميقة جداً. قصير، أصلع، ومتقاعد عادي بشكل لا يُصدق.

"هل تتذكرون متى انتقلتْ ؟"

"عمن تتحدث؟"

"السيدة هورفاتوفا."

"ياي ...كان ذلك قبل عشرين سنة على الأقل!"

"سكنت هنا مع زوجها ، أليس كذلك؟"

"نعم، ولكنه تركها" سمعتُ أن ذلك حدث بسبب رجل آخر... أخبرتني ابنة عمي"

"نعم... هذا ممكن. ممكن هذا. انتظروا، سوف أفتح الباب للقطة، إنها تتنزه أحياناً حول البيت. إنه وقتها."

"هل تعرفون شيئاً أكثر عنه؟"

"عن ماذا؟"

"عن ذلك الرجل الآخر..."

"عندك هنا علقه، أو ماذا؟! ميتسي!"

"كيف كانت "كلاوديا هورفاتوفا" وهي صبية؟ "

"جميلة جداً. كانت امرأة رائعة! ماذا يمكنني أن أقول لك...؟"

"الرجال كانوا يتمنونها بالتأكيد..."

"طبعاً"

"وماذا عنها؟"

"كان لديها عشيق"

"هل تعرفون عنه شيئاً؟" انحنيت نحوه وخففت صوتي.

تصنعت لعبة رجلين صديقين يتبادلان سراً فيما بينهما.

"كان يلبس طقماً فاتحاً. وقبعة."

"وماذا أيضاً..."

"عذراً يجب أن أتناول الدواء. هل تحتاج لشيء آخر مني؟"

"ألا تعرفون إلى أين انتقلت؟"

"لم أعد أتذكر. حين ستغادر، لا تسمح لـ ميتسي بالخروج." قال السيد "نافراتيل" وهو يبتسم.

12

صنفوا "بوشكار" في دليل أمن الدولة بوصفه شخصية معادية. أبي يكنُ له نوعاً من المودة الغريبة لذا تجنب ذكره في تقاريره ، فكان يسكت عن بعض الأشياء أو يذكرها بشكل ضبابي بحيث إنها لم تعد تتناغم مع بعضها.

لا شيء مما حدث في ذلك اليوم قبل الأخير من شهر حزيران عام 1976 ساعدني على الفهم في ذلك الوقت. بعبارة أصح، لم أفكر كثيراً في الأمر لأنني كنت أعرف بعض الحقائق غير الهامة فقط – والنهاية السخيفة التي لم أفهمها على الإطلاق. ولكني اكتشفت كيف تتصل جميع الخيوط في وقت متأخر جداً.

رن جرس الهاتف ربما في السادسة مساء عند "بوشكار".

بعد عشر دقائق رن جرس الهاتف في بيتنا. رد أبي بشيء غير مفهوم في السّماعة ولبس ثيابه بسرعة.

كبس زر جرس بيت "بوشكار" الذي يسكن على بعد شارعين من بيتنا ، ودخل.. لم يجلس حتى، وبدأ بالكلام.

"أخبرني من اتصل بك قبل لحظات، وعن أي شيء تحدثتما. لقد اتصل بي... تعرفون من؟ يعرف أحدنا الآخر منذ فترة طويلة، وأقول ذلك كما هو بالضبط."

لا بد أن ذلك الشيء، لم يتسبب له بالبهجة، وكما أعرفه، إنه يحرك قدميه بعصبية على السجادة، وربما يعض الجلد حول الأظافر. وقد قرر لسبب ما أن يتحدث بصراحة، وربما كان الأمر عنده سيان، ولم يول اهتماماً يُذكر لما سيفكر به "بوشكار". لقد حصروه في الزاوية مثل الفأر.

ولكن عيون "بوشكار" جعلت تلمع، ولم يحس على الإطلاق بمعنى سؤال والدي. *إله الحب وهبني امرأة!*. شعَّ فرحاً. لم يفهم العواقب، ولا حتى من أين عرف الطبيب عن ذلك الهاتف، ولا حتى لماذا يريد أحدٌ غيره معرفة ذلك.

أخذ شهيقاً، ثم نفث الهواء من صدره بسعادة فقط:

"كانت ليلي!"

"كيف؟" سأله والدي.

"اتصلت بي "ليلي"!" كاد ينفجر من الفرح، اشتعل وجهه بأكمله.

"لا أفهم. عليك أن تتحدث بصوت مرتفع!"

"ليلي. إنها تسكن الآن في ألمانيا الغربية. قالت إنها تريد سماع صوتي كثيراً!"

"انتظر، انتظر... هل عرفتك عن نفسها؟"

"كانت هي!"

ارتمى والدي غلى الكرسي، وجعل يضحك ثم أمسك وجهه براحة كفيه وتابع الضحك. لم يعرف كيف يتوقف. بوشكار، بسبب الارتباك، ولكن قبل كل شيء بسبب الفرح. أيضاً أحس براحة كبيرة بعد سنوات طويلة من التفكير والانتظار العقيمين.

تصنع والدي الجدية.

"ولكن "ليلي" لم تكن حقيقة في يوم من الأيام. إنها من نسج الخيال."

"كيف ذلك...؟!"

"لقد اخترعناها."

كان بوشكار حتى اللحظة لا يزال يحافظ على ابتسامة وجهه، لم يفهم عمَّ يتحدث هنا السيد الطبيب "ترنوفسكي"، لا بد أنه فقد عقله، مسكين.

"هذا غير ممكن، لقد اتصلت بي قبل لحظات."

"اسكب لي شيئاً، وسأخبرك كل شيء عن هذا الأمر."

شربا سليفوفتسا.

من يدري لماذا كان أبي قاسياً إلى هذا الحد – ولكنه أخبره بكل شيء. عن الإعلان في الصحيفة، وعن الرسائل، وعن الصور. بالطبع، لم يُصدق "بوشكار" في البداية. ظنَّ أن والدي لأسباب لا يعرفها، يريد أن يُخرب عليه سعادته – الآن، حين اتصلت في نهاية الأمر، تلك المرأة التي كان ينتظرها كل تلك السنين الفارغة والباهتة.

ولكن هذا الأمر حرّض والدي أكثر وجعله يصفُ بتفصيل أكبر تلك الأشياء التي لا ضرورة للحديث عنها أو معرفتها – كلمات، وأحوال، وإطراء، واسم مستعار، حميمية من خلال الرسائل... بدأ لون بوشكار مع الوقت بالشحوب واللمعان، التصق بالكرسي وألح أكثر طالباً المزيد من التفاصيل. أحس والدي بالتأكيد – ربما في لحظة تركه ومغادرة البيت، أنه تصرف بحماقة، وبأن كل ذلك لم يكن ضرورياً وكان على العكس مؤلماً وقاسياً، ولكن الكلمات لا يمكن استرجاعها.

شنق "بوشكار" نفسه مع طلوع الفجر. رأيت لسانه الأزرق المتورم. لقد اكتشفوه بعد ثلاثة أيام حين أرادت ساعية البريد تسليم رسالة مُسجلة. وأيقظت الجيران.

طلبوا والدي في الحال. حين تطلع في وجه "بوشكار" تيبس في مكانه، كأنه وجه قنديل البحر.. لم يرغب حتى لمسه. قال شيئاً غير مفهوم، ثم كتب سبب الوفاة الواضح للعيان قبل وصول مراقب الشرطة الذي أكد أن الوفاة حدثت دون تدخل من شخص آخر.

عاد إلى البيت في وقت متأخر من المساء. وكان ثملاً، علماً أنه نادراً ما يحدث هذا الشيء.

قال فقط: كان يملك غدة درقية رائعة خلف عظم القص، مما جعل طبيب التشريح يحتفظ بها ضمن مجموعته،". أغلق على نفسه باب حجرته بعد ذلك.

13

توسعت "بريجاني" وتوسعت معها أهميتها أيضاً.

اشتغل "بوريس أنغيال"، ابن المدير السابق في قسم الاستقبال في فندق "يلن". كان صديقاً لـ "تينا"، ولكني أحياناً كنت أتوقف عنده حين كان طريقي يمر حول الفندق. أشار لي مرة إلى رجل ببزة شاحبة جعل يتمشى حول قسم الاستقبال. إنه تحري الفندق. لم يكن موظفاً رسمياً ولكنه معروف بشكل واسع كمخبر يعمل مع الأمن. كان يتسكع في بهو الفندق، ويشرب القهوة في المطعم، أحياناً يتحدث مع الموظفين، فقد أمضى هنا أياماً بأكملها. وظيفته كانت مراقبة الضيوف الهامين تحديداً الذين يتم دعوتهم إلى المحافظة. يقال إنه يقوم بتصويرهم، ولكن "بوريس" لم يشاهده ولو مرة واحدة أثناء قيامه بذلك. ولقد قام المدير مرة بتدوين جدول بأسماء الهويات وعناوينها وأرقامها، وسلمه لذلك الرجل صاحب البزة الشاحبة.

تم إضافة إلى ذلك في مدينتنا تسجيل عدة جرائم قتل، وحادثة تعذيب واحدة لفتاة قاصرة، وعدد من حالات الاغتصاب خلال سنة. نتائج رائعة مقارنة مع مدن أخرى مثل "ترنشين".

هدموا أماكن عديدة. يُذكر الطريق أمام الفندق بالفم الذي كُسرت أسنانه بعد عراك قوي في الطريق. أخذت "بريجاني" في ذلك الوقت نصيبها من ذلك المنظر المملّ والمؤقت مثل غيرها من المدن السلوفاكية. إذ تضخمت أطراف المدينة بشكل غريب، كما لو أنك تترك العجينة فترة طويلة لتتخمر. فالغبار يطير في كل مكان.

حساسيتي تسوء أكثر حين أزور منزلنا، أتنفس بصعوبة، وأوشك أحياناً على الاختناق، كما لو أن شيئاً يسكن حنجرتي ولا يمكنني إخراجه.

تشكلت خلف المدينة تلة كبيرة من الأنقاض الناتجة عن بناء البيوت مسبقة الصنع إضافة إلى مخلفات تعديل مجرى "سالافا" بالقرب من الجزيرة الموسمية التي تدعى "أو ميسلوفتشا". التربة، وبقايا البيوت، والجدران والحجارة، لم ينقلوها إلى مكان واحد بل تركوها لتنمو عليها الأعشاب والأشجار. ولقد أطلق البريجانيون عليها اسم القمة الزرقاء —

شرح لي "فويتا" أن الأعشاب هنا لها ظل غريب أزرق - والأطفال يذهبون إلى هناك لمارسة رياضة التزلج في الشتاء.

"بوني" كان يلعب هنا في تلك الأماكن لعبة الغرب المتوحش. إذ ينادي الأطفال أحدهم على الآخر بالتشيكية — مستخدمين لغة فيلم "فينيتو" الذي شاهدوه في التلفاز، وقد أكد قناعاتهم أن الهنود الحمر يتحدثون بهذه الطريقة. كان يكفيهم لتحقيق أوهامهم ريشة بطة، أو دجاجة مُخيطة على مطاط سروال، وبعض القطع من جلد الغزال.

كان نهر "سالافا" يمتلك في داخله دائماً شيئاً من الغدر الذي يصعُب توقعه وفي حين وصلت مياهه بالكاد في إحدى السنوات إلى الخصر، طاف في سنوات أخرى ووصلت مياهه الجارفة إلى عمق أربعة أمتار. تلوى مساره، وشكل تعرجات، وفروعاً مغلقة كما نمتْ على أطرافه الأيكة، والغابات الصغيرة، وأشجار الصفصاف ونباتات البردي. وكانت العوامة تنتقل فيه طوال السنة - ثلاث عوامات نسيها الروس هنا بعد الحرب كان باستطاعتها حمل عدة سيارات دفعة واحدة. سكن المُشغل، السيد "لوتسكي" على ضفة النهر في كوخ صغير تحت شجرة بلوط هائلة رُبطَ بها الحبل. لقد جرفهما الطوف في عام خمسة وسبعين، وأكثر من ذلك، وصلت مياه "سالافا" إلى الطرقات مما جعل الجميع يفقدون صبرهم.

حين طوعوه في عام 1976، سووا مساره الذي أصبح خطاً مستقيماً. وحفروا التعرجات، ونظفوا كل شيء. تدفق تيار الماء هبوطاً بسرعة كبيرة وتابع. ثم هبط منسوب المياه ثلاثة أمتار نتيجة التنظيم، و شحتْ معه المياه الجوفيه في الآبار المجاورة أيضاً. وبقي القليل من السمك في ذلك الشريط اللامع السريع الأسمر الفاتح. ثم اختفت المياه من بحيرة "بها" الموجودة بالقرب من معمل الآجر بالكامل تقريباً، مما حوَلها إلى جنة للضفادع والأعشاب الكثيفة، ومكاناً جعل الناس يرمون فيه نفاياتهم. فأصبحت مصدراً للروائح الكريهة.

قلائل هم الذين يحبون الذهاب إلى تلك المنطقة الحليقة الشاحبة، والمُقفرة الموجودة بالقرب من "سالافا". لقد قطعوا أشجار الغابة الجميلة التي أحببتها مع "فويتا" كثيراً حيث جلسنا على غصن إحداها. لقد ذهبنا إلى هناك قبل خمس سنوات مع زجاجة نبيذ وتجادلنا حول المكان الذي كانت فيه تلك الشجرة.

اكتشفنا حسب الخريطة في وقت لاحق أن كلانا أخطأ.

14

انتصب البناء الجديد للتلفزيون التشيكوسلوفاكي في براتيسلافا بشكل نهائي فوق حي "ملينسكا دولينا"، ولكن هيئة إنتاج البرامج الإعلانية والوثائقية بقيت بشكل مؤقت في المركز السابق الموجود في بناء "تاترابانكا" في ساحة إس إن ب. رئيس التحرير – الرفيق "تسسناك" – كان ينتظرني بشوق خلف طاولته حيث وضعت أمامه الدبلوم الذي تصفحه بسعادة، ابتسم برضى وعلّق إنه سعيد: لأنني قررت في نهاية الأمر، وكفاهم ضغطاً عليه من الأعلى.

المدرسة السياسية العليا التابعة للجنة المركزية للحزب الشيوعي في تشيكوسلوفاكيا.

الرفيق آدم ترنوفسكي، المولود في 25.6.1934 في بريجاني، محافظة بريجاني شارك في الفترة ما بين 27. تشرين الثاني و21 كانون الأول 1976 في الدورة التخصصية لمحرري المقالات الثقافية في الصحافة المركزية، والإذاعة والتلفاز حول أسئلة الثقافة السياسية.

في براغ يوم 21.12. 1976

رقم التسجيل ك 17/23-76

أمضينا حياتنا الداخلية بالرغم من الدبلومات في مكان عميق تحت الأرض. وقد تمددتْ على السطح، صحراء غطاها الرماد. الصحراء تبعث الراحة في عيون الإنسان الذي يطلب الوضوح والترتيب في كل شيء، وجوه متشابهة لكائنات رمادية ساكتة. "ماذا يُمكنك فعله؟ الشراب أو المضاجعة، يُمكنك أن تختار" قال "فويتا".

كبسنا زر الجرس الموجود أمام باب البيت الذي غصّ بأناس جاؤوا ليتسلوا. ففتحت امرأة في قميص ياتيكي (زاهي الألوان — المترجم)، شَكّلتْ على شعرها وردة ذابلة، لم يعرفها أحد منا.

"تفضلوا، وادخلوا! يمكنكم أن تتذوقوا!"

خبز وملح.

حملتْ، بشكل رسمي، في يدها صحناً مليئاً بالحبوب. "دكسفنمترازين". فتناول كل منا واحدة ثم اختلطنا مع الضيوف. الأخيران سيكونان الأولين، والأولان سيكونان الأخيران، هذه هي كلمة سر الأمسيات القديمة.

بقينا في هذا البيت من الجمعة ولغاية مساء الأحد. كنا حتى يوم السبت نتحاور أثناء طعام الغداء بحيوية في مواضيع مختلفة، ولكن الزوار بدؤوا تدريجياً بعد ذلك بالانطفاء ولم يُسمع لهم حس، كما أن بعضهم سقطوا في مكانهم الذي وقفوا فيه بين الكراسي الواطئة والسجادة.

كانت أغنية *wild horses* تصدح للمرة المئة حين نهض "فويتا" من مكانه وأعلن بوجه يشع بالفرح:

"أريد العيش على أنغام "رولنك ستون"!

بقينا حتى منتصف الليل نبحث في الصحف عن إعلان مناسب، ولكننا لم نجد أي عرض من أحد.

أفرط "فويتا" مع مرور الوقت أكثر في الشراب، ولكنه خجل أن يحتسي الخمرة وحده، لهذا أحب أن يوقف الناس في الطريق، ويجبر كل واحد منهم على أخذ بلعة من زجاجته المسطحة. وحين ثمل، كان من الصعب المرور بالقرب منه دون الشعور برائحةالكحول — جلس على جدار السور أمام البيت الموجود في شارع "سابوفا" وجعل يتطلع إلى المارة مثل العنكبوت.

"أيها الفرّج" أحبك! إنك مثل زهرة الورد!"

حاولت سحبه إلى الداخل كي لا ينتبه إليه رجال الشرطة.

زوار"فويتا" كُثر حتى ولو أنه لم يتمسك ببقائهم في البيت. يتركون بشكل استعراضي التلفاز على السرير أو ملاحف الريش مبعثرة على الأرض. وأحياناً يمزقون بضع صفحات من كتابه المُفضل لـ "كانت" ويصُرون بها أعقاب السجائر. ومرة، عاد من العرض في سينما "بودوتسنوست" فوجد باب دولاب الملابس في غرفة النوم مشرعاً. وقد قُطع فيها معطفه المصنوع من جلد كلب القوقاز في شناشيل ضيقة.

بهذه الطريقة أعلنت الكائنات السرية الآتية من عالم آخر حضورها.

انتشرت عناصر أمن الدولة مثل انتشار الالتهاب الذي لا يُمكنك الشعور به في المراحل الأولى. ربما تتقشعون القليل من الدم، أويؤلُمكم شيء ما قليلاً، أو أنكم تشكُون بإصابتكم بإنفلونزا بسيطة، ولا شيء أكثر، ولكنكم على خطأ.

زارني أحدهم من أصحاب المعاطف الجلدية — كما يحدث في الأفلام - وسألني عن "فويتا". ونصحني بعدم ملاقاته. حتى مسؤول الكوادر في التلفزيون سحبني جانباً في المطعم وحاول إقناعي أثناء تناولنا حساء اللفت الذي طمّس فيه قليلاً نظارته المعلقة على سلسلة حول رقبته بأسلوب ينم على الصداقة.

لقد حققوا مع "فويتا" في "فيرووراركا"*. يعرفون واقعة مروجي الدعاية الانتخابية، وموضوع تناول حبة الـ"فنمترازين"، وعن الماريهوانا — لا بد أن أحدهم قد وشى به. عادة كنا نتسلى في أمسياتنا بتحديد الجاني، من يمكنه أن يكون ذلك العصفور النادر — ذاك صاحب الجاكيت الغريب؟ لا، هذا لا. إذا ربما ذاك الجالس بالقرب من النافذة؟ ربما.

سحبوا منه جواز السفر ومنعوه من المغادرة. كشّر "فويتا" فقط: على الأقل لدينا شيء مشترك. لم يُعتبْ "كانت"، وقدماه لم تعتبا طوال حياته أرض "كالينينغراد. وأنا في المقابل، لن أدخل "كالينغراد" في حياتي.

الأيام الهادئة في شارع "سابوفا" لم يُعكرها أحد سوى تلك العجوز من الأعلى التي كانت تُربي مايقارب المائة قطة. بالطبع إنه رقم مبالغ فيه، ولكنها لم تترك أحداً يدخل إلى بيتها كي يحسب العدد.

غالباً ما كان "فويتا" يصحو في الليل على صوت وقع أقدام — في سكون الليل، فيسمع كيف تتحرك القطط على الباركيه. الخطوات الخفيفة، والضربات الحذرة حين تقفز أو حين تقلبُ شيئاً ما.

حين يُدخن في الرواق، تظهرعشر ة أزواج من العيون في الحال من خلف النافذة. وتتابع بانتباه كل حركة يقوم بها، يُنومونه بعيونهم الصفراء وفتحاتها السوداء. وجوه متحجرة. حُراس المنطقة. يجب أن يعرفوا كل شيء. ينهي لفافة تبغه، ويدهس نهايتها، ويغادر المكان ويشعر من خلفه، كيف تقوم القطط واحدة تلو الأخرى بالانسحاب من النافذة والاختفاء في البيت.

شكّ "فويتا" مرة واحدة فقط. إذ أنجبت له زوجته ابنة بعد الصبي. الأمهات لم يبدين أي علامة من علامات الغبطة حين جاء إليهن ثملاً ومفلساً.

لقد وجدت قبل فترة ما يُثبت ذلك التأرجح وعدم التوازن:

نص الكفيل:

أعرف الرفيق فويتخ راشكا والعائلته التي نشأ فيها منذ أيام الدراسة. وإنني على يقين من خلال جميع مراحل تطوره الخاص، والعملي، والإبداعي أنه يستحق ثقة الحزب مما يؤهله ليكون عضواً فاعلاً. إنني أؤيد الاقتراح المتعلق بقبوله كمرشح لعضوية في الحزب.

نص التأنيب الرفاقي:

بهذا تعبر رئاسة منظمة ك إس إس واحد عن انتقادها الرفاقي للرفيق ترنوفسكي لتقييمه غير المكتمل للرفيق "راشكا" المتعلق بترشيحه لعضوية ك إس تش ولا سيما موقفه من سنوات الأزمة والأوضاع الراهنة.

15

— *تشتري إحداها ومن ثم عليك التخلص من غيرها* — قالت الجدة "ماريا" عن الثياب.

أصبح عندي ذلك القول بمثابة الخرافة. إذ آمنت أن الحياة تعمل حسب قوانين التوازن. لهذا السبب كنت أشعر في طفولتي بالقلق.

وجعلتُ أتعمدُ منذ دراستي الابتدائية إضاعة الأشياء. فحين حصلت على علامة واحد في مادة الإملاء، خرّبت في الحال أحب لعبة إلى نفسي. لو أني لم أفعل ذلك لما وُفِّقتُ من جديد.

شعرتُ في إحدى الفترات في منتصف السبعينات بشكل مفاجئ كيف تركتني الآلهة وهي تُطقطق وتهسهس، فلم يكن بالإمكان منع ذلك.

أحببتُ دائماً التسكع بين الكواليس في استديوهات التلفزيون مع المساعدين. كنت أذهب لرؤية "غوستو" الذي على الرغم من فقده لإصبعين إلا أن ذلك لم يؤثر في إبداعه في شيء. إذ كان في حينها يُصنع مسلّة من المرمر لإحدى العروض المسرحية.

غَطَسَ طرحية ورق سميكة بنية اللون في حوض من الألوان — زبدية، ولكرية، وبيج. خلطها قبل ذلك بنعومة مستخدماً جهاز تجفيف الشعر، ولكنه لم يسمح لها أن تُشكل لوناً واحداً، فقد أراد الحفاظ على بُنية الألوان فحسب. غَمّسَ طرحية الورق وسحبها بحرفية كبيرة. حتى التصق اللون على السطح الذي ظهر شبيهاً بالمرمر حقاً. ثم تركه ليجف كي يتمكن من لصقه على العمود البيتوني.

حين غَمّسَ الورقة الثانية، رفعتُ رأسي بطريقة لا إرادية. لمحتُها في تلك اللحظة خلف الكواليس. كانت قريبة. خرجت من عالم آخر كنت قد نسيته منذ زمن طويل. "أدا"، صديقة أختي "تينا"، القادرة بهرموناتها على إيصال جميع أفراد عائلتنا إلى حافة الجنون. عملت هنا بوصفها مساعدة إنتاج. كما عرفت في وقت لاحق. وكانت في تلك الأثناء تتناقش مع مدير قسم الديكور.

بصوتها العميق ، وشعرها الأشقر المربوط إلى الخلف، وبعينيها التي يصعُب تحديد لونهما، نشرت من حولها رائحة "بارفان" أنثوي لم أعرفه من قبل. دسست يدي في جيب بنطالي لسحب قطعة نقد بالرغم من معرفتي المسبقة بالنتيجة . لقد أمرتني الرموز الثلاثة *بعدم الذهاب*، ومع ذلك تركت الحوض للخوض واتجهت نحوها في الحال.

شيء ما في داخلي منعني من استخدام جسد إحداهن هكذا، ولكن "أدا" لم تكن تُشغل بالها بأشياء كتلك. ولم تنتظر شيئاً من علاقتنا لمعرفتها بأني لن أُطلق "سوزانا" وهذا ما أخبرتها به مباشرة، ومنذ البداية. وباستثنائي كان يدور حولها هنا بالتأكيد رجل آخر، وربما أكثر من واحد. أحجار شطرنج.

كان عليّ أن أدرك ما يمكنه أن يحدث من مشكلات في المستقبل. ماذا يمكنك أن تتوقع من إنسان يرافقك إلى أحب الأماكن لديه عاطفية وحميمية، وأنت ترى في ذلك المكان مجرد غابة عادية من أشجار الصنوبر المزروعة حسب المِسطرة حيث لا يُطقطق الرمل تحت قدميك لصلابته، الأرصفة تختفي في البعيد، ولا يمكنك حتى الاختباء هنا. أنت تشعر بالملل في حين تشعر هي بالسعادة، وأنت لا تفهم السبب. هي أيضاً لا تعرف السبب الذي يمنعك من الشعور بالسعادة . إنه سوء تفاهم مثالي دون كلام.

بهذا الشكل كان الأمر مع "أدا". وحين تركتني "سوزانا" في النهاية وجمعت حوائجها مع ابننا "بوني"، وانتقلت إلى غرفة صغيرة في ساحة "دولوفا" كانت قد ورثتها من عمتها، كان الوقت قد تأخر. فالوقت لم يتوقف بانتظار الأمر كي يتحرك في الاتجاه الذي سأشير به إليه.

سخرت "أدا" مني وأخذت الأمر على أنه برهاناً على ضعفي: إن لم تكن تتخيل أنها ستعيش معي. وكلمة *الحرية* كنت قد سمعتها في العديد من الأشكال والنغمات، حتى إنها بدأت تُشعرني بالغثيان.

غالباً ما يوجد في الدراما المسرحية والأفلام حالات تقوم بها الشخصيات بداية بجباهها العابسة، ودموعها السارحة من العيون، ونهاية بعناقها في بعض الأحيان عند نهاية المشهد — أثناء *الرحلات الممتدة من المساء حتى الصباح* — بإيجاد الحلول لحياتها بأكملها. وفجأة يبدو كل شيء واضحاً، وصافٍ.

ولكن المؤلف عادة يتحفظ عما سيأتي بعد ذلك — الملل، الروتين، الفواصل، البرودة، التباعد، والفراق البطيء، الهجر، وخراب الجسم ،

السيرومات وماشابه. كل هذا: *وعاشا بسعادة إلى أن فرقتهم الحياة*. وفي هذا يكمن السر.

شعرت في تلك الأثناء من جديد بجذب، مغناطيسي خبيث "مسمرسموس"*[105] شدني إلى البيت في"بريجاني". أخذت إجازة لمدة أسبوعين وحضرت إلى هنا كي أرتاح من كل شيء، من العالم، ومن نفسي، لفترة ما على الأقل. كانت تطنُ في رأسي *تعويذة تشيك تشيك، البيت الصغير!* وكما جرت العادة حين أعود. أصبتُ في الحال بحساسية شديدة، ولكنني تحسنتُ بعد عدة أيام. تعود الجسم على أني سأبقى هنا لفترة.

بقي أبي في تلك الأثناء وحيداً، أو قاب قوسين أو أدنى من ذلك على الأقل.

وتماماً كما في السابق، تسلقت إلى الأعلى حتى وصلت إلى برج الكنيسة، وتطلعت من هناك إلى"بريجاني" التي امتدت إلى البعيد. بحر من السقوف المثقوبة، والمتهدمة تتواصل مع البيوت مسبقة الصنع القاسيةالجديدة. تجعدت تحتي في الأسفل ساحة صغيرة انتشرت حولها بعض البيوت التي ظهر من خلفها شارع "شتوروفا" العريض الذي غالباً ما تغير اسمه متجهاً نحو الجنوب. وحين دورت إصبعي في الهواء، وبللته بلعابي وحسب اتجاه الريح، انعطفت من شارع "شتوروفا" بين الأبنية — فاصطدمت بمنزلنا. منزلي، منزل والدي، ووالد والدي. لقد تعودت الرياح في تلك الأوقات الهبوب من جهة الشرق.

جلسنا مع والدي في صالون الخريف. في البيت الفارغ الذي كان الهواء يلعب فيه على الدوام. انتشرت موسيقى "غرشوين" من الغرامافون بهدوء. it Ain,t Necessarily So وغيرها من الأشياء.

"أين تكون حسب تقديراتك الحدود بين ما يمكن للإنسان فعله وبين ما هو مُحرم عليه؟"

---

[105] مسمر سموس" نسبة إلى الطبيب الألماني الذي استخدم المغناطيس في العلاج"

"لا أعرف، عن أي شيء تتحدث."
"أعتقد أنك تعرف."
"تعرف، أداشو... كل شيء يمكنه أن يكون مختلفاً، ولكن... الأشياء تعترضني"
"الإنسان دائماً يتفاجأ بأشياء تعترض حياته. ولا يمكن أن يكون غير ذلك. من الضروري أن تعرف كيف تتأقلم؟"
"إنك لن تعرف أبداً كيف تتصرف، وهذا ما تراه بنفسك. تتفاجأ بحدوث أشياء دون رغبة منك. هناك ظروف تُجبرك أحياناً على التأقلم معها. هل تأخذ شوربة؟"
"لست جائعاً. أخبرني عن "أرمين"، وكيف حدث ما حدث."
"عليك أن ترفع صوتك. لا أسمعك."
"أرمين."
"أرادوا أخذه من هنا و... هكذا كانت الفترة."
"أها."
"ليست غلطتي."
"لماذا تركتنا أمي؟"
"تعرف، كيف كانت والدتك... هستيرية، تعيش عالمها الخاص، ولا يهمها شيء غير ذلك."
بقينا بعد ذلك صامتين فترة. أردت أن أحمله وزر تركها لنا، هكذا كان مزاجي. ولكني لم أجد في ذلك الوقت أي شيء. لا شيء يمكنني ألا ألوم به حتى نفسي.
السابع عشر من تشرين الثاني: عيد اسم "كلاوديا".

16

كنت بعد ذلك مضطراً للعودة إلى براتيسلافا.
بقيت وحدي في البيت الموجود في شارع "مالينوفسكي". "بريتا"، وهو الاسم السري لـ بولي استر 6 – تركته لـ "بوني". كلانا تألم، أنا والكلب

أيضاً. فقد رفض الأكل، وجعل يحكُ بعصبية وبره الذي راح يتساقط في خُصل. حزن "بريت" لفراقي، ولكنه كان يتجاهلني حين أذهب أحياناً لزيارتهم وكأنه يريد القول إنني خُنته، وتركته يواجه هذا العالم الظالم.

تمكنت شوربة الخضار وحدها من جعلي أستمر في الحياة وأحافظ على سلامة عقلي. لقد شكلت عندي الملجأ، والمصدر لشعوري بالأمان في حياتي الرمادية، وكل ذلك بفضل تلك الألوان. إذ أتطلع بنشوة عارمة في بقبقة الطنجرة التي احتوت على مجموعة الجزر الأحمر وجذر البقدونس الأبيض، والكرافس المُقطع، والكرنب، والبصل الذي كان يُطبخ مع قشرته البنية.... أستنشق تلك الرائحة الرائعة وأحدث نفسي قائلاً: طالما الشوربة موجودة فإن الحياة لن تكون بهذا السوء.

هدوء الأيام التي مرت، عكرها هنا وهناك صخب "شباب السيارات"، "الخوليكان" الذين كانوا بسبب ندرة النشاطات الأخرى يسرقون السيارات. أو أنهم بكل بساطة يصدمونها، ويتركونها. كل لحظة يشتكي أحدهم، لهذا تم التحقيق مع عدد من سكان المبنى. سمعت تلك الحوارات وأنا جالس في الشرفة وساقاي ترتاحان على الدرابزون.

في تلك الأثناء كان "بالكو –زبركو"، الأطفال أطلقوا عليه هذا الاسم (تيمناً بالشخصية التي حرضتهم على جمعٍ الحديد والأوراق في البرنامج التلفزيوني البوابة الذهبية) يفتعل ضجيجاً من وراء النافذة. إذ حاول تكسير الثلاجة القديمة كي يتمكن من نقل قطعها إلى مركز تجميع النفايات الحديدية. وكنت أشعر أثناء ذلك أنه ينهال بمطرقته القوية مباشرة على رأسي. سكن في بيت ناطور البناء، ولم يلق التحية على أحد. كنت أسمعه يشتمُ حين يضطر لجرف الثلج، أو تكنيس أوراق الشجر الموجودة حول مكب الزبالة فقط.

كان نافعاً مثل حيوان الغابة الذكي الذي يشتم رائحة الفطايس أو نثرات الخشب بعد قطع الأشجار من بعيد حيث يقوم بتكنيسها. بهذه الطريقة كان يُنظف "بالكو-زبيركو" جميع أشكال قطع الحديد والأوراق،

والبلور، والزجاجات الفارغة بكل أنواعها الموجودة حول البناء. حتى إنه سحبَ في إحدى المرات شريطاً نحاسياً ووضعه تحت الشرفة الكبيرة . بالطبع ، أحدهم افتقده، ولكن لا شيء متروك لقدره في مساحة تعادل مائتي متر حول بيتنا يمكنه أن يبقى في مكانه، وهذا ينسحبُ على السيارات التي لم تسلم منه حين يجدها واقفة في مكانها فترة طويلة . كان يُنفسُ هواء عجلاتها، ثم ينتظر، بعدها، يكسر زجاجها الجانبي، وحين لا يحدث أي شي معين، يبدأ بتفكيكها، وينقل القطع بالتدريج إلى أماكن تجميع نفايات الحديد.

كان عندي ما يكفي من الوقت للتفكير. حميع الذكريات المتعلقة بالأحداث المأسوية كانت تعود إلى ذاكرتي في موجات، مثل الملاريا التي أصيب بها العم "رودو" (كانت في أحد الأيام سبباً في مغادرته - بالرغم من تأكيده أن أكثر الأمراض تسبباً في الموت هي الحياة، وأكثر من ذلك في أسوأ التقديرات). الهجمات كانت تصيبني تحديداً في الأوقات التي لا أنتظرها فيها.

أحياناً، كنت أستلقي على السرير هكذا دون هدف معين، وأتقلب من جهة إلى جهة. بقيت مرة في أحد الأوضاع إلى أن سال المخاط من حفرة أنفي العلوية إلى السفلية. تخيلتُ مؤقت الزمن، وساعتيَ الرملية، وبعد ذلك المائية. تحملت هذه الوضعية يوماً بأكمله، غير قادر على النهوض، ولا فعل أي شيء حتى إني حسبت الزمن الذي استغرقته — مخطتي لتنسكب من الثقب الأيمن إلى الأيسر. ست دقائق وخمس عشرة ثانية. أخذتْ في الاتجاه المعاكس وقتاً أطول بقليل لأن الثقب الأيسر بعد الإصابة في طفولتي، حين اضطروا لخياطة أنفي، فأصبح أصغر بقليل. سبع دقائق وثلاث ثوان.

الموت، يمكنه أن يحدث بطرق مختلفة، وكل نوع من الميتات يعتبر مناسباً لمرحلة مختلفة من الحياة. كان يحدث في السبعينات بعد تناول عدة حبوب من الـ "أنالغون"، وربما بعد بلعها مع كمية قليلة من الجعة. إذ كان ذلك كافياً. لقد ملأ لكم يومكم ولوّنه. غالباً أمام التلفاز.

حين تأتون إلى البيت، بعد يوم عمل مقرف. وحين تكونون قد أنهيتم كل شيء —كما يقولون.

التلفاز يشتغل، وينتشر منه صوت أنثوي. إنهم يقدمون في تلك الأثناء شريطاً كنت قد قمت بقصه قبل ثلاثة أسابيع.

"ماذا ستطبخ اليوم؟" — إنه سؤال يتكرر دون توقف كل يوم. الطبخ يمكنه أن يكون عند أحدهم نوعاً من التسلية، أو هواية، وعند غيره — أو بالأحرى عند غيرها — تكرار روتيني لواجب يومي.

العاملون في الإحصاء، حسبوا أن التعب الزمني المترافق مع تحضير الطعام في البيت في تشيكوسلوفاكيا يعادل ما قيمته ستون مليون ساعة في الأسبوع. إذا أضفنا ذلك الوقت إلى وقت العمل الأسبوعي النظامي، نصل إلى نتيجة ممتعة: العمل المتصل بتحضير الطعام في البيوت يُشكل ما يعادل جهد مليون ونصف إنسان عامل بدوام كامل.

تحتاجُ الطباخة لتحضير نوع بسيط من الطعام الأساسي للقيام بمائة وخمسين عملية مختلفة. وفي الطعام الأكثر تعقيداً خمسمائة عملية. إذ تتحرك بين طاولة العمل في المطبخ، والطباخ (الموقد) خمسين مرة، وتحتاج على الأقل إلى الماء خمس عشرة مرة، وسبعين مرة تضع جانباً الأدوات المستعملة في الطبخ. إضافة إلى ذلك بالطبع، تدخل عمليات أخرى خاصة. وأكثر التحركات تكون بين طاولة الطبخ والموقد، وغيرها يكون بين طاولة الطبخ والماء.

ذهبت إلى المطبخ لإحضار الشوربة.

يحتاج كل إنسان وهو جالس وراء الطاولة إلى ما يكفيه من الحيز للقيام بأية حركة بحرية. فقد كشفتْ الفحوص أن المساحة المطلوبة أثناء تناول الأكل العادي تتحرك بين ثلاثة وخمسين إلى خمسة وستين سنتمتراً. المعدل العام يعادل ثمانية وخمسين سنتمتراً، وهذا يجب أن يكفي لكل من يتناول الطعام . لأن المساحة العادية المحددة على الطاولة لكل إنسان عليها ألا تكون أقل من أربعة وخمسين سنتمتراً. بهذه

المساحات فحسب يُمكنه دون صعوبة تناول الطعام من الصينية، ومسح قطعة الخبز، أو أضافة الخردل، أو مربى البندورة.

باستثناء بعض الذباب الصغير، والسمكة الفضية، والعت، والحشرات السوداء في الطحين أصبحت السمكة الحمراء في الأكفاريوم حيواني الرئيس الوحيد في البيت. لقد شكلت مجتمعي. وغالبية نشاطها كان يحدث في الليل — وحين حاولتْ الانتحار – على الأقل هذا ما تخيلته. سمعتُ في حوالي الواحدة — الثانية صوت تطريش ماء أثناء قفزها من الأكفاريوم، وجاء بعد ذلك صوت ارتطامها بالباركيه. ففكرت بما سيحدث لها حين أكون مستغرقاً في نومي الهادئ.

أخيراً سوف تتمكن بنجاح من تنفيذ مأربها.

لم أنجح في الخلود إلى النوم في الليل. فالقمر بلونه الأصفر الشبيه بلون الزبدة القديمة، يضوي الستارة بأكملها من خلال النافذة. والهدوء يسود شارع "مالينوفسكي" الصاخب منذ وقت طويل، أسمع صوتاً يهمس في أذني وبعد ذلك هدير كورال لا نهاية له:

!Nessun dorma

!Nessun dorma

لا أحد ينام. ليل عميق و توراندوت *[106]

17

البناء المرتفع في حي "ملينسكا دولينا" يشع نضارة. ويؤكد المدخل الحديث من المرمر المعشق بالكريم للزوار أن شيئاً سرياً وهاماً يحدث هنا.

هذا الشعور كشفته قاعة الاجتماعات الواسعة التي جلس في نهاية طاولتها الطويلة الرفيق " تسسناك" الذي جعل يومئ برأسه بارتياح.

لقد أمر بإحضار نموذج كبير أبيض من الجبس لمبنى التلفزيون التشيكوسلوفاكي وجعل يتفحصه بفرح إلى أن نده على سكرتيرته.

---

[106] توراندوت : أوبرا

"يانكا"، انظري إلى ما يوجد هناك!"

درس كلاهما بناء الأستوديو رقم أربعة الذي كان يُخفي شيئاً. سحبت "يانكا" ذلك الشيء بملقط نتف الحواجب. فظهرت منه بعض الشرطان.

"ماذا يمكنه أن يكون؟"

"جهاز تنصت." تنهد الرفيق تسسناك.

المُخرج مع المصورين تسلموا أماكنهم في المكاتب الموجودة في الزوايا، ولكنهم لم يقضوا هناك وقتاً طويلاً. البوفيه كان في الأعلى، في الطابق الثامن والعشرين مع إطلالة على جميع الاتجاهات حيث يلتقي العاملون. إذ كان بوسعهم الاختفاء بذكاء في ما يُسمى بالبوفيه الأخضر — ذا القاعة الخضراء البرتقالية مع أجهزة الصوت المُجنحة حيث لا يمكن لأرجل الإنسان العادي أن تُضيّع الطريق . وإذا حصل ذلك الشيء ووصل إلى هناك فإنه لن يجد الرغبة في العودة للعمل من جديد.

حين احتجت لبضع صور من جبال التاترا، كانت الرحلة عبر الطرقات الوعرة في سيارة التلفزيون "روبر" التي كان محركها ينفث الدخان إلى الخارج، وإلى الداخل ربما ستستغرق اليوم بأكمله — ويوماً آخر للتصوير، ويوماً للعودة.

قمتُ بدلاً من ذلك بالبحث عن المشاهد داخل أرشيف التلفزيون. فقمت بتبهيرها على طاولة القص، وبعدها قاموا بنسخها إلى الفيلم الجديد. الجميع فعلوا الشيء ذاته، ولهذا فإنك تجد في جميع الأفلام التسجيلية من تلك السنوات مشاهد مشابهة لجبال التاترا التي كستها الثلوج.

كان من الصعب التهرب أحياناً من "روبور— ددإر" (ألمانيا الشرقية)— لقد توجب علينا تصوير إعلان عن الساحة الاشتراكية الجديدة في مكان ما من وسط سلوفاكيا. فرتبنا آلات التصوير في الخلف، وجلسنا في مقعدين كانا شبيهين بمقاعد الباصات، ولكنهما باليان أكثر. وكنا نتأرجح طوال الطريق من جهة إلى أخرى. تعطلت نافذة التهوية الموجودة في السقف ولهذا لم يكن هناك سوى المطر أو الغبار بانتظارنا.

كان دخان العادم الأسود ينتشر في كل الاتجاهات، وبما أننا أخذنا معنا ما يكفينا من النبيذ والفطائر، فقد تمكنا من تحمل مشقة الرحلة.
انتشر أهالي البلدة الصغيرة من حولنا، التلفاز له على الدوام تأثير ساحر.
"من منكم المخرج؟" سألنا أحدهم.

أشرتُ دون تفكير طويل إلى السائق البدين الذي امتلأ وجهه بالدمامل وبرزت كتلة مؤخرته خارج معطفه المصنوع من النايلون الرقيق أثناء تنزيله الكاميرات وحاملاتها. مسح وجهه المتعرق بكم قميصه، وجلس خلف المقود وفنجر عيونه باندهاش كبير حين نقرت على الزجاج الأمامي إحدى أكثر فتيات المنطقة شجاعة.

لم نلمحه بعد ذلك يومين كاملين كما يجب. ظهر بالصدفة فقط في تلك الأماكن التي يصعبُ توقعه فيها. وكان برفقته بالطبع عدد من الصبايا الجميلات.

كنا نسكن في الفندق في نفس الغرفة. حين استيقظت بشكل مفاجئ من نومي الخفيف، أسمعُ تأوهات نسوية. عامل الإنتاج يسأل في الصباح ما إذا كانت الصبية لا تزال عذراء؟ السائق يرد عليه باختصار، لا، كانت يدها مكسورة وكانت تؤلمها حين يرتمي عليها دون قصد.

لم أعرف على الإطلاق الوصول إلى الأشياء بطريقة سهلة. تماماً كما يحدث مع عازفي الكمان المُحترفين الذين بعد كل عزف لـ "البلوز" والأغنيات الحزينة، لا يعرفون عزفَ "سولو في دور" عادياً.

لهذا السبب كنت أحسد الناس الذين يعرفون الوصول إلى أغراضهم بشكل مباشر. ولنفس السبب أيضاً كنت أكرههم.

بدأت أزور جارتي من الطابق الثاني. تعرفتُ إليها حين سقطت من يدها ملحفة الريش على شرفتنا أثناء تهويتها لها. فتركت على أبواب لمستأجرين ورقة كتبت عليها إذا كان باستطاعتهم رن حرس غرفتها وإعادة الملحفة، وبما أن الملحفة سقطت مباشرة أمام نافذتي، فقد أخذت على عاتقي تنفيذ تلك المُهمة – حسناً، ربما ساقني الفضول أيضاً

سيما أن الورقة كان عليها اسم نسائي، وأنا من جهتي أيضاً لم ألتق امرأة جذابة منذ زمن طويل. فأعدت إليها الملحفة وبدأنا نتحاور.

اسمها "دوروتكا"، كائن انثوي جميل وناضج، تكبرني بعشرين سنة. حين أقول *ناضجة*، فأنا أفكر بنضوج الخوخة التي تتركها على غصنها إلى النهاية حتى تصبح برتقالية وحلوة المذاق بعد امتصاصها الطويل لأشعة الشمس. زوجها "إيغور" يعمل في الطب الشرعي، وأعتقد أنه ينام أيضاً في مكان عمله. كنت أزورها خلال النهار حين يفرغ البناء من سكانه، باستثناء بعض المتقاعدين الصم، وأصوات عواء الكلاب المسجونة.

وهكذا مرت عليّ السنون دون أن أتمكن على الإطلاق أن أميز ما إذا كنت حياً أو ميتاً. لقد تبدل عالمي إلى مرج "أسفودل" كما ورد في الميثولوجيا الأغريقية حيث تتطاير أرواح أولئك الذين لم يكونوا جيدين، ولا حتى سيئين – دون أحاسيس في بلاد رمادية – في الوقت الذي يحترق فيه الآخرون في جهنم، أو يتمتعون في الجنة. اخترتُ ربما جهنم إن كان بوسعي الاختيار أو إذا كنت أملك الشجاعة، ولكن ذلك بدا مستحيلاً.

نجح بعض سكان البناء في إثبات ذلك – مثلاً تلك الجارة النحيلة من الطابق الرابع. كانت تذهب كل لحظة لشراء مواد تحضير الكعك من المخزن الموجود في الطرف الثاني من الشارع مع أن لديها في البيت خزانة ملأى بالطحين والحبوب لتصنيع الكعك. وربما أيضاً سكر الفانيلا والبيض.

ولكن ذلك الروم اللعين كان ينقصها على الدوام!

يجب الذهاب من جديد لتأمينه.

18

جلست في أحد أيام السبت المملة الساخنة مع "فويتا" وكنا نتثاءب وأجفاننا شبه مغمضة من النعاس وكأننا ذئبان وحيدان (بوبريهما المتساقط) في مطعم الخدمة الذاتية "لوكسور"، وجعلنا نراقب من خلال الزجاج شارع شتوروفا شبه الخالي من المارة الذي عبرته كل فترة حافلة

كهربائية. انفصلت صبية عن بقية العائلة كي ترتب حمرة شفاهها أمام الزجاج العاكس. وحين لمحتنا نتطلع إليها بفضول، شهقت، وألقت نظرة سريعة إلى داخل المطعم الفارغ ثم هرعت لتلحق بزوجها.

كنا في ذلك الوقت نتناول هنا طعام الغداء وحدنا كماكان هناك أيضاً على شاكلتنا بعض المنبوذين في حين آثر غيرنا من زوار المطعم تناول طعام الغداء في كنف عائلاتهم. "فويتا" جعل يُصارع قطعة لحم عجل مغمسة في مرق الشمرة التي يعشقها — مثل إنسان وحيد على هذا الكوكب — منذ طفولته في حين شغلت نفسي في علك لقمة جافة من فخذ دجاج مشوي.

يقوم بعض رجال الأمن السري بين فترة وأخرى بزيارتي في محاولة منهم لإقناعي بتجنب لقاء "فويتا" بوصفه إنساناً معادياً للدولة. قالوا بعد ذلك، لا بأس، يمكنني التواصل معه إذا كنت أريد ذلك، ولكنني سأدفع الثمن "شيئاً مقابل شيء". سمعتُ منهم ملاحظة تتعلق بوالدي ولكني فهمت مغزاها في وقت متأخر. رفضتُ الطلب، ولكني قررت التصرف بحذر أكبر. ولكن هذا لم يكن الهدف. فحين وضعت أمام رئيس هيئة التحرير فكرة تصوير فيلم وثائقي *حقيقي* يهمُ العديد من المشاهدين، ويستمر لفترة ساعة تقريباً حيث خططت (بالطبع مستخدماً الغطاء الأيديولوجي) لتسجيل أقوال البؤساء الذين تم اقتلاعهم من جذورهم من "نفدوفا"، أو من من مكان آخر، وتمَ نقلهم إلى المجمع السكني "*بهي*" في بريجاني — قال لي، *أمر مستحيل، وأنت تعرف السبب*. أعرف، بالطبع. كان أمراً مؤلماً. لم أرغب في التخلي عن أفضل صديق.

وقف كل واحد منا على الطرف المعاكس للنهر. هو، وقّع على وثيقة 77 التي أكدت انتهاك حقوق الإنسان في بلادنا، وأنا في المقابل، وقعتُ على وثيقة مضادة، تماماً مثلما فعل الجميع الذين أرادوا الاستمرار في العمل. التقى مع المفكرين في كنزته المططة المتدلية، ووزعَ البيانات المنوعة، فتجمعت في بيته في شارع "سابوفا" المجلات والكتب الآتية من المهجر. طلبوه للحضور إلى مركز الأمن في "فبروراكا" حيث جلس في نهاية الأمر أمام آلة الكتابة، وسألوه

عن أشياء كثيرة، وفي النهاية أثبتوا له أنه قال أشياء، ولا بد أنه يعرف شيئاً، أو ماذا قال هذا أو ذاك، وماذا كان جوابه، وبأن لديهم شهود، وسوف يستغرق هذا زمناً، ولكن لا بد أن يقع في يوم من الأيام، حينها سيخبرهم عن أشياء يمكنهم استخدامها. وكانوا يتركونه عادة بعد ذلك.

سلطة البطاطا كانت هنا رخيصة أيضاً. الطباخة تطلعت إلينا من وراء طاولة التخديم حيث كانت تمسح الصحون النظيفة، وتحدث أثناء ذلك ضجيجاً غير عادي، وكأنها تريد إخبارنا بلطف عن انتهاء دوامها وعن رغبها أخيراً في الذهاب إلى بيتها.

أخبرني "فويتا" كيف قام الكولونيل الحازم "راشكا" أثناء الغداء في المطبخ بربطه وربط أخيه "تيو" إلى مسند الكرسي كي لا يلعبا أثناء تناول الطعام. وأمرهما بألا يتركا أكواعهما بعيدة عن بعضها كما قام إضافة إلى ذلك كي يتأكد بوضع صحن بورسلان تحت آباطهم. التطور حصل حين بدلها بصحون بلاستيكية لأنها على الأقل لا تتكسر.

وضع الملعقة على الطاولة، ومدّ يده لأخذ نكاشة الأسنان. لأن قطعة لحم كانت محبوسة بين أسنانه.

قررنا الانتقال في أحد الباصات العتيقة إلى "ديفين" برفقة بعض السائحين المتحمسين مع أولادهم الذين لم يتوقفوا عن القفز.

أخبرني "فويتا" أنه رافق قبل مدة والدته السيدة "ناتاليا" في رحلة إلى هنا. كانت تتسكعُ في البيت في "بريجاني" ثملة بشكل دائم. تشربُ أي شيء — في الغالب كونياك غروزيني. لقد فقدت تألقها وجمالها بالرغم من إمكان ملاحظته في بعض الأماكن. ولم يرها "فويتا" منذ سنوات دون مكياج. لقد وضعت صورتها الخاصة من أيام "العز" على الطاولة في غرفة النوم، ابتسامة مُشرقة، وشعر أشقر بعد غسله بالبروكسيد. تتنهد دائماً بالقرب منها وتقول:

"كنت جميلة، أليس كذلك؟ في حينها في براغ — الموسات وأنا فقط كنا شقراوات!"

عرفت بعد فترة أن "فويتا" بدأ يواعدُ زوجتي السابقة، المجنونة، المخبولة "سوزانا".

عرفت ذلك منذ البداية تقريباً — وحين وجدت في بيته الموجود في "سابوفا" موديل طائرة "بوني" المحببه التي حاول "فويتا" دفعها بقدمه كي يُخفيها تحت الخزانة ولكنه لم يُوفق لأني مع ذلك انتبهت لوجودها. وغير ذلك، ذكرت أمامه مرة الإكزيما الموجودة على ظهر "سوزانا" التي حاربتها سنوات طويلة — فوجدته يعرف بها علماً أني لم أتحدث عن ذلك أمامه من قبل. حاول "فويتا" مغمغة الحديث كي يغطي زلة لسانه.

لم أعلق بشيء. وانتظرتُ لأرى كيف سيستمر، وإلى متى سيتحمل إخفاء الأمر. لم يتحمل طويلاً. فمرة، وكان ثملاً بدأ يتحدث في النهاية عن "سوزانا" وعن نفسه.

قلت له: "أعرف كل شيء،"

"لماذا لم تخبرني؟!"

انزعج مني لحظة.

هو من نبهني أن "بوني" قد جرح يده. دائماً حين يريد معاقبة نفسه، أو هناك ما يؤلمه، يتناول الشفرة ويَشق بعض الجروح السطحية في راحة يده.

أكد لي في إحدى رحلاتنا الإسبانية أن ذلك التصرف يُشعره بالراحة. كما أنه يحسُ أثناء ذلك بلذة. ضغط عائلي، قلت لنفسي. لم تكن حياته سهلة مع والدين بهذا الشكل.

بدأت أجلب له من شدة إحساسي بالذنب، العديد من المأكولات اللذيذة من سفرات عملي البراغية. مُعلبات شطائر لحم الفخذ البراغية "شونكا" التي شكلت عند بوني شيئاً نادراً. كانوا يُصنعونها للتصدير، وكان من الصعب الحصول عليها بالطرق العادية.

"ماذا سنأكل عند الفطور؟ خبز مع "الشونكا"، وفي العاشرة؟ الخبز مع الشونكا أيضاً، وبعد الخروج من المدرسة، مباشرة إلى الثلاجة و...

خبز مع الشونكا – أخبرتني "سوزانا". جلبت معي من بودابست "فغيتا"* [107] , وسجق مجري وزبدة "راما". اعتبر تلك الأشياء الثلاثة على الخبز أفضل أكلة. فقد كانت بمثابة حفل عشاء عند "بوني"

حين ذكرته قبل مدة بذلك، ابتسم.

19

قمت بتصرير فيلم وثائقي لقسم الأفلام القصيرة عن أحد الاجتماعات الحزبية. فكان علينا إجراء عملية قص ذكية جداً لأن أكثر الأشياء لم يكن بالإمكان استخدامها. الرفاق يرسلون على الدوام أحدهم للمراقبة ومعرفة ما إذا لم يكونوا يمضغون في إحدى اللقطات، أو يقهقهون، أو ينكشون أنوفهم أو آذانهم. كل شيء وفقاً لقائمة المشاهد المنوعة. قمت بذلك العمل المتعب الذي أسميته مع القصاص "جوني"، "أشعة أو في – اللجنة المركزية". عُقد الاجتماع في قصر الأمير السابق في "بريجاني" الذي تم ترميمه لهذه المناسبات.

وقامت بافتتاحه الرفيقة من الوزارة التي نقلتها سيارة "الليموزين السوداء الفاتنة" تاترا 613 في اللحظات الأخيرة مع سائقين، أمضيا وقتهما بالتدخين بجوار السيارة الفخمة بمعطفيهما اللامعين.

ركزت أثناء الخطاب على العادات البرجوازية – الرأسمالية غير الصحية، وعن استغلال الطبقة العاملة في أمريكا وفي الغرب، وعن النجاحات في بناء مجتمعنا الاشتراكي.

المدير، السيد "بريزانسكي"، أدار رأسه، وهمس في أذني أنه تلقى إشعاراً قبل يوم، يفيد أن الرفيقة من الوزارة لديها شهية لأكل خنزير مشوي. فاضطروا للبحث عنه يوماً بأكمله، وشيّه مخالفة للقوانين في مخبز "بريجاني"، وبالكاد لحقوا تحضيره. أكلتْ من الخنزير في قسم تم عزله بستارة سميكة من المخمل كما قُدِم الخنزير على أطباق من الفضة الخالصة وعلى أثاث عتيق نادر.

فيغيتا: قطع شورية ماجي

مباشرة بعد الغداء، غادرت الرفيقة من الوزارة بسرعة إلى براتيسلافا. وحملت معها وبمساعدة سكرتيرتها كيسين من النايلون مليئين بما تبقى من لحم الخنزير إلى سيارة الليموزين. وانزلقت ثملة قليلاً، بدينة، مُدهنة بسهولة فوق الغطاء الجلدي لمقعد السيارة في الوقت الذي وقف فيه عناصر تخديم القصر بحالة استعداد كامل.

وصل للحظة إلى الاجتماع مدير سكرتاريا اللجنة المركزية ك إس إس المتعالي مع سيكارة "الجيتان" الأبدية التي تزين فمه. عُرفَ عنه عشقه لـ باريس (وبعد ذلك كل شيء آخر بما في ذلك الناس). وقد تعود طلب السائق بشكل مفاجئ والانطلاق في رحلة. يتنشق بعد عدة ساعات هواء باريس. ويسكن في الفندق الموجود على بولفار "ماغنتا"، ويتذوق الرأسمالية العفنة بلقمات كبيرة. ربما كان يحلم بما سيحصل لو احمرّتْ تلك المدينة، وبعد ذلك، خطرت بباله بالتأكيد فكرة هي أن ذلك سيدعو للأسف.. فلا وجود للمومسات، مولان زوج مُهمل، والناس يتوزعون في مخيمات العمل — الملاهي سوف تتحول إلى مراكز انتخابية، أو إلى جامعات لتدريس الماركسية — اللينينية، نوعان متشابهان فقط من الجبن المُمل — متشابهين — في المدينة بأكملها نبيذ رخيص بدائي في متناول الجميع، يشبه إلى حد كبير حانة "زامتسكا" التي تُذكر بالشمعة أو باسم أحد الـ"لودفيتيين[108]"، وأكثر من ذلك يتم تصنيعه في إحدى الجمعيات الفلاحية التعاونية في الريف الـ"البريتوني". حيث الأراضي الشاسعة بعد نشوء الجمعيات التعاونية. الحلزونات والكمأة للتصدير فقط. أرتال لا نهاية لها من استعراضات الجنود تحت برج إيفيل أثناء احتفالات الأول من أيار....

لا، استدار بسرعة عن النافذة (هنا أيضاً، في القصر حيث كنت أراقبه)، نفث الدخان وقال بصوت متوسط القوة: "يجب أن يبقى عالمان!"

---

[108] نسبة إلى لودفيت شتور، سلوفاكي قومي مؤسس اللغة السلوفاكية الحديثة

كي يوجد مكان للهروب من ذلك الجمال والتقدم. من الغد الأجمل – إلى تلك الأماكن حيث الجمال الحقيقي.

تحركتْ شخصية معروفة مثل الظل على مسافة قصيرة. وجودها لم يعد يفاجئني. إنه "زهور كوهوت" الذي غطاه الدخان السري مع ابتسامته الكاملة. الحذاء "الميوّز"، وشعره الأجعد المصفف المائل إلى الشيب، وخطوط تجاعيد وجهه الحادة، يدان ممتلئتان – إنه شديد الشبه بنجم سينمائي عجوز. فالمادية تخدم تلك الحفنة القليلة من الأيديولوجيا. تماماً كما لو أنكم ذهبتم إلى باريس.

لم يظهر في فيلمي الوثائقي أي شيء من هذا.

وجدت نفسي في خريف 1998 في القصر من جديد برفقة آلة التصوير. لقد تسلمه بالصدفة صندوق أملاك الأمة. إذ صوّرت هناك مناسبة الاجتماع السنوي. كلمة الافتتاح ألقتها إحدى السيدات من الوزارة.

كان يتحدث بجمل متقطعة، وكأنه شعر أن شيئاً من هذا الأمر قد حدث مع كلينا في وقت ما.

20

أختي "تينا" جعلت تسافر في السبعينات والثمانينات بشكل متقطع بين "لندن" و"بريجاني".

بدا لها كل شيء في "بريجاني" شاحباً، معتماً، وحزيناً، أناس رماديون. المطاعم والبارات تغلق أبوابها في السابعة، ولا يمكنك شراء شيء من المخازن . تأقلمت بعد أسبوع مع الأوضاع السائدة. وحين عادت بعد ذلك إلى لندن (بالطبع مع حقيبة ملأى بالـ كافينكي (بسكويت مع الكريم) كي تتذكر رائحة الوطن) حيث اشتعلت هناك أضواء المدن الكبيرة، والفترينات الملونة، كما انتشرت الموسيقى في كل مكان. رأت الناس يبتسمون... فكتبت لي بعد أسبوعين أن ذلك الضجيج والركض بدأ يفقدها أعصابها.

كانت تسافر مع "ترفور" والصغيرة "جيني" إلى السويد في الصيف، لقد عشقتْ صيف الشمال. وأرسلت لي مرة من هناك هدية تذكارية، ومعلبات على شكل عظام السمك كتب عليها: *هواء سويدي أصيل.*

وصلني الطرد إلى براتيسلافا مفتوحاً، ومُثقَّباً بالسكين. استدعيتُ على إثره إلى "فبرواركا" حيث صرخوا في وجهي:

"مايعني هذا؟ هل تحاول تهريب مخدرات أو ماذا؟"

"تينا" أول من انتبه إلى أن العلاقة بين والدي ووالدتي ليست على مايرام لأنها كانت تراهما قليلاً.

"ألا يوجد عند والدي صديقة؟" سألتني، أو "أليس مريضاً؟"

لم تكفها كلماتي القليلة، مثل — *إنك تعرفينه — كان دائماً هكذا قليل...*— ولم أتمكن من استحضار الكلمة المناسبة و— *لا يمكننا اختيار أهلنا، إنه قدرنا* — أو — *لقد غسلت منهما يديّ أو كسرت القضيب فوقهما* — وماشابه من الكلمات التي أنهيتها بجملة — *لا أرغب في الحديث عن أي شيء!*

بدأت من تلك اللحظة بالتحدث والتحدث دون توقف!.

عن "كلاوديا هورفاتوفا" وعن أنها إحدى أهم النساء في حياة والدي، وإن لم تكن تحتلُ المقام الأول. ولكن الجميع يتصرفون وكأنها غير موجودة. لا بد أن "تينا" تتذكر كيف أخذنا وكانت برفقتنا إلى النزهات، وكيف خبزت لنا الكعكة وكيف أعطتنا قطع السكاكر.

"منذ ذلك الوقت...؟!"

"منذ ذلك الوقت." لم أرها منذ سنوات، ولكنها بالتأكيد لا تزال جميلة.

"مضى زمن طويل..."

"نعم، زمن طويل!"

تذكرتُ ما قالته لي أمي حين ذهبنا نحن الثلاثة للسباحة في بحيرة "شتركوفسكو"، بقي والدي في حينها جالساً على الشط.

"هل تري كيف يتصرف؟ لا يريد مرافقتي إلى هنا. وحسب زعمه السباحة مملة. ربما يتسلى أكثر مع واحدة غيري..."

حاولت جهدي أن أغير الحديث، وشعرت بعدم الراحة. لأنني لم أرغب في معرفة أي شيء. لم أتوقع في تلك الأثناء أن أمي تعرف عن "كلاوديا هورفاتوفا" أو أنها هكذا ترمي الكلام جُزافاً.

شكلت، كما عرفت لاحقاً، "كلاوديا هورفاتوفا" بجمالها وفتنتها عند والدي إحدى المُفضلات في حياته. لقد اعتبر علاقته معها جنسية فقط في حين عاشتها هي على نحو آخر. فقد كان يلتقيها حتى حين فهمت كل شيء، وتزوجت في وقت لاحق. (اعتقدتْ أنها بتلك الأشياء يمكنها أن تصيبه؟ ربما، ولكن والدي لم يفهم الأمر بهذه الطريقة. قال لي مرة بفخر، إنها أخبرته بذلك، وكانت ترتدي فستاناً أحمر وأزرق مثل السيدة العذراء ماريا)

أصبحت مع مرور الوقت وسيلته في الانتقام من زوجته. وحين كان يتجادل مع أمي، أو حين كانت تؤنبه على فعل ما — يذهب لملاقاة "كلاوديا" والانزلاق معها في السرير. كان يظن أن لا أحد يعرف ذلك سواه، وهذا ما منحه لذة الإشباع.

كشف لي أبي بعد سنوات في إحدى حوارات الثقة المتبادلة القليلة التي كنا نتجاذبها، أنه اعترف لوالدتي بكل شيء في إحدى لحظات ضعفه. وكان عليه التنازل عن تكبره العادي ووقاره — كما يعترف للرب حين يدّعي العفة، وأنه بقي خلال الزمن إنساناً عادياً.

استيقظ أبي في اليوم التالي وكأن شيئاً لم يكن.

اختلف بعد فترة مع "كلاوديا هورفاتوفا" التي انتقلت للإقامة مع ابنتها في مدينة أخرى.

"ربما لا يمكنني معرفتها الآن. فالإنسان تتغير خلاياه، "أداشو". كل سبع سنوات، أو ثمان نفقد جسمنا بأكمله ونبدله بجديد. وأنا أيضاً لم أرها منذ عشر سنوات" قال لي في حينها.

تخيلَ (وهذا قبل عدة أيام من انتهاء العلاقة) أن "كلاوديا" تلاحقه حتى ولو أنهما لا يتكلمان وهي في مكان بعيد. "كلاوديا" تعرف بالضبط أين يكون في هذا الوقت وماذا يفعل. تعرف جميع عاداته وحتى السيئة منها. إنها تلاحقه منذ سنوات.

إنها تظهر في الصور الفوتوغرافية القديمة كما اكتشفت قبل لحظات. ولكني أستبق الأحداث قليلاً.

الفصل الخامس

زُحل يلتهم ابنه

1

جسم عارٍ لمارد ذكر. رجل مسعور في شكل وجهه، يقضمُ لقمة من الجذع المُدمىً لطفل صغير وهو راكع على ركبتيه. أتذكر كيف أمسك والدي بالكتاب على ركبتيه وجعل يتصفح تلك الصورة. لكنه لم يعرف الأسطورة.

"حاكم الدنيا القديم "أورانوس كرونوس" — الرومان يُسمونه "ساتورن" — كان سيفقد الحكم، حسب قراءات العرافات عن طريق ابنه، شرحتُ له. "لهذا السبب قرر استباقة الأشياء بهدف حماية عرشه، فأكل جميع أولاده. لكن أولئك، وبسبب أصولهم الربانية تابعوا، بالطبع، حياتهم في أحشائه، أحدهم — زوس"، الذي لم يلتزم بالنبوءة لأن والدته تمكنت من إخفائه.

جلس الوالد شارداً، وجعل يتطلع إلى الأمام.

"ربما، ليس من السهل، أكل الابن." قال بإيجاز.

ورفع رأسه.

"كل ساعة في هذا البيت تُشير إلى وقت مختلف،" زفر، ونقر على بنادل تلك الساعة الكبيرة الموجودة في الصالون. إنك تضبطهم ولكنهم يتوقفون بعد لحظات!"

أتمشى باتجاه النافذة، وأبحث. أحاول ألا يتسرّب انتباهي إلى مكان ما في الخارج. العالم الخارجي يُشتت أفكاري، ولا يسمح لي بالتركيز. والوضع لا يستمر طويلاً في أحيانٍ أخرى، العلة ربما تكون في سوء نظري الذي يتغير مع الوقت، ويتشوه أيضاً ولكنه لا يزداد سوءاً. وجدتها! أخيراً.

الفقاعة، النخر الصغير في لوح الزجاج. بؤبؤ عين قطة طولاني. سمكة صغيرة محبوسة في النافذة.

كنت أتحمل النظر في صغري فترة طويلة من خلال الزجاج إلى ذلك العالم المُغلق داخل الذرة. الفضاء المُغلق وسط الزجاج.

دائماً حين أعود بعد تلك السنوات الطويلة إلى البيت، أتجه مباشرة نحو النافذة. أجدها، أتطلع إليها.

"أداشو، تعال إلى هنا! ما الذي تفعله هناك؟

رأيت العالم الخارجي، ولكن أيضاً وبشكل مفاجئ العالم الداخلي.

المرة الوحيدة التي تحدثت فيها مع والدي حول جميع تلك الأشياء الجادة والهامة، بتلك الصراحة، *والجدية* – فقد كان خريفاً متأخراً. أتذكر كيف لمستُ زجاج النافذة وكيف ارتجفت يدي من شدة البرد. انتشرت من الكرامافون موسيقى "غريشوين"، وغنتْ "أريتا فرانكلين" *It Ain, Necessarily so* من الأسطوانة التي جلبتها من إنكلترا "تينا" لوالدي. العم "أوسكار"، كان يذكره اللحن الأساسي بقوة بفكرة موسيقية أخرى – لكلمات *"باروخو إت أدوناي هاميفوراخ* التي تُبارك ما هو مسموح قراءته في التوراة. كررت "أريتا" دون توقف "كل شيء يجب أن يكون على ما هو عليه".

معها حق.

"ارفع الصوت، "أداشو"!"

كان يكفي السير بمحاذاة الحائط لدخول بوابة الحديقة الكبيرة التي امتدت حول القصر. لقد تم ترتيبها بالطريقة الإنكليزية مع الأشجار القديمة، وشجيرات السور القصيرة. والمروج قطعتها المعابر الطويلة التي غطتها الحجارة البيضاء الصغيرة.

حين وصل حفيد "الغروف" في عام سبعة وستين من سويسرا، تجوَّل حول القصر مثل الشبح، ولم يعرف كيف يدخل إليه. سمحوا له في النهاية بدخول القبو حيث مستودعات مصانع نبيذ "بريجاني". فأمضى اليوم بأكمله في البارك دون أن يعيره أحد اهتماماً يُذكر.

تمشى والديَّ هنا ساعات طويلة وتحاورا. جمعت والدتي في المساء حوائجها وغادرت. وقالت إنها لم تعد تتحمل أي شيء في هذا البيت ولو للحظة. ولم يُخبر أبي أحداً عما دار بينهما من حديث.

وهذا ما حدث، *عاشا سعيدين طويلاً، إلى أن فرقتهما الحياة.*

تمت في ذلك اليوم بالذات ثلاث زيجات في القصر — جرت كما العادة في الصالون الرئيس بحضور موظف اللجنة الوطنية – وفرقة هواة "بريجاني" للغناء في حين قامت إحدى الرفيقات بإلقاء قصيدة لأحد الأدباء الرفاق تتغنى بجمال الحياة الزوجية.

وهكذا فإن والديَّ التقيا هناك بضيفات حفلات الزواج الفرحات اللاتي هرعن في اللحظات غير المتوقعة بين أشجار المائتي عام القديمة على المرج، ووقفن بوضعيات مختلفة مع العروسين أمام المصور. الأجواء عمها الفرح، ولكن الحزن كان يُخيم عليهما. حاولا تجنب الناس، والهروب إلى أماكن بعيدة ومنسية في الحديقة الكبيرة حيث الطرقات التي لم يدُسْها أحد، ولكنهما فشلا في الهروب.

قال أبي في النهاية: – *أعرف أنك أخلصتِ لي طوال الوقت*. وقفت أمي وقالت بعناد واضح: *ولكني لم أكن!*

لم يسمع والدي ما قالته كما أنه لم يتذكر شيئاً من هذا فيما بعد.

أخذت أمي أثناء ضبّها لحوائجها ألبوم الصور مع قطع النقد الورقية. لضرورة الحذر.

أراني والدي رسالة كانت قد كتبتها له قبل ولادتي بفترة بهدف الانتقام منه.. كتبت أنها ترى في المولود الجديد إنساناً غريباً عنها، ولا تشعر بأي رابط يجمعها به، وأنها كانت ستشعر أفضل لو لم يأت إلى

العالم. استغربتُ حين اعترف لي أن "بترٍ" تربى في السنوات الأولى عند الجدة "ماريا" وأن ولادتي أقنعتهما أخيراً بالزواج.

تلك الرواية للأحداث، لم أعرفها من قبل.

2

الأوراق النقدية من الألبوم الأزرق كانت تعمل مثل الخاتم الذهبي لأمنية وحيدة. تذكرةَ عبور إلى مستقبل مجهول مخبأة دائماً لأوقات المحن. ولم تأت تلك اللحظة المناسبة لا بعد الحرب في عام 1953، ولا في الستينات، ولا في وقت لاحق. اعتقد أهلي المؤمنون أن قيمة هذه الأوراق المطبوعة الغريبة تزداد مع مرور الوقت. وحين أعلنت أمي أنها ستأخذها معها وافق أبي بشق النفس.

جاء بعد عدة سنوات عيد ميلاد "بوني" الثامن عشر. وأرادت أمي أن تهديه شيئاً "*ذا قيمة حقيقية*"، لذا حملت الألبوم إلى جامع الطوابع البريجاني، السيد "ميكا". وحين اكتشفتُ أنها حصلت على كورونات زهيده ثمناً له، كدتُ أسقط في مكاني.

اتصلتُ به في الحال — وأخبرتهُ أن الألبوم يخصني وأني أريد استرداده، ومستعد لدفع ألف كورون. رد العجوز "ميكا" قائلا إنه يأسف، ولا يمكنه بيعه لي.

"ولكن لا قيمة له على الإطلاق، وتلك الأوراق النقدية أعطيها بالمجان مع الطوابع."

لم أُصدق كلامه، ولكن لم يكن بوسعي فعل شيء.

نادراً ما كنت أزور والدتي. التي عاشت في منزل عمي "أرمين" السابق الذي نجح والدي بعد الحرب بالصدفة في استرجاعه.

كنت مشغولاً في العمل، إضافة إلى أنني لم أكن أرغب أن ألعب معها اللعبة الكلاسيكية — مثل: أنت تتذكرين طبيب الأسنان، وأنا أسكبُ عليك جميع عللي — الرأس، الكتفين، الركبتين، الإبهام، الركبة— الإبهام، الركبة —الإبهام... كون الأمراض شكلت الموضوع

الوحيد الذي اعترفت به والدتي. فتحولت في تلك الأثناء إلى تلك الجدّة بشعرها البنفسجي الذي من المفروض أن يكون له ظل مختلف.

عاشت *خريف حياتها السعيد... مسدتْ شعرها الفضي بيديها اللتين امتلأتا بالتجاعيد*... أخ، نعم! أينما تحركت، *تنثر حكمها التي جمعتها خلال مسيرة حياتها المثقلة*... ولو أن ذلك، لم يكن كثيراً جداً في بعض الأحيان.

بقي "بتر" حبيبها المُفضل. فكنا نُمضي نصف الوقت ونحن في سيرته. يحضر إلى هنا مثل سيد في قفازاته البيضاء، وربطة عنقه بوصفه الابن البكر.

كانت تسأل عن المستجدات، وكلما مر وقت أطول، ضعفت ثقتها بي أكثر. وبقي الناس جميعهم في ذاكرتها شباباً. لا تخرج من البيت تقريباً، لذا فإن العالم المحيط بها وغير المفهوم كان يمضي وهي تراقبه بابتسامة إنسان متنازل. يعرف ما عليه فعله.

لا يمكن القول إنها لم تُجهز نفسها. لقد حضرت حجرة المؤونة الصغيرة المُعدلة لتصبح مكاناً للثياب، وفي الدولاب الموجود في غرفتها رتبت أشياءها حسب الفصول السنوية التي كانت مرئية من خلف النافذة.

كانت على الدوام تُبدل ثيابها الجميلة — من الغرفة إلى حجرة الثياب، ومن حجرة الثياب إلى الغرفة — *لقد حل الصيف وأنا لا زلت في ثياب الربيع. أحضر لي ذلك الحذاء... وتلك التنورة...*

كنت أهرع، وأحمل، وأنقل وأجلب ما تطلبه لأنها كانت تؤكد عدم امتلاكها القوة اللازمة، ومعي تسير الأمور بشكل أسرع.— *وذاك الفرو أيضاً، أنظر إلى الطقس في الخارج إنه عاصف!*

كانت تُدخن بشكل لا يُصدق. قصباتي المصابة بالربو تتعب أكثر مع كل زيارة لأن الدخان بقي معلقاً في كل مكان بالرغم من التهوية الجيدة.

"لو كنت أقدر، لمنعت التدخين في جميع أرجاء العالم!" قلت بغضب.

"بوني" عادة، كان يُعلق على كلامي بالقول:

"عندها كنتَ ستحمل لجدتي السجائر بالسر."

أثناء ذلك تأخذها العاطفة ، وتتذكر طفولتي .

حين سقط سني اللبني مثلاً، أكدت أمي أنه علينا زرعه في الحديقة، تحت تلك النبتة الكبيرة الموجودة خلف نافذة المطبخ كي ينمو في مكانه سن جديد – وأن علينا بالتأكيد فعل ذلك، وإلا ستبقى الحفرة في فمي. لماذا بالذات تحت النبتة الخضراء، هذا ما لم أتوقعه. تواصل غريب – حين أفكر بالأمر وبأني وجدت هناك بعد سنوات طويلة تلك العظام. وحقيقة بعد غرس السن اللبني، بدأت تظهر على لثتي براعم سن جديد. فلم أكن بحاجة إلى برهان آخر. وكنت أثق بوالدتي بشكل أعمى.

حين انتقلتْ من عند والدي، تحول إلى أسوأ إنسان في العالم. تُصاب عند سماع اسمه بنوبة غضب شديد وتبدأ بالحديث عن أشياء مزعجة.

"أعرف كل شيء. كان عميلاً للأمن السري! يراقبني ويكتب التقارير ضدي!"

لم أسألها – ما إذا كانت هناك جهة تهتم بها؟ وغير ذلك كان كل شيء في تلك الأثناء غباء كاملاً.

"مئات النسوة في كل زاوية! بدينات، عجائز أيضاً. مريضات! فلاحات قذرات! كنت أتصرف وكأني لا أعرف"

شعرتُ بالإحراج.

"وتلك الأشياء في السرير، أنت تعرف، ذلك العذاب! كم من المرات عضضتُ ملحفة الريش!"

كنت أقاطعها في أغلب الأحيان (وأحياناً بقسوة كما كنت أهددها بأني سأغادر في الحال إذا لم تتوقف) أو أني أُغير الحديث بسرعة. إذ كانت تبالغ بشكل لا يُعقل، ولكنها كانت تتحدث أحياناً بطريقة مقنعة تجعلني أصدق.

"لقد قتل والدته، أخبرني مرة بذلك!

نهضت من مكاني واحمرّ وجهي.

تابعت، إني لا زلت أتذكر — الجدة "ماريا" كانت تشكو من مرض عضال يصعبُ علاجه. لقد ترجى العم "رودو" الوالد، وهي أيضاً حسب زعمه طلبت ذلك. لم ترغب في تحمل الألم أكثر. أعطاها بعض الأدوية.

"اسأل "رودو"! أكيد، اسأله إذا كنت لا تُصدقني!"

لم أتجرأ على فعل ذلك.

سُجِّل في شهادة وفاة "ماريا ترنوفسكا" وفي حقل سبب الوفاة: *نزيف في الأمعاء*.

3

كنت دائماً أجلس على الكرسي على نصف مقعدي. وقفت منفرج الساقين بين عالمين. لهذا فإنني لم أصل في أحدهما إلا إلى نصف الطريق. قارئة الأرقام أخبرتني أن رقمي هو اثنان، وهذا ما لم أستغربه. الأشياء كانت على الدوام تحدث معي بشكل مزدوج.

ليس غريباً أنني في ذلك الأسبوع بالذات تمكنت من زيارة مكانين مختلفتين.

استغربتُ لقائي مع "أرنوشد" من استديوهات براندوف في براتيسلافا. في البداية لم ينتبه إلى وجودي مع أني مررت بجانبه في مكان ما من ساحة "هفيزدوسلاف". قدمني لصديقه "يركا"، الرسام الذي يهتم بالحفر على الخشب وبالتطريز على القماش، وبالرجال والنساء، وإلى أن تمكن من مداعبتي كلامياً ومن ثم إيصالي إلى حالة من الارتباك، أخبرني "أرنوشت" أنهم جاؤوا لتسلم "طرد"، وسوف يسافرون في أقرب قطار إلى براغ. إذا رغبت يمكنني مرافقتهم — سيرافقونني إلى سهرة لن أنساها في حياتي.

البناء الموجود في ساحة "هرادتشانسكي" يُذكر بالثقب الأسود مع كل ما تعنيه تلك الكلمة. ولا شيء مما يحدث هنا كان لديه القوة للوصول إلى الخارج، ومع ذلك لا يمكن لأحد أن يُصدق. البناء كان ملكاً لابن الرسام المعروف، لقد ورثه عن أبيه. وحين دخلنا، تعثرت مباشرة بزوج يمارس الجنس، ولكني لم أتعرف بسبب العتمة على جنس الفاعلين. سيد البيت الذي رحب بنا في لباسه الشرقي كان يُدخن

نرجيلة ويراقب ما يحدث من حوله واقفاً على قدميه. اختلطت موسيقى أسطوانات "جترو تول، و ذي دوورس، ولد زبالين" في وقت واحد مما جعلني أشعر كما لو أنني في فيلم تجريبي غريب. أمسكني من ركبتي أحد معارفي، بالرغم من أنه ليس مخرجاً معروفاً، ومن الثانية ممثلة مشهورة. بهرتني إعلانات الحداثة التي بدت وكأنها أصلية.

وضعت في منتصف الطاولة صينية من الكريستال، ملأى بالحبوب والكبسولات المتنوعة من كافة الألوان، زرقاء، حمراء، صفراء، بيضاء، متطاولة، ومُدورة... وبجانبها كتاب صغير جُلِّد بشكل رائع من الإعلانات التي رسمت عليها بواقعية جميع أنواع الأدوية. لقد فكّر المستضيف في كل شيء. ولم أتردد بسبب الضغط العائلي، ولهذا فإني لا أتذكر أيضاً أي شيء. كانت واحة في مكان مُقفر رمادي استقبلتني بذراعين مفتوحتين.

الصديق "ليغو"، أعار "بوني" مجلة *هوستلر* التي نجح في تهريبها من يوغسلافيا. سحرته تلك الصور الملصقة والمتنوعة. واعترف لي بعد سنوات أنه من شدة توتره أخفاها بسرعة داخل "فولار" الطلائع حين كان في متناول يده. أمروهم في المدرسة بالحضور بثياب الاحتفال – لمتابعة جنازة أحد الأمناء العامين السوفييت.

في عام 1982، توفي بريجنيف – وغير ذلك، تهامسوا قبل سنوات أنه بالأساس يعمل على البطاريات وبأن الآلات تقوم بالعمل بدلاً منه، وأنه يقف أثناء الخطابات وراء عدد كبير من الميكروفونات، ولكن واحداً منها يعمل في حين يعبر الهواء في البقية لتنشيطه.

كانوا يروون النكات التي تقول إن إذاعة موسكو تُعلن كل يوم بشكل منتظم عن برنامج الرفيق بريجنيف: في السادسة والنصف – الرفيق بريجنيف يتبول، البول نظيف وصافي اللون، إذ لم يكتشفوا في تحليله أي نوع من المواد المسببة للمرض. وفي السادسة الخمسين دقيقة – أنهى الرفيق يبريجنيف حاجته الكبيرة، قوام الغائط صحيح وتركيبته متوازنة. وفي السابعة والنصف – استيقظ الرفيق بريجنيف.

التابوت يتحرك في موسكو الحزينة ساعات طويلة. الساحة الحمراء والمواقع القريبة — كل هذه الأشياء كانوا مجبرين على متابعتها في المدرسة بالنقل المباشر دون كلمة واحدة. ولا حتى حين انقطع أحد الحبال الذي استخدم في تنزيل التابوت في القبر. وسارت الأمور بعد ذلك كما يحدث على خط الإنتاج — وبعده يوراي أندروبوف، وبعده كونستانتين تشرننكو، ومن جديد خطوط طويلة من المندوبين في ثياب الحزن في التلفاز. والوجوه الشمعية للأمناء العامين المتوفين في الهواء الشمسي تلتفت ربما إلى الرب الذي لم يؤمنوا به طوال فترة حياتهم. لقد تعودوا الموت مع بداية الربيع.

حين اقتربت من "بوني" سمعته يُغني وهو يستحم:

نَمْ يا صغيري،

نم يا صغيري مصاص الدماء.

لقد مصصت ما فيه الكفاية، ارقد الآن، ونم بهدوء. فارتْ تلك الفترة بالألحان القوية.

إضافة إلى الفرح الذي حمله الملوك الأموات الثلاثة من الشرق، أضيف فرح آخر في أيار 1986 حين انفجرت المحطة الذرية في تشرنوبيل. فقد اتجهت الغيوم المُحملة بالغبار الذري بداية إلى الدول الإسكندنافية والتفّتْ بعد ذلك لتصل إلى بلادنا. ومُنع أطفال المدارس من الخروج إلى الملاعب أو الحدائق. التلفزيون الذي تعود التبجح بالرخاء وعدم وجود ما ينغص حياة الناس، نصح بشكل مباشر بشراء الحليب المكثف مديد الصلاحية حتى ولو انتهت صلاحيته. المخاوف جاءت من مشاهد بثها تلفاز فيينا المشوش والمُبرغل، وبعد ذلك من بودابست التي نوهت بوضوح إلى ما هو جيد وإلى ما يجب الحذر منه.

"لن نتمكن عشرين سنة من جمع الفطر، أخبرنا "ليغو". قطّب "بوني" حاجبيه. لقد أطلقوا على "ليغو" اسم "ليغو" لأنه كسر أثناء سقوطه من الطابق الخامس بشكل كامل جميع عظامه التي اندملت بشكل يدعو للاستغراب. فبدا مثل لعبة مصفوفة من قطع الليغو.

ذلك اللقب ما كان ليفهمه أحد لولا أن "تينا" أرسلت لـ"بوني" تلك المجموعة النادرة من إنكلترا. والتي أعجبت جميع أصدقائه، وأعجبت "ليغو" أيضاً.

بقيت رهين وحدتي إلى أن عكر هدوء منفاي في شارع "مالينوفسكي" وصول زوجتي الثانية. تابعت مسلسل *"ارتباك الطباخ سفاتوبلوك"*، وجعلت أكبس الزر مثل المجنون كي أُصوت بوصفي أحد متابعي المسلسل. حتى إنني تابعت استعراض "آين كاسل بونتس" المليء بالأغنيات من الكتلة الشرقية لأني لم أرغب في أن أظهر في اليوم التالي في العمل كرافض، أو مترفع عن رؤية تلك الأشياء. إذاً *هل أخضعت "فوندراشكوفا»*[109] *وجهها لعمليات تجميل أو لا* ؟

عشقت قبل كل شيء القراءة في دورة المياه. لقد نصحوا الرعاة المهذبين في القرون الوسطى بقراءة الأدب العالمي بعد الثمانين. حسناً، وفي الحالات النادرة بعد الأربعين، وقبل ذلك لا، كي لا تتشوش أفكارهم. فإذا أراد الناس الوصول إليه قبل ذلك، توجب عليهم القراءة سراً أثناء قيامهم بقضاء حاجتهم الكبرى. بهذه الطريقة بالتأكيد وصلتْ تلك العادة السيئة أو الهواية إلى جيناتي.

وقتي الذي لا ينتهي وهدوئي تعود تشويشه "بالكو- زبركو" فقط. أحدهم أهداه غسالة قديمة وجعل يُكسرها في الأسفل في الفناء.

4

قرأت في مكان ما أن فقدان النظر يُبعد الناس عن الأشياء بينما فقدان السمع يبعدهم عن غيرهم من البشر.

أبي خفّ سمعه مع تقدم العمر، وجعل يلاحقه الطنين المزعج حتى في أفضل اللحظات. رفض استخدام السّماعة لأنه وجدها غير مريحة وغير لائقة. إنها تُصفر، وحين يستخدمها يزداد إحساسه بالبلع والمضغ.

---

[109] هيلينا فوندراتشكوفا: مغنية تشيكية شهيرة في الستينات

تذكر العم "رودو" (ومن بعده "تينا" و "بتر" وأمي) أن جدي وأباه من جهة والدي كان يُطالب الآخرين على الدوام أن يكرروا ما يقولونه.

كان يشتمهم إلى ما لا نهاية لأنهم يهمهمون تحت أنوفهم.

وحتى العمة من الجهة الثانية، لم أعد– أعرف –اسمها، لم تسمع نبرة الصوت المرتفعة وجعلت تصرخ "ارفعوا صوت المذياع–، أعلى أيضاً."كانت تفهم ما يقوله الرجال فحسب، أما النساء فلا. من يدري ما إذا كان السمع هو السبب، هذا ما قيل على الأقل.

تعوّد والدي الجلوس في رأس الطاولة أثناء الاحتفالات العائلية، ولكن إذا أراد أحدهم أثناء الصخب العام أن يشرح له شيئاً ما، لم يكن يفهم.

كان يصل إلى أعلى درجات الغضب حين يريد سماع حوار الآخرين. فقد اختلطت عنده الأصوات. لهذا السبب فضّل الجلوس وظهره للحائط كي لا يزعجه أحد من الخلف، ولكن ذلك لم يفده في شيء. وبالتدريج، لم يعد يحضر إلى البيت أحد سوى الأكثر قرابة الذين بقي منهم في أحد الأيام العم "رودو" المصاب بداء االسكري.– *لم أعد ذلك الفتى الذي تذكره* – قال.

حضرت مرة في يوم الأحد، ونزعت معطفي في مدخل البيت، وحين حبست نفسي، وأصغيتُ، بقي البيت فارغاً دون كلمة.

توقف أبي عن الذهاب إلى العيادة، وهذا منح حياته شيئاً من الإيقاع ومن ثم وصل إلى مستوى أصبح لا يعنيه أي شيء. إذ سيطرت فوضى الأشياء على البيت. فالمصابيح التي تكون عادة في بيت المؤونة، وجدتها في الحمام أو على الشرفة. السكين في غرفة النوم، مقص الحديقة في المنفردة، خشبة التقطيع في الصالون. بدأت الأشياء تعيش حياتها الخاصة، وتوقفت عن احترام أماكنها المُعتادة.

كل صباح كان يشرب الحليب الذي يُضيف إليه بعض الكونياك – فلديه مخزون لا ينتهي في الزجاجات التي حصل عليها من المرضى. كان لذيذاً حين يتعود عليه الإنسان، وهكذا كان يتابع يومه حتى المساء.

ارتعبَ مرة في الليل حين سمعَ حفيفاً ربما كان ذلك في الحُلم لأن والدي كان على الدوام يسمعُ أصواتاً غير موجودة. نهض من السرير واتجه نحو الغرف المعتمة.

تناول من الدولاب المسدس الذي أهداه له الطبيب "أطلس" في نهاية الحرب. ولقمه، وأطلق عدة عيارات باتجاه المكان الذي سمع منه الحفيف، أو صرير الأرض الخشبية القديمة، وكأن أحدهم كان يتمشى هناك.

أكد طبيب الأنف والأذن والحنجرة أن الطلقة في الغرفة المُغلقة عطلت دون رجعة غشائي الطبل في أُذني والدي.

كانت تُسمع في البيت بشكل دائم أصوات خفيفة مختلفة — بداية من تنقيط الماء من الصنبور في الحمام، مروراً بالرياح التي تهز النوافذ وانتهاء بضجيج الحَمام المعشعش في السقيفة. ولكن والدي لم يكن باستطاعته سماعها.

الهواء يلعب حتى الآن بالنوافذ، وينفخ كل أنواع العزف. إنه يطلق أصواتاً شبيهة ببوق "ميليس ديفيس" مع نتروجين الجاز، ويملأ الصالون العتيق الفارغ بأصوات مخيفة. وكما العادة فإنها تظهر قبل كل شيء من الزاوية اليمنى.

أخطو باتجاه البيانو غير المُدوزن الذي لم أقرر حتى الساعة ما إذا كنت سأتركه هنا في نهاية الأمر. أفتح الغطاء. ثم أنصتُ.

آيس. ها، تسي. آيس—غيس. غيس...

أحاول التقاط النغمة، ولكني أفشل. نصف أصوات فحسب. أهزُّ حول "ب" ذات الخط الواحد. كل شيء يحتاج إلى الدوزنة. الرياح تكرر نغمة أخرى.

ها—تسي. تسيس—دي — ها (على غرار دو، ري، مي)... أكرره.

أُنصتُ. في مكان ما تخبط النوافذ، ويتكسر الأثاث. عاصفة تلعلعُ في الثلاجة القديمة وصفيرها يُسمع أكثر حين أفتح بابها وأستقبل نفسها البارد. بهذا الشكل يعمل المُحرك القديم. وهذا الصوت أتذكره جيداً فهو جزء لا يتجزأ من البيت — تماماً كما يحدث حين تصطدم الرياح القوية بالبروزات وتتدفق على طينة الكاتدرائية.

أسحب عشائي مع زجاجة جعة.

تابعت سنوات عديدة تصدع البيت التدريجي وتحلله وتحوله إلى مكان مهجور، بطينة رطبة، وسقف مثقوب أصابه الرشح. لم أكن أملك القوة لإصلاحه وكأن شيئاً خفياً غير مرئي يمنعني.

حين أخبرت "فويتا" بذلك، قال لي إنها بعزقة للمال ومن الخطأ التدخل في مسار الأشياء. هذا البيت بكل بساطة يجب أن ينهار، إنه قدره. ولا شيء يمكنه الآن أن يُنقذه. ولا حاجة ليباس الرأس. ليبق كل شيء على حاله.

بدا الأمر أثناء المطر القوي في منتصف أحد الأصياف وكأنه بعد الطوفان. فاضطررت للاستعانة بأصحاب المهن. داسو بأحذيتهم الوسخة فوق سُجاد والدي، ونتلوا أشياءه من مكان إلى آخر وغطوها بالنايلون في حين بقي هو جالساً بصمت في كرسيه، ومن يدري بماذا كان يُفكر. فلم يعد يسمع شيئاً.

حتى الهواء تغير في تلك الأثناء —لقد حملوا معهم خليطاً نوعياً من عرقهم، رائحة الكحول مع الطينة المتقشرة والقليل من سائل "التنر". دخلوا إلى البيت مثل حشد من البربر حيث لم تدخل قدم إنسان عادي من قبل. أصلحوا ما قدروا عليه وما أمكنهم ترميمه، ولكن ليس لوقت طويل. فالبيت كان مرشحاً للانهيار التدريجي، التحلل، *verfall* — كما يقول الألمان بالتمام.

أبي لم يرغب في السماح لنا بترميم البيت بشكل كامل — بل وافق على بعض الإصلاحات البسيطة التي لا مفر منها. لا تلمس هذا! كل شيء بدا له هاماً، ولا شيء يمكن رميه. ولا حتى الكراكيب الطبية العتيقة، ولا حتى حقيبته السوداء مع السماعة والحقنة الشرجية. كل شيء الآن بقي لي.

— *الموت يدخل إلى البيت المُرتب* — كرر والدي باستمرار. كان مُحقاً. كان بوسع أمي أن تؤكد ذلك لو أنها بقيت على قيد الحياة.

أو على الأقل ثلاجتها الجديدة التي بقيت في علبتها وسط المطبخ. الكتب المحروقة، أسطوانات والدي التي باعتها. ألحان "غرشوين"، وغيره It Ain,t Necessarily So .

كنت أكره ذلك البيت الذي تخلصت منه ولكنه بقي يشدني إليه لأسباب غير مفهومة. حبل السرة لم يسمح لي بالابتعاد كثيراً.

ولكن إذا قدر لي البقاء هنا فسأضطر لإصلاح جميع الأشياء غير المنظورة التي بقيت هنا، وكنت سأتخلص منها فعلاً، ولكن كيف لي أن أهدم ذلك المقر المخيف. كابوس ليالي حياتي، قلقي، ومكان عودتي الأبدية إلى المناطق الخطرة. كنت سأستريح كثيراً لو أن هذا البيت لم يكن موجوداً في يوم من الأيام.

اليوم أخيراً، أعرف أن تلك اللحظة آتية لا محالة. أشعر باستياء شديد.

5

ليالي الربيع لا تزال باردة. حوالي الصفر. مدفأة الزيت التي أحضرتها معي، وأمضيت معها ليلتي الأولى، عطلت القاطع الكهربائي ثلاث مرات. التوصيلات الكهربائية القديمة في البيت تتمرد. أزعجني هذا كثيراً. فأحضرت بعض الخشب الرطب الذي غطاه الغبار من السقيفة، إذ لم أجد غيره. أشعلت النار في موقد الصالون الجداري. وانتظرت وقتاً طويلاً حتى بدأ الحطب يشتعل.

أيقظت الحرارة المتسربة العديد من الحشرات التي سلمت بالخطأ من برودة الشتاء وبقيت عالقة في ذلك البيت الميت. ذات العيون الذهبية "زلاتوأوتشكي"، الخنافس، والعنكبوت. ها هي تطير هنا الآن في منتصف الليل من أحد أطراف الغرفة إلى الطرف الثاني.

اتجه العديد منها نحو مصدر الدفء – ربما تكون ذات الغريزة التي تسحبهم إلى الخارج للقاء الشمس، من يدري. ولكن فعلتهم تلك جرتهم في نهاية الأمر إلى حتفهم.

لديّ شعور أني أخطىء حين أتدخل في الظواهر الطبيعية – بالرغم من أني لم أفعل شيئاً سوى إشعال النار في المدفأة. ذات الأسباب و المسببات، الغريزة وحب البقاء. النتائج.

يرافقني في ليلتي هذه صديقي "نواكس" من جديد. إنه يلاطفني ويهدئني. المفروض أن أحذر، ولا أتسلق إلى أعلى الشجرة. لأن ألمي سيكون أكبر بعد السقوط.

انتصب البيت في شارع هادئ. فلقد غيرت المدينة ومنذ ذلك الوقت كلّ شيء من حوله، طوّقته، وتسلقته مثل الفطور. الأبنية المرتفعه حجبت عنه المنظر بأكمله، ولكن بفضل البناء الذي اختفى على عكس غيره، أصبحت أرى الفندق.

إلينكو

أرسل إليك ثقالة الورق الموعودة التي أعجبتك كثيراً في المرة السابقة. فكرت في الأساس أن أحضرها لك بنفسي اليوم (الثلاثاء يوم طويل) إلى "بهي"، إلى البحيرة. تعرف، أحب أن أسألك عن أحوالك خلال الأسبوعين الأخيرين – وبشكل عام، تعرف كل شيء... لقد فكرت بك كثيراً أثناء إجازتي، وتحديداً في الأيام الأولى منها حين تسكعت وحدي (زد. بقي عند أهله حتى يوم الأربعاء).

كلا.

ألينو

إنه الزمن. تعيش؟ اعذرني لأني لم أكتب لك حتى الآن، وكل ذلك لأني في الأيام الأولى كنت متعبة (وغير ذلك لقد هاتفتك مباشرة، "وروحي على كفي" من مشفى "نترا" في إحدى المرات، ولكني لم ألقطك) وبعد ذلك — لم يكن عندي من أرسل معه الرسالة. و لم أرغب الطلب من أمي، ولا حتى من "إديت. وكأني رأيت ذلك غير مناسب. وأنا حتى الآن لم أخرج من البيت، إضافة إلى ذلك كانت أمي معنا، ومع ذلك أتمنى رؤيتك بطريقة أو بأخرى. وأعتقد أنك أنت أيضاً تتشوق

لرؤية الطفلة الصغيرة "مينكا بتروفسكا"، ورؤيتي - أنوه بأني لست نحيلة جداً - لذا تعال حين ستجد الوقت. في أي وقت، قبل الظهيرة، بعد الظهيرة ولكن ليس بعد التاسعة مساءً لأنني استخدم على الأقل ذلك الوقت للنوم.

كلا.

ألينو

أشعر بالذل أمامك لأني أكتب لك تلك السطور - طالما أن الحديدة حامية (حتى إني لا أملك قلماً بجانبي). أشعر بأني أهنتك عن غير قصد. الشعور بأني تسببت بالأذى لأحدهم هو عندي أكثر ألماً وإزعاجاً - أعتذر بالرغم من أني لا أعرف عن ماذا. أشعر فقط أنني أتصرف دائماً بغباء، ولكن هذا كله بسبب خوفي من أن أكون صريحة، وأحاول ألا أشعر أحداً بأن الجرح الذي يحصل بعد عملية جراحية لا مفر منها ويحتاج إلى وقت طويل كي يندمل (أتحدث عن تلك النهاية المأساوية التي حصلت في كانون الثاني) كي لا تلومني بالقول "إن النساء لا يمكنهن العيش بدونه". نعم النساء وضعهن أصعب بكثير لأنهن لا يوظفن "بعض العاطفة" فقط، ولكنهن يوظفن كل شيء يملكنه، الضمير الحي، وما يُسمى الأخلاق النظيفة، ويكون الأمر عندهن في غاية الصعوبة - كي لا يتسببن في ألم الغير- لأن عليهن السكون (أفكر الآن بـ "زد") وتصنع السعادة، والتظاهر بأنهم "أناس متوازنون"، ويعوضون عن ذلك بالبكاء في الليل حين لا يراهم أحد. والإنسان الوحيد الذي يعرف سبب ذلك الخراب الروحي، يتظاهر بأن الأمر عنده سيان - في الحقيقة لا يتصنع، ولكنه يتصرف.

كلا.

ألي

لا يمكنني ألا أتذكر.. أستغرب أيضاً أن كل شيء لا يزال حياً، وكأن سنة كاملة، لم تمر عليه مع كل تلك الصدمات باستثناء بعض الأيام القليلة الهادئة. أحب كثيراً أن أخبرك بأشياء عديدة، وأنا أيضاً

كنت قد حضرت رسالة طويلة — ولكني لا أريد تعكير مزاجك دون فائدة. أرسل إليك تلك السطور القليلة لأني أتمنى لك الصحة والعافية الدائمة في السنوات القادمة (كي لا تصاب بأوجاع الرأس) وتحديداً طول البقاء "كي يدوم لك "مخزون السعادة" ولا يفرغ!!" والسعادة الكاملة — كل ذلك الذي لم تطلبه مني في يوم من الأيام، ولكني أتمنى أن أقدمه لك لو كان بوسعي.

كلا.

وخلف النافذة في الحديقة كان البوم يبشر بالموت دون توقف.

"لقد مُتُ في نومي عدة مرات، ولهذا فإن الموت، لم يكن عندي شيئاً جديداً" قال والدي.

اتصلت الصحفية الشابة الجديدة العاملة في صحيفة "بريجاني" الجديدة في بداية التسعينات. أرادت كتابة ريبورتاج عن والدي بوصفه مواطناً قديماً ومعروفاً في المدينة، ويتذكر أشياء عديدة من الماضي. شرحت لها بأني سأكون حاضراً على كل حال، ثم قمت بعد ذلك بمرافقة والدي إلى المقهى الصغير الموجود في ردهة فندق "زلاتي يلن".

تحادثا ساعة كاملة عن الطرقات القديمة، ومن أين وإلى أين تؤدي، وعن عدد البيوت الباقية في الساحة، ومن هو مالك السيارة العسكرية التي بقيت في الغابة تحت "فولوفتس"، وأين أصبح الغزال الزجاجي المغمس بالذهب الذي كان في مدخل الفندق، وعن حياة "كلاوديوس كولار" الكبير الذي أمضى عدة سنوات قبل وفاته في "بريجاني" أيضاً وكان أحد ضحايا النظام القديم، وقد دخل بقوة الآن في مناهج تعليم الأدب في حين بقيت مؤلفاته منسية لسنوات طويلة، وأنها تُطبع الآن في العديد من الترجمات في الخارج.

بدأت أتثاءب حين التفتت إلي — وسألتني عن أكثر شيء أُثمنه في والدي.

"نعم، ربما... كان دائماً يتصرف كرجل. كبير، مفعم بالكبرياء"

"وأنت ما الذي تراه في ابنك؟" وجهت الديكتافون (أداة التسجيل) نحو والدي.

"قلبه طيب،" قال والدي بعد لحظة تفكير. "ويمكنه أن يسامح أيضاً."

"شكراً. هذا يكفيني. سأرسله لكم خلال الأسبوع لمنحي حق النشر. وبالمناسبة، هل تعرفان أنكما متشابهان كثيراً؟ وحتى في حركات الوجه والصوت وهو ليس الأخير؟"

هززنا برأسينا.

حين غادرتنا، جلسنا صامتين ولكن منفعلين. لا أحد منا فهم السبب الذي جعلنا مشوشين.

فكرت في الأمر حتى المساء، وأدركت أننا عبّرنا ربما للمرة الأولى في حياتنا عن حب أحدنا للآخر. فلم يحدث هذا من قبل، ولن يحدث فيما بعد.

6

حين سقطت قطعة كبيرة من قشرة السقف بعد هطول مطر غزير، أدركت أن ذلك البيت هو مجرد قارب آيل إلى الغرق، ولا أحد لديه القوة لإنقاذه. ولم يبق لنا شيء سوى التعلق بطوق النجاة، والقفز عن سطحه.

اليوم، يراودني شعور بأني أنتقل فوق الحطام الذي يستريح في الغرفة الموجودة في قعر البحر. لا شيء يتحرك هنا، كل شيء ميت، لقد تبخرت الأرواح. وأغني سيمفونية والدي المفضلة "باستورال" التييتدفق من ألحانها الفرح والتوازن والأمل والراحة. لقد شكلت عند والدي رمز الحياة التي كان يتمناها دائماً والتي حاول جاهداً النجاح في عيشها.

"في السماء سوف أسمع" صرخ من شدة تأثره بالمؤلف، ولكنه لم يسمع. على الأقل ليس بأذنيه، وكل هذا بسبب بعض العظام الصغيرة الموجودة في جمجمته.

كان يستمع إلى "بيتهوفن"بحكم العادة حتى عندما فقد سمعه بشكل كامل. جلس في مقعده الوثير، وجعل يقود الفرقة الموسيقية بإيماءاته

العريضة. حين كان يأتي أحدهم لزيارته في ذلك الوقت يستغرب تصرفه. البيت بأكمله كان يصخب.

"الخوف والرعب،" يقول والدي."سمع هذا عبر آلة غبية في الأذن!"

كان "الخليغان"، من الأطراف يدخلون إلى حديقتنا التي لم تعد ملكنا بالتدريج — ويسرقون الخوخ، والمشمش. لم تعد ملكنا بالتدريج.

بدا الأمر وكأن الكائن الحي الوحيد هنا هو البقرة المبقعة الموجودة خلف بيت جارنا. فقد تعوَّد أبي مراقبتها من خلال نافذة المطبخ. كانت تستلقي ساعات لا نهاية لها في المرج. تنهض بعد ذلك، ثم تستلقي من جديد، وتعود لتقف مرة ثانية — في نفس المكان. لم تفعل لأيام بأكملها شيئاً سوى مضغها للعشب. باستثناء حين يهطل المطر، حيث ينقلونها من هنا. ثم يرجعونها من جديد بعد توقفه. تستلقي، وتمضغ، تنهض وتستلقي من جديد....

نحروها بعد ذلك. فكانت الأخيرة. لأن جارنا توقف عن تربية أي شيء حي.

في اليوم نفسه — المخبأ في مكان ما من الثمانينات — جئت لأتفقد البيت الفارغ لأن والدي كان في المشفى. كان البط البري يحلق فوق "بريجاني"، راقبت السرب الذي شكل مجموعات كبيرة من خلال الغيوم الجليدية التي أوشكت على على ترك حمولتها من الثلج، فسمعت أصواتهم التي تؤكد بأنهم لم يُضيعوا البوصلة وبأنهم لا يزالون في سرب واحد.

وأنا جعلت أجمع من تحت النبتة القديمة كنز طفولتي إضافة إلى عظام البشر.

العظام وبعد ذلك الجمجمة.

بدأت أكتشف والدي.

الفصل السادس

عشاء لاثنين

1

"في لوحة "غويا" من مجموعة لوحاته الموجودة في بيت الأصم تحت عنوان "عشاء لاثنين"، نشاهد اثنين من كبار السن، وهما ينحنيان أمام الطعام، يبدو أنهما يتناقشان في أمر ما. الغرفة مظلمة، "قال الدليل في متحف مدريد "موزيو دل برادو". اندهشت لأنه تماماً مثل جميع زملائه في الاختصاص يُضيعُ وقته في شرح الأشياء التي يمكن للجميع رؤيتها.

" كل ساعة في هذا البيت تشير إلى وقت آخر."

غالباً ما أحلم بأشياء غريبة — اكتشف مرعوباً أني نسيت والدي. نسيته، ولم أُحضر له الطعام، ولم أعتن بأي شيء يخصه، وأنه بقي في ذلك البيت الكبير دون معين. كيف يُمكن لهذا أن يحدث؟ ومتى كنت في زيارته للمرة الأخيرة؟ أتمنى أنه لا يزال على قيد الحياة... !

أرتدي ثيابي بسرعة في الحُلم، وأُجهزّ نفسي للسفر مباشرة إلى "بريجاني". ولكني أغيِّر رأيي في اللحظات الأخيرة وأقول، يمكنني تأجيل ذلك عدة أيام كي لا يبدو الأمر سيئاً. ماذا سيقول الناس؟ شيء رهيب، ولكن إذا كان قد مات فإني سأتفاجأ، وسأجده بهدوء، وأتدبر

الأمر. يمكنني أن أجد العذر المناسب. ربما سيصدقون كلامي حين سأخبرهم بأني لم أتمكن ببساطة من المجيء، ربما...

أستيقظ عادة بعد ذلك خائفاً، وأنا لا زلت أفكر، ماذا ألبس، وكيف ستكون النتائج. لم أرغب في ذلك ! ولم أرغب في نسيانه !

وبعد ذلك وكأني أتذكر بالصدفة أنه صار منذ سنة في عداد الأموات.

ثلاثة رجال طاعنين في السن، يجلسون في مكان مرتفع في الطبيعة. أصبحت كروم العنب التي تقطعها المروج الملتوية التي كانت في السابق ملكاً للعم "رودو" مهملة. فانتشرت فيها النباتات الضارة. واضطروا للبحث عن مكان يضعون فيه مقاعدهم الثلاثة التي أحضروها معهم إلى هنا. "سالافا" يزحف في شريط مستقيم فضي تحت أرجلهم. تطلعوا إلى مدينة "بريجاني" وإلى القمر البدر الصاعد في حُلته الرائعة. كل منهم يُمسك بيده زجاجة جعة. ويشربون ببطء.

أحدهم أسند فوق أسفل بطنه راديو ترانزيستور، جعل يُخشخش أكثر من أن يتكلم أو يبثُ الموسيقى، ولكن صاحبه لم ينتبه إلى ذلك، وكل ما كان يفعله هو تقريبه من أُذنه بين الفينة والأخرى والإيماء برأسه. تحدثوا فيما بينهم.

"روعة ! "

"حقاً روعة ! "

"فكرة جيدة، أننا جئنا إلى هنا"

"هناك، كان يسكن العجوز "مسلوفيتش في ذلك البيت المهجور — لم يتعرض للغرق على الإطلاق أثناء طوفان النهر، وكان يبتسم للجميع. ارتفع ماء النهر حتى الخصر وحين أرادوا نقله بالقارب — لوّح بيده فقط وقال لهم من الأفضل لكم أن تبقوا في البيت. وفعلاً، لم يحدث له مكروه."

"حين كنت طفلاً، كنا نلعبُ في ذلك الشارع هناك في الأسفل كرة القدم مع الأصدقاء."

"هناك، في هذا الشارع؟"

"بالطبع"

دقوا زجاجات النبيذ، وجعلوا يتطلعون بصمت إلى "بريجاني" من خلال السهول التي بدأت تغزوها العتمة.

2

كُتب في أعلى الصفحة 24: استخدام الهراوة، وتحت هذا العنوان — الأماكن الحساسة في جسم الإنسان مع شرح: الأماكن الحساسة هي تلك الأماكن التي لا تبقى عليها آثار أذية دائمة كبيرة. نضرب على الأماكن الحساسة بنهاية الهراوة.

الصورة توضح ستين مكاناً على جسم الإنسان:

مكان اتصال عظام الجمجمة، الجبهة، الصدغ، الحواجب، جذر الأنف، الأذن الخارجية، الوجنتان، رأس الأنف، خط الشفه العليا، عصب خلف الأذن، الحفرة خلف زاوية الصدغ، الفك، الذقن، شريان الرقبة، جوزة الحلق، حفرة البلعوم، الحفرة فوق عظم الترقوة الخ... (يذكر المؤلف هنا كماً كبيراً من المناطق في الجسم.. المترجم)

حاولتُ أثناء الركض في ساحة "هفيزدوسلاف تذكر الكتاب الذي رأيت فيه تلك الشروحات. وعلى الرغم من أننا كنا في الخامس والعشرين من آذار إلا أن شعري تبلل كما حصل مع شعر "فويتا" وسرواله وسروالي. أمسك "فويتا" بكوعه الذي تلقى عليه ضربة الهراوة. أقنعني كي أذهب معه للاشتراك في مظاهرة الشموع، وأن أتوقف أخيراً عن الاهتمام بالأشياء الغبية، وأنه حان الوقت. وافقت في اللحظات الأخيرة — تماماً كما فعلت عائلة "ليغو" التي شاركت في رتل طريق الآلام المهاجر إلى ألمانيا، لتعود بعد عدة شهور من جديد.

كانوا أثناء المظاهرة ينشدون، ولكن بصوت منخفض.

عادت إلى النور من جديد أغنية جدتي "ماريا" مع نصها العائد إلى عام ثمانية وستين: ليلة ساكنة، ليلة معتمة، ولكنها جميلة. "شالغوفتش مع بيلاك "خانا الوطن. حين سينتهي الليل، سيأتي النهار. الوطن بأكمله سيبكي من هذه الخيانة!

خمس أو ست خطوات تفصل كل بلد عن الثورة. يكفي ألا يتناول المواطنون الشرفاء الطعام عدة أيام، ومن ثم ستجد من يحثهم على فعل أي شيء. من قال هذا...؟ "بتر" أخي "بتر". لاأشك في ذلك.

لم أنتظر كي أستمع منه تعليقاً عن حرية الرأي.

الأشياء التي حدثت في ذلك الوقت، تُذكر كثيراً بالسجادة المنسوجة بكثافة. أو بالفرقة الموسيقية التي تلعب عدة سيمفونيات دفعة واحدة. أتذكر منها بعض المقتطفات.

كيف أكون حين كل شيء لا زال يعبق برائحة البراءة في نهاية تشرين الثاني 1989، في الدوار المخملي للثورة الرقيقة، شيء ما، حَمَلَ إلى مركز ف ب ن في بيت "موزارت" (سابقاً دار التثقيف السياسي حين عملت في الماضي بعد دبلوم ف أو ام إل المدرسة العليا لدراسة الماركسية اللينينية) الموجود في شارع "يراسك" "فويتا" الذي تمكن أخيراً من الكلام. لقد أخرجوه من (وحدته) لأنهم كانوا بحاجة إلى داعمين. أدهشني في ذلك الوقت أكثر — لأنه لم يسمح لأحد بكسره، ولأنه حافظ على مبادئه القوية ولم يتغير، ولم يتأقلم أيضاً، لقد حسدته على الشيء الذي لم أتمكن في يوم من الأيام أن أكونه. كانت عندي مخططات كبيرة، هذا صحيح —ولكني كنت أبقى على الدوام نموذجاً إنسانياً باهتاً يسمح للتيار أن يجرفه معه. مرعوباً، يحاول جاهداً ألا يمدَّ أذنيه.

دخلت إلى الصالة حيث فُتنتُ بتلك اللحظة الساحرة — جلست مجموعة من الصبايا الفاتنات بشكل لا يُصدق خلف الطاولة، جعلن ينسخن البيانات على الآلات الكاتبة، عشرات الصفحات من خلال ورق الكربون. ولا شيء هناك سوى رائحتهن العطرة، وأصوات الضرب على الآلات الكاتبة. بعد عدة أسابيع، وبعد أن وصلت آلة النسخ، وأصبح النسخ أوتوماتيكياً. تحولت الصالة إلى غرفة يتيمة، وعادية، وقبيحة.

قطع بهجتي "فويتا" الذي قال بعد أن وصل متعباً من تلك النقاشات والاجتماعات:

"الديمقراطية هي دكتاتورية الوسط، ولكنها تبقى أفضل الحلول"
وصلني في كانون الثاني الأمر التالي من وزارة الداخلية:
السيد المحترم "روشكو"،
بناء على البند رقم 4 من دستور تشيكوسلوفاكيا، يتم من تاريخ 15. كانون الثاني 1990 تعديل الألقاب على الشكل التالي:
كلمة رفيق، (رفيقة)، تُصبح سيد (سيدة).
النداء؛ الرفاق والرفيقات، يُصبح "السيدات والسادة".
التحية "تشست براتسي" تُبدل بـ (نهاركم سعيد، أو مساؤكم سعيد)
نطلب منكم التقيد وإبلاغ جميع العاملين تحت أمرتكم بهذا التعديل.
ريخارد ساخر
وزير الداخلية في تشيكوسلوفاكيا

حل بعد ذلك ربيع مفرح. كانت الطبيعة في مرحلة صفراء، نفذ إليها الخضار الذي لحقته مباشرة المرحلة البنفسجية، والزرقاء. وتتبدل بعد ذلك إلى الأحمر، الأصفر والبني وبعد ذلك البرتقالي الذي ينتهي بمرحلة الرمادي والأبيض. والدورة تتكرر.

في الخميس الثاني عشر من نيسان، اتصلت بأخي "بتر" وسألته عما إذا كان يُجهز نفسه لتمضية عيد الفصح في "بريجاني".

رفع السماعة بعد رنين طويل حين شارفت على إغلاق الخط.

"نعم" رد عليّ بصوت خارج من القبر مما جعلني أتجمد.

"مرحباً.. ما الأمر، ما الذي حدث؟"

"اعذرني، آدم، الآن لا، اتصل في وقت لاحق. عندي الآن العشاء الأخير."

أعتقد أني لم أقل له إلى اللقاء في النهاية.

3

حدث بعد ذلك أمر مفاجئ.

فتحت السيدة "ناتاليا روشكوفا" الورق (نوع من ورق اللعب في تشيكوسلوفاكيا) على التسعة الحمراء وأتبعتها بالعشرة الحمراء، مما

يعني الغضب والبكاء. جاء بعد ذلك البلوط الثامن الأخضر الذي يتوقع حدوث شيء مفاجئ.

في أثناء النقاشات الدائرة حول ما إذا كان عليهم فتح أرشيف جهاز الأمن، والكشف عن لائحة أسماء العملاء، والمتعاونين السريين، وضع أحدهم ملفاً أمام "فويتا". عمل هذا الشخص لسنوات طويلة بوصفه ضابطاً بمرتبة عالية في أمن الدولة، ولكنه أراد الآن الخروج من الشرنقة مثل الفراشة بعد تغير جذري ليعمل في السياسة. وقف "فويتا" ضده بشكل حاسم — سيما وأن هذا الرجل قد حقق معه عدة مرات في "فبرواركا" في السابق واعتقله على ذمة التحقيق مخالفاً للقوانين. وكان لا يزال يشعر بتلك الصفعات.

الرد جاء بسرعة.

دافع "فويتا" عن نفسه حتى أمام المحكمة، ولكنه اكتشف بسرعة أنه سيخسر القضية. إذ استدعوا أحد عناصر الأمن للشهادة. فجلب معه تقريراً قام بكتابته ووقع عليه. عندها أدرك "فويتا" أن تنقيط القهوة في الحليب لن يبقيه أبيض على الإطلاق.

أقالوه من جميع وظائفه ، وتوجب عليه المغادرة. فأصبح رجلاً ميتاً.

أمضى والدي في تلك الأثناء أسبوعاً لا أعرف رقمه في المشفى في حين جلست مع "فويتا" في صالوننا، في منزلنا في "بريجاني". كان الضجيج يأتي من تحتنا من الشارع، ولكن السكون حل مكانه بسرعة مع اقتراب عتمة المساء. إذ صمت كل شيء للوهلة الأولى — باستثناء بلبل نشيط جعل يُغني في العتمة البعيدة دون أن ينتبه إلى برودة هواء المساء. انخفض مستوى النبيذ إلى أن أحضرت زجاجة أخرى، ومن جديد.

تحدث "فويتا" في حين آثرت الصمت. اعترف أنهم خنقوه مرة في منتصف الثمانينات لأنه احتاج إلى جواز سفر. إذ أرغموه على توقيع وثيقة تعاون. ولكنه لم يؤذ أحداً على الإطلاق، وكان يعطيهم معلومات غير مفيدة مما جعلهم يشطبون اسمه من قائمة العملاء بوصفه عميلاً غير

موثوق. كل هذا موثق في الملف الذي لم يعد موجوداً كما يقولون — لقد دُمر حسب زعمهم أثناء تلك الأيام العاصفة في السابع عشر من تشرين الثاني. حين قاموا بتصفية أرشيف جهاز الأمن ومزقوا العديد من المستندات. فلم يبق سوى اسمه في لائحة العملاء السريين وقد كتب بجانبه "عميل".

"تُصدقني، أليس كذلك؟" ترجاني "فويتا" وكأني الوحيد الذي بوسعه منحه صك الغفران. "لم أؤذ أحداً!"

"بالطبع، أُصدقك... أصدقك..." أجبته بصوت منخفض.

بكى على كتفي. ولم يلمس أحدنا الآخر من قبل، كلانا تحاشى ذلك بصرامة، ولكني عانقته الآن، وسمعت صوت تنهيدته. امتصتْ كنزتي دموعه.

أتطلع إلى نفسي، كيف جلست في ذلك الوقت. ذاك "آدم" السابق، لا يعرف عن أبيه أشياء كثيرة ولكنه يفكر فيه لأن عليه في ذلك البيت القديم تذكر ذلك الرجل على الدوام – ولأن هذا البيت هو ملك لأبيه وهو موجود في كل ذرة منه، كما أن روحه الخارجة ببطء من جسده المهترئ تغادر من هنا إلى مالا نهاية.

اتفقنا على تناول طعام الغداء معاً في اليوم التالي.

الفندق القديم الآيل إلى السقوط في مركز "بريجاني" الذي استعاد اسمه السابق "زلاتي يلن"، جرّب السقوط الحر. أحد الزوار فتح صنبور ماء البانيو، وإلى أن خلع ثيابه سُمع ضجيج هائل. البانيو مع نصف الحمام سقطا إلى الطابق الأسفل. فأصبح الفندق لفترة أرضاً لا يملكها أحد. وتحدثوا عنه بوصفه فطيسة الاشتراكية في حين كان في السابق مكاناً لتسلية البرجوازية. اشترته وقامت بترميمه إحدى الشركات البلجيكية. وعلى الرغم من أن المعمرين في "بريجاني" كتبوا رأيهم فيما يجب المحافظة عليه واحترامه، إلا أن البلجيكيين لم يُصغوا لأحد. فقاموا بهدم الفندق بأكمله وشرحوه مثل ضفدع ميت، ثم حولوه بشكل كامل إلى شيء آخر يُذكر بأي بناء آخر في العالم بمسكاته الذهبية، وأغطيتة

الملونة الفاتحة – أمنت للزوار الصعبين (أصحاب المتطلبات الكبيرة) خديعة بصرية رائعة جعلتهم يعتقدون أنفسهم في أكابولكا، وربما في جوهانسبرغ، أو في الخرطوم، أو في هلسنكي. فقد عثروا في القسم القديم من البناء على غرفة مغلقة تعود إلى القرن الثامن عشر، احتوت على زينات سقفية جصية ولوحات جصية جدارية تمثل باختصار الأشياء الرائعة التي كانوا يلبسونها. ولكن أعمال البناء كان عليها أن تستمر، لهذا قاموا بتصفيتها دون إحداث ضجيج. أخبرني بذلك العجوز "ماريو أنغيال". فتح للبلجيكيين غرفة صغيرة سرية تحتوي على أجهزة تنصت على غرف الفندق تقع مباشرة بجانب قسم الاستقبال.

افتتحوه أخيراً قبل أسبوع باحتفال رسمي. لم نتعرف في داخله إلى شيء سبق أن عرفناه، تجولنا في الصالة مثل شبحين فقدا ذاكرتهما بعد حادث. وليس هذا فقط. بل الأكل أيضاً لم يكن له طعم كما أضيفت ملاحظة إلى أسفل لائحة الطعام تقول: المواد التي تُسبب التحسس سوف تُقدم إليكم بناء على طلبكم من عناصر الخدمة.

إذاً فإنهم سوف يقدمون لي مواد تسبب التحسس؟ هذا أكثر مما يمكنني تمنيه.

السعادة. هذه الرسالة هدفها السعادة. الأصلية مرسلة من هولندا وقد أجاب عنها العالم بأكمله. السعادة موجهة إليك. ستصلك بعد ثمانية أيام من تسلمك هذه الرسالة. أرسل نسخة من هذه الرسالة للناس الذين تعرف أنهم بحاجة إلى السعادة. لا ترسل مالاً، ولا ترمِ الرسالة. عليك أن ترسلها لغيرك خلال 96 ساعة على الأكثر بعد تسلمها.– أحدهم يدعى السيد "كوش" وصلته الرسالة في عام 1965. طلب من سكرتيرته أن ترسل عشر نسخ. وبعد عدة أيام ربح في اليانصيب. صديقه رمى الرسالة وفقد حياته بعد عدة أيام. حصل ضابط الـ إس.ب. ت على 7000 دولار بعد إرسالة الرسالة. توفي سيد غيره بعد ستة أيام لأنه نسي إرسال الرسالة – ابعث عشر نسخ وتابع ما سيحدث بعد أربعة أيام. بعد عدة أيام ستصلك مفاجأة. إنها حقيقة حتى إذا لم تكن تؤمن بالمفاجآت.– على كل حال لا ترمِ الرسالة، ولا تقطع السلسلة!!

لا تنس – 96 ساعة.

4

تحركتْ سيارة نقل "آفيا" بغطائها الأصفر إلى الخلف منذ قليل عبر البوابة إلى الحديقة. أربعة عمال نقل باشروا في إخراج الأثاث. ينشرون الغبار، ويضربون بأقدامهم على الأرض الخشبية. يلهثون، ويتبادلون النكات. يخرجون الخزانة التي أكلها دود الخشب بعد سنوات إلى أشعة الشمس، إضافة إلى المرآة الكبيرة التي ارتسم عليها قسم كبير مائل من الحديقة. البيانو، والكراسي، الطاولات، العُلب...

ينقلونهم إلى المستودع الموجود في نهاية "بترجلكا" حيث استأجرت مكاناً إلى أن أعرف ماذا سأفعل بكل هذا. "بتر" لم يرغب في شيء، ولا "تينا".

بعد لحظات سيصبح البيت خالياً. محارة بعد موت الحلزون.

المجنونة والحالمة "سوزانا" بقيت مع "فويتا" الذي بدأ يبتعد مع مرور الوقت – كأنه تلاشى في الصورة، لقد صَغُر في المشهد بحيث أصبح بالإمكان مسكه باليد، صغيراً، وبعيداً في الوقت ذاته. أنجبتْ معه مولوداً آخر.

عملتْ حتى عام 1990 في إحدى المجلات حيث تحسن وضعها ببطء. ودائماً بعد فترة ما كانت تتقدم في مرتبتها الوظيفية مثل خطوات الدجاجة. بدا الأمر وكأنها مع اقتراب سن تقاعدها سوف تترقى بما فيه الكفاية كي تكون سعيدة.

لوّح أحدهم بعد ذلك بقضيب سحري مما جعل الحلم يتبدد. فقد تجاوزت سن الخمسين – وبدلاً من العادات القديمة حيث تزداد قيمة الإنسان مع تقدم السن، انتشرت فجأة ظاهرة تجديد الشباب مما جعلها تبدو لجميع من حولها مفرطة في الخبرة – تماماً مثلما أكدوا لها حتى اللحظة أن عليها الانتظار بسبب خبرتها القليلة. أحدهم قصّ لها قطعة من حياتها تماماً مثلما حدث للعديد من سيدات جيلها اللاتي عشن أيام الثورة، واللاتي ضعنَ فجأة في أرض اللا أحد، وغالباً في يَدهنَ زجاجة خمر أو فودكا – مع أفكار غالباً ما توجههم لاستخدام عدد أكبر من الأدوية المُنومة، أو جرح معصمهن بالشفرة في حوض الاستحمام الدافىء. فلم يعد أحد بحاجة إليهن.

"سوزانا"، لم تعد بحاجة حتى لـ"فويتا". وتماماً كما خاف من إخباري بأنه يعيش معها، استغرقه إخباري بأنه تركها وقتاً طويلاً. فقد كان شديد التحمل، ولكنه لم يعرف كيف عليه أن يتغاضى عن كلامها العدواني، وصراخها أثناء سُكرها، وعن جبل الزجاجات المخبأة في خزائن البيت. تركها. كأنه يعرف – ليجد غيرها. فالعالم يكتظ بهن.

حسب ما كشفت لي "تينا"، أبي وأمي تعودا في البداية مهاتفة أحدهما الآخر، رن جرس الهاتف، ورفع أبي السماعة.

"هالو...؟"

سيطر الصمت على الجهة الثانية. أغلق السماعة، وأدار رقم أمي.

"لماذا لم تردي؟"

"لم أجد ما أقوله لك"

"وما الذي دعاك لمهاتفتي؟"

"لا تحقق!"

حين خفّ سمعه بعد ذلك، لم تعد هناك أي فائدة من الاتصال لأنه لن يفهم. بعد ذلك لم ينتبه حتى للرنين. عاش منغلقاً في صمته.

الصمت النظيف.

أمي في المقابل أصبحت بعد هذا العمر شبيهة بالإجاصة الناضجة – كيفما تُقلبها تجدها طرية مدموغة بالبني من كل جوانبها.

اسم قطها كان "ألفونس". لقد منحته أمي ذلك الاسم بدلاً نن "إيكابين" الأساسي – الذي تعودت أن تطلقه دون أي تمييز للجنس على القطط. لقد سمّتْ والد "ألفونس" مثلاً "إيكابين الثامن". قالت الآن ما فيه الكفاية، وتوصلت في النهاية بعد تفكير طويل إلى اسم والدي بدلاً من "إيكابين "التاسع. كما كررت لي – حدث ذلك الصدفة دون أن تدرك شيئاً من هذا. كل ما في الأمر أنها أحبت الاسم.

زوجتي الثانية "إنغريد" كانت ضليعة بفن "التهرب" من المسؤولية إضافة إلى تصنع البرودة مما نتج عنه بالتدريج أني جعلت أتصرف مثل

كلب مُهذب يتوق على الدوام لمن يمسده في جميع الظروف. الكلب الصغير الذي يحقق لها كل شيء.

لهذا كنت أُغني لها قبل النوم بيني وبين نفسي من شدة حبي: بونا نوكتي، ميا أماتا. بيني دورمير. ليلة سعيدة، يا حبيبتي... في اللاتينية. أو في أي لغة أخرى.

أحياناً كنت أتألم، ولهذا أصبح انتقامي ينصب أحياناً على معاشرتي اللذيذة والسرية لـ "ناتاشا".

أحياناً كنت أتنزه برفقة "إنغريد" في البارك في "بريجاني".

"اضطررت في حياتي السابقة أن أكون نسمة دافئة — إنه أمر محزن" قالت لي.

"لماذا لم تكوني نسمة باردة؟"

"إنها قوية، وغير مريحة، ولكن الدافئة تنطوي على حزن عميق. حين تهب، تنتابني رغبة في الموت"

كان لدى "إنغريد" أسبابها العديدة لتكون شقية في حياتها. عاشت عشر سنوات قبل أن أتعرف إليها مع مدير إحدى دور النشر التي كانت تنشرُ قصائدها. انفصلا بعد الثورة وكان عليه أن يغادر إلى مكان آخر. سكرتيرته — صاحبة الابتسامة الأبدية، المحبة، موضع إعجاب الجميع — أرسلت لها مغلفاً سميكاً كتب عليه: لقد وجدناه أثناء تنظيف غرفة التحرير. سكبت منه "إنغريد" حفنة من التقييمات السلبية، والانتقادات الموجهه لمجموعاتها الشعرية. والتي أمضت السكرتيرة سنوات في تجميعها.

5

أبي كان يجمع الصُم، على الأقل هذا ما أحسسته. بدأ مع "بيتهوفن" ثم تابع مع "غويا". لم يخفِ مهنته لأنه أخبرني أن "فرانسيسكو" على الأغلب تسمم بالرصاص من الألوان لأنه كان ينقلها على اللوحة بأصابعه وإبهامه، كان يغرفها من عُلبها، وقدورها إلى أن أصيب بمرض في دماغه، نتج عنه صممه، وإحباطه، وجنونه.

أبي جعل يهجئ أسماء الألوان بصوت منخفض. ترابي محروق، أزرق ناشف، أخضر سروي، أخضر كرومي، أخضر ويندسوري، أسود هافاني، أسود فيلي، أسود عضمي، ...

أدركت أني مع "بوني" في متحف مدريد "موسيو دل برادو" ننوب عن أبي الذي لم يعد بإمكانه المجيء إلى هنا. لهذا قمنا في رحلتنا مع "الرماد" بلفة كبيرة. لقد تجول معنا حقيقة في نهاية الأمر.

رافق مجموعتنا السياحية دليل عجوز، بدا بشنبيه الغريبين، ولباسه، وكأنه سقط من إحدى لوحات "فيلاسكويزا". اللوحات المرممة كانت مُعلقة على جدران الطابقين وقد انعكس عليها ضوء النهار من خلال النوافذ الكبيرة.

لم تكن إنكليزيتي التي تعلمتها من الأغاني كافية لفهم ما يجري هنا، وأكثر من ذلك، تحدث الدليل السياحي بلكنة إسبانية قوية مما شوشني كثيراً. "بوني" راح يترجم لي همساً.

"أصيب فرانسيسكو غويا في سن الخامسة والأربعين بمرض صعب تمكن من الشفاء منه ولكنه بقي أصم بشكل دائم. وهذه الإعاقة بالذات، إضافة إلى سوء حالته النفسية أصبحتا سبباً في تطور عزلته، وإحباطه وتكرار نوباته النفسية التي تمثلت بسماعه أصواتاً غريبة ورؤيته أشباحاً ليلية مزعجة. انتقل بعد أن ترمل إلى بيته الريفي بالقرب من مدريد الذي أصبح اليوم بيت الأصم الشهير – الذي تمت تسميته للمفارقة تيمناً باسم مالكه السابق.

نشأت هنا بين عام 1820 وحتى 1824 أربع عشرة لوحة غامضة ومخيفة، إضافة إلى علاقة مع صبية حسناء "ليوكاديا ويس" التي دربها "غويا" على الرسم. انتهى منهم وهو في سن الخامسة والسبعين.

لم يُعط "غويا" لوحاته من المجموعة السوداء أي اسم. العناوين الموجودة تم اقتراحها من قبل مؤرخي الفن.

اقتربت من اللوحات وابتعدت عنها ثم درستها بالتفصيل. عُلقت في الطابق الأرضي اللوحات التالية: "زُحل يأكل ولده"، و"المعلم لينونارد ألا لوكاديا". عُلقت مقابل ليونارد "الخوف من الطيران"، على اليسار منها "العشاء لاثنين". في الطابق الأول،" الكلب يسبح عكس التيار" ومقابلها " أتعلم على الدوام". بينهما "العرافات".

تابع الدليل: "حسب تقديرات الخبراء، تعتبر اللوحات السوداء مظهراً مُفرطاً للتناقض والنفور الحاصل بين المجتمع الحالي والفنان.

رسم "غويا" على حيطان البيت الذي سكنه. ولم يتوقع أن أحداً سيرى لوحاته كما أنه على الأغلب لم يرغب في ذلك. أحس بها وكأنها خرجت من أعماق أعماقه. وما يؤكد ذلك هو أنه بدأ يهتم بشكل مفاجئ برسم اللوحات الجصية بدلاً من الرسم بالزيت على القماش. صنّع الأشكال بسرعة كبيرة مستخدماً أنواعاً عديدة من الفراشي الثخينة، والسكاكين المختلفة، وقطع الإسفنج. اقترف العديد من الأخطاء التكنولوجية التي جعلت الرسومات الحائطية تتعرض أكثر أو أقل للتلف. وضع الألوان الزيتية فوق الجبس، وما أساء أكثر للعمل بأكمله كان استخدامه للطبشور في اللوحات — من الخطأ خلط الزيت مع الطبشور. سبعون سنة بعد رسمها، وبعد وقت طويل من وفاة الفنان، تم نقل هذه اللوحات إلى القماش باستخدام تكنولوجيا خاصة. أهداها مالكها بعد ذلك للحكومة الإسبانية.

توقف والدي طويلاً عند تلك الفكرة، ودرسها ولكنه لم يوافق عليها. وحسب زعمه، المعرض في "براد" كان سيُغضب "غويا" بذاته. فمن غير الصواب "إنقاذ" الأشياء التي عليها أن تبقى مخبأة وعرضها للعلن. وتحديداً حين يكونون على وشك هدم بيت الأصم مع رسوماته الأصلية.

كان عليهم تركها هناك! بقي متمسكاً بفكرته، وتجادل معي. إنه تدخل في الخصوصيات! أعلن بتصميم، نهض بعصبية مؤكداً أنه لا يريد التحدث عن "غويا".

الفصل السابع

أتعلمُ دائماً

1

حصلت هذه اللوحة على لقب: أتعلم دائماً. ولكن عندها أسماء أخرى عديدة. مجموعة الأشخاص الموجودة أمام خلفية مُظلمة تنحني فوق الكتاب بينما أحدهم بالمقابل يتطلع إلى مكان ما في الأعلى؛

بهذا الشكل كان يقف أبي حين يتطلع إلى صورة شعاعية للقفص الصدري أو للرئتين.

كان يُدخن أثناء ذلك وينفث الدخان.

كل ساعة في هذا البيت تشير إلى زمن مختلف.

تختفي منه المفروشات وإلى أن يختفي منه الزمن يقع نظري على درَج خشبي يوصل إلى السقيفة. من جديد، يجلس عليه "فويتا" وحيداً. إنه يُحب هذا المكان. وصل إلى هنا كما تعود سراً.

يقف والدي الذي تعود دائماً تأنيب مرضاه المُدخنين بعد الغداء بجانب النافذة دون أن يلفت انتباه أحد، ويُشعل لفافة تبغه. يرتجف حين يسمع.

"إنك تُدخن، أيها السيد الطبيب؟"

يستدير والدي.

"سيجارة واحدة لا تؤذي. عليك أن تُدخن بحذر كي لا تستنشق الدخان — هكذا ، تزفره من طرف فمك فقط، انظر..."

"هل أنت جاد في كلامك؟"

" بالطبع، وهذا صحي أيضاً. أنا مثلاً، لم أمرض على الإطلاق لأنني أُدخن. حين أكون مصاباً بنزلة صدرية، وأسعل، يكفي أن أشعل واحدة، وينتهي الأمر. أتعافى مباشرة من المرض.

روى لي أعز صديق عندي "فويتا" الذي مات في وقت لاحق بسبب سرطان الرئة تلك الحادثة عدة مرات.

لم أتصور أن والدي تحدث معه تماماً بهذا الأسلوب.

2

ساعد "بتر" بشكل غير مباشر في تنظيم تجمع الوطن لدعم شعار استقلال سلوفاكيا. غالباً ما أخبرني في الثمانينات أنه يذهب إلى براغ لتنشق الهواء المنعش، هرباً من عفن سلوفاكيا — مما أدهشني قليلا. ولكن هذا هو أخي. لطّخ جميع من حوله مثل فروة "إيكيبان".

غالباً ما كان "فويتا" ينبهني بخبث، وبشكل منتظم إلى مقالاته القومية المنشورة في "نوفي سلوفاك"، وفي وقت متأخر في "ربوبليكا" التي يتحدث فيها متسائلاً عن قصد، من هو سلوفاكي ومن هو غير سلوفاكي — لقد تمكن من النظرة الأولى تمييز الانتهازيين عن الأمميين تماماً كما استطاع في السابق بدقة كبيرة كشف التروتسكيين، والانتهازيين والرجعيين. كان يملك أنفاً جيداً لكشف هؤلاء الناس.

بعد ذلك تم تقسيم تشيكوسلوفاكيا، بعضهم، تعبيراً عن الغضب، قاموا في منتصف ليل رأس السنة بغناء النشيد الوطني التشيكي. بدأ السلوفاك من جديد. ولم يكن هذا، بالنسبة إلينا بالطبع شيئاً جديداً. نحن هنا على الدوام نبدأ بالأشياء، حيث لدينا في هذا المجال خبرة كبيرة. إننا في الحقيقة أمة من المبتدئين. لا شيء عندنا يستمرطويلاً. من الضروري أن ندوس على السابقين، ونقف من جديد على خط البداية.

بدأنا من جديد في عام 1918، بعد ذلك في عام 1938، وبعدها في عام 1945 من جديد، ثم في 1948، وبعد ذلك في 1968، وبعدها في 1969، ومن جديد بالكامل في عام 1989، بعد ذلك في 1994، ومن جديد في 1994 بعدها في عام 1998 بعد "ميتشار" * (أول رئيس وزراء بعد تقسيم الدولة إلى تشيكيا وسلوفاكيا عام 1998)... مرضنا القوميّ هو الغياب التام للذاكرة. لهذا السبب تعودوا أن يخرج عليهم الأشخاص ذاتهم الذين يؤكدون أن أحدهم قد غير دماغهم. أو أنهم حافظوا على رؤوسهم على ما هي عليه وبدلوا رؤوس الآخرين. كيف حدث.

إننا شعب مُحب من المولودين الأبديين، والرُضع الأبديين – دائمي الشكوى من نفس علل الأطفال، النكاف، الحمى القرمزية، جدري الأطفال، الحصبة الألمانية، وهكذا دواليك. الخشخاشة، وصدرية الأطفال. لا نأكل بأصابعنا! دائماً ومن جديد نتعلم الكلام. دائماً ومن جديد نتعلم المشي.

ولكننا نمسحُ آثار أقدامنا بانتباه كامل.

لقد بدلوا التماثيل في الساحة الرئيسة في "بريجاني" علماً أن المواد الأولية بقيت متشابهة. تمثال"شتيفانيك" البرونزي الذي صنّعه السيد صاحب الاسم غير الآري كان عليه أن يتبدل بنصب "هلينكا" الذي تم تبديله بعد ذلك بنصب "غوتوالد"، بعد ذلك من جديد ولفترة "هلينكا"، وعاد "شتيفانيك" بعد الاحتجاجات من جديد.

انتهى كل شيء حين عرضوه لعملية ترميم طويلة في الورشة ومن ثم انتصبت مكانه في وسط الساحة لوحة إعلانات كبيرة كتب عليها بالأبيض والأزرق: "تسكو 1200 كم" أرسلتك باتجاه المكان الذي تم فيه على عجل بناء ضاحية ملحقة بالمدينة، مدينة الأرواح. بيوت ساكنة فارغة، ظاهرياً مثل البيوت. ألوان فاتحة، سقوف متشابهة، ومروجٍ خالية من حشرة واحدة... غير مضاءة حتى في المساء. كما لو أن أشباحاً مشؤومة وغير معروفة، أو كائنات من أعداء البشرية بَنَتْها – كي يدفعوا الناس بالتدريج إلى خارج العالم.

في أثناء النزهة، في الطريق المنحدر من التلة الموجودة تحت "سلافين" براتيسلافا، انتبهت لخروج "بتر" من القصر حيث التقينا مرة في إحدى الحفلات. توقفت معه لحظة، تبادلنا الحديث على طرف الرصيف.

أخبرني بتعابير حزينة أن الفنان الغرافيكي قد مات بتسمم الكبد، مسكين.

كما "برومثيوس"، جفّ وهو مصلوب على الصخرة - الكبد تهاجم يومياً بكؤوس الفودكا، تضخمت من جديد من الليل حتى الصباح (قال أبي إنها تتجدد بسرعة كبيرة- بالطبع إذا لم تسبقها). انتظر، وانتظر ظهور "أورول" الستين بالمائة، أو ذلك "الصقر" اليومي. قصة حزينة، كرر "بتر".

"ولكن لا شيء، الحياة تستمر."

شرح لي أن زوجة فنان "الغرافيك" لم يكن بوسعها ترك القصر. ابن المالك الأصلي الذي استعادة أثناء رد الملكية، لم يتحمل عب المصاريف. فاشتراه منه لهذا السبب صديق "بتر" - هو أيضاً كان مسؤولاً في "أو في". إنه الآن مقاول مثل غيره من أصدقائه الذين يطلق عليهم اسم الشيوعيين الأرستقراطيين. أولادهم يملكون المال والعلاقات، والمطاعم، ويتسلون.

وصف لي "بتر" بملامح ناعسة، بقاء جميع اللوحات الجميلة والأعمال الغرافيه معلقة على جدران القصر، إذ لم يتغير هناك أي شيء. الأبراج الصغيرة، والسجاد، والصالونات. رتبوا المرسم فقط، الألوان والقواعد، والفراشي رُميت خارجاً. وحولوها إلى غرفة ولائم، وبار.

سيأخذني معه إلى هناك في يوم من الأيام، قال لي. وطلب مني أن أسلم على الوالد، ولكنه سيزوره في أقرب وقت في "بريجاني". لديه الآن أشغال كثيرة. بالتأكيد.

لست حارس أخي - أكدت ذلك من جديد مع "قابيل "

3

"ليوكاديا...!" انزلقت البطانية الصوفية عن ركبتي والدي مما أشعره بالبرد.

"اسمي "ماريا"."

أمنتُ له مربية، كنت أدفع أجرها مناصفة مع "بتر". لم يعد بوسعه البقاء وحده في البيت، إضافة إلى وظيفته المتمثلة في المحافظة على سير أمور البيت الآيل إلى السقوط.

كانت تعرف لغة الشفاه، ولهذا كانت تتفاهم مع أبي الذي كان يقرأ كلامها من خلال شفاهها الجميلة (كانت في الحقيقة رائعة)- حين تتحدث ببطء، ببطء شديد.

حين يبدأ أبي في الكلام، أتخيل في الحال لوحات "غويا". صبية بشعرها الأسود الغامق وثوبها الأسود، تستند إلى طرف السرير المفروش وتتطلع إلى مكان ما خارج اللوحة.

"ماريا" أيضاً، استندت إلى السرير المفروش (إذا نحينا السروال، وتصفيفة الشعر المختلفة جانباً نجدها تشبه العمل الفني كثيراً) وجعلت تتطلع إلى العجوز مالك البيت وهو جالس في الكرسي كي تفهم بالضبط مايريده. اقتربت منه، ورفعت البطانية عن الأرض ولفته بها بعناية، تابعت بعد ذلك عملها في فرش السرير.

"ليوكاديا...!"

"اسمي "ماريا"!". لم تفهم السبب الذي جعله ينسى اسمها مع أنها كتبته له على قطعة ورق تعودت سحبها دائماً، ولكنه لم يتوقف عن ذلك.

أخبرته أن لها ابناً في الثانية عشرة من عمره، علماً أن ذلك لم يظهر عليها. أبي جعل يسمع تلك المعلومة دائماً بالدهشة والاهتمام نفسيهما. ابني يلعب بشكل رائع على الكمان حتى إنه يكسب المال من عمله. يعزف في"بريجاني" أثناء الجنازات وفي الأعراس.

الجنازة تدفع أكثر، أظن أن السبب هو أن الموت أبدي. إنه أفضل استثمار، ولهذا يكون الورثة كرماء.

تخيل أبي أنه سيبدأ حياة جديدة. سوف يبدأ في تعلم الفرنسية، والعزف على البيانو.

"دائماً كنت أريد التعلم. ألا تذكر؟"

" لا ، لا أذكر ،" أجبته

"إنها الآن اللحظة المناسبة، على كل حال لا يوجد عندي ما أفعله"

كنت أهز غير مفهومة أبداً، وأتطلع من النافذة إلى الخارج فقط. عبر شِقي، عبر عين قطتي.

سقطت خلال عدة أيام جميع الأوراق عن الأشجار. اقتلعتها الرياح بالعشرات وفي الحال وصلت الغربان من الشمال، جلست على الأغصان وعلى شرطان الكرم أحدها بجانب الآخر مثل كائنات معتمة مجهولة وغريبة. كانت تطير متثاقلة بين البيوت في الضباب الشاحب. مثل ضيوف مفترضين ضائعين في جنازة بمعاطفهم السود ثم تتمشى بعد ذلك فوق الثلج الحديث والأرض الباردة القاسية المغطاة بالجليد حيث تنقر هنا — وهناك الأرض بحثاً عن الطعام.

بقيت في الحديقة بعض الخُصل الخضراء التي بلعت كل ماهو مُرتب في داخلها. اختلطت الزهور الأخيرة مع الشوك وشجرة البيلسان — تلك، أزهرت ونشرت عطراً رائعاً في الربيع، رمى بعد ذلك على الأرض فضوليون صغار، كرات بنفسجية سوداء صغيرة رخى بعضها جذوره وأطلق أغصاناً صغيرة ملأت الأرض في السنة التالية. يقال إن "يوداش" (كافر لم يؤمن بمعجزات السيد المسيح) شنق نفسه على شجرة البيلسان لشعوره بالذنب. أذناه هنا– وهناك تنمو على ساق شجرة البيلسان القديمة، الفطر اسمه "أذن يوناش" وهو يُشبه الغضروف الطري الكبير حقاً، شحمة الأذن مغطاة بوبر رقيق. كائن أسود غير معروف مُخبأ في الشجرة. يوداش.

راقبت كيف يقوم الدلق (هر بري لاحم) بإعطاء الإشارة مختبأ في العشب الطويل، إنهم يجهزون أنفسهم لمهاجمة خم دجاج الجار.

قام العمال بنقل تلسكوب النجوم الكبير الذي حصلت عليه من القصر السابق للأمير بوصفه أخر قطعة ووضعه على ظهر الشاحنة. لقد غطته طبقة سميكة من الغبار طوال تلك السنين وكنت قد قمت بتنزيلة من السقيفة في مساء اليوم السابق.

إنه أمر لا يُصدق، لأني طوال تلك السنين، لم يخطر ببالي استخدامه والتطلع من خلاله إلى النجوم.

لهذا قمت البارحة مساء بحمله ونقله إلى الشرفة حيث انتظرت لحظة انقشاع الغيم وظهور القمر. ذلك المشهد الرباني "بيب شو"، الثقب الذي يراقبنا أحدهم من خلاله. هذا ما كان "بتر" يكرره أمامي في صغرنا. لقد آمنت بذلك. لقد صدقت كل ما يقوله.

لا يمكنني فعل شيء، لأن لون القمر مع الغيوم المعتمة، ذكرني بوجه، وجه أبي.. لقد بدأ ذلك يغزو دماغي حقاً، حان الوقت للخروج من هنا.

4

المدراء في التلفزيون يتبدلون كما يتبدل القديسون في ساعة "أورلوي" البراغية. يطلُ دائماً أحدهم من النافذة الصغيرة، يكشر مرتين أو ثلاث مرات، ينحني، ويتبدل بواحد آخر. المدير الجديد يحكُ رأسه، يبتسم ويختفي أيضاً. بعد ذلك يأتي الثالث... إنسان عادي، ينسى في الحال سابقيه.

كما لاحظت — بدت تلك الدورة في ذلك البناء المرتفع على الشكل التالي: الحماس التمهيدي المترافق عادة مع التأكيد — جميعكم أغبياء وعاجزون — سأريكم الآن كيف يعمل التلفاز! — يتحول إلى إعجاب، يكتشف المُخلص المأمول بعد شهر عادة أن مقارعة الأساليب القديمة السرية أمر شبه مستحيل مما يدعوه للاستقالة والإصابة بالإحباط — ومن ثم الاعتراف أنه من الضروري كسب شيء وأن السيدة "بومبادور" (عشيقة ملك فرنسا لودفيك الخامس عشر)كانت مُحقة بقولها: من بعدنا الطوفان!.

المخرج المعروف الذي صوّر العشرات من الأفلام، اشتكى في البرنامج التلفزيوني "ميداليون" أنه لاقى الأمرين في النظام السابق وكان ملاحقاً أيضاً.

علق "فويتا" على ذلك أثناء جلوسنا وشربنا لكأسي جعة في "بب" بريجاني بالقول:

أناس كهؤلاء تعودوا بعد ذلك كتابة مذكراتهم التي يتحدثون فيها عن تقززهم من الشيوعيين. نعم، يمكنني تخيلهم حين يعودون إلى بيوتهم

الكبيرة، أو إلى فيلاتهم الأنيقة الموجودة في مركز المدينة بعد الانتهاء من تصوير المشاهد الصعبة حيث يجلسون بعد ذلك لتناول العشاء، وقراءة عناوين الصحف، يتنهدون ويقولون لزوجاتهم:- "هوساك" هذا هو في الحقيقة "عاهر"! ويذهبون بعد ذلك للنوم لأن عليهم في الصباح الباكر الذهاب إلى مكان التصوير. لا أعتقد أنهم اقترفوا خطأً ما، إنهم في واقع الحال يريدون العيش، والعيش برفاهية. لا يوجد في هذا الشيء ما يسيء لهم. إنه طبيعي. ولكنني أتمنى ألا يكتبوا، أو يتحدثوا."

كان هذا الشيء يغلي في داخلي منذ سنوات، ولكني قررت في النهاية فعل شيء مُرتب. لن أقوم بإنتاج تلك النفايات كما فعلت حتى اللحظة – حين تطلعت إلى الوراء، لم أر سوى بعض التجارب الفاشلة.

سأصور فيلماً وثائقياً عن جهاز الأمن حيث سأستجوب فيه الضباط، ومسؤولي العمليات، و العملاء، والموثوقين، ومصادري البيوت، والناس العاديين الذين حطمتهم الحياة.! مع مشاهد من الكاميرات السرية، وما تسجله أجهزة التنصت، والصور – حتى إنني تجمدت أثناء تفكيري في ذلك وفي كل ما سيكون – رغبت أن أكون الأول في هذا العمل.

"يوراي" ابن "فيليب" ابن ابن عمي. بدأ يهتم بتلك الأشياء بوصفه محامياً جديداً. التقيته في ربيع 2002 – سنة واحدة قبل وفاة والدي – للمرة الأولى. لم أكن أعرف في حينها كيف أتحرك، ولا كيف أبدأ، ولكنني كنت بحاجة لمعرفة كل ما يمكنني استخدامه لهذا الغرض.

دوّنتُ بعد الزيارة الثانية، أو الثالثة اسمي في جهاز الحاسوب، ولدهشتي وجدته تحت عنوان ك ت إس (مرشح للتعامل السري). شرح لي "يوراي" أن ذلك يعني وجود أناس يرغبون في التعامل معي، ومن ثم لا داعي للقلق. اسم "بتر ترنوفسكي" لم يكن موجوداً في السجل – حسب "يوراي"، الشيوعيون أصحاب المناصب العالية لا يمكن أن يكونوا مقيدين بشي أو مسجلين. اسم أختي – سلبي. أخيراً جاء اسم أبي. عزوت وجوده هناك بالدرجة الأولى للغز العظم. لم أعرف كيف أتابع.

حاولت إيجاد الأجوبة بكافة الطرق المتاحة، ولو اضطرني ذلك للإمساك بالشّفرة (يستخدمون عادة في الأمثال جملة "الإمساك بالقشة"، ولكن الشّفرة بدت لي في تلك الحالة أكثر ملائمة). ولكن أن أصطدم بالدلالات، هذا ما عليه الظهور في وقت لاحق.

وجدت أمامي: اسم ألفونس ترنوفسكي وبجانبه، عميل سري.

لم أتمكن من النوم في تلك الليلة — حاولت الوصول في الحال إلى ملفاته التي لحسن الحظ (ربما لسوء الحظ) لم تكن قد أُتلفت في عام 1989. لحسن الحظ — لسوء الحظ.

أدركت في الحال أنه لا يحق لي تصوير ذلك الفيلم التسجيلي.

5

بقي "فويتا" معلقاً ومصقولاً في تلك الحياة، وغالباً دون مال. سيارته "الفيات" القديمة توقفت عن احترامه ولهذا بدلها بواحدة مماثلة عن طريق الإعلانات في الصحف مع ملاحظة، أن تكون على الأقل رخيصة ومتحركة. لقد سكن مالك السيارة في أحد البيوت مسبقة الصنع في نهاية حي "دوبرافكا".

جلس "فويتا" على كنبة قديمة مهترئة داخل أكثر غرف الجلوس بساطة في العالم وجعل يراقب الغزال المصنوع من السيراميك الموجود فوق الرف، شعر بالتوتر قليلاً بسبب النظرات غير الواثقة التي سلطتها عليه السيدة الخمسينية في بلوزتها البيضاء وتنورتها البنية، وخصلات شعرها التي غزا الشيب بعضاً منها. حرصتْ أثناء ذلك ألا تتطلع في عينيه. وحين بقيا على صمتهما، لم تعرف ما تفعله بيديها. إذ سُمع من الغرفة المجاورة بعض الحفيف. فأمسك "فويتا" بعصبية فنجان قهوته الذي لم ينتهِ من شربه بعد.

"إنها من سنة 1984، قال الرجل الأصلع بكنزته المتدلية الذي حمل كدسة من الأوراق.

"هاك الأوراق..." بيد مرتجفة عدّل "أذن الحمار" (طرف الورقة) التي كانت تتراقص بعنذ تحت أصابعه، و تعود من جديد إلى وضعيتها السابقة.

"وهذه هي.. وثيقة الفحص الدوري."

ألقى "فويتا" نظرة على الأوراق. الرجل والمرأة تطلعا إليه بريبة. تنهدت المرأة. فرفع عينيه. وضع الرجل الدفتر البرتقالي على الطاولة بتردد، ودفعه باتجاهه.

"لقد دونت هنا جميع... جميع... في الحقيقة كل شيء يتعلق... منذ البداية."

تفحص السيد وجه "فويتا" حين بدأ يتطلع في الدفتر.

اليوم ولدت لنا "يانيتشكا".. 325 كيلومتر . 20.نيسان.. سقط سن "يانكا"... تصليح خزان تبريد المحرك (الكربوراتور)، وتغيير الزيت.. إلى "كوشيتسي" والعودة. تزوجت "يانكا".. هناك بعد ذلك رقم غير مقروء.. لمع في النهاية خط أحمر، دُون تحته بخط مُجعلك عريض "ديدلاين" وتاريخ اليوم.

"لقد عشنا معها أجمل أيام حياتنا..." قال الرجل بنصف صوت. زمتْ المرأة شفتيها، وتطلعت إلى الأرض.

"إذا رغبت يمكنك... يمكنك أن تأخذ هذا أيضاً."

" تريد إعطاءه الدفتر؟! "سألت المرأة بشكل مفاجئ. كانت المرة الأولى التي نطقت فيها بعد دخولي إلى هذا البيت. كان صوتها ضعيفاً ومبحوحاً قليلاً.

تطلعتْ بتمعن في وجه زوجها الذي كان يراقب بعند ذلك الغريب من الإعلان في الصحيفة.

"إذا كان كل شيء، فليكن كل شيء...! قال من وراء كتفي مضيفاً.

وقفا بعد خمس دقائق عند النافذة وراقبا سيارة "شكودوفكا" الحمراء التي خرجت وهي تسعل من موقف السيارات. اختفت بعد ذلك دون رجعة خلف الزاوية. عاد الرجل بخطوات بطيئة مقترباً من الطاولة حيث كانت بانتظارهما هناك ورقة نقدية من فئة الخمسة آلاف.

وقف فيها الجنرال "شتيفانيك" (جنرال فرنسي سلوفاكي الأصل، لم يأخذ حقه بعد استقلال تشيكوسلوفاكيا) دون ابتسامة، يتطلع حالماً في

النجوم البعيدة، والواحات الصحراوية، وبالمحيط اللازوردي البعيد الذي لا نهاية له.

بدأ "فويتا" تحت إلحاح وضغط شديدين من زوجته بالرسم كهاو، وحين لم يرغب في ترك انتاجه لنفسه فقط، نظم معرضاً للوحاته في معابر البناء الذي كان يسكن في أحد بيوته. بقي المعرض ليوم سبت واحد. جئت في اللحظات الأخيرة. فأطلعني "فويتا" برفقة زوجته على المعرض الموجود في الزوايا وعند الأدراج. التقينا هناك بالجيران الذين أثنوا على رسومات "فويتا" ولا سيما تلك التي تُصور الطبيعة والأماكن الهادئة. قلت إن أولئك الناس رائعون حين يعبرون عن دعمهم له بهذه الطريقة . مثلاً تلك السيدة العجوز اللطيفة.

قطبت "زدنا"، الرابعة (والأخيرة) عند "فويتا" جبينها:

"تظنون ذلك؟، لطيفة؟! لقد وشت بعائلة من ثلاثة أشخاص في عام اثنين وثمانين، وتسببت في طردهم من البيت بحجة أن بيتهم المؤلف من أربعة غرف يزيد عن معدل المساحة المسموح به. إنها تسكنه الآن وحدها. ونهاركم سعيد!"

في الطابق الأدنى، وقف عند لوحة الموزة الزرقاء، رجل وبيده آلة تصوير.

"يبدو شبيهاً بمصور محترف."

"لقد أنهك زوجته التي قفزت من النافذة. وأولاده هربوا. مُغتصب. لذا أستغرب أنه جاء إلى هنا."

"جيران من ذهب،" ضحك "فويتا". "هيا إلى بيتنا"

عملت "زدنا" موظفة في حقل الثقافة. تعشق القطط التي كانت تسرح وتمرح في البيت وتنثر الفتات من خلفها. بصورة أدق – قطط من الجنسين. أسماء القطط: فولا، بنكا، وموخا، وذكورها: تسيكر، سوخون، وشنايدر. تسيكر كان أكبرهم، سوخون ضعيف ويمكن القول ناشف. موخا مزعجة وفضولية تلح في طلب الطعام وتطلب مداعبتها وتمسيدها على الدوام. "غالاندا" لم تُعمر طويلاً، جهزوا لها جنازة محترمة تحت الشجرة في الفناء الخلفي للبيت.

تمكن "فويتا" في مرحلة متأخرة من المساعدة على إنجاب طفل. "زدنا" تصغره بخمس وعشرين سنة. قاما بتربية الطفل كقطة جديدة.

"فويتا" و "زدنا" كانا يتعاطيان التدخين بالقرب من النافذة في المطبخ الصيفي الحار. قمصاننا تبللت والتصقت بأجسادنا، سُمع صوت صراخ أطفال من فناء البيت، إذ جلس على النافذة شنايدر مع فولا. لقد حل المساء خلف النوافذ — والطفل كما القطة، نام تقريباً على الدوام في تلك الساعات غير منتظرة. والآن أيضاً.

أحست "زدنا" أنها ملكة الجلسة لذا تحدثت بالتفصيل عن أن الإبداع هو في الحقيقة شرحٌ لكل شيء — التصرفات السيئة، الانغلاق، عدم التواصل، التصرفات الغريبة، كراهية البشر "ميزانتروب"... الأهم هي النتائج. حين لا تكون مُبدعاً، لا يحق لك أن تكون إنساناً غريباً، متعالياً، وعدائياً. تذكرت ابن أحد الموسيقيين الشهيرين الذي تنقصه الموهبة — كلاهما شهيران بهوسهما الرهيب، ولكنني أعذر الوالد لأنه عبقري، أعطى شيئاً من نفسه للناس، شيئاً قوياً جداً و عاطفياً.

"فويتا" يعرف ذلك المونولوج عن ظهر قلب بحيث يمكنه تكراره دون خطأ. وبدلاً من فعل ذلك جعل يبتسم ويصب لي الخمر في كأسي. يبقى الكحول عند الكحولي الأبدي مادة خصبة للحديث — جميع الأشياء الجيدة تشبه النبيذ، من المفروض تقطير ماهو أساسي في كل شيء، أو تخدير أحدهم في كل الأحوال بالسكين. "فويتا" على عكس العديد من زملائه الذين أصبحوا محاربين قديسين ضد زبالة البشرية، كان يحب احتساء الخمر عن طريق الآخرين. وحده لم يكن يلمس النبيذ، ولكنه كان كريماً في سكبه وتشجيع جميع من حوله.

في أسوأ الظروف، حين أمضى أياماً بأكملها مغمساً في الفودكا مثل السُحلية المُشرحة، ترك زوجته في نهاية الأمر وعاد إلى "بريجاني" حيث تعود الجلوس من الصباح حتى المساء في البرج الذي حول مالكه الجديد قسمه الأرضي إلى صالة ألعاب مع كل ما يلزمها من أضواء ملونة،

وغمازات ليمونية تساعد في تحريض اللاعبين الذين فقدوا الأمل في الربح — الآن سيحالفك الحظ أخيراً وتصبح ثرياً، جرب إذاً مرة أخرى، مرة أخرى فقط. إذا لم تقتنص الفرصة ستخسر فرصة حياتك! ستصبح ثرياً بشكل لا يُوصف، تشجع فقط! حاول في أكثر الأوقات استدانة المال من أي إنسان في محيطه حتى إنه وصل إلى دائرة تعدُ بعشرات الكيلومترات.

"أداشو" زفر وتابع "تبدو لي الحياة الآن بلا طعم"

أطلعني على رسالة وصلته منذ مدة قريبة: (فريق الرقابة التابع لنا يراقبك منذ فترة طويلة ويضعك في سجلاته، لقد نبهناك عدة مرات للتوقف عن أعمال الشغب وعدم الانضباط في مخزننا الكبير).

الأمر يتعلق أساساً بتلك المخالفات: قمت 12.5. في الساعة 17.30 بربط جميع ساعات التنبيه، وتثبيتها على وقت محدد 17.40 بحيث إنها رنت جميعها بشكل مفاجئ في الوقت ذاته. حملت في 16.6. من مكان بيع المواد الغذائية زجاجة " كتشب". وسكبتها بكميات كبيرة في دورات المياه من الكابينات وحتى المغاسل. تخبأت في 25.6. في قسم ثياب السيدات بين المشاذب وصرخت في وجه السيدات أثناء اختيارهن للمعاطف: خذوني أيضاً معكم...! مسحت وجهك باللبن، وأكدت لعاملة الصندوق رقم 12 أن ذلك مجرد كريم لعلاج البسوريازا. وقمت عن عمد بوساطة سيجارة مشتعلة بإطلاق صفارة إنذار الحريق في مستودع التكنولوجيا البيضاء الذي دخلته دون إذن.

وبما أنك، بالرغم من تنبيهات حرسنا الموجود في المخزن الكبير، لم تتوقف عن تلك الأعمال التي تعزوها لزوجتك التي تُجبرك على مرافقتها للتبضع، وأن ذلك يُشعرك بالملل، توصلنا إلى القرار التالي: يُحظر عليكما الدخول إلى أماكن البيع في مؤسستنا لمدة عام كامل وهذا القرار غير قابل للطعن.

لم يأخذ "فويتا" مرضه الصعب على محمل الجد كما أنه لم يول اهتماماً يُذكر لسعاله الشديد، وكأنه حتى لم يشعر بالألم، ولا أتحدث هنا عن القشع المُدمى والربو. رأت والدته السيدة "ناتاليا" أن الأطباء

يبالغون في الحذر، وأنهم مفرطون في عدم الوضوح، وعديمو الفائدة – ولهذا اقترحت الحل.

ظهرت من جديد على المسرح اكتشافاتها القديمة – العجوز، ولكن الجميل والمحافظ على أناقته "رهور كوهوت" في بزته البيضاء الراقية مع قميصه الكريم والصدرية. يدخل إلى بيت "فويتا" في حذائه المُبوّز مستنداً إلى عصاه.

صوره تنتشر في الإعلانات المُلونة الموجودة في مجلات الشوارع العريضة مع غمزات عينيه، ويديه المتوجهتين براحتيهما نحو القراء – أثناء العلاج عن بعد عليهم مراقبتها. كان عادة يتحرك أثناء اللقاء المباشر بملامح جدية وتركيز كبير في الوجه فوق الشخصية المُستلقية. يضع يده بعد ذلك فوق الشمعة ليرينا أن راحة اليد سوداء بأكملها. بهذه الطريقة كان يُخلص الناس من الطاقة السيئة. اهتم أيضاً بتزامن "تشاكر" * (طريقة تعبد هندية) كما أطلع المهتمين على الحاسوب المُصغر الذي أوصل نهاياته بأجسادهم. وأكد أنه تمكن بهذه الطريقة من معالجة البواسير عند أحد الرجال – فاختفت خلال عدة أيام. والجهاز الآخر حسب قوله قاموا بتطويره في وكالة "ناسا"، وهو أيضاً مجهز بألكترونين يحدثان صفيراً إذا ألصقا بالجسم ومن ثم يُنبهان إلى مكان المرض.

"لقد كشف لأحدهم الجلطة القلبية بهذه الطريقة، القرحة المعدية، السكري، والتصلب اللويحي – إنه جهاز رائع!" قالت لـ "فويتا" أمه بالهاتف.

"أليس غباء؟"

"إنني أصدقه، وهو في الواقع مُهندس! لقد أخبرني بذلك"

"حقا؟"

"إنه يعمل في الخارج. رقم هاتفه سري، يعطيه للزبائن المختارين فقط، ومع ذلك فإنه يرفع السماعة بعد خمسة أو ستة اتصالات. من الصعب الوصول إليه، ولكني نجحت في ذلك! قال إنه يتذكرني من أيام ما قبل الحرب."

استمع "رهور كوهوت" إلى "فويتا" وجسّهُ. أخرج علبة تحتوي على حبيبات ناعمة من الحقيبة الراقية المصنوعة من جلد التمساح. شرح بأن هذا "الوسيط" على الرغم من سعره البالغ ثمانية آلاف كورون، إلا أنه مصنوع من الأعشاب المصرية النادرة.

عنده البراهين أيضاً — لقد عالج به أحد مرضى السرطان من الذين فقدوا الأمل. ووصَفَ الانتقالات، وكومة من الأدوية القوية، ومع أن الأطباء لم يعطوه أي أمل. فجاء إليه بهذا العلاج وحصل على الشفاء الكامل.

اشترى "فويتا" الحبوب. وأنفق عليها كل ما يملكه.

كشف له أحدهم بعد ذلك أن السيد "كوهوت" غالباً ما يزور المحرقة، ويهتم بمحتوى بقايا الجرات التي لم يأخذها أهالي الموتى.

لقد قرأت في تلك الأثناء بحرارة نسخة من ملف والدي. ورغبتُ في ذلك الوقت، في المطبخ الصيفي، و "بنكا" في حضني، وبعد شرب ليتر من النبيذ أطلع "فويتا" على كل شيء. وأخبره بشيء نبيل أسميته الحقيقة عن والدي، علما — أنني اكتشفت في وقت لاحق أن الأشياء لا يمكنها أن تكون عادة بيضاء أو سوداء.

ولكن "زدنا" لم تتوقف عن الحديث المتعلق بالفن والجينات، وعن التصرفات والأعمال الفنية — وأنا لم أجد في نفسي الشجاعة. فرميتُ أثناء سفراتي إلى المرحاض قطعة النقد، ولكنها كانت دائماً تقع على الشعار "الرمز". لا. لا. لا. رغبت في فعل ذلك. وانتظرت الرقم الغبي، انتظرت نعم — ولكن دون فائدة. بدا لي الأمر لا يُصدق.

أطفأت بعد ذلك "زدنا" لفافة تبغها الخامسة والعشرين بعد المائة، وذهبتْ لرؤية الطفل الذي استيقظ في منتصف الليل وبدأ يبكي.

في تلك الأثناء قلت كل شيء، كلامي ربما أوقف تنفس "فويتا"، ولكنه خفف من وقع الأمر برمته. شرح لي أنه يتفهم كل شيء، وأنه هو أيضاً عاش تلك الأحداث، وبأنني سأبقى أعز صديق، وبأن ذلك ليس ذنباً متوارثاً.

عند طلوع الفجر وأثناء توديعي، ضمني إلى صدره.

وجدنا في وقت ما بعد الحرب في قصر "بريجاني" قطعتي "أونيكس" من حَلق الأميرة. أخذ كل منا قطعة. تعاهدنا في وقت ما وفي لحظة خداع رومانسية، وبوصفنا أطفالاً وأصدقاء، على أنه إذا أراد أحدنا ترك الثاني فعليه أن يكبس حجرته في كف الثاني.

بعد أسبوع، وبشكل غير متوقع رَنَّ "فويتا" جرس باب بيتي. حين فتحت، لم يقل شيئاً، أعطاني بصمت قطعة "الأونيكس" وغادر. رأيته في ذلك اليوم للمرة الأخيرة.

مات بعد شهرين من سرطان الرئة.

جلستُ قبل مدة في المقهى الموجود في مركز براتيسلافا، فانتبهت فجأة لوجود وجه أعرفه بين أناس فرحين جعلوا يتحاورون حول آخر مشترياتهم وحول المستجدات في العمل. لم أعرف أين أصنف هذا الإنسان في الحال. متقاعد سعيد، ومبحبح في بزة أنيقة، ونظارات على عينيه... تحدث مع النادلة وهو يبتسم. طلب قطعة كاتو، وأثنى على طعم القهوة... أُعجب أيضاً برائحة بارفانها، وقدره حق تقدير. وترك لها بقشيشاً دسماً.

مشهد آخر — ولكنني هنا تذكرت: الجنرال المتقاعد، أهم رجل في سلك الأمن السري قبل الثورة المُخملية، إنه صاحب سلطة كبيرة. ولا أحد ينتقده، يبتسم في ذلك اليوم المُشمس، يُحيي معارفه الذين يلتقيهم في الشارع. مقاول ناجح، ثري جداً، وصاحب نفوذ.

يتمشى سعيداً في نزلة الطريق. والشمس تُسلط أشعتها عليه.

الفصل الثامن

لا ليوكاديا

1

تُذكرني "لا ليوكاديا" في لوحات "غويا" دائماً بالموت الذي يستند إلى السرير في ثيابه السوداء. كأنه ينتظر اللحظة التي يُنهي فيها الإنسان عمله ، كي يلتمس الدفء بجانبه بعد ذلك بحنان: لدينا ما نتحدث به يا عزيزي!

كل ساعة في هذا البيت تشير إلى وقت مختلف.

علماً أنه لم يبق عند والدي سوى وقت واحد. انسكب في كتلة غير محددة المعالم، لا وجود فيها للماضي، والحاضر والمستقبل، حدث كل شيء دفعة واحدة.

أين إس إس (وحدات الهجوم الخاصة) — قائد الهجوم الرئيس أطلس؟ علينا في الحال إجراء عملية للكابتن "روشكا"!

ابتسم "موناكو" من الزاوية المظلمة: إنني مجرد موظف عادي، حلقة صغيرة في النظام، ولا شأن لي بهذه الأشياء، ولكن يمكنني إسداء النصيحة.

همس "بوشكار" في أذنه من الخلف بطريقة لا يراه فيها:

إله الحب تكرم عليّ بامرأة...

أصبح بيتنا يمثل عندي خليطاً من الجحيم، و مشفى المجانين مما جعلني أكره الحضور إلى هنا. عادة كنت أحسُ بقلق قوي من السقوط والدمار لأن الخراب يمكن أن يستمر إلى الأبد.

سمعت أنك وقعت البارحة، قالت "ماريا".

نعم، وقعت، ولكن ذلك قد حصل في "نترا ".

ولكنك لم تكن في "نترا".

حدث ذلك منذ زمن طويل.

أها، واضح.

بدأ أبي بعد ذلك بالهروب دون سبب.

اضطررت للتفكير دائماً للحظة، أين يمكنني البحث عنه. حسب ما قاله في اليوم السابق وما تذكره. خفتُ عليه كما أخاف على طفل صغير خشية ألا يقوم بتصرف ما، وكي لا يحدث له مكروه.

مرة وجدته في المدينة في المكان نفسه الذي كان فيه بيت "فويتا". تمشى في وسط شارع يكتظ بالسيارات التي جعل أصحابها يزمرون له، وهو في برنس الحمام.

اكتشفتُ مكانه في مرة أخرى وسط الليل. طُفت بالسيارة في جميع أرجاء "بريجاني" ولكنني لم أعثر عليه. كدتُ أفقد الأمل — حين لمحته يتمشى على الرصيف أمام فندق "زلاتي يلن" الذي فقد بشكل نهائي شكله الأساسي. توقفت بسرعة، وهرعتُ مسرعاً نحوه.

"أبي أين كنت؟!"

"أين أكون؟ إنني أتنزه"

حينها انفجرت، أمسكت يده بقوة، وسحبته إلى السيارة. ودفعته إلى داخلها حين رفض الدخول. أسفت بعد ذلك لحاله، وشعرت بالذنب. منذ ذلك الحين توقفنا عن الحديث بلغة مشتركة.

لم أعد أتحمل، "ماريا" لم تعد موجودة في المشهد حين سقط على الدرج. أصيب بكسور متعددة في مناطق مختلفة. وأصبح بحاجة إلى عناية طبية يومية. فأُجبر على الذهاب إلى المصح.

2

التسلية الوحيدة في تلك الأيام التي لا نهاية لها والغارقة في الزمن تتمثل في المدعوة "ياكسافولاتشكا"(ما اسمك بالعربية) — الجميع هناك يندهون

عليها بهذا الاسم؛ لأن الأسماء سقطت بشكل كامل من ذاكرتها، تبخرت، وضاعت — حين تريد الحديث عن أحدهم، تقول ذاك "ياكسافولاك، أو تلك ياكسافولاتشكا" المدعو أو المدعوة. كانت تطير في معابر المصح مثل المجنونة، وتفتح أبواب الغرف وتسأل دائماً عن أشياء مختلفة.

حين جئت مرة لزيارة والدي، ووجدته جالساً على الكرسي ببيجامة المشفى في حمام المصح الذي غطيت حيطانه بالبورسلان حيث انتظر هناك بكتفين مرفوعين، ووجه شمعي، بدا لي مثل الميت. فلم يبق فيه سوى قطعة صغيرة من الحياة.

كانوا يقصون له شعره الأشعث. "سامسون" (شمشون) (البطل، قصّت له دليلة شعره كي تقضي على قوته) الذي مثله فقد القوة.

عيناي تدمعان كثيراً في الفترة الأخيرة.

إنك تبكي يا أبي...

لم يكن يزوره أحد سواي، البقية كانوا على الدوام يجدون الأعذار لعدم حضورهم أو بسبب ضيق الوقت.

سارت في الشارع، أمام المصح مسيرة أليغورية (تصويرية). تحول يوم أوروبا في ساحة "بريجاني" الرئيسة وفي المناطق القريبة إلى عيد من القرون الوسطى. قبل شهر، وافق برلمان أوروبا على قبول عضوية سلوفاكيا في الاتحاد الأوروبي، ولهذا السبب رغب ممثلو المدينة في فعل شيء غير عادي.

تمشت الشخوص على سيقان خشبية طويلة على وقع موسيقى درامية. وسُمعت أصوات الطبول، والصفارات وآلات الفلوت. وظهرت في النوافذ المقابلة أشكال قبيحة مُقنعة. المثلون جعلوا يتعرقون كثيراً تحت ثيابهم التنكرية.

تمخض عن صباح ابتدأ بالمطر، يوم مشمس رائع. الناس جلسوا في المقاهي، وتمشوا في الطرقات، وتوقفوا، وتحادثوا مع غيرهم، تمتعوا، وعاشوا.

سار "قابض الأرواح" بعباءته السوداء مع غطاء الرأس في نهاية الموكب وبيده الحصادة.

نوافذ غرفة والدي في الطابق الأول تُطل على الشارع. مَدّ "قابض الأرواح" رأسه إلى الداخل، تماماً كما يحصل في الحلم القديم.

كانوا يُربون في المصح قطاً أطلقوا عليه اسم "هرمي". كان يُمضي عادة مُعظم وقته بالقرب من المطبخ حيث يتسكع حول الطناجر الموجودة خلف الباب الخلفي. تميز هذا القط بعادة غريبة تمثلت في التصاقة التماساً للدفء وتودده بمن اقتربت نهايتهم.

التقطت مرة في المعبر قسماً من حوار. امرأة في ثياب غامقة تسأل: "كم من الوقت سيتحمل؟"

"حسب "هرمي" عدة ساعات في أبعد تقدير! همهم المُمرض من وراء الكتف.

"تقول حسب "هرمي"؟ أي هرمي؟!"

"باختصار... لن يطول الأمر. يؤسفني ذلك"

قفز "هرمي" عند بزوغ الفجر على سرير والدي وارتمى مباشرة عند قدميه. بعد ذلك – بعد ساعات – اقترب من رأسه وانزلق تحت لحاف الريش. فلم تظهر منه سوى خرخرته الضعيفه، وأنفه الرمادي.

"ياكسافولاتشكا" جعلت تعُدُ وتُصلي كما لو أنها تمسك السبحة. استخدمت بدلاً منها غطاء علبة التلفاز المصنوع من النايلون المُدبب (فقاعات هوائية) الذي جعل يطقطق تحت أصابعها، فلم تجد بين يديها شيئاً أفضل.

أبانا الذي في السماوات ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك في السماء كما في الأرض. أعطنا خبزنا كفاف يومنا، واغفر لنا ذنوبنا وخطايانا، كما نحن نغفر لمن أساء إلينا، ولا تدخلنا في التجارب، لكن نجنا من الشرير.... آمين!

فجأة تحسن سمعُ والدي، طقطقة فقاعات البلاستيك تماماً كما يتفجر القلب بشكل مفاجئ. تشوشت عنده الرؤيا.

عند الطقة الأخيرة، مات.

لا بأس — أتخيل الأمر بهذا الشكل. لا أريد رؤية حالة النزاع، وسكرات الموت، والمخلفات السائلة للجسد التي لا بد أن تترافق مع ذلك الحدث. لا أريد رؤيتها. لا أرها.

عوضاً عنها، أتابع المشاهد التي تُعبر مجازياً عن الأشياء في المسيرات التي تعبر المدينة. مشهد "قابض الأرواح" وهو يتمشى على سيقانه الخشبية الطويلة، بعباءته الطويلة السوداء حيث يُلوحُ متحدياً بحصادته اليدوية الطويلة الطنانة.

الناس يجلسون في المقاهي، ويتمشون في الطرقات، يتوقفون، ويراقبون.

3

شربتُ في ذلك المساء حتى الثمالة في البرج. لم أتمكن من منع ذلك. أتذكر كيف بدأت أصرخ وأغني عند منتصف الليل:

"الجميع الآن! على برج "بريجاني"، تناكحوا، تناكحوا ساعتين، واستمروا في نشاطكم! هيا بنا!"

تغيرت الحانة — وتبدلت أغطية الطاولات بنايلون مُلون، والموسيقى التشيكية بـ"هارد روك"، والمقاعد الخشبية المُلونة تبدلت بأخرى رديئة أيضاً.

اقترب مني "أولغ" بن "موناكو" الأصغر: "هل تعرف" ماجدا لفندوفسكا"؟ ابنتها تزوجت من أفريقي. أتمشى في الطريق وأرى — زنجياً! أسود يلمعُ مثل الحذاء!"

رفعت كتفي، وسكبت في جسمي قدح فودكا، لم أحسب عددها. أحسست بالمطارق تدق رأسي.

تابع "أولغ": "إنني في الحقيقة فضولي، أي يهودي سوف يتسلم تلك الـ"سلوفلينا" حين سيغلقونها!

ربتُ على كتفه: "يجب أن أذهب يا "أولينو"."

كان بانتظاري منزل خال وساكن. أشعلت في المطبخ رأس الطباخ الغازي، ووضعت يدي في الشعلة إلى أن احترق الجلد.

استيقظت في الصباح على ألم في الرأس إضافة إلى الحرق — كل هذا أنقذه صديقي "نوكسا" — تفحصت ثياب والدي الموجودة في الدولاب واتخذت قراري. بزته الكريم المُحببة إليه، إضافة إلى قميص أبيض، وربطة عنق غامقة ومعهم جوارب سوداء.

حلمتُ في ليلة ما قبل الجنازة أننا " نسينا" والدي في غرفته — وبأنه لا يزال نائماً هناك تحت تأثير المهدئات. وكنت قد أمضيت عدة أيام دون أن أدخل إلى هناك، كان عليّ أن أذهب لتفقده. شعرت بغصة في مكان من معدتي وحين أفقت من نومي بشكل مفاجئ فتحت عينيّ مذعوراً في الظُلمة.

الموت (أثناء النوم) هو شكل من أشكال النسيان. فكرة تستحق التوقف عندها.

وصلت في وقت مبكر قليلاً مع "إنجريد" إلى صالة الحرق.

قطة مبقعة نبشت التراب وبوّلت بالقرب من القبر، وأخرى تابعتها أثناء ذلك. وُضعت فوق القبر المصنوع من المرمر آلات النفخ الموسيقية مع دفاتر النوتات التي تركها هناك موسيقيو مصلحة الدفن. جلسوا والعرق يتصبب منهم على حافته وجعلوا يُدخنون.

جرت مراسم الدفن في الداخل.

استمعت "إنجا". "إنها أغنية جميلة!"

صدح صوت "إلفيس" في الصالة " Always on my mind.

الميت يُغني للميت.

حضر الجنازة تقريباً جميع الأقرباء الأحياء، عملتُ ما بوسعي كي يعرفوا عن الجنازة. كتبت، واتصلتُ هاتفياً، والنتيجة كانت ذلك التجمع العصافيري. "بوني" سند جدته، أمنا التي بدت لها الأدراج حادة جداً. حضرت "تينا" مع "ترفور" و "جيني" من لندن. وصل من إسرائيل العم "أوسكار" مع عمتي الجديدة "روزكا"— التي رافقتهُ بعد ذلك لزيارة جميع زوايا "بريجاني" حيث بحث عن "الكنيس" السري الذي ساهم فيما مضى بهدمه بسبب كلماته. أحفاده بقلنسواتهم على رؤوسهم، لم يتقنوا

السلوفاكية.كانوا يزورون طوال الوقت ويقولون، يا لها من فكرة غبية، أن نجيء إلى هذا الطقس البارد. وقف "بتر" مع عائلته. وكانت ملامح وجهه مفرطة في الجدية، ومثله وقف "رودوف" ابن "فيليب" مع زوجته وأولاده — دائماً حين أتطلع في وجه "يوراي" ينتابني شعور غريب لأنه هو في الحقيقة من ساعدني على إخراج الهيكل العظمي العائلي من الخزانة. أتمنى لو أنه تركه لنفسه. فقد كان الأولاد يلعبون ويركضون من حولنا.

حين دوت أغنية البدء، تحرك موظف المراسم ببطء. حضّرت له بعناية فائقة كلمة الوداع، ولكنه أضاف إليها شيئاً من عنده، عبارات رديئة تثير الشفقة مما جعلني بيني وبين نفسي أطلب السماح من والدي.

ابن أخي "فرو" الذي رأى النور في السن الخريفي لـ"بتر"، اخترق الحشد واقترب من "بوني". بدا فرحاً لأنه التقى أحدهم من أولئك الذين يعرفهم قليلاً.

"بوني" مال نحوه وهمس في أذنه: "أخبرني، كيف حالك؟"

"أقوم بتطوير معجم لأحد مقاسم الهاتف الجوال."

"ماذا...؟"

"نعم...كي تتمكن من كتابة رسالة نصية "أس ام إس" تحتاج إما لنقر كل حرف على حده، أو استخدام معجم ت9، بحيث إنك حين تبدأ في الكتابة، يُعرض عليك الحل. يحتوي على ما يقارب عشرة آلاف كلمة، كما يمكنك إضافة كلمات أخرى. إنها في واقع الحال أكثر الكلمات استخداماً مع الصوت. أقوم الآن بالتنبؤ بكتابات للهاتف الجوال الذي حسب الإحصاءات يستخدمه كبار السن. توجد هناك كلمات مثل: أكدح، ناكر للجميل، مُفسد، شباب، الأم، غجري، أبو مخطة، مجري، متشارد... (رئيس وزراء سلوفاكيا بعد انفصال الدولتين)

كشّر قليلاً. "عندي للشباب خزان مختلف من الكلمات: الحب، الموسيقى، الجنس، المدرسة، الواقي الذكري، المثلي، المزج..."

"إنك تمزح!"

"على الإطلاق."

"اصمتوا، أيها الصبية!" هسهس العم "أوسكار" بحدة.

تمعن "بوني" في ثياب "فرو" التي بدا كأنه غارق فيها. انتبه "فرو" إلى نظراته.

"أزور مخازن رقص الهب- هوب. تلك السترة أكبر بأربعة أرقام!"

نزلت جثة والدي إلى أجهزة المحرقة على أنغام "غرشوين" التي أدتها "أرتا فرانكلين". ميَّل "فرو" رأسه بذاك الاتجاه:

"تعرف... إنني في الحقيقة لا أعرفه على الإطلاق."

شهقت "تينا"، أمي تصرفت كأنها غير موجودة — جعلكتْ المنديل في يدها، ومسحت دموعها الغائبة أصلاً. الأولاد يتسلون، وأهاليهم يؤنبونهم همساً.

لم يذرف الدمع حقيقة سوى الناس الذين لم أعرفهم على الإطلاق. من "بريجاني" من الأوقات السابقة. و ابن "فويتا" الثاني "سباستيان" الذي كانوا يسمونه "باستي".

حفلة ما بعد الجنازة أقمناها مباشرة في البيت. نقلنا الصوفا من الصالون مع الكراسي الوثيرة، وفرشنا طاولة طويلة. أمَّن "بتر" بعض المأكولات والمشروبات من مطعم فندق "زلاتي يلن". المدير زميله من المدرسة الابتدائية.

جلس ابن عمي "صموئيل" بجانبي في الحال. وتذكرنا سدَ الشبيبة، ولكن بطريقتين مختلفتين، وكما لو أن كل واحد فينا في ذلك الوقت سكن عالماً آخراً. وهذا في الحقيقة ما كان حاصلاً. لقد نسي بالتمام تلك التفاصيل عن ذلك اللون الأحمر القاني — وأنا من جهتي لم أُذكره فيه. أخ نعم، تلك الأوقات الذهبية من شبابنا الغريب!

بدأت كبرى حفيداته بزيارة معهد الرقص في "يافا" — صبية رائعة الجمال بشعر صدئ، وقوام متناسق كما أكدت الصورة الفوتوغرافية. اعترفتْ له منذ فترة قصيرة أنها تكسب المال من التعري في أحد النوادي الليلية.

"على الأقل، أخبرتني، وهي لا تفعل شيئاً أكثر. تصورا!"

الحفيد يدرس "الغرافيك" (فن النقش)، قال. هادئ، جميل الوجه، يدرس بشكل جيد جداً، انطوائي، بلا صديقات، دائم اللعب مع الصور — إنه عالمه الوحيد. نسي مرة على الطاولة إحدى الصور المنسوخة من الحاسوب. وقف فيها "سانتا كلاوس" بمحاذاة الجدار رافعاً معطفه وقد لاحت على وجهه علامات المتعة — ووقفت أمامه مومس جعلت تفعلها معه بفمها.

"هذا الشيء لم يكن موجوداً في أيامنا!"

"هل تتحدث عن الحاسوب، معك حق."

"ولكن لا، تعرف جيداً، ما أريد الإشارة إليه."

" الجنس الفموي على حد علمي كان موجوداً في زماننا."

"اسمع، أداشو — تلك الانحرافات التي نراها اليوم، لم تكن واردة في أيامنا! عليك أن تعترف!"

"التعري طقسٌ مغرق في القدم، وهو مثلنا، وهذا الذي نراه اليوم، وتقوم به السيدة في الصورة التي وصفتها لي، مارسه الرومان القدماء. ولكني أفهم — حين سيكبر "بن" و"استر" سوف يقولون ذات الشيء عن أحفادهم."

جاء هذا الكلام مطابقاً تماماً لمنولوج "فرو" الذي سمعته بنصف أذن — إذ قال في تلك اللحظة لـ"بوني" إنه اشترى كرسياً شفافاً صمم خصيصاً. تناولت صديقته قبل يومين على الفطور "موسلي" وجلست عليه. استلقى على الأرض، وجعل يراقب شعر عانتها المقصوص بعناية، بينما التصقت نصف مؤخرتها وجلدها في الكرسي لأن الصديقة قد خرجت للتو من تحت الدوش. تخيلت للحظة ذلك المشهد المُغري.

قاطعني ابن عمي "فيليب" الذي حاول مع زوجته "فيرونيكا" الوصول إلى مكانه حيث توجد قطعة الحلوى التي لم يُكمل أكلها.

"ما أروعك، وأنت تُمسكها من يدها."

"إنني أسندها كي لا تسقط فقط،" أجابني.

أمي كانت تستخدم كومة كبيرة من الأدوية التي وصفها الطبيب. لعبتها المُفضلة مروراً من الرأس — الكتف— الركبة – الكتف التي تشتكي منها، بدأت تأخذ طابعاً حقيقياً. كنت أراقبها كل لحظة.

"هل أخذت الكبسولات؟"

"أخذتها."

"وما هذا؟"

تصرفت مثل طفلة صغيرة غير مؤدبة. الكبسولات لفتها بمنديل الطاولة الورقي، وأخفتها في جارور كومودينة غرفة النوم الموجودة بجانب السرير. رفضت تناولها، وحسب زعمها، لا تشعر بالتحسن بعد أخذها كما أنها وجدت العديد من الذرائع. ولكن حبوب كساناكس، ونورول على العكس لم تزعجها. فقد كانت مدمنة عليها وتأخذها من صيدليتها.

أراها من جديد على الطريق الضيق المغطى بالحجارة الصغيرة الذي يؤدي إلى الكنيسة الدومينيكانية، تتمشى بعزيمة متعكزة على عصاها لتشارك في القداس على روح الفقيد. لم تعرف كيف وصلت إلى لحظة الانتقام الرائعة من جميع الأخطاء الحقيقية والظالمة. فهي تتخيل ملامح وجه أبي في وجوه الملائكة الساقطين.

أراها واقفة في حديقة منزلنا في لحظة الغروب بشعرها المنكوش الأبيض الذي بسبب عدم الانتباه أثناء الصبغة، أخذ ظلاً بنفسجياً، وتحت قدميها، تحترق مؤلفات دوستيوفسكي، رامبو، و تاتسيت التي كانت تُحرك أوراقها بالمعول كي تحترق بشكل أفضل.

هل تسعل؟

تسعل. إنه مساء من شهر أيار البارد على غير عادة.

مجموعة والدي من الأسطوانات قام بنقلها قبل الظهيرة أحد التجار الذي اشتراها.

بقيت في المطبخ الثلاجة بورقها. جميلة وبيضاء. رمز الحياة الجديدة.

4

دائماً كنت أهرب من هذا البيت، سقط مني القلق الذي بدأت أدركه حين توقف، ثم عاد من جديد أثناء اقترابي من البيت، وكأن شيئاً غامضاً ومعتماً عشعش في الحيطان.

قام الغجر بعد موت والدي ووالدتي بنهب البيت، ولكنهم لم يتمكنوا من أخذ الفرن الثقيل الذي استخدمه جدي "ألبرت". بدأت تُمطر، لذا تركوه. فاضطررنا لحمله ونقله عبر الحديقة بأكملها إلى الداخل. بالطريقة نفسها، تركوا مُكبر النجوم. إذ أخذوه بداية، ولكنهم لم يعرفوا ماذا يفعلون به — لا زجاج ولا حديد.

قام عمال النقل بتثبيته بعناية على ظهر ناقلة "آفيا". سألوني عما إذا كان هذا كل شيء، أجبتهم بنعم.

كان بإمكاني الذهاب معهم إلى براتيسلافا، ولكني رغبت في البقاء هنا حتى النهاية.

حسب المخططات التي رأيتها مباشرة بعد وفاة أمي، وضع هذا المكان ضمن خطة إنشاء تحويلة للوصول إلى الطريق الدولي. سحبني "بتر" أثناء حفلة وداع أمي إلى الغرفة المجاورة حيث كانت "تينا" بانتظارنا، وقال، علينا أن نتخلص بسرعة من هذا البيت.

بعد شهر ذهبت لزيارته في بيته الريفي في "تشرني بالوج". رغبت في أن أتفق معه، وإقناعه أيضاً، ولكن "بتر" كان قد اتخذ القرار. قال إننا سوف نحصل على أرض كتعويض عن أرضنا في مكان ما من "سالينا" تحت التلة. عرفت بعد ذلك أنني لا أملك أية براهين على ما أريده. باستثناء الحنين الغريب الذي عصف بي بشكل مفاجئ.

"الماضي هو الماضي، أداشو- لهذا ستكون الصور كافية لك "قال لي وهو يبتسم.

برز فوق رأسه بعنفوان كبير شعار سلوفاكيا المنقوش بعناية على خشب الزيزفون. اضطررت لمديحه قسراً ، لأننا خطونا إلى الداخل.

قام "بتر" ببناء بيته الريفي كنسخة مطابقة للبيت الخشبي في "أورافا" — ولكنه مرميٌ على مسافة منه، تحت "بولانا"، ومن وجهة نظر القمر الصناعي في المكان الصحيح، وهذه حقيقة. أحفاد "بتر" يتشاقون بمؤخرات عارية وعيون بنية في الحديقة. لم يعرفوا شيئاً بعدُ عن أنفسهم،

ولا عن العالم، وهذا ما حسدتهم عليه. صرخوا ورش أحدهم الماء على الآخر في المسبح المصنوع من البلاستيك، ولم يتوقفوا لحظة عن مناداة جدهم.

"لماذا تفعل ذلك؟ اتركه لي! كفى. جدي، جدي، إنه يأخذه مني!"

"لقد تعلموا ذلك من مسلسلات المحطة الفضائية،" شرح، ثم صرخ بهم كي يتوقفوا.

"أنا هنا الآن وكأني غير موجود، لقد أخبرتك بذلك! أعده له، هل سمعت؟!

"حسناً، جميل! سأعطيك عصير برتقال "جوس". بعد لحظات، جيد؟"

"سأقتلك! سأقتلك!"

"تعال إلى هنا، أنشد لعمك نشيدنا الوطني. تعال!"

شعر الصبي "شون" بالخجل قليلاً، ولكنه انطلق في النهاية:

" أين وطني، أين وطني... !"

"لقد تعلمه من مباريات الهوكي" قال "بتر" وضربه مُحذراً على إليته العارية. الصبي بدأ يبكي. شعر بالإهانة، تركنا، وهرع مسرعاً.

بقينا صامتين. فكرت في ما يمكنني قوله. لقد جئت إلى هنا دون فائدة. أدركت هكذا على الماشي أني أجلس في غرفة ملأى بالحيوانات المقتولة. عُلقت الغنائم على الجدران – الجلود، الأيل، الغزلان، والغزلات. الجماجم، القرون، والرؤوس المحشوة مع الأسماء. غالبيتها قام "بتر" باصطيادها حين كان يُشارك في حفلات الصيد الرفاقية.

بينها صورة كبيرة يقوم فيها "بتر" بمعانقة بريجنيف. انتبه إلى أين أتطلع، وابتسم: "أرأيت في أي فترة مجنونة كنا نعيش؟"

أحدهم دق الجرس في تلك اللحظة. أحضر حارس الطرائد لـ "بتر" خنزيراً صغيراً برياً، "لانشتاك" ابن السنة. دعاه "بتر" للجلوس معنا، وتناول قدح "سليفوفتسي". شعرت أنه يريد هزي لأن نقاشنا بدا له غير مريح. ولكني بقيتُ بالرغم من ذلك، وجعلت أفكر طوال الوقت بالطريقة التي يمكنني فيها إقناعه.

لايُمكنك دحري لأني قديسُ الحقيقة! هذا البرهان كنت أستخدمه أثناء معاركنا الطفولية بوصفه الغنيمة النهائية، ولكنه باء بالفشل في هذه المرة.

استسلمتُ حين بدؤوا في مناقشة تفاصيل "فاترا" الكبيرة، والاستقلال في السابع عشر من تموز. دعا "بتر" إلى الاحتفال مجموعة من الأصدقاء من براتيسلافا، وشغل رأسه بالمكان الذي سيضع فيه "يوجكو" هوميره.

حين رافقني وكان ساكناً، همس قائلاً بأنه يكتب مذكراته، وسيتصل بي في أقرب وقت لأن بعض التفاصيل غابت عن ذهنه.

"في أقرب وقت،" أومأ لي برأسه.

رغبت في أن أقترح عليه أن الجملة الأولى يُمكنها أن تكون: بداية، كانت السماء وبعدها الأرض!

5

عاد مستوى النهر بعد الطوفان الأخير إلى سابق عهده، امتلأ حوضه من جديد. حلقوا أثناء التنظيم حوافه وقلعوا جميع الأعشاب. يبدو الآن جميلاً أخضر بدغله، وبأشجار الحور والصفصاف. امتلأت المنطقة بأشجار البيلسان والدردار.

أتنزه ببطء على حافة النهر إلى أن وصلت إلى المركز المنطقي في "فولوفتس" الموجود في مكان كروم الأمير السابقة بطرقاتها الصغيرة المحنية التي كانت تُنتج حتى عام 1920 "شاتو سالفا". أستدير، وأعود من حيث أتيت.

أفكر بيني وبين نفسي، الأمر يبدو غريباً، ولكن "بوني" اكتشف بعد انتظامه في الخدمة الإلزامية ما حدث حقاً في عام 1986. لم يُعلق على ذلك أحد في البيت، ولم يتحدث أحد عن ذلك — وضعوا أمامه هناك كل شيء مباشرة في اليوم الثاني أو الثالث.

لم يتحمل أسبوعاً واحداً، وقرر أنه لن يخدم في هذا المكان — لعب دور المجنون أمام صديقه طبيب الأمراض النفسية الذي أرسله بكل بساطة ويسر إلى مسقط رأسه مع ورقة على رأسه. بقي فترة في المشفى وارتاح بشكل نهائي من الخدمة.

ابنه الأول "ماتوش" الذي وُلد بعد حُب كبير تبخر بعد عدة أشهر، أخبر "بوني" مرة أنه لا يؤمن بأن شيئاً هاماً قد حدث قبل مجيئه إلى العالم. خبر بالطبع عن تلك الأحداث أثناء حصص التاريخ في المدرسة ومن الصحف، ولكن الأمر بدا له مثل الثرثرة التي عليها أن تُسلي أو تُخيف أحدهم.

"إنها مجرد أشياء تافهة" قال.

وبما أن الأطفال صنعوا الفقاعات الملونه من العُلوك في صُور مجلة "برافا" المُهربة التي لم يكن من السهل الحصول عليها عندنا — هل تُصدق أن "بوني" مع أصدقائه قاموا بالتفنن بحيث إنهم خلطوا في العلوك العادية ألواناً من الأقلام القاسية ؟.

أغبياء! تسمموا في إحدى المرات، قال له.

تصور "ماتوش" الانتفاضة الوطنية السلوفاكية بوصفها مجرد لعبة حرب "وركرافت"حيث الفاشيون سحرة "أوركسكي" والثوار كائنات مائية.

أحببت المقبرة العليا في "بريجاني" منذ زمن طويل حيث يوجد هناك الجميع. أبي، أمي، الجدة ماريا، الجد ألبرت والعم رودو.. في الأشجار، تُغني طيور السُمنة السوداء أغنياتها الأوبرالية المُعقدة كما تتقاطع أرصفة البشر مع الطرقات السريعة للنمل.

أخذت معي مرة "بوني"، وأوصلته إلى قبر الجد "ألبرت" حيث كبرتْ فوقه شجرة تُفاح قديمة. قطفتُ تفاحتين وأعطيته واحدة.

"هذا هو طعم جدُ والدك."

شهق "بوني، وتطلع في القشرة الحمراء في حين تلذذت أنا بأول قضمة. نعم، لقد شعرت على لساني طعم سيجارته، ورائحة صابونه، وعُطره — بهذا الشكل وَصفت لنا رائحته الجدة ماريا. شعرت بنمل يسري على ظهري. لقد وُلدت التفاحة من لحمه وعظمه.

"بوني" قضم بتردد، وعلك ببطء.

"جيدة، قال. "أحس برائحة الدخان أو بشيء آخر لا أعرفه"

مرت الغيوم فوق المقبرة.

"هل تتذكر كيف تبولنا في إحدى المرات حين كنت لا تزال صغيراً؟"
رفع "بوني" كتفيه.
"عرفتَ أني ذاهب إلى المرحاض وجعلت تصرخ – انتظر، انتظر، وأنا أيضاً أريد! فتحت ساقاي أمام المبولة، وأنت أيضاً فعلت الشيء ذاته، طولك أكثر بقليل من خصري – وعليها... تياران، ضحكنا كثيراً. هززت قضيبك الصغير الذي لا يُقارن بقضيبي. لا أعرف السبب الذي جعلني أتذكر تلك الحادثة.
"علينا الآن تكرار الشيء ذاته."
وقفنا أمام حائط المقبرة أحدنا بجانب الآخر. وكان ذلك.
"روعة."
"فُرجة!"

تذكرت كيف أني في إحدى المرات وقفت مع والدي في حديقة منزلنا. تماماً في اللحظة التي تعلقت فيها الشمس الواطئة فوق الأفق وبدأت في غروبها خلف "فولوفتس"، وكيف تحرك ظلها على التلة المقابلة مثل خط الشاطئ، مثل حدود متحركة بين النور والعتمة، انتشر الضوء الأزرق في كل مكان. حلمتُ في حينها بالسعادة التي سأشعر بها لو أني أتحرك بسرعة خلف ذلك الظل لأصل إلى نهاية العالم.
زرّر "بوني" سحاب بنطاله.
"تعرف، حين كنت صغيراً وأخذتني معك إلى هنا، إلى "بريجاني" تسليت كثيراً حين تخيلتُ نفسي أخطو مع الظل من تلك التلة.– أنظر كيف يرتفع هناك ببطء – لذا حين سأخطو معه عبر التلة، وعبر تلة أخرى، وأخرى وأكون على عجلة من أمري، سأصل إلى نهاية العالم."
بقيت صامتاً لفترة، ولكني تحدثت بعد ذلك.
حين كنتُ صغيراً تصورت الشيء ذاته يا " كابيكو."
تطلع في وجهي باندهاش لأن ذلك اللقب الطفولي لم يسمعه من أحد منذ سنوات طويلة.

حل المساء وسقط معه الغروب ببطء على المقبرة. الرياح خلّصتْ الأشجار من جميع أوراقها باستثناء القليل القليل الباقي على الفروع العليا منها التي لن يتمكن أحد من الوصول إليها. كانت تلمعُ في الغروب الكثيف مثل المصابيح التي تُرينا الطريق. متجعدة، صفراء و ملتهبة. وحتى حين أطفأ الناس الأنوار وخلدوا للنوم، بقيت تُضيء في عتمة الليل لتشجع أولئك الذين لا يزالون على صحوهم بسبب هياجهم، أو لأن النوم جافاهم.

تساقط الثلج في اليوم التالي وغطى التفاح الذي تألق حتى تحت الغطاء الأبيض وضوّى اليوم بأكمله. انتشرت منه بقع صفراء، كما غطاها في الليلة التالية التي لم تعد ظلماء وميض أبيض قصير لانهائي.

6

يعتبر "كابيكو" أي "بوني" شاباً طويلاً نسبياً، بتقاطيع قاسية. كنت أتمنى دائماً أن أبدو شبيهاً به. جميلاً مثل والدته، وقد لفحته الشمس. يضع شالاً على رقبته، أو على رأسه مثل سائقي الدراجات النارية. شعره غالباً طويل قليلاً يزينه عشُ شائب صغير في منتصف رأسه.

وهذا لم يرثه مني لأن شعري شائب منذ الأزل.

انطلقنا بعد شهر أو شهرين من جنازة أبي باتجاه "سانتياغو دي كومبوستيلا" مع رماده. فكرة مؤثرة، ولكن الأمر يتعلق قبل كل شيء بهدف تلك الرحلة.

"إذا رغبتَ في معرفة أحدهم على حقيقته، سافر معه،" قال "كابيكو". كان خبيراً في تلك الأمور.

كان بوسعنا السفر إلى أي مكان، ولكن "كابيكو" أحب التسكع على طريق الحليب مثل حُجاج العصور الوسطى على درب القديس "يعقوب" أحد الاثني عشر رسولاً. لقد اجتازوا تلك الرحلة بوصفها كفارة للتخلص من الآثام. تعجبني محارة القديس "يعقوب"، والريشة، وأيضاً الأسطورة التي تقول إن الرسول أنقذ بطريقة عجيبة صبياً أكتع من عقوبة الموت على حبل المشنقة، وكبرهان على النبوءة، أعاد الروح للدجاجة

التي كانت وجبة الغداء على صحن القاضي. تسلى "بوني" كثيراً بتلك الأحداث. التي أحس أنها لطيفة جداً.

سافرنا بسيارة "بوني" التي أهدتها له "سوزانا".

كتبَ على واقي الشمس المرافق تلك الجملة المصيرية:

الموت حدث خطير، بالإنكليزية والفرنسية والإيطالية والإسبانية والألمانية، وفي لغات أخرى.

لقد ذكرت تلك الجملة السائق بالأطفال في المقعد، وبالمسافرين الآخرين جميعهم، وبقسوة القدر الذي لا يرحم. حين قلبت واقي الشمس، أوه، أي عناية هذه، على الوجه الآخر وجدت ذات الشيء. وبما أني قليل السفر نسبياً، فقد اضطررت إلى النظر إلى الأعلى والتفكير بلحظة الموت القصيرة.

رآني " كابيكو" أثناء ذلك وقال على الهامش:

"إن نظرتنا لما يهدد الحياة تتأثر أساساً بالأفلام. ولكن أي نوع من الحرب كانت تلك! المشاهد في الأفلام تبدو في غاية البساطة. أن تموت — يشبه تماماً قرصة النحلة."

"نعم... معك حق"

بدا منزعجاً: "كيف يتجرأ كبار السن ويقولون، إننا نعيش في مرحلة يتفاقم فيها العنف؟ وبأن الشباب يتجهون أكثر باتجاهه، ويروجون له. أليسوا هم وأجدادهم من قَتَلَ دون رحمة في الحربين العالميتين! والآن يريدون وعظنا؟!

"نعم، معك حق، معك حق،" ضحكتُ.

تجاوزتنا بسرعة كبيرة سيارتان بافاريتان سوداوان تشبهان الكفن الراقي.

"لست مضطراً للموافقة دائماً على كلامي يا أبي."

"نعم، معك حق يا " كابيكو"."

السفر كان عندي على الدوام يُمثل أمراً غريباً. حالة من تغير الإحساس بالعالم. سمعتُ في أحد الأوقات أن "الشمامين" يموتون في الغالب بسبب الإفراط في الجرعة على الطرقات. بعيداً عن أرصفتهم. الجسم يحتاج إلى

طقوس ما قبل الجرعة — حين لا تكون موجودة فإن كمية المخدر عادة يمكنها قتله. إنه غير مهيأ ببساطة لهذا. فهو غير مُبرمج.
بقيتْ خلال أيام الرحلة في المساء على الزجاج الأمامي نقاط متكسرة ملونة، بيضاء وحمراء، صفراء وخضراء. سوائل أجسام الحشرات التي تقاطعنا معها في رحلتها الهوائية. كواكب الزمن الميت.
روى لي "بوني" عن مشاهداته الممتعة من رحلته الكبرى التي استغرقت سنوات بأكملها، وهي أساساً لم تنتهِ حتى الآن.
بدأ يشعر سنة واحدة بعد الثورة المخملية أنه بحاجة لرؤية العالم، ولكن ليس بنفس الطريقة التي يراها الآخرون. حتى إنه ترك في نهاية الأمر عمله في الشركة التي اشتغل فيها وكان مهندساً بارعاً. إذ شعر فجأة أن كل شيء أصبح مضحكاً وغير ضروري، كره الحضارة — كما أخبرني. لهذا انطلق سيراً على قدميه إلى الهند. نعم إلى الهند. لم يُخبر أحداً بشيء. لو عرفتُ ذلك في جينها لما كنت تركته يفعل. و"سوزانا" بالتأكيد لن تسمح له. ترك في البيت طفلين مع والدتهما.
أحياناً كان يطلعنا على أخباره، وإلى أن اتخذ قراره النهائي، عاش في خيمة مصنوعة من القماش البالي على شاطئ إحدى الجزر الإسبانية — أمّن معيشته من خلال جمع الأسلاك، وغالباً النحاسية التي يجردها من غلافهاالبلاستيكي وينقلها إلى مكان شراء الخردة. اقترب منه في أحد الأيام كلب أسود كبير، يبدو أن أحداً من الجوار رماه من السيارة، ربما كبُر أكثر مما توقعه صاحبه (لا تبكِ، لا بد أنه سيعود! ، نعم، تماماً مثل أسماك صغيرة ميتة أو دب صناعي تمزقت فروته مع الشوكولا). قال "كابيكو" إن الحضارة لفظت الكلب كما لفظته هو بالتمام. ولهذا انطلق معه في رحلته الطويلة وفي جيبه بضع قطع من النقود.
أصغيت لابني وعيناي مفتوحتان على وسعهما. شعرت أثناء ذلك أني بدأت أحسده على شيء لم أتمكن من فعله في حياتي. هكذا وبكل بساطة، أترك كل شيء وأنطلق دون أن أعرف المكان الذي سأبيت وآكل

فيه. دون معرفة أي شيء. الانطلاق إلى الأمام فقط. لم أكن أملك الجرأة لفعل ذلك. ربما أكون قد كشفت الستارة عن أكبر غلطة ارتكبتها في حياتي بأكملها.

"كابيكو" يجلس بجانبي خلف المقود و يروي. حدثني عن رحلته بمحاذاة الشاطئ، وعن اختفاء كلبه في الباكستان، وكيف أنه أمضى ثلاثة أيام في البحث عنه. وعن جاليات "الهبيز" الشيوخ في الهند الذين جعلوه يفقد أعصابه. وكيف أنه جلس في مكان ما بثيابه الرثة مع عصاه بالقرب من الماء وجعل يصطاد السمك، وكيف جاءه أحد الرجال في هندامه وسأله عن السبب الذي يجعله يجلس هنا هكذا دون عمل، ولا بد أنه ذكي، ويمكنه العثور على عمل جيد، تأسيس شركة لتصنيع الشوكولا، وتوظيف الناس — وبعد ذلك، وفي يوم من الأيام لن يكون مضطراً للعمل، سيجلس هكذا كما يفعل الآن، يراقب البحر ويستريح. و"بوني" قال له – هذا ما أفعله الآن! وكيف أن الرجل الأنيق انتفض، واستدار وغادر دون كلام.

"هذا لم يحدث معي، إنها مجرد نكتة أعجبتني،" ضحك "بوني".

المحرك ينشر صوتاً رتيباً.

"حين تسافر وحدك، عليك أن تعرف كيف تُدافع عن نفسك،" شرح لي. "إذا هاجمك أحدهم عليك أن تتخذ قرارك خلال خمس ثوان – لكمه على عينه، وأخرى على أسنانه، أو على أُذنه، اكسرله ساقه، وإذا كنت تحمل سكيناً، اجرحه. حين سيشعر بالألم، ويرى كمية كبيرة من الدم، أو تتعذر حركته، فإن ذلك سيضعفه. لن يحاول اللحاق بك. هذا هو الحل الوحيد."

"هل اضطررت يوماً للدفاع عن نفسك؟"

"بالطبع، عدة مرات."

سحبت كبسولة من ظرف الدواء بسرعة وبلعتها دون إحداث ضجيج.

تطلع في وجهي.

"نوكسا؟ آآ، أعرفها!"

لقد ضبطني "في الشيخوخة، شيء رائع، كمية الأدوية التي يتناولها الإنسان بشكل علني. للألم، ولتحسين المزاج..."

وما أدهشتي كثيراً، هو تأكيده عنايته الفائقة بحراسة أسرار ضعف العائلة حين أضاف:

"بالمقارنة مع ما تتناوله فإن أي نوع من الكحول ما هو إلا لصقة قماشية من كيس على قميص من الحرير!"

7

خططنا ونحن في الطريق للذهاب إلى مدريد. وهذا يعني إطالة الطريق كثيراً — لابد أن والدي يريد رؤية لوحات فنانه المُفضل على حقيقتها في غاليري "برادو" إنها رحلته، وبدونه ماكنا لنسافر. وبهذا تكون الأمور راكبة.

قرأ "كابيكو" في الإنترنيت في أحد الفنادق الصغيرة "موتول" الموجودة على الطريق سيرة حياة "غويا"، وقام بسرعة بتدوين بعض الملاحظات في "نوت بوك". تطلعت فيها حين ذهب إلى التواليت. كبست على الاسم وفي الحال أراني برنامج "الوورد" "علامة ذكية" — لا ليوكاندا.

وتابع:

اسم الشخصية: لا ليوكاندا

الإرسال بالبريد

التخطيط للقاء

فتح اتصال

إضافة إلى الاتصالات

وضع العنوان

التوقف عن الحوار "لا ليوكاندا"

وهل يمكن أنه التقاها؟ في مكان من العالم الآخر؟

لم نكن نملك أي دليل على ذلك، ولكني مع "بوني" بعد زجاجتي نبيذ جعلنا نتخيل أنهما في نهاية الأمر أصبحا عشيقين — أبي كان يملُك نوعاً خاصاً من السحر الذي يصعُب تسميته، كان يشُد النساء،

وهذا لم يتبخر حتى مع تقدمه في السن. وحسب تقديراتنا فإن "ليوكاديا" في النهاية خضعت. كان ذلك النوع من الجاذبية ينقصني لأن جميع علاقاتي مع النساء متعبة - ولكن تلك الصفة قفزت ليأخذها "بوني". لم يفعل أي شيء، وكن يتزاحمن على كسب وده.

أعتقد أن الفانتازيا تنقصني كي أعترف بالحب في لغة تخاطب الصم والبكم.

استمرت اللقاءات... أراني "بوني" في لحظة من الضجر في مقهى الإنترنيت صفحة "غوغل إرث" حيث هناك حسب زعمه خريطة تغطي سطح الكرة الأرضية مع كافة التفاصيل. قال إن التفاصيل دقيقة إلى درجة أن هناك صوراً في "يوتيوب" تُريك الناس وهم يمارسون الجنس على سطوح ناطحات السحاب. لم أرغب في تصديق ذلك.

سطح الكرة الأرضية على الخريطة التي كنا نتطلع فيها تم رصده في شهر آذار 2003. والدي كان في تلك الفترة لا يزال على قيد الحياة. أردت من "بوني" أن يُريني منزلنا. قام بتكبير صورة أوروبا، سلوفاكيا، ووجد "بريجاني" وشارعنا... ومنزلنا.

أمضيت لحظة حتى تعرفت إلى شكله من الأعلى. كل شيء في مكانه، الشوارع والبيوت المجاورة. لمحتُ في الحديقة بين الأشجار والأعشاب التي ابتلعتها بقعة صغيرة.

"في نيويورك يُمكنك تفريق الأبيض عن الزنجي" قال "بوني" وهو يُكبر البقعة التي أصبحت بعد ذلك غير واضحة ويصعب تمييز ماهيتها بالرغم من التكبير الحاصل. يمكنه أن يكون والدي فقط. هل كان هو؟ أو لا؟ لا بد أنه هو.

على الصورة من الجو يقف في حديقتنا والدي الميت. مع "ماريا" التي تسنده. أحبيك، ليوكاديا، أينما تكونين!

استيقظت في الصباح مُبكراً جداً. تطلعت لحظة من النافذة إلى الخارج لأرى الشارع. فشعرت بالأسى، وجعلت أفتش بفضول في درج طاولة غرفة النوم.

فتحت لاعلى التعيين صفحة من إنجيل الشدق. فوقع نظري مثل النبوءة على أحد السطور بالإنكليزية. the new testament - العهد الجديد - لوقا Luke 18,19، دخل بعد ذلك المسيح وعبر "يرخو"، حديقة غناء تزينها عريشة زهور متفتحة تنشر رائحة عطرة.

اقترب موعد انتهاء رحلة الآب والابن - كنت الأول والثاني.

بعد ذلك سمعت موسيقا الاستيقاظ لـ "براهمز" - أنزلها بوني في هاتفه النقال كي توقظه من النوم- تلا ذلك فطور سريع - فطور عالمي -كما لو أن "بوشكار" قال ذلك، يا إلهي كم أفتقده!

أثنى موظف الاستقبال على محفظة "بوني" الجلدية السوداء مع النموذج الغريب الأبيض. فقد كانت هدية من صديقه في براغ حين أمضى عنده بضعة أيام. والده عامل نظافة في المترو، وكان يجد المحافظ في كل خطوة لأن السارقين تعودوا رميها مع الأوراق الثبوتية بعد تفريغها من المال. وكان عنده العشرات منها، ولذا كان يُهديها للزوار. لقد تحملت عند "كابيك" أكثر من عشر سنوات، ولا تزال جديدة.

"سي اوستد تيني جوستو - دسفروتي!"

فرّغها في الحال من أشيائه. موظف الاستقبال رفع يديه وهو يبتسم.

"نو، سنيور، موخاس غراتسياس!"

شرح لي في السيارة بعد ذلك ضرورة الإثناء في إسبانيا على شيء ما. ومن الأدب أيضاً أن يقدمه لك صاحبه، ولكن قمة عدم التهذيب هو قبول ذلك الشيء. لطيف، لعبة جميلة.

جعلت أمضغُ سكاكر "كافنكي" التي زودتني بها "تينا". والتي شكلت عندي طعم الوطن، وشيئاً موثوقاً به. حملنا معنا عشرين قطعة كانت مرمية هنا وهناك في السيارة.

بقيت أمامنا مسافة قصيرة إلى مدريد.

روى لي "بوني" في أثناء السواقة أنه كان يُقدم قبل مغادرته في التسعينات حصة المساء في راديو "غوندوان". الذي نشأ كشركة خاصة

بالسر مخصصة للمستمعين الذواقة، شيء لا يُمكن تصور حدوثه في الوقت الحاضر – موسيقى غير معروفة، أدب، كلاسيك، جاز، حوارات طويلة – في تلك الأوقات كل شيء ممكن، الهواء يمتص الإمكانات الجديدة. والجميع يشعرون كأنهم في بداية نشوء العالم (الجبال الثلاثة) حين كانت الأجواء معبأة بالأوكسجين أكثر من اليوم، وحيث تتحرك اليعاسيب الطويلة (أكثر من متر) مع الفراشات العملاقة في الحقول. المكان أمنته كلية الفلسفة، والتجهيزات من "الفوند" الأمريكي. أوصله للعمل هناك أحد أصدقائه الذي التقاه بالصدفة في الشارع – فأجلسه مباشرة في الأستوديو. وكان يُقدم البرنامج كل أربعاء، ثلاث ساعات من الحادية عشرة مساء. وصل بيدين فارغتين، وحمل معه الموضوع الذي يريد التحدث عنه مع المستمعين عبر الهاتف كما اختار الموسيقى المناسبة. أوقات لا تُصدق!.

بالطبع، التم حول هذا المشروع العديد من الناس غريبو الأطوار. وتحديداً الفتيات.

"عندي مع إحداهن صبي،" ضحك " كابيكو".

بعد ذلك تناقصت ثم تناقصت بالتدريج كمية الأوكسحين الضرورية لمتابعة حياة الإذاعة. وبالتدريج، بدأ تغيير الإرسال، ومن ثم تواضعت الموسيقى ببطء. وفي النهاية ، دُمرت "غوندوان" من أساسها.

"بعض زملائي السابقين يعملون اليوم في الإذاعات التجارية، ومؤسسات الإعلان، وهم سعداء لأنهم لم يشعروا أن شيئاً قد حدث لهم.

9

الحقيقة أننا في سانتياغو، لم نمض وقتاً طويلاً – زرنا كنيسة القديس "يعقوب" المُكتظة بالأكشاك، وانطلقنا بعد ذلك باتجاه "بالو" و "كوركوبيون" اللذين كانا على بعد رمية حجر من حوض "فنستيرا".

قرأت عنه في إحدى القصائد. الحاج يتجه هناك على حصانه، ويتوقف عند آخر بروز في البحر في أوروبا. اعتبروه في العصور الوسطى نهاية العالم المكتشف. كنا سنصل إلى هنا لو أننا تحركنا وراء ظل "فولوفتس"...

هبت من المحيط ريح قوية، مالحة ورطبة، جعلت تبدل مسارها على الدوام.

رحتُ أبحث بعد ذلك في رماد أبي الأبيض عما يحدث لتلك الطاقة التي كانت في جميع تلك الأعضاء، والأنسجة.

لولب "دي ان إي" ينقذف مثل الزنبرك (الراصور) من خليتين، ذكر وأنثى، من خليتين يصعبُ رؤيتهما وكأنهما لا شيء، وينمو إلى أحجام كبيرة. إنه أثرنا، الصورة المطابقة، رمزنا، صورتنا المزيفة التي سوف تنتشر من جديد. تتغير، وتتكرر. تقوم بنفس الأخطاء وتتمتع بالرغبات ذاتها.

وفجأة، رأيت كل تلك الحشود والأفعال بشكل معاكس. الرجال يمتصون من النساء في لحظة النشوة حيواناتهن المنوية، ويبتعدون عنهن بحركات منتظمة، تتلاشى الرغبة ببطء، فلم يعد أحدهم يعرف الآخر، يصبحون في النهاية غرباء تماماً. يختبؤون في أجساد رجال آخرين ونساء أخريات حتى بداية العالم حيث يضيعون ويختفون في منعطفات الزمن.

اعترف لي "بوني" في وقت لاحق أن رماد أبي سقط من يده على الأرض حين هرع مسرعاً إلى المرحاض في "براد". الرماد في الحقيقة انسلَّ خلسة إلى مركز الآلات الذي رمى الرماد في أجهزة التبريد. إنه يتحرك الآن بين الصور المعروضة كما يقوم الزوار باستنشاقه. ينتهي بعد ذلك فوق لوحات "غويا".

رأيت البحر في حياتي مرتين فحسب لهذا فإني تمتعت به. رغبت قبل خروجنا إلى منطقة الصخور في لمسه ولو للحظة. فتجولت بالقرب من الشاطئ وجعلت أصطاد من الماء قطعاً شفافة من الحجر الأخضر الصغير. أريتها لـ" بوني" بسعادة كبيرة.

تعودت القوارب الشراعية كما يقولون نقل كومات الأحجار الكريمة من البلاد البعيدة إلى أوروبا. وحين أبحروا محملين بالبضائع حتى حواف القوارب كان نزولها في الماء أعمق، ولكي يتمكنوا من التحكم بها بشكل جيد كان عليهم أن يُثقلوها حتى في رحلة العودة. ملأ البحارة ظهر القوارب بالصخور الآتية من أماكن بعيدة، من الأراضي الغريبة،

بوردو، بريستول، ليسابون، مرسيليا، لوهافر... المرافئ حتى اليوم ملأى بقطع تلك القارات.

ربما تلك أيضاً من مكان ما في الطرف الثاني من الكرة الأرضية.

"إنه زجاج عادي، يا أبي. قام البحر بحت أطرافه" قال لي "بوني".

أمسكت مع " كابيكو" علبة السجائر، مرجحناها، ورميناها بطريقة قوسية إلى البحر. فُتحت العلبة في الهواء وانقلبت ثم انتشر منها الرماد، رماد والدي انسكب. حملته الرياح ببطء إلى البعيد.

هرعت إلى العلبة في البحر بعض طيور العيدر التي كانت تعشعش منها كميات كبيرة تحتنا في المنحدر القاسي. لقد قرأتُ مرة أن الأنثى تقتلع عن جسمها الريش كله كي تتمكن من وضع صغارها عليه وتدفئتهم. في حين يأخذ الانسان الريش من العش – تتابع من جديد – نتف جلدها بحيث لا يبقى سوى اللحم والدم، حينها يأتي دور الأب الذي يبدأ التخلص من ريشه. صغار الطيور ينمون في لباس أهلهم.

تعانقت مع "كابيكو" وبقينا فترة واقفين على الشاطئ.

10

نجحت في الاتصال مع "إيغور" بعد المرة الخامسة.

"آ.. العظام، العظام،" قال لي بدلاً من التحية.

"هل عندك شيء؟"

"لقد مررت على أسماء المفقودين في الدليل من الأعلى إلى الأسفل ولكنني لسوء الحظ لم أجد اسم جميلتك المجهولة هناك. آسف."

كنت متأكداً أن شيئاً ما قد حدث بين والدي، و" كلاوديا". تلك الرسائل تُشير إلى أن علاقتهما لم تنتهِ بتلك السهولة. تمكن "إيغور" على الأقل من خلال أحد أصدقائه العاملين في سلك الشرطة تأمين عنوانها في "بريجاني" حين تم تسجيلها قبل سنوات عديدة. ذهبت إلى هناك عدة مرات. لكن البيت الذي كان مليئاً بالورود يشع جفافاً وفراغاً.

رننتُ الجرس دون فائدة، ولكني سمعت أثناء زيارتي الثالثة صوت طنين الحصادة من خلف سور البيت المجاور.

"نهاركم سعيد،" صرخت.

صمتت الحصادة، ووصل رجل بعضلات كبيرة إلى خلف السور عارياً حتى خصره.

"أبحث عن جارتكم."

أدار الرجل رأسه.

"لم يحضر منذ مدة طويلة أحد إلى هنا"

"منذ متى تقريباً؟"

"سنة، سنتين..."

"وقبل ذلك؟ ألم تسكن هنا سيدة متقدمة في السن؟ السيدة هورفاتوفا؟"

"هذا ما لا أعرفه. ولكن صبية تأتي إلى هنا بين الحين والآخر. من براتيسلافا."

أعطاني رقم الهاتف الجوال الذي تركته في حال حدث شيء في البيت.

التقينا في أحد المقاهي الموجودة في شارع "أوبخودنا". كانت زيارتي الأولى لهذا المقهى، وما إن جلست ، حتى فُتح الباب ودخلت امرأة، نسخة طبق الأصل عن السيدة التي أتذكرها من طفولتي. عينان زوقاوان، شعر أسود طويل.

"نهاركم سعيد، "إما بتروفسكا."

"حسناً. فويتخ روشكو."

لسبب ما رغبت في استخدام طريقة الخداع (التآمر).

"ما هو الموضوع بالضبط؟ سألتْ حين أحضروا لنا المشروب.

"أنا مُخرج. أصور للتلفزيون فيلماً وثائقياً عن "بريجاني". كيف كانت في الماضي، كيف هي اليوم – وأبحث عن أناس يتذكرون كيف كانت قبل الحرب، وخلال الحرب، وما شابه."

"أها. ولكن، أنا نادراً ما أزور "بريجاني"، ولهذا..."
أرغب في لقاء جدتكم، السيدة " كلاوديا هورفاتوفا."
"أها، ولكن، هذا مستحيل."
شعرت بالصقيع يعبرُ ظهري. أحسست أني أقترب بالتأكيد من فك اللغز.
"لم تعد على قيد الحياة."
"لم تعد على قيد الحياة، أها... ومتى حدث ذلك؟"
"هذه السنة. في التاسع من أيار."
في تلك الأثناء توفي والدي. فقدت للحظة نفسي، وفقدت مفهوم الوقت.
امتلأت الأجواء بلحن فرنسي كما وصلت من الطاولة المجاورة قهقهة مستمرة.
"ولكن إذا كنت تهتم بـ"بريجاني"، عندي صديق، أهله يتحدرون من هناك. "ماتوش ترنوفسكي، هل تعرفونه؟"
حفيدي، ابن "بوني". أدرت رأسي بالنفي.
"تصادقنا ما يقارب السنة. روى لي مجموعة كبيرة من الأشياء المتعة. هل تريدون رقم هاتفه؟"
"نعم، من فضلك."
كتبتُ بشكل آلي ما أملته عليّ. وبدأت أشعر ببطء أنني فقدتُ الأثر بشكل نهائي.
راقبتها وهي تتمشى أمام الواجهة، وكيف ابتسمت لي، ثم وهي تختفي وراء الزاوية. اقتنعت أخيراً أن عليّ اختراع كل شيء.
يمكنني العمل مع الأموات تماماً كما مع العجائز. لا يقاومن، ويوافقن.

11

أنامُ قليلاً بعد الظهيرة على الأريكة القديمة – على قطعة الأثاث الوحيدة الباقية في البيت – وأحلم بلقاء مع أبي.
أحدهم يرن جرس البوابة. أذهبُ وأفتح. أجده واقفاً أمامي ببزته الكريم، وصدريته ذات الجيوب الأربعة، القبعة، وبيده حقيبة الطبيب

السوداء. — ألن تدخل؟ - أسأله — حسناً، ولكن يمكنني البقاء ساعتين فقط، حتى السابعة — يقول والدي وهو يشعل سيجارته.— دعنا إذاً نقمْ بجولة في السيارة، سأريك المدينة. نجلس في سيارتنا الشفروليه القديمة — تخيلت في منامي أن "تينا" قد حطمتها أثناء الحادث في "نيفدوفا" وهي تقف الآن أمام البيت... ولكن هذا غير مهم.

نقطع المدينة، أريهُ "بريجاني" الحديثة: انظر، لقد شيدوا هنا هذا، وذاك... وأبي — ولكن كانت هنا حانة في الماضي، وهل أغلقوها؟ أومئ برأسي.— أخبرني، كيف هي الأحوال في العالم الآخر؟ يصفنُ والدي: نعم، لست أدري، لا يوجد شيء هام. ولكن عندي هناك صديقان، بوشكار، و كربس. إني هناك معهما.

نتنقل بالسيارة حتى موعد مغادرته. يترجل في الساحة، يبتسم، ويبتعد.

أستيقظ من نومي وأرى "بوني" فوقي.

"حين يصل الحجاج وهم في طريقهم لزيارة القديس "يعقوب" إلى حوض "فنستري"، يحرقون هناك أحذيتهم كإشارة على انتهاء الرحلة،" يقول ونفس الفكرة تخطر ببالنا نحن الاثنان.

أبحث في الكيس، وأُخرج حذاء والدي الأخير — قصّته قديمة بيضاء، إنه ممح، ومهترىء من الأسفل.

"كابيكو" أثناء ذلك يُجهز النار في الحديقة.

يرمي كل واحد منا فردة حذاء. يشتعلُ بسرعة.

أتناول بيدي حقيبة الطبيب. أتطلع في "بوني" الذي يومئ برأسه موافقاً. الجلد يُطقطق وينكشف ما بداخله. نتابع بصمت. تشتعل السماعة في الحقيبة، تتقلص وتذوبُ في النار. وفي النهاية، لا تبقى سوى القطع اللماعة في الجمر.

" كابيكو" يفكر ، يخلع حذاءه ويرميه بحركة بطيئة في النار.

أفك شرائط حذائي وأفعل الشيء ذاته.

نقف صامتين على الأرض الباردة حتى ينطفىء الجمر.

بهذا الشكل رآنا العاملون الذين يصرخون مثل البربر. ولا يفهموا ما يجري، ولماذا نقف هنا يا إلهي.

العالم يتجه نحو الانقراض، كل شيء ينهار، أحدث نفسي كما تعود كبار السن التحدث مع أنفسهم. أتراجعُ بعد ذلك – أنا عجوز أيضاً، عجوز.

منزلنا يتداعى قطعة بعد قطعة. الجدران السميكة، جميع الغرف، السقوف، والسطح.

الغبار يستوطنُ طويلاً.

سوف نسكن جميعاً في يوم من الأيام في هذا البيت، مثل عائلة كبيرة – قال أبي. كان حلمه.

قال العم "رودو" في المقابل: كلنا أموات في وقف إطلاق النار الطويل.

الخاتمة

تحياتي أيها السيد "ترنوفسكي"،

نعم، من الممكن أن يعرف أحدنا الآخر – ولكني بالتأكيد أتذكر جيداً والدك "بوني"، كما كانوا ينادونه مع أني التقيته عدة مرات لا غير في حياتي.

اعذرني، لأني أرد على رسالتك الألكترونية من أيار 2012 متأخراً. كل ذلك بسبب انشغالي في العمل، وأكثر من ذلك، الحاسوب خرج عن طاعتي. والآن أيضاً أشعر بانزعاج كبير من الفيسبوك الذي – كما اكتشفت قبل لحظات – يُرسل التهاني باسمي منذ شهور بعيد ميلاد أناس لا أعرفهم على الإطلاق، ودون علم مني بذلك!!. لا يخفى عليكم أني مرتبط بشكل كبير بأعياد ميلاد الناس و بالعادات التي تبدو أصيلة. نعم،

ابني في الحقيقة، أنبني قائلاً: يجب أن أرفض الصداقة مع أناس ليسوا أصدقاء، ولكن ماذا... الإنسان لا يريد إغضاب أحد، وهذا ما يحصل.

حسناً، لا أريد أن أتسبب في إصابتك بالملل بحديثي عن التكنولوجيا العصرية.

إنني أشعر بالأسى حقاً لأن جدك آدم ترنوفسكي (الذي أعرفه جيداً) توفي بعد الاحتشاء الثاني، وهذا يجعلني أُقدم لكم الآن بالغ عزائي. كان جذاباً مع أنه كان إنساناً فريداً من نوعه، أنيقاً، فضولياً جداً وساخراً جداً. أتفهم شعورك كثيراً – حتى أنا لم أكد أتحدث مع جدي في اللحظة المناسبة لأنه توفي شاباً. عليّ أن أضيف بأني لم ألحق والدي أيضاً، ببساطة، لم نجد لأنفسنا الطريق ، والآن حين أصبح في العالم الآخر، ألومُ نفسي لأني كنت أرغب في إخباره بأشياء، وسؤاله عن أشياء أخرى عديدة. اعذرني لأني عاطفي قليلاً.

إنني في هذا السياق سعيد جداً لأنهم وجدوا بين ما تبقى من تركة جدك مخطوطاً يُسجل تاريخ عائلتك مع مقاطع تتحدث أيضاً عن والد جدك "الفونس" الذي قام أهلك بتسميتك باسمه تخليداً له. أتمنى أن تكتب لي أكثر عن المذكرات، أو لو سمحت، أريد أن أستعيرها، إذا كان ذلك ممكناً – أتوقع أن تحتوي على ذكرٍ لوالدي. سوف أسافر إلى براتيسلافا في أول فرصة ملائمة.

أما فيما يتعلق بمنزل آل ترنوفسكي في "بريجاني" – فأجد من الضروري القول إنني زرته مرة فقط، ولا أتذكر بالضبط متى حدث ذلك. أعرف فحسب أنهم هدموه في عام 2003 أو 2004. حينها كنت أنت في العاشرة من عمرك، ولهذا لا يمكنك أن تتذكره جيداً. السبب كان هو الرغبة في إنشاء وصلة مع الطريق الدولي ولكنهم اعتمدوا بعد ذلك منطقة على بعد عدة كيلومترات قبل "نيفدوفا" بدلاً من مكان البيت. يوجد في تلك الأماكن الآن مركز للتبضع "فسنا"، كما أتوقع أن البيت يقع في القسم الجنوبي من مكان موقف السيارات، عند المخرج الرئيس إلى شارع "شتيفانيك".

استغربتُ قليلاً لعدم وجود صور لهذا البيت لدى عائلتك — ولكني أتذكر الحريق الذي حدث في بيت جدك والذي أتى في عام 2006 على العديد من الذكريات العائلية. لو كنت في مكانك لجربتُ التحدث مع أخيه "بتر"، إذا كان لا يزال على قيد الحياة — ابنه "فرانتيشك" شريك في إحدى شركات التطوير "مجموعة سالافا"، إذا لم أخطئ، لقد شيدوا بالقرب من نهر "سالافا" البارك المائي (أكفابارك) المعروف بـ"بهي"، وبالتحايل أيضاً، بيوتاً في شرفات المصنع المُفلس "سلوفلاين". وإذا لم تكن كما تقول في تلك الأوقات على علاقة جيدة مع هذا القسم من العائلة، ربما يكون " بتر" قد التقط بعض الصور.

الصورة التي ستراها في الملحق، اكتشفتها بالصدفة أثناء ترتيب البيت (والدي كان يستهتر كثيراً في الأمور المتعلقة بالذكريات، صوّر قليلاً ومع ذلك فُقدت تلك الأشياء)، وحسب رأيي إنها تعود لبداية الأربعينات، أعتقد أن الطفل الصغير الموجود في مقدمة الصورة هو والدي "فويتخ" (ذاك الذي يحمل بيده القوس المُرتد) وخلفه يركع جدُك "آدم". إنهم يقفون أمام منزل عائلة "ترنوفسكي" في "بريجاني". ولكن ربما أكون مخطئاً.

أعتذر على النوعية الرديئة، تعرفون أن الصورة الأصلية جافة ومخرّبة.

تحياتي

سباستيان روشكو

أنا:

يقال إن من يستخدمون غالباً في بدء حديثهم هذه الكلمة , يفكرون على الدوام بأنفسهم , ولكن هذه هي قصتي , ومن ثم - قصة والدي الذي سكنني , وكذلك حكاية "بوني" الذي سكنته في نهاية الأمر. لقدتداخلنا من بعد: هو , وأنا , وأبي , وتلك هي حقيقة ما حدث بسبب عدم وجود خط رفيع أبيض يصل بين الماضي والمستقبل . كل شيء عبارة عن حلقة . أجل أيها الأحبة , هذا هو الوضع!

حلقة:

لا تزال سنوات ما قبل الحرب عالقة في ذهني تماماً كما المَشاهِد من فيلم مُلون، أو مَشاهِد من صور جُمِّلت خلفيتها، حيث يحدق فيها الناس بالعدسة بكل ما أوتوا من قوة , محاولين في الآننفسه تصنّع البساطة. ثمة ضرورة للضوء , الضوء القوي، كي تتمكنوا من رؤية شيء في الصورة , الزوايا المعتمة لا مكان لها هنا , كما لا يمكن التقاطها .

وبذلك تبقى نسخة صغيرة وأنيقة عن الحياة مرفقةبقصيدة صغيرة :

مثل بحر بلا نهاية , بلا نهاية , يا حبيبي ؛ سيبقى قلبك الغالي معي إلى الأبد . مثل بحر هائج هو عشقنا الفتي ؛ مثل طير صغير في عشه , هكذا, أحبك !بينما البحرفي الديكور يفيض ويملأ المسرح بالفقاعات الرومانسية .



دار الحوار



سوريا - اللاذقية - ص. ب
9789933477837